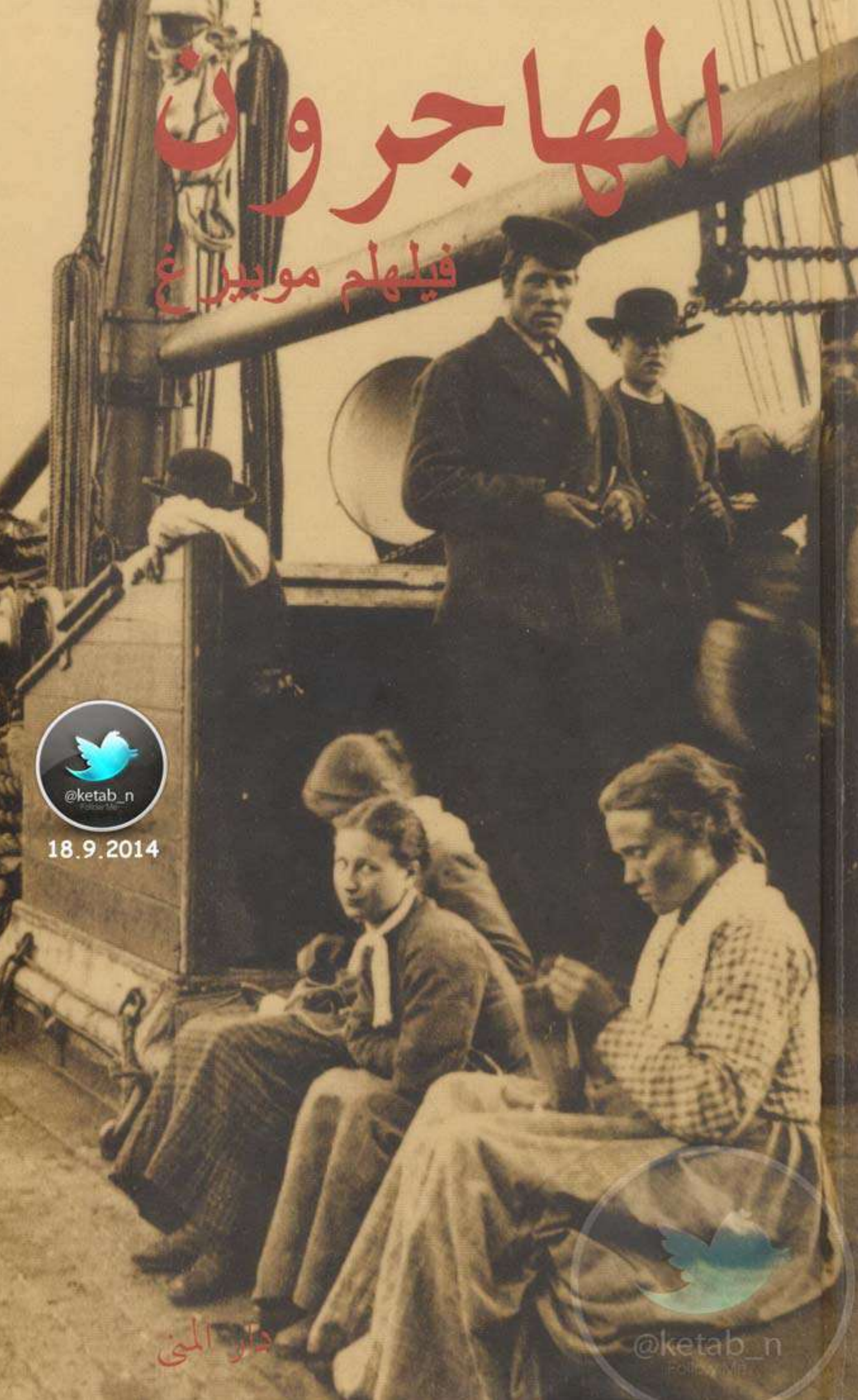


المهاجرون
فيلهلم موبيرغ
@ketab_n
18.9.2014
دار المنى
@ketab_n

فيلهلم موبيرغ

*

المهاجرون

النص العربي: علاء الدين ابو زينة

مراجعة دار المنى

دار المنى

فيلهلم موبيرغ

«صعب المراس، سريع التأثر، ومتقلب المزاج». هكذا وصف الروائي السويدي فيلهلم موبيرغ نفسه ذات مرة. وربما كان ليضيف أنه كان في النصف الأول من القرن العشرين الكاتب الأكثر محطاً للإعجاب، والأكثر محلاً للارتياب وسوء الظنّ في العمق من بين كافة الكُتّاب السويديين في الوقت ذاته. ولأنه رجل من أصول متواضعة، وإنما ينطوي على طموح هائل وآراء قوية، أمضى موبيرغ معظم حياته الأدبية وهو يدافع عن حقوق الناس العاديين. وقد جلب له هذا التوجه، مصحوباً بتقلب مزاجه، احتراماً عميقاً وثابتاً من قرائه من عامة الناس، في حين وضع أمامه الحواجز في أوساط النقاد والساسة والقادة الدينيين المحافظين.

تتسم سيرة موبيرغ الذاتية بالكثير من عناصر حكاية العصامية والانتقال من الفقر إلى الغنى. كان قد ولد في ٢٨ آب (أغسطس) ١٨٩٨ في كوخ عائلة صغير في جنوب سمولاند التي ظلت، تاريخياً، واحدة من أكثر المناطق فقراً في السويد. وكانت المنطقة تعرف منذ وقت طويل باسم «سمولاند المظلمة» بسبب عقيدة سكانها اللوثرية المحافظة ورفضهم القبول بوجهات النظر الدينية الأخرى.

جاء الاختراق الأدبي الذي حققه في العام ١٩٢٧ مع روايته «راسكينز: قصة عائلة جندي». هذه الرواية، التي تدور أحداثها في منطقة سمولاند الريفية، صنعت موبيرغ ككاتب يكتب للناس العاديين وعنهم، وعززت موقعه في مراتب روائيي الطبقة العاملة السويدية المعروفين في العشرينيات والثلاثينيات. هؤلاء الكُتّاب، بمن فيهم جان فريديغارد، إيفار لو-جونسون، وموا مارتينسون، كانوا الأوائل في الأدب السويدي، ممن وصفوا حيوات الطبقات الدنيا من منظور الرجال والنساء الذين كانوا قد ترعرعوا هم أنفسهم في أوساط العمال الفقراء. وقد شكل تصوير موبيرغ للعادات وطرائق الحياة في سمولاند إسهامه الرئيسي بين هذه المجموعة من الكتاب. وكانت الواقعية المحلية في قصصه الأولى هي الأساس لرواياته الأربع العظيمة عن الهجرة السويدية إلى مينسوتا، والتي جعلت شهرته تمتد إلى الدول الأخرى في أوروبا وعبر الأطلسي.

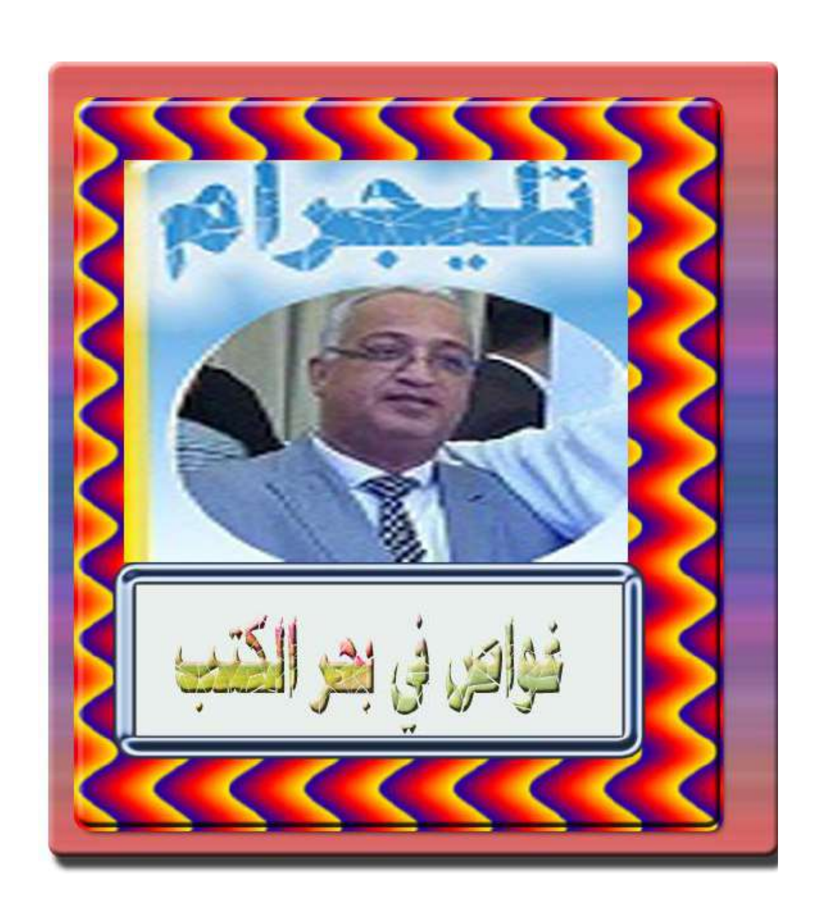
حاز موبيرغ على جائزة نوبل في الأدب.

فيلهلم موبيرغ

•

المهاجرون




تليجرام
غواص في بحر الكتب



www.daralmuna.com

ISBN 978-91-87333-04-0

First published in Swedish 1949

Translation sponsored by The Swedish Art Council

Printed in Sweden

هذه حكاية جماعة من الناس الذين غادروا ديارهم في أبرشية ليودر، مقاطعة سمولاند، السويد، وهاجروا إلى أميركا الشمالية في العام ١٨٥٠.

كان هؤلاء هم الأوائل الذين غادروا قريتهم، بين كثيرين. جاؤوا من أرض الأكواخ الصغيرة والعائلات الكبيرة. كانوا أهل تراب وزراعة، انحدروا من سلالة فلحت أربعة آلاف سنة هذه الأرض التي يغادرونها الآن. ثمّةَ أجيالٌ أعقبت أجيالاً، وأبناء خلَفوا آباءهم على السكة والمحراث، وبنات أخذن أماكن أمهاتهن لتدوير الدولاب والنول. وخلال الأطوار المتغيرة والحظوظ المتحوِّلة، بقيت المزرعة بيت العائلة، وواهبة قوت الحياة. من حقل الجاوادار يأتي الخبز، ومن الماشية يأتي اللحم. الملابس والأحذية تُصنع من جلد الأغنام، والكتّان من الأرض، والجلود من الحيوانات. كل الأشياء الضرورية كانت تُؤخَذ من الأرض. وعاشَ النّاس تحت رحمة طقس الربِّ الذي يجلب عليهم سنينَ سمينةً وأخرى عجفاء. لكنهم لم يعتمدوا سواه على أي قوة أخرى تحت الشمس. كانت المزرعة عالماً في ذاتها، لا تدين لأحد بفضل. وقد عشّشت فيها الأكواخ الخفيضة الرمادية، المبنية بالخشب لتدوم عقوداً. وتحت السقوف المصنوعة من اللحاء والقشّ، عاش الناس حيواتهم من المهد إلى اللحد. كانت الزيجات تُعقد، وتُقام طقوس التعميد وجعَةُ الشفيع تُحتَسى، والحياة تُضاء وتُطفأ في داخل هذه الجدران الأربعة ذاتها، المُقامة من أجذال الصنوبر المنحوتة الخشنة. ومن أحداث الحياة الكبيرة، كان القليل يَحدُث، عدا تغيُّر الفُصول. وفي الحقول، ظلّت الغصون تخضرُّ في الربيع، وبقايا الزرع المحصود تصفرُّ في الخريف. هنا، كانت الحياة تَمضي بهدوء، فيما تكمل سنوات المُزارع المقدَّرة له دورَتها.

هكذا كان الأمر، عبر السنين، عبر الأجيال، وعبر القرون.

ومع ذلك، قرب منتصف القرن التاسع عشر، اهتز نظام الثبات هذا من قاع أُسُسه ذاتها. وأصبحت قوى مكتشفة حديثاً قيد الاستعمال: تحرَّكت العربات بلا خيول، والسفن بلا أشرعة، وأصبحت الأجزاء القصيّة من الكوكب أقرب. وللجيل الجديد المتعلِّم القادر على القراءة، جاءت الحروف المطبوعة بحكايات عن أرض بعيدة، أرض نجمت من سديم الملاحم، مُكتسيَةً بعناصر الواقع الواضحة والمُغوية.

كانت الأرض الجديدة تراباً بلا فلاحين، ينادي فلاحين بلا تراب. فرَدَتْ ذراعيها داعية أولئك الذين يتوقون إلى الحرية التي حُرموا منها في الوطن. وخفقت رغبة الهجرة في قُلوب مَن لا أرض لهم؛ في صدور المثقَلين بالدُّيون؛ في عقول المضطهدين والساخطين. وثمة آخرون، لَم يروا سراب امتياز خاص أو ثروة في الأرض الجديدة، لكنهم أرادوا الهروب من التشابكات والمعضلات المُقيمَة في البلد القديم. وهاجروا، لا إلى شيء، وإنما من شيء. وكم كانت كثيرة، وبالغة الاختلاف، إجابات السؤال: لماذا؟

من كل مجتمع، ثمة بعض الرجال والنساء الذين أجابوا النداء واجترأوا على ذلك الانتقال العاطِل من اليقين إلى القارة الجديدة. المغامرون اتخذوا القرار، والجسورون كانوا الأوائل الذين ارتادوا الطريق. كان الشجعان هم الأوائل الذين قاموا بالرحلة المضنية الوعرة عبر المحيط العظيم. الساخطون، شأنهم شأن المشاكسين الذين لم يستطيعوا التصالح مع حصتهم في الوطن، كانوا هم المهاجرين من مجتمعاتهم في الوطن. أما أولئك الذين بقَوا –من غير المكترثين وفقراء المُخيِّلة — فوصفوا المهاجرين بالمتهورين.

كان المهاجرون الأوائل يعرفون القليل عن البلد الذي ينتظرهم، ولم يكونوا ليعرفوا أن أكثر من مليون إنسان سوف يتبعونهم من الوطن. لم يكونوا ليستشرفوا أنه، بعد مائة سنة من ذلك الوقت، سوف يأتي ربع شعبهم ليقطن في البلد الجديد؛ أنّ ذريتهم سيفلحون قسطاً من الأرض أكبر من كل مساحة الأرض الصالحة للزراعة في السويد آنذاك. لم يكن بوسعهم تخمين أن نتيجة هذا المشروع ستكون أرضاً مفلوحة أكبر من مساحة بلدهم كله. هذا المشروع الجريء، المُستكشِف، الذي قابله بالتقريع والتسخيف أولئك الذين ظلوا في الوطن، بدأ مغلّفاً بغلالة من عدم اليقين، ومتخذاً مَظهرَ التهوُّر.

أولئك الرجال والنساء، الذين يحكي هذا الكتاب قصتهم، توقفوا عن العيش وغادروا الحياة منذ وقت طويل. وما يَزالُ بالوسع قراءة بعضٍ من أسمائهم على شواهد القبور المتداعية، المنتصبة على بعد آلاف الأميال من مساقط رؤوسهم.

أما في الوطن، فأسماؤهم منسية ومغامراتهم ستنتمي قريباً إلى مملكة الملاحم والأساطير.

البلد الذي غادروه

الأبرشية:

تبلغ مساحة أبرشية ليودر في مقاطعة كونغا اثني عشر ميلاً طولاً وثلاثة أميال عرضاً. التربة فيها سمراء وخصبة، يتخللها الطين الرملي. ولا تضم سوى موضعين صغيرين للماء – جدولين وأربع بِرَك. وظلت تكسوها غابات الصنوبر الكثيفة حتى مائة عام مضت، وامتدّت الغيضات والأدغال على مناطق عريضة، التي أصبحت تستخدم الآن مراعي للماشية.

في الأول من كانون الثاني، ١٨٤٦، كان يقطن أبرشية ليودر ١,٩٢٥ شخصاً: ٩٩٨ من الذكور، و٩٢٧ من الإناث. وخلال القرن الذي تلا العام ١٧٥٠، تضاعف عدد السكان ثلاث مرات تقريباً. وزاد عدد الناس الذين لم يخضعوا للإحصاء – كبار السن المتقاعدون؛ سكان الأكواخ؛ ملاّك الأرض بوضع اليد؛ الخدم؛ المعتمدون على الأبرشية، والناس الذين بلا منازل دائمة– زاد عدد هؤلاء خلال نفس الفترة بمقدار خمسة أضعاف.

كيف كان الناس يكسبون خبزهم؟:

وفقاً لروايات الكتب، كانت أبرشية ليودر تتكون أصلاً من ٤٣ عزبة كاملة، التي قسمت في العام ١٧٥٠ بين ٨٧ من المالكين. ومن خلال مزيد من تقسيم المُلكية في حالات الوفاة، زاد عدد المزارع المستقلة بحلول العام ١٨٤٦ إلى ٢٥٤، شكّل ثلثاها ثُمْنَ مساحة العزبة الأصلية، أو أصغر. وتضم أربع مزارع الآن أكثر من عزبة: الممتلكات الحرة لكل من كروكشي، وغوساما لا، ومنزل قسيس ليودر، ومنزل الشريف في أليباك.

كانت سبل العيش قبل مائة عام بشكل رئيسي هي الزراعة وتربية الماشية، والحرف اليدوية بدرجة أقل. ومن ضمن الزراعة، تخمير وتقطير مشروب

«البرانفين»؛ كان سعر القمح منخفضاً جداً إلى حد اضطرار الفلاحين إلى تقطير منتجاتهم حتى تكون الزراعة مربحة. وفي أربعينيات القرن التاسع عشر، وصل عدد معامل التقطير في الأبرشية حوالي ٣٥٠. وكان لكل واحد من ستة أشخاص معمل تقطير لإنتاج المشروب. وقد تحدَّد حجم التقطير في القانون وفقاً لحجم المزرعة؛ فإذا سُمح لكل نصف عزبة بتقطير ثلاثين غالوناً، يكون نصيب ربع عزبة تقطير خمسة عشر غالوناً فقط. وكانت أكبر مخمرة هي التي في أملاك كروكشي، تليها في الحجم تلك التي في إقطاعية القسيس، الثانية من حيث المساحة. وكانت كل معامل التقطير تبيع جزءاً من منتجاتها من أجل كسب العيش. ومع ذلك، وعندما أصبح باستور إينوك بروساندر عمدة للأبرشية في العام ١٨٣٣، أمر بأن لا يتم بيع أو تقديم أي برانفين في عزبة القسيس في أيام الأحد، سوى لأفراد الأسرة أو العاملين في المكان. وفي اجتماع للأبرشية في العام ١٨٤٥، تقرر أيضاً أن لا يُباع أي مشروب خلال فترة خدمة الكنيسة في مسافة لا تقل عن ستمائة ياردة من بيت الربّ. كما تقرر أيضاً أن على أيّ فرد من الأبرشية يعطي المشروب لطفل لم يتناول القربان المقدس بعد، أن يدفع غرامة بمقدار دولار سويدي لمحفظة الفقراء (في عملة اليوم، كرونا واحدة وخمسين أوراً، أو ما يقارب عشرين سنتاً). كما نبّه الاجتماع نفسه الآباء إلى عدم السماح للأولاد بممارسة عادة الشرب «قطرة قطرة». وفقط في تلك الحالات التي يكشف فيها الأولاد عن «ميل مفرط للشرب» ينبغي السماح لهم «بالاستمتاع بالمشروب بكميات قليلة جداً، فقد يمرضون، ويفقدون عندها شهيتهم لشرب البرانفين».

الذين حكموا الأبرشية:

كان أكثر الرجال أهمية في ليودر خلال أربعينيات القرن التاسع عشر هو العمدة، إينوك بروساندر، الذي كان –باعتباره قسيساً– يمثل الله القدير، ملكاً في السماء وعلى الأرض؛ يليه في النفوذ الشريف، ألسكندر لونيغرين في أليباك، الذي نال منصبه بتكليف من «التاج»، ليمثل صاحب الجلالة الدنيوية، أوسكار الأول، ملك السويد والنرويج. أما الرجل الأول في الأبرشية، من حيث الولادة والغنى، فكان للملازم السير باول روديبورغ، مالك عزبة كروكشي. وكان هو

وزوجته الناس الوحيدين المنحدرين من عائلة نبيلة، ويتمتعان بما لهذا النّسب من حقوق. وقد مثّل الأبرشية في مجلس المقاطعة بير بيرسون في أكيربي، شمّاس الكنيسة وصاحب مخزن، الذي كان -إلى جانب الملازم روديبورغ، أغنى رجل في المنطقة.

حكم هؤلاء الرجال الأبرشية، محتفظين بالمناصب الروحية والدنيوية، وفقاً لسفر الروم ١٣، الآيات من واحد إلى ثلاثة: «... لأنها ليست هناك قوة سوى قوة الربّ...».

الآخرون الذين عاشوا في الأبرشية:

بالإضافة إلى الفلاحين وقاطني الأكواخ البالغ عددهم ٢٥٤ شخصاً ممن كانوا يمتلكون الأرض المقوّمة ويعيشون عليها، كان هناك ٣٩ شخصاً مسجلين كمساعدين ومتدربين؛ ٩٢ من مالكي الأرض بوضع اليد، ١١ جندياً مسجلاً، ٦ من أصحاب النُزل، ٥ من تجار الخيول، ٣ من الباعة المتجولين من منزل إلى منزل. وكان هناك أيضاً ٢٧٤ من خَدم المزارع، ٣٢ من الرجال والنساء المقيمين في ملاجئ الفقراء، ١٠٤ من «الفقراء العاديين»، ١٨ من المرضى والمقعدين، ١١ من الصم والبكم، ٨ أكفّاء، ٦ شبه أكفّاء، ١٣ من شبه العرجان، ٤ عرجان، ٥ شبه حمقى، ٣ حمقى، ١ نصف أحمق، ٣ عاهرات ولصان. وعلى الصفحة الأخيرة من كتاب الكنيسة، تحت عنوان «نهاية الأبرشية»، تم تسجيل ٢٧ شخصاً ممن كانوا قد رحلوا ولم يسمع عنهم أحد بعد ذلك.

الفقراء، «الفقراء العاديون»، والآخرون من المسنّين والمرضى وغير القادرين، كانوا قد قُسموا إلى ثلاث مجموعات وجرت العناية بهم وفق تعليمات محددة أقرها مجلس الأبرشية. وضمت المجموعة الأولى المسنين والمُقعدين الذين كانوا فاقدي الأهلية تماماً. وقد تلقى هؤلاء مساعدة فقراء من الطبقة الأولى، أو «إعاشة كاملة»، والتي ربما تصل إلى ما يساوي ثلاثة دولارات سويدية نقداً كل عام -حوالي ٨٧ سنتاً- إضافة إلى أربعة مكاييل من الشعير.

في المجموعة الثانية، كان أولئك المعاقون جزئياً فقط، الذين يستطيعون كسب رزقهم لأنفسهم ولأولادهم إلى حد ما. وتمت مساعدة هؤلاء بمقادير من النقود تتراوح ما بين ١٢ شلناً ودولاراً سويدياً واحداً في العام – من ستة إلى

عشرين سنتاً- ومكيالين من الشعير في الحد الأقصى.

وضمت المجموعة الثالثة أناساً كانوا يحتاجون المساعدة بشكل مؤقت فحسب. وكان هؤلاء يتلقون صدقات من صندوق خاص معروف باسم «محفظة فقراء أبرشية ليودر»، تحت إشراف مجلس الأبرشية. وضمّت هذه المجموعة أيضاً «المبذرين والكسالى الذين تسببوا بإفقار أنفسهم». وهؤلاء، وفق قرار المجلس «ينبغي تذكرهم بأقل قدر من المساعدة من محفظة الفقراء، حتى يتمكنوا من التعوُّد على الرصانة والاعتدال وحسن التدبير».

وكان مجلس الأبرشية يقيم مزاداً علنياً لأجل الأيتام المعوزين بُغية العثور لهم على «بيوت مناسبة وفق أفضل عرض». ولهؤلاء من «أولاد الأبرشية» و«بنات الأبرشية»، سعى المجلس للعثور على منازل ترعاهم بالتبنّي، حيث يتلقى الأولاد «عناية أبوية وإرشاداً مناسباً في شؤون العادات القويمة والعمل».

باختصار، كانت الظروف مشابهة للأبرشيات الأخرى في السويد في ذلك الوقت.

العناية الروحية بالسكان:

كان الناس يعتنقون العقيدة الإنجيلية-اللوثرية الصرفة وفقاً لقانون الكنيسة لعام ١٦٨٦، وكان يحميهم من الأفكار المهرطقة والخطرة الجديدة، أمر «القانون والنظام» الملكي الذي صدر في ١٢ كانون الثاني (يناير) ١٧٢٦، و«يهدف هذا القانون الشامل إلى تحقيق نظام رشيد في الأبرشية، والوحدة المسيحية في التعليم».

وفي قانون الكنيسة، تم تنبيه رجال الدين إلى «الحرص على أن يتعلم الأولاد ويقرأوا، حتى يستطيعوا أن يروا بأم أعينهم قوانين الربِّ المقدسة وأوامره». وهذا التوجيه حول التعليم، الموصى به فقط من أجل خلاص الروح، كان يديره معلمو المدارس أو الآباء والأمهات. وفي كل خريف، كان القسّ يقيم امتحاناً في تعاليم الدين وفقاً لتعاليم لوثر. وكان كافة أبناء الأبرشية غير المتزوجين يختبرون هذه المرة وفقاً لقدراتهم في القراءة، ويدفعون غرامة في حال تخلفوا عن الحضور.

في العام ١٨٣٦ أقحمت الأبرشية مدرّسها الخاص، رينالدو، وهو جندي خيالة مسجل، فقد إحدى عينيه، وسُمح له بترك الخدمة العسكرية. وكان المدرس يتلقى أجراً سنوياً قدره ١٢ مكيالاً من الجوادار، وشلناً واحداً (نصف سنت) يوميّاً عن كل صبيٍّ يدرسه. وقد أعطاه الآباء إلى جانب ذلك مسكناً وحطباً للموقد. وكان رينالدو يتجول من أقصى الأبرشية إلى أقصاها، ويُقيم مدرسته في منازل الآباء الذين سمح له كل منهم باستخدام غرفة إضافية ما، أو عِليَّة لهذا الغرض. أمّا طول الفترة التي يقضيها في كل منزل، فيقرره المعلم. أما غايته، فأن يعلم كل ولد أن يقرأ جيداً بما يكفي ليحفظ كتاب تعاليم لوثر الصغير عن ظهر قلب، لكنه غامر في بعض الأحيان بإقحام بعض المواضيع الدنيوية غير المفيدة، مثل الحساب، والكتابة، والتاريخ السويدي، والجغرافيا. وقد استطاع معظم الرجال والنساء أن يقرأوا بشكل جيد؛ وكان بوسع البعض أن يوقعوا أسماءهم؛ لكنّ القليلين كانوا يستطيعون كتابة أكثر من ذلك، وقلة قليلة جداً من النساء استطعن أن يكتبن من الأساس؛ إذ لم يستطع أحد تحديد أي فائدة يمكن أن تستفيدها النساء من الكتابة.

الطوائف الدينيَّة:

بدأت ما تدعى طائفة «الهرطقة الآكية» في أبرشية إلميبودا المجاورة في العام ١٧٨٠ تقريباً، وسرعان ما امتدت هذه الطائفة إلى ليودر أيضاً. وقد دُعي أتباع هذه الطائفة «آكيين» نسبة للمؤسس، آكي سفينسون من أوسترغوهل، إلميبودا. وقد حاولوا نسخ الكنيسة المسيحية المبكرة والعودة إلى طُرق الحَواريّين والرُواد الأوائل. وانفصل الآكيّون عن كنيسة الدولة ولم يعترفوا، لا بالقوى الدنيوية ولا الروحية لمجتمعهم. وبالنسبة إليهم، كانت كافة الفروق بين الناس، على أساس الطبقة أو الأملاك، مناقضة لكلمة الربّ. وهكذا، وفي داخل طائفتهم الخاصة، عاشوا حياة اشتراكية تماماً، ولم يصف أي منهم أي شيء بأنه مُلكَه. وكانوا يقيمون طقوس عباداتهم الخاصة وقربانهم المقدس الخاص.

انضمّ حوالي أربعين شخصاً في أبرشيتَيْ إليمبودا وليودر إلى الطائفة الجديدة، معظمهم ينتمون إلى عائلة آكي سفينسون، التي كانت موزعة بين الأبرشيتين. أما مقر الطائفة في ليودر، فهو عزبة كاراغاردي، التي يمتلكها

صهر آكي: أندرياس مانسون.

وسرعان ما أصبح الآكيون يُستدعون للاستنطاق في أسقفية فاكسيو، وتُوجّه إليهم تحذيرات قوية، لكنهم ظلّوا متصلّبين، وقابلوا شخصيات الكنيسة بكلمات غير مواتية. ثم أعلنت الكنيسة حظر الطائفة، لكن الآكيين احتفظوا بمعتقداتهم. وعندئذ، تمّت مقاضاتهم في الكنيسة المدنية وجلبهم إلى محكمة مقاطعة كونغا في إنجلستاد، حيث نبهتهم المحكمة إلى ضرورة الانصياع للقانون واتباع تعاليم الكنيسة المكرّسة. لكنه لم يكن بالوسع إقناع آكي سفينسون وأتباعه بالتخلي عن أفكارهم المهرطقة؛ ورفضوا العودة إلى حظيرة الكنيسة الوحيدة الصحيحة.

ومن أجل الحفاظ على السلام الكنَسي والأمن المدني، قامت محكمة غوتا الملكية بالنظر في القضية، ووجدت هذه المحكمة أن أفراد الطائفة «أصيبوا بالجنون بالمطلق، بعد أن فقدوا استخدام عقولهم السليمة، واعتقدت بوجوب وضعهم في ملجأ المجانين، من أجل الحفاظ على السلم، ومن أجل رفاه المنشقّين. ووجهت الأوامر لآكي سفينسون وسبعة آخرين من كبار السن في الطائفة «الذين كشفوا عن جنونهم في عدة مناسبات» بالرحيل إلى ملجأ دانفيك في ستوكهولم، «ليتلقوا هناك العناية التي تتطلبُها حالتهم.»

وتم تسليم رجال الطائفة الثمانية الذين صدر بحقهم أمر المحكمة إلى الشريف. وفي العام ١٧٦٨، تمّ نقلهم إلى ملجأ دانفيك في ستوكهولم. ومات آكي سفينسون، وأندرياس مانسون، واثنان آخران في غضون سنتين، بعد أن نالوا «العناية التي تتطلبها حالتهم». وكان عمر سفينسون عند وفاته خمسة وثلاثين عاماً.

ثم تمّ تحرير المنشقين الآخرين بالتدريج وأعيدوا إلى بيوتهم بعد شفائهم، حيث عاش الذين كانوا رفاقاً في الملجأ ذات مرة في هدوء وانسجام، وبدا الأمر لعدة سنوات وكأن جذوة العقيدة الآكية قد انطفأت مرة وإلى الأبد، لكن هذه الهرطقة الخطيرة عاودت الظهور مرة أخرى في أبرشية ليودر في أربعينيات القرن التاسع عشر. أما الملابسات، مع ذلك، فتعود إلى القصة.

عن بروتوكول محكمة جوتا في ١٢ ديسمبر ١٧٨٥.

الجزء الأول

بوابات في الطريق إلى أميركا


Twitter: @ketab_n

الملك في مملكته الحجرية

١

ميوداهولت، هي واحدة من أكثر مزارع ليودر قِدَماً، وقد ورد اسمها في أحد سجِلات البلاط قبل مئتي عام من اكتشاف أميركا.

وقد كدحت عائلة نيلسا وعاشت في هذه المزرعة منذ زمن ضارب في القدم، منذ بداية حفظ السجلات والقيود الورقية، وبالقدر الذي تستطيع ذاكرة الأجيال تعقبه والوصول إليه. أول مالك معروف لها، هو نيلس ميوداهولت الذي أعطى العائلة اسمه. وعُرِفَ عن نيلس ميوداهولت أن له أنفاً كبيراً غرائبياً، قيل إنه يشبه رأس الملفوف السويدي. وقد ورث أنسالُه هذا الأنف، وظلّ يمتلكه شخص ما في كل جيل من العائلة، وأصبح علامة مميزة لعائلة نيلسا. وساد اعتقاد أن هذا الأنف المعروف باسم «أنف نيلسا»، قد وُهب، بالولادة، نفس القوى السحرية التي لقلنسوة الراهب، وأنه يجلب الحظ على صاحبه. وأصبح الأطفال المولودون بأنف نيلسا هم الأفراد الأوفر حظاً والأكثر نجاحاً في العائلة، بل انه اعتُبر —بطريقة ما— علامة جمال في المرأة، ولم يُعرَف عنه أنه شكّل عقبة أمام تأمين زيجات مميزة للفتيات.

يقول كتاب التقديرات أن إقطاعية ميوداهولت التي يمتلكها نيلس هذه كانت ما تزال مزرعة واحدة في القرن الثامن عشر. ثم قُسِّمت المزرعة لاحقاً عدة مرات، آخرها عام ١٨١٩، عندما ورث الأخوان، أولوف ونيلس، حصتين متساويتين. وتسجل القيود أربع أخوة آخرين وثلاث أخوات. وبحلول ذلك الوقت، أصبحت مساحة كل واحدة من المزارع الجديدة تُعادل جزءاً من ستة عشر من حجمها الأصلي. وقد حصل نيلس، الشقيق الأصغر، على قطعته المقسومة: ثلاثة أفدنة صالحة للزراعة على الأطراف، حيث بنى بيتاً

وسط أشجار الصنوبر الكثيفة. وسُجلت المزرعة الجديدة على النحو التالي: «كورباموين التي تساوي واحد على ستة عشر بتقييم التاج من مساحة المزرعة الأم ميوداهولت».

كان نيلس ابن يعقوب قصير القامة —طوله خمس أقدام فقط— ولَم يكن قد وُهِب أنف نيلسا. لكنه كان مع ذلك رجلاً قديراً، قويّ الذراعين ومُثابراً؛ ولم تكن يداه ترتاحان طوعاً إذا كان هناك ما يمكن عمله. وكانت زوجته، مارتا، امرأة قوية جليلة المظهر، تفوق زوجها طولاً بمقدار رأس، لا أقل.

في البداية، لم تكن كورباموين أكثر من مسكن لفلاح، لكن نيلس طور إرثه إلى مزرعة. كانت التربة رملية، تتناثر فيها الحجارة. وبدا الأمر وكأن الدنيا أمطرت حجارة من السماء هنا كلّ كامل أيام الخلق الستة. لكن نيلس نبش كل رقعة تراب تُمكن فلاحتُها، وهاجم الحجارة بقضيب حديدي وعتلة صنعها من سارية طويلة ثبّت في نهايتها الدقيقة حذوة حصان. لكنّ أفضل أدواته مع ذلك، كانت يداه؛ فبهما كان يتعقب الحجارة في ثقوبها العميقة، ويصارعها، ويغلبها، ثم يدحرجها إلى البعيد. وعندما يواجه نيلس حجراً لا يستطيع معالجته بأدواته ويديه، كان ينادي زوجته. ولم تكن مارتا تقل قوة عن زوجها؛ كانت تتعلق فوق طرف النهاية الصغيرة بينما يُعمِل نيلس مقلعته في الحجر العنيد.

كان ذلك صراعاً صامتاً بين نيلس والحجارة؛ قتالاً ضارياً بين كتلة جامدة وبين عضلات حيّة وبأس رجل مثابر صبور.

وقد استمر هذا الصراع طوال كلّ سِنيْ عمل نيلس بالزراعة. في كل سنة، كان يفلح ربع فدّان جديد، حتى أصبحت في كورباموين في نهاية المطاف أكوام من الحجارة أكثر من أي مزرعة أخرى في الأبرشية. وعندما يقلب نيلس أرضه، كان يدور بالمحراث حول أكوام الحجارة؛ ويقول إنه يصاب بالدوار من كثرة الرقص الدائري حول أكوام الحجارة في حقله.

وكان نيلس ابن يعقوب ماهراً أيضاً في أعمال الخشب، واشتغل أحياناً بنّاءً في الجوار. وبنى بيته بيديه. وقد شرع بمرافقة البنّائين عندما كان صغيراً. وقبل أن يصل سن البلوغ، أصبح بوسعه أن يفصّل عوارض الزاوية لمنزل، وهي أصعب جزءٍ في مهنة النجارة. وكان أيضاً بنّاء أكواخ، وحداداً. وطوال فصول الشتاء، كان يقف إلى طاولة المشغل ويصنع كل أنواع أدوات الزراعة.

عندما انتقل إلى كورباموين، اضطر نيلس إلى رهن المزرعة حتى يستطيع إخوته وأخوالته الحصول على حصتهم من الميراث نقداً؛ ولذلك، تطلب دفع الفائدة السنوية على قرضه أن يعمل بناءً ونجاراً.

وأثمر زواج نيلس ومارتا ثلاثة أبناء: ابنان، هما كارل أوسكار وروبرت؛ وابنة واحدة، ليديا. وأسقطت مارتا حملها مرتين؛ إحداهما في نفس اليوم الذي كانت فيه في الحقل تساعد زوجها في استخراج صخرة.

كان كارل يوهان، الملك الجديد للسويد والنرويج، تولى العرش قبل سنة واحدة فقط من زواج نيلس ومارتا؛ وأسميا ابنهما الوليد على اسمه؛ وأخذا الاسم الثاني للوليد من ولي العهد الجديد، أوسكار. وكان الناس يظنون أن تسمية أبنائهم على أسماء ذوي الشأن وأصحاب المراتب العليا تجلب الحظ —الملوك، الأمراء، الملكات، الأميرات؛ وكان يستطيع حتى أكثر المزارعين فقراً أن يتخذ لنسله أسماء ملكية.

وقد ولد الابن الأول، كارل أوسكار، بذلك الأنف الكبير المحظوظ لعائلة نيلسا أيضاً.

وكبُر كارل أوسكار قوي الأطراف والجسد. وسرعان ما شرع في مساعدة والده في البناء واقتلاع الحجارة. لكن الفتى كشف مبكراً عن عقل خاص به وحده؛ في العمل، لم يكن يفعل ما يقوله له أبوه، وإنما يعمل بطريقته الخاصة، حتى ولو أنه يأكل من خبز أبويه. ولم يستطع أي عقاب أن يحسن سلوك الولد العنيد؛ وكثيراً ما ثارت ثائرة نيلس وضاق ذرعاً بطرائق ابنه المستقلة.

ذات يوم، عندما كان كارل أوسكار في الرابعة عشرة، طلب إليه أبوه صنع قواعد خشبية لتوضع عليها حزم التبن؛ وكان ينبغي أن يكون طولها خمسة أقدام؛ لكن كارل أوسكار ظن أن الحزم ستكون منخفضة جداً على هذه القوالب الصغيرة؛ فصنعها بطول ستة أقدام.

وقاس نيلس القوالب، وقال: «افعل كما أقول لك، أو اذهب!»

وقف كارل أوسكار صامتاً بُرهةً، ثم أجاب بغطرسة: «سوف أذهب.»

وفي نفس اليوم، أجّر نفسه عامل مزرعة لرجل في آيديمو، حيث بقي سبع سنوات.

وحسب كلامه هو نفسه، ندم نيلس على ذلك؛ فقد كان ابنه يشكل مساعدة

كبيرة له. لكنه لم يستطع أن يتراجع: لم يكن ينبغي لطفل لم يتلق عشاءه الرباني بعد أن يحكم أباه في العمل. ومع ذلك، وبشكل عام، مضى كل شيء على ما يُرام بالنسبة لنيلس ومارتا في كورباموين لما يقارب خمساً وعشرين سنة.

ثم، ذات يوم في بواكير ربيع العام ١٨٤٤، كان نيلس بن يعقوب يعمل وحيداً في بقعة بعيدة، يعالج أرضاً جديدة. وهناك واجه حجراً كبيراً تسبّب له بعناء كبير. ومع أنه أصغر من حجارة كثيرة أخرى كان قد أزالها وحده، إلا أنه انغرس عميقاً في الأرض، وكان مستديراً مثل كوكب، حتى لم تستطع العتلة ولا المقلعة إحكام القبض عليه. واستخدم نيلس كل حيله، وسرعان ما أصبح الحجر نصف مقتلع. والآن، وضع العتلة تحته مثل وتد، وأراد أن ينتزعه بيديه؛ لكنه ما إن انحنى ليتمسك جيداً من أجل المعركة الأخيرة، حتى انزلقت الأرض من تحت قدمه وسقط على وجهه. وخلال سقوطه، أزاح العتلة الحديدية التي تمسك بالحجر، فعاد الحجر متدحرجاً إلى حفرته —ماراً فوق إحدى فخذيه.

وظلّ نيلس ممدداً حيث سقط. وعندما لم يعد إلى المنزل ليتناول طعامه، خرجت مارتا للبحث عنه، ووجدت زوجها مستلقياً في الحفرة إلى جانب الحجر، فرفعته إلى ظهرها وحملته إلى المنزل. وأرسلوا في طلب بيرتا من آيديمو —المرأة التي يلتمس الناس مُساعدتها لشفاء الجروح والآلام، وقالت له إن عظمة حوضه انكسرت، والمفصل أصيب.

بقي نيلس مطروحاً في السرير عدة أشهر، بينما تعالجه بيرتا بتركيباتها من الأعشاب والمراهم. وقد شفيت العظمة، واستطاع أن يقف ثانية على قدميه، لكن بعض الأذى لحق بالمفصل وبقي غير قابل للشفاء؛ ولم يستطع نيلس أن يتحرك من دون عكازات؛ ومن الآن فصاعداً، أصبح يستطيع القيام بأعماله بيديه فقط، وهو جالس.

أصبح نيلس بن يعقوب عاجزاً، ووصلت حياته المهنية، كمزارع، إلى نهايتها. وكان قد عارك الحجارة طوال خمسة وعشرين عاماً، قبل أن تنتصر عليه في المعركة الأخيرة.

لكن كورباموين لم تعد مجرد مسكن مزارع. وينبئ حجم كومة الروث فيها عن حجم المزرعة: لم تكن تلك مجرد تلة روث صغيرة خارج حظائر

الإسطبلات في كورباموين. أصبحت مساحة المزرعة الآن سبعة فدادين قابلة للزراعة؛ وأصبح بوسعها أن تطعم سبعة رؤوس من الماشية طوال الصيف والشتاء. وقد استطاع نيلس ومارتا أن يزيدا إلى أكثر من الضعف سعة الأرض التي امتلكاها أول الأمر قبل خمسة وعشرين عاماً. والآن، ترتّب عليهما أن يتخليا عنها.

كانت المزرعة أصغر كثيراً من أن يتم تقسيمها؛ لم يكن بالوسع إعادة تقسيم هذا الجزء الواحد من أصل ستة عشر. ولم يرد نيلس أن يبيعها لغريب؛ ينبغي أن يحصد أحد أبنائه ريع السنوات الطويلة التي قضاها في تنظيف الأرض. وكان كارل أوسكار ما يزال يخدم في آيديمو، ووصل بالكاد سنّ البلوغ. أما روبرت، ابنهما الثاني، فكان في السابعة فقط؛ وكانت الابنة، ليديا، في الرابعة عشرة. كان حتى الابن الأكبر أصغر من أن يصبح سيد نفسه، لكن نيلس عرض كوربلموين عليه مع ذلك. وقد أصبح الأب بحلول هذا الوقت أكثر احتراماً للفتى العنيد الذي كان قد غادر المنزل وهو في الرابعة عشرة لأنه لم يستطع أن يتصرف على هوى أبيه بشأن بضع رضّات من القش.

بعد سبع سنوات من خدمته كعامل مزرعة، سئم كارل أوسكار العمل عند الآخرين، وفضل أن يكون سيد مزرعة هو نفسه؛ وكان مستعداً لأن يشتري.

«إذا أصبحت مزارعاً، فسوف تحتاج إلى امرأة.»

«سوف أعثر على واحدة،» قال أوسكار واثقاً.

«متبجّح.»

وبعد بضعة أيام، مع ذلك، أعلن كارل أوسكار أن زواجه سيُعقد في الكنيسة يوم الأحد التالي. وقد اندهش الوالدان بحيث لم ينطقا بكلمة واحدة: حتى لن الابن رتّب زواجه بدون نصيحتهما! وفي الواقع، كانت لدى الفتى إرادته الخاصة، لكنهما شعرا بالقلق أيضاً؛ في المدى البعيد، سوف ينجح مثل هذا الفتى العنيد بصعوبة وعناء فحسب.

٢

في يوم خريفي قبل بضع سنوات، كان أوسكار قد جلب حملاً من خشب الوقود من مزرعة سيدته بيرتا، المرأة العارفة بشفاء الأمراض من آيديمو.

وعرضت عليه بيرتا أن يشرب شيئاً في المطبخ. وهناك، جلست فتاة صغيرة غير معروفة لديه، وهي تعمل في الغزل. كان لها شعر كثيف فاتح الصفرة، وزوج من العيون المحيِّرة —خضراء، زرقاء، أو ربما كلاهما. وقد سره منظر وجهها ببشرته الوردية الناعمة، حتى مع النمش القليل على أنفها. وجلست الفتاة بهدوء إلى دولاب الغزل بينما كان كارل أوسكار في المطبخ، ولم يتحدث أيّ منهما. لكنه بينما يستعد للمغادرة، عاد إليها وقال:

«اسمي كارل أوسكار.»

«اسمي كريستينا،» أجابته.

ثم جلست صامتة، وعادت إلى غزلها كما كانت تفعل. لكنها قالت له اسمها، هي التي سوف تصبح زوجته.

كانت كريستينا ابنة مزارع من دوفيمالا، في أبرشية ألفتسبودا، ولم تكن قد جاوزت السابعة عشرة فقط عندما التقيا أول مرة. لكن جسدها كان مكتملاً تماماً بأولى علامات البلوغ؛ وكشفت شفتاها عن منحنيات جميلة الاستدارة، وقد انحشر نهداها العذراوان في كنزتها التي صغر مقاسها عليها منذ زمن طويل. لكنها في عقلها، كانت طفلة مع ذلك. كانت تحب ركوب الأرجوحة. وقبل بضعة أسابيع من مقابلتها أوسكار، كانت قد أخذت حزام الثور، ونصبته أرجوحة في الحظيرة في دوفيمالا. لكنها سقطت عن الأرجوحة أثناء اللعب وكسرت رضفة عظم ركبتها. ولم يتلق الجرح العناية اللازمة، فأصيب بالغنغرينا. وعندئذ أرسل والداها في طلب بيرتا من آيديمو، المعروفة في عدة أبرشيات بقدراتها العلاجية، وكانت كريستينا تقيم مع المرأة العجوز بينما يتم إصلاح أمر الغنغرينا.

لكن كريستينا كانت ما تزال تعرج، ولذلك لم تنهض عن دولاب غزلها عندما جاء كارل أوسكار إلى المطبخ.

لكنه وجد أعذاراً لكي تدعوه بيرتا ويعاين الفتاة مرة أخرى، وفي المرة التالية وجدها واقفة على الشرفة في الخارج. وعندئذ لاحظ أنها فتاة طويلة القامة، بطوله هو. وهي رشيقة القوام ونحيلة الخصر، ولها عينان حييّتان ومغويتان.

أصبحا يلتقيان من حين إلى آخر بينما تقيم كريستينا في آيديمو. وقد شفيت

الآن ولم تعد تعرج؛ لم يعد لديها سبب لتخجل من المشي عندما يراها كارل أوسكار.

في الليلة التي سبقت عودتها إلى البيت، التقيا وجلسا أمام كوخ بيرتا على سلة بطاطا مقلوبة. قال إنه يميل إليها وسألها إذا كانت تميل إليه أيضاً. أجل، إنها تفعل. وعندئذ، سألها إذا كانت لتقبل به زوجاً. أجابت أنها تعتقد أن كلاهما ما يزالان صغيرين جداً، وأنهما يجب أن يصلا أولاً سن الرشد. قال إنه يمكن أن يكتب إلى الملك ويطلب منه الإذن بالزواج. وعندئذ قالت إنه ليس لديهما مكان يسكنان فيه، وإنها لا تعرف كيف سيكسبان طعامهما وكساءهما. على هذا لم يُجب، لأنه كان صحيحاً. لم يكن لديه شيء يعدِها به، ولذلك بقي صامتاً؛ إن للكلمة المنطوقة والوعد وزناً؛ وينبغي على المرء أن يفي بهما، ولا يُمكن التراجع عنهما أبداً.

منذئذ، التقيا في سوق كلينتاكروغين ثلاث مرات، اثنتين في الربيع وواحدة في الخريف. وفي كل مرة قال كارل أوسكار إنه ما يزال يحبها، وإنّه لا يوجد غيرها في فكره.

كان كارل أوسكار واثقاً مما يريد. وبمجرد أن عرض عليه أبوه كورباموين، ذهب إلى والدَيْ كريستينا في دوفيمالا. وقد فوجئا كثيراً بهذه الزيارة من شاب مجهول طلب الإذن بالتحدث إلى ابنتهما وحدهما.

وقف كارل أوسكار وكريستينا تحت جَمَلون بيتها وتحدثا مع بعضهما عشرين دقيقة.

فكر كارل أوسكار:

لقد أزفت الآن ساعة زواجهما؛ فقد بلغ سن الرشد، وسيأخذ مزرعة أبيه، وأصبح لديهما المنزل والوسائل لكسب ثمن الكساء والطعام.

وفكرت كريستينا:

ربما يكونان قد التقيا خمس مرات تقريباً، وتوفرت لديهما بالكاد الفرصة ليعرفا بعضهما البعض. وهي ما تزال صغيرة في سنتها التاسعة عشرة على أن تصبح زوجة مزرعة؛ يجب أن يسأل والديها إذا كانا ليقبلا به صهراً.

وسارت الأمور كما أرادها كارل أوسكار. وقبلته الأسرة عندما علم الأبوان أنّه جادّ في طلبه وأنه يملك مزرعة. وأمضى ليلته في منزلهم ونام مع زوجته

المقبلة بكامل ملابسه، وبكامل الاحتشام. وبعد ستة أسابيع، عقد الزواج في دوڤيمالا بين كارل أوسكار نيلسون وكريستينا يوهانزدوتر.

قال كارل أوسكار لزوجته الشابة: إنه لم يحبّ أحداً في كل هذا العالم مثلما أحبها، لأنها لم تنتقده أبداً ولم تلمح إلى عيوبه كما فعل الآخرون. إنه يثق بأنه سيكون سعيداً معها بقيّة حياته.

٣

اعتلى الملك أوسكار عرش السويد والنرويج عام ١٨٤٤. وفي نفس السنة حصل كارل أوسكار نيلسون (وقد تجاهل كارل أوسكار الذي كان يعرف الكتابة استخدام التهجئة عتيقة الطراز لعبارة «ابن نيلس») حصل كارل أوسكار على ملكية «جزء من ستة عشر من مزرعة، كورباموين.» وكان ما يزال يحمل اسمي الملك وولي العهد، لكن ترتيب الأسماء انعكس الآن: أصبح أوسكار هو اسم الملك الجديد، واسم ولي العهد كارل.

كان الثمن الذي تم الاتفاق عليه لكورباموين، مع ماشيتها ومعداتها الزراعية، هو سبعمائة دالير سويدي. وقد احتفظ نيلس ومارتا أيضاً بـــ«حقوقهم المحفوظة» لبقية حياتهما: السكن في الغرفة الاحتياطية؛ علف بقرة واحدة وشاة واحدة؛ ثلاثة أرباع فدان صالح للزراعة من أجل غرسهما الخاص، استخدام مرافق المزرعة، واثني عشر مكيالاً من الحبوب سنوياً، نصفها من الشعير ونصفها من الجاودار. وفي الحجة المكتوبة، ما يزال بالوسع قراءة: «سوف يبدأ تطبيق الحقوق المحفوظة اعتباراً من ١ تموز (يوليو) ١٨٤٤، وتمّ هذا الاتفاق بكامل الأهلية والتفكير العميق في كورباموين، في التاسع عشر من حزيران (يونيو) من هذا العام، في حضور شهود.» وتحمل الحجة العلامات المتقاطعة التي خطها نيلس ومارتا، اللذين لم يتعلما الكتابة أبداً.

وكما كان معتاداً عندما يتنازل الآباء عن مزارعهم للأبناء مع الحقوق المحفوظة، أصبح جزء من الميراث الآن محجوزاً. تسلّم كل من الأولاد مائتين وعشرة داليرات سويدية، وأربعة وعشرين شلناً. واحتفظ روبرت وليديا اللذين لم يكونا قد بلغا سن الرشد بعد بحصصهما وديعة عند أخيهما.

حصل كارل أوسكار على ما أراده؛ فكيف سارت الأمور معه، كمبتدئ؟

خلال سنيه السبع في الخدمة، كان قد ادخر مئة وخمسين دالير أ سويدياً؛ ومع زوجته، تلقى على سبيل المَهر مئة وخمسين دالير أ سويدياً؛ وكان ميراثه مائتين وعشرة دولارات. لكن هذه النقود مجتمعة وصلت إلى ربع سعر المزرعة فقط، وبقيت الأرباع الثلاثة الباقية دَيناً، وبفائدة. ينبغي أن يدفع خمسين دالير أ سويدياً في السنة فائدة على الرهن. أما دَينه الأكبر، فهو الحقوق المحفوظة لأبويه. وفي الحقيقة، كانت الحقوق المحفوظة ثقيلة على مزرعة صغيرة —لكنها يجب أن تكون كافية لتكفل عيش الأبوين. كان التزام كارل أوسكار تجاههما دَيناً على المزرعة، الذي ينبغي أن يستمر في دفعه طالما بقيا حيَّين؛ ولم يكن نيلس قد جاوز الخامسة والخمسين، وكانت مارتا في الثامنة والأربعين. إنها بالكاد مزرعة تلك التي أخذها كارل أوسكار —إنها ديون يجب دفعها، مع الفائدة. لكن الدين يمكن تجفيفه بالعمل، ولذلك لم يشعر بالقلق؛ كان يعرف كيف يعمل.

وهكذا، مضت الحياة في كورباموين: انتقل نيلس ومارتا إلى الغرفة الاحتياطية الصغيرة حيث سيعيشان بقية سنواتهما؛ ووصلت كريستينا مع عفش مَهرها وأخذت مكان مارتا. كانت زوجة مزرعة صغيرة هي التي انتقلت إليها، لكنها طرّزت بيديها غطاء الزفاف الذي فرشته الآن، في الليلة الأولى، على سرير الزواج. كان أزرق مطرزاً بزهور الذرة، وقالت مارتا إنه جميل، وشعرت كريستينا بالفخر.

سرّ كارل أوسكار لأن أمه وزوجته تمكنتا من العيش معاً بانسجام؛ وإلا لكانت كل منهما قد تسبّبت للأخرى بالكثير من الضيق. وقد نص العقد على أن يكون لأمه الحق في الطبخ في المطبخ والخبز في الفرن الكبير؛ ولو أنهما لم تكونا ودودتين، لتعثرت كل منهما بالأخرى في كل زاوية.

لكن حماة كريستينا اكتشفتها ذات يوم في مخزن الغلال وهي تلعب بأرجوحة علقتها سرّاً من عوارض السقف. وقد تسامحت مارتا مع ذلك ولم تقل شيئاً؛ كانت كريستينا ما تزال طفلة في تصرفاتها، وما تزال رغبة في اللعب ساكنة في جسدها بعد. لكنه من الغريب، مع ذلك، أن ترغب كريستينا اللعب بأرجوحة بعد أن سقطت عن واحدة ذات مرة، وآذت ركبتها. ثمّ إنّ اللعب العنيف لا يناسب امرأة متزوجة. ولحسن الحظ، لم يشاهدها شخص غريب وهي تلعب في المخزن، ولذلك لم تنتشر شائعات في الجوار.

لكن كان ثمة شيء هنالك، مع ذلك، شيء يتعلق بكريستينا، والذي لم تحبه مارتا ولا نيلس: إنها ترتبط، من جانب الأم، بنسل آكي سفينسون، مؤسس الطائفة الآكية. كانت أمها ابنة أخي آكي. وخالها، دانجل أندريسون، هو مالك مزرعة كاراغاردي، مكان اجتماع الآكيين في ليودر. وبطبيعة الحال، مرت أكثر من خمسين سنة على وفاة المحرّض على هذا البدعة، صانع المشاكل من أوسترغوهل، في ملجأ دانفيك. وبالقدر الذي يعرفه الجميع، لم يتبق شيء في كاراغاردي من العدوى الآكية الرهيبة. لكن الشعور الأصلي السيئ تجاه المؤسس كان متجذراً بعمق في الكثيرين من قاطني الأبرشية حتى أنه بقي كل هذه الفترة — ولم يتبجح أقارب آكي بعلاقتهم به.

لم يقل نيلس ومارتا شيئاً لكنّتهما، لكنهما تطرقا إلى المسألة ذات مرة مع كارل أوسكار: «هل كنت تعرف أن زوجتك قريبة لآكي من أوسترغوهل؟»

«أعرف ذلك — وأمنع أي شخص من استخدام ذلك ضدها؟»

لم يكُن هناك أيّ شيء آخر ليُقال. وأمل نيلس ومارتا فقط بأن لا تصبح قرابة كريستينا بمؤسس الآكية معروفة على الملأ في القرية. وفي كورباموين، لم يأت أحد على ذكر ذلك ثانية.

٤

في صباح كل يوم من أيام الأسبوع، خرج نيلس من الغرفة الاحتياطية وهو يتقافز على عكازيه، ذاهباً ببطء إلى طاولة عمله في الكوخ الخشبي في الخارج، حيث يبقى طوال النهار. وهناك يصنع الأصابع لعجلات العربات، والمَذاري، ومقابض البلطات والمناجل. كان ما يزال يستطيع استخدام المطرقة والإزميل؛ وظلت يداه بصحة جيدة، وقد احتفظتا ببراعتهما. وقد علّم كارل أوسكار ما يستطيعه من هذه الحرفة.

خلال معظم أيام الصيف، يستطيع المرء أن يجد نيلس وأدواته خارجاً في الفناء، حيث يجلس في ظل شجرة قيقب عتيقة. ومن هناك، انبسط أمامه مشهد رائع للحقول، بكل كومات الحجارة التي جمعتها يداه. لقد تركت سنواته

الخمس والعشرون من العمل في الزراعة علامات؛ كل كومات الحجارة وكل الأسيجة الحجرية التي بناها ظلت في أماكنها، ولا شك في أنها ستبقى هناك لوقت طويل.

لم يكن العجز بالنسبة إليه مريراً. وهو يؤمن بأن كل الأشياء التي حدثت تتفق مع ترتيبات سابقة من الله. كان يعتقد أن الله قرر في بدايات الخَلق أنّ ذلك الحجر في حقله —في يوم معين، في ساعة مرقومة— سوف يتدحرج عائداً إلى حفرته؛ أنه سيفقد توازنه ويسقط، وأنّ الحجر سيكسر حوضه، وأنه سيتجول بعد ذلك وهو يعرج مثل غراب كسير الجناح. سيكون من الجرأة والعجرفة أن يستنطق الله الخالق حول ذلك. ولم يُثقل نيلس ابن يعقوب ذهنه بالأسئلة.

الآن، أصبح ابنه يفلح ويزرع الحقل الذي نظفه. هو ناضل الحجارة بكل طاقته؛ والآن يحصد ابنه الفائدة.

لكن كارل أوسكار قلق بشأن الدَّين والفائدة. لو أنّه يمتلك حصاناً فقط، لكان أجّر نفسه وحصانه من أجل كسب بعض النقود من نقل الأخشاب. لكن حصة واحدة من ستة عشر كانت أصغر كثيراً من إطعام حصان، وهو الذي يأكل عدة براميل من الشوفان في الشتاء؛ ولذلك، يحتاج كارل أوسكار إلى ثلاثة فدادين إضافية من أجل الاحتفاظ بحصان. وكما هو واقع الحال، ترتب عليه أن يطعم أبويه وزوجته ونفسه من سبعة فدادين، معظمها من التربة الرملية الفقيرة.

لم يجد كارل أوسكار حتى عُشر فدان في داخل حدود مزرعة بقيَ لتنظيفه واستصلاحه؛ لقد أنجز والده عمله جيداً؛ كل الأرض القابلة للزراعة مفلوحة. وسيبقى ما يمتلكه الآن ليحرثه ويزرعه هو كل ما سيملكه. وبما أنه لا يُمكن تمديد الفدادين وصناعة حدود غير التي خلقها الله عليها، فلن يكون هنالك المزيد من الأرض الصالحة للزراعة في كورباموين.

ولما كان المزارع الشاب غير قادر على استئناف الخَلق من حيث تركه الله، فإن عليه أن يقنع بفدادينه السبعة، وبكل الحجارة المنثورة حيثما أجالَ البصر:

حجارة مكسورة، حجارة في أكوام، أسيجة حجرية، حجرٌ فوق الأرض، حجرٌ في داخل الأرض، حجر، حجر، حجر...

لقد ارتقى الملك أوسكار عرش مملكة السويد والنرويج؛ وأصبح كارل أوسكار ملكاً على مملكة حجرية.

٥

مضت سنته الأولى كمزارع —١٨٤٥— طيبة. كانت المحاصيل وفيرة، واستطاع أن يدفع فائدة الرهن في موعدها، وسار كل شيء على ما يُرام. وفي الربيع، وضعت كريستينا طفلهما الأول، ابنة، عمّدوها باسم آنا، على اسم والدة كريستينا.

في السنة الثانية حصلا أيضاً على محاصيل جيدة في كورباموين، لكن الحصاد كان شحيحاً. فقد انكمشت حبوب الجاوادار في السنابل، وكان الخبز المصنوع من الحنطة لزجاً وعويصاً. وقد باعوا عجلاً ونصف الخنزير الذي لديهم للمساعدة في دفع فائدة الرهن، واقترض كارل أوسكار العشرين دولاراً المتبقية من والده المُقعد: من النقود التي كسبها العجوز من عمله اليدوي. وفي وسط حصاد شهر آب (أغسطس)، وضعت كريستينا ولداً؛ أسموه يوهان، على اسم والد أمه في دوفيمالا.

أما السنة الثالثة، فكانت مليئة بالقلق. عندما حصدوا حقلَ القمح في تموز، سقط مطر غزير حتى سبحت الحزم في الماء. وعندما تراجع الفيضان، تبقى بعض القمح فقط، بلون أحمر ثعلبي، متعفناً وفاسداً، تنبعث منه رائحة عطِنة، ولا ينطوي على قيمة، حتى أن الحيوانات لفظته ورفضت أن تأكله. وقد اضطر كارل أوسكار وكريستينا إلى بيع بقرة وشاة. وأعقب ذلك مزيد من سوء الطالع: ولدت إحدى البقرات عجلاً ميتاً، وضاعت شاة في الغابات لتصبح طعاماً للوحوش المفترسة. وفي الخريف، اكتشف الزوجان أن عفن البطاطا تسلل إلى حقلهما. ولدى التقاطها، وجدا كل حبة من اثنتين فاسدة؛ ومقابل سلة واحدة مليئة بالحبات الجيدة متساوية الحجم، ترتّب نبذ سلّة أخرى لا تكاد تصلح علفاً للحيوانات. وخلال الشتاء التالي، انقضى أكثر من يوم بدون وجود إناء

البطاطا على النار. وقيل إن عفن البطاطا جاء من الدول الأجنبية، حيث تسبب بحدوث مجاعات.

في هذا العام —١٨٤٧— غاص كارل أوسكار أكثر في الدَّين. واضطر إلى استدانة النقود لتغطية كامل مقدار فائدة الرهن. ولم يعد لدى نيلس ما يقرضه إياه، ولم يشأ كارل أوسكار طلب نقود من صهره في دوفيمالا. وفكرت كريستينا بأن عليه محاولة اللجوء إلى خالها، دانجل أندريسون، في كاراغاردي، الذي كان حسنَ الحال كثيراً. وكان معروفاً كرجل هادئ لطيف، مع أنه ابن أخت مؤسس العقيدة الآكية المُحتقر —لكنه سيكون من الحماقة الالتفات إلى أحداث وقعت قبل خمسين عاماً. وبمجرد أن تقدم كارل أوسكار بطلبه، أعطاه دانجل خمسين داليراً سويدياً لدفع فائدة الرّهن.

وفي اليوم الذي سبق عشية عيد الميلاد في تلك السنة، وضعت كريستينا توأمين: ولداً وبنتاً. كان الولد مريضاً ونال عُمّاد طوارئ سريع من القسيس بروسندر؛ ثمّ مات في غضون أسبوعين. أما البنت فعاشت، وعُمّدت باسم مارتا، على اسم والدة كارل أوسكار. وسوف تُعرف فيما بعد باسم ليل—مارتا.

بعد ثلاث سنوات في كورباموين، أصبحت لدى كارل أوسكار الآن بقرة أقل في الزريبة، وسبعون داليراً سويدياً كدَين أكثر مما كان عليه حين تسلم المزرعة. ومع ذلك، وخلال كل يوم من السنوات الثلاث، عمل هو وكريستينا وكدحا بأقصى طاقتهما. ناضلا ليمضيا قُدُماً، لكن أمورهما سارت مع ذلك إلى الوراء. لم يستطيعا تغيير مناخ الربّ، ولم يكن لهما حظّ مع الحيوانات. وظنّ كارل أوسكار أنهما سيتمكنا من الاستمرار إذا ظلا يتمتعان بالصحة الكافية للعمل؛ لكنه أصبح يدرك الآن أن الإنسان في هذا العالم لا يستطيع البقاء بالعمل وحده.

«إنه مكتوب: 'بملح عرق جبينك تأكل خبزك'» قال نيلس.

«نعم، لكنني لست متأكداً من الحصول على الخبز، حتى بالعمل والعرق.» ردّ كارل أوسكار.

كان كارل أوسكار، مثل والده، يعرف قصة «السقوط» من دروس التاريخ الإنجيلي؛ ولطالما امتدحه القسيس دائماً على إجاباته السريعة في الاختبار السنوي.

نعم، لقد حصل كارل أوسكار على ما أراد، لكن ذلك لم يكن كافياً لشخص يريد دائماً أن يكون مالكاً إرادته. وظنّ معظم الناس أنه صاحب حظ جيد وأقدار حسنة. كان لديه اسمان ملكيان، أعطيا له عند العمّاد وسُجّلا رسمياً. وكان له أنف نيلسا الكبير —«إن أنفك هو أعظم إرثك،» كما اعتاد أبوه أن يقوله له. ولكن، أيّ فائدة تقدمها له الآن أسماء الملوك والأمراء؟ أي مساعدة يقدمها أنف يمتدّ أطول قليلاً في العالم من الأنوف الأخرى؟ ما يزال ذلك اليوم يبدو مقترباً، عندما يصل الشريف لونيفرين إلى المزرعة ليأخذ شيئاً على سبيل الرسوم.

خلال سنيّه الأبكر، لطالما تعمد الصبيان إغاظته كثيراً بأنفه الكبير الذي يشوّه معالمه. وكان يجيب دائماً بأنّ أنفه هو أفضل شيء حصل له. كان يصدق قصص والديه عن أفراد العائلة من الأجيال الماضية الذين ورث عنهم أنفه —وصدّق دائماً أنه سيجلب له الحظ الحسن في الحياة. ولم تفكر كريستينا أن أنفه قبيح؛ ربّما يختلف الأمر لو أنه لامرأة، كما فكرت، لكنه مناسب لزمرة الرجال. ومع ذلك، لم تصدق أن لأنفه الكبير أيّ صلة بنجاحه في الحياة. سوف يكون مثل ذلك تفكيراً وثنياً. وقد جاءت كريستينا من بيت متدين، وهي تعرف أن الله خلق الناس بالشكل الذي رآه مناسباً، وفقاً لطرائقه المُلغزة والحكيمة. أما وأنهما يقاسيان الشدائد الآن في كورباموين، فإن ذلك يحدث فقط بإرادة الله.

٦

هكذا بدأ العام ١٨٤٨. اشترى كارل أوسكار تقويماً من مدير المدرسة، رينالدو، بأربعة شلنات. وقرأ فيه أن هذه السنة هي السنة رقم خمسة آلاف وثمانمائة وخمسين منذ خلق العالم. وهي السنة الثامنة والأربعون أيضاً منذ «الولادة السامية لجلالة الملك أوسكار الأول، والرابعة منذ توليه العرش.» وهي أيضاً العام الرابع لامتلاك كارل أوسكار كورباموين وزراعتها.

قرأ عن حركات وأشكال الكوكب الأكبر في السنة الجديدة. وأصبح على دراية بالأبراج التي طُبعت علاماتها في التقويم لكل يوم: الحمل، بقرونه الكبيرة المنحنية؛ العقرب، بأرجله المرعبة؛ الأسد، بفكه العريض الوحشي؛ والعذراء، النحيلة جداً عند الخصر وتحمل إكليلاً من الزهور. وكان الطقس والريح، وربما قدر الإنسان أيضاً، تعتمد على تقابل الكواكب المتجولة مع هذه الأبراج.

قبل نهاية العام المنصرم، لاحظ الناس فعلاً علامات مثيرة للقلق: كانت أجزاء كبيرة من مجرة درب التبانة، حيث اعتادت النجوم أن تتلألأ صافية ومشرقة، قد أصبحت الآن سديمية وقاتمة —لقد اختفت الأضواء السماوية. وتعني هذه الغمامة نذر الحرب والاضطراب، والثورة والأوقات المظلمة، والمرض والوباء. وقد حلّ البرد الشديد و«شتاء الغراب» قبل أعياد الميلاد؛ وعاد أولئك الذين غامروا بالخروج إلى القداس المبكر صباح عيد الميلاد إلى منازلهم بآذان متجمدة. وبدأ يوم السنة الجديدة برياح عاتية؛ وانهار برج الكنيسة في إلميبودا، وكذلك شجرة الدردار الجبلية العظيمة عند منعطف أكيربي، وهي أكثر الأشجار سماكة في طريق الكنيسة كله. وفي الأراضي القفراء المكشوفة، حيث لم تكن أشجار الصنوبر متجذرة عميقاً في التربة الرملية، حصدتها الريح كما يُعمِل منجل حاد في عشب الصباح النديّ. وسفينة نوح، التي لم يرها أحد منذ سنة الجفاف في العام ١٨١٧، ظهرت مرة أخرى في السماء، بكل عظمتها المشؤومة. وشكلت رسمَ السفينة غيومٌ تمددت من الشرق إلى الغرب، فأوقفت تدفق كافة المياه الجارية والجداول، ومنعت سقوط المطر في السنوات التالية.

طوال الشتاء والربيع، ظهرت نذر غريبة في الطقس. جاء شباط دافئاً، بينما جاء آذار الربيعي عاصفاً، جافاً وبارداً. وكان طرح الجاوادار الشتائي هزيلاً: ظهرت مساحات جرداء عريضة في الحقول التي عادة ما تكون خضراء بعد أن يذوب ثلج الشتاء.

خلال الأسبوع الأخير من نيسان —شهر العشب— بدا الربيع وأنه قد أتى أخيراً. وفي الصباح المبكر من عيد أيار، أخرج كارل أوسكار مشط الأرض الخشبي من سقيفته، بقصد الشروع في تهيئة الحقول للبذار. لكن الثلج بدأ بالهطول؛ وأثلجت الدنيا طوال اليوم؛ وفي المساء كان الثلج قد غطى الأرض بسماكة قدم. وكانت الماشية قد أُخرجت مؤخراً حتى ترعى؛ ويجب الآن إعادتها إلى زرائبها ثانية. غطى ثلج نيسان الزهور والعشب الذي بدأ بالنمو توّاً. ومرة أخرى، تجمد الربيع ومضى مبتعداً.

جرّ كارل أوسكار مشط التعشيب وأعاده إلى السقيفة. وجلس صامتاً إلى مائدة الطعام في أمسية عيد أيار هذه، ثم ذهب إلى سريره بقلب مُثقل. وبالبعد

الذي يتذكره الناس سابقاً، لم تكن النذر سيئة أبداً للمحاصيل مثلما هي في هذا الربيع الغريب.

استلقى الزوجان الشابان في كورباموين تحت الغطاء، نفس الغطاء الذي حاكته كريستينا. وقد دفأهما الآن في أوقات راحتهما طوال السنوات الأربع الماضية —أكثر من ألف ليلة. وفي الكثير من تلك الليالي استلقى كارل أوسكار مستيقظاً، يفكر في فائدة الدَّين. وفي الكثير من تلك الليالي نهضت كريستينا لهدهدة الأطفال عندما يستيقظون ويبكون. أربعة من فصول الربيع استوت خضراء، وأربع من الحقول الخريفية المليئة ببقايا الزرع تقلَّبت عليهم منذ المرة الأولى التي استمتعا فيها بعناق رجل وامرأة تحت الغطاء العرائسي الأزرق المزركشة زواياه بزهور الذرة.

تلك الأمسية الخريفية، عندما جلسا معاً على سلة البطاطا المقلوبة في آيديمو، بدت الآن مغرقة في البعد — ربما كانت تجربة من عالم آخر. إنها تنتمي لسني فتوتهما، وقد أصبحا يتحدثان عن فتوتهما كما لو أنها شيء غادروه منذ زمن بعيد؛ كانا فتيين قبل أن يتزوجا، لكن ذلك كان شيئاً مضى، وحدث ذات مرة.

كانت ذكرى ميلاد كارل أوسكار الخامسة والعشرين قد حلت مؤخراً؛ وستبلغ كريستينا الثالثة والعشرين قريباً. وقبل وقت ليس بالطويل كانت طفلة هي نفسها؛ والآن، جلبت أربعة أبناء إلى العالم. ثلاثة منهم عاشوا ويناموں الآن في هذه الغرفة؛ وهي تستمع إلى صوت أنفاسهم، دائماً بقلق.

فكرت كريستينا أحياناً بأحداث حياتها المبكرة والعلاقات بين الأحداث. لو أنها لم تقع عن الأرجوحة في الحظيرة في المنزل في دوفاميلا وجرحت ركبتها، لما كانت قد ذهبت أبداً إلى بيرتا في آيديمو سعياً للاستشفاء من الغنغرينا. وعندئذ، لم تكن لتقابل أبداً كارل أوسكار ولما أصبحا زوجين. ما كانا سيمتلكان كورباموين ويزرعاها معاً، وما كانت ستنجب أربعة أبناء منه. وما كانا سيستلقيان معاً هنا في هذه الليلة تحت غطاء الزفاف الذي صنعته. ما كانت لتنجب آنا، ويوهان، وليل—مارتا، هذه الكائنات الثلاثة الصغيرة النائمة قريباً منهم.

كل شيء مهم في حياتها حدث لأنها صنعت أرجوحة ذات مرة من حزام

ثور، في المنزل مع والديها، وسقطت عنه. لا شك أن الله أراد لها أن تنصب الأرجوحة؛ وهو الذي قدّر لها كل ذلك.

وهي ما تزال تستمتع بالتأرجح: قبل فترة وجيزة صنعت أرجوحة مرة أخرى في مخزن الغلال، حيث لا يراها أحد. وعرفت أن حماتها تعتقد أن ذلك عملٌ سيئ لزوجة مزرعة أنجبت أربعة أبناء —وأدركت أن عليها التفكير في شيء آخر.

كانت كريستينا قد أطفأت شمعة الشحم عندما ذهبت إلى السرير. وعبر النافذة، استطاعت أن ترى الثلج المتلألئ الذي هطل في آخر يوم من نيسان، والذي ينوي البقاء —كما يبدو.

واستلقى كارل أوسكار إلى جوارها بهدوء، لكنها استطاعت أن تسمع أنه ما يزال مستيقظاً. سألت: «هل تفكر في شيء؟»

«آي، في الربيع. يبدو سيئاً للمحاصيل.»

«صحيح، إنه يبدو قبيحاً.»

تجولت عينا كريستينا عبر النافذة؛ عندما تستيقظ هي وزوجها صباح الغد، سيكون شهر أيار قد حلّ —ومع ذلك كانت الدنيا مضاءة بالثلج في الخارج.

قالت: «يجب أن نؤمن بأن الله سيجعل الأشياء تنمو —هذه السنة مثل كل السنين.»

«نؤمن! نعم —إذا كان الإيمان سيساعد، فسنحصد مئة برميل من الجاوادار هذا الخريف.»

لم يكن قد أظهر أبداً مثل هذا القلق من قبل؛ والآن، بدا مغتمّاً ومبتئساً. وكانت معنوياته الهابطة معدية؛ فقد شرعت هي أيضاً بالقلق على الأيام القادمة.

أكمل: بالإضافة إلى أبويه، هناك الآن سبعة أشخاص يجب أن يطعمهم في مزرعته الصغيرة —الحصة من أصل ست عشرة حصة. وإذا جاءت السنة عجفاء وفشلت المحاصيل، فإنه لن يعرف ماذا سيفعل.

فكرت كريستينا في الأولاد الغارقين الآن في نومهم الحلو في هذه الغرفة. إنّ الذين جلبوا هؤلاء الأولاد إلى العالم هم المسؤولون عنهم، ويجب أن يكدحوا حتى تكون أمعاؤهم مليئة وبطونهم مستورة. كانت سعادة الأطفال أكثر أهميّة لكريستينا من رفاهها هي، وهي تعرف أن كارل أوسكار يشعر مثلها تماماً.

طوت كريستينا يديها وتلت صلاتها المسائية المعتادة: «ربّ أنعم عليّ برحمتك، ودعني أنم جيداً هذه الليلة...» وقبل أن تقول «آمين»، أضافت في هذه الليلة بضع جمل تذكرتها من كتاب «صلاة لفاكهة الأرض»، تقول: «هب لنا مناخاً مواتياً واحم محاصيلنا من الدمار. باركنا بالذرة والنوى. بجاه سيدنا المسيح، إلهنا، آمين.»

أما هو، فنادراً ما يردد صلواته المسائية في هذه الأوقات؛ إنه يكون مجهداً كثيراً عندما يذهب إلى النوم. لكن الصلاة ربّما تنفع لكليهما معاً بينما كريستينا تصلي وهو يسمع. ينبغي أن ينظر الله بعطف إلى مزارع يكدح في بلد حجري.

انقلب على جانبه لينام، ولمست كريستينا يده. وبلمستها استيقظت فيه رغبات الجسد. وطوقها بذراعه ليجذبها نحوه.

«كلا يا كارل أوسكار. لا أدري...» وناضلت قليلاً.

«ما الأمر، كريستينا؟»

«أنا—أنا كنت أفكر بالأولاد.»

«إنهم نائمون، همُ الثلاثة.»

«قصدتُ شيئاً آخر؛ أفكر بالطعام للأولاد.»

«الطعام؟»

همست في أذنه: «لو أننا لا نفعل —فكرتُ— فإننا لن ننجب المزيد.»

كان ثمة شعور بالعار في رنة صوتها. لكنها قالت ما تحسّ به الآن.

«لو أننا لا نفعل؟ لبقية حياتنا كلها؟ هل هذا هو ما تقصدين؟»

تساءلت كريستينيا نفسها عما قصدته. لقد خلق الله أناساً بقدر ما شاء؛ وأطفالاً بقدر ما قرر أن يولد من الأطفال. إنها تعرف ذلك. لكنها تعرف هذا أيضاً بنفس اليقين: إذا لم يقترب منها رجل، فإنها لن تلد المزيد من الأطفال. وبدا كما لو أن الله قرر بإحدى الطرق، وأنها يمكن أن تقرر هي بطريقة أخرى. وأربكتها الأفكار المتعارضة.

مضى كارل أوسكار إلى قول إنه لا يستطيع أن يدعها وشأنها عندما تكون بجواره في السرير في الليل؛ لا يمكن لأيّ رجل ينام مع زوجته أن يكون

مغطوراً على التصرف بهذه الطريقة؛ على الأقل ليس قبل أن يصبح عجوزاً بحيث ينمو العشب في أذنيه.

لم يكن لدى كريستينا ما تردّ به. كلا، فكرت، لا يمكن أن يبقيا منفصلين طوال الحياة. هي أيضاً لديها رغبتها التي لا تستطيع أن تقاومها للأبد. لكنها لن تكون وضيعة أبداً بحيث تجعل كارل أوسكار يعرف ذلك.

استمرّ في ملامستها؛ داعب نهديها اللذين انتفخا وتصلبا في يديه؛ واستيقظت رغباتها هي. وتفتحت كما تتفتح الصدفة عن لؤلؤها؛ واستسلمت.

كانا صامتين أثناء العناق، كما كان حالهما دائماً. وفي لحظة الانفعال، نسيت تماماً ما كانت قد قالته قبلاً.

وبعد شهر تقريباً، عرفت كريستينا أنها حامل بطفلها الخامس.

عامل المزرعة الذي غرق في جدول المطحنة

١

كان روبرت، الابن الثاني لنيلس ومارتا، يصغر كارل أوسكار بعشر سنوات. وعندما كان صغيراً، تسبب لوالديه بقدر كبير من المتاعب عندما يهيم بمجرد أن يصبح خارج المنزل، ويختفي في أرض الغابة. وربما يقضون ساعات وهم يبحثون عنه بين أشجار العرعر. ثمّ علقوا حول رقبته جرساً حتى يستطيعوا تحديد مكانه، لكن ذلك لم ينفع دائماً، لأنهم لم يستطيعوا سماع الرنين عندما يجلس الولد ساكناً. ولم يتغيّر الصبي عندما أصبح أكبر: فإذا لم يكن أحد يراقبه، كان يختفي في الغابة ويختبئ؛ وإذا ما طُلب إليه القيام بالأعمال المنزلية، فإنه ربما يهرب. وعندما كبُر الصبيّ، خجلوا من تعليق جرس حول رقبته كما لو كان حيواناً.

وعندما تنازل والداه عن كورباموين، حصل روبرت على عمل خلال فصول الصيف كراع لمصلحة أقطعية أكيربي (والأقطعية منطقة تابعة للأبرشية، تتمتع بحقوق رعي متساوية وما شابه). وهكذا، نقص أحد الأفواه التي تأكل من إناء العصيدة في الغرفة الاحتياطية. كان روبرت يتلقى الطعام من المزارعين، ودولارين في السنة كأجور (ثمانية وخمسين سنتاً). وفي كل خريف، كان يتلقى أيضاً كميّة من الجبن، وزوجاً من الجوارب الصوفية. وقد أحب العمل في الخارج في البرية، وحيداً مع الماشية. وخلال أيام الصيف الطويلة، بينما ترعى الأبقاء والأغنام بكسل، كان يستلقي على ظهره في فسحة ما ويحدق في السماء. وتعلم كيف يصفّر، ويغني حتى دون أن يفكر بذلك. وفيما بعد، عندما تنتهي أيام رعيه، كان يدرك لماذا يحبّ القيام بتلك الأشياء: إن ذلك يجعله يشعر بأنه حرّ.

لستة أسابيع كل سنة خلال ثلاث سنوات متتالية، حضر المدرسة التي يقيمها رينالدو. ولتى التعليم بسهولة إليه؛ في السنة الأولى تعلم أن يقرأ ويكتب. وعلى الرغم من أن رينالدو كان بعين واحدة، فإنه رأى من هذا العالم أكثر من معظم أهل الأبرشية الذين بعينين اثنتين. وكان قد سافر ذات مرة بعيداً حتى بلغ غوتنبيرغ، حيث شاهد البحر، وأخبر الأولاد عن مغامرات حياته. وهم استمتعوا بذلك أكثر بكثير من كتاب التعاليم المسيحية والتاريخ الإنجيلي مُجتمعين.

في اليوم الذي أنهى فيه روبرت المدرسة، حصل على كتاب هديةً من مدير المدرسة؛ كتاب «تاريخ الطبيعة». وقال رينالدو إن الأولاد نادراً ما يمسّون كتاباً عندما تنتهي المدرسة؛ لكنهم إذا لم يحسنّوا قدراتهم في القراءة، فإنهم سرعان ما سيفقدونها. وأعطى الكتاب لروبرت حتى يمكنه الاستمرار في القراءة عندما ينهي المدرسة.

كان «تاريخ الطبيعة» هو أول ممتلكات روبرت. لكنه حدث أنه لم يفتحه لأكثر من سنة. وقد حضر خلال الشتاء صفاً للمراجعة والتأكيد في مقرّ القسيس، وساعد شقيقه كارل أوسكار في قطع أشجار السنديان. وسوف تذهب أخشاب السنديان لاحقاً إلى كارلسْهامن لتُستخدم في بناء السفن. وقطع الشقيقان أشجار الصنوبر أيضاً، الأطول في الغابة، لصناعة صواري السفن. وبينما يساعد روبرت في قطع ونشر الأخشاب التي ستسافر في البحر، كانت أفكاره تتعقب السفينة التي ستُبنى منه. كانت بلدة كارلسْهامن الميناء تبعد خمسين ميلاً، وقد احتاج الفلاحون الذين يحضرون الخشب إلى هناك يومين وليلة لقطع مسافة الرحلة. وفكر روبرت أنه سيودّ الركوب مع تاجر الخشب إلى كارلسْهامن حتى يرى البحر بعينيه.

خثر نيلس ومارتا عشرة باوندات من الزبدة من حليب بقرتهما وباعاها حتى يجمعا النقود لشراء إنجيل يعطيانه لابنهما في مناولته الأولى. وكان الإنجيل الذي تلقاه مغلفاً بالجلد، وكلف دالير اً سويدياً واثنين وثلاثين شلناً —نفس سعر عجل مولود حديثاً. لكنه كان إنجيلاً يمكن أن يقاوم البِلى والتمزق؛ ينبغي حفظ الكلام المقدس في غلاف من الجلد حتى يدوم طوال العُمر.

وأصبح لدى روبرت الآن كتابان، أحدهما دُنيويّ والآخر ديني. قال رينالدو

إنه يجب على كل الناس أن يقرؤوا هذه الكتب — من بعضها يتعلمون عن الجسد والأمور الدنيوية، ومن الآخر عن الروح والأمور الروحية. وضم «تاريخ الطبيعة» كل ما يحتاج روبرت معرفته عن هذا العالم؛ بينما ضمّ الإنجيل ما يحتاج إلى معرفته عن العالم الآخر.

لكن روبرت ما يزال في هذا العالم، وينبغي أن يذهب الآن ليكسب عيشه. وقد اتخذ والده كل القرارات الخاصة بابنهما الصغير. رتب له نيلس ليخدم سنة كعامل مزرعة في مزرعة نايياخِن، على بعد ميل من كورباموين. لكن روبرت لم يرغب في الخدمة. قال لوالديه إنه لا يحبّ أن يكون له سيّد؛ فهل يستطيع أن يتجنب الخدمة في نايياخن بطريقة ما؟

وانزعج نيلس ومارتا لدى سماع ابنهما الأصغر يتحدث هكذا، ووبّخاه بشدّة: أي نوع بائس تعس هو، غير راغب في العمل من أجل طعامه وملابسه وهو صحيح قويّ ومعافى؟ هل يريد أن يصبح واحداً من المشردين في الطرق؟ أم أنه يريد أن يظل جالساً في البيت، عالةً على أبويه اللذين يعيشان فقط على مخصصات الحقوق المحفوظة؟ سيصبح قريباً في الخامسة عشرة! ينبغي أن يخجل من نفسه! إن أخته تعمل خادمة منذ عدة سنوات الآن. وهم كثيرون جداً هنا في كورباموين؛ ولا يستطيع كارل أوسكار أن يُطعمه، ولا هو يستطيع تحمل دفع أجر خادم. وبالإضافة إلى ذلك، أجّره أبوه لآرون في نايياخن وقبض نقود العربون، وفقاً لقانون الخدم — ولا يمكن إلغاء العقد ولا تغييره. كان آرون يدفع أجوراً جيدة: في السنة الأولى سوف يقبض روبرت ثلاثين دولاراً نقداً، ورداءً صوفياً شتائياً، وزوج أحذية قصيرة الرقبة. ينبغي أن يكون مسروراً، ويجب عليه أن يكون ممتناً أيضاً لوالديه اللذين رتّبا له هذه الخدمة.

وهكذا، ذات يوم في أيار عام ١٨٤٨، عند شروق الشمس، غادر روبرت نيلسون منزل والديه ليبدأ خدمته الأولى كعامل مزرعة. وقد وضعت له أمه أغراضه في صُرّة، وربطتها بمنديل صوفي. وفيها حزمت حذاءه الجلدي، وملابسه الداخلية الصوفية، وقميصاً واحداً لأيام الأحد، وزوجاً من جوارب يوم الأحد أيضاً. وحمل الصرة في يد، وفي الأخرى ثلاثة كتب: الإنجيل، و«تاريخ الطبيعة»، وكتاب الصلوات الذي أعطته له أمه. ولُفّت الكتب بالورق حتى لا تتلطخ.

كان المطر قد سقط خلال الليل، لكن الشمس أشرقت الآن على طريق القرية. ونبغت رائحة ندية رطبة من المروج على جانبي الطريق حيث كان المطر قد هطل على العشب الجديد الطازج. وكانت البراعم قد أورقت توّاً والتمعت بالخُضرة، ومن الغيضات جاءت سقسقة الطيور. لكن الصبي الذي سار على الطريق حاملاً حُزمتيه لم يشعر بأي بهجة في جمال الصباح الربيعي من حوله. كان في طريقه إلى نايباخِن، ليبدأ حياته كعامل مزرعة، لكنّ أحداً لم يسأله أبداً عما إذا كان يُريد أن يصبح عاملاً مُستأجراً في نايباخن. كان يكره قيود الخدمة، ولم يرد أن يكون له سيِّد. وقد سار على الطريق إلى نايباخِن، لكنه لم يكن يريد الوصول. والآن وقد أصبح أكبر، يتمّ طرده من المنزل مثل فرخ طائر صغير خارج من العشّ. كان أصغر الأبناء، واحداً من أولئك الذين بلا حصّة من القسمة. ومع ذلك، لم يحسد أخاه الكبير الذين يجب عليه أن ينحشر بين الحجارة، مثقلاً بقلقه ومخاوفه على رهن دُيونه.

توقف روبرت عندما وصل الجسر فوق جدول المطحنة. ما الذي سيحصل إذا بدأ خدمته متأخراً أو متقدماً نصف ساعة، في الساعة الخامسة أو في الخامسة والنصف؟ سوف يكون هناك وقت وافر للعمل خلال السنة الطويلة بكاملها. غادر الطريق وجلس على حافة الجدول. خلع حذاءه الخشبي وجواربه وغمس قدميه في الماء. وتدفقت مياه الجدول مندفعة، متورّمة بمياه المطر الربيعي. أخيراً جاء الربيع، وأصبح الماء دافئاً. وكان يتموّج حول قدميه في دوامة وينفجر بين أصابع رجليه، وجلس يراقبه وهو يهرب، ماراً به، متدفقاً تحت الجسر ومتعجلاً عندما يصبح أبعدَ قليلاً. ورأى فقاعات الزبد البيضاء وهي تعوم وتختفي في غابة الصفصاف، حيث صنع مجرى الجدول منعطفاً. كان هذا الماء يجري حُرّاً؛ لم يكن الماء في الجدول مُستأجراً في نايباخِن؛ لم يكن مضطراً لأن يبقى في المكان نفسه عاماً كاملاً. ولم يبقَ أبداً في مكان واحد، ويستطيع أن يتنقل في أيّ مكان. يمكنه أن يجري كل الطريق نحو البحر، ثم تصبح الطريق مفتوحة أمامه ليدور حول العالم، حول الكوكب بأكمله.

لا ضير في أن يجلس نصف ساعة ويراقب الجدول، نصف ساعة أخير قبل أن يصبح عاملاً مستأجَراً.

أمامه، في قاع الجدول، ثمة بركة عميقة سوداء بجوار صخرة كبيرة.

وفي هذه البركة، كان قد أغرق قطة ذات مرة —ذكرى رهيبة. وهناك، بجانب الصخرة، غرقت خادمة من نايباخِن قبل بضع سنوات. ولم تكن قد غرقت بإرادتها، وإنما انزلقت ووقعت في الماء بينما كانت تقف على الصخرة وتشطف الغسيل. كانت الصخرة شديدة الانحدار ولم تستطع أن تتسلقها؛ وعُثر على جسدها في البركة. وقد شاهدوا على الصخرة أثر العلامات التي صنعتها أظفارها: كانت تخدش وتكشط الحجر بأظافرها غير قادرة على التشبث بشيء. وبعد ذلك شاهد روبرت العلامات ولم يستطع أن ينساها أبداً؛ لقد أخبرته العلامات عن الرعب البشري ساعة الموت.

ويمكن أن يغرق خادم ذكر في تلك البركة أيضاً، تماماً مثل الخادمة. وعندما يغرقُ مُستخدم في ماء الجدول، فلن يستطيع أيّ عقد أن يصمد، ولا يمكن لأيّ نقود عربون قبضها الخادم في العالم أن تَعني شيئاً. عاملُ المزرعة الغريق ليس له سيِّد.

فكّر روبرت بذلك.

فكّ لفافة الورق عن كتبه. ووجد أن أمه وضعت غصناً صغيراً من الآس بين أوراق كتاب الصلوات، وفتح الكتاب حيث الغصن: «صلاة الخادم.»

«يا إلهي وسيدي يسوع المسيح، ابن الله. أنتَ الذي تواضعتَ في شكل خادم... علمني أن أخافك وأحبك في عملي، ولن أكون مخلصاً، متواضعاً، وأخدم سادتي الأرضيين بكل أمانة... وأي خير أرضي ينالني فإنني أعزوه كله لسرورك اللطيف والأبويّ. أرشدني إلى التُّقى في كل وقت، واجعلني قانعاً فأكسب الكفاية... واجعلني أجد سادة مسيحيين طيبين لا يهملون ولا يسيئون معاملة خادم فقير، واحفظني بالحب والصبر...».

من خلال غصن الآس بين الأوراق تحدثت أمه إلى الخادم الصغير: اقرأ هذه الصلاة! وقال القسيس بروسندر في الاختبارات السنوية إن على الخدم والخادمات أن «يتصرفوا في وضعهم البائس، بحيث يحفظون عن ظهر قلب 'صلاة الخادم'.»

لكنه خطر في بال روبرت الآن أن يقرأ قطعة من كتابه الآخر، «تاريخ الطبيعة». وما إن قلب زاوية الصفحة حتى عثر مباشرة على هذه القطعة:

«عن حجم البحر.»

«ربما يتساءل الكثيرون لماذا ترك الخالق مكاناً بهذا الصغر على الأرض ليكون موطناً للإنسان والحيوان. لأن ثلاثة أرباع سطح الأرض تقريباً مغطاة بالماء. لكنّ من يعرف كيف ولماذا يأخذ الماء كل هذه المساحة، سوف يرى عندئذ دليلاً آخر على قدرة الله وعطفه.

«هذه المساحات الكبيرة من المياه التي تحيط بالأرض الضيقة من كل الجهات، التي فيها ماء مالح، تُسمّى البحر...».

رفع روبرت أنظاره عن كتابه. فكر في البحر الأكبر بثلاث مرات من الأرض الصلبة التي يجلس عليها. لا أحد يمتلك البحر. لكن الأرض مقسومة إلى مزارع، في أرباع، وأثمان، وجزء من ستة عشر، والمزارعون يمتلكونها. أما الذي لا يمتلك أرضاً، فيصبح خادماً لدى مالك أرض.

فكّر: على اليابسة الكثير من الطرق التي يمكن أن يسلكها المرء. هناك طرق أخرى غير تلك التي تفضي إلى نايباخِن. ثمة مفترق طريق قريب، عند الجسر فوق جدول المطحنة: اليمنى تقود إلى نايباخِن، اليسرى توصلك إلى مطحنة آبرو —وإذا مضيت في تلك الطريق، فإنك لن تصل إلى نايباخن أبداً.

إذا انعطفتَ إلى اليسار، فإنه سيمكنك أن تختفي من الجِوار. هُناك أشخاصٌ اختفوا من الأبرشية: أسماؤهم ما تزال في كتاب الكنيسة، مكتوبة تحت عنوان: «نهاية الأبرشية.» وقد نادى القسيس على الأسماء في الاختبار السنوي، واستعلم عنهم. في كل سنة كان ينادي على اسم عامل المزرعة فريدريك إيمانويل ثرون من كفارنتوربيت: لم يسمع عنه أحد منذ ١٨٣٣. وأجاب شخص ما دائماً أنّ أحداً في القرية لا يعلم مكانه. وكان القسيس يكتب عنه في كتابه: المكان مجهول. وتكرر ذلك كل سنة: لم يسمع أحد من فريدريك من كفارنتوربيت. ولخمس عشرة سنة —كل فترة حياة روبرت— ظل مكان عامل المزرعة المفقود غير معلوم. كان ذلك هو كل شيء يعرفه روبرت عن فريدريك ثورن من كفارنتوربيت، ولأنه لم يعرف أي شيء آخر، ظل يتساءل عن مصير ذلك الشخص.

لقد حدث وأن اختفى عامل مزرعة من قبل، وأن سلك الطريق الخطأ.

عندما أصبح روبرت مستعداً ليرتدي جواربه، افتقد إحدى فردتي حذائه. لقد

سقطت في الجدول؛ وهي تعوم الآن على سطح الماء قرب غابة الصفصاف، بعيدة عن متناول اليد. وقف هناك، مندهشاً من قدرة حذائه الخشبي على العَوم. والآن، علقت فردة الحذاء بأغصان الصفصاف حيث ينعطف الجدول. وكان الماء يتدفق ويلتف حول الحذاء. ووقف روبرت هناك ورأى قدمه نفسها تركل الماء وترشقه؛ رأى نفسه مستلقياً هناك، يغرق في الجدول.

لقد شرع ما فكر فيه الآن بشكل غامض بالحدوث من تلقاء نفسه. وبقي عليه فقط أن يُكمله.

وضع جواربه في فردة الحذاء المتبقية وقذفها في الجدول. ثم خلع سترته وطيّرها بعد الحذاء، وسرّ عندما رآها تعوم على وجه الماء. ثم التقط صُرّتيه وانطلق صاعداً الجسر. وعند مفترق الطرق على الناحية الأخرى من الجسر، انعطف إلى اليسار؛ وسلك الطريق التي لا تفضي إلى نايباخِن، سلك الطريق الخطأ.

الآن، أصبح بالوسع رؤية سترة فتى عالقة على غصن صفصافة كبيرة عند منعطف الجدول. وبينما يجري الماء في المجرى ويؤرجح الأغصان جيئة وذهاباً، كانت أكمام السترة تلوّح لأيّ شخص يعبر الجسر، منبئة عمّا حدث لأجير المزرعة وهو في طريقه إلى نايباخن ليبدأ خدمته: لقد غرق في جدول المطحنة، كما فعلت الخادمة قبل بضع سنوات.

٢

بدت الأرض تحت قدمي روبرت باردة في ظلال الغابة: كان الوقت مبكراً جداً من السنة على سير المرء حافي القدمين. وقد سار مسافة قصيرة جداً قبل أن يظهر شخص خلفه. وصلى روبرت في قلبه أن يكون العابر تاجر أخشاب في طريقه إلى كارلسهامن؛ عندئذ سيسأل عما إذا كان بوسعه أن يركب معه. لكنه كان يوهان بيتر من هاستيباك، أقرب جيرانهم في كورباموين، ذاهباً بحنطته في طريقه إلى المطحنة. ووقف. نعم، يستطيع روبرت أن يجلس على الأكياس إلى جانبه ويركب معه إلى مطحنة آبرو.

زحف روبرت متسلقاً العربة وجلس إلى جوار المُزارع. كان يوناس بيتير من هاستيباك رجلاً لطيفاً: لم يسأل روبرت عن وجهته؛ وقال فقط إن من

الخطر أن يسير حافي القدمين في هذا الوقت المبكر من الرّبيع. أجاب روبرت بأنه يسير أسهل من دون حذاء ولا جوارب. يبدو أن يوناس بيتر لم يلاحظ السترة بينما يعبر الجسر.

في غرفة المطحنة في آبرو، جلس ثلاثة مزارعين، ينتظرون طحينهم. ولم يكونوا معروفين لروبرت. وبقي معهم في غرفة المطحنة، حيث كان الجو لطيفاً ودافئاً؛ كانت نار كبيرة تشتعل في المدفأة، والهواء يعبق برائحة الطحين والحنطة الزكيّة.

تناول المزارعون الطعام الذي جلبوه معهم وشربوا جعة البرانفين معه، وأعطى أحدهم لروبرت شريحة من الخبز مع جرعة من الشراب، فغمس الخبز في البرانفين كما يفعل الأطفال، وقد أدرك بالكاد غرابة ما يفعل، هو الذي أصبح الآن بالغاً تقريباً.

كان الرجال قد ساقوا عربات حنطتهم من أماكن بعيدة وحيدين. والآن في وجود الرفقة، أخذوا يتحادثون بضجيج وصخب. ومدّ يوهان بيتر من هاستيباك جسده على طوله على بعض الأكياس الفارغة أمام النار. كان رجلاً طويل القامة بسالفين أسودين.

تحت غرفة المطحنة، واصلت حجارة الطَّحن دورانها الرتيب ودمدمت بخفوت، مثل صوت رعد بعيد؛ وباستثناء ذلك، غرق المكان في الهدوء والدعة. وجلس روبرت أمام النار بجوار يوناس بيتر. لم يكن ذاهباً للعمل أجيراً، وأصبح يحس بقلبه خفيفاً غير مُثقل.

«كلنا نتذكر أكسيلينا العجوز هنا في آبرو،» قال يوناس بيتر، «ولكن، هل يتذكر أحد كيف حصلت على المطحنة وأصبحت أغنى امرأة في الأبرشية؟»

جاءت الإجابات من المزارعين الآخرين كلها بالنفي. لم يكن أحد يتمتع بذاكرة جيدة مثل يوناس بيتر؛ كان يعرف كل القصص القديمة في المنطقة، والآن يجب أن يخبرهم عن أكسيلينا، التي يتذكر أنها كانت صاحبة المطحنة حين كان ما يزال شاباً.

كانت امرأة بارعة وذكية، هذه الألكسينا. جاءت لتعمل خادمة عند فرانس الطحان الذي كان يمتلك المطحنة منذ سنوات طويلة بحيث تسنّى له الوقت ليسرق الكثير من الطحين من الأكياس حتى أصبح غنياً بقدر عشرة من

الأغنياء بالوراثة. وفي ذلك الوقت، كان قد أصبح عجوزاً ومريضاً، وصمّمت ألكسينا على أن ترث منه. والآن، سلكت ألكسينا الطريق الوحيدة التي تستطيع أن تسلكها المرأة في مثل هذه الظروف: حاولت إغراءه بإقامة علاقة جسدية معها. في المساءات، بعد أن يأوي إلى السرير، كانت تأتي إلى غرفته خلال فترة عملها، وتُعمل بقدر ما تستطيع عرض مواطن فتنتها. لكن فرانس كان منتهياً، بطيء الدم —ولم يعد بالوسع إغواؤه.

وذات ليلة شتائية، مع ذلك، عندما كان عائداً من حفلة عيد الميلاد وقد شرب من البرانفين أكثر مما ينبغي له، حدث أنه وقع في كومة ثلج. وعندما لم يظهر، حملت ألكسينا مصباحاً وخرجت للبحث عنه. ووجدته متجمداً كلّه جميعاً. وساعدته في العودة إلى البيت، ووضعته في سريره، وأعطته جرعة من البرانفين ليستعيد دفء جسده. وشرب فرانس البرانفين، لكنه ظل يشكو من الشعور بالبرد. وعندئذ، قالت ألكسينا إنها تعرف علاجاً واحداً أخيراً تبقى ويمكن أن يُساعده، وهو الذي ربما لن يستخدمه. كان فرانس يخشى من الإصابة بمرض مميت، وسألها عن أيّ نوع من العلاج هو الذي تعرفه. حسناً، أجابت الخادمة، يجب أن تنام بجواره وتدفئه بجسدها. لقد سمعت أن هذا هو أفضل علاج ضد قشعريرة البرد. واندهش فرانس قليلاً، لكنه كان قد شرب الكثير من البرانفين. قال إنها إذا كانت تعتقد أنها يمكن أن تساعده بتلك الطريقة، فإنها يمكن أن تأتي وتنام بجواره. وهي أصرّت على أنها ستفعل ذلك فقط لتنقذ حياته، ويجب أن يعدها بأن لا يلمسها. ووعدها بذلك عن طيب خاطر —لم تكن لديه مثل تلك الأفكار بينما يرتجف ويهتز في سريره.

وهكذا، استقلت ألكسينا مع سيدها، وعرفت كيف تتدبر أمرها. وانتهى الأمر بأن أصبح السيد والخادمة قريبين جداً من بعضهما قدر الإمكان. وقد اعتادت القول بعد ذلك أن الأمر استغرق نصف ساعة فقط حتى يشفى فرانس الطحان من قشعريرته، وأصبح بإمكانها أن تتركه.

وبعد أربعين أسبوعاً من هذه الحادثة، ولدت ألكسينا ابناً يشبه فرانس كثيراً حتّى أن أحداً لم يحتج إلى السؤال عن اسم الأب. ولم يسامح فرانس أبداً خادمته التي استغلته، ولم يتم الحديث أبداً عن زواج بينهما. لكنه كان شديد الارتباط بولده، وعندما مات بعد بضع سنوات ترك كل ما يملكه للطفل، وعيّن قريباً له

وصياً. ولم تحصل ألكسينا على قرش واحد.

ومع ذلك، التقط الطفل عدوى الجدري وتوفي وهو في الرابعة من عمره. وعندئذ ورثت ألكسينا المطحنة من ابنها. واستلمت مطحنة آبرو وكل ممتلكات فرانس الأخرى، وأصبحت أغنى امرأة في الأبرشية: مالكة لأكثر من أربعين ألف دالير سويدي. وظلت تتبجح فيما بعد بأنها كسبت ذلك كله في نصف ساعة، تلك النصف ساعة عندما نامت في سرير فرانس الطحّان ودفأته بعد تعرضه للتجمد في الثلج. ولم يكن ذلك عملاً صعباً —لقد استلقت ساكنة تماماً. وليس هناك امرأة في العالم كله، ولا حتى ملكة أو إمبراطورة، كسبت مثل هذه الأجر على الساعة مثلما فعلت ألكسينا في سرير سيدها في ذلك المساء.

نعم، قال يوناس بيتر، وتنهد، تستطيع النساء كسب النقود السهلة إذا ما أردن: فقط أن يستلقين ساكنات.

حدق روبرت في يوناس بيتر؛ كثيراً ما كان هذا الرجل يروي مثل هذه القصص غير اللطيفة عن النساء. وقيل إنه يفعل ذلك لأنه هو نفسه يتعذب بزوجة شريرة. وقد عاش الزوجان في هاستيباك حياة بائسة معاً، وظلا يتشاجران بصوت عال، حتى أن الناس يستطيعون الوقوف على الطريق خارج المنزل وسماع كل كلمة يقولانها؛ وأصبحت الخيول في مزرعة يوناس خائفة ومكتئبة من شدة الصخب. وحدث أحياناً أن اضطر يوناس بيتر إلى النوم في كوخ الزريبة، لأنه لم يستطع النوم داخل نفس الجدران الأربعة حيث تنام زوجته بيرتا—ستافا.

تمدد روبرت على الأرض أمام النار، وتأمل العوارض المتصدعة المغطاة بالسخام في سقف غرفة المطحنة. ومرة أخرى فكر في عامل المزرعة الذي اختار الاتجاه إلى الطريق التي تذهب نحو اليسار بدلاً من تلك التي تذهب إلى اليمين.

والآن، سأل يوناس بيتر: «هل تتذكرون فريدريك من كفارنتوربيت الذي اختفى من البيت؟»

«فريدريك ثرون؟ نعم، أتذكره، ذلك الأبله!» قال أحد المزارعين.

كان وغداً، استأنف يوناس بيتر. كان كسولاً وخنزير عيد ميلاد مُسمّن جيداً، ويفضل السرقة على العمل. وإذا فُقد أيّ شيء، كان من السهل معرفة من

وجده وصادره. وقد سرق فريدريك من أجل المتعة أكثر من رغبته في الكسب، لكن ذلك لم يكن ساراً في كلتا الحالين لصاحب الحاجة المسروقة. واستخدم كل أنواع الخداع: كان يكسر البوابات، ويترك الخيول تخرج من إسطبلات الكنيسة بينما يصلي الناس في الداخل، ويحضر الأفاعي إلى الكنيسة في أيام الأحد. كان كل مزارع في الأبرشية يشمئز من ذلك المحتال من كفارنتروبيت.

كان والد الفتى يعمل فلاحاً في بيت القسيس، وقد أقنع صاحب الأملاك، الملازم روديبيرغ، باستئجار ابنه كعامل مزرعة وبأن يحاول أن يجعل منه رجلاً. وعندما عمل فريدريك في كراكيجيو لأسبوع، طلب منه الملازم أن يحضر زوجاً من الثيران كان قد اشتراهما من سوق كلينتاكروغيون. كانا حيوانين جيدين، مروضين جيداً، ويمكن لطفل أن يقودهما هذه المسافة القصيرة بلجام فالت. لكن فريدريك، الذي كان في العشرين من عمره، لم يستطع تدبُّر ذلك؛ وعاد إلى منزل القسيس بزوج آخر. لم يكن الملازم قد رأى أبداً هذين الحيوانين من قبل؛ كان قياس الحيوانين اللذين اشتراهما ثمانية وسبعين إنشاً حول الصدر، والآن جلب له عامله زوجاً من الثيران يبلغ قياسهما بالكاد ستة وستين إنشاً. ولم يكن هذان الحيوانان يساويان نصف الثمن الذي دفعه لقاء الثورين في السّوق. واشتعل الملازم روديبيرغ غضباً من رجُلِه الجديد هذا.

في الطريق إلى البيت من السوق، أجرى فريدريك مقايضة خاصة به، واستبدل ثورَي سيده بأخرَين أصغر —ووضع نقود الفرق في جيبه، بطبيعة الحال. لكن الأحمق الملعون أقسم عالياً وخفيضاً أن هذين هما نفس الحيوانين اللذين استلمهما: كان لونهما مطابقاً، أحمر مع بقعة بيضاء على الجبهة. كان فريدريك ذكياً. وقد بدا هذان الحيوانان أصغر إلى حدّ ما، كما اعترف، لكنهما انكمشا لأنهما لم يتناولا العلف طول النهار —وهذا كل شيء، كانا في الحقيقة نفس الثورين.

ومع ذلك، وجد الملازم روديبيرغ شهوداً قالوا إنّ هذين ليسا حيوانيه، وهكذا لم يستطع فريدريك أن يتملص ويكون حرّاً هذه المرة. لكن روديبيرغ مع ذلك شعر بالأسى لوالدَي الفتى. ولم يرد أن يضع خادمه في السجن، لكنه لم يعد يستطيع تحمل رؤيته. ولذلك اقترح على جيرانه أن يرسلوا فريدريك إلى أميركا الشمالية؛ وتبرع بدفع نصف الأجرة إذا شاركوه في دفع النصف الآخر.

ذلك البلد سوف يناسب فريدريك تماماً، قال الملازم. كانت أميركا أرضاً لكل المارقين وغير الأسوياء الذين لم يستطيعوا التعايش مع القانون والنظام في الوطن. وهناك يمكن أن يقايض الثيران مع الأشرار الآخرين بالقدر الذي يرضيه. أما إذا بقي في الوطن ووضعوه في السجن، فإنه سيعود إليهم ثانية بمجرد أن تنتهي محكوميته. لكنه ما إن يصبح في أميركا الشمالية، فإنهم سيتخلصون منه مرّة وإلى الأبد.

وساهم المزارعون بطيب خاطر بزوج من الدولارات من كل واحد لتحرير أنفسهم من ابن ثرون، الذي أصبح مصدر إزعاج لهم. وهكذا جُمعت النقود، ووُضع الفتى على متن عربة في كلينتاكورغين، حتى أن الملازم روديبيرغ جاء شخصياً ليشاهد أن خادمه الوغد يرحل إلى أميركا الشمالية ويطمئن.

ومرت بضعة أشهر وكان كل شيء حسناً. ولم يسمع أحد عن وقوع أذى وقال الجميع إن ذلك كان أكثر الأشياء التي فعلوها في حياتهم حكمة ـــ إرسال فريدريك إلى أميركا الشمالية.

سوى أن الأخبار انتشرت ذات يوم عن أن المسافر الأميركي عاد إلى المنزل في كفارنتروبيت مرة أخرى.

ولم يكن قد ركب أبداً السفينة إلى أميركا الشمالية. لقد ذهب فقط إلى غوتنبيرغ، وفي غوتنبيرغ بقي كل الوقت. هناك أقام في نُزُل، وشرب وصخب وعاش مثل سيد بقدر ما أسعفته النقود. وعندما أنفقها كلها عاد إلى البيت. والآن، أصبح هذا الشاب الوضيع ينظر إلى الناس الشرفاء في أعينهم كما لو أنه يتوقع منهم أن يكونوا سعداء لرؤيته وهو يعود مرة أخرى وبصحة جيدة. لقد كسب وزناً وبدا بحالة أفضل. ومن النقود التي أخذها من الناس الشرفاء عاش في تبطل، ونهم، وفسوق. وقال المارق إنك إذا أردت أن تعيش جيداً، فإنك لا ينبغي أن تعمل. كان بلا خجل أو حياء، حتى أنه تجول في أنحاء القرية وشكر الناس على إسهاماتهم في رحلته، قائلاً إنه استغلها بقدر ما يستطيع، وأنه نال بها الكثير من المتعة. وإذا كانوا ينوون القيام بذلك مرة أخرى، فإنه سيكون مستعداً تماماً ليقوم برحلة أميركية أخرى. لقد تاق دائماً للخروج ومشاهدة العالم، وذلك مفيد وتنويري للإنسان. قال إن هذه الأبرشية هي حفرة صغيرة قذرة، ولا تليق أبداً بالناس المحترمين العاقلين. وأمل في أن تكون إسهاماتهم

في المرة التالية كافية لتذهب به مسافة أبعد قليلاً في رحلته إلى أميركا.

وأصبح الناس غاضبين جداً من الفتى النذل العنيد من كفارنتروبيت حتى أنهم بصقوا عليه كلما رأوه. كان الشرّ مستحكماً فيه، وقد «مال به إلى الشرّ، ونأى به عن الخير.» كما هو مكتوب. أما الملازم روديبنرغ، الذي كان قد دفع نصف أجرة رحلته إلى أميركا ورآه بنفسه وهو يركب العربة إلى غوتنبيرغ، فلم تأخذه به رحمة هذه المرة: أبلغ عنه الشريف لسرقة الثورين. ومع ذلك، وعندما وصل لونيغرين إلى كفارنتروبيت ليجلب فريديك، وجده قد اختفى، ولم تستطع السلطات أن تضع يدها عليه منذئذ.

«كان ذلك قبل خمسة عشر عاماً الآن. ولم ير أحد فريدريك منذ ذلك الوقت. يقولون إنه خرج إلى البحر.» ختم يوناس بيتر.

تمتم المزارعون بكلمات غاضبة عندما أنهى المزارع من هاستيباك حكايته. وفكر روبرت: ربما يكون بعضهم قد ساهموا في رحلة فريدريك الأميركية في حانة غوتنبيرغ.

أثّرت بضع كلمات من قصة يوناس بيتر في روبرت بشكل خاص، وأخذ يفكر فيها: قال الملازم من كراكيسيو إن هنالك أرضاً تلائم أولئك الذين يسيئون التصرف في الوطن.

إذا اختفى أحدهم من خدمة سيد ولم يعد يظهر في الجوار، فإنهم يسجلونه تحت خانة «نهاية الأبرشية.» واستطاع أن يسمع صوت القسيس وهو ينادي على اسم في اختبار الخريف القادم: عامل المزرعة روبرت نيلسون من كورباموين. ليس هناك أحد من الحاضرين يعلم أين هو. ويكتب القسّيس: مكانه غير معروف. هكذا سيُكتب في السنة القادمة، وفي التي تليها. وبعد عشر سنوات، خمس عشرة سنة تالية، سيظل القسّيس يكتب في كتاب الكنيسة عن عامل المزرعة روبرت نيلسون: مكانه غير معروف. لم يسمع أحد منه منذ ١٨٤٨. وكل الوقت، سوف يُكتب عنه في قائمة «نهاية الأبرشية»: المكان غير معروف.

هكذا كان يُكتب عن أولئك الأحرار.

كم من الأميال يمكن أن تكون المسافة إلى أميركا الشمالية؟ لم يجرؤ على

طرح ذلك السؤال على أيّ من الحاضرين، إذ ربما يشرعون بالتساؤل عنه. ربما يستطيع أن يعرف من أحد الكتب.

لكن أميركا كانت أرض الناس الذين يسلكون الطريق الخطأ.

٣

هجم النعاس على روبرت جراء دفء غرفة المطحنة والجلبة الرتيبة التي تصدرها رحى الطّحن؛ وذهب لينام على بعض الأكياس الفارغة في الزاوية. واستيقظ في وقت متأخر بعد الظهر. كان يوناس بيتر والمزارعون الآخرون قد انصرفوا بطحينهم، وحل في مكانهم مزارعان آخران ينتظران طحينهما ويأكلان زادهما. لا شك أنهم ظنا روبرت عامل مزرعة ينتظر طحينه. وقد لاحظ أحدهما أنه لم يكن معه طعام فأعطاه شريحة خبز وقطعة من لحم الخنزير.

ثم تحدث نفس المزارع عن وفاة حدثت في ذلك الصباح نفسه: لقد غرق عامل مزرعة كان في طريقه للخدمة في نايباخن في جدول المطحنة. يبدو أنه سقط عن الجسر. وقد عثروا على سترته. وقام آرون من نايباخن بتفتيش البركة، لكن جثة العامل لم تُكتشف بعد. ومن الغريب بما يكفي أن خادمة من نايباخِن كانت قد غرقت في نفس البركة قبل بضع سنوات.

وعلم المزارع أيضاً أن الخادم الغريق هو ابن نيلس من كور□اموين. وكان الفتى قد هدأ مؤخراً فحسب. كان غريب الطباع بعض الشيء وهو صغير: كان يهرب من البيت، حتى اضطر والداه إلى تعليق جرس بقرة في رقبته ليتسنى تحديد مكانه.

وفاة مفاجئة لفتى يافع —حادث مروّع، وتنهّد المُزارع. وأضاف أن الضحية كان لحسن الحظ كبيراً كفاية لأن يتلقى القربان المقدس، بحيث يستطيع المرء أن يأمل الآن أن يكون مع المخلّص في البركة الأبديّة.

وقفت آخر لقمة من الخبز في حلق روبرت؛ وسعل قليلاً: لقد اعتقد نفس الرجل الذي أعطاه الخبز أنه يستحقّ سماءً مُباركة. كان رجلاً لطيفاً، ويجب شكره في وقت ما.

هنا في المطحنة، شعر روبرت بأن من الممكن أن يتعرف أحد عليه في أي

لحظة؛ يجب أن لا يمكث هنا وقتاً أطول.

وكان يعرف في أيّ اتجاه يجب أن يذهب: إنه يريد الوصول إلى كالزهامن، البلدة بجوار البحر: ينبغي أن يصل البحر.

اعتزم أن يسأل إذا ما كان أحد من الفلاحين قد جاء بالصدفة من الجزء الجنوبي من الأبرشية؛ ربما يستطيع أن يركب مع أحدهم قسطاً من الطريق. لكنه ما إن فتح فمه ليسأل، حتى دخل الطحان نفسه إلى الغرفة، مغطىً من قمة رأسه إلى أخمص قدميه بالطحين الأبيض. وبدا وكأنه يبحث عن شخص ما؛ ونظر إلى روبرت بحدّة.

«هل أنت ابن نيلس من كورباموين؟»

وأضاف وهو يلقي نظرة أقرب: «إنك حافي القدمين، وليس لديك سترة. لا بد أن تكون هو.»

أصبح الوقت متأخراً جداً على السؤال عن الركوب.

«إنّ سيدك هنا. سمع عنك من مزارعين آخرين.»

وعلى الدرجات المفضية إلى غرفة المطحنة، وقف رجل ضخم يغطي جبهته شعر كثيف أحمر ثعلبي. وكان خداه ناعمين ولامعين كما لو دهنا بدهن الخنزير، وقد استقرت في وجهه عينان صغيرتان حانتان. إنّه آرون من نايباخِن.

زحف روبرت متراجعاً ومنكمشاً إلى زاويته.

ابتسم آرون ابتسامة عريضة عندما لمح عامله المفقود.

«حسناً، حسناً، إذا لم تكن فتاي، مُساعدي الصغير ذاك.»

ومد يديه باتجاه روبرت، زوجاً من الأيدي المغطاة بشعر أحمر طويل خشن. كانتا ثقيلتين وخشنتين مثل غصني بتولا كثيري العُقد؛ أكبر يدين رآهما روبرت في حياته. وكانتا مثبتتين إلى زوج من الأذرع القوية، ذراعي آرون من نايباخِن؛ وقد تدلتا من جذع الرجل الذي كان سيّده.

حاول روبرت أن يجمع نفسه ويُخفيها في قميصه، في سرواله؛ أراد أن يُصبح صغيراً، صغيراً جداً بحيث لا يستطيع السيد أن يمسكه، بحيث لا يستطيع رؤيته.

لكن آرون بدا لطيفاً جداً الآن، وبدا صوته متسامحاً وناعماً مثل الكريما

الطريّة: «من السيئ أنك ضللت الطريق! يا فتاي الصغير، لم تعثر على نايباخِن هذا الصباح —الآن سأريك الطريق. العربة تنتظرك في الخارج.»

ومدّ يده الكبيرة وأمسك بالفتى من الكتف.

«التقط أغراضك وتعال.»

وسار روبرت خارجاً من غرفة المطحنة يتبعه المزارع. كان مُستأجراً وفقاً للقانون، ومرتبطاً بالرجل الذي يمتلك أكبر يدين رآهما في حياته.

خارج المطحنة وقف الحصان والعربة من نايباخِن، وهنا أصبح السيد والأجير وحدَهما. وأطبق آرون بأصابعه الغليظة على أذن روبرت، بينما اختفت ابتسامته الواسعة: وإذن، كان عامل المزرعة من ذلك النوع من الحمقى! وإذن، أراد أن يهرب، أليس كذلك؟! أراد أن يجعل الناس يعتقدون أنه غرق! وقد تسبب لسيده بعناء كبير —حيث أمضى كل الصباح في البحث عن العامل المفقود، الآن، في منتصف أكثر الأوقات ضغطاً في الربيع! وإذن، كان من تلك السلالة القبيحة وأراد أن يترك خدمته قبل أن يبدأها! هل هذه هي الطريقة التي يحترم بها الفتى الصغير المستأجَر أباه وأمه ويجلّ بها سيّده ويطيعه؟ لقد بكاه أبواه المسكينان اليوم لأنه غرق ومات، لكنهما سيخجلان غداً من كونه حيّاً. كان مُعمّداً وناضجاً، لكنه لم يستطع السير ميلاً واحداً بعيداً عن المنزل دون أن يختفي. وهو، آرون، سوف يخبر والديه بأنّه ما يزال عليهما أن يعلقا جرس البقرة في عنق فتاهما قبل أن يجعلاه يغادر المنزل.

«لقد نلت جلداً عنيفاً، يا فتاي الأجير. لكنني سأتركك مع لكمة صغيرة على أذنك.»

ولكَمَ خادمه على أذنه.

دفعت الضربة بروبرت وراء إلى عجلة العربة، واهتز العالم من حوله لنصف دقيقة، لكنه لم يسقُط. كان بوسع يد السيّد أن تضربه بشكل أقسى بكثير من دون شك؛ كان بوسع آرون أن يعطيه لكمة حقيقية على الأذن. واستطاع روبرت أن يسمع، ويفهم: كانت تلك لكمة صغيرة فقط هي التي تلقّاها.

هكذا ركب عامل المزرعة عائداً مع سيّده، نفس قطاع الطريق الذي ما كان يجب أن يسلكه هذا الصباح، وعاد كل الطريق التي سلكها خطأً.

وعندما وصلا الجسر فوق نهير المطحنة، حيث كان قد سلك في الصباح الطريق اليسرى، سلكت العربة الآن الطريق اليُمنى.

هكذا انتهى اليوم الذي حاول فيه روبرت نيلسون أن يخطو خطواته الأولى على الطريق إلى أميركا.

ما سمعه البقّ في غرفة الإسطبل

١

كان لمزرعة نايباخن سيد وسيدة، بالإضافة إلى سيدة عجوز تعيش على الحقوق المحفوظة للمسنين. وكانت فيها أيضاً ثلاثُ خادمات يعشن في غرفة العاملات، واثنان من عمال المزارع يعيشان في غرفة الإسطبل. وقد سكن أجيرا آرون في الحظيرة بجوار منامات الخيول. وضمت سقيفتهما طاولة خشبية، ودكة لكل منهما، وحشية محشوة بالقش، وبطانية حصان. وفي الجدران والحشيّات، أقام البقّ بأعداد كبيرة، وتكاثر بغزارة وبركة غير منقطعتين، مالئاً كل الثقوب والشقوق.

كان آرفيد، عامل المزرعة الأكبر سناً، ناضجاً وراسخاً وقويّ الأطراف، ولو أن لحية صبيانية ناعمة غير كثيفة ما تزال تغطي ذقنه. وكانت له بشرة فاتحة ضاربة إلى الحمرة، تتخللها عضات صقيع قديمة على أنفه الذي ينزف في الطقس البارد. وقد سمّاه آرون عامله الكبير؛ وسمّى روبرت عامله الصغير.

بدا آرفيد بطيء الكلام وخجولاً مع الناس، لكن روبرت بدأ في الليلة الأولى بعد أن ذهبا إلى النوم على حشيتيهما المحشوتين بالقش في غرفة الإسطبل بسؤال رفيقه في الخدمة لدى السيد والسيدة. أي نوع من المكان تشكله نايباخن هذه لخادم؟

وقبل أن يغفو في تلك الليلة، حصل روبرت من الولد الأكبر على صورة كاملة عن وضعهما: كان آرون شخصاً حاد المزاج؛ وإذا غضب، فإنه يمكن أن يوجه لمساعده لكمة على أذنه أو ركلة في قفاه. وبغير ذلك، فإنه في الحقيقة روح لطيفة محترمة ولا يؤذي أحداً. أما السيدة، فأقل عطفاً: إنها تضرب الخادمات، وتضرب زوجَها أيضاً، وكان آرون يخاف منها ولا يجرؤ على ردّ الضربة. لكن السيد والسيدة كانا يخافان كلاهما من أمّ الزوجة، السيدة المسنة

التي تعيش في «الغرفة الاحتياطية» في العليّة. كانت مسنّة جداً بحيث ينبغي أن تكون راقدة في قبرها منذ مدة طويلة، لو أن الشيطان كان يهتمّ جيداً بأداء عمله؛ لكن يبدو أنه هو نفسه خاف منها.

كانت الخدمة في المزرعة شاقة لأن السيّد كسول؛ ولذلك ترتب على الأُجراء أن يقوموا بإنجاز كافة الأعمال تقريباً.

٢

كانت للعامل الصغير الذي يترأسه الجميع أذنان جيدتان وعينان لمّاحتان. وقد استمع وشاهد كل ما يحدث في المزرعة، والتقط الأسرار. سمع كل التلميحات، ورأى كل العيون التي تتغامز، كما حدث عندما دارت الوشوشات والهمسات عن البقرة البيضاء الصغيرة الذي ذَبحوها في نايباخن في الخريف الماضي؛ البقرة الجميلة التي ذهبت إلى الذبح لأن آرون لم يجرؤ على تركها تعيش. لماذا لم يجرؤ على تركها تعيش؟

جمع روبرت كلمة من هنا، وأخرى من هناك: كانت البقرة الصغيرة حاملاً بعجل دون أن تكون مع ثور. وقيل إنه حدث أن ولَدت الأبقار عجولاً برؤوس ووجوه آدمية ـــ وحوشاً بشعة، نصف حيوان ونصف إنسان. هذا كان السبب في أنهم ذبحوا البقرة البيضاء الصغيرة عندما اقترب موعد ولادتها.

والآن، تساءل روبرت عن كيف حملت البقرة من دون أن تكون مع ثور. وجاء الجواب: من الأفضل أن يسأل آرفيد. لا أحد سوى آرفيد يعرف، ويمكنه أن يعطيه المعلومات الأكيدة.

هكذا علم بالتدريج أن جماعة المزرعة كانوا يوجهون اتهاماً مروّعاً لرفيقه في الخدمة.

لَم يقل أحد أيّ شيء بوضوح أبداً، وإنّما قيلَ كلُّ شيء بنصف كلام. كل الجمل انتهت عند المنتصف، وانكسرت بمجرد أن تلامس الاتهام نفسه. وقد همست الخادمات وأطلقن الضحكات المكبوتة؛ لا أحد استطاع أن يتحدث بصوت عال عن هذا الأمر. وقد سأل روبرت، ونطق هو أيضاً نصف جملة: «هل يتهمون آرفيد بـــ....؟» كلا ـــ لا أحد اتهم آرفيد بأي شيء؛ لكن على من يريد المعرفة أكثر أن يذهب إليه؛ إنه هو الشخص الوحيد الذي يعرف الحقيقة

عن البقرة الصغيرة. أما الآخرون، فكرّروا فقط ما قالته السيدة العجوز.

كان أصل الحكاية كلها عند العجوز ساكنة الغرفة الاحتياطية في العلية. ذات يوم في الصيف الماضي، حدث أنها شاهدت آرفيد وهو يقود البقرة البيضاء إلى حُجَيرة الأبقار. حدث ذلك في منتصف النهار، ولم يكن هناك أيُّ أحد سواه في الزريبة، ولم يطلب أيّ شخص من الأجير قيادة البقرة، ولم تستطع العجوز أن تفهم لماذا يجب أخذ الحيوانة إلى زريبتها في تلك الساعة. ولم ترَ السيدة العجوز شيئاً أكثر من ذلك: قاد آرفيد الحيوانة إلى الإسطبل. وهي لم تتهمه بأيّ فعلة قبيحة أو محظورة مع البقرة، وإنما قالت ذلك للخادمات فقط: أما الذي فعله آرفيد مع البقرة البيضاء في الزريبة، فإن الله وحده هو الذي يعلمه.

ولم تقل العجوز أكثر مما يمكن أن تتمسك به.

منذ الوقت الذي كان فيه صغيراً، كان روبرت يذهب مع والده عندما يجلب البقرات للثور، وعندما كان راعياً شاهد أكثر من مرة ثوراً وبقرة يتزاوجان. لم يكن ثمة شيء غير عادي في ذلك، وهو يعرف كيف تتصرف الحيوانات واستطاع أن يتخيل كيف يفعل البشر. لكنه لم يستطع أن يتخيل البشر والحيوانات يفعلانها معاً، ليس رجلاً وبقرة معاً —ولم يصدق أن رفيق سكنه يمكن أن يكون مذنباً بهذه الفعلة الشنيعة.

الله وآرفيد فقط يعرفان كيف حملت البقرة الصغيرة بعجل... كانت السيدة العجوز هي التي بدأت الشائعة البشعة، والخادمات صدقنها. وقد عاملن آرفيد كما لو كان مجذوماً؛ كنّ يبتعدن عنه بسرعة إذا صدف وأن لمسنه، وكنّ يرفضن أن يبقين وحيدات معه. وأكثر من ذلك، أخذت الإشاعة عن عامل المزرعة في نايباخن والبقرة الصغيرة بالانتشار في الجوار، وأصبحت الفتيات الأخريات يتجنبن آرفيد الآن أيضاً. وقبل ذلك، كان يذهب في بعض الأوقات لزيارة خادمة في المزرعة المجاورة؛ أما الآن، فلم يعد بوسعه أن يراها. لم يرد أحد أن تكون له أي صلة بفتى متهم بمثل هذا العمل المخجل.

بعد أن قضى شهراً في الخدمة، طلب روبرت إجازة ليزور والديه في كورباموين ذات يوم أحد، لكن طلبه قوبل بالرفض. لم يكن السيد قد كوّن ثقة كافية بعد بعامله الصغير حتى يسمح له بالخروج من المزرعة. وقال آرفيد إن

آرون ربما فكر بأنه سيعود إلى البيت ليشكو من الخدمة ويقلل من شأن سيده. والآن، علم روبرت أن رفيقه الأكبر لم يخرج من المكان منذ نصف سنة، مع أن منزل والديه يبعد ثلاثة أميال فقط. لكن روبرت فهم السبب في أنه يبقى بعيداً عن الناس: لا أحد يُتهم بإقامة علاقة مع بقرة سيرغب الظهور أمام الناس بأكثر مما هو ضروري. كان ذلك اتهاماً كريهاً إذا كان صحيحاً، بل وأكثر دناءة إذا لم يكن صحيحاً.

قال آرون إن روبرت لن ينال أيام إجازة خلال السنة، لأنه أخفق في الحضور في موعده، حتى تطلب الأمر أن يجلبه السيّد إلى الخدمة بنفسه. كما تساءل أيضاً عن السبب في رغبة الصبي الذهاب مهرولاً إلى البيت وإلى أمه: أما يزال يرضع؟

لكن عاملَي المزرعة في نايباخن نالا بعض لحظات الحرية بعد ظهر أيام الأحد في غرفة الإسطبل، عندما كانت الخيول تخرج لترعى العشب، ولا تحتاج إلى علف ولا ماء ولا تنظيف. وعندئذ، كان روبرت يُخرج كتابه «تاريخ الطبيعة» ويقرأ منه بصوت عال لصديقه.

كان آرفيد قد انضم إلى المدرسة لأسبوعين فقط، ولم يتعلم القراءة أبداً. لكنه ظلّ يتظاهر بأنه يستطيع القراءة؛ كان يتناول «تاريخ الطبيعة» أحياناً، ويحدق في الكتاب بتعبير متأمل عميق، كما لو أنه يقرأ. وبعد أن يمر وقت مناسب، كان يقلب الصفحة ببطء وجدّية، كما لو أنه يتأمل محتواها بعمق. ثم يتكرر الأمر نفسه في الصفحة التالية. لكن روبرت ضبطه ذات مرة وهو يحمل الكتاب بالمقلوب.

ولم يكن آرفيد «يقرأ» لوقت طويل، وإنما يشكو من أن القراءة تؤلم عينيه؛ إن الكلمات في الكتاب صغيرة جداً ومعوجّة بحيث تصعب رؤيتها؛ ولم تكن عيناه قويتين أبداً؛ وبعد القراءة لفترة، تصاب عيناه بألم واخز كما لو أنه يحدق في وهج النار. وقد اضطر إلى ترك المدرسة، كما قال، لأن عينيه ضعيفتان.

وعندها، يعطي كتاب «تاريخ الطبيعة» لروبرت. «اقرأ أنت! عيناك تستطيعان تحمل ذلك.»

وهكذا، كان فتى المزرعة الكبير يتظاهر بأنه يستطيع القراءة، والصغير يتظاهر بأنه يصدقه.

ويقرأ روبرت جهراً من «تاريخ الطبيعة» عن الهواء والماء، عن الحيوانات والنباتات، عن التماسيح والأفاعي المجلجلة، عن دود الحرير والفراشات، عن أسود البحر والسمك الطائر، عن أشجار البهارات وأجمات البن، عن الصحراء الحارقة والبحار القطبية، عن قمل أوراق الشجر والكواكب، عن ينابيع الماء الساخن والبراكين. وتعلم آرفيد عن كل الموضوعات المدهشة والظواهر التي توجد على سطح الكوكب، لكنه لم يرها أبداً. وعندما يغلق روبرت الكتاب، يقول آرفيد إن من المؤسف أنه لا يستطيع القراءة بنفسه كما يريد، بسبب عينيه الكليلتين؛ كان بصره جيداً لأيّ شأن آخر، لكن له قيمة ضئيلة عندما يتعلق الأمر بالكلمات في كتاب.

الآن، ومن بين كل الأطعمة في العالم، كان آرفيد يحبّ عصيدة الأرز أكثر ما يكون. لكنه يستطيع التمتع بعصيدة الأرز مرة واحدة في العام فقط — في يوليتايد. وذات أحد، كان روبرت يقرأ عن الأرز في «تاريخ الطبيعة». وعندما انتهى من القراءة، قال آرفيد: «اقرأ هذا عليّ مرة أخرى!»

وقرأ روبرت:

«عن الأرز»

«الأرز هو حبوب تُزرع بكميات لا تصدّق في الدول الدافئة. ثم يتم شحن البذور إلينا وتُدعى حبوب الأرز. ومنها تُطبَخ مع الحليب عصيدة حلوة لذيذة. ويأتي أفضل الأرزّ من كارولينا في أميركا الشمالية...».

استمع روبرت وقد فغر فمه، وهو يحلم في ذهنه بالعصيدة الحلوة. لقد مر نصف سنة تقريباً منذ عيد الميلاد؛ وبين الآن وطبق عصيدة الأرز القادم، ما تزال هناك عدة مئات من سمكات الرنجة المالحة التي يجب أن يأكلها؛ كان آرون قد ذهب مؤخراً إلى كارلسهامن وجلب إلى البيت برميل رنجة، ويتوقع من أهل المزرعة أن يبلغوا قاع البرميل قبل أن يتم طبخ العصيدة البيضاء الحلوة.

ومضى روبرت في القراءة إلى فصل جديد:

«عن قصب السكر»:

«كل السكر المُستهلك في بلدنا تقريباً يُصنع من قصب السكر؛ وهو عشبة طويلة، يبلغ ارتفاعها من ثماني إلى عشر أقدام، وتنمو في البلدان الدافئة مثل الهند الشرقية وأميركا...».

حك فتى المزرعة الكبير مؤخر عنقه حيث تبقت لدغات طازجة من بقّ الليلة الفائتة. ثم نظر عبر النافذة إلى الخارج، مفكراً. ثمة أرض ينمو فيها كل من السكر والأرز، اللذين يشكلان الحبوب والحلاوة في العصيدة. لكنه عرف أن ذلك المكان هو عالم بعيد، مفصول عن بلده بماء عظيم. ولم يكن هو ولا روبرت قد رأيا كميات من الماء أكبر من البحيرات الجبلية هنا في الأبرشية، وهذه صغيرة جداً حتى أن بإمكان المرء يجدف دائراً حول الواحدة منها في ساعة واحدة. وشرع آرفيد في التساؤل عن البحر الذي يفصل بلده عن أميركا.

وفجأة، كما لو كان يتحدث إلى نفسه، قال: «أتساءل كم يمكن أن يكون المحيط واسعاً؟»

رفع روبرت أنظاره، مرتبكاً. كان بوسعه أن يجيب عن السؤال، كان بوسعه أن يقول لآرفيد أشياء كثيرة عن المحيط. لكنه يحمل سراً وينبغي أن يحرص عليه جيداً؛ ينبغي أن يتصرف بحكمة وحذر، ينبغي أن لا يثق بأحد، حتى ولا برفيقه في الخدمة.

وهكذا، في أيام الأحد، جلس آرفيد وروبرت هناك، ينظران عبر نافذة سقيفة الإسطبل الوحيدة. كانت أفاريزها مبقعة وغير مغسولة، وقد انتشرت في الزوايا شباك العناكب المليئة بالذبابات الميتة، وقد تحلل الكلس المطليّ على إطارها وذهب منذ زمن طويل. كانت نافذة صغيرة قذرة وبائسة هي التي تسمح بدخول الضوء إلى الرجلين الأجيرَين في نايباخِن. لكنهما كانا يستطيعان من هذه النافذة رؤية العالم، كان بوسعهما النظر عبر فناء الإسطبل ورؤية الأرض المزروعة بعده، واستطاعا أن يريا طريق القرية التي تمر بالجوار. وأبعد مما

يمكن أن تبلغه أبصارهما، كانت أفكارهما تناضل لتذهب أبعد. كانت أفكارهما تغامر بارتياد طرق لم يسلكها أحد، ممتدة إلى بحر لَم يره أحد، ثمّ عبر مياه المحيط.

كان أحدهما قد اتخذ قراراً؛ وكان الأول الذي يفعل ذلك في الأبرشية.

٣

أخرج آرفيد جزءاً من أجره الذي يتقاضاه في شكل برانفين في هدأة المزرعة. وذات ليلة سبت، وبينما كان الولدان يجلسان في غرفة الإسطبل التي ينامان فيها بعد يوم من الكدح، أحضر آرفيد زقّه الذي كان آرون قد ملأه له تواً، وعرض شراباً على صديقه. ولم يكن روبرت قد تعلم شرب البرانفين وحده بعد؛ كان ما يزال يغمسُ الخبز فيه فقط. وحتى يُسعد آرفيد، قبل بكوب من الشراب وشربه، وشعر بعد ذلك كما لو ان غصين عرعر شائك علُق في حنجرته.

كان آرون قد ذكر اليوم أن اختبار التعليم الشفهي لهذا العام سوف يُعقد في نايباخِن، وآرفيد الذي تعرض العام الماضي لتوبيخ عنيف من القسّيس لأنه لم يستطع تلاوة «الوصية الرابعة»، انتظر هذا اليوم بقلق.

«سأل القسّيس عمَّن هم سادتنا، ولم أستطع الإجابة،» قال.

«إن سادتنا هم كل أولئك الذين وُضعوا بمشيئة الرب فوقنا في المنزل، والدولة، والمدرسة، وفي المكان الذي نعمل فيه،» ردّد روبرت بغير تكلُّف.

«أوه، يا يسوع المسيح!» وحدق آرفيد بإعجاب في صديقه الصغير، الذي بدا شامتاً وهو يستعرض معرفته الفائقة.

«لقد منح الله آباءنا وسادتنا السلطة علينا، بحيث يستطيعون -كخدم للربّ- أن يعتنوا بنا عناية أبويّة، ويستطيع كلٌّ من موضعه أن يسهر على رفاهيتنا الصحيحة. فلتكن كل روح خاضعة للسلطات العليا. لأنها ليس ثمّة سلطة سوى سلطة الربّ: أما بقية السلطات فيرتبها الربّ نفسه. فهل تكون آنئذٍ خائفاً من السلطة؟ افعل الخير، وسوف تحظى بالإطراء بنفس المقدار.»

«يا إلهي العظيم!» قال آرفيد متعجباً، وفي غمرة دهشته شرب الكثير من كوب البرانفين حتى أنه غصّ بالشراب.

يستطيع روبرت أن يجلجل بالدروس القديمة بلا نهاية. ويستطيع أن يعلِّم شيئاً منها أيضاً لصديقه. «هل تعرف كم لدينا من المسؤولين والسادة، يا آرفيد؟ أعني، في العالم كله.»

«كلا..!!»

رفع روبرت يده اليمنى وشرع في العدّ على أصابعه. طوى أصبعاً لكل ربّ وسيد. أولاً، هناك الملك، ثم الحاكم أسفل الملك؛ والثالث هو الشّريف الملَكي، الذي يأتي بعد الحاكم؛ الرابع هو الشريف لونيغرين، والخامس هو معاون الشريف. السادس هو القسّيس، سلطتهم الروحية؛ والسابع هو سيدهما نفسه، آرون صاحب نايباخِن. الشريف يسهر عليهم ليتأكد أنهم يلتزمون بمكان خدمتهم، والقسّيس يراقبهم في الاختبار السنوي، وآرون يشرف عليهم ليضمن أنهم يعملون ويكسبون أجرهم بعرق جباههم. إنهم سبعة أسياد ومُشرفين في المُجمل.

«يا للمسيح! يا له من عدد كبير من السادة!»

«الآن تستطيع أن تسمّيهم للقسّيس في الاختبار،» قال روبرت.

«سأحاول أن أتذكر.» وشرع آرفيد في العدّ على أصابعه: «الملك، هو السيد الأول... ما اسمه؟»

وشرح روبرت: الملك الذي جلس بمشيئة الرب على عروش السويد والنرويج اسمه أوسكار الأول، ومنه ومن خلاله تتوزع بقية السلطات.

وراجع قائمة السادة مع صديقه عدة مرات، وفي النهاية استطاع آرفيد أن يسمي كل أولئك السبعة الذين لديهم، بمشيئة الربّ، سلطة عليهم.

وبعد بعض الوقت تعب روبرت من إقامة مدرسته هذه؛ كان قد شرب عدة أكواب من البرانفين وشعر بالنعاس؛ فخلع ملابسه واندسّ تحت بطانية الحصان. وجلس آرفيد وحيداً وقد وضع كوب البرانفين أمامه، واستمر في الشُرب؛ أصبح يشرب أكثر من المعتاد في الآونة الأخيرة. ونشر مصباح الإسطبل الذي يتأرجح معلقاً من مسمارٍ على الجدار نوراً خافتاً في أرجاء الغرفة. ومن الجهة الأخرى، كان يسمع لُهاث وشخير الخيول وصوت حذواتها

وهي تصطدم بأرضية الإسطبل. وصيادات الليل —حشرات البق— خرجت من شقوقها وثقوبها وأسرعت في طريقها لامتصاص الدمّ.

وخلُد روبرت إلى النوم وقد علُق عبَق البرانفين في أنفه.

فجأة، أيقظته ضجة. وقد أغفى برهة قصيرة فحسب. كان المصباح على الجدار ما يزال مضاءً، وكان الباب مفتوحاً ويصفق في الريح العاصفة؛ وقد أيقظه صوته. لكن آرفيد لم يكن في سريره. لقد اختفى.

هز روبرت الزقّ على الطاولة: كان فارغاً. وساوره القلق على صديقه.

لبس بنطاله بسرعة وأسرع إلى فناء الإسطبل. وفي الخارج، في ضوء القمر الصافي، استطاع تمييز هيئة شخص يتحرك قريباً من باب سقيفة الحطب. واقترب أكثر؛ كان ذلك هو آرفيد، مغادراً السقيفة متأرجحاً. وكان يحمل بلطة في يده.

«ما الذي تنوي فعله؟»

تأرجح آرفيد وراءً وأماماً، وتتابعت أنفاسه سريعة، وكان رأسه عاريا، وشعره الأشعث يطير في كل الاتجاهات، وفمه مفتوح على وسعه. كانت شفته العليا سميكة ومتورمة، وخداه بلون الدم؛ لقد تعثر وآذى نفسه. وبدت عيناه في ضوء القمر محتقنتين وجاحظتين. وقد أحضر من سقيفة الخشب بلطة ثقيلة.

«هل ستقوم بتقطيع الحطب؟ في منتصف الليل؟»

«كلا.... ليس الخشب.... شخص آخر.»

«هل تسير وأنت نائم؟»

«هناك شخص.... شخص سوف يموت... الآن، الليلة.»

«آرفيد!»

«السيدة العجوز سوف تموت الليلة.»

«آرفيد، أعِد البلطة!»

كان آرفيد سكرانَ وغير مدرك لتصرفاته على ما يبدو. كانت عيناه مشتعلتين بالغضب. وصرخ روبرت: «اترك البلطة!»

«سوف أقتل العاهرة!»

«أنت مجنون!»

«سوف أقطع أنفها، الخنزيرة العجوز!»

«آرفيد، أرجوك... أرجوك....»

«لقد دمّرتَ حياتي. يجب أن تموت!»

وسار آرفيد مترنحاً باتجاه المنزل.

وركض روبرت خلفه. أمسك برفيقه من ذراعه باحثاً عن مقبض البلطة.

«آرفيد، أرجوك....»

«أفلت البلطة!»

«اسمتع إليّ. سوف تدمر حياتك كلها.»

«لقد دُمّرتُ وانتهى الأمر.»

«ولكن، استمع، إنك لا تدرك ما تفعله!»

«أفلت البلطة أقول لك. اتركها!»

وتعارك أجيرا المزرعة على البلطة. خشي روبرت أن يجرح نفسه بالنصل الحاد؛ وكان آرفيد أضخم وأقوى، وسرعان ما أخذ البلطة منه. لكن ساقَي آرفيد كانتا سائبتين وغير ثابتتين بفعل البرانفين، فانزلق ووقع على ظهره، مسقطاً سلاحه على الأرض. والتقط روبرت البلطة بسرعة دون أن يلحظه آرفيد، وألقى بها بعيداً بقدر ما استطاع؛ وسقطت بين أجمات الكشمش قرب الحظيرة. وانقلب آرفيد وشرع في تحسُّس الركام باحثاً عن البلطة. وحاول روبرت أن يتحدث إليه بتعقل: «نحن صديقان. وأنا أريد أن أساعدك يا آرفيد.»

وسرعان ما هدأ الرجل الثمل؛ لم يعد يبحث عن البلطة، وإنما ظلّ يتمتم مرة تلو المرة: «إنني تعيس جداً... تعيس جداً....»

ارتعب روبرت من ذلك الغضب الذي طفا فجأة هكذا وظهر على رفيقه رقيق الطباع. وأخذ يرتجف تحت وطأة الريح الباردة، ومن العراك الذي خاضه.

«أشعر بالبرد، دعنا نذهب إلى النوم الآن.»

وبعد بعض الوقت، استطاع أن يقنع آرفيد بالعودة إلى غرفة الإسطبل. وألقى الرجل الثمل نفسه بكامل قامته على سريره؛ وبدت كلّ قوته وأنها غادرته. واستلقى هناك، ممتقعاً ومنهكاً، وظل يغمغم: «في بعض الأوقات، أرغب في قتلها... عاهرة الشيطان في العلية.»

فكر روبرت أن من الأفضل أن يترك رفيقه وحده حتى يصبح أكثر هدوءاً.

وبدأ خدر آرفيد بالخفوت وأخذ ذهنه يصفو. وجلس في سريره، وكان صوته طبيعياً عندما سأل: «أتعلم بماذا تتهمني؟»

«نعم.»

«هممم... هكذا ظننت. إنّه كله من اختراع العاهرة العجوز —كله! أنت تعرف هذا، أليس كذلك؟»

«أعرف ذلك يا آرفيد.»

تمتم الفتى الأكبر بشيء غير متساوق، ثم سكت ولم يقل شيئاً لبعض الوقت. لكنه استقام فجأة في سريره واستمر، وبدا الآن وأنه قد استعاد حواسه تماماً. إنه لم يفعل أي شيء مروّع أو محرم مع البقرة الصغيرة البيضاء. ولو كان هذا هو سرير موته ولم يكن قادراً على قول أي شيء آخر، فإن هذا ما كان ليقوله للقسيس، وللشريف، وللسلطات —لكل الناس على وجه الأرض سوف يقول هذا: إنه لم يختلط أبداً بأي حيوان. قالت المرأة العجوز ذلك فقط، والله وحده يعلم ما فعله مع البقرة البيضاء في الحظيرة. الله في سمائه يعلم أنه هو، آرفيد، كان بريئاً. ولكن، أي بهجة سينال من ذلك وأيّ سلوى عندما يعتقد الناس أنه مذنب، عندما يصدق الناس أنه فعلها؟

لم يعرف روبرت كيف يجيب، سوى القول إنه هو نفسه لم يصدق أبداً ذلك الاتهام.

وبالإضافة إلى ذلك، قال آرفيد، لم تكن البقرة البيضاء حاملاً بعجل، كانت تلك كذبة، كذبة اخترعتها العجوز الشمطاء في العلية، بعد ذبح البقرة بوقت طويل. لم تكن البقرة ستضع أبداً أي وحش برأس آدمي لو أنهم أبقوا على حياتها.

«لماذا لا تقاضي المرأة العجوز في المحكمة؟»

نعم، لقد فكر روبرت بتبرئة نفسه بتلك الطريقة، لكنه خاف من المحكمة؛ لم يحب فكرة الاضطرار إلى الوقوف هناك، بينما يحدق فيه الناس جميعاً؛ وربما تنتشر الإشاعة بشكل أسوأ إذا وصلت إلى محكمة المقاطعة ووُجِدت المرأة العجوز غير مذنبة — فعنْد كل شيء، هي لم تتهمه مباشرة، وإنما قالت فقط

إن الله وهو وحدهما يعرفان ما فعل.

نادراً ما رآها روبرت خارج البيت، المرأة الضئيلة في الإزار الرمادي وغطاء الرأس الأسود، المخلوق الواهن المسحوق الذي لم يبدُ أن لديه القوة ليؤذي ذبابة. ومع ذلك دمّرت حياةَ آرفيد، مَظلمةٌ كبيرة وقعت عليه. لماذا لم يستطع الله، كلّيّ العلم والقدرة، أن يكشف الحقيقة، بحيث تُبرأ ساحة آرفيد؟

«أتعرف بماذا يدعونني؟» سأل آرفيد.

«كلا.»

«اسمع...»

بينما كان يسير في الطريق قبل أيام، التقى ببعض الأولاد الذين سخروا منه. وقد سمع كلماتهم —شيئاً عن الثور من نايباخِن. كانوا يشيرون إليه. لقد سماه الناس «ثور نايباخِن.»

جلسا صامتين ثانية في غرفة الإسطبل. وشعر روبرت بتشنجات مفاجئة في عينيه؛ لقد عرف لماذا أصبح رفيقه يملأ زق خمرته كثيراً جداً في الآونة الأخيرة.

استمر آرفيد في الحديث، وأصبح صوته الآن مرتعشاً. لقد أصبحوا يدعونه «الثور». لا عجب أن النساء كلهن يزدرينه، ولا عجب أن الفتيات يختفين أمامه. من هي التي تُريد أن يراها أحد بصحبته شخص يُدعى الثور؟ سوف يُشار إليه دائماً بذلك الاسم، حتى لو أنه لم يؤذ إنساناً ولا حيواناً قط. وقد حاول أن يتحمل ذلك، لكن ذلك الاسم الكريه سوف يعلق به للأبد؛ وسوف يُعامَل كأبله وأفّاق، وشخص منبوذ يمقته الناس. لن يستطيع أن يُري الناس نفسه في هذا الريف كله.

هكذا فهم روبرت لماذا خرج رفيقه وأحضر البلطة.

استلقى آرفيد مرة أخرى، لكن جسده كان يرتعش: كان يبكي. وقد بكى بصمت، بينما يهتز جسده كله. واستلقى على ذلك النحو لبعض الوقت.

الآن، عرف روبرت ما يكفي: لم يتحمل آرفيد أن يدعوه الناس «ثور نايباخِن»؛ وفي الحقيقة، لا أحد يستطع تحمل البقاء في الجوار. على أي شخص يعاني ما عاناه آرفيد أن يرحل بعيداً.

وعرف روبرت أيضاً ما يجب عليه أن يفعل: لا بد له أن يثق برفيقه.

وفي المساء التالي، كشف له عن أسراره. جلس أجيرا المزرعة كالعادة في سريريهما، مستعدين للاستراحة، وحيدين في غرفة الإسطبل. وقد نام كل من المزرعة. لكن روبرت تصرف كما لو أن الشريف لونيفرين يقف خارج النافذة ويستمع إليهما. تحرك مقترباً من سرير آرفيد وجلس قريباً منه؛ وتحدث همساً رغم أنه لم يكن بوسع أي كائن حيّ أن يسمعه، سوى صديقه وحشرات البقّ في شقوقها وأماكن اختبائها. والآن، كشف عن نواياه الإجرامية: «إنني أحمل سراً ثقيلاً يا آرفيد. أنت الإنسان الوحيد الذي أثق به. هل أستطيع الاعتماد عليك؟»

«لو قطعوا رأسي من أجل ذلك، فإنني لن أقول شيئاً!»

تصافحا بالأيدي، وتخفّف الفتى الأصغر من عبئه: إنه ينوي الهرب من الخدمة. لكنه لن يتصرف هذه المرة بحماقة كما فعل في الربيع لدى دخوله الخدمة. سوف ينتظر حتى الخريف، عندما يحملون أخشاب البلوط إلى كارلسْهامن. إنه يستطيع الآن قيادة عربة، وسوف ينضم بلا شك إلى رجال نقل الخشب، ويقود فرس آرون العجوز. لكنه، بمجرد أن يغيب عن أنظار آرون مع الفرس، فإنه لن يراه مرة أخرى: يمكن أن تعود الفرس وحدها إلى نايباخِن. وفي ذلك الوقت، سيكون السائق قد أصبح بعيداً. وفي كارلسْهامن، سوف يركب إحدى السفن ليبحر إلى أميركا الشمالية —إلى العالم الجديد.

«هل تأتي معي يا آرفيد؟ سوف تتخلص من اسمك —الثور.»

لم يجد آرفيد ما يقوله؛ وإنما حدّق فقط، هكذا تجلّت دهشته؛ استطاع فقط أن ينظر إلى رفيقه، إلى فتاهُ الذي في الخامسة عشرة من عمره، لكنه يحيك الخطط بدأب ليهرب بحمل خشب سيده —الفتى المتهور الجريء الذي يخطط لعبور المحيط!

لم يكن آرفيد يعرف أي شيء مما تخمّر في عقل روبرت منذ ذلك اليوم الربيعي، عندما سلك الطريق الخطأ عند الجسر فوق جدول المطحنة، في طريقه إلى الخدمة.

لقد اكتشف روبرت شيئاً ساعده في طريقه؛ واستخرجه الآن من مخبئه السري —تحت حشية سريره— كتاب صغير في غلاف ضيق مبقع بالبني وظهر مختوم بالذهبي: «وصف الولايات المتحدة لأميركا الشمالية.»

كان ذلك هو مساعدته السرية؛ من خلال هذا الكتاب، حصل على كل المعلومات التي يحتاجها.

عندما يُعمِل روبرت مشط الأرض في كومة الروث، عندما يحمل منجله في وقت الحصاد، عندما يقف على المذراة أو يدرس القش في الحظيرة، وعندما يجلس هنا في الغرفة وينظر عبر النافذة —دائماً كانت أفكاره تحمله عبر البحر. ورويداً رويداً، كانت أرض أخرى تنهض من الشاطئ الآخر. مثل وردة تزهر في التربة السمراء، وتطرح براعمها وتفتح تاجها، هكذا كانت تلك الأرض تنمو في خياله. والآن، عبر المحيط وأصبح يألف الأرض التي وراءه: أميركا.

هناك عالمان —عالم الطبيعة وعالم الإنجيل، هذا العالم والعالم الآتي. لكن هذا العالم مقسوم مرة أخرى إلى جزأين: قديم وجديد. ويقع وطنه في العالم القديم، في العالم الضعيف وسهل القياد، بالياً، ومليئاً بقروح السنين. عالمٌ أناسه ممزقون، بالون، مسنّون وضعفاء ومنتهون. في قراهم القديمة أصبح الزمن ساكناً؛ وفي أكواخهم القديمة التي نما عليها العشب، لم يحدث شيء لم يكن قد حدث من قبل؛ ثمّة الأبناء يطيعون آباءهم ويقلدونهم، ويفعلون ثانية نفس الشيء الذي كان آباؤهم قد فعلوه قبلهم. لم يعد بوسع العالم القديم أن يستمر ويمضي قدماً مزيداً من السنين؛ ولن يمرّ طويل وقت قبل أن يتعثر ويسقط بكل الناس البالين الذين يعيشون فيه.

ولكن، بعيداً، على الجانب الآخر من الكوكب، هناك العالم الجديد، المكتشف حديثاً، المسكون قريباً. كان العالم الجديد يافعاً، طازجاً، ومليئاً بالعزّ والغنى اللذين يجاوزان الخيال. وأولئك الذين هاجروا واستقروا هناك هم أناس شباب سريعون ورشيقون، وما تزال كل حياتهم ممتدة أمامهم. كان يقطن العالم الجديد كل الذين أرادوا أن يكونوا أحراراً، والذين لم يريدوا أن يخدموا تحت سلطة السادة. إلى العالم الجديد، هاجر كل أولئك الذين عاشوا في أوطانهم فقراء ومضطهدين، كل أولئك الذين عاشوا مقموعين ويعانون، والمعدمون وأولئك المليئون بالحَزَن، المطاردون، وأولئك الطافحون باليأس.

كلُّ مَن لم يكن راضياً بقسمته في العالم القديم، رحل إلى العالم الجديد. كانت أميركا هي المكان المناسب لروبرت — ولآرفيد.

٤

عندما أقام رينالدو مدرسته في نايباخن في ذلك الربيع، سأله روبرت عما إذا كان يعرف كتاباً يضم وصفاً صادقاً لأميركا الشمالية. وقال أستاذ المدرسة إنه رأى مؤخراً إعلاناً عن مثل هذا الكتاب في صحيفة «باروميتيرن» مقابل ثمانية وأربعين شلناً — دالير سويدي واحد — بما في ذلك أجرة إرساله بالبريد. وطلب رينالدو الكتاب لروبرت، وأقرضه الثمن حتى يأتي الوقت الذي يقبض فيه الفتى راتبه. وقد ساعده الأستاذ عن طيب خاطر: كان روبرت هو طالبه الوحيد الذي يقرأ الكتب بإرادته الخاصة.

ومنذئذ — في غرفته خلال الليالي الصيفية — قرأ روبرت «وصف الولايات المتحدة لأميركا الشمالية» ثلاث مرات كاملة من الغلاف إلى الغلاف. كان الكتاب قد كُتِب من أجل الأشخاص قليلي التعليم ممن ينوون الهجرة إلى العالم الجديد. وطمأن الكتاب قرّاءه، حتى منذ الصفحة الأولى، إلى أنه وصف صادق: قال إن الكثير من محتوياته ربما تبدو للبسطاء والجاهلين غير قابلة للتصديق، ومبالغاً فيها، ومختلقة، لكن كل شيء فيه هو الحقيقة الواضحة، الناصعة والجميلة. وأضاف أنه ليس فيه شيء جرى تغييره أو فبركته؛ وإنما وُضِع كل شيء بأمانة.

وحفظ روبرت أهم فصول الكتاب عن ظهر قلب، أو كذلك تقريباً. والآن، أصبح بوسع آرفيد أن يحصل منه على المعلومات التي يريدها عن العالم الجديد. وقد روى عامل المزرعة الصغير الحقائق، بينما العامل الكبير يستمع. كان في السويد أناس من الطبقات الحاكمة يقومون بنشر الأكاذيب عن الولايات المتحدة لأميركا. وقالوا إن ذلك البلد مناسب فقط للمُحتالين. وقام الملازم في كراكيسيو بإرسال فرديريك من كفارنتوربيت، الذي لم يكن محبوباً في الأبرشية — إلى هناك (وكان فريدريك فقط هو الذي عاد إلى كوتينبيرغ). وقد أصر الملازم على أن قطاع الطرق غالباً، والأوغاد واللصوص والأشرار هم

الناس الذين يعيشون في أميركا. لكن تلك كذبة. كان الأميركيون أناساً صادقين ومستقيمين في أفعالهم وتعاملاتهم، مرتبين ونظيفين في بيوتهم ومظاهرهم، وكانوا شجعاناً، وكرماء، وأخلاقيين ويساعدون الآخر. وبطبيعة الحال، هناك من بينهم صانع شر بين الحين والآخر. وكانت كذبة أيضاً أن أميركا حارة بحيث لا يمكن تحملها، حتى أن الهنود، والسود، والوثنيين فقط هم الذين استطاعوا تحمّل مناخها. إن الناس في العالم الجديد يستطيعون تنسم الهواء، وأكل الطعام، وشرب الماء؛ ولم يختنق أحد هناك أو يتسمّم. وفي تلك الأماكن الأكثر صحية، عاش الهنود وعُمّروا حتى سن كبيرة، حتى أنهم لم يموتوا بنفس الطريقة التي يموت بها الناس هنا في الوطن: كانوا يجفّون وينكمشون في شيخوختهم، ويصبحون خفيفين بحيث يطيرون ويختفون في الهواء. لكن ما أبقاه السادة سراً هو أن الناس في العالم الجديد لم يكونوا مقسومين إلى نبلاء وعاديين، كما هو الحال في مملكة السويد. في أميركا، لم يكن أحد يتمتع بالسيادة على أيّ أحد آخر، لأن الجميع هناك متساوون. كان الأباطرة والملوك ممنوعين هناك؛ لم يتسامح الأميركيون مع وجود أي سادة؛ ولم يكن على المرء هناك أن ينحني ولا أن يجامل. وليس ثمّة كبرياء كاذبة بين الأميركيين؛ لم يكُن هناك أحَد يُنظر إليه بدونية أو برفض، لأنه يمارس عملاً قذراً ووضيعاً. كل أنواع العمل هناك تعتبر مهمة بنفس المقدار؛ والمزارع الذي يملك ألف فدان من الأرض الزراعية، يعمل بنفسه كل اليوم مع أجرائه. فمتى حدث أبداً أن شاهد أحد الملازم في كراكيسيو وهو يذهب إلى الحقل مع رجاله ويفرد الروث؟ وكان بالكاد مالكاً لمائة وثلاثين فداناً! في أميركا، ليس هناك قانون خدم أو نقود عربون. هناك، يستطيع الأجراء والخادمات أن يعملوا حيث يريدون، وبلا عقاب. ولم يكونوا في حاجة لأن يكدحوا كما هنا من الصباح المبكر إلى الليل المتأخر: في أميركا الشمالية، لم يعمل أحد أكثر من اثنتي عشرة ساعة في اليوم.

النقود في أميركا تدعى دولارات، والدولار الواحد يساوي اثنين أو ثلاثة من الداليرات السويدية ـــوربما أكثر. وهناك، يمكن لعامل المزرعة الجيد أن يكسب ما يصل إلى مئة وخمسة وعشرين دولاراً في السنة، وذلك يساوي أكثر من ثلاثمائة دالير سويدي. وقد عمل آرفيد هنا في نابياخن مقابل أربعين داليراً

في السنة، وبدلة وفروة صوفية. ولو قدّر المرء الفروة بعشرة دالّيرات، فإنه سيكسب مع ذلك في سنة واحدة في أميركا أكثر مما يكسبه في ست سنوات من العمل في مزرعة آرون. ثم أن الطعام هناك أفضل بسبع مرات. كانت للأميركيين جرايات جيدة وثابتة: كل الناس هناك يأكلون لحم الخنزير والخبز الأبيض كل يوم؛ وفي أيام الآحاد ينالون حصصاً مضاعفة من اللحم والخبز. وكانت الرنجة المالحة ممنوعة كطعام. كانت الماشية في أميركا تُطعم أفضل من الخدم في السويد. والأجرة التي يعطيها آرون لخدمه سوف ترفضها الخنازير في أميركا، لأنها ستعتبرها قليلة. إن الخنزير يعيش في العالم الجديد مثل كونت في السويد.

روى روبرت لصديقه ما يتذكره من الكتاب، وخرجت الكلمات متدافعة من بين شفتيه، وربما أضاف، في غمرة حماسه، هنا واختصر قليلاً هناك، لكن ذلك تساوى بحيث أن الحقيقة عن الولايات المتحدة لأميركا لم تعانِ من ذلك كثيراً.

وقد حمل رفيقه بعيداً حتى أن آرفيد ارتعش لدى سماع هذا الكشف. ومن حين لآخر، كان يداخل بكلمات: «كلا! كلا! يا إلهي! يا إلهي العظيم! الشيطان هو ذاك! المسيح في الجحيم!» والتعبيرات الأخرى التي تتردد يومياً على شفتيه ولا تعني شيئاً على وجه التحديد. لم يكن قد سبق لآرفيد أن قرأ أبداً وصفاً للجنة، بما أنه لا يستطيع القراءة، ولم يسمع القس يصفها أبداً من على منبر الوعظ أيضاً، لأن القس ظل يتحدث دائماً عن وقائع جهنم؛ ولكن، إذا كانت نصف محتويات كتاب روبرت صحيحة فقط، والنصف الآخر كذبة، فإن الكتاب لا بدّ يصف جنة على الأرض.

لكن آرفيد سأل عن أشياء أخرى، مثل الهنود الوثنيين الهمجيين، الذين يسلخون رؤوس الناس بسكاكينهم وينظرون بغير ود إلى المسيحيين. لم يكن هناك شيء في الكتاب عن سلخ فروة رؤوس الناس، قال روبرت. ثم تساءل آرفيد عما إذا كانت الحيوانات البرية في أميركا الشمالية خطِرة. هل هناك أي ثعابين غاضبة؟ كان يخاف دائماً من الحيوانات الزاحفة، ولا يجرؤ أبداً على قتل أفعى، ويتجنب رباعيات الأرجل. واعترف روبرت بأن هناك حيوانات برية كبيرة تعيش في أميركا، ويمكن أن تقتل الناس، والتي تكون بالتالي مزعجة

قليلاً. أما أكثر الحيوانات شراسة، فهو الدب الرمادي، الذي يهاجم أولئك الذين يحاولون أخذ حياته. لكنك إذا استلقيت على الأرض وتظاهرت بأنك ميت، فإن الدب سوف يتركك بسلام. وتوجد أيضاً أسود ونمور وذئاب هناك، لكن لديها خوفاً طبيعياً من الناس، وهي لا تهاجِم إلا إذا جُرحت أو خافت. وهناك أفاع جرسيّة سامة، لكنها تجلجل وتصدر صخباً عندما تزحف في الغابات ويمكن سماع صوتها من مسافة بعيدة، ولذلك يكون من السهل الهرب بعيداً عنها. وفي أميركا أيضاً بعض الكائنات الصغيرة المزعجة، الجنادب، الذباب، ديدان الآفات على أشجار الفاكهة والأخريات، لكنها لا تستطيع قتل الناس.

كلا، لم يكن آرفيد خائفاً منها أيضاً، لكنه سأل فقط على سبيل المزاح. والآن أصبح يعرف الوضع: عندما يأتي الدب، على المرء أن يستلقي ساكناً على الأرض، ويتظاهر بأنه ميت. وهو يمتلك سمعاً حاداً؛ ولا شك أنه سيسمع الأفاعي وهي تأتي مجلجلة بأجراسها، وسيكون لديه الوقت ليفرّ مبتعداً.

عن أولئك الذين يدعون الزنوج ولهم شعر صوفيّ أسود، قيل في الكتاب إنه يُحتَفظ بهم كعبيد، وهم يُشترون ويباعون كما لو انهم ماشية. وفكر روبرت أن ذلك ليس عادلاً في حقهم. وبغير ذلك، فإنهم يعيشون عيشة محترمة ومريحة بما يكفي، وقرأ لآرفيد عنهم: «يمتلك الكثير من العبيد مساكن، وطعاماً، وكساءً، وعنايةً وظروف عمل وأماناً اجتماعياً في الشيخوخة أفضل من معظم عمال المصانع في إنجلترا أو الفلاحين في أوروبا. ولديهم دجاجهم وخنازيرهم الخاصة، وقطعة أرضهم الخاصة التي يستطيعون زراعتها بما يريدون وبيع محصولها وأخذ العوائد لأنفسهم. وربما يمضي نصف عام من دون تعرض أحدهم لسوء معاملة من مالكه. ولذلك، حدث أن العبيد المحررين —وقد أصبحوا غير راضين بحريتهم الجديدة وما رتّبته عليهم من مسؤوليات— عادوا فباعوا أنفسهم كعبيد.»

استمتع آرفيد باندهاش: للعبيد دجاجاتهم وخنازيرهم؟ وقطعة أرضهم خاصة؟ وطعام وملابس أحسن من معظم الفلاحين في الوطن؟ إذن، سيكون أفضل شيء يفعله المرء حين يصل إلى أميركا هو أن يبيع نفسه كعبد؛ سيكون ذلك أحكم شيء يستطيع عامل المزرعة أن يفعله. هنا في السويد، لن يتمكن أبداً من

امتلاك قطعة أرضه الخاصة، أو دجاجه وخنازيره.

قال روبرت إنه من الممنوع في أميركا أن يبيع الناس بيض البشرة أنفسهم كعبيد.

«ممنوع؟» رد آرفيد محتجاً. «لكنك قلت أن لأميركا أرض حرة، وأن كل الناس يستطيعون أن يفعلوا فيها ما يشاءون. أنت قلت ذلك.»

«نعم، نعم. لكن ذلك النوع من التجارة ممنوع على أي حال. للبيض.»

«ولكن، لماذا يجب منع الأبيض من بيع نفسه؟ عندما يكون للجميع الحق في فعل ما يشاءون؟»

وارتبك روبرت، ولم يستطع الإجابة عن هذا السؤال. وفكر آرفيد بأنها ربما تكون هناك فروقات بين الناس في أميركا، بعد كل شيء، إذا لم يكن للبيض نفس حق السود في أن يصبحوا عبيداً وتكون لهم أرضهم الخاصة ودجاجهم وخنازيرهم.

كان يود لو قرأ بضعة فصول من الكتاب، وكان آرفيد ليفعل لو أنه يستطيع، بعينيه الكليلتين؛ لكنّه يصاب لدى القراءة بحرقة في العينين؛ فهلا واصل رفيقه القراءة؟

قلب روبرت الصفحة إلى فصل جديد، يصف حياة نزلاء ملجأ في العالم الجديد —ملجأ في بنسلفانيا: «في هذا البيت، يعمل ضعاف العقول في لحظات صفائهم في الحياكة، وتحطيب الأخشاب، والخياطة، والغزل، والحبك، وما شابه، من أجل ملء وقتهم وإشغال أذهانهم. ولنفس الأسباب تتوفر لهم بالإضافة إلى ذلك كتب، وصحف، ورقاع شطرنج، وآلات موسيقية، مثل الفلوت والبيانو...»

«للمجانين؟» سأل آرفيد معجباً.

«الكتاب يقول 'ضعاف العقول'.»

«يحصلون على جرائد؟ ويعزفون الفلوتات؟» ولأول مرة عبّر آرفيد عن شكوك.

«حسناً — انظر بنفسك.»

«يا لله العظيم؟»

لكن تلك هي الحقيقة، إنّ بصر روبرت ممتاز بحيث لا يمكن أن يخطئ في القراءة. وعندما يكون كل شيء جيدا وفاخرا للمجانين في أميركا، فإنّه يمكن للمرء أن يتخيل بسهولة كيف يعيش العقلاء.

وافق آرفيد مباشرة على الذهاب مع رفيقه إلى العالم الجديد. لا يمكن أن يكون أحد في الولايات المتحدة قد سمع عن الإشاعة البشعة التي نشرتها المرأة العجوز في نايباخن عنه. وهناك، لا أحد يعرف عن الفعلة الشنيعة التي يتهمونه بارتكابها مع البقرة البيضاء هنا في الوطن. في أميركا، لن يدعوه أحد بالثور من وراء ظهره؛ وهناك، لن تتحاشاه الفتيات؛ هناك، يستطيع أن ينظر إلى الناس جميعاً في عيونهم بحرية، ويُعامل باحترام مثل بقية الرجال.

على هذا، صافح الخادم الكبير يد رفيقه الصغير: معاً سوف يعبران المحيط.

٥

بقي المصباح مُضاءً في غرفة الإسطبل حتى وقت متأخر من الليل، بينما يخطط آرفيد وروبرت لهجرتهما المستقبلية. ولم يقاسمهما مداولاتهما السريةسوى بقّ السرير في الحيطان المتعفنة.

كان روبرت ذكياً عندما فكر في قيادة عربة أخشاب آرون إلى كارلسهامن؛ هكذا سيساهم السيد، كما سيكون واقع الحال، في دفع أجرة رحلتهما إلى أميركا. وفي المدينة الميناء، سوف يتوصلان لاحقاً إلى اتفاق مع قبطان ما ليبحر بهما عبر البحر.

تساءل آرفيد: «كم هي أجرة عبور المحيط؟»

وكان روبرت يعرف: أجرة النقل من ميناء المغادرة في السويد إلى نيويورك في أميركا، بما في ذلك المؤن للرحلة، وحطب النار، والماء العذب، تكلف مائة وخمسين دالير اً سويدياً للشخص البالغ. يضاف إلى ذلك مبلغ عشرة داليرات سويدية كرسم لدخول أميركا، وبعض المصاريف الأخرى، بحيث يحتاج كل مهاجر إلى ما يقارب مائتي دالير سويدي. وهو نفسه يمتلك هذا المبلغ —من

ميراثه— المتبقي مع شقيقه في كورباموين.

«مائتا دالير!» ونهض آرفيد، ثم عاد فارتمى مرة أخرى، ثقيلاً جداً حتى أن الدكّة صرّت عند كل مفصل.

إنّ مائتي دالير تساوي مجموع أجور خمس سنوات. وهو لم يدخر حتى ولو شلناً واحداً. وإذا كان ليوفر كل بنس، ولم يسمح لنفسه حتى بشراء حفنة من السعوط خلال هذا الوقت كله، فسيكون عليه أن يبقى هنا في نايباخن ويدخر لمدة خمس سنوات قبل أن يستطيع توفير هذا القدر الكبير من النقود.

جلس مغتمّاً وتجنب النظر إلى صديقه؛ لم يتصور أبداً أن الانتقال إلى أميركا الشمالية يمكن أن يكلف مثل هذا القدر الذي لا يُصدّق من النقود. يجب أن يبقى خمس سنوات أخرى على الأقل —خمس سنوات أخرى سوف يُجبَر على البقاء هنا كثور نايباخن.

ران صمت طويل. وظنّ بقّ السرير أن ضحيتيه الليليتين قد خلدتا أخيراً إلى النوم، وظهر بحذر من ثقوبه وزواياه.

مائتا دالير سويدي! ذلك الصبي هناك محظوظ بامتلاكه إرثاً يعتمد عليه. لكن روبرت يجب أن يذهب وحده، حتى لو أنهما قررا قبل دقيقة فقط أن يبقيا مترافقين وتصادقا على ذلك بمصافحة الأيدي.

«تقصد أنك لا تستطيع أن تجمع أجرة النقل؟»

«كلا —لا أستطيع تدبر ذلك.»

«ولا بأيّ طريقة؟» وشعر روبرت بخيبة الأمل بقدر آرفيد تقريباً.

«كلا —ليس ثمة مخرج.»

ومرّة أخرى جلسا صامتَين، يتأملان ويفكران.

وفجأة قفز آرفيد، وعيناه تلمعان. «وجدتها! يمكننا أن نعبر بطريقة أخرى ما.»

«ماذا تقصد؟»

شدّ آرفيد قبضته على كتف روبرت، متوتراً متقطع الأنفاس. «الطريق البريّة، بطبيعة الحال —إننا لم نفكر بذلك!»

بالتأكيد، لا بد أن تكون هناك طريق ما فوق الأرض الصلبة. يمكنهما أن يدورا مشياً حول المحيط، وبهذه الطريقة يصلان إلى أميركا بأحذية جافة.

سيكون عليها سلوك طريق غير مباشرة، وسوف تستغرقهم فترة أطول، لكن ذلك لن يُحدِث فرقاً في حالته؛ سوف يفضل قطع طريق طويلة إلى أميركا على البقاء هنا حيث يتجنبه الآخرون مثل وغد. لو أنه يستطيع أن يصل جاف الحذاء، على الأقدام، فإنه سيسلك الطريق المتلوية الطويلة عن طيب خاطر؛ إن له سيقاناً قوية ثابتة وهو مشّاء جيد، ولا يحتاج إلى المخاطرة بحياته في البحر. كان متأكداً أن بوسعه السير إلى أميركا. ربما يستغرق ذلك بضع سنين، فذلك لا يمكن تجنبه. ولن يأخذ الكثير معه مما قد يشكل عبئاً عليه في المشي، ولا يمكنه أن يأخذ صندوق الخادم، وسيتدبر أمره بحقيبة ظهر. ربما يأخذ زق الخمر أيضاً، سوف يحتاج إلى شيء يشجعه في الرحلة الطويلة إذا كان على ساقيه فقط أن تدفعا أجرة النقل.

لم يستطع تصديق أيّ شيء آخر سوى أنهما سيستطيعان بطريقة ما أن يسيرا حول المحيط.

«مستحيل. لا أحد يستطيع المشي إلى أميركا.»

«مستحيل؟ ما مِن طريقة؟» كانت عينا آرفيد تلتمسان أي أمل صغير، أقل احتمالية، حتى لو عنى ذلك قطع أطول الطرق وأكثرها وعورة.

أجاب روبرت بشكل قاطع: لا أحد تمكن من الوصول جاف الحذاء إلى أرض محاطة بالماء من كل الجهات، وقد استطاع آرفيد أن يرى ذلك على الخريطة في محل صانع الأحذية رينالدو. هناك، تتمدد أميركا مثل جزيرة هائلة في بحر العالم؛ لا أحد يستطيع السير حول ذلك الجسم المائي الهائل.

«ولا تحت أيّ ظروف؟»

«ولا تحت أي ظروف!»

وسقط وجه آرفيد. وأكمل روبرت: على أي حال، إنّ الطريق طويلة جداً حتى أن آرفيد لو تمكن من قطعها مشياً، فإنه لن يصل حتى يكون قد بلغ الثمانين من العمر، تماماً في الوقت الذي سيستلقي فيه في قبره. ويجب أن يأخذ صانع أحذية القرية معه ليصنع له زوجاً من الأحذية كل سنة ليستبدل الأحذية المهترئة.

جلس آرفيد صامتاً مرة أخرى، وطويلاً. ثم تمتم بشيء من بين أسنانه —ثلاث كلمات: «ذلك المحيط الملعون!»

وفي النهاية، زحف إلى سريره وهو ما يزال يلعن المحيط الذي يفصل العالم القديم عن الجديد. وفي تلك الليلة، أجبر نفسه على النوم.

كارل أوسكار وكريستينا

١

في هذه السنة، «رقم ٥,٨٥٠ منذ خلق العالم» وفق التقويم —كان الصيف الذي حل مبكراً هو الأكثر جفافاً في كامل السنوات الإحدى والثلاثين الأخيرة.

في شهر حزيران، لم تسقط نقطة مطر واحدة، واستمرت الرياح الجافة القاسية بالهبوب من الشرق والشمال بلا انقطاع. أما الريح الغربية —ريح المطر— فلم تهبّ أبداً. وظلت الشمس تسطع، يوماً بعد يوم، في سماء بلا غيوم. واستحال العشب النابت في الفُرَج والمروج خشناً وجافاً يصدر حفيفاً حين تدوسه الأقدام. وتوقف الجاوادار الشتائي عن النمو على ارتفاع الركبة، وانتهى الرعي، وجفت ضروع الأبقار.

بدأ الحصاد قبل انتهاء حزيران؛ لأنّ ترك الحبوب الناضجة الجاهزة للحصاد كان يعني المخاطرة بفقدانها حيويتها. وتحولت الروابي والأكَماتُ إلى اللون الأحمر الضارب إلى البني —لون دم الحيوانات، منبئة بنفوق الماشية الوشيك على حدّ السكين، جرّاء ندرة العلف المقبلة.

حصد كارل أوسكار وكريستينا سنابل القمح الهزيلة التي نبتت في حقلهما. كانت النباتات قصيرة وسقيمة بحيث التقطتها المذراة بالكاد؛ وكان بوسع المرء أن يحصي العيدان، كما قال كارل أوسكار.

وشعر بالغضب والمرارة وهو يذرّي؛ كانت السنة الماضية بَليلَةً، فتعفّن القمح في الغِمار، أو انجرف مع الفيضان. وجاءت هذه السنة جافة، فاحترق العشب. فأيهما أفضل للمزارع؟ أيهما يمكن أن ترضيه؟

هذه السنة، كانت الرطوبة الوحيدة في حقل كارل أوسكار هي عَرَقُه

فحسب. طقسُ الرب هذا إما أن يكون كثير البلل أو كثير الجفاف. فأي جدوى إذن في أن يحني المرء ظهره في النضال والكدّ؟ لقد دمّر طقس الربّ كل ما لديه، وذهب تعبُه كلُّه بلا طائل.

«الأمر برمّته خطأ طقس الربّ!»

توقفت كريستينا عن التذرية ونظرت إليه بحزم.

«لا تكن أثيماً قليلَ الورع، يا كارل أوسكار.»

«ولكن—أهذا تبن، أم شعر قطط؟ هل يستحق عناءَنا». وقع كارل في قبضة سورة غضب مفاجئ. التقط شيئاً من سنابل القمح بمذراته ورماها عالياً في الهواء وهو يصيح بالكلمات: «بما أنك أخذت بقيّة القَمح، يمكنك أن تأخذ هذا أيضاً!»

شهقت كريستينا مأخوذة بالرعب: لقد تحدى كارل أوسكار الربَّ في السماء وعلى الأرض.. ولاحقت بعينيها حفنة عيدان القمح كما لو انها تتوقع أن تبلغ السماء. لكن القشّات الجافة لم ترتفع كثيراً عن الأرض، وسرعان ما فرقتها الريح وبعثرتها في السهل، ثم حطّت ببطء على الأرض. ليس هناك في السماء من يمكن أن يقبل بالقمح!

«كارل أوسكار، لقد جدّفت!»

وقفت كريستينا هناك، وجنتاها بيضاوان، ويداها متشبثتان بمقبض المذراة. لقد ألقى زوجها بقمحهما وأعاده «إليه» هناك في العلا لأنه لم يكن قانعاً. ما الذي يفعله؟ كيف تجرأ؟ ألم يعد يخشى خالقه؟ ينبغي أن يعرف أن الله لا يسمح بالسخرية منه. ونظرت مرتعبة إلى السماء، كما لو كانت تتوقع أن يتلقى المجترئ عقابه على الفور.

«أسأل الله أن يسامحك! أدعو الله أن يعفو عما فعلت!»

لم يُجِب كارل أوسكار. وإنما شرع بجمع وتذرية حزمة جديدة من القمح، بصمت. كان في الحقيقة قد حفظ وصايا الربّ، وكان يعلم أن الله لا يقبل أن يزدريه أحد. وأحسّ بغصّة تصعد في داخله. لقد فقد اتزانه، وحبذا لو كان بالوسع نقض تلك الحركة بعيدان القمح. ما كان ينبغي أن تصدر عنه تلك الكلمات.

كلمات الإنجيل الواضحة تقول إن على الإنسان في الأرض أن يأكل خبزه

من عرق جبينه؛ ولم يكن يطلب أكثر من أن يُتاحَ له ذلك. لكنه يجب أن يتلقى عائده من الخبز ما دام قد سفح عرقهُ في سبيله. لم يفكر بأن ثمة الكثير في المطالبة بأن يحدث كل شيء وفقاً لكلمات الربّ.

استمر الزوجان في حصاد محصولهما بصمت. لكن مخزن الغلال في مرج القمح، الذي كان يبدو في السنوات الطيبة صغيراً جداً، لم يمتلئ في هذه السنة حتى إلى النصف.

واستمر الجفاف.

جفت بئرهما، وحمل سكان كورباموين الماء من ينبوع قديم في الغابة. وترتب على الماشية، الجائعة والعطشى، أن تقف طوال اليوم عند مرتقى السياج، وهي تخور بكآبة. كانت الحقول مسفوعة كما لو كانت النار قد عبرت فوقها. وفي بداية آب، استحالت أشجار البتولا صفراء، وشرعت بطرح أوراقها. لم يتح للصيف أبداً أن يزهو ويكتمل قبل حلول الخريف المبكر؛ لقد مات هذا الصيف في ريعان الصبا.

تصلبت رقبة كارل أوسكار من كثرة البحث عن الغيوم الممطرة. وفي بعض الأحيان، ظهرت الغيوم فعلاً، غيومٌ ناشفة، محضُ حلقات دخان فارغة عبرت صفحة السماء؛ محضُ رؤى من الخديعة والسخرية الوحشية. وسقطت بضع قطرات صغيرة متفرقة هنا وهناك، لكنها كانت أشبه بالازدراء.

استوت نباتات الجاوادار مفرطة في النضج، وكانت حبات القمح على وشك السقوط من سنابلها. وعليهم أن يكونوا بالغي الحذر عند القطاف حتى لا يفقدوا بعضاً من الحبُوب التي لا تقدّر بثمن. أحضر كارل أوسكار وكريستينا غطاء السرير المضرَّب معهما إلى الحقل، ونشراه على ما تبقى من الزرع المحصود، أمام صفوف السنابل التي سينالها المنجل. وظلا ينقلان الغطاء بالتدريج حتى تسقط السنابل المقطوعة عليه وتبقى هناك ريثما يقومان بحزمها في غِمار. هكذا قاما بجمع الحبوب التي ربما تسقط من السنابل على الغطاء، عشرة مكاييل من الجاوادار الساقط تكفي لصنع بضعة أرغفة من الخبز. لكن الحقل طرح فقط ثلث محصوله المعتاد في سنة الجفاف هذه، فما الذي سيعنيه رغيف واحد من الخبز عندما يأتي الشتاء؟

ربطت كريستينا زوايا الغطاء، حولته إلى صُرّة وحملته إلى المنزل

تحت ذراعها. قبل أربع سنوات، كان غطاء العرس هذا هو غطاؤها في ليلة زفافها الأولى، عندما تحولت من عزباء إلى زوجة. والآن، ذهب غطاؤهما العرائسي معهما إلى الحقل ليساعدهما في جمع وادخار خبزهما؛ إنّه ينتمي بحميمية إلى حياة كل منهما.

فكرت كريستينا؛ قبل أربع سنوات، عندما كان هذا الغطاء جديداً، كان لدى كارل الكثير ليقوله لي. لماذا أصبح شديد الصمت هذه الأيام؟ تساءلت. الآن يتحدث غالباً عن العمل الذي ينبغي إنجازه؛ في الصباح عما يجب عمله في ذلك النهار، وفي المساء عن عمل الغد. ومرة واحدة في اليوم على الأقل، كان هو أو هي يقول: لا مطر بعد!

في هذا الصيف، أصبح الجميع كما يبدو جدّيين ومتجهمين وحادّي الطباع؛ لقد أثر الطقس على عقولهم. كان الحديث يدور عن الشتاء القادم القاتم، كما لو أن أحداً لا يملك الحق في الكشف عن سعادة تخالطه: عندما يضج طفل، يعنفه شخص أكبر سناً بخشونه ويسكته على الفور. كان الجميع يتساءلون فقط: ما الذي يمكن أن يحدث في الشتاء التالي؟

ألقى كارل أوسكار باللائمة كلها على الجفاف. عندما يعود خالي الوفاض بعد يوم يقضيه في الغابات مع البندقية والكلب، فإن ذلك يحدث بسبب الأرض الجافة القاحلة؛ لم يستطع الكلب أن يشم رائحة شيء. وعندما يسحب الشِّباكَ والصنانير فتخرج خالية من مياه البحيرة الجبلية الصغيرة، كان يلقي باللوم على الجفاف: الحرارة ألجأت الأسماك إلى الأعماق. وقد أحضر بقرة لثوره ثلاث مرات بلا نتيجة: كان هذا أيضاً بسبب الجفاف. ولم يبد هذا السبب منطقياً، لأن جزءاً من اللوم يمكن أن يقع على الثور. لكن كارل أوسكار قال إن جاره، يوناس بيتر هاستيناك، لم يستطع أيضاً أن يجعل بقراته تحبل بالعجول بسبب الحرارة.

في إحدى الليالي قرب نهاية آب، استيقظت كريستينا على قَصف رعد عظيم. وكانت تخاف من العواصف، فأيقظت زوجها.

جلس كارل أوسكار في سريره وأصاخ السمع. دمدمت الدنيا وأرعدت، والتمع البرق عبر النافذة. وركض كارل بالقميص الداخلي ليقف في الشرفة ويداه ممدودتان. سقطت نقطة مطر سمينة عارضة. بمجرد أن يبدأ المطر

بالانهمار، سوف تسقط زخات كثيفة. ولم يستطع العودة إلى النوم في سريره إلا بصحبة المعرفة المباركة بأن المطر قادم.

كانت آنّا، أكبر الأبناء، في السنة الرابعة من عمرها. وقد اتفق الجميع على أن لها عقلاً يتجاوز سنّها بكثير. كانت معتادة على اللحاق بكارل أوسكار في عمله في الخارج، قريبة منه في كل مكان؛ وإذا كان يقود العربة أو يمشي، فإن الطفلة تكون دائماً معه. وقد سماها مساعدته الكبيرة. وقال: إنها حكيمة مثل طفل في الثامنة!

قصف الرعد مرة أخرى، وسألت آنّا: «هل سيقتلنا البرق الليلة، يا أمي؟»

«كلا! أي هراء! من أوحى إليك بمثل هذه الفكرة؟»

«أبي. قال إننا سوف نموت —كلنا.»

استدارت عينا كريستينا المتسائلتين باستنكار إلى كارل أوسكار: ما الذي قاله للطفلة؟ وهو ابتسم وفسّر: كان قد ذهب مع آنّا إلى المراعي مؤخراً، عندما عثرا على أرنب صغير ميت. وعندما سألته عما إذا كانوا سيصبحون مثل الأرنب، إذا كانوا سيموتون جميعاً، أجاب بالتأكيد. لم يستطع أن يكذب على طفلة في هذه الأشياء. لكن الطفلة ظلت تسأل أي شخص تقابله منذئذ عن متى سيموت. وقد أحرجت جدتها قبل أيام بنفس السؤال، واضطر أوسكار لأن يؤكد لأمه أن السؤال كان فكرة الطفلة الخاصة. كانت طفلة غريبة، آنّا.

وكان كارل أوسكار شديد الفخر بابنته، ابنته الكبيرة.

وصل صوت قصفة رعد، أعلى من السابق. واخترق ضوء البرق عيونهم، حاداً ومُعشياً. وأطلقت كريستينا شهقة.

«هل ضرب البرق؟»

«إذا فعل، فقد كان ذلك قريباً».

لكن المطر الغزير أبطأ القدوم. ونقرت بضع قطرات قليلة متناثرة فقط على أفاريز النوافذ. لم يستطع كارل أوسكار مساعدة المطر في الهطول، فكّر عائداً إلى سريره. وقبل أن يستغرق في النوم، أشرقت النافذة مرة أخرى بضوء جديد، لكنه لم يكن هذه المرة برقاً يشق العتمة ثم يختفي. هذه المرة بقي الضوء مقيماً، خافقاً ومتلألئاً.

قفز المزارع الشاب من سريره.

«هناك حريق!»

«يا إلهي العزيز!»

«ثمة شيء يحترق، في مكان ما!»

وعندما وصل كارل أوسكار إلى النافذة، استطاع أن يرى الضوء قادماً من حقل القمح.

«حظيرة الحقل! سقيفة الحقل تحترق!»

ركض إلى الخارج شبه عار، تتبعه زوجته. والآن، استيقظ نيلس ومارتا أيضاً في غرفتهما، واستدعتهما كريستينا للعناية بالأطفال.

ركض كارل أوسكار إلى البئر حيث يوجد دولان مملوءان من نبع الغابة؛ ناول أحد الدلوين لزوجته واندفعا عبر الحقل وكل منهما يحمل دلواً في يديه. طرطش الماء وهو يخفق في الدلو جيئة وذهاباً. وعندما وصلا إلى حظيرة الغلال المشتعلة، كان نصف الماء قد تبقى في الدلاء بالكاد، لكن ذلك لم يكن مهمّاً؛ كان الحريق قد وصل الآن إلى حدّ لن يجدي معه دلوان من الماء. كانت الحظيرة كلها تحترق، وتتقافز ألسنة اللهب عالياً خارجة من السقف الجاف المكسو بالأعشاب، وتتصاعد عالياً مثل مادة شديدة الاشتعال. كان ثمة نار مضيئة، شرسة تستعر، وقد وجدت لنفسها وجبة جاهزة: حظيرة جافة عتيقة مليئة بالقمح المحصود.

اقترب صاحبا الحظيرة —الزوجان المزارعان— من النار بالقدر الذي أتاحته لهما الحرارة. ووقفا هناك، يراقبان النار ودلاء الماء في أيديهما؛ وقفا يشاهدان فقط، مثل ولدين مشدوهين مأخوذين بالمفاجأة بينما يستمعان إلى حكاية وحشية مرعبة، التي —ليتمجد الربّ— لا يمكن أن تكون حقيقية.

كان الناس من المزارع المجاورة قد شاهدوا النار وجاؤوا راكضين، لكنهم سرعان ما أدركوا هم أيضاً أنه سيكون من العبث محاولة إيقاف النار. كان الحريق قد أطبق على الحظيرة بين فكيه الناريين —ولم يكن بوسع أحد منعه من ابتلاع فريسته.

لحسن الحظ، لم تكن هناك ريح. لكن الجيران ظلوا هناك ليحرصوا على أن لا تمتد النار؛ إذ ما الذي يمكن أن لا يحدث إذا ما اندفعت النار طليقة في الغابات التي نشفها الجفافُ؟

وقد توقف المطر؛ ثمة بضع قطرات ثقيلة سقطت، تكفي بالكاد لترطيب حجارة الأرض.

احترقت حظيرة الحقل سريعاً، وتحوَّل القمح وكل شيء إلى رماد وجذوات رمادية متجهمة. وسار كارل وكريستينا عائدين إلى بيت المزرعة؛ فلم يعد ثمة ما يفعلانه هناك، ولم يكونا قد فعلا شيئاً. وفي الطريق إلى البيت، سارا ببطء. لم يركضا، لأنه لم يعد ثمة شيء طارئ وملحّ بعد. وفي أيديهما، كانا ما يزالان يحملان دلويهما نصف المليئين بالماء؛ حملاهما من دون تفكير إلى البيت ثانية.

عند مرتقى الحقل، التقيا نيلس في طريقه إلى الحريق، متقافزاً على عكازيه. كان قد تمكن من قطع نصف الطريق عندما أخبره ابنه وكنَّته أن يعود. لكنه جلس على مرتقى الحقل كي يستريح؛ مضت سنوات طويلة منذ ابتعد مثل هذه المسافة عن البيت.

بينما يراقبان النار، لم يتبادل كارل أوسكار وكريستينا كلمة واحدة. وإنما تبادلا النظر بضع مرات فحسب؛ ربما كانا يفكران في نفس الأفكار.

والآن، في الطريق إلى البيت، قالت كريستينا. «هل تتذكر الحصاد هذا الصيف؟ عندما ألقيت بالقمح إلى فوق؟»

«نعم.»

«لقد حدث ما طلبت.»

بقي كارل أوسكار صامتاً؛ لم يستطع العثور على جواب.

ومضت كريستينا إلى القول: «كان ذلك هو العقاب. إن الله لا يسمح لأحد بأن يسخر منه.»

سار كارل أوسكار صاحب كورباموين عائداً إلى منزله حاملاً دلوه، مُطرق الرأس ومحدقاً في الأرض. كان ما قالته كريستينا صحيحاً. هذه المرة، استجاب الربّ لدعائه —لقد أخذ ما تبقى من القمح.

٢

هبت الريح الشرقية ولم يسقط مطر. وتنبأ القادرون على قراءة كتاب المستقبل بأن المطر لن يسقط ثانية أبداً. في المرة السابقة أراد الربّ تدمير

الجنس البشري بالفيضان. والآن، ينوي أن يفعل ذلك بالجفاف. وفي هذه المرة، بلا نوح يتم إنقاذه مع زوجته وأولاده من أجل تناسل جنس جديد.

بذر كارل أوسكار بذور الجاوادار الشتوي في الأرض السمراء الضاربة إلى الصفرة، المتحدة مع كتل قاسية من التراب ـــرمادية، وعرة، وعاقراً مثل حقل من الصخور المسحوقة. وكانت الأرض محروقة حتى تحت التربة السطحية. وبدا أن من العبث البذار هنا، وأنه يمكن له أن يزرع رماد موقده المنزلي بنفس المقدار. كان قد زرع في الربيع الماضي أربعة مكاييل من الشعير في أحد الحقول؛ والآن، في الخريف، حصد أربعة مكاييل في المقابل. فما الذي كسبه من كل عمله السابق؟ ولماذا يزرع بذور الذرة في الأرض عندما لا تقوم الأرض بمضاعفتها؟ لا شيء يمكن أن ينبت هنا قبل أن يأتي المطر ويفكك قشرة الحقل المتصلبة.

أودع بذور الجاوادار في حقله بلا يقين؛ لقد فقد يقينه بالأرض. فمن يمكن أن يعرف إذا كانت ستعطيه حبة واحدة في المقابل؟ ربما كان من الأكثر حكمة طحن بذور الذرة وصناعة الخبز منها.

عندما طرد الله الإنسان الأول من الفردوس، قال له: «ملعونة الأرض بسببك؛ بالتعب تأكل منها كل أيام حياتك». ولم تكن أي كلمات الإنجيل أكثر صدقاً من هذه بالنسبة لكارل أوسكار. كما قال الرب لآدم أيضاً أن الأرض ستنبت له شوكاً وحسَكاً. ألم يجن الحسك من كل حقل في مملكته الحجرية هذه حتى انكسر ظهره؟ كانت كلمات الإنجيل ما تزال قوية، على الأقل بالقدر الذي يخص الحقول المحلية.

سرت شائعات تقول إن المطر سقط في أماكن أخرى؛ في مقاطعات وأبرشيات. لكن الأرض هنا كانت ملعونة.

كل مساء، تلت كريستينا «الصلاة ضد الجفاف المقيم»، وفي بعض الأحيان، كان ينضم إليها هو نفسه أيضاً. كانت مرتعبة من نار البرق التي أحرقت حظيرة حقلهما، واعتقدت أن الجفاف نفسه جاء أيضاً عقاباً من الرب. والآن، أصبحت تتمنى لو يذهب كارل أوسكار إلى الكاهن ويصلي من أجل الغفران، لأنه جدّف في تلك المرّة خلال الحصاد؛ ينبغي أن يفعل ذلك قبل أن يذهبا لتناول العشاء الربانيّ معاً مرة أخرى..

لكنه لم يُعِر توسلاتها أذناً صاغية.

«ألا يؤنبك ضميرك؟» سألته.

«ليس بسبب تلك الخطيئة.»

كلا، لم يكن كارل أوسكار ليلجأ إلى الكاهن: إنه لم يرتكب جريمة قتل، ولم يكن يرقد محتضراً على سرير الموت. لقد حدث ما حدث في الحقل قد حدث في سورة غضب مفاجئة، وقد ندم عليه. ولا بد أن يكون الله قد أخذ وقته الآن لكي يسامحه على جنحة صغيرة كهذه، والتي لا تستحقّ أن يبتلي الإنسان والحيوان بالجفاف بسببها. كما أن الله ليس سخيفاً إلى حد إحراق الحظيرة بسبب تلك الحفنة من عيدان القمح. ينبغي أن لا يفكر المرء بأن الرب العليّ يحرق الأشياء عمداً.

لكنه ينبغي على كارل أوسكار أن يعلم، كما رددت كريستينا، أنه ليس بوسع أحد سوى الله القدير أن يقرر أين سيضرب البرق. ولذلك استمرت في الإلحاح عليه: ينبغي أن يسعى إلى طلب المغفرة قبل أن يهيئ نفسه لتناول العشاء الرباني التالي. ولا يستطيع أحد سوى الكاهن بروسندر أن يقرر ما إذا كان ما ارتكبه خطيئة كبيرة أم صغيرة، وكان الزوجان على وفاق مع الكاهن الذين امتدحهما كليهما باعتبارهما من رواد الكنيسة المنتظمين.

لكنها لم تستطع أن تقنع كارل أوسكار بأن يسعى إلى الكاهن. كان أعند من أن ينحني حتى لله نفسه. وحين تتأمل كريستينا وراءً في سنوات زواجهما، ظلت تتساءل عما إذا كانت قد استطاعت أن تغيّره أو تؤثر عليه. ما أراد أن يفعله، فعله. وما لم يرد أن يفعله، لم يفعله أبداً. وقالت أخته ليديا إن أخاها كان صعباً بسبب هذا العناد، لكن كريستينا لم تفكر به أبداً على هذا النحو قبل زواجهما. كان العناد هو الأمر الصائب في العمل الصالح والخصال الطيبة. لكن كارل أوسكار ظل عنيداً بنفس المقدار في الأعمال غير المفيدة والحمقاء؛ كان يعتقد أن ذوي الأنوف الكبيرة هم أناس عنيدون بطبيعتهم.

«عنادك كله في أنفك، ولذلك هو كبير جداً.»

إلى أن يعطيه الله أنفاً آخر، سيترتب عليه أن يستخدم الأنف القديم. كانت هذه هي إجابة أوسكار.

فيما عدا ذلك، لم يكن لدى كريستينا ما تشكو منه من زوجها. فهو نادراً

ما شرب من الكحول أكثر مما يستطيع أن يتحمل، وكان يستطيع تحمل مقدار كبير؛ ولم تضطر أبداً إلى جرّ زوج يتعثر من السُكر من حفلات عيد الميلاد كما تفعل الزوجات الأخريات. وكان بعض الرجال المتزوجين يذهبون إلى أولريكا «المرأة المغناج» في فوسترغوهل، والعاهرة المطلوبة أكثر ما يكون في ليودر، التي تبيع نفسها للرجال الفقراء مقابل ١٢ شلناً أو ربع ليتر من الفودكا. أما لأصحاب الأملاك، فكان ثمنها داليراً سويدياً كاملاً. وكانت أولريكا في شبابها امرأة جميلة، لمّا تصبح قبيحة بعد. وقيل إن شمّاس الكنيسة بير بيرسون في أكيربي نفسه كان يرتاد العاهرة في أيام عزها. لكن كارل أوسكار لم يبتذل نفسه أبداً إلى حد العبث في الأطباق الأخرى.

مع ذلك، شعرت كريستينا بالقلق من انطوائه المفرط على نفسه في الفترة الأخيرة. وفي النهاية سألته بوضوح عما يدور في رأسه.

«القلق على لقمة العيش»، قال. من أين يمكن أن يأتي الطعام، مع قدوم المزيد والمزيد من الناس الذين ينبغي أن يطعمهم؟

كانت كريستينا حاملاً في شهرها الخامس. وقريباً سيكون هناك ثمانية أشخاص يعيشون في كورباموين. لقد ازداد عدد الناس، لكن مساحة الأرض لم تزدد أبداً، ولم يبلغ عدد الفدادين في أي يوم أكثر من سبعة.

لم تحب كريستينا هذا التلميح إلى حملها. «اترك القلق إزاء من لم يولد بعد لله.»

«لو أنني أستطيع ذلك فحسب!»

«أتعتقد أنك أكثر حكمة من الله؟»

«كلا، لكنني لا أظن أنه سيطعم أولادنا إذا جلسنا وقد وضعنا أيدينا في حجورنا».

اعتكر مزاجها وأجابت بغضب: «هل يفترض في الله أن يطعم كل الأولاد الذين تصنعهم أنت؟»

«كريستينا، ماذا تعنين؟»

«أعني أنك لا يجب أن تلوم الله عندما تجعل زوجتك تحبل بطفل.»

حدق فيها: «ولكن يا عزيزتي، لم يسبق لي وأن أنكرت حصّتي من ذلك.»

وانفجرت كريستينا بالبكاء: «إنك تشكو لأننا نصبح أكثر وأكثر، كما لو أنَّ

ذلك خطئي —لأن الأرواح تَخرُج مني أنا.»

«أنا لم أوجه إليكِ اللوم مُطلقاً.»

«لا أُريده! قلتُ لك ذلك! ينبغي أن لا تفكر بذلك!»

«أنا لا أفكر بشيء.»

«ولكن الآن —عندما تدور حولي صامتاً، كما لو انك تتهمني —ما الذي ينبغي لي أن أظنه؟»

بكت وهي تمسح دموعها بمئزرها.

عادة ما تكون المرأة الحامل حساسة وسهلة التأثر؛ وهو ينسى ذلك في بعض الأحيان. لم يكن يراقب كلماته.

تركها وحدها حتى هدأت، ثم سأل: كيف أمكن لها أن تتصور أنه ليس راضياً عنها؟ لقد انطوى على نفسه لأنه مكتئب ومُحبط من كثرة المخاوف ومواطن القلق. ذلك هو كل ما في الأمر. كيف تخيلت أنه عنّفها لأنها حملت مرة أخرى؟ إنّه ليس ظالماً على هذا النحو! يجب أن تدرك كم كان سعيداً بالأطفال الذين أنجبتهم له من قبل. كانت زوجته وأطفاله هم أعز ما يملك على وجه الأرض. وقد جعلها ترى ذلك، وينبغي أن تكون قد لاحظت، مثلاً، كم هو مولَعٌ بآنّا. وسوف يكون مرتبطاً بالطفل الجديد بكل تأكيد كما هو حاله مع الثلاثة الآخرين. لكن من الطبيعي أن يشعر بالقلق إزاء طعام الأولاد في سنوات الشدة والجفاف وإخفاق المحاصيل.

جففت كريستينا دموعها: «هل تعني أنك تحبني كما كنت من قبل؟»

«يجب أن تعرفي أنني أفعل.»

«أهي الحقيقة التي تقولها لي، يا كارل أوسكار؟»

«أخبريني متى سبق وأن كذبت عليك.»

لم تستطع أن تتذكر موقفاً واحداً كذب عليها فيه. قال إنهما يجب أن يظلا صديقين، وأن يبقيا متماسكين لأنه ليس هناك أي إنسان آخر في العالم سوف يساعدهما؛ يجب أن يساعدا نفسيهما بنفسيهما.

أدركت كريستينا أنها تصرفت بحماقة؛ ولم تعرف السبب في أنها تصرفت بتلك الطريقة؛ إنك إذا ركزت على الاستثناء، فإن أي كلمة يمكن تفضي إلى

شجار. لكنها أدركت أنها فعلت ذلك بسبب الخوف، الخوف من تلاشي اهتمامه بها.

وقد جعلتها تطميناته تبتهج بشجارهما تقريباً.

٣

غرق كارل أوسكار أكثر في الديون. وذهب هذا الخريف أيضاً إلى دانجل أندريسون في كاراغاردي، وطلب اقتراض ٥٠ دولاراً لدفع فائدة الرهن.

وعندما عاد، كان الوجوم يعلو محياه، فسألته كريستينا بقلق: «هل رفض الخال إعطاءك النقود؟»

«كلا، لقد حصلت على كل قرش طلبته.»

«ولكن، لماذا تبدو عليلاً وغريب الأطوار.»

«ثمةَ أمرٌ غريب يحدث هناك في كاراغاردي.»

«مع الخال دانجل؟»

«نعم، هناك شيء ما حصل له.»

اندهش كارل أوسكار اليوم عندما خطا داخلاً عتبة منزل دانجل أندريسون. كان المنزل مليئاً بالفقراء المعدمين والناس الطليقين في المكان. وجلس الغرباء إلى المائدة مع أهل البيت. كان هناك سيفيريوس بيل، وهو جندي سُرِّح من الخدمة بطريقة غير مشرفة، ومقاتلٌ مشهورٌ وسكير؛ والعانس المقعدة، سيسا سفنسدوتر، اللصة المعدمة التي أصبحت تعتمد في عيشها الآن على الكنيسة. لكن كارل أوسكار اندهش أكثر ما يكون عندما اكتشف بين هؤلاء الناس وجود المومس العجوز أولريكا من فوسترغوهل، ومعها ابنتها غير الشرعية. في البداية، اعتقد أنه تصادف وصولهم جميعاً، خلال جولات تسوّلهم، إلى المزرعة في الوقت نفسه. لكن الأمر جاء مثل اللطمة على الأذن عندما قال دانجل إن هؤلاء الناس سوف يعيشون من الآن فصاعداً معه في كاراغاردي. وقد أكدت زوجته إنجا—لينا ذلك: إنهم يعيشون هناك جميعاً معاً.

شرقت كريستينا في نوبة من الضحك العالي. «هل تحكي كذبة نيسان في تشرين، يا كارل أوسكار؟»

«أتظنين أنني أكذب؟» سأل أوسكار بشيء من الضيق.

«لا بد أنك اختلقت قصة لترى إذا كنت تستطيع خداعي».

«إنها الحقيقة —الحقيقة كاملة. اذهبي إلى منزل خالك وانظري بنفسك.»

وعندها، اقتربت كريستينا منه وتشممت أنفاسه: أيكون قد شرب طوال اليوم حتى لم يعد يعرف ما يقول؟ هل يعبق فمه برائحة البرانفين؟

«لم أتناول سوى كأسين من الشراب طوال اليوم.»

«لكنك تقول إن أولريكا فوسترغوهل، المومس، قد انتقلت للعيش مع خالي؟»

«لقد قال ذلك هو نفسه.»

«والعمة إنجا—لينا، ماذا كانت تفعل؟»

«كانوا يذبحون، وهي تقلي النقانق لضيوفها.»

«وهل أكلت المرأة المغناج، المومس العجوز؟ هل طبخت عمتي لها النقانق؟»

«نعم، اذهبي واسألي بنفسك، إذا كنت لا تصدقينني.»

الآن، أصبحت كريستينا قلقة فعلاً. ما الذي يمكن أن يعنيه كل ذلك؟ ما الذي حدث في كاراغاردي؟

وأكمل كارل أوسكار: كان أكثر الأشياء غرابة هو الطريقة التي تصرف بها دانجل عندما أعطاه الخمسين دولاراً. عندما سأله إذا كان عليه أن يحتسب الفائدة كما اعتاد أن يفعل من قبل، أجاب بأنه لا يريد أخذ فائدة على النقود. وعندما طلب منه كارل أوسكار تأجيل فائدة الدين القديم، قال دانجل إنه لن يقبل أخذ فائدة أبداً على أموال القروض. قال ذلك مرتين على سبيل التأكيد.

الآن، أدركت كريستينا أن شيئاً خطيراً قد حدث لخالها. وخمّن كارل أوسكار أن اضطراباً عقلياً يجب أن يكون قد أصابه.

ولم تمر أيام كثيرة قبل أن تبدأ الشائعات بالانتشار خارجة من مزرعة دانجل أندريسون. وقد انتقلت الأخبار من بيت إلى بيت، ومن قرية إلى قرية: عقيدة آكي سيفنسون المهرطقة، التي يفترض أن تكون قد ماتت معه منذ أكثر من خمسين سنة مضت، انبعثت من جديد على يد ابن أخته في كاراغاردي.

آكي يعود من ملجأ المجانين

١

كان دانجل أندريسون، ٤٤ عاماً، هو أوثق قريب ما يزال على قيد الحياة لمؤسس العقيدة الآكيّة. وهو معروف بأنه رجل حسن الطباع، والذي ظلّت حياته حتى الآن هادئة وخالية مما يستوجب اللوم. وقد قبل باعتناق الدين الصحيح والحقيقي بورع، مظهراً التزاماً دينياً قوياً. أما عزبته، كاراغاردي، التي تلوثت بشدة بالعقيدة الآكيّة ذات مرة، فقد أعلنَت طهارتها منذ العديد من السنوات.

لكن حَدثاً غريباً وقع في كاراغاردي في إحدى ليالي خريف ١٨٤٨.

قبل أن يأوي دانجل إلى سريره في تلك الليلة، سيطر عليه قلق غير معروف، وعبّر لزوجته إنجا—لينا عن توقعه لمرض قادم ما: في بعض اللحظات يشعر بدوار غريب. وخلال الليل، أيقظه شخص ما يدق الباب بقوة وينادي باسمه، فنهض مسرعاً من سريره. وعندما فتح باب الغرفة، غمره ضوء قوي. كان رجلان يقفان في الخارج. أحدهما شاب يرتدي رداءً من الصوف الخشن الذي عفا عليه الزمن، وهو غير معروف لدانجل. لكنه عرف الرجل الآخر على الفور من اللوحة المعلقة خلف مذبح الكنيسة: إنه هو: المُخلِّص، عيسى المسيح. كان المسيح يحمل مصباحاً في يده، وهذا المصباح هو الذي نشر الضوء العريض الصافي بشكل غريب في عتمة الليل. وبدا يسوع المخلِّص تماماً كما تخيله دانجل، وقد شعَّ من وجهه النور حتى لم يستطع دانجل النظر إليه: واضطر إلى إسبال جفنيه.

كان الرجل الذي يقف إلى جانب المخلِّص في المعطف الصوفي الخشن هو الذي أيقظ دانجل. والآن، ناداه مرة أخرى باسمه، وقال: «آنا آكي سيفنسون،

شقيق أمك. وقد متُّ شاباً وذهبت إلى المخلّص في السماء.

والآن، لاحَظ دانجل أن لهذا الرجل شبهاً بخاله كما يصفه أهل القرية المسنّون. ثمّة أناس ما يزالون أحياء ممن يتذكرون آكي قبل أن يضعه الشريف في ملجأ دانفيك.

تأمل المخلّص دانجل بعطف، لكنه ظل صامتاً.

وتحدث آكي سيفنسون مرة أخرى: «لقد أيقظك مُخلّصكَ هذه الليلة، علّك تكمل عملي هنا على الأرض. وسوف تخبرك الروح بما ينبغي أن تفعل. دانجل، اخرج وأكمل مهمتي! لقد دعاك مخلّصك!»

كرر آكي موعظته على ابن أخته مرتين، بصوت واضح. ثم غادر الزائران الليليان، واختفى الضوء المنبعث من مصباح المسيح، وغرق كل شيء حول دانجل في الظلام.

وجد نفسه راكعاً على ركبتيه على عتبة البيت، يصلي، لكنّه كان مغموراً بالهدوء والسَّكينة. لم يكُن خائفاً مما شاهده وسمعه على باب بيته، ولم يكن يحسُّ بالقلق وهو راكع هناك. كان صدره عامراً بسلام لم يكن قد عهده من قبل.

أيقظ زوجته إنجا—لينا، وأخبرها بأن السيّد المُخَلّص زاره في بيته هذه الليلة برفقة آكي، خاله الذي مات في ملجأ دانفيك. وظنّت زوجته أنه يحلم، لكنّه يعرف أنه كان مُستيقظاً كل الوقت، وقد سمعت أذناه الدقات على الباب عندما ناداه آكي بالاسم؛ ورأت عيناه وجه المُخَلّص؛ ويستطيع أن يصف المصباح الذي حمله السيد المسيح في يده بشكل جيد. كان المصباح مطابقاً في كل تفصيلة لذلك الذي يحمله في الصورة المعلقة فوق مذبح الكنيسة.

هذا ما حدث لدانجل أندريسون. ومنذ تلك اللحظة، تغيرت حياته الأرضية رأساً على عقب.

قال آكي بالكاد عشرين كلمة لدانجل، لكن الأخير عرف ما ينبغي عمله: لقد تحدّث الربُّ في قلبه. وبعد تلك الليلة، أملَت عليه الرّوح كل تصرفاته. لم يعد يتردد مرة أخرى في مشاريعه، ولم يشعر بالقلق إزاء النتائج. في كلّ مرة أحسَّ في قلبه بأنه على حقّ. لقد دعاه السيد المسيح، وأصبح تابعاً للسيد المُخَلِّص. ومنذ الآن، سوف يعيش نفس الحياة الأرضية كما فعل المسيحيون

والحواريون الأوائل. سوف يبشّر بتعاليم آكي التي ذهبت إلى النسيان. وقد أرشدته «الروح» وهو يقرأ الإنجيل، وقادت يدَهُ إلى الأماكن التي فيها وصايا له: «الكلمة مصباح على قدمي، وضوء على طريقي.» وهو رأى المصباح في يد المسيح، وعرف طريقه.

في تلك الليلة الخريفية، عندما سمع دانجل اسمَه يُنادى، وُلد مرة ثانية في العالم. كان قد عاش حتى بلغ أربعة وأربعين عاماً في الجَسد؛ والآن، بدأت حياتُه في الروح.

هكذا استأنف دانجل تعاليم آكي. وفي كلِّ يوم أحد، كان يُحدِّث أفراد عائلته عن الإنجيل —زوجته، وأولاده والخَدم— وإذا صادف وجود أحد من الجيران في المكان، فإنه يكون موضع ترحيب. وقد ارتاد دانجل الكنيسة كلما كان فيها عشاء ربّاني، ليتمتّع بالمناولة المباركة. وظلَّ يتلو صلواته، حتى وهو يعمل —في الحقل، وراء المحراث أو المسحاة، وفي الحظيرة وهو يحمل المِدرّس في يده. كان يطوي ركبتيه دائماً وهو يصلّي، ويبكي أحياناً بصوت عالٍ خلال الصلاة، فيندفع إليه القريبون منه، معتقدين أنه في حاجة إلى مُساعدة.

ألقى دانجل بشؤون المزرعة إلى الإهمال؛ لم يعمد فقط إلى وقف تصنيع خمرة البرانفين وبيعه، لكنه توقف عن تناول المشروبات الكحولية ولم يعد يقدمها في بيته أيضاً. وكفّ عن حلف الأيمان واستخدام اللغة المدنّسة. في السابق، كان نزقاً أحياناً وسريع الغضب —والآن، أصبح حديثه معتدلاً دائماً ورقيقاً، ولم يعُد يستخدم الكلمات القاسية إلا عندما يتحدث عن رجال الدّين الذين اضطهدوا خالَه آكي.

من الآن فصاعداً، اعتبر دانجل كل مُمتلكاته أعطيات من الله، ينبغي أن يتقاسمها، ما دامت موجودة، مع الإخوة الأكثر فقراً. وقد أخذ إلى منزله بضعة أشخاص ومنحهم إقامة دائمة في كاراغاردي، حيث يتلقون الطعام والكساء. وكان اثنان منهما من الأكثر اشتهاراً بسوء السُمعة في الأبرشية، ومعروفان بالتعهُّر، والسكر، والتبطل والفجور بكل أشكاله.

ولم يعد دانجل يستخدم المزيد من المغاليق والأقفال في منزله، وإنما ترك الأبواب غير مُقفلة في الليل. لماذا يحتاج إلى الأقفال والمزاليج عندما يقف الربُّ نفسه حارساً على منزله؟ هل يمكن لقُفل ضعيف، صنعته أيدٍ بشريّة، أن

يحمي مسكنه أفضل من يد الله القدير؟ أولئك الذين يقفلون أبوابهم بالأقفال لا يثقون بالله؛ إنهم يقترفون آثام الشك والجحود، أكبر خطايا الإنسان.

بالنسبة لدانجل، كما كان الأمر قبلاً بالنسبة لآكي، لم تكن هناك طبقاتٌ عليا وأخرى دُنيا، ولا أناس مبجَّلون وآخرون بسطاء —كلهم متساوون، متساوون باعتبارهم أولاداً في عائلة الربّ. وميَّز دانجل فقط بين أولئك الذين استمروا بالعيش في أجسادهم القديمة، وأولئك الذين وُلدوا ثانية في المسيح؛ بين أولئك الذين يعيشون في الجسد، وأولئك الذين يعيشون في الروح.

بعد انبعاثه الجديد، لم يعد دانجل يتقاسم السرير مع زوجته. لأن إنجا—لينا ما تزال تعيش في الجسد، فإنهما لم يعودا متزوّجين فعلاً بعد الآن. إنّ تلك الزيجات القديمة تخصّ القرائن التي كانت تعيش في أجسادهم، وقد عقدها الشيطان. ولو أن دانجل سعى الآن إلى زوجته، لاقترف خطيئة الزنا. ولذلك قال لها إنه لم يعُد بوسعهما الآن أن يمارسا علاقة الأزواج.

يجب عليهما أيضاً أن يزهدا من أجل مستقبل أبنائهما. ينبغي إنجاب ذرية طاهرة بلا شهوة، ولذلك ينبغي أن ينجبهم والدان خاليان من الخطيئة ومولودان من جديد. كان لدى دانجل وإنجا—لينا مسبقاً ثلاثة أولاد، ولدوا بينما كانا هما نفساهما ما يزالان يعيشان في الجسد، وشعر بكرب شديد من أجل هؤلاء الأولاد. وفكر: ما داموا لم يجيئوا ثمرةً لزواج حقيقي، يجب اعتبارهم ثمرة للزنا. لكنّه أخذ يصلي باستمرار، علَّ أولاده يُقبلون كأشخاص طاهرين بعد أن يتم تطهيرهم بنعمة الله.

وقعت إنجا—لينا، ربّة منزل كاراغاردي، في معضلة صعبة. كانت امرأة مخلصة لزوجها —وبعد الله، كان أعزّ عليها من أيّ إنسان آخر. وقد عاشت فقط لتخدمه، وأطاعت إرادته في كل شيء: كانت لينة الطباع بطبيعتها، معتمدة عليه في القرارات؛ وكان هو الزّوج والسيّد. وبعد تحوُّله ظلت تحاول أن تُرضيه، لكنّها وجدت من الصّعب القبول بأفكاره الجديدة، وما يترتَّب عليها من التغيرات اللاحقة في حياتهما. سوف تتقاسم عن طيب خاطر لقمة خبزها مع متسول جائع ربما يأتي إلى مزرعتهم، لكنها امتلأت بالحزن والغضب عندما زاد عدد سكان المنزل أربعة أشخاص دعاهم زوجها، وأصبح يتوجَّب على المنزل أن يقوم بإطعامهم. وعندما اضطرت أيضاً إلى أن تستقبل في بيتها

إولريكا، عاهرة فوسترغوهل، المرأة المكروهة أكثر ما يكون في الأبرشية، تمنّت أن لا تفعل شيئاً ضدّ إرادة دانجل، ولا أن تقول إنه أخطأ عندما سمح لأولريكا وابنتها غير الشرعية بالعيش معهم، ولكن، ما الذي سيقوله أو يظنه الآخرون عندما يُسكِن في منزلهم المرأة المغناج، العاهرة الكبيرة نفسها؟ أجاب دانجل: ينبغي أن نطيع الربّ فوق طاعة الإنسان. دعوا المرأة التي بلا خطيئة تأتي إلى هنا وترمي أول حجر على أولريكا.

وانزعجت إنجا—لينا أكثر ما يكون أيضاً عندما كرر زوجها أفعال وأقوال الآكيين. أراد آكي سيفينسون تأسيس مملكة يحكم فيها الروح القُدس وليس المَلك، حيث لا يصف أحد شيئاً بأنه لَه، وإنما تكون كل المُمتلكات الدُنيوية مُلكيّة مُشاعةً. لا عجب إذن أن جرى إرساله إلى ملجأ المجانين، حيث عانى موتاً مؤلماً بعد بضع سنوات —مع أنه كان شاباً ومُعافى. (على الرغم من وجود مَن اعتقدوا أن الظُلم قد مورس عليه، والذين اقتنعوا بأنه تعرض للتعذيب حتى الموت في دانفيك).

وقد أصاب مصير آكي الجميع في المنطقة بالرعب، لكن أحداً لم يندهش: هو الذي أصر على أن الجميع متساوون، وأن على الناس جعل ممتلكاتهم مشاعاً وتقاسمها كإخوة وأخوات. ينبغي أن ينتهي مثل هذا الشخص إلى نهاية غير سويّة؛ كان الناس محقّين في ذلك.

والآن، خشيت إنجا—لينا أن يفضي سير دانجل على خطى خاله به إلى نهاية لا تقل هولاً. إنك إذا وضعت نفسك في موضع معارضة مراسيم السلطة، فإنك ستتسبب بإغضاب رجال الدين، ولن يعود عليك ذلك بخير.

لكن دانجل قال إنك إذا ما سرت على خطى المسيح المدمّاة، فإنك لا بدّ أن تتسبب بغضب الكنيسة ورجال الدين والقوى الدنيويّة كذلك، وستتعرض لاضطهادهم.

شرعت بالقلق على ممتلكاتهم عندما لم يعد زوجها يقفل المنزل. وفي إحدى الليالي، دخل اللصوص إلى مخزن مؤونة العام وسرقوا لحم الخنزير والطحين. وقال دانجل إنهم يحتفظون بقدر من الطعام المخزون أكثر مما قدّرهم الله لهم، وهذا هو السبب في أنه لم يحُل دون وقوع السرقة. لكن إنجا—لينا لم تفهم ذلك. لقد حرّم الله نفسه السرقة في وصيته الخامسة. وكانت من مسؤوليتها أن يكفي

الطعام الجميع في المنزل؛ ومن الآن فصاعداً، ودون علم زوجها، أصبحت تقفل باب المخزن في المساء.

لكن ضميرها ظل يؤنبها في كل مرة عصت فيها أمره. كانت كلمات الإنجيل في «إفِسُس» واضحة ومميّزة: «لأن الزوج مسؤول عن الزوجة، حتى كما هو المسيح رأس الكنيسة.... وهكذا مثلما هي الكنيسة تابعة للمسيح، هكذا فلتكن الزوجات لأزواجهن في كل شيء.»

وزيادة على ذلك، انتاب إنجا—لينا شعور المرأة المدنّسة عندما هجر زوجها سرير الزوجية. كانت تشاهد أحلاماً مزعجة ومؤلمة في ليالي وحدتها؛ تستيقظ، وتطلب من الله النصيحة والمساعدة. وكانت تعترف في صلواتها بأنها امرأة ذات فهم قليل فحسب؛ بأن معرفتها لم تكن كافية لفهم دين آكي. وصلّت لله ودعته أن ينوّرها. وصلى دانجل نفس الصلاة.

وبعد فترة، استُجيب لدعوات الزوجين: جاءت «الروح» إلى إنجا—لينا وشهدت إعادة انبعاثها. وأصبحت تفهم أن عليها إطاعة زوجها، وليس ذكاءها الشخصي القليل. كان دانجل محقاً في شأن الأمور الروحية، وهي كانت على خطأ. وهكذا، أصبح زواجهما زواجاً حقيقياً. وعاد دانجل إلى سرير الزوجية، وعرف زوجته مرة أخرى.

بحلول هذا الوقت، أصبحت مجموعة كبيرة من الآكيين تتشكل في كاراغاردي. فقد اعتنق التعاليم الآكية الفقراء المُعوزون الذين اتخذوا من العِزبة منزلهم، شأنهم شأن قليل من الجيران، ورأوا في دانجل أندريسون حَوارياً جديداً للمسيح على الأرض.

لكن زوجته إنجا—لينا ارتكبت، سراً في الأمسيات، خطيئة الشك عندما كانت تغلق مخزن المزرعة في الليل.

٢

سرعان ما وصلت أخبار الأحداث في كاراغاردي إلى أسماع القسّيس بروسندر. قيل إن الناس يجتمعون بحجّة الورع في منزل دانجل أندريسون، حيث يبشّر بالعقيدة الآكية —لقد شرعت هذه الهرطقة مجدداً بنشر سمها المروّع في الأبرشية.

كان القسيس بروسوندر رجل دين قوياً، يصون كرامة منصبه وقداسته كما ينبغي. وقد حافظ دائماً على نقاء الكنيسة اللوثرية الإنجيليكانية بحماس لا يَلين؛ ومن دون أن يستثني نفسه، ظلّ يسهر على القطيع الذي ائتمنه الله عليه، حامياً إياهُ من البِدَع. والآن، أرسل فوراً في طلب الشمّاس، بير بيرسون من أكيربي، الذي أكّد قصة الاجتماعات غير المشروعة في كاراغاردي. وقيل عبر الأبرشية أن آكي سيفنسون قد عاد في هيئة ابن اخته. واستطاع بير بيرسون تأكيد أن دانجل استخدم كلمات الشيطان في حديثه عن القسيس، ووصفه بأنه راعٍ مُهمل، لأن البرانفين كان يُقطَّرُ ويُباع في عزبته.

أصبح بروسندر مستفزاً من اجتراء أحد أبناء الأبرشية على التشكيك في حقّه القانوني الذي يتقاسمه معه كلُّ رجال الدين الذين يفلحون الأرض. وفي إقطاعات المَلِك أيضاً كان البرانفين يُقطَّرُ ويُباع، وكذلك في عزبة الأمير في باكاسكوغ. وهكذا، يكون المزارِع صاحب كاراغاردي قد ارتكب بانتقاده جريمة خطيرة في حقّ التاج. كان بيع وتقديم البرانفين في الأبرشية هذه الأيام مسموحاً فقط خلال أيام الأسبوع العادية؛ فقد كان المشروب يُنشّط العُمّال والخدم بعد يوم من الكدّ. صحيح أن القسيس فيسيلغرين المعروف جداً من فاسترستاد أراد إلغاء البرانفين جملة وتفصيلاً، وأنه اتهم —بكراهية غير مسيحية— زملاءه الذين يتمتعون فقط بحقهم القانوني. لكن فيسيلغرين أراد في غمرة عماه أن يسلب الفلاحين تجارتهم القانونية؛ ولو أنه لم يُسمح لهم بتقطير حبوبهم إلى برانفين، لتدمرت زراعة البلاد في وقت قصير، ولأصبح المزارعون مُعدمين. كانت أسعار القمح ستهبط كثيراً والمزارعون سيفلسون، وهو ما كان سيجعل الفقراء أكثر عوَزاً؛ وسوف يكون من الصعب حينئذ الحصول على خدم وعمال يوميِّين. إذ، من الذي يريد أن يؤدي عمل اليوم إذا كان بالوسع شراء مكيال الشعير بستة شلنات؟

استدعى القسيس برؤسندر دانجل أندريسون من كاراغاردي ليأتي إلى

مقره، وفي حضور مساعده، باستور كروسيل، وشمّاس الكنيسة في الأبرشية، استنطق القسّيسُ المزارع طويلاً.

٣

في هذا التحقيق، كتب مساعد راعي الأبرشية ملاحظات وقّع عليها شمّاس الكنيسة باعتباره شاهداً غير منحاز، وأودعها في أرشيف الأبرشية.

«سُئل المالك دانجل أندريسون المُستدعى أولاً باختصار في شؤون الدين من قبل القسيس بروسندر؛ وقد أظهر معرفة مُرضية في أسس وترتيب تعاليم الخلاص. ولدى سؤاله بشكل محدّد، اعترف دانجل أندريسون أن العديد من الناس المشردين اتخذوا من منزله مسكناً لهم في الوقت الحالي، وهم: المحكوم من المحكمة العسكرية الجندي سيفيريوس فيل؛ الخادمة البغيّ المُقعدة سيسا سفنسدوتر؛ والأنثى العازبة أولريكا من فوسترغوهل وابنتها غير الشرعية إيلين. وقد عرفت أولريكا منذ شبابها بحياة وضيعة وغير أخلاقية، والتي أنجبت خلالها أربعة أبناء غير شرعيين مات ثلاثة منهم في مهدهم. وقد اعترف دانجل أندريسون بأنه يطعم هؤلاء الناس ويؤويهم في منزله.

«سأل القسّيس بروسندر: 'هل صحيح أنك تعقد اجتماعات في منزلك مع أهل بيتك وجيرانك؟'

«أجاب دانجل أندريسون: 'صحيح، سيدي القسيس.'

«سأل القسّيس ب.: 'ما الذي تفعله في تلك الاجتماعات؟'

«أجاب دانجل أ.: 'أشرح كلمات الإنجيل لمستمعيّ.'

«سأل القسيس ب.: 'تعترف إذن بأنك تمارس وظيفة الكهنوت؟'

«أجاب دانجل أ.: 'إنني أفعل ما لا يفعله القساوسة: إنني أبشر بكلمة الله الحقيقية.'

«سأل القسّيس ب.: 'من الذي أعطاك السلطة لتقوم بذلك؟'

«أجاب دانجل أ.: 'روح الله أعطتني السلطة في قلبي.'

«قال القسّيس ب.: 'أنت مسكون بروح شريرة. ليس مسموحاً لأحد بأن يكون قسّيساً إلا إذا سُمّيَ ورُسّمَ كاهناً وفقاً لقانون الكنيسة. وفي حضور هؤلاء

الرجال الصادقين والموثوقين، آمرك الآن، يا دانجل أندريسون، بأن تتخلى عن ممارسة جميع أعمال الكهنوت في المستقبل!'

«أجاب دانجل أ.: 'أنت، يا سيدي القسّيس، لا تمتلك السلطة لمنعي من ذلك.'

«قال القسّيس ب.: لقد أوكل الربّ روحك إليّ. أنا هي سلطتك الروحية. في كل المسائل الروحانية يجب أن تطيعني أنا، وليس أيّ أحد آخر.'

«أجاب دانجل أ.: «تقول تعاليم الإنجيل إن عليّ أن أطيع الله قبل الإنسان. وأنت إنسان، يا سيدي القسّيس.'

«قال القسّيس ب.: 'في سفر رومية، الفصل ١٣، الآية ٢، يقول الإنجيل: «حَتى إِنَّ مَنْ يُقاوِمُ السُّلْطَةَ، يُقاوِمُ تَرْتيبَ اللهِ، وَالمُقاوِمونَ سيَجلِبونَ العِقابَ علَى أنفسهِم.» ألا تعترف بأن سلطتي هي من الله؟

«أجاب دانجل أ.: 'كلا، سيدي القسّيس.'

«سأل القسّيس ب.: 'هل ترفض إطاعة القانون والنظام؟'

«أجاب دانجل أ.: 'ليس هناك قانون على الصالحين.'

«سأل القسّيس ب.: هل أنت مسكون بالغرور الديني حتّى تعتبر نفسك صالحاً؟'

«أجاب دانجل أ.: 'إنني مسكون بروح الله. ودليلي في سلوكي هو الإنجيل وضميري.'

«سأل القسّيس ب.: 'هل تستطيع أن تخبرني: ما هو الضمير؟'

«أجاب دانجل أ.: 'هو الذي يُولد من جديد يستطيع أن يقول ما هو الضمير. وأنا أسمع أنك لم تولد من جديد، سيدي القسّيس.'

«قال القسّيس ب.: 'الشيطان، مدمر الأرواح، يهمس إجاباته في أذنيك! هل بشّرت بأنه ليس لأحد الحقّ في الاحتفاظ بأملاك له وحده؟'

«أجاب دانجل أ.: 'نعم، أنت، أنت يا سيدي القسّيس، كان ينبغي أن تبشّر بالشيء نفسه. لو أنك بشّرت بكلام الله الحقيقي.'

«سأل القسّيس ب.: 'هل تتهمني بأن تعاليمي باطلة؟'

«أجاب دانجل أ.: 'في أعمال الرسل ٤، الآية ٣٢، مكتوب عن كنيسة المسيح: «وكان لجمهور الذين آمنوا قلب واحد ونفس واحدة، ولم يكن أحد يقول إن شيئاً من أمواله له، بل كان عندهم كل شيء مشتركاً». إنك، يا سيدي القسّيس لم تبشر أبداً بالمسيحية لهذه الأبرشية.'

«قال القسيس ب.: 'إنك تتكئ على بعض الكلمات في الإنجيل بينما تهمل كلمات أخرى. وقلتَ عنّي أيضاً أنني راعٍ مهمل وأقود قطيعي مباشرة إلى الجحيم عندما يسكرون. هل صحيح أنك قلتَ هذا في اجتماعاتك غير الشرعية؟'

«أجاب دانجل أ.: 'ذلك صحيح، يا سيدي القسّيس.'

«سأل القسّيس ب.: 'كيف تدافع عن هذه الشهادة الخاطئة عن دليلك الروحي؟'

«أجاب دانجل أ.: 'أليس صحيحاً، يا سيدي القسّيس، أنك تبيع البرانفين من مخمرة منزلك؟'

«أجاب القسّيس ب.: 'إنني أستعمل ممتلكاتي بالطريقة التي أراها مُناسبةً. أي حق لديك حتى تنكر عليّ مَصدر دخلي الذي يحقّ لي قانونياً خلال فترتي في المنصب؟'

«أجاب دانجل أ.: 'إن الناسُ يسكرون من برانفينك، سيدي القسّيس، وهم يرتكبون أثناء سكرهم العنف والزنا وجرائم أخرى ضد الوصايا العشر. ألا يستحقّ الذي يكسر وصايا الربّ جهنم، يا سيدي القسّيس؟'

«قال القسّيس ب.: 'لقد استدعيتَ أنت للتحقيق، ولستُ أنا.'

«قال دانجل أ.: 'طالما كنتُ أخدم الشيطان، كنتُ أتلقّى منك المديح والإطراء، سيّدي القسّيس. والآن عندما أصبحت أخدم الله، أُستَدعى للتحقيق وأتلقى اللوم والتقريع.'

«قال القسّيس ب.: 'الآن أصبحت قضيتك واضحة، يا دانجل أندريسون. لقد اعترفت هنا —بحضور شهود غير منحازين— بأنك انتهكت القانون بممارسة الكهانة. وينبغي الآن أن تتلقى عقابك في المحكمة المدنية. لكنني أريدُ توبتك، وليس دمارَك. إذا تراجعتَ عن إلحادك، ووعدتَ بأن لا تبشّر بعقائدك الفاجرة ولا تنشرها بعد الآن، فسوف أكفل لكَ الرحمة والغفران على ما فعلت.'

«أجاب دانجل أ.: 'إن الرحمة شأن يعود إلى الله وحده. ولذلك، ليس لديك أنت، سيدي القسّيس، رحمة لتمنَّ بها عليّ، ولا أنا أستطيع أن أتلقّى الرحمة منك.'

«قال القسّيس ب.: 'في حضور هؤلاء الشهود أمنعك من التبشير. وإذا مضيت في متابعة نشاطاتك غير القانونية، فسوف تُحاكم في المحكمة المدنية وسوف تُغرَّم أو تُدان لتعيش على الخبز والماء في السجن. وإذا ارتكبتَ جريمة ثالثة، فسوف تكون عرضة للنفي لمدة سنتين.'

«أجاب دانجل أ.: 'سيدي القسّيس. إنك لا تستطيع أن تنفيني من مملكة الربّ، ولا حتّى للحظة واحدة.'

«وعلى الرغم والتقريع القويين من القسّيس بروسندر، تمسّك المُستنطق أندريسون بهرطقته، ورفض بعناد أن يتراجع عن أيّ من عقائدة الزائفة. ولذلك وجه القسّيس تحذيره الأول ضد نشر العقائد الإلحادية التي تهدف إلى تقويض وحدَة الكنيسة وتهديد نظام ورفاه وأمن البلاد. وقد أمر القسّيس الرجل الضال بأن يبقى تحت الطلب، وبالسّعي إلى ممارسة العمل القانوني. ثم سُمِح لأندريسون بالمغادرة.»

٤

هذا التحقيق الذي أجراه القسّيس بروسندر انتزع الحقيقة من فم الرجل المُستنطَق نفسه.

دانجل أندريسون، الرجل البسيط من أوساط الفلاحين الخام، كان منتفخاً بالاعتقاد بأحقية الذات والغرور، وساخطاً في قلبه ومليئاً بالحقد تجاه الكنيسة ورجال الدين. وقد كشف في نقاشاته عن مكر ودهاء كبيرين من النوع الذي لا يندُر بين الفلاحين، واعتنق أكثر الأفكار جنوناً عن سعادة الإنسان الروحية والدنيوية. وكانت هذه الهرطقة خطيرة بشكل خاص لأنها هاجمت رباط الوحدة بين السلطة والأفراد؛ وحرضت على عصيان قوانين الكنيسة المقدسة. وكان الفلاحون الجاهلون يقبلون بسهولة حتى الأفكار الحمقاء، كما حدث في زمن آكي سيفنسون. ولم يكنِ دانجل قد جمع من المرتَدِّينَ حتى الآن سوى بضعة أشخاص منحلين وسيئي السمعة؛ لكنّ بعض الناس المحترمين أيضاً ربما يقعون

تحت إغواء عقيدته الدينية الخاطئة.

شعر بروسندر بضرورة أداء واجبه السامي والمقدس: لا ينبغي تلطيخ الدين الوحيد الصحيح. ينبغي أن لا تطاله أي وصمة. ينبغي إبقاء العقيدة اللوثرية الإيفنجليكانية —دين الآباء— غير ملوثة في أبرشيته من الآن فصاعداً. خلال حكم الملك الورع تشارلز الحادي عشر، كان الانحراف عن الدين النقي يُعاقب بالحبس، وأحياناً بفُقدان الحياة. ومع أن ذلك قد يبدو في حقبة لاحقة مفرطاً، فإن على المرء أن يبقي في الذهن حقيقة أنه أمر يخص «اعتراف أوغسبورغ» ونقاء العقيدة اللوثرية—الإيفنجليكانية. في الوقت الحالي، أصبح للسويد عاهل أكثر مرونة، وعاش سكانها في قرن متسامح ومتنور، وأصبح يتوجب استخدام وسائل أكثر اعتدالاً ضد المواطنين الحرونين. كان الأمر لينتهي بدانجل أندريسون إلى نهاية سيئة في أوقات أخرى. وفكر القسّيس بإعادته إلى عقله بالتحذيرات والتوبيخات اللينة وحدها. لم يكن يريد دمار الرجل المسكين، وسوف يصلي ويدعو الله أن ينوّر حواسّة المظلمة. أراد أن يجبر الرجل على التوبة، ويحرر أبرشيته من العدوى البغيضة للعقيدة الآكيّة، من دون الاضطرار إلى الاستعانة بالسلطات المدنية.

حذّر القسّيس بروسندر رعيّة أبرشيته بإسهاب: في ثلاثة أيام أحد متتابعة، قرأ عليهم من المذبح «المرسوم النافع» الذي يصف الغرامات، والسجن والنفي، للذكر أو الأنثى، للشيخ أو الشابّ، للقلة أو الكثرة الذين يجتمعون في البيوت الخاصة تحت ذريعة الورع والتقوى. وجرى تحذير كافة أفراد الأبرشية من عزبة كاراغاردي التي أصبحت مرّة أخرى مكاناً تُحظَر فيه الاجتماعات.

وبعد فترة قصيرة، وصلت التقارير مرة أخرى إلى القسّيس بأن دانجل أندريسون قد استمرّ في عقد جلسات تفسيره غير القانونية للإنجيل. وعندها، لجأ بروسندر إلى الحظر الكنَسيّ: تم طرد المالك دانجل أندريسون، صاحب كاراغاردي، وكافة أفراد منزله من حضور عشاء الربّ الرّباني، وحرمانهم من المناولة وزمالات الكنيسة. كان ذلك هو الحظر الذي فرضته الكنيسة على الرجل الذي عاد من مستشفى المجانين.

«تأديب مناسب»

١

شرعت أحمال عربات أخشاب البلوط بالتدحرج صوب كورباموين في الخريف، لكن آرون صاحب نايباخن بنفسه ذهب مع فريقه. قال إنه يشعر بالقلق البالغ على عامله الصغير، حتى أنه لم يجرؤ على تركه يخرج في رحلات طويلة كهذه. وهكذا، انغلق باب بدا في البداية مفتوحاً في وجه روبرت. ثمة الكثير من البوابات المغلقة في الطريق إلى أميركا.

ما يزال سيده لا يثق به. ومع ذلك، ظلَّ روبرت منذ بدأ خدمته له مطيعاً ويقظاً، وفعل كل ما طُلب إليه فعله. مرة واحدة فقط خلال الصيف بكامله طُلب إليه أن يحضر الماء للخيول. وفكر آرون أنه لم يتحرك بسرعة كافية، أو أنه لم يُطع الأمر بسرعة كافية، ولذلك وجه لعامله الصغير ركلة في أصل الفخذ. وكان من الممكن أن تكون الركلة أقوى؛ لكنه حدث أنها أصابت وعاء خصيتيه الذي تورّم وأصيب بالحساسيّة. ولبضعة أيام، أصبح يسير ببطء وصعوبة، وتضاحكت منه الخادمات وهن يتساءلن عن أيّ نوع من المرض أصاب الرجل الصغير. لكنّ تلك كانت المرة الأولى التي لم يكن آرون راضياً عنه فيها.

وذات صباح قرب عيد القديس ميخائيل، أُرسِل روبرت لتنظيف حفرة في حقل قرب المنزل. وقد فكك الحجارة بقضيب حديدي واستخرج التراب من الحفرة بجاروف. كانت الحفرة عميقة. وعندما انحنى خلال عمله، كان رأسه يظهر بالكاد فوق الحافة. وبعد بضع ساعات من العمل، شعر بالجوع. ألن يحل موعد الإفطار قريباً؟ ولَم يسمع دعوة لتناول الإفطار، وقد كساه العرق وأضناه العطش، وآلمه ظهره من كثرة الانحناء، وأصبح التراب أثقل مع كل حمل مجرفة جديد. كان العمل الشاق ثقيلاً ــــ ولا ينتهي. وأصبح مكتئباً، وهو يدرك

أنه لم يكدح خلال نصف سنة خدمته؛ وكانت هذه الفترة مع آرون بلا نهاية. ورأى كل سنوات مستقبله عبارة عن سنوات خدمة لدى المزارعين، وكلها بلا نهاية؛ وبدا له كل شيء في العالم له تعساً وبائساً وبلا نهاية. وتساءل عما إذا كانت الحياة تستحق العيش، إذا كان سيترتب عليه أن يبقى عامل مزرعة.

وفي النهاية، وضع المجرفة جانباً واستلقى على ظهره في قاع الحفرة، وقد طوى ذراعيه تحت رأسه، وشرع بمراقبة الغيوم المسافرة في السماء. وكان قد اعتاد خلال عمله راعياً أن يستلقي هكذا، أحياناً لنصف يوم في استلقاءة واحدة؛ وقد استمتع بذلك الآن بقدر لم يقل عن ذلك.

ولكن، ومن أجل أن يستريح دون أن يزعجه آرون، فإنه يجب أن يظهر من المنزل كما لو أنه ما يزال يعمل.

وهكذا، خلع روبرت قبعته وعلّقها على ذراع المجرفة، ووضعها في وضع بحيث تكون القبعة مرئية فوق حافة الحفرة؛ وبينما يستلقي هناك، حرك المجرفة قليلاً بين الفينة والأخرى، إلى الأمام والخلف، وإلى الأسفل والأعلى، كما يمكن للمرء أن يتخيل الكيفية التي يتحرك بها رأس عامل مشغول بينما ينظف حفرة.

وقد بددت الفكرة أفكاره المحبطة، وأصبح مبتهجاً، بل ومرح المزاج: يمكنه أن يبقى مستلقياً هناك، حيث يستريح ويمتّع نفسه، بينما يبقى سيده عيناً من المزرعة على رفيقه الصغير الرائع وهو يعمل في الحفرة. سيكون آرون راضياً، وهو كذلك. يمكن للمرء أن يحصل على فترة استراحة بين الفينة والأخرى إذا كان ذكياً.

وقد استمتع روبرت باستراحته تماماً. فوقه كان امتداد السماء العالية، منبسطة مثل بحر أزرق من الحرية فوق كل الحفر التي على وجه الأرض، وفوق كل عمال المزارع الذين يكدحون فيها. وقد ملأته السعادة حتى أنه شرع بالصفير والغناء.

ومع ذلك، كان ذلك هو ما سيندم عليه سريعاً. سوف يدرك السيد بسهولة أن الأمر ليس كما ينبغي عندما يستمر واحد من عماله في الغناء والصفير بينما يعمل.

وفجأة، ظهر المزارع من نايباخن فوقه. «هل تلعب بيت اللعبة، يا صديقي الصغير؟»

لم يسمع روبرت سيده وهو يقترب. وهناك كان يقف وينظر تحته إلى خادمه، ممداً بطوله في قاع الحفرة.

قفز الغلام من الحفرة بقفزة واحدة، والمجرفة في يده. وأراد أن يقول إنه أخذ خمس دقائق فقط للاستراحة لأن الإفطار تأخر. لكنه لم يجب الوقت ليقول أيّ شيء. فقد شد آرون فكّيه، وهز قبضته أمامه. «وإذن، أنت تتسكع، أيها المتواني المعلون!»

وواجه روبرت زوجاً من الكتل الشرسة، أكبر يدين رآهما أبداً لكائن بشري. ومصدوماً بالرعب، أسقط المجرفة وحاول الهروب؛ لكنها خطا خطوة واحدة فقط.

حطت قبضة السيد اليمني على أذنه اليسرى. وانحنى مثل موسى الكباس من اللكمة وسقط ووجهة إلى الأسفل فوق كومة من الروث. واندفن وجهه في الأرض على الأثر. واخترق الألم رأسه، والتمعت النجوم الحمراء أمام ناظريه، ودار الكون كله في دوامات من حوله. وسمع صوت أحد ما يزعق —أيمكن أن يكون صوته؟

لم يفقد وعيه؛ وظل رأسه ينفجر من الألم كل الوقت. ظن أن جمجمته انكسرت، وانقسمت إلى اثنتين مثل قطعة من الخشب تحت بلطة التحطيب؛ وفكر بأنه لا يستطيع العيش ورأسه مقسوم إلى اثنين؛ وأراد أن يموت ليهرب من الألم. وكف عن الصراخ وسمع شخصاً آخر يصرخ: كانت السيدة تقف على المنحنى وتنادي على آرون لتناول الإفطار.

غادر السيد، ونهض عامل المزرعة المضروب ببطء إلى وضع الجلوس. وجهه مغطى بالروث، حاول أن يزيل قطع التراب عن عينيه. كان حجر حاد قد جرح أنفه؛ وكان فمه مليئاً بالقذارة —وبصق. كان ما يزال مشوشاً ومصاباً بالدوار، وكان العالم من حوله ما يزال يجيش، لكن الألم تراجع قليلاً.

مرة واحدة فقط كان قد تلقى لكمة على الأذن من سيده قبل ذلك —في ذلك اليوم عندما دخل الخدمة. وفي تلك المرة، كانت لكمة صغيرة فقط؛ أما اليوم، فقد جرب لكمة كبيرة على الأذن.

بمجرد أن تراجع الألم من اللكمة قليلاً، عاد الجوع. وقف وحاول المشي بضع خطوات: كانت الأرض تمتد شبه مستقرة تحت قدميه؛ وتبع سيده إلى

المنزل لتناول الإفطار.

لم يذكر روبرت حكاية اللكمة على الأذن لأحد. لقد عوقِب، وشعر بالخجل، ولم يكن ذلك شيئاً يَحسُن الحديث عنه. كان كسولاً في عمله وعوقب على ذلك. ونال ما استحق؛ وليس هناك شيء آخر يمكن قوله. إذا كان أحد الخدم كسولاً وغير مطيع، فإن لسيده الحق في تأديبه. وهو يعرف ذلك جيداً، وكل الآخرين يعرفونه، ولو أنهم لم يكونوا يعرفون، لكان قدر أقل من العمل قد أُنجِز لصالح المزارعين. هكذا هو الأمر وفقاً لقانون الخدمة الذي يكرره القَسّ بروسندر في الاختبارات السنوية: «إذا مال أحد الخدم إلى الكسل،» فإن على السيد أن يصحح ذلك باستخدام «تأديب مناسب.» ليس هناك علاج آخر.

إنّ آرون صاحب نايباخن سيده. ومن حق آرون وواجبه أن ينتقي عقاباً مناسباً؛ لم يكن لصبي المزرعة الصغير ما يشكو منه. إن أحداً لم يرتكب خطأً ضده، وقد نال تلك اللكمة على الأذن وفقاً لأوامر الربّ.

ولم يحمل أي ضغينة لسيده الذي ضربه. وذات مرة، عندما كان يقف خلف الحظيرة، رأى آرون وهو يُضرب من زوجته: وجهت إليه ضربة ثقيلة على عنقه بمكنسة الزريبة. كانت مكنسة كبيرة خشنة، مليئة بروث البقر، لكن آرون احتمل الضربة دون أن يحاول الدفاع عن نفسه؛ وبدا خائفاً. ورثى روبرت لحال سيده بدل أن يكرهه.

وعندما ذهب إلى سريره في تلك الليلة، كان ما يزال يسمع طنيناً في أذنه جرّاء الضربة الهائلة؛ ولم يكن ثمّة صوت حوله، لكن ذلك الطنين استقرّ في أذنه. واستلقى واستمع إلى الصوت الذي يئز وتساءل عمّ تسبَّب به. ومع أنّ الصمت الكامل ران في الخارج في الفناء، تماماً كما في داخل الغرفة، فإن ضجة غريبة جاءت من داخل الأذن. استلقى هادئاً تماماً واستمع فقط إلى ما في داخله؛ إنه لم يتسبب بصدور أي صوت؛ فمن هو الذي يمكن أن يصدر هذا الطنين والأزيز على ذلك النحو؟

طلب من آرفيد أن يضع أذنه إلى جانب أذنه ويصغي. لكن آرفيد لم يسمع شيئاً، ولا أيّ صوت. إن الأمر غير قابل للتفسير: إن روبرت يسمع صوتاً غير موجود.

استيقظ في منتصف الليل. كانت أذنه اليسرى تنبض وتؤلمه بلا توقف،

والصوت في الداخل يتعالى، وأصبح يبدو الآن مثل دمدمة العاصفة. وسمع روبرت صوت دقات قلبه تتردد في أذنه مثل وخزات سكين حادة. واستلقى هناك على سريره وهو يتقلب ويتلوى من الألم. لا بد أن شيئاً قد انكسر في داخله ليسبب كل هذا الخفقان. أخذ يعدُّ دقات قلبه: كان طرف السكين يقطع ويقطع في أذنه؛ وبدا الأمر أشبه باللسعة في الجرح الطازج الحسّاس المفتوح. ولم يتوقف الوخز، ولا تراجع الألم. وقد أحصى وانتظر وأمِل، لكن الألم لم ينحسر. كان وحيداً في العالم كله مع ألمه ولم يعرف ماذا يفعل بشأنه. وشرع بالأنين؛ لم يصرخ، لكنه أنّ بهدوء وعلى فترات. وضم يديه وصلى لله. وأدرك أن ألم الأذن ذاك كان عقاباً له على كسله في الحفرة، وصلى من أجل الغفران. وإذا منحه الله الغفران، فإنه سيزيل الألم أيضاً. وهو لم يكن خادماً غير مطيع، وتذكر الآن أنه حذف مؤخراً قراءة «صلاة الخادم.» لكنه تلاها الليلة مرة أخرى بندم عميق: «علمني أن أكون مخلصاً، متواضعاً، ومكرّساً لسادتي الدنيويين... اجعلني أيضاً أجد سادة طيبين ومسيحيين من الذين لا يُهملون خادماً فقيراً ولا يسيئون معاملته، واجعلهم يعاملوني بحب وصبر...».

وبعد تلاوة الصلاة، استلقى في الظلام وانتظر. لكن الألم لم يزايله، وإنما خفق وخفق، وشعر بوخزة حافة السكين تتكرر في أذنه المصابة مئة مرة في الدقيقة. إن الله لن يزيل الألم، ولذلك ناضل ضد ألمه وحيداً، وكان بلا حول ولم يستطع أن يفعل شيئاً لتخفيفه. وهناك، عميقاً في داخل أذنه، استمر هجوم الألم في شكل عاصفة مدومة.

نهض وأشعل مصباح الإسطبل. واستيقظ آرفيد وهو يتساءل ناعساً عمّ حدث.

«لديّ ألم شديد.»

«ما الذي لديك بحق الجحيم؟»

«ماذا أفعل؟» أنّ روبرت بطريقة مثيرة للشفقة.

جلس عامل المزرعة الأكبر سناً في سريره وحكّ شعره المبعثر. كان يفكر.

أفضل شفاء للألم هو حليب الأم، قال. ولكن، أين يمكن أن يجدوا امرأة مرضعة لديها بعض الحليب المتبقي في صدرها في هذا الوقت من الليل؟

السيدة لم تنجب أطفالاً أبداً؛ إنها امرأة جافة. والخادمات عذراوات وصدورهن لم تتفتح.

لكن آرفيد نهض وأحضر زق البرانفين. «سوف نجرب بالبرانفين على خرقة صوفية.»

فتش لبعض الوقت في صندوقه وعثر على صوف أغنام غمسه بالبرانفين ووضعه في أذن صديقه المتألمة.

«سوف تلذع في البداية، ولكن ليس لوقت طويل.»

وقد لذعت لفيفة الصوف المنقوعة بالبرانفين بحدة حتى أن روبرت كاد يسحبها؛ وقد أبقى قبضتيه مضمومتين، مثل المتشنج، حتى لا يصرخ. وبعد لحظة تراجع ألم الخفقات، كما قال آرفيد إنه سيفعل. ليس ثمة متعة يمكن أن تكون أعظم من تلاشي الألم. وقد فهم الآن أن الله أرسل آرفيد ليساعده؛ ولحسن الحظ، كان هناك بعض البرانفين متبقياً في الزقّ الصغير. وسرعان ما غرق في النوم، لكن بعض الألم تبقى هناك، مختلطاً بالأحلام: كانت أذنه اليسرى مملوءة بالزنابير القارصة، بسرب كبير منها، وقد تزاحمت متدافعة في الداخل ولسعت، ولسعت فقط. وانتفخت أذنه وأصبحت دمّلاً كبيراً واحداً حساساً، حيث استقرّت كل زبانات الزنابير وأوجعته.

كان الألم في الأذن قد اختفى تقريباً عندما استيقظ روبرت في الصباح التالي، وخلال الأيام القليلة التالية، اختفى كلية. لكن سائلاً كثيفاً مائلاً إلى الصفرة سال من أذنه: كان ذلك هو الألم وهو يخرج. لكنّ شيئاً ما بقي في الداخل، مع ذلك: الصوت الغريب الذي لم يستطع أن يسمعه أيّ أحد آخر.

نعم، كان الطنين والأزيز ما يزالان هناك؛ أحياناً سمعه بصوت أعلى، وأحياناً أخفض، لكنه ظلّ يحسّ به كل الوقت، داخل أذنه. ولم يكن ذلك يؤلمه، لكنه يصبح متعباً وفاقد الهمة لدى سماع الصوت وهو يلاحقه ليلاً ونهاراً. وقد وضع ضمادة على أذنه، ووضع يده عليها، وحشر قطعة صوف في داخلها، لكنّ الصوت بقي؛ لا شيء يمكن أن يُسكتَه.

ذات ليلة، استلقى هناك واستمع إلى أذنه وأدرك ما يعنيه هذا الصوت

الغريب الموجود لديه هو فقط: إنه يستمع إلى ثرثرة ماء عظيم، إنها زمجرة وجلبة البحر نفسه؛ إنه صوت البحر في أذنه، يناديه، ويناديه هو وحده: لقد اختير. لقد دعاه المحيط، وحثه، وأصبحت الهمهمة في أذنه كلمة، كلمة تسير في أعقابه على الدوام، في الليل والنهار، وتناديه: تعال!

لكنه لا يستطيع أن يأتي بعد؛ كل ما تزال البوابات مغلقة.

٢

ذات صباح يوم أحد، ظهر روبرت بلا توقع في منزل والديه في كوربامورين. ولم يكن قد ذهب لرؤيتهما منذ بدأ خدمته، وقد سرّ نيلس ومارتا. في الربيع الماضي عندما ألقى ملابسه في الجدول واتجه إلى المطحنة بدلاً من نايباخن، أصبح الولد موضع سخرية الجوار. ولكن، بما أنهما لم يرياه كل الصيف، فإنهما لن يذكرا ذلك الآن. فكرت مارتا أنه أصبح نحيلاً وعظام وجنتيه بارزتين، لكنها عندما سألته كيف كان حاله مع آرون، لم يُجب.

بقي روبرت في البيت طوال يوم الأحد، وعندما ظل، بعد العشاء، جالساً في مقعده، تساءل نيلس عما إذا كان يجب عليه أن يعود إلى مكان خدمته قبل وقت النوم. وأجاب الفتى بأنه عاد إلى البيت بغير إذن السيد؛ وأنه لن يعود أبداً إلى نايباخن.

تبادل نيلس ومارتا نظرات متحيّرة. وقال نيلس: «عندما يستلم المرء أجرة جيدة، فإن على المرء أن يبقى حتى نهاية العام.»

وقال روبرت إنهم إذا أرادوا أن يعيدوه إلى نايباخن، فإن عليهم أولاً أن يطووا يديه وقدميه ويوثقوه إلى عربة مثل الحيوان في طريقه إلى المسلخ.

ولم يعرف الأبوان ماذا يفعلان؛ وبقي الابن في مقعده ولم يقل أيّ شيء آخر.

نادت الأم كارل أوسكار: إن أخاه يرفض العودة إلى الخدمة بإرادته.

«هل غادرت آرون بلا إذن؟» سأل كارل أوسكار.

أزاح روبرت سترته وجعلهم يرون ظهره العاري. كانت خطوط حمراء هائلة تمتد من جانب ظهره إلى الآخر؛ وكان الجلد ممزقاً والدم ينزف.

وأفلتت مارتا صرخة: «لقد جلدوك، يا طفلي المسكين!»

«مَن ضربك؟» سأل أخوه.

وحكى روبرت القصة. بالأمس كان يجلب إلى المنزل حمل عربة من اللفت، واضطر إلى المرور عبر بوابة ضيقة؛ كان هناك منحنى في الطريق مباشرة قبل الوصول إلى البوابة، وكان من الصعب السيطرة على المهرة التي لم تُطع العنان بسرعة، فضربت العربة سارية البوابة وانكسر محورها؛ لم يستطع الحيلولة دون ذلك، وقد شدّ العنان بكل قوته. لكن آرون جلب خشبة من السياج وضربه عدة مرات على ظهره. وكانت في الخشبة الكثير من العقد الناتئة التي اخترقت لحمه. وقد أوجعه ظهره كلّ الليل، وفي الصباح غادر البيت دون أن يُعلِم أحداً. وقبل وقت ليس بالطويل أيضاً، ضربه آرون على أذنه التي ما تزال ترنّ وتئز. إنه لن يعود ثانية أبداً إلى نايباخن.

فحص كارل أوسكار الأشرطة الحمراء على ظهر أخيه. «لست في حاجة للعودة. لا حاجة لأن يقبل أحد في عائلتنا الجَلد. إنّ وضعنا لا يقل عن آرون.»

«هل تظن أن آرون سيخلي سبيله بلا مشاكل؟» تساءلت الأم.

«يمكنه أن يفعل ما يريد. الصبيّ لن يعود.»

لكنّ نيلس كان قلقاً. إذا غادر روبرت الخدمة بلا إذن، فسيكون لآرون الحق في إرسال الشريف في طلبه، ووفقاً لقانون الخدمة، فإن روبرت سيخسر نصف أجرته وسيترتب عليه أن يتحمل نفقات آرون. أفلن يكون من الأفضل حل المسألة ودياً؟

«سأذهب وأتحدث إليه،» قال كارل أوسكار بحزم. لكن الأمر لم يبدُ وأنه كان يفكر في المصالحة.

ندم روبرت على عدم عودته إلى المنزل في وقت أبكر والبوح لشقيقه الأكبر بمشاكله. وأحضرت مارتا بعضاً من مرهم مرارة الخنزير وغمرت جراح ابنها بها.

كان ظهر أخيه المدمى إهانة بالنسبة لكارل أوسكار ولكل عائلة نيلسا. وبما أن الوالد كان أعرج ومنهاراً، وغير قادر على الدفاع عن ابنه الصغير، فقد أصبح ذلك واجبه هو.

التقط كارل أوسكار قبعته وذهب مباشرة إلى نايباخِن. وعن بعد رأى آرون

واقفاً عند بئر الماشية ويمتح الماء. واقترب كارل أوسكار من المزرعة بحذر، ناظراً حوله بينما يعبر ساحة الحظائر. لم يكن هناك أحد في مرمى النظر. وبدا الأمر وأنّ الحظ يسير إلى جواره في زيارته.

لم يلاحظ آرون اقتراب كارل أوسكار إلى أن وقف الزائر بجانبه؛ وقد ضربته المفاجأة حتى أنه كاد يسقط دلو البئر الذي فصله تواً عن الخطاف. وبينما ينظر إلى الزائر غير المتوقع في الوجه، شرع بالتقهقر حول فتحة البئر، بينما يتلفت حوله في ذات الوقت كما لو انّه يبحث عن نجدة.

«هل أتيت لتأخذ مكان أخيك؟ إذن، سيكون لديّ عامل حقيقي». وحاول أن يصطنع ابتسامة ضعيفة، بخنوع.

خطا كارل أوسكار أقرب إلى مزارع ناياباخن. ولم يستطع آرون أن يتحرك، كان ظهره قد أصبح فعلاً إلى الحائط حول البئر؛ وتصرف كما لو أنه سيهتف طالباً النجدة.

«لقد ضربت أخي، أيها الوغد! ألا تدرك أنه في الخامسة عشرة فقط.»

«لقد تلقى عقاباً صغيراً، كان كسولاً ومُهملاً.»

«إسالة الدم ليست تأديباً صغيراً. يحسُن أن تجلب لنفسك عاملاً آخر لتجلده. لن تحصل على أحد من عائلتي.»

«يحسن بأخيك أن يعود إلى هنا صباح الغد! وإلا سيحضره الشريف.»

«تعال وخذه بنفسك! سوف تتلقى تحية في كورباموين!»

وأصبح وجه آرون أكثر بياضاً.

تقدم كارل أوسكار نصف خطوة أخرى، مرغماً غريمه على التراجع أقرب إلى فوهة البئر. نظر حوله بسرعة: لم يكن أحد في مرمى البصر. وأصبح آرون مذعوراً. أسقط الدلو، وكان على وشك طلب النجدة عندما قبض عليه كارل أوسكار من رقبته، خانقاً الكلمات في حنجرته.

دفعه كارل أوسكار ببطء إلى الوراء حتى أصبح ممدداً فوق فتحة البئر؛ وأصبح آرون مثل غطاء حيّ فوق البئر، واستلقى هناك وهو يركل ويناضل، مأخوذاً بالرعب. وبإطباق قبضة كارل أوسكار الأشبه بالملزمة على عنقه، لم يكن قادراً على إخراجَ أي صوت سوى النفخات والهمهمات. لم يعرف إذا

كان كارل أوسكار ينوي خنقه حتى الموت، أو إغراقه، لكنه كان مقتنعاً بأنه سوف يموت.

وجعله كارل أوسكار يعتقد ذلك لبضع دقائق.

ضغط على حنجرة المزارع بطول وقت مناسب قبل أن يرخي قبضته. وانهار آرون مثل كيس فارغ على جدار البئر. حذره كارل أوسكار بأن هذا يكفي لهذه المرة. لكنهما سيلتقيان حتماً مرة أخرى قريباً؛ وقد حدث ذلك عدة مرات بينما كانا ينقلان الخشب بالعربات في الشتاء. وقد حدث أنهما التقيا أكثر من مرة في أماكن بعيدة عن الطريق —ربما يلتقيان مرة أخرى، بعيداً عن الناس. وعندئذ سيستئنفان حوارهما. لأنه تواق جداً ليقابل وحده أي شخص يضع يده على واحد من أفراد عائلته. أيّ وغد يهاجم ولداً في الخامسة عشرة من عمره سيكون من السهل معالجته.

ثم استدار كارل أوسكار وعاد إلى بيته في كورباموين. وقابله روبرت عند البوابة.

«لن تنال المزيد من المتاعب مع آرون، أعدك بهذا القدر.»

لم يكن روبرت أبداً يتعامل بطريقة حميمة مع كارل أوسكار الذي يكبره بعشر سنوات. وإذا كان ثمة شيء، فإنه كان خائفاً من أخيه الكبير. ولأول مرة اليوم، شعر بأنهما قريبان حقاً. ومنع الحياء روبرت من إخبار أخيه بما يتمناه، لكنه سوف يُري كارل أسكار بأنه يفكر فيه أكثر من أي شخص آخر في العالم.

٣

بقي روبرت في كورباموين؛ لكنه أصبح هاجراً للخدمة، ولم يعرف أحد إذا كان سيُترك بسلام في البيت. ونصحه كارل أوسكار بأن يكون جاهزاً للاختباء في الغابات عندما يحضر الزوّار.

ومرت بضعة أيام ولم يحدث شيء. اقترح كارل أوسكار أن آرون سيأتي إلى كورباموين ليأخذ روبرت، لكنه لم يظهر، ولم يكن كارل أوسكار يتوقع

قدومه؛ وعندما يمسح الطريق بعينيه بين الحين والآخر، كان يتوقع قادمين آخرين. وذات يوم قبل الغروب، وبينما يقف بجوار البوابة، شرعت الكلبة في النباح. ونظر كارل أوسكار إلى طريق القرية: كانت عربة مفتوحة تقترب من المزرعة، وقد جلس فيها رجلان، أحدهما يرتدي قبعة بشريطين أصفرين عريضَين يلتمعان من مسافة بعيدة.

كان روبرت في منشرة الخشب بجوار كومة الحطب، وركض كارل أوسكار ليحذره. ولكن، وبمجرد أن شرعت الكلبة في النباح، كان شقيقه قد رمى المنشار؛ ورأى روبرت يختفي في كومة الخشب بالقرب من الزريبة.

توقفت العربة عند البوابة، وذهب كارل أوسكار ليقابل زواره.

«طاب يومك، يا كارل أوسكار نيلسون.»

وأعاق المعطف العسكري الطويل العريض حركة الشريف لونيغرين؛ وكاد يتعثر بينما يهبط مترجلاً من العربة. وطلب إلى رجله أن يربط الحصان بسارية البوابة.

كان لونيغرين رجلاً طويلاً فوق المعتاد. وفي الأسواق والتجمعات، كان رأسه يظهر فوق الجميع. وكان قوياً بقدر ما كان طويلاً. وعندما يضطر إلى وقف عراك، كان عادة ما يمسك بأحد المتعاركين ويستخدمه كسلاح ضد الآخر. وعندما يصلح من أمر شخص ارتكب خطأ، كان يقول دائماً وبلا تغيير: أيها النذل! كانت هذه هي كلمة التحية التي يستخدمها في المجتمع عندما يمارس صلاحيات عمله. وإذا تحدث إلى شخص أكثر قساوة، كان يقول: أيها النذل الكبير! وعندما يتعامل مع اللصوص والمجرمين: أيها النذل اللعين! كان لونيغرين صارماً في أداء وظيفته، لكن الناس اتفقوا على أنه لم يكن رجلاً سيئاً.

«إنني أبحث عن أخيك، عامل المزرعة روبرت نيلسون،» قال.

«إنه ليس في المنزل،» أجاب كارل أوسكار.

«أين هو؟»

«لا أعرف أين هو في هذه اللحظة.»

رمقَ الشريف لونيغرين مزارعَ كورباموين بنظرة حادة. ونظر إليه كارل أوسكار بصرامة مشابهة.

أمرَ الشريف مرافقه بالبحث في المزرعة ليرى إذا كان يستطيع العثور على الهارب.

واستأنف: «طلب آرون من نايباخِن مساعدة السلطات في إعادة شقيقك إلى خدمته. وأفترض أنك تعرف أنه غادر صباح يوم الأحد الفائت.»

«غادر لأن المزارع جلَدَه.»

أطرق لونيغرين: قال آرون إنه أصلح أمر عامله بعقاب مناسب، كما هو حقّ السادة، وفقاً للفقرة الخامسة من قانون الخدمة. لكن القصد من هذا التأديب هو تحسين سلوك الخادم: كان على الفتى أن يقبل ذلك بخضوع لطيف. إن ذلك لا يعطيه الحق في ترك الخدمة.

«لقد أراني أخي ظهره المدمّى.»

رمق الشريف كارل أوسكار بنظرة أخرى متسائلة.

«التقيتما إذن؟ هل كان هنا؟»

«نعم، لكنه لم يعد هنا الآن.»

«هل هو قريب في الجوار؟»

«لا أعرف كم يمكن أن يكون قريباً.»

حاول كارل أوسكار تجنب قول الحقيقة من دون أن يكذب.

حكّ الشريف ذقنه مفكراً بعمق. وسحب من جيب معطفه ورقة كبيرة مختومة وفتحها. وفقاً للفقرة ٥٢ من قانون الخدمة، والفصل ١٦، الفقرة ٧ من ميثاق الأراضي، يكون للسيد الحق في إعادة الخادم الهارب قسراً. وباسم القانون، يطلَب الآن من كارل أوسكار أن يكشف عن مكان تواجد أخيه.

«أنا لست مسؤولاً عن أخي.»

«الفتى الذي حاول مرة في السابق أن يهرب. إنه خطأ ثانٍ.»

عاد مساعد الشريف: الفتى الهارب غير موجود خارج المنزل.

كان صبر الشريف يصل إلى نهايته. «إنك تؤوي هارباً من الخدمة، أيها النذل! سلمه!»

أجاب كارل أوسكار: وفقاً للقانون، هو لا يعتبر نفسه مُلزماً بحكم الواجب

بمساعدة السلطات على اعتقال أخيه. وهو على أي حال، يرغب أولاً رؤية الورقة التي تنصّ على مثل هذا الواجب.

لم يُجب الشريف؛ هذا المزارع كبير الأنف لم يُولد على الشُرفة، إنه يعرف حقوقه. ولو كان الأمر يعود إليه وحده، فإن الولد يمكن أن يُفلت. كانت من أسوأ المهام بالنسبة إليه أن يطارد المرء عامل مزرعة مسكيناً تجنب قانون الخدمة. لكن القانون هو القانون، وواجبه هو واجبه؛ وفي صلب عمله أن يحرص على الانصياع لقانون الخدمة.

راقب كارل أوسكار وجه الشريف وأصبح أكثر جرأة. لو أنّ للشريف نفسه شقيقاً هرب من سيده بسبب الجَلْد، هل كان ليبلغ عنه ويُسلمه للاعتقال؟

صرخ الشريف مجيباً: «إذا كنت لا تستطيع قول الحقيقة، فيمكنك أن تخرس على الأقل، أيها النذل!»

لكنه نظر فوقاً إلى السماء للحظة، وفكر كارل أوسكار: إنّ ما قاله الناس عنه صحيح؛ لو أنه لم يكن الشريف، فإنها ربما كان سيصبح رجلاً طيباً تقريباً.

أدار لونيغرين ظهره لكارل أوسكار، وهتف بمساعده ليرافقه؛ ودخلا إلى داخل المنزل. وفتش الشريف وخادمه الغرفة الرئيسية، وذهبا إلى المطبخ حيث وقفت كريستينا وقد تعلق الأطفال الخائفون بثوبها. ونظروا في الغرفة الاحتياطية حيث جلس نيلس ومارتا صامتين وساكنين في مقعديهما، وشعرا بالخجل من التفتيش؛ لم يسبق لأي شريف أن دخل هذا المنزل من قبل. ثم صعد الرجلان السلالم إلى العلية، وتحسّسا كومة من الملابس؛ ونهض الغبار من القماش فنزل الشريف غاضباً وهو يسعل. وأنهيا البحث في المنزل، واستمر التفتيش الآن في الحظائر. وبقي لونيغرين في الفناء بينما فتش مساعده كومة من الصوف غير المغسول في الزريبة، واعتلى كومة التبن وركل هنا وهناك في القشّ، ثم نزل إلى القبو، وفتش غطاء العربة، ومخزن الحطب وبيت الخلاء.

وأخيراً اضطرت السلطات إلى المغادرة، وبمهمة غير ناجحة. وشيّع كارل

أوسكار الشريف إلى عربته. وعندما جلس لونيغرين في مقعده، قال: «سوف أمسك بالوغد إذا بقي في هذه المقاطعة. هل تسمعني يا كارل أوسكار نيلسون؟ سوف أمسك بأخيك إذا بقي في مقاطعتي!»

نظر المزارع الشاب متفكراً في إثر عربة الشريف المغادرة: لقد التقط الرسالة المتضمنة. لقد فهم.

٤

بقي كارل أوسكار مستيقظاً حتى وقت متأخر في ذلك المساء وانتظر شقيقه. وقرب منتصف الليل، طرق روبرت النافذة وأُجيب. كان قد عبر حقل أحد الجيران، واختبأ في حظيرة يوناس بيتر في المرج كل المساء. وقد حل صقيع الليل، وكان يرتعش ويرتجف. كانت بعض النار ما تزال تشتعل هناك في الموقد، ووضع كارل أوسكار عليها إناء ودفّأ بعض الحليب لأخيه.

قال إنّه يجب تأويل عبارة الشريف لتعني أنه ليس على روبرت أن يقلق إزاء إعادته إلى نايباخِن إذا بقي خارج مقاطعة الشريف. وبهذا، فإنه لن يستطيع البقاء في البيت بعد الآن. واقترحت كريستينا أن يقيم لبعض الوقت مع أبويها في دوفيمالا. كانت أبرشية أولغونسبودا خارج مقاطعة لونيغرين. ويمكنه البقاء بأمان هناك حتى تنفتح فُرجة أخرى؛ كما أن والدَي كريستينا يحتاجان إلى يد تساعدهما، وهما عطوفان كلاهما وسيعاملانه معاملة حسنة، وليس من أجل القرابة فقط. القليلون من المزارعين في هذه الأنحاء يعاملون معاونيهم كما يفعل آرون صاحب نايباخِن.

قال روبرت إنه سيُسرّ بإطاعة أصهاره: وفي الصباح الباكر، سوف يتخذ طريقه إلى دوفيمالا.

وبينما كان ما يزال يشعر بالبرد بعد الساعات الطويلة التي قضاها في حظيرة يوناس بيتر التي تعصف بها الريح، تحرك مقترباً أكثر من الموقد؛ وفي مقابله جلس كارل أوسكار يحدق في الجمرات وألسنة اللهب. نادراً ما كان الشقيقان معاً في البيت؛ فقد كان أوسكار بعيداً في الخدمة بينما يكبُر روبرت؛ كانا غريبين بشكل غريب عن بعضهما البعض حتى يوم الأحد الماضي، عندما عاد روبرت إلى البيت بظهره المجروح.

كان روبرت يفكر: كان عامل مزرعة كسولاً ومهملاً؛ ربما تكون تلك هي طبيعته الرديئة بالولادة، والتي نذرته للتبطُّل والعصيان. وقد تلقى، وفقاً لقوانين الله والبشر، عقاباً، وأصبح الآن هارباً من الخدمة، يلاحقه الشريف. لكنه لم يعد يخاف من أي شيء في هذا العالم الآن، لأن له أخاً كبيراً حامياً. ينبغي أن لا يخفي سراً عن أخيه. الآن، وهو يجلس معه وحيداً في الليل، حانت اللحظة المناسبة. الآن يجب أن يخرج، الآن يجب أن يُقال ما كان يبغي أن يكون قد قاله منذ زمن بعيد، وما ندم على عدم قوله في الربيع الماضي.

وسمع صدى لكمة آرون القوية على أذنه، تلك الهمهمة الأبدية، صوت الماء الذي غمر ثلاثة أرباع سطح الكوكب، رسالة البحر العظيم إليه، أمر المحيط: تعال!

كان الظلام يعم الحجرة، وقد أُنير حيز صغير فقط بجوار بيت النار بفعل وميض الجمر المتقد. الآن ينبغي أن يقال، الآن بينما يجلسان معاً، كأخوين حميمَين.

لم يرفع روبرت رأسه بينما يبدأ: «كنتَ طيباً معي، يا كارل أوسكار. وأريد أن أطلب منك شيئاً.»

«نعم؟ إذا كنت أستطيع أن أمنحه لك.»

«أريد الحصول على إرثي من المزرعة. إنني أنوي الذهاب إلى أميركا الشمالية.»

لقد تمكن من ذلك، لقد تحدث، وأُنجِز الأمر. ونهل الهواء بعمق، ثم انتظر.

مرت بضع دقائق ولم يجب كارل أوسكار بعد. لقد سمع كلمات كبيرة من أخيه، سمع الفتى ذا الخمسة عشر ربيعاً يتحدث كرجل راشد. سمعه يقول بجرأة، وبتحدٍ، مثل رجل: إنني أنوي الرحيل إلى أميركا الشمالية. لكنه لم يُجب.

وعبرت بضع دقائق أخرى ولم يُقَل شيءٌ بعد بين الشقيقين. الأكبر بقي صامتاً، والأصغر ظل ينتظره حتى يتحدث. كان ساعة الجَدّ في الزاوية تصدر صوتاً متشققاً متقصّفاً، والجمرات المحتضرة تطقطق في الموقد. وفي أذن روبرت، كان يُسمَع الصوت المدمدم المزمجر للماء العظيم، متحدياً إياه ليأتي

ويبحر على ظهره.

أضاءت شعاعات صادرة من النار وجه أوسكار. وجلس الأخ الأصغر قريباً من الموقد وحدق في الرماد المتلألئ؛ ولم يجرؤ على النظر إلى أخيه في هذه اللحظات.

ماذا يمكن أن يتوقع؟ لقد عرف مسبقاً ما سيسمع. عبر أذنه السلمية سوف يسمع أخاه يتحدث عن الأفكار الصبيانية، شطحات الخامسة عشرة. ما الذي اعتراك يا روبرت؟ إنك تعرف جيداً، يا أخي الصغير، أنك لا تستطيع تولي أمر إرثك قبل أن تصبح راشداً، قبل أن تصبح في الحادية والعشرين. أنت تعتقد أن صبياً مثلك يمكن أن يسافر إلى النهاية الأخرى من العالم؟ ثمة الكثير مما لا يزال ناقصاً في رأسك؛ ينبغي أن تقعد في البيت وتأكل الكثير من الخبز قبل أن تستطيع مغادرة البلد. يجب أن تنضج بأفكارك، يا أخي الصغير. إن أخاك الكبير يعرف عن العالم أكثر منك. استمع الآن لما سيقول، أخوك الأكبر منك والأكثر حكمة.

لكن الأمر المفاجئ هو أن روبرت لم يسمع أخاه يقول أيّ شيء على الإطلاق. جلس كارل أوسكار وألسنة النار بين يديه، ومرفقاه مستندان إلى ركبتيه، وحدق في الجمرات وبقي صامتاً. ولم يجرؤ روبرت حتى على النظر إلى وجهه. هل شُلّ لسانه من الصدمة عندما سمع أخاه يقول: إنني أنوي الذهاب إلى أميركا الشمالية؟

وبدأ روبرت الكلام مرة أخرى: «لقد أخذتك الدهشة، يا كارل أوسكار...؟»

«نَ، نعم.»

«إنني أفهم.»

«لم يسبق لي وأن أخذني الانشداه طوال حياتي بهذا المقدار!»

والآن، رفع كارل أوسكار رأسه ونظر إلى أخيه وقد علت محياه بسمة عريضة. «لأنني —لم أستطع أبداً بحق الكون أن أخمن أن لديك نفس الأفكار التي لديّ!»

«أنت أيضاً —يا كارل أوسكار؟»

«نعم، هذه الأفكار كانت لديّ مؤخراً. لكنني لم أقل كلمة واحدة لأحد سوى لكريستينا.»

ما هذا الذي سمعته أذن روبرت السليمة في هذه الليلة؟ ألم تكن كلمات كارل أوسكار خداعاً سمعياً، مثل صوت العاصفة البحرية في الأذن الأخرى؟

هل سبق لأي شقيقين أن فاجأ أحدهما الآخر من قبل أبداً كما فعل كارل أوسكار وروبرت هذه الليلة، وهما جالسان معاً حول جمرات النار المحتضِرة؟ متى حدث من قبل أن توافق أخوان فوراً على قرار عظيم، بأهمية الحياة نفسها، كما فعل هذان الاثنان —حتى قبل أن تخمد الجمرات في الموقد وتسوَدّ؟

قال كارل أوسكار: ليس على روبرت أن يرحل وحده؛ سوف يكون برفقة شقيقه وزوجته وأبنائهما، سوف يكون برفقة كل أولئك الذين ما يزالون فتيين في المزرعة.

حضر الهدير في أذن روبرت ملحّاً وكثيفاً هذه الليلة، وأعلى صخباً من المعتاد. والآن، استطاع أن يجيب: «نعم!» على الرسالة والتحدي في أذنه المصابة: سوف آتي!

لقد فتح بوابته الأولى على الطريق إلى أميركا.

عن حقل حنطة، وطبق من عصيدة الشّعير

١

كانت السفن الأولى قد عبرت المحيط فعلاً، حاملة المهاجرين بعيداً عن الوطن.

ثمةَ حركةً ضاجّة أخذت تَمورُ في مجتمعات المهاجرين التي ظلّت موطن الثّبات والاستقرار ذاته لآلاف السنين. لجماعة التراب؛ للعاملين في الأرض التي يرونها تتكمش فيما أنسالُهم تتعاظَم، جاءت البشائر من أرض هائلة الاتساع في قارة أخرى، حيث الأرض الخصبة جاهزة تقريباً لتمنح نفسها لمن يريد أن يأتي فيفلحَها. إلى داخل الأكواخ الرمادية القديمة في القرى الصغيرة الهادئة، حيث يشحُّ الطعام ويعيش القَوم وفقاً للعادات والتقاليد الموروثة، ثمّة قلق وملمَلةٌ جديدان شرعا بالزحف فوق العتبات. الشائعات تنتشر، والأخبار تتنقّل، والمعلومات تذهب من جارٍ إلى جار، عبر الوِهاد والأودية، عبر الأبرشيات والمقاطعات. كانت جراثيم القلق الجديدة هذه تتوزّع مثل بذور بعثرتها الريح، وتضرب بعضها جذورها في مكان عميق في روح إنسان ما، وتشرع بنماء لا يعرف عنه الآخرون؛ لقد تمّ الغِراس سِرّاً، بحيث يفاجئ التبرعم الجيران والأصدقاء.

في البداية، تكون الحركة بطيئة تتلمّس طريقها على استحياء. الدليل الوحيد على وجود هذه الأرض الجديدة يجيء من الصور والشائعات، وهي الأرض المجهولة التي لم يشاهدها أو يستكشفها أحد من مجتمعات الوطن. ثمّةَ المحيط المجهول يقف حائلاً دون ذلك. كلُّ ذلك مَحضُ مجهول يعوزه اليقين ـــأما مجتمع الوطن، فمألوف وآمن. ويستعرُ الجدال ـــمع أو ضدّ؛ ثمّة البعض يترددون، والبعض يجرؤون؛ الجريئون يقفون ضد المترددين، والرجال

ضدّ النساء، والشُّباب ضدّ الشيوخ. ويبقى لدى الشكّاكين والحذرين دائماً ما يعترضون به: بالتأكيد، نحنُ لا نعرف شيئاً...

الجريئون والمغامرون فقط هم الذين يمتلكون ما يكفي من الشجاعة: وهم الأدوات التي تُحرِّض القرى الهادئة، وتهزُّ ترتيبَ الثّبات المُعتاد.

ثمّ ينفصل هؤلاء عن المجموع، ويملأون بأجسادهم بضع سفن صغيرة — قلة هزيلة هنا وهناك تبدأ الجدول المتدفق الذي سينتفخ ليستَحيل في الوقت المناسب نهراً عظيماً هائلاً.

٢

وقد رأى كارل أوسكار نيلسون صورة. ذهب ذات يوم إلى شمّاس الكنيسة بير بيرسون في أكيربي، واستعار صحيفة؛ ورأى الصورة.

في ذلك اليوم نفسه، بعد أن عاد إلى المنزل، قام بحراثة حقل جاواداره. كان يقود بقرة وثوراً؛ فقد اضطر قَبلها إلى بيع أحد الثيران، ولذلك ربط البقرة الآن تحت النِّير؛ وشكَّل الحيوانان فريقاً بائساً وغير متعادِل. منذ زمن سحيق يذهب فيما وراء الذاكرة، ظل الفلاحون يقودون الثيران، ولذلك شعر كارل أوسكار بالخجل من قيادة بقرة على الدروب، كان ذلك مهيناً بطريقة ما. وشعر بالرثاء لحال بقرته التي ترتّب عليها أن تجرَّ المحراث وأن تعطي الحليب. كانت بقرة الجرّ حاملاً بعجل صغير أيضاً، واستطاع أن يراه يتأرجح في أحشائها. ولذلك، سارت بتثاقل في أثلام الحقل وقد تورّم ضرعها كثيراً بحيث نقلت قدميها الخلفيتين بصعوبة.

كان الله شديداً على الناس، وكان الناس قُساة على الحيوانات. وقد عاني كارل أوسكار لأنه اضطر إلى استخدام البقرة البائسة، لكنه لم يكن يستطيع أن يجُرَّ المحراث بنفسه، وينبغي عليه أن يحرث الحقل حتى لا يظلّ أولاده بلا خبز في السنة التالية. إن أولاده أيضاً هم كائنات بريئة. ولكن، وفق ترتيب الله للعالم، ذلك الترتيب الذي لم يستطع أبداً أن يفهمه رغم الكثير من التفكير، ينبغي على البريء أن يعاني مع المذُنب. وقد ضَرب الجفاف وإخفاق المحاصيل الورعين وقليلي التقوى على حدّ سواء.

فجأة، صادف المحراث حجراً متشبثاً بالأرض ألقى به بعيداً عن ثلم الحراثة.

وعندما نظر كارل أوسكار أقرَب، وجد جزءاً من المحراث وقد انغرس في الأرض: لقد انكسرت شفرة المحراث الخشبية، وانقسمت إلى قطعتين.

فكَّ الحيوانين من تحت النير، وعاد إلى المنزل. كان يعرف ما يكفي عن النجارة ليصنع سكّة جديدة، لكنه لم يذهب إلى منضدة العمل في سقيفة الورشة، وإنما ذهب بدلاً من ذلك إلى المنزل وجلس. وكان النهار في منتصفه ففوجئت كريستينا: هل أنهى عمله فعاد من الحقل؟ أجاب بأنه كسر المحراث؛ كان حجراً ملعوناً متشبثاً بالأرض؛ كلُّ الحقول هنا ملعونة.

لم يكن كارل أوسكار ليلعَن ويبقى على هذا الحال بسبب مثل هذه العثرة البسيطة؛ لم يكن هذا طبعه. وأضافت كريستينا بأفكارها، لم يكن من طبعه أيضاً أن يجلس هناك في منتصف النهار، ويهمل عمله.

نظر كارل أوسكار عبر النافذة إلى الخارج حيث حقل الجاوادار غير المحروث؛ ورفت أجفانه بوهن. وبعد برهة، التقط الجريدة التي أحضرها من مقرّ شمّاس الكنيسة. كانت شيئاً مستعاراً، فمسح أصابعه بسرواله قبل أن يلمسها؛ وعالج الصحيفة برفق وحذر، كما لو انها وثيقة قيّمة. ثم وقعت عيناه على الصورة: «حقل حنطة في أميركا الشمالية.»

كانت صورة لحقل في وقت الحصاد، والمحصول ما يزال قائماً في سنابله. كان ثمّة حقل مستوٍ بلا نهاية، بلا حدود ولا سياج. لم تكن لحقل الحنطة نهاية في الأفق، وإنما امتد إلى ما وراء المكان الذي تلتقي فيه السّماء بالأرض. لا حجر واحداً أو كومة من الحجارة، لا أكَمة ولا ربْوة تمكن رؤيتها في هذا الحقل العريض من الحنطة المستوية على عيدانها. وإنما امتدّ هناك، مستوياً وناعماً مثل ألواح الأرضية في سقيفته نفسها. وفي هذا الحقل، وقفت الحزمة بجوار الحُزمة، جد متقاربتين حتى تكادان تتلامسان، جدّ متجاورتين حتى لا يكاد شيء يعبُر بينهما. وقد نبغَت الحبوب القوية من الحُزم، خارجة من سنابلها الطويلة، المتورّمة، مكتملة النضوج، مثل تيجان من الذهب. كانت البذور الضافية، قوية النمو تتكوم في هذا الحقل. وكانت كل سنبلة قمح مثل برعم هائل، كل عود مثل شتلة، وكل حزمة مثل شجيرة.

ومن سماء صافيّة، أطلت الشمسُ على هذه الوفرة من الحنطة الذهبية. أطلت الشمسُ على حقل خصيب، حقل وُهِبَ القَمحَ وجوهره. كانت حُزم

السّنابل لا تعد، مثل العُباب على سطح البَحر؛ هنا انبثق بحرٌ من الحنطة الذهبية، صومعة غلال هائلة بأبعاد لا تنتهي. كان ثمرة الأرض هو الذي رآه هنا، كمية لا تُحصى من الخبز للبشر: «حقل حنطة في أميركا الشّمالية.»

يمكنُ ابتكار قصة، وعالم الناس يمكن أن يكون غير دقيق، ويمكن للوصف أن يكون خيالياً. لكنّ الصورة لا يمكن أن تكون زائفة، الصورة لا يمكن أن تكذب. يمكنها فقط أن تعرض الأشياء كما هي. ينبغي أن يكون ما رآه موجوداً في مكان ما قبل أن يمُكن تصويره؛ إنّ ما رأته عيناه ليس وهْماً: حقل الحنطة هذا موجود. هذه الأرض التي بلا حجارة ولا أكَمات موجودة في مكان ما من العالَم. تلك الحُزم العظيمة، تلك الرؤوس الذهبية من القمح، نبتت فعلاً؛ ولا يمكن لأحد أن يتقدّم وينكر حقيقتها. كل شيء رآه في هذه الصورة، كل هذا البهاء والرونق في عين مزارع، كان موجوداً —كان في مكان ما —في عالم آخر، في «العالم الجديد».

جلس كارل أوسكار نيلسون، مالك سبعة فدادين حجرية في بلدة الحجارة، كورباموين، ساكناً لوقت طويل، وعيناه معلّقتين على الصورة. وقد أُخِذت عين عقله بهذه العظمة. وحمل الصحيفة بتقديس أمامه، كما لو كان يجلس على مقعد الكنيسة يوم أحد، مردداً النشيد وكتابُ المزامير في يده.

إنه في «العالم القديم» حيث لعن الله الأرض ذات يوم بسبب الإنسان؛ أما في «العالم الجديد»، فإن الأرض ما تزال مباركة.

٣

بضع كلمات كانت مطبوعة تحت الصورة: «يقال إن للمزارعين الراغبين في العمل آفاقاً كبيرة للنجاح المستقبلي في الولايات المتحدة.»

حصل ذلك في اليوم الذي حرث فيه أوسكار حقل جاواداره وكسر شفرة المحراث. تلك كانت البداية؛ ثم استمر الحال كذلك طوال عدة أيام —وبينما يستلقي مستيقظاً— طوال عدة ليالٍ.

لم يكُن بطيئاً في الحقيقة عندما يصل الأمر إلى اتخاذ القرار؛ لكنه كان أهم قرار في حياته، وأكثر من يوم واحد لزِم لاتخاذه؛ لا بد من اتخاذه بكامل «الوعي والإرادة»، كما يُكتب في صكوك البيع والوثائق المهمة الأخرى. وقد

احتاج إلى عدّة أسابيع لتقليبه وإعادة التفكير فيه.

حتى الآن، أطلع كريستينا فقط على صورة حقل الحنطة في أميركا الشمالية، وهي نظرت إليها عَرَضاً. لم تستطع أن تعرف أن زوجها أصبح يحمل الصورة في عقله حينما ذَهب.

في أمسيات الخريف الطويلة، كانا يجلسان أمام النار، مشغولين بنشاطاتهما المنزلية. كارل أوسكار يبري مقابض الفؤوس والأسنان الخشبية للمذاري، وكريستينا ترتب الصوف وتنسج الكتّان. وأخيراً، ذات ليلة بعد أن ذهب الأولاد إلى النوم وساد الهدوء في الغرفة، شرع بالحديث. كان قد فكر بما سيقوله مسبقاً، وفي عقله ناضل كل العقبات والأعذار التي ربما تضعها زوجته أمامه.

بالنسبة إليه هو، كان قد قرر بشأن الانتقالة، وهو يريد الآن أن يسمع رأيها في الموضوع.

سألت أولاً: «هل تسخر منّي؟»

ماذا كانت لتظنّ؟ ها هو قد جلس وأعلن فجأة أنه ينوي بيع المزرعة، وكل ما يمتلكه. ثم مع كل عائلته —زوجة وثلاثة أولاد ورابع قادم لم يُولد بعد— سوف ينتقل بعيداً؛ ليس إلى قرية أخرى أو أبرشية، وليس إلى مكان آخر في هذا البلد، أو أي بلد في هذه القارّة. وإنما إلى قارّة أخرى! وربما كان ليمدّد المسافة أبعد قليلاً أيضاً، ولم يكن ليُفرق بالنسبة إليها لو أنه أعلن إنه ينوي نقلهم إلى القمر؛ لا بدّ وأنه يمزح معها.

لكنه عندما استمرّ في الحديث، أدركت أنه يتحدث بجدّية. كانت هذه الفكرة الجديدة بالضبط مثل أوسكار، ولا تشبه أي أحد آخر. لم يكن يترك الأمور على حالها أبداً، لم يكن راضياً أبداً بما يعتبره الآخرون كافياً. لم يكن راضياً أبداً بأي شيء في العالم؛ كان يتطلع إلى المستحيل، إلى شبه المجهول. كان قد قال لها ذات مرة من قبل أنه سوف يبيع كورباموين؛ وكان يريد حينها أن يصبح بائع أخشاب. وفي مرة أخرى أراد أن يكون بائع خيول، وفي مرة ثالثة، أن ينخرط في الجندية. وعندما قرر أن ينتقل، فإنه لم يكن بوسع شيء أقلّ من أميركا الشمالية أن ينفع —النهاية الأخرى للعالم! ولو أنه قنع بأقل، لما كان كارل أوسكار أبداً.

لكن على كريستينا الآن أن تجيب بأكبر قدر من صدق الطَّويّة وتدعه يعرف بما تشعر به في قلبها. هكذا تحدثا، وتبادلا آراءهما، أمسية بعد أمسية، بينما تقاطع طقطقة النار وحدها حديثهما، والتي تكون أحياناً أعلى صوتاً منهما.

لماذا أراد كارل أوسكار الرحيل؟

منذ أربع سنوات وهما يعيشان الآن في كورباموين، واليوم أصبحا أفقر بمئات المرات مما كانا يوم بدآ. طوال أربع سنوات سفحا قوة شبابهما هنا، بلا غاية. وإذا بقيا، فسيكون عليهما الاستمرار في الكدح والتعب حتى لا يعود بوسعهما تحريك يد ولا قدم، حتى يجلسا أخيراً هنا، مُنهكَين، مُستَهلَكَين، أعرجين ومكسورَين. وعندئذ، لن يشكرَهما أحد على تدمير نفسيهما بلا طائل. ويمكن لهما أن يريا انعكاسهما في أبيه، الذي أصبح يجلِس مُقعداً في غرفته. في هذا المكان، لم يكن لديهم ما هو أكثر ليتطلعا إليه من الغرفة الاحتياطية؛ وسوف تكون جاهزة لهما ذات يوم، عندما لا يعودان أصحاء وقادرين جسدياً بعد، ومن الآن فصاعداً سوف يجلسان هناك، مثل أمه وأبيه الآن، ويؤنبان نفسيهما طوال فترة شيخوختهما؛ ستكون الصحة والقوة قد ذهبتا، ولن يكون لديهما ما يجنيانه من كل هذا العمل خلال كل هذه السنين سوى الغرفة الاحتياطية مع خبزها القليل.

إنهما مهما ناضلا وكدحا، فإنهما لن يستطيعا أبداً تحسين وضعهما هنا في كورباموين. لم يكن يعرف الكثير عن الظروف في الولايات المتحدة، لكنه كان يعرف أنه سيُمنح، بمجرد وصوله إلى هناك، وبلا مقابل تقريباً، تربة خصبة خالية من الحجارة، تكون جاهزة تقريباً لسكة المحراث. أما الأشياء التي لم يمتلك النقود لشرائها، فيمكن الحصول عليها مقابل القليل في أميركا الشمالية. كانا كلاهما قويين وصحيحين ومعتادين على العمل الشاق؛ وهذا كل ما تطلبه أميركا منهما. ربما سيترتب عليهما أن يواجها نفس قدر الكدح الذي يبذلانه هنا، لكنهما سيبذلاه بروح أخرى، بأمل آخر، ببهجة أخرى. لأن الفارق الكبير بين البلدين كان كالتالي: في أميركا يمكنهما تحسين أقدارهما بعملهما نفسه.

كان قلقاً من جانبه من النضال الذي لا يفضي إلى أيّ مكان. لكنه استطاع أن يستمر مع ذلك في عمله بقلب سعيد لو أنه اعتقد أن بوسعه تحسين الأوضاع لنفسه ولعائلته. إن الناس يحبون الكفاح من أجل هدف، على الأقل بينما ما

يزالون شباباً، كما كانا. ماذا غير ذلك يعيش من أجله المرء؟ لكن أولادهما سيكبرون ذات يوم وينشغلون بأنفسهم، فأيّ نوع من المستقبل ينتظرهما هنا؟ سوف يرث أحد الأولاد المزرعة، ولكن ماذا عن الآخرين؟ سيكون عليهما أن يعملا مثل المزارعين الأجراء، أو يصبحا متطفلين. كلا، ثمة خيار ثالث هناك. هناك الكثير من العمال المستأجرين بحيث يتنافسون مُسبقاً في عرض خدماتهم على المزارعين؛ وهناك الكثير جداً من الأكواخ مُسبقاً، وقريباً سيكون لكل فُرجة في الغابة كوخها المتعفن المُتهالك الذي يشكل التراب الأسود أرضيته. والناس في تلك الأكواخ نادراً ما يأكلون اللحم مع خبزهم —بل ولا ينالون الخبز في كثير من الأيام. ولم يرد كارل أوسكار وكريستينا لأولادهما أن يصبحا عمال مزارع أو أجراء؛ لكنهما لا يستطيعان أن يصنعا لهم أفضل من ذلك إلا إذا أخرجوهما من هذا المكان المُعدم. إذا كانا يحسّان بالمسؤولية تجاه أولادهما، فإن عليهما أن يرحلا.

عند نقطة معينة، توافقت كافة المعلومات القادمة من أميركا الشمالية: إن للناس مزيداً من الحرية في ذلك البلد في كل طريق. والطبقات الأربع انتهت هناك منذ زمن طويل، لم يكن لديهم ملك يجلس على عرش ويتقاضى راتباً عالياً. وينتخب الناس أنفسهم رئيساً يمكن أن يسقطوه من المنصب إن لم يحبّوه. لم يكن لديهم مسؤولون رفيعون يضايقون الناس، ولا شريف يأتي ويأخذ ممتلكات المزارع. وفي اللقاءات الاجتماعية يتحدث كل شخص بنفس الحرية المتاحة لجاره، لأن للجميع حقوقاً متساوية.

لو أنه باع الآن مزرعته وكل ما عليها، بما في ذلك الأبقار والماشية، فإنه يمكن لكارل أوسكار أن يمتلك المال الكافي لدفع النقل لهم جميعاً، ويتبقى جزء صغير من أجل الاستقرار في البلد الجديد.

كان قد قلّب الأمر طويلاً في ذهنه، وفكر فيه، وتأمل ملياً في الأطروحات مع أو ضدّ، لكن هذا الاعتقاد لم يُزايله: لا يمكن لزوجين مزارعين ما يزالان في شبابهما أن يفعلا شيئاً أكثر حكمة من الهجرة إلى الولايات المتحدة الأميركية.

لماذا أرادت كريستينا أن تظل في الوطن؟

رسم كارل أوسكار صورة جميلة ومتفائلة كلها أمل. ولو آمنت كريستينا بها كلها كما رسمها لها، لما تردّدت لحظة واحدة في اتباعه.

لكنها كانت تخشى من احتمال أن يتحول الأمر كله إلى طراد إوز بري. لقد صدق زوجها كل ما سمعه ورآه عن أميركا. ولكن، من يستطيع أن يضمن الحقيقة؟ ما الذي لديهما ليعتمدا عليه؟ من الذي وعدهم بتراب قابل للفلاحة في الولايات المتحدة؟ أولئك الذين يحكمون هناك لم يكتبوا له رسالة أو يعطوه وعداً. ولم تكن لديه حجّة ملكية بقطعة أرض ستكون في انتظارهم على الوصول. يحتاج المرء الذي يتكلف تلك الرحلة إلى كلمات مكتوبة واتفاقيات قبل البدء.

إنهما لم يلتقيا أبداً بشخص واحد كان في أميركا الشمالية؛ لم يعرفا أي شخص يعرف عن شخص وضع قدمه في ذلك البلد، ولا عن أحد يمكن أن يخبرهما بما هي عليه تلك الأرض. لو أنّ أيّ كائن بشري موثوق رأى البلد بأم عينيه نصحهما بالهجرة، لكان الأمر مختلفاً. أما في الكلمات المطبوعة في الكتب والجرائد، فلم تكن تثق على الإطلاق.

إذا كان أمر الهجرة إلى أميركا الشمالية مستصوباً لجماعة المزارعين الفقيين، فإنه لا بدّ وأن يكون هناك البعض ممن فعلوا ذلك مُسبقاً. لكنّهما لم يعرفا أحداً من مثل هؤلاء. ولا يستطيع أن يذكر اسم مزارع واحد —شاب أو عجوز— يكون قد هاجر مع زوجته وأوبنائه؛ إن الحكمة من وراء هذه الخطوة توجد فقط في رأسه.

كما أنه نسي أن يذكر أيضاً حقيقة أن عليهم الإبحار على ظهر سفينة هشة عبر المحيط؛ وهو لم يقل أي شيء عن مخاطر الرحلة. كم مرة سمعوا عن سفن تحطمت وغرقت؟ ليس بوسع أحد معرفة إذا ما كانوا سيصلون إلى أميركا أحياءً. وحتى لو كان تعريضه أنفسهما لكل تلك المخاطر مستحسناً، هل يملكان الحقّ بالمغامرة بحياة أطفالهما في رحلة لم تكن ضروريّة، لم يكونا مُجبرَين على القيام بها؟ كان الأولاد أصغر كثيراً من إمكانية استشارتهم، وربما كانوا سيفضلون البقاء في الوطن، حتى كمتطفلين في أراضي الآخرين، على الدفع بهم إلى أعماق المُحيط؛ ربما كان من الأفضل أن يكسب المرء خبزه كأجير مزرعة، من أن يكون جثّة في أعماق البحر، تأكله الحيتان والوحوش المتجوّلة في البحر.

أراد كارل أوسكار أن يهاجر لأنه شعر بالمسؤولية عن أبنائه: وأرادت كريستينا أن تبقى في الوطن لنفس السبب.

وما الذي يعرفه عن نصيب الأولاد في بلد غريب؟ هل كتب له أحد أنّ آنّا ستصبح سيدة، أو أن جون سوف يكون جنتلماناً مرفهاً؟

إنه لم يذكر، أيضاً، أن عليهم الانفصال عن آبائهم، وإخوتهم وأخواتهم، وأقاربهم وأصدقائهم —باختصار، عن كل أولئك الذين يعرفون. هل أدرك أنهم سوف يأتون إلى أماكن يكون كل إنسان يصادفوه فيها غريباً؟ ربما سيكون عليهم العيش في مجتمعات يكون الناس فيها سيئي الطباع أو قاسين؛ وربما يعيشون في أرض لا يتمكنون فيها من قول كلمة واحدة بلغتهم، غير قادرين على طلب شربة ماء من أحد إذا احتاجوا إليها؛ حيث ربما يموتون من دون أن تتمكن ألسنتهم من الصراخ بطلب النجدة. في مثل هذه الأرض، ربما يتجولون هائمين مستبدَلين، غرباء وضائعين. ألم يفكّر أبداً بأن حياتهم ربما ستكون وحيدة وقاتمة؟

إذا انتقلت بعيداً كثيراً على هذا النحو، فإنها ربّما لن تكون قادرة أبداً على العودة إلى الوطن؛ ربما لن ترى أبداً أعزاءها والأقرب إليها مطلقاً؛ لن تجتمع بوالديها وإخوتها وأخواتها. سوف تفقدهم جميعاً على الفور، وحتى لو أنهم عاشوا فإنهم سيكونون أمواتاً بالنسبة إليها؛ سوف يكونون أحياء، وإنما أموات مع ذلك.

صحيح أن الأمور ترجع إلى الوراء بالنسبة لهما وأنهما صادفا حظاً سيئاً. لكنه ربّما يتغير عمّا قريب، ربّما يصادفان سنة جيدة، ربّما يصادفان حظّاً حسناً. إنّهما يحصلان على الأقل على الطعام الضريري لكل يوم، وحتى مع أنهم —كما بدا الأمر في الوقت الحالي— ربما يضطرون إلى الجوع قليلاً هذا الشتاء، فإنهم سيأكلون بشكل أفضل بكثير على الأرجح في السنة التالية. لم يكونا يرتديان الحرير والساتان، بطبيعة الحال، لكنهما كانا قادرين على ستر جسديهما وإبقاء أولادهما دافئين. من المؤكد أنهما سيكسبان كفايتهما في الوطن في المستقبل كما فعلا في الماضي، وكما فعل الناس الآخرون.

كل الرجال العاقلين والحكماء الذين ربما يسعى إلى نصحهم سوف يجيبونه كما فعلت هي.

كانت كريستينا تريد أن تبقى في الوطن.

٤

خلال الكثير من الأمسيات الخريفية، بينما ينكبّ كل منهما على عمله اليدوي أمام النار، تبادل الزوج والزوجة في كورباموين وجهتَي نظرهما المتفارقة حول هذا القرار الذي سوف يحدد مستقبلهما. وقد تمسّك كارل أوسكار بأفق الفوائد والاحتمالات الجديدة عبر الهجرة؛ في حين لم ترَ كريستينا سوى العيوب. وعندما أتت إلى نهاية اعتراضاتها، كان لديها دائماً هذه الحجة لتستند إليها: «لو أنّ شخصاً نعرفه فقط هاجر من قبل. لكنّ أيّ أحد من هذه الأنحاء لم يذهب مطلقاً.»

وكانت إجابته دائماً هي نفسها: «دعينا نكون الأوائل؛ ينبغي لأحد ما أن يكون الأول، في كل شيء.»

«وأنت ترغب في تحمّل عبء المسؤولية؟»

«نعم، ينبغي على أحد ما أن يتحمل المسؤولية، في كل المشاريع والمهمات.»

كانت تعرف زوجها الآن: لم يسبق له أبداً وأن تخلّى عن شيء قد قرّره من قبل. وحتى هذه اللحظة كان ينفّذ دائماً إرادته، متجاهلاً رغبتها أو رغبات والديه. لكنّه يجب أن ينصاع لها هذه المرة؛ هذه المرة لا ينبغي أن تستسلم؛ هذه المرّة، هو الذي يجب أن يغير رأيه.

تحدثت إلى نيلس ومارتا: يجب أن يساعداها في إقناع كارل أوسكار بالعدول عن مشروعه الخطير.

لكنّ الأبوين شعرا بالأسف فقط لحال ابنهما المتهوّر ولم يستطيعا أن يقدما لزوجته أيّ مساعدة. قال نيلس: منذ أصبح بوسع كارل أوسكار أن يغلق أزرار

سرواله بنفسه في المرحاض، فإنه لم يطلب النصيحة أو المساعدة أبداً من والديه. وكان رفضه يزداد عناداً إذا ما حاول أبوه أو أمه التأثير عليه.

شرعت كريستينا بإدراك أن كارل أوسكار كان يعرف ما يريده هذه المرة أكثر من أي وقت مضى. وكذلك فعلت هي.

٥

الآن، بعد الجفاف وإخفاق المحصول جاء الشتاء، والمجاعة. كان الصيف قصيراً، ومات في ريعان صباه؛ وسوف يقيم الشتاء لوقت أطول بكثير مع جوعه.

أصبحَت عربة الشريف تُرى بشكل أكثر تكراراً على الطرقات. وكانت جولاته تقلق أكثر المزارع فقراً، والعربة تلبث طويلاً عند البوابات. وخيول الشريف نادراً ما سكنت في حظائرها هذا الشتاء: كانت تُربط إلى أعمدة البوابات، منتظرة سيدها الذي كان لديه الكثير ليفعله داخل البيوت؛ كانت الخيول تغطى بالبطانيات لكنها تظل تشعر بالبرد: كان عليها أن تنتظر طويلاً.

«أسرع وأخف قفازاتك!

فالشريف يأتي ليأخذ كل مبلغ زهيد»

وحتى قبل أن يأتي الثلج، كان بالوسع رؤية الأولاد الصغار على الطرق، شاحبين، غائري الخدود، مزرقّي الأنوف التي يسيل منها المُخاط. وما إن يصلوا إلى مزرعة، فإنهم لا يذهبون إلى المدخل الرئيسي؛ وإنما يذهبون إلى كومة القمامة بالقرب من باب المطبخ، حيث يظلون لفترة، حافرين في الركام، مفتشين. ثم كانوا يدخلون إلى داخل البيت، لكنهم يظلون قريبين من الباب. كان الأولاد ينحنون، والفتيات يتملقن. وبأطراف أناملهم كانوا يحاولون تجفيف أنوفهم؛ ثم يقفون هناك، في الزاوية بجوار الباب، صامتين، خائفين، داجنين.

لم يكن لديهم رسالة. فقد أوصلوا رسالتهم مسبقاً لأي شخص ينظر عن كثب: شهادة الجوع البكماء.

أرسل الآباء أبناءهم ليتسولوا، خجلين من أن يراهم أحد هُم أنفسهم يتسوّلون. للصغار، لم يكن التسول عاراً. للأطفال البائسين الذين يتضورون جوعاً كان التسوّل حرفة اعتيادية، الحرفة الوحيدة التي يستطيعون ممارستها، والمساعدة

الوحيدة التي يستطيعون تقديمها.

ربما يمر بعض الوقت قبل أن ينتبه أحد في المنزل للأطفال المجهولين، الجالسين في زاويتهم عند الباب. ربما يجلس أهل البيت إلى طاولة؛ وعندئذ ينتظر الأولاد حتى يفرغ الجميع من الأكل، مستنشقين رائحة الطعام، والعبق اللاذع للبطاطا المسلوقة، وحساء اللحم، ولحم الخنزير المقلي. كانوا يقفون هناك يراقبون، وحدقات عيونهم تتسع، وأنوفهم تتمدد. وكلما طال زمن الوجبة أكثر، كلما أصبح الأنف أوسع، وفي بعض الأحيان يحدث، عندما يقفون هناك لوقت طويل، متشممين الطعام، أن يغمى على أحدهم ويسقط على الأرض.

ربما يتم التحدث إلى الأطفال بعد زمن، وعندئذ يسألون عما إذا كان يمكنهم التقاط رؤوس أسماك الرنجة أو عظام البقر التي كانوا قد رأوها على كومة القمامة. يمكن سحق العظام للحصول على الدهن الذي ستغليه أمهاتهم من أجل الحساء. وإذا كان هناك شيء في البيت سوف يُلقى به إلى كومة القمامة، يسألون هل يستطيعون أخذه؟ إذ يمكن استخدامه في بيوتهم. لقد علمهم بابا وماما ما يقولون.

أخبرهم الوالدان أن لا يلحوا في الطلب. يجب أن يتسولوا الأشياء التي لم تعد فيها ثمة فائدة تُرتجى لأصحاب المنزل أنفسهم؛ يجب أن لا يطلبوا الخبز بوضوح، لأن الذي يطلب أقل يأخذ أكثر. لكنه إذا حدث أحياناً وأن تلقوا شريحة خبز، فإنهم يبتلعونها مباشرة؛ ينبغي أن لا يعرف بابا وماما بها أبداً.

كان الأطفال يسيرون وحدهم، وهم يمصّون رؤوس الرنجة المالحة، ساحبين حزم العظام منزوعة اللحم. كانوا يذهبون إلى المزرعة التالية، ويفتشون عن كومة النفايات التالية؛ ولم يكن أحد يزجرهم حين يأتون إلى الداخل ويطلبون رؤوس الرنجة التي رأوها تلمع في الخارج.

كان يفترض في كل شخص أن يتسول في الأبرشية حيث يعيش. لكن أولئك الذين يشعرون بالخجل ربما يفضلون الذهاب إلى أبرشيات بعيدة، ربما يفضلون التسول من أناس آخرين. كان الجوع يمزق المعدة وبعض الأمعاء، لكن مهانة التسول كانت تحفر لنفسها في شقوق الروح.

كان حتى المسنّون يسيرون على طول الطرقات، رجال كبار كاملو النموّ ممن حملوا على ظهورهم المكانس والفراشي والسلالم والسفن الخشبية التي

كانوا يعرضونها للبيع. كانوا يسعون إلى طلب شريف، ولم يستطع أحد أن يتّهمهم بالتسول، لكنه إذا قيل لهم في أحد البيوت أنها لن تكون هناك مقايضة، فإنهم كانوا يتشبثون بالجلوس. كانوا يحتفظون بمأموريتهم سرية تحت العبء الذي تحمله ظهورهم، لكنها لا تلبث حتى تنفلت بعد الجلوس لفترة: أعطني قطعة من الخبز! إنني أوهَن كثيراً من أن أذهب أبعد. وكانت تلوب واخزة في روح الكثيرين من الجوّالين قبل أن تفلت. ولذلك كان يتم إرسال الأطفال الشاحبين إلى الطرقات.

٦

خبزت كريستينا خبز المجاعة؛ عندما لم تكن حنطة الجاوادار تكفي؛ كانت تضيف القشور، بذور الخَلَنج، ورماد توت الجبل المجفف. وحاولت أيضاً أن تطحن جوز البلوط وتخلطه في العجين، لكن ذلك الخبز سبب الإمساك ولم تكن الأمعاء تتحرك لأيام. وكانت تغلي عصيدة صالحة للأكل من حبات البُندق، واستخدمتها بدلاً من عصيدة الجاوادار الصافية التي كان عليهم تدبر أمرهم بدونها هذا الشتاء. لم يكن بالوسع العثور على أي تغذية، مع ذلك، في طعام المجاعة: البراعم، البذور، الجوز وكل المنتجات الأخرى من الأراضي البور كانت تملأ المعدة، لكنها لم تكن تعطي شبعاً مُقيماً. كان المرء يغادر المائدة لأن الوجبة انتهت، وليس لأنه شبع. ومهما كانوا يضيفون ويزيدون، كانت كافة علب وصناديق الطعام تفرغ قبل وقت طويل من نضوج المحصول التالي.

في منتصف الشتاء، حان الوقت بالنسبة لآنا، ولدت ابناً. وأصبحوا الآن ثمانية أفراد يعيشون في كوربامويين.

وبفضل ضآلة المخصصات من الطعام في هذا الشتاء، لم يكن لدى الأم حليب يكفي للمولود الجديد؛ كان نهداها يجفّان قبل أن يشبع بوقت طويل، ولم يكن الرضيع ليحتمل الحليب المرّ من بقراتهم الجائعة. كان هذا شتاءً سيئاً للقادم الجديد إلى هذا العالم. وينبغي على كريستينا الآن أن تختار القطع الأكثر تغذية لنفسها، من أجل أن تعطي الحليب للصغير. لكن الأطفال الآخرين يحتاجون إلى الطعام أيضاً؛ ولاحظت أن آنا، أكبر الأبناء، قد ذبلت وأصبحت

شديد النّحول. وشعرت كريستينا كما لو أنها سرقت الطعام أبنائها الثلاثة حتى تعطيه للرابع.

كان الطفل الجديد سيُسمّى أندريس هيرالد، وسيُدعى هيرالد. ولكن، من هو الذي ينبغي أن يوجهوا إليه الدعوة ليحمله في العُمّاد؟ عندما رغبت كريستينا أن يكون العرّابون أقاربها من كاراغاردي، دانجل وإيجنا—لينا، تسبب ذلك بالذعر لنيلز ومارتا: كان دانجل يبشر بهرطقة آكي سفينسون، وقد طرده القسّيس من عشاء الرب بسبب تفسيراته غير القانونية للإنجيل. لا ينبغي لهذا الرجل غير التقيّ أن يحمل حفيدهما في عُمّاده.

أصبحت لكاراغاردي سمعة سيئة مرة أخرى. ولم تفهم كريستينا كيف يمكن لخالها أن يحضر أناساً منحلّين وسيئين إلى منزله، لكنها كانت تعرف دانجل منذ كانت بنتاً صغيرة، وكان دائماً طيباً معها. كما أنه لم يلحق أيّ أذى بأي شخص آخر؛ ولم تعرف أبداً عن رجل أكثر لطفاً منه. وهكذا، فكرت أن القسّيس ألحق به ظلماً كبيراً: كبار الآثمين فقط هم الذين ينبغي طردهم من مائدة عشاء الربّ. وكانت أولريكا من فوسترغوهل ممنوعة منذ وقت طويل من تناول لحم ودم المسيح، وكان من الصواب تماماً أن تُمنع أي امرأة تستلقي على ظهرها مع أي رجل من أجل المكسب من الركوع مع الناس الشرفاء عند المذبح. لكنّ العم دانجل لم يمارس العهر ولا القتل، ولم يخدَع ولم يسرق. وفي أبرشية لودجر، كان هناك خاطئون وعُصاة أكبر بكثير ممن تمتعوا بالمناولة. كان مخطئاً في الأمور الروحية، لكنه لم يكن يستحق طرده وتحاشيه باعتباره سارقاً وفاسقاً. أرادت كريستينا أن تُري جميع الناس أنها تعتبر خالها رجلاً شريفاً —ولذلك رغبت في دعوته ليكون عرّاب ابنها المولود حديثاً.

سألتها مارتا: هل هي مستعدة لتسمح بأن يحمل ابنها البريء إلى العُمّاد رجل تمتلكه الروح الشريرة؟ هل هي راغبة بتسليم ذريتها إلى الشيطان؟

قال دانجل إنّه لم يعُد يقبل أخذ فائدة على النقود التي يُقرضها، ومن هذا استنتج كارل أسكار أنه كان يفقد عقله؛ لقد أصيب فلاح كاراغاردي باضطراب في حواسه عندما اعتنق تعاليم آكي. لكن لا ينبغي معاقبة أحد بسبب مرضه، حتّى لو كان مرضاً في العقل. وبهذا، لم يكُن للقسّيس الحق في طرد دانجل من اجتماعات المسيحيين، وأن يطلق أسماء سيئة على مَسكنه، لأن كل من يعبر

بوابة مزرعته الآن، كان يعتبر تقريباً مفقوداً إلى الأبد. كانت حماقة من دانجل أن يجمع العاهرات والسكيرين في منزله، لكن الله سيعاقبه بالكاد لأنّه يطعم ويحمي الفقراء المُعدمين.

اتفق كارل أوسكار مع كريستينا؛ سوف يعرضان على القسّيس رأيهما في دانجل، ويدعوانه ليكون عرّاب ابنهما الصغير. وحمل كارل أوسكار بنفسه الدعوة إلى كاراغاردي.

وعاد إلى البيت خائب الأمل؛ قال له دانجل إنه كان مُستَبعداً من طقوس التعميد مثلما هو مطرود من المناولة؛ ولا يستطيع أن يكون عرّاباً ولا شاهداً على تعميد في الكنيسة؛ كان ممنوعاً من حمل ولدهما إلى عُمّاده.

اكتئبت كريستينا، لكن كارل أوسكار غضب من القسّيس الذي منعهما من اختيار عَرّابين لابنتهما. شعر برغبة قوية في الذهاب إلى القسّيس وإخباره بأنه كان يتدخل كثيراً. لكن بروسندر كان راعيه، ومن أجل خلاص المرء، عليه أن لا يكون على علاقة سيئة بمرشده الروحي. هذا القدر، مع ذلك، كان واثقاً منه؛ في أميركا الشمالية، لم تكن لدى أيّ رجل دين السلطة لمنع أي شخص من حمل طفل إلى العُمّاد المسيحي.

بدلاً من ذلك، أصبحوا يطلبون الآن من جيرانهم في هاستيباك، يوناس بيتر وزوجته بيرتا—ستافا، أن يكونا عرّابي هيرالد الصّغير. ولم تتم دعوة أيّ شخص آخر إلى جمعة التعميد، ما عدا ليديا، شقيقة كارل أوسكار، التي كانت تعمل خادمة في كراكيسيو.

كما لم يكن هناك الكثير مما يمكن إعداد مأدبة منه في هذا الشتاء. وقد طبخت كريستينا عصيدة التعميد من بعض حبوب الشعير التي كانت قد خبّأتها في كيس صغير لهذا اليوم بالذات، وكان لديها أيضاً القليل من الزبدة والسكر لوضعهما في الإناء. وقد وقف أبناؤها الثلاثة حولها عندما كانت تسكُب العصيدة في الطّبق. لقد مضى وقت طويل منذ رأى الصغار مثل هذا الطعام في المنزل، طعام بمثل هذا الرائحة الزكيّة. سكبت كريستينا العصيدة في وعاء فخّاريّ كبير، والذي لا ينبغي أن يُمسّ حتى يعود العرّابان من الكنيسة مع الصغير المُعمّد؛ ووضعت الوعاء في القَبو حتى يبرد.

اهتم كارل أوسكار وكريستينا بالأعمال في الزريبة بينما كان يوناس بيتر

وبيرتا—ستافا في الكنيسة. وبقي الأولاد وحدهم في الداخل.

وعندما عاد العرّابان، افتقد الأبوان آنّا. وشرعا بالبحث عنها. لم يعرف نيلس ومارتا أين ذهبت؛ كانت في الرابعة من عمرها، وقادرة على الذهاب وحدها إلى الجيران، لكنها لم تغادر المزرعة بلا إذن أبداً.

أحسّ كارل أوسكار بقلق بالغ؛ ما الذي يمكن أن يكون قد حدث للطفلة؟ كانت عزيزة عليه مثل عينيه، ورفيقته الدائمة في العمل، وصاحبته إلى أيّ مكان. واليوم فقط كان قد وعد بأخذها إلى صانع الأحذية ليقيس قدميها ويصنع لها زوج أحذية جديدا؛ فقد أصبح حذاؤها القديم مهترئاً تماماً. وما كانت لتنسى هذا؛ وهو ما يجعل من الأكثر غرابة أن تكون قد اختفت قبل وقت قصير من وقت ذهابهما.

بحَثا عن الطفلة بلا طائل في مستودع الأخشاب، وكان الأب على وشك الذهاب لسؤال الجيران عندما جاءت كريستينا راكضة وقالت إن آنّا كانت في القَبو؛ مرّت من هناك، وسمعت صوت بكاء خافت، وفتحت الباب.

كانت آنّا متمددة على أرضيّة القَبو. وتبكي كما لو أنها تتألم. وبجوارها على الأرض استقرّ إناء فخاري كانت كريستينا قد وضعته هناك قبل بضع ساعات ليبرد؛ وفي ذلك الوقت، كان مليئاً إلى حافته بعصيدة الشّعير، والآن بقي فيه ثلثه تقريباً.

حُملت الطفلة إلى داخل المنزل ووضِعت في سريرها. وبخوف، طلبت من والديها الغفران على ما فعلت. لم تستطع نسيان صحن إناء العصيدة التي شاهدته وشَمت رائحته في المطبخ؛ وكانت شديدة الجوع للعصيدة. وقد رأت أمها تضعه في القَبو؛ ولم تستطع مقاومة رغبتها في التسلل هابطة إلى هناك والنظر إليها. في البداية، أرادات أن تشمها فقط، ثم وجدت ملعقة وشرعت بالأكل. وبمجرد أن شرعت بالأكل، لم تستطع أن تتوقف. لم يسبق لها أبداً أن تذوّقت أيّ شيء لذيذاً بهذا المقدار؛ وكلما أكلت أكثر، كلما أرادت أكثر؛ وبدا مذاق كلّ ملعقة إضافية أفضل —ولم تستطع التوقف حتى كان معظم العصيدة قد اختفى. ثم أصبحت خائفة، ولم تجرؤ على العودة إلى المنزل، ولم تجرؤ على أن تُظهر نفسها بعد عصيانها. بقيت في القَبو، وبعد فترة استولت عليها آلام شديدة في بطنها.

أكلت آنّا عصيدة الشعير حتى المرض؛ كانت العصيدة طعاماً قوياً عليها بعد طعام المجاعة في الشتاء. وانتفخ بطنها مثل طبل، قاسياً ومتمدداً. وأطلقت صرخات حادة بينما كان الألم يتصاعد.

أرسلوا في طلب بيرتا من إيدمو. كانت معتادة على تخفيف آلاف البطن بحرارة الملابس الصوفية، والآن وضعت ضمادة سميكة من الجوارب الصوفية المدفأة حول وسط الطفلة. كما طلبت أيضاً حليب فرس من أجل تخفيف الألم الداخلي، وهرعت ليديا راكضة إلى كراكيسيو، حيث كانت فرس قد وضعت مهراً حديثاً؛ وعادت بربع غالون من حليب الفرس وأُجبرت آنّا على شُرب هذا.

لكنّ شيئاً لم يخفف معاناة الطفلة. قالت بيرتا إن حبوب الشعير قد انتفخت في أمعاء الطفلة الصغيرة إلى ضعف حجمها الأصلي، متسببة بذلك في انفجار شيء ما. ولم تستطع تحمُّل المسؤولية عن شفاء مثل هذا الضرر.

بكت آنّا بصوت عالٍ وطلبت أن يُساعدها أحد بينما أصبح الألم مُعذِّباً. ومرة تلو المرة طلبت غفران والديها على عصيانها لهما: كانت تعرف أنّ أحداً لا يجب أن يمسّ العصيدة قبل المساء عندما يعود الضيوف.

خلال الليل، أخذت تهذي على فترات. وقالت بيرتا إنها إذا لم تتحسّن قبل الصباح، فإنّ الله ربما يجلب الطفلة إلى البيت؛ وقد أرادت أن تحضّر الوالدين بكامل قدرتها.

سمعت آنّا كلماتها وقالت إنها لا تريد أن يعيدها الله إلى البيت. كانت كثيرة الحكمة بالنسبة لعمرها، واعتادت أن تطرح أسئلة غريبة، والتي لم يستطع البالغون الإجابة عنها. وبينما كانت معاناتها تتصاعد، طلبت من أبيها أن يُساعدها؛ أرادت أن تنهض وتذهب معه إلى الإسكافي من أجل قياسات الحذاء الذي وعدها به. وكان بالوسع سماع صرخاتها خارجاً في الزريبة، حيث أجابت البقرات بخوارها، معتقدة أن أحداً ما كان في الطريق إليها ليطعمها.

في الصباح الباكر، ماتت الطفلة بآلامها.

كل من تحدّث إلى كارل أوسكار في الأيام القليلة التالية لم يجد جواباً. ولم تساعد محاولة ثانية ولا ثالثة كثيراً. وبعد الإلحاح، قد يجيب بسؤال، يشي بأنه لم يسمع شيئاً على الإطلاق.

سأل نيلس إذا كان يستطيع أن يخرج ويصنع كفناً لآنّا. هذه المرة سمع كارل أوسكار وأجاب على الفور: كفن ابنته الميتة أراد أن يصنعه بنفسه؛ ولا شيء آخر كان يمكن التفكير فيه.

ذهب إلى سقيفة الورشة حيث يحتفظ بكومة من ألواح خشب الصنوبر المنشورة جيداً؛ وفيها خشب أكثر من كاف للكفن. كما أنّه لا يلزم قدر كبير من الألواح لصناعة كفن يضمّ جسد آنّا الصغير المنكمش. شرع الأب بتفحص الكومة، أراد أن يختار ألواحاً مستقيمة، دقيقة خالية من العقد. اختار لوحاً بعد الآخر، وتفحصه، ورمى به جانباً؛ كان من المستحيل أن يعثر على لوح واحد في الكومة يستطيع أن يستخدمه، ويمكن أن يصنع كفناً جيداً بما يكفي لآنّا.

بعد فترة تعب من التفتيش عن ألواح جيدة وبقي جالساً على أرومة تقطيع الحطب، لا يفعل شيئاً. جلس هناك واستمع إلى الطفلة التي كانت قد قالت له مؤخراً فقط: «من المؤلم أن يموت المرء، يا أبي. لا أريد أن يأخذني الله إذا كان ذلك مؤلماً؛ أريد أن أظل في البيت. ألا أستطيع أن أبقى في البيت، حتى لو أنني أكلت العصيدة؟ لن أذوق أيّ شيء أبداً من دون إذن بعد الآن —أرجوك، دعني أبقى في البيت! أنت كبير وقويّ، يا أبي، ألا تستطيع أن تحميني بحيث لا يأخذني الله؟ يا أبي، لو أنك تعرف كم يؤلم ذلك! لماذا لا يُساعدني أحد؟ أنا صغيرة جداً. أتحب أن تموت يا أبي؟ أتريد أن يأتي الله ويأخذك؟»

طالما ظل الأب يسمع نداءات الاستغاثة من ابنته الميتة، لن يتلقى الأحياء من حوله أيّ إجابة منه؛ لم يكن يسمعهم.

في المساء، سأل نيلس ابنه عن أين وصل في صناعة الكفن. وأجاب أوسكار أنه ما يزال يختار الألواح.

وفي اليوم التالي، أيضاً، لم تُسمَع أصوات طرق من سقيفة الورشة. وكان تفسير كارل أوسكار الوحيد هو أنه كان يبحث عن الألواح.

في اليوم الثالث، عندما ظل الصمت مُطبِقاً على السقيفة، خرج نيلس متقافزاً على عكازيه وجلس في الفجر على منضدة العمل. ثم صنع كفناً للطفلة المتوفّاة بينما كارل أوسكار ينظر.

وعندما انتهى العمل قال الابن: «ليس جيّداً كفاية.»

حتى هذا الوقت، كان نيلس قد صنع في حياته أكثر من مئة كفن، وكل الذين

طلبوها كانوا راضين —ولم يُرفَض أيّ منها على الإطلاق. للمرة الأولى ينجز عملاً لم يكن مقبولاً، والذي رفضه ابنه: وقد استخدم فيه لوحاً واحداً فيه عقدة كبيرة بشعة، وآخر مقصوصاً بشكل معوَج، وهنا نتأ مسمار. فهل ستستريح آنّا، طفلته الصغيرة، على المسامير الحادّة؟ وجد كارل أوسكار الكثير من العيوب في الكفن الذي صنعه والده؛ فتناول بلطة وحطمه إرَباً.

شعر نيلس بالأذى، ابنه البكر هذا شخصٌ مُستَحيل؛ لم يكن يعجبه شيء. والآن ينبغي أن يصنع كارل أوسكار الكفن بنفسه. وقد عثر في النهاية على بعض الألواح المستقيمة الخالية من العقد، التي وجدها مقبولة؛ وحملها إلى منضدة العمل، حيث انهمكَ في العَمل طوال الليل؛ وفي الصباح، كان الكفَن جاهزاً.

كانَ الكَفَنُ عمل أب، أنجزَه في ليلة من الوحدة من الحُزن، في ضوء شحيح ينسلُ من مصابيح سقيفة الورشة. رُبّما لم يفهم أولئك الذين شاهدوا الكفَن. وفي الحقيقة، ربما لم يكن هناك فرق بين هذا الكفن وبين ذاك المكسور، المرفوض. لكن هذا الكفن صنعته يدا أب مُحتَرِستان، ومَسمَرتْهُ أصابع ظلت تمتدّ باحثة عن شيء ضاع.

لقد منح الله أبوين طفلة يحبّانها ويحدبان عليها، وعندما تسنّى لهم الوقت ليصبحا أكثر ارتباطاً بالصغيرة، وبعمق، استعادها الله. هل ارتكبا خطيئة عظيمة ليستحقا هذا؟ أي شرّ اقترفه كارل أوسكار حتى يُضطرّ إلى صناعة هذا الكفن؟

خلال الأسبوع نفسه، أقيمت مراسم التعميد وجعة القبر في كورباموين. وحمل كارل أوسكار كفن طفلته على ذراعيه إلى القبر، حيث ملأ القسّيس مجرفة بالتراب وقال إن آنّا سوف تصبح الآن مثل التراب في تلك المجرفة، وسوف لن تحيا ثانية حتى تُوقظَ في يوم الدّينونة الأخير.

٧

أكلت الطفلة من عصيدة الشّعير.

من عصيدة الشعير التعسة التي نبتت في الصيف الماضي، التي جمعا منها بضعة مكاييل فحسب، طحنوا كمية قليلة إلى فريك. ومن الأخير طبخت

كريستينا العصيدة من أجل التعميد. لكن حقل الشعير عندما استوى أخضر، لم يقل أحد للطفلة: إذا أكلتِ من هذا فإنك سوف تموتين بالتأكيد!

لقد ماتت آنّا لأنّ الأرض هنا ملعونة. لا بدّ أنها كذلك؛ هذا الحقلُ الذي نبتَ فيه الشّعير المُميت لا بد أن تكون قد ضربته كلمة الله لآدم.

شاهد كارل أوسكار الأطفال المتسولين الشاحبين المشّردين في الجوار، باحثين عن القوت في أكوام القمامة، وفكّر: لقد وجدت طفلتي طعاماً جيداً، وقد انفجرت أمعاؤها من عصيدة شعير بالزبدة. ومع ذلك، كانت هي أيضاً رهينة للجوع.

لعدّة أسابيع بعد الجنازة ظلّت كريستينا مسحوقة؛ معظم الأشياء التي فعلتها فعلتها خطأً، وبقيت أعمال أخرى غير منجزة أساساً. آلاف المرات انهالت على نفسها بالتقريع، متسائلة: لماذا لَم أقم بإخفاء إناء عصيدة التعميد حيث لا يعثر عليها أحد؟ لماذا لم أدع الأطفال يتذوقونها قبل إبعادها؟ لو أنني فعلتُ ذلك، لكانَت آنّا بقيت حيّة.

مرّ وقت طويل، ولم يذكر الأبوان اسم طفلتهما الميّتة. لم يتحدثا مطلقاً عن الطفلة الصغيرة التي فقداها؛ كان حزنهما سيصبح ثقيلاً بقدر مُضاعف لو أنه خرج إلى الضوء الواضح، ولتمّ الاعتراف بقوته. لكنهما حاولا الآن أن يدفعاه بعيداً، أن لا يدَعاه يخترق ما وراء الفكر. طالما أن الكلمات لم تُساعد، لماذا يستخدمانها؟ متنقلاً بين الأبوين الناحبيَن، كان ثمة صوت ناشز وحيد، يعكر عزاء الصمت المرير.

مرّ شهر منذ جنازة آنّا عندما قالت كريستينا لكارل أوسكار ذات مساء: بعد ما حدث، غيرت الآن رأيها؛ لم تعد تعارض هجرتهما إلى أميركا الشمالية. قبل ذلك، كانت تعتقد أنه ستكون قليلة المسؤولية لو أنها عرّضت حياة أبنائها للخطر في المحيط. والآن، تعلّمت أن الله يمكن أن يأخذ أطفالها حتى على الأرض الجافّة، على الرغم من عنايتها الكبيرة. وأصبحت تعتقد أن أبناءها سيكونون آمنين بنفس المقدار في البحر العاصف، إذا هي أوكلت أمرهم للعليّ القدير. وفوق ذلك، لن تشعر أبداً بأنها هي نفسها في هذا المكان مرّة أخرى. وهكذا

—إذا كان يفكر أنه سيكون من الأفضل لهما ولأولادهما أن يهاجروا، فإنها سوف تقبل. لم يكن بوسعهما معرفة ما يخبئه لهما القدر إن هما فعلا، لكنها أرادت أن تشارك في الهجرة، وأرادت أن تذهب مع كارل أوسكار.

وهكذا، تمّ التوصل إلى القرار، قرار قُيِّض له أن يحدد مسار حياة كليهما، والذي حدّد مصائر أبنائهما، وستمتد نتائجه عبر الزمن لتصل إلى أجيال لم تولد بعد —القرار الذي قرّر مسقط رؤوس أحفادهما، وأحفاد أحفادهم.

بعَون الله ومساعدة السلطات

١

في أحد أيام شباط، جلب شمّاس الكنيسة بير بيرسون للقسيس بروسندر أخباراً خطيرة: خلف أبواب مغلقة في كاراغاردي، جمع دانجل أندريسون أهل بيته وجيرانه في اجتماعات ليلية وترأس «عشاء الرب المقدس.»

في البداية، لم يصدق القسيس شمّاسه: كانت الأخبار مثيرة للصدمة إلى حد كبير. لكن كلمة بير بيرسون كانت بقوة كلمة شاهد العيان؛ كان بعض الشبان الذي صادف وجودهم في الجوار في تلك الليلة قد اختلسوا النظر إلى الداخل عبر نوافذ كاراغاردي، ورأوا أناساً مجتمعين حول مائدة القربان المقدس. وبعد سماعه ذلك، ذهب بنفسه في الليلة الفائتة إلى المزرعة ونظر عبر النافذة ليتأكد من الحقيقة. ورأى حوالي عشرة أشخاص جالسين حول مائدة، بينما كان دانجل يدير الاعتراف والقربان المقدس بينهم؛ ولم يكن من الممكن أن يتبقى لأي شخص ذي عينين أي شك إزاء ما كان يحدث. ومن أناس موثوق بهم في الحيّ، قيل له أيضاً أن دانجل، من خلال أحد سوّاقي العربات الخشبية، أرسل إلى كارلسْهامن في طلب عدة جالونات من نبيذ العشاء الرباني.

جلس القس بروسندر مطرق الرأس وقتاً طويلاً بعد سماعه تقرير الشمّاس.

كان قد حاول إعادة دانجل أندريسون ثانية إلى الكنيسة بوسائل سلمية ولطيفة. وقد حذره، واعتقد أنه قد نوّره بالعتاب اللّيِّن. وسعى بإجراءات لطيفة إلى تصحيح آرائه الخاطئة عن الله والحرية الروحية. وتجنب التعبير عن غضبه في الأبرشية، وعامل الرجل المسكين بحذر وتعاطف. وفقط عندما حقن أندريسون الناس البسطاء ضعاف الشخصية بسمومه، واستمر في جمعهم في اجتماعات في بيته، عندها فقط طرده القس بروسندر من مذبح الرب. لكن يبدو

أنه أتاح مساحة أكبر للروح الشريرة فحسب، بسبب لطفه، وصبره، وتسامحه مع الرجل: أصبح الناس التعساء في كاراغاردي الآن منقادين بعيداً وضالّين على يد الشيطان الذي أقاموا معه جلسات الاعتراف والعشاءات الربانية فيما بينهم.

الأسرار المقدسة، لحم المسيح ودمه، جوهرة الكنيسة الأغلى وامتيازها الحصري، هذه الأسرار المقدسة كلها تعرضت للتدنيس على يد فلاح جاهل، وتلطخت بأيدي شخص جلف ومجرم. كان أندريسون منتفخاً بالغرور الروحي؛ وبدأ بتقديم تفسيرات الإنجيل وتعدّى بذلك على الكنيسة، وبعد ذلك ذهبت وقاحته حداً بعيداً حتى أنه نظم طائفته وأقام كنيسته الخاصة في بيته.

هكذا، نصب دانجل أندريسون في كاراغاردي نفسه فوق المراسيم الزمنية والروحية. وإذا كان الرب ما يزال متردداً ولم يدافع عن كنيسته الكاثوليكية المقدسة، فإن على السلطات المدنية عندئذ أن تتدخل، ويجب أن تؤنّب الضالين، وتعنّف القائد والمحرّض.

قال بير بيرسون: الذي حدث الآن في كاراغاردي ربما يثير ويضايق أهل الأبرشية بشكل كبير. ونظر بروسندر إلى شمّاسه بحزن عميق: «أخشى الشيء نفسه. يجب أن نعمد فوراً إلى وقف هذه التجاوزات».

وتمنى الآن لو يطلب النصيحة من بير بيرسون، الشمّاس الذي يثق فيه أكثر ما يكون في كنيسته. كان بروسندر غير محظوظ في اختياره لشمّاسيه: أحدهم اعتاد أن يتسلل خارجاً القدسية خلال عطل نهاية الأسبوع، والشرب من نبيذ القربان. وهكذا، وفي أحد أيام الأحد، عندما أعلن بروسندر عن شرب القربان، وجد بروسندر نفسه مجبراً على إلغائه؛ وآخر ظهر مخموراً في الكنيسة، وقلب أرقام الترانيم رأساً على عقب؛ وثالث، عمد صبيحة يوم الميلاد المجيد، إلى زاوية الأورغ في الكنيسة وتبول، في حضور عدد من النساء. لكن القسيس كان يضع ثقته المطلقة في بير بيرسون. ولأنه كان يستهلك خمس مكيال من البرانفين في اليوم، فقد كان، في جلده، مثالاً يستحق أن يحتذى بالنسبة للآخرين من كادر الأبرشية. صحيح أن شائعات قبيحة ترددت عن حياته الأخلاقية، لكن تلك الشائعات كانت، لحسن الحظ، غير مؤكدة. وعندما جرى اتهامه في التسبب بحمل فتاة في الخامسة عشرة من عمرها، كان قد جلبها إلى منزله

كواحدة من فقراء الرعية، لستنطقه القسيس على حدة، ورفض بير بيرسون التهمة الكاذبة، قائلاً إن الذين نشروها هم أناس حاقدون وغيورون. والحقيقة أن نجاح الشمّاس الكبير في الشؤون الدنيوية، جعل منه موضوعاً للكثير من الغيرة في الأبرشية.

«اصدقني القول، يا بير بيرسون! أيُّ وسائل يجب أن نستخدم ضد هؤلاء الآكيّين؟»

أجاب الشمّاس: يتذكر المسنون من أهل الأبرشية كم من المشاكل تسبب بها آكي سفينسون في أيامه. هذه المرة، يجب أن يمنعوا المنشقين من إقلاق هدوء الأبرشية. وهناك فعلاً بعض الأشخاص حادي المزاج ممن رغبوا تأديب دانجل وأتباعه قسراً: كان بضعة رجال أقوياء قد أضمروا الذهاب إلى كاراغاردي، ومطاردة الشيطان بالأسلحة المناسبة. هذا ما سمعه بير بيرسون؛ لكنه اعتقد أنه عمل سيئ المشورة، وأنه ربما يحدث اضطراباً غير صحي في الأبرشية.

ووافق القسّ؛ يمكنه أن يتفهم بسهولة الحماس النبيل الذي دعا إلى فرض الانضباط قسراً على الآكيين؛ ولو ذهب بعض الرجال الجيدين إلى منزل أندريسون مع هذا التوجه، لكان ذلك حقيقاً بالإدانة في حد ذاته، ويكشف عن إخلاص متفانٍ لنقاء التعاليم الأنجيليكانية. لكن عليه أن لا يوافق؛ إذ يمكنهم استخدام سُبل قانونية فقط ضد الطائفيين.

رغب شمّاس الكنيسة أيضاً بإبلاغ أن هناك أناساً يتحدثون بشكل جيد عن دانجل، ويثنون على كرمه تجاه الفقراء والمشرّدين. ولم يكن هؤلاء قد أصبحوا كثيرين بعد، لكن أعدادهم قد ترتفع، وسوف يهدد سلام المجتمع ونظامه بأن يتشكل فريقان: واحد مع الآكيين وآخر ضدهم.

«يا إلهي، أوقف هذه المصيبة!»، قال القسيس مؤكداً.

أبدى الفلاحون في كاراغاردي حماساً ضاراً ومبالغاً فيه لأشياء هي خيّرة في حد ذاتها، وبحيث تضلل الناس الساذجين. ولم يكن ثمة أي مزاج أكثر خطراً من ذلك الذي يحرف أدوات الخير الخادع ويضعها في خدمة المعصية والخطيئة. وقد أدرك بروسندر أنه كان عليه استخدام وسائل أكثر قوة ضد نشاطات دانجل أندريسونِ منذ بداية البداية.

«ينبغي على السلطة الدينية أن تطلب مساعدة السلطات المدنية»، نصح

الشمّاس. «هذه الممارسة الملتوية للمنشقين لا يمكن أن تُعالج بأي طريقة أخرى».

أطرق القسيس برأسه موافقاً. فهو أيضاً لم يكن يرى طريقة أخرى. وشرعت الفكرة بالتشكل في داخله: يقين غامر لا يقاوَم بأن صبر الله مع الهراطقة في كاراغاردي قد نفد الآن إلى آخر قطرة.

طلب إلى شمّاس الكنيسة إعلامه عندما يتهيأ الآكيون للاجتماع حول مائدة قربانهم غير القانونية في كاراغاردي. وهذا ما وعد به بير بيرسون قبل مغادرته؛ سوف يساعده بضعة أولاد ويراقبون بالقرب من عزبة دانجل ليبقوه على اطلاع.

كان القس بروسندر يعمل على تحضير عظته ليوم الأحد التالي عندما وصل الشمّاس، وعادت أفكاره إلى عمله عندما أصبح وحيداً مرة أخرى. كان ذلك هو يوم الأحد الأول بعد الصوم الكبير، وكان نص الإنجيل هو قصة القديس متى، الفصل ٨ ـــ من إخراج المسيح الشياطين من رجلين ممسوسين إلى قطيع من الخنازير، الذي اندفع من على الجرف إلى البحر ومات في المياه. الآن، ومع وجود أخبار الشمّاس طازجة في ذهنه، أدرك كم كان هذا النصّ رائعاً، نص يدعو إلى التفسير والتطبيق. وبالنسبة لأولئك المستمعين العارفين بالأحداث المروعة في كاراغاردي، كان القليل من التفسير ضرورياً فحسب: «ولما جاء إلى العبر إلى كورة الجرجسيين استقبله مجنونان خارجان من القبور هائجان جداً حتى لم يكن أحد يقدر أن يجتاز من تلك الطريق.» ومثل ذلك اليوم، ربما يقابل أي رجل في هذه الأبرشية، على أي طريق وفي أية لحظة، رجلاً في ملابس فلاح بسيطة، مسه الشيطان الشرير وأغواه بوعوده وكلماته. لم يسبق له أبداً خلال عمله في المنصب أن شعر بإلحاح هذه الرسالة كما أحس به إزاء عظة يوم الأحد القادم.

نظر القس بروسندر خارج النافذة؛ كان الثلج قد تساقط طوال اليوم، وما يزال ينهمر، وأخذ يتراكم على الطريق خارج مسكنه. وفي تعبير من القلق، تبعت عيناه ندف الثلج الهابطة: ربما يمنع سقوط الثلج الكثيف أتباع الأبرشية البعيدين من الوصول إلى الكنيسة يوم الأحد، وسوف يفوتون العظة الأكثر أهمية لرفاه حياتهم الروحية على الإطلاق.

كان بروسندر ابن فلاح أطعم أبناءه الثمانية عشر وربّاهم في كوخ صغير بنافذتين. وهكذا، خرج هو نفسه من الفِلاحة التي صنعت التجمُّع. كان هو الابن الثامن عشر، وتوفيت أمّه وهي تلده. وقد شعر، حتى في طفولته المبكرة، بنداء قوي إلى الكهنوت؛ ودرس بصعوبة كبيرة، من دون تلقي مساعدة مالية من والده الفقير الذي استطاع بالكاد إطعامه خلال سنوات دراسته في فاكسيو. لكن الفلاحين في تلك الأجزاء هم لحم لحمه وعظام عظامه؛ وشعر وكأن هؤلاء الناس هم أبناؤه هو، واحتضنهم بحب وإخلاص أبويين. كان يحزن لخطاياهم وأخطائهم، وجهلهم وشكرهم، وعنفهم وغدرهم. لكن معظم سكان الأبرشية كانوا محبين للسلام، وَرِعين ومخلصين. ولذلك ظلوا تابعين مطيعين لمعلميهم الروحيّين والآخرين الذين يتمتعون بسلطة أبوية عليهم. ولذلك —توقف قليلاً عند تلك الكلمة؛ لقد لاحظ في تلك الأيام الأخيرة إشارة خطيرة على التغيير.

في ذلك الوقت، ألمّ اضطراب كبير بكافة الأمم. كان الناس يثورون، ويستخدمون العنف ضد سلطاتهم القانونية، وقد انتشرت الكثير من تعاليم الهرطقة وآمن بها الناس. كان النظام القديم الراسخ يُهمَل، وعادات الأسلاف تُنبذ. ومدّ الشرّ جذوره بعصيان وصية الربّ الرابعة، بتفكك الروابط بين الأبناء والآباء، بين الخَدم والسادة، بين المواطنين والسلطات. تلك الروابط المقدسة، التي أبقت المجتمع متماسكاً، وفق أوامر الربّ، وحفظت النظام والأمن، تعرضت لهجمة شر ساحق وماحق.

وحتى في أبرشية ليودر، ظهرت إشارات على ازدراء السلطة، وعصيان السادة. كانت الخادمات وعمال المزارع يغادرون مستخدميهم في منتصف سنة الخدمة، وتوجب أن يُعيدهم الشريف إلى الخدمة لأداء واجبهم. وفي بضع حالات، تساهلت السلطات جداً حتى أنها لم تعد الخدم الهاربين إلى عملهم، وإنما سُمح لهم بالذهاب كما يشاؤون. كانت هذه التصرفات لطخات عار على جبين الكنيسة المسيحية؛ وكانت مثل هذه الأمثلة خطيرة. إذا لم يكن قانون الخدم يحظى باحترام الخدم، فإن المجتمع ربما يغرق في غياب القانون، وربما تنجم أسوأ أنواع الفوضى. وقد تأسس احترام القوانين والأنظمة بالقوة على الوصية

الرابعة، واعتمد ضمان الدعة والأمن على تلك الوصية بالذات. واعتمد نظام الكون أساساً على الانصياع لوصايا الله العشر، وقانون الخَدم، بوصفه جزءاً من نظام العالم كما وضعه الله — ولا يمكن تجاهله دون وضع كامل النظام جانباً؛ كان هذا القانون بمثابة العهد بين السادة والخَدَم.

وقد تبين باطراد أن التعليم أمر مضرّ، بشكل رئيسي، للإنسان العادي الذي لا يستطيع استخدامه بحكمة. وفي الوقت الذي انتشرت فيه المعرفة بالقراءة، انتشرت كذلك الهرطقة، والتمرد. كان المواطنون البسطاء يسيئون استخدام معرفتهم بالقراءة. وهنا، ترتب على السلطات أن تمارس الرقابة الصارمة والتدقيق المستمر؛ إذا أعطيتَ للناس معرفة جديدة — مفيدة في ذاتها — فسيكون عليك أن تتأكد أيضاً من أن لا يُساء استخدام هذه المعرفة. هذا هو الواجب المقدس للسلطات؛ ينبغي أن يشعر الناس باليد الأبويّة الراعية. وأول واجب للمعلم الروحي هو أن يغرس في عقل الإنسان العادي النظام المقيم، المصنوع وفق إرادة الله والذي لا ينبغي تغييره بدون إذنه.

لكن حجر الزاوية الأساسي لوجود المجتمع هو وحدة الدين. إله واحد، كنيسة واحدة، طائفة وأبرشية واحدة ناضلت لتكون روحاً واحدة — فقط عندما تصل الإنسانية إلى هذا الكمال، سوف تُقام مملكة الله على الأرض، وإلى الأبد.

وقد كسر الأكيّون وحدة الدين وحاولوا إسقاط كنيسة الربّ. ومَن هو الذي هذا «العدو» الذي دسّ نفسه بالكلمات المعسولة والوعود — ليتسبب بالصراع والشقاق بينهم؟ أراد الرجال ذوو الرؤوس الحامية، والورعون في الأبرشية أن يطردوا الشيطان إلى خارج كاراغاردي بالقوة. ذلك هو أسلوب الناس البسطاء، لكنّ نيتهم كانت مسيحيّة. كان الله صبوراً، وانتظَر، لكن الوقت حان الآن للدفاع عن حُرمة السلطة الدينية ونقاء الدّين.

وغرق القسيس في الأفكار الجديدة بينما يهيئ عظته. إن لديه الكثير ليقوله لأبرشيته يوم الأحد القادم، مستشهداً بسفر متى ٨:٢٨.

كما أن لديه شيئاً آخر يهتم به اليوم، شيئاً لا يمكن أن ينتظر. فأرسل خادمه

وأمره بأن يُخرج المزلجة ويسرج أسرع خيول مقرّ الكاهن –أراد أن يركب إلى الشريف لونيغرين في أليباك لشأن طارئ.

بقي القسيس بروسندر ودوداً كل الوقت. واقتنع بأنه يستطيع أن يتولى أمر هرطقة الآكيين –بمساعدة الله ومعاونة السلطات المدنيّة.

٢

وسط الحجرة الكبيرة في منزل دانجل أندريسون، استوت مائدة كبيرة كانت إنجا–لينا قد رتبتها هذا المساء. أخرجت الأواني الأضافية، قامت بصقل شمعدانين نحاسيين حتى التمعا، وأضاءت الشموع ووضعت شمعداناً عند كل من طرفَي المائدة. وكانت قد أحضرت أطول الشموع التي صنعوها يوم عيد الميلاد، وغطت الطاولة بقطعة قماش منسوجة ومكويّة حديثاً، بيضاء مثل الثلج في الخارج. ومن بياضاتها، أحضرت أفضل وأغلى الممتلكات، لأنهم يتوقعون الليلة أهمّ زائر بشريّ يمكن أن يستقبله أحد في منزله. الليلة أصبحت مائدتهم القديمة مائدة الرب، وأصبحت شموعهم المصنوعة من الشحم شموع مذبح الربّ، وأصبحت قماشة إنجا–لينا الكتانية الجديدة غطاء مذبح الرب: سيكون الربّ عيسى المسيح ضيفهم هذه الليلة.

في وسط المائدة، بين الشمعدانَين، وضعت جرة خزفيّة مليئة بالنبيذ، النبيذ الحلو من كارلسْهامن، وملأت طبق الكعك بكعك الشعير المخبوز حديثاً؛ ووضعت إنجا–لينا خبز المناولة في شكل صليب.

كان شمل الجمع حول مذبح الربّ في كاراغاردي سيلنتم قبل منتصف الليل بساعة واحدة. والناس من المزارع المجاورة، زوجان متزوجان حديثاً، وصلا لتوهما. وكانا ينفضان الثلج في قاعة المدخل، حيث استقبلهما دانجل، ودعاهما إلى الدخول ومشاركة الإخوة في تناول جسد المسيح. أما المجتمعون قبلهم، فهم أهل البيت والنزلاء. ولَم يكونوا ينتظرون أحداً آخر، ولذلك أغلق دانجل الباب بالقفل. كانت المرة الوحيدة التي يُسمح فيها بقفل الباب في هذا المنزل هي فقط عندما يأتي الربّ نفسه. ومن العاصفة والثلج في الخارج، دخل الجيران إلى هدوء لذيذ حميم، ران على منزل دانجل. طلب من ضيوفه الجلوس إلى المائدة، وبآلة السالموديكون –الآلة الموسيقية وحيدة الوتر الشبيهة بالكمان– جلس في

المقعد عند النهاية البعيدة.

كان دانجل أندريسون أقصر من المعتاد، ضيق الكتفين، ونحيل البنية. وقد تغطى وجهه بلحية بنيّة فاتحة غير مشذبة، وسقط شعره الكثيف المقصوص بشكل مستدير على ياقة سترته. وكان الفلاح الضئيل رقيق الطبع، بطيء الحركات، عميقاً ولطيفاً في خطابه. وتحت جبينه الواسع البارز، سكنت عينيه نظرةُ سلام. وكثيراً ما افترقت شفتاه، كما لو أنه على وشك الابتسام.

إلى جانب المائدة الطويلة، إلى يمين السيد، جلس أهل البيت: الجندي المسرّح من الخدمة بطريقة مخجلة، سيفيريوس فيل، وهو رجل طويل بوجه مشوّه، غائر ومدمر بالجدري والبرانفين؛ الخادمة المعتلة سيسا سفنسدوتر، المصابة بالشلل في ذراعها اليمنى والعجز في ساقها اليسرى؛ والعزباء أولريكا من فوسترغوهل وابنتها إيلين. وهذه الابنة هي الوحيدة الناجية من أربعة أولاد من آباء غير معروفين ولدتهم أولريكا. كانت إيلين قد بلغت الخامسة عشرة من عمرها توّاً، وستتناول الليلة القربان المقدس للمرة الأولى. وبدا للجميع أمراً لا يُصدق أن كل حياتها في السفاح لم تترك عليها أيّ آثار تمكن ملاحظتها للفساد، لكن وجهها احتفظ بملامح البراءة التي تتميز بها فتاه طاهرة، والتي لا تكاد تشوبها شائبة؛ وقد ظل جسدها المتناسق، بصدره الممتلئ، يحتفظ بليونته. وشابهت إيلين أمها عندما كانت شابة. كانت فتاة رقيقة ذات وجه جميل.

إلى الجانب المقابل من المائدة، إلى يسار دانجل، جلس الناس من المزارع المجاورة، رجلان وامرأتان. واتخذت إنجا-لينا مجلسها على الطرف القريب من المائدة. كان ثمة عشرة ضيوف في المجموع في العشاء الرباني الذي على وشك البدء.

طلب دانجل من زوجته أن تغلق باب المطبخ، ثم ركع بجانب مقعده وصلى بصمت. وجلس الجميع ساكنين، هادئين ومنتظرين. وفي الخارج، زادت حدة العاصفة الثلجية، وصفقت بعض الألواح السائبة في زاوية البيت بينما تشدّها وتهزها هبّات الريح القوية.

ونهض دانجل، وقال إنّ المسيح قد وصل الآن.

«سوف نستقبل مخلّصنا بالترنيمة عن الجثمانية: «التضحية اقتربت. انزف يا قلبي!»

التقط المزارع من كاراغاردي آلته الموسيقية؛ دوزن الوتر، وشرع في دندنة الترنيمة بينما يستمع إلى عويل العاصفة الثلجية في الخارج، كما لو كان يحاول تقليد صوت العاصفة بلحن الآلة. ثم سحب القوس الخشبي على الوتر، وعزف، وأنشد:

«استيقظ، أيها المسيحي، بينما مخلّصك
يدعوك لتقاسمه كأس البليّة!
اترك الخطايا التي تطاردك إلى الأبد –
هو وحده يستطيع أن يهبك السلام.
'انظر، وصلِّ' يدعوك دائماً،
'الظلام يسعى لإسقاطك.'»

وانضم الجميع إلى الغناء، كلٌّ حسب قدرته، ونهضت الترنيمة قوية وعالية تحت السقف الخفيض، بعوارضه المتشققة المغطاة بالسخام. غنّى الأكيون بينما الريح تُدوِّم حول الكوخ وتتسلل عبر الشقوق في الجدران والنوافذ، جاعلة لهب الشموع يتراقص في الريح. وقد أضاءت شموع الشحم جزءاً من الغرفة فقط، دائرةً صغيرةً حول المائدة، تاركة بقيتها في شبه ظلام.

جاء الناس الذين اجتمعوا هنا الليلة ليلبثوا قليلاً مع مخلِّصهم، وليس لينكروه كما فعل بيتر، ولا ليخونوه مثل يهوذا. كل أولئك الجالسين هنا حول مائدة دانجل، منتظرون أن يعطيهم الخبز والنبيذ، خبروا التوبة بعقيدتهم، بإيمانهم بأن المسيح عانى ومات على الصليب من أجل خطاياهم. وفي اعتناقهم لهذا الإيمان، شعروا بأن جسد المسيح قد امتلك أجسادهم هم، بأنهم خلعوا عنهم أجسادهم القديمة الخاطئة. هكذا وُلدوا من جديد، غير ملطخين، صالحين، مطهّرين من كل الخطايا. وحواريّ الربّ الجديد، الجالس هناك إلى المائدة معهم، قال لهم: «إن خطاياكم مربوطة بمنديل الكتان الذي كان ملتفاً حول رأس المسيح عندما دُفِن، والذي تركه في قبره.» وكلهم صدقوا ذلك.

الليلة مرة أخرى دعاهم المسيح ليأكلوا جسده ويشربوا دمه. هذا هو العهد بين المخلّص والذين خلّصهم، والذي يجب أن يُقام. الأمر بسيط بحيث يفهمه الجميع. كان جسد المسيح ساكناً أجسادهم، بينما أجسادهم تسكن جسده، كما شرحت كلمات الربّ نفسه في إنجيل دانجل على المائدة: «مَنْ يأكُلْ جَسَدي

ويَشرَبْ دَمي يَثبُتْ فيّ وأنا فيه.»

كانوا مقطوعين من الكنيسة، ولم يعودوا يُستقبلون في حلقة مذبحها. لكن الربّ كلّي الحضور ويمكن أن يجدوه في كل مكان، في كل الأماكن تحت سقف السماء. وقد سمح يسوع نفسه بأن يولَد في إسطبل، ويمكنه أن يضع مائدة قربانه أينما يشاء، سواء كان سقيفة، كوخ خشب، أو حظيرة. كان معهم حيثما سعوا إليه وطلبوه، ووقفت مائدة الرب حينما كان حاضراً.

والليلة كان معهم مرّة أخرى؛ وكانوا يجلسون حول مائدة مذبحه. وسقف العوارض المصبوغة بالسّخام فوقهم هو السقف المقبّب لمعبد الرب المُشرق. إنّ هذا مكانٌ مقدّس.

«الساعات تمضي، استمروا في الصلاة أيها الخاطئون،

اتبعوا المسيح بمزاج رائق.»

اقتربت الترنيمة من نهايتها. وقرّب دانجل إنجيله من شمعة الشحم، حتى سقط ضوؤها على الأوراق، وشرع في القراءة بصوت صاف ومتساوق الكلمات المقدسة لإقامة العشاء الربّاني: «سيدنا يسوع المسيح، ليلة خانوه، تناول الخبز، وقدم الشكر، وقسمه ووزعه على حوارييه، وقال: 'هذا جسدي، الذي أُعطِيَ لكم'....»

كانت للذكور الأسبقية في تناول القربان. وبحركات بطيئة، تناول دانجل من الطبق قطعة من خبز الشعير، وقسمها، ورفع قطعة صغيرة إلى فم الجندي بيل.

«يسوع المسيح، الذي نتناول جسده، يحفظك في الحياة الأبدية.»

جلس الجندي العجوز ويداه مطويتان وعيناه مغلقتان، وانحنى إلى الأمام بينما تتلقى شفتاه كعكة الشعير من يد الفلاح. كان سيفيريوس بيل بلا أسنان؛ وببطء طحنت لثته الخبز إلى فتات. من جرة الفخار، صبّ دانجل النبيذ في كوب معدني، وعندما ابتلع الرجل العجوز خبزه، رفع دانجل الكوب إلى فمه. وشرب الجندي النبيذ بتوق برشفة واحدة، ثم شكر المخلص بتنهيدة عميقة.

«يا يسوع المسيح، الذي نشرب دمك....»

طوى ضيوف المناولة الآخرون أيديهم، ومدركين بعمق حضور المسيح، لم يقوموا بحركة واحدة. هزت هبة ريح الألواح السائبة، التي صرّت وضجّت. وتراقص لهب الشمعة بفعل تيار انسرب من النافذة، وتحركت الظلال على

غطاء الطاولة الأبيض. واستعرت العاصفة في الخارج، لكن الناس المقفل عليهم هنا في الداخل جلسوا في غرفة وادعة، محفوظة للرب الذي شفاهم، الذي جمع كل خطاياهم في قماش منديله المدمّى.

قدم دانجل أندريسون الخبز والنبيذ للرجال؛ وانتقل إلى النساء، وكان على وشك أن يعطي الخبز لأولريكا من فوسترغوهل عندما سُمع صوت جديد من الخارج أعلى من العاصفة: تحدث رجل بصوت حاد. توقفت يد الفلاح الضئيل التي تحمل جسد المسيح في الهواء للحظة وهو يستمع. ثم استمر في المناولة كما لو أنه لم يسمع شيئاً. أعطى لأولريكا قطعة من الخبز المقسوم، وكان على وشك أن يناولها النبيذ عندما قاطعته ضجة أخرى: طرق أحد الباب الخارجي، ثم أخذ يقرعه بشدة.

أدار الجميع رؤوسهم واستمعوا. ووضع دانجل الكأس الذي يضم دم المسيح على المائدة. وجاءت الضربات على الباب في فترات منتظمة. لكن دانجل لم يقل شيئاً ولم يتغير التعبير على وجهه.

وران القلق على الآخرين؛ وشرعوا بالهمس.

قالت إنجا-لينا: «رجاءً، دانجل، لا تفتح!»

ونظر الجيران إلى دانجل، والخوف في عيونهم، لكنه طمأنهم: ليسوا في حاجة إلى الخوف، ينبغي أن يظلوا مطمئنين، وجالسين بهدوء على مقاعدهم. إنّ الربّ المسيح معهم في هذه الغرفة الليلة، ولا ينبغي لأحد أن يخشى الأذى. أياً يكن الذي يقف في الخارج ويحاول أن يدخل لا يمتلك القوة ضد إرادة الله العظيم. يجب أن يعرفوا ذلك.

سار سيد كاراغاردي بخطوات واثقة خارجاً إلى قاعة المدخل. وقبل أن يلمس قفل الباب سأل بلطف: «من الذي يقلق هدوء منزلنا في هذا الليل؟»

«الشريف لونيغرين! افتح!»

«عمّن تبحث في هذه الساعة المتأخرة. يا سيد شريف؟»

«عنك، يا دانجل أندريسون! إنني آمرك باسم القانون أن تفتح بابك.»

وسُمعت أصوات أخرى، كان بضعة رجال على الشرفة.

«أنا لا أطيع قوانين البشر.»

«واجبي الرسمي يُملي عليّ أن أكسر الباب إذا لم تفتح!»

«إذن، عليّ أن أساعدك، يا سيد شريف. لا أستطيع أن أسمح لك بارتكاب المزيد من الغضب وتزيد خطاياك في حقّ الرب.»

فتح دانجل الباب. ورأى الخيول والمزالج خارجاً في الفناء، لكن الخيول لم تكن لها أجراس؛ جاء الزائرون على مزالج بلا أجراس حتى لا تعلن عن وصولهم.

خطا الشريف لونيغرين داخلاً، يتبعه القس بروسندر. وبعدهما دخل الكاهن المساعد، كروسيل، والشمّاس، بير بيرسون من أكيربي، وأخيراً حاجب المحكمة في القرية، وأجير الشريف لونيغرين. وتبع دانجل الطارقين إلى الداخل؛ ستة رجال دخلوا الغرفة حيث تنتظر جماعة دانجل الصغيرة بذعر-ثلاثة من السلطات الروحية وثلاثة من السلطة الزمنيّة. وكان القس بروسندر والكاهن كروسيل يرتديان الأرواب الرسمية لرجال الدين. وكان كلا الكاهنين ممتقعين وعليهما أمارات الجدية، وأوحت ملابسهما السوداء بالفجيعة.

خلع الشريف لونيغرين قبعته الرسمية، لكنه ظل غير قادر على الوقوف منتصباً تحت سقف كوخ الفلاح المنخفض؛ وضربت جبهته إحدى العوارض وكاد ينفجر بالسباب قبل أن يتذكر رفقته الكهنوتية. استدار إلى مالك المزرعة.

«ما الذي يفعله هؤلاء الناس هنا في منتصف الليل؟»

«إننا مجتمعون في وجبة تعبُّدية.»

نظر الشريف بحدة إلى الجيران. «إنني أميّز أناساً لا ينتمون إلى بيتك، يا دانجل أندريسون. يبدو لي أنّ اجتماعاً غير قانوني يُعقد هنا.»

همست المرأتان الجارتان بقلق لزوجيهما بينما يطلب الشريف أسماءهم ومكان سكناهم. وطلب دانجل مرة أخرى من ضيوفه أن يبقوا هادئين ومطمئنين.

لم تبدُ أولريكا من فوسترغوهل خائفة، وإنما أقرب إلى الغضب. وحدّقت باشمئزاز في مُقاطعي السلام.

ظلّ القسيس صامتاً وهو يدرس جماعة الأبرشية المجتمعين حول المائدة القديمة: بيل، الجندي القديم، الواشي والمقامر، الذي تلقى الكثير من التوبيخ ولم يتحسنّ أبداً حتى سُرِّح بلا شرف وأنهيت خدمته للتاج؛ سيسا سفينسدوتر، مخلوقة بائسة، مشلولة، عرجاء، ومدانة مرتين بتهمة السرقة؛ وأولريكا من

فوسترغوهل، زانية مثيرة للاشمئزاز، والتي منح لها الشيطان جسداً جميلاً لتغوي الرجال إلى العهر، والتي ظلت مسؤولة بشكل رئيسي عن وقوع الزنا في الأبرشية. في الحقيقة، جمع سيد الآكيين الجديد حثالة المجتمع من حوله.

لمح بروسندر جرّة النبيذ على المائدة، ونظر إلى طبق الكعك والقطع المصفوفة فيه على شكل صلبان، وازداد وجهه امتقاعاً. سحب نفساً عميقاً، وارتعش صوته بالغضب الذي يتاخم اليأس: «أنتم أيها الكائنات البائسة التعسة! إنكم تدنّسون القربان المقدس!»

«إننا نستمتع بالمناولات العزيزة المقدسة،» أجاب دانجل، بتواضع وإنما بلا مرونة.

«التي حرمتنا منها، يا سيد قسيس.» قال الجندي بيل.

«لأننا لم نعد نزحف تحت رداء الكاهن!» أضافت أولريكا.

وبدون أن يعير هذه الملاحظات التفاتاً، استدار القسيس إلى الشريف لونيغرين، مشيراً إلى المائدة. «ماذا يلزم أكثر من هذا؟ إن دانجل أندريسون يترأس القربان المقدس لهؤلاء الناس! لقد أمسكناه متلبّساً في منزله. ونحن جميعاً شهود على هذه الجريمة.»

رمق الشريف طاولة قربان دانجل بتعبير مفكر ويشي بالضيق إلى حد ما: لقد خرج الليلة في مهمته وهو غير راغب أبداً، بناء على طلب بروسندر. إن الناس المتجمعين للعبادة داخل أربعة جدران لا يضايقونه مثلما يفعلون بالقس. وأحب أن يترك هؤلاء الناس لشأنهم ما داموا هادئين في الداخل، ولم يقلقوا سلام الأماكن العامة، ولم يلحقوا أذى بالناس الآخرين. إن هؤلاء هنا لم يؤذوا أناساً آخرين، إنهم كائنات بائسة مسكينة، في الأسمال، مصابون بالعلل والبشاعة، شياطين بائسون، لكنه ليس ثمة ضرر هنا. وعندما يُسمح للآخرين بالتجمع بسلام للمقامرة والشرب، لماذا لا يجب أن يُترك هؤلاء البؤساء المصابون بالدين دون أن يقلقهم أحد ما داموا هم بدورهم يتركون الآخرين لشأنهم؟ وكان الشريف قد نصح القسيس بمحاولة المصالحة بين المنشقين والكنيسة.

ومع ذلك، لم تحدث المصالحة؛ وكان اجتماعهم محظوراً بموجب القانون. والقانون هو القانون، والواجب هو الواجب، وهو يملي على شريف التاج أن يؤدي واجبه الرسمي في هذا المكان.

تحدث لونيغرين إلى دانجل بصرامة: «أتعترف بأنك تقيم الاجتماعات وتترأس القربان المقدس؟»

«نعم، سيد شريف.»

«هل ترأست الليلة المناولة لهؤلاء الناس؟»

«ليس لهم جميعاً بعد. لقد قاطعتني أنت، سيد شريف.»

«لكنك لا بد تعلم أنه لا يُسمح لأحد بترؤس المناولة بدون أن يكون مخوَلاً.»

«هذا لا أعلمه.»

«لكن القسيس هنا كان قد قال لك ذلك.»

«إنني لا أطيع القس، وإنما الكتاب المقدس. الإنجيل لا يقول في أيّ مكان أن إلهنا المسيح كان مخوَّلاً.»

«لا تجرّ نفسك إلى جدال مع هذا الأفّاق.» نصح القس. «هذه الأشياء عميقة كثيراً على البسيط الجاهل.»

«سمعت ما يقوله كاهنك!» قال لونيغرين. «ألن تطيعه، أنت أيها الوغـ ـالوَ-» وتجمد مصطلح مخاطبة الشريف المعتاد على شفتيه هذه المرة. واجه نظرة الفلاح الضئيل الهادئة الخالية من الخوف، وابتلع النصف الثاني من الكلمة. كان ثمة شيء غريب في وداعة هذا الرجل التي لا تتبدل وكياسته الراسخة. بطريقة ما، من خلال لطفه وهدوئه، أصبح خارج المتناول. وبدا للشريف أنه لا يستطيع أن يلمس دانجل بتأنيباته.

ومضى لونيغرين إلى القول: «لقد ثبت أنك انتهكت القانون المتعلق بالقربان المقدس، يا دانجل أندريسون.»

«ليس ثمة قانون على أولئك الذين يعيشون في المسيح.»

«إليك، اسمع بنفسك!» قاطع بروسندر. «إنه يضع نفسه فوق السلطات والتخويلات العامة.»

ولم يفعل دانجل سوى جعل الأمور أسوأ بإجاباته الخالية من الخوف، ولم يكن لونيغرين يريده أن يجعل القضية أسوأ. ربما كان ليُجري تحقيقاً مطوّلاً على يديه لو أن هذا الاجتماع حصل تحت بند قانون الإغواء؛ وهو أراد أن ينهي المهمة بأسرع ما يمكن.

«سوف أستدعيك للاستجواب، دانجل،» قال. «وبعد ذلك سوف تُحاكم في المحكمة المدنية، وكذلك كل الآخرين المجتمعين هنا.»

استمع دانجل إلى الشريف دون تأثر. لقد شعر مؤخراً بأن أوان المحاكمة بات وشيكاً.

أمر لونيغرين حاجب المحكمة بأخذ أسماء كل الحاضرين في الاجتماع. والجيران، لدى سماعهم بأن أسماءهم سوف تُسجل، نهضوا فوراً عن المائدة، متجهين ببطء باتجاه الباب.

عقد القسيس مشاورة هامسة مع مساعده، ثم خطا إلى الأمام وطلب الانتباه: «كنت قد منعتك ذات مرة، يا دانجل أندريسون، من التدخل في أيّ شيء يخص مقر الكنيسة. لكنك تثابر على تجاوزاتك ولذلك أصبح من الضروري الآن دفعك بموجب نص القانون. وينطبق الأمر نفسه على الآخرين الذين انتهكوا قانون القربان المقدس هنا الليلة.

«لكنني أتوسل إليكم أن تفكروا بخلاصكم الداخلي. كل واحد منكم يندم على هذه التجاوزات ويشجبها، سوف أستقبله مجدداً في قطيع كنيستي. لا أستطيع أن أكون مسؤولاً تجاه ربّي إلا إذا فعلت كل ما أستطيعه لأنقذكم من النار الأبدية.»

والآن، جالت الدموع في عينيه.

ألقت أولريكا من فوسترغوهل نظرات الكراهية باتجاه مرشد الأبرشية الروحي. «لدينا مخلّصك هنا بيننا. ليس علينا أن نتعلق بذيل معطف كاهن. إلى جهنم بك!» وبصقت.

«أنت أيتها المرأة المجدّفة!» هتف الكاهن كروسيل مستثاراً.

«هذا معبدنا. أخرجوا من الضوء يا كهنة! إنكم تعتّمون الغرفة. إنكم تقفون هنا سوداً وأشراراً مثل الشيطان نفسه!»

«هذه المرأة تحقّر الكهنوت!» قال الكاهن كروسيل للقسيس.

استدار القس بروسندر إلى أولريكا من فوسترغوهل، بكل كبريائه.

«أرى أنك لم تصلحي من طرائقك.» ونظر إلى كوب النبيذ أمامها، وزحف الاشمئزاز والكراهية إلى صوته: «إنت أيتها الزانية، كيف تجرئين على تناول دم المسيح في فمك القذر!»

«إنني لأفعل كما أريد، أيها القسّيس اللعين!»

تراجع بروسندر. اتخذ خطوة إلى الوراء واستعاد أنفاسه؛ ينبغي أن لا يفقد صوابه.

خطا شمّاس الكنيسة، بير بيرسون، إلى الأمام ليساعد راعي الأبرشية. وصرخ بأولريكا: «كيف تجرُئين على إهانة القسّيس!»

«انتبه! يمكنني أن أهين الشمّاس أيضاً!»

«قبل أن تتحدثي إلى كاهننا ينبغي أن تراقبي ما يقوله فمك!»

«كيف؟ ببرانفين الكهنوت أم ببول القسيس؟»

«اخرسي، أيتها العاهرة العجوز!»

«عاهرة؟ هل دعوتني عاهرة؟»

قفزت أولريكا إلى الأعلى فجأة ناهضة من مقعدها بصخب عظيم. كان جسدها كلها يرتجف، والتمعت عيناها بالغضب، وصرخت بالشمّاس: «عاهرة؟ لك، يا بير بيرسون؟ أنت تدعوني أنا عاهرة، يا عجوز يا ابن الزانية؟»

«ما الذي تتحدثين عنه يا امرأة؟»

«عاهرة لك، يا شمّاس؟ ما الذي كنت تقوله في الأيام الخوالي، عندما جئت بداليرٍ في اليد، وقضيبك في الأخرى؟»

«اخرسي! أيتها المجنونة!» زمجر بير بيرسون بكل قوة رئتيه.

«ما الذي قلته عندئذ؟ عندما أردتني أن أنام على ظهري لك –لفترة قليلة فقط؟ ثم جئت تزحف، ثم سألت، وتوسلت، وتوددتَ وتغزّلت! ثم كنت طيبة بما يكفي معك! عندها كانت العاهرة خيّرة بما يكفي!»

الآن، علُقت الكلمات في حلق الشمّاس، ثم لم يعد يستطيع أن يجيب أولريكا. لكنها استنشقت الهواء لتجمع قوّة جديدة.

ران صمت كامل بعد هذا التراشق بالكلمات. ونظر الجندي بيل وسيسا سفينسدوتر إلى القسيس ببهجة شامتة. ونظر القسيس والكاهن المساعد إلى بعضهما البعض بحيرة، ووقف الشريف فاغر الفم وهو ينقل أنظاره بين شمّاس أكيربي وبين المرأة المُزبدة.

وبقي دانجل هادئاً وهو يحدق في الأرض، منتظراً زوال الجو المتوتر. شرع أحدٌ ما في البكاء –كانت ابنة أولريكا؛ وقرّبت إنجا–لينا مقعدها

وحاولت تهدئة إيلين.

ثم سُمع صوت أولريكا الجهور مرة أخرى: «ذلك الداعر ابن الزانية بير بيرسون ليس محروماً من القربان المقدس في الكنيسة. لماذا؟ لأنه صديق قريب للكُهان الملعونين—أولئك الشياطين السود الذين يعتمون الضوء علينا! أولئك المتكرّشون الذين يعيشون في اللحم السمين!»

كان القسيس ومساعده ما يزالان صامتين ومرتبكَين، مصدومين بانفجار أولريكا. وهز بير بيرسون يديه المضمومتين كما لو يريد الإطباق على عنقها.

ولم يتدخل الشريف لونيغرين في معركة الكلمات بين أولريكا والشمّاس؛ وقد علّمته الخبرة المكتسبة من السنوات الكثيرة الصعبة في الخدمة أن لا يتجادل مع العاهرات؛ لم يكن ذلك سيفضي إلى أيّ مكان. ولم يشعر بأيّ تعاطف مع بير بيرسون، الذي جعلته شهوته للسلطة صعباً. ولم يحسن الشمّاس الرد على إهانته. وشعر بارتياح عظيم بينما يقف هنا ويستذكر حادثة وقعت قبل سنين عديدة مضت، في شبابه. ذات مساء، بينما كان ثملاً وبائساً، كان في طريقه إلى كوخ أولريكا –بنفس طريقة بير بيرسون ورجال كثُر آخرين؛ لا بد أن يكون الشيطان قد أرشد خُطاه. لكن أولريكا لم تكن في البيت؛ كانت قد صحبت طارقاً ما برهة على الطريق، واضطر للعودة من دون أن يحقق غرضه. كان عملٌ من أعمال العناية الإلهية هو الذي أجهض مسعاه وأبعد المرأة في اللحظة المناسبة. والآن، يستطيع أن يبارك تلك العناية الإلهية، يمكنه أن يشكر الله على أنه لم يعانِ الخزي من فم المومس هنا في هذا المساء.

أحسّ القسيس بأن أولريكا قالت الحقيقة عن شمّاسه. وقد عرف مسبقاً أنها أغوت الكثير من الرجال الشرفاء المستقيمين، واجتذبتهم بجسدها إلى عشّ خطيئتها، لكن هذا ليس هو الوقت ولا المكان المناسب لفضح الحقيقة وتعرية فسوق بير بيرسون، ومواطن خلاعته وتهتكه التي ينبغي أن يندم عليها كثيراً في شبابه. هنا، لم تُستخدَم الحقيقة في مكانها الصحيح؛ لقد أصبحت إهانة بليغة لرجل موثوق ويُنظر إليه باحترام. لكنّ شيئاً لا يمكن أن يعذر أو يغفر للكلمات الوقحة (على أقل تقدير) التي استخدمتها المرأة الخاطئة.

اتجه بروسندر إلى الشريف. «يجب أن تضع حداً لهذا المشهد المؤلم

المخجل.» بقوة منصبه، يجب أن يفرّق لونيغرين الجمع ويَصرف هؤلاء الحاضرين.

ولم يكن الشريف يطلب أحسن من إنهاء مهمته غير السارة هنا الليلة. لقد اعترف دانجل أندريسون بجريمته، وأسماء أتباعه سُجّلت، ولم يعد لديه ما يفعله هنا في هذا البيت.

«باسم القانون، آمُر الآن هذا الحشد بالتفرّق. ليذهب كلٌ بهدوء إلى منزله!»

قال حاجب المحكمة إن الجيران قد غادروا مُسبقاً بعد إعطاء أسمائهم وأماكن سكناهم. وهؤلاء المتبقون هنا ينتمون إلى المزرعة. وبكلمات القانون، يكون الحشد قد تفرّق فعلاً.

ولكن، وقبل أن يغادر بروسندر، كان لديه ما يقوله لسيد المنزل: «إنني أمنعك بحزم من الاستمرار في عقد المناولات على هذه المائدة.»

«إنك لا تستطيع أن تحرّم بيتي على السيد المسيح، يا سيد قسيس،» قال دانجل.

«مَن الذي قال لك إن الربَ هنا؟»

«لقد أراني نفسه في قلبي.»

«إنك تعتقد أن كل أهوائك ونزواتك إلهام من الله. أؤكد لك أنها من الشيطان!»

قاطعه الشمّاس بير بيرسون، وما يزال وجهه محمرّاً من الغضب: «سوف نلقي خارجاً بشيطان كاراغاردي، سوف نتخلص منه عندما تعيش أنت، يا دانجل، في السجن على الخبز والماء.»

كان دانجل قد تحدث إلى أولريكا بطريقة أبوية، وجعلها تصمت. كانت للكلمات سلطة عليها. لكن المرأة النارية لم تستطع الآن أن تضبط نفسها أكثر.

«اخرج، أيها الكاهن الملعون!»

وأضاف الجندي بيل بصوت خشن: «غادر بيت الصالحين واذهب لإصلاح نفسك في وكر الفاسقين!»

كان للقس المساعد كروسيل مزاج أسهل على الاستثارة من مزاج القسيس، وقد هتف الآن: «هذا يكفي! هل يجب أن نقبل بمثل هذه الإهانات؟»

بدا كما لو أن نزاعاً جديداً على وشك النشوء. وأمر دانجل جماعته بالهدوء. وحتى يضمن ذلك، أمسك بآلته الموسيقية وشرع في إنشاد ترنيمة:

«دعني أعيش في هدوء وسلام
أن لا أؤذي روحاً أبداً؛
في الألم والفرح، والصحة والمرض
آخذُ أنا من عنايتك الإلهية.
أبداً بلا جراح، دائماً في شفاء،
هكذا تتكشف الحياة المسيحية.»

وانضم كل الآكيين:

«ها أنا ذا أحمل صليبي بصبر،
ذاهباً حيث يقودني المسيح
صابراً تماماً، متحمّلاً تماماً....»

وأكمل دانجل وجماعته الترنيمة، سطراً تلو سطر، كما لو يكن أيّ غريب حاضراً في الغرفة. وحاول القس بروسندر عدة مرات أن يرفع صوته فوق صوت الغناء. قال لمساعده، لهؤلاء الناس القساة لا يمكن فعل شيء. وقد أدى لونيغرين واجبه وأصبح جاهزاً ليغادر مع رجاله الذين، كما فكّر، ربما يحسّون بأنهم في بيتهم؛ وبدا له بشكل غامض أن دانجل في إيمانه الذي لا يتزعزع، كان بطريقة ما خارج قبضة السلطات المدنية.

غادر كل المتطفلين قبل أن تنتهي الترنيمة.

وخرج دانجل إلى الشرفة: كانت مزلجتا القس والشريف قد غادرتا. وأقفل بابه للمرة الثانية الليلة؛ ثم قفل عائداً إلى مكانه عند نهاية طرف المائدة. وبحزن حدّق في المقاعد الأربعة الفارغة على مائدة العشاء الرباني، التي أخلاها جيرانه توّاً. كان الخوف من السلطات الدنيوية كبيراً عليهم؛ لم يكونوا صارمين في إيمانهم؛ لقد هجروا ربّهم وسيدهم. وكما أنكر بيتر المسيح ذات مرة لخدمة الكاهن الأعلى، بنفس الطريقة أنكر دانجلَ جيرانُه بسبب الشريف لونيغرين.

طمأن دانجل الأتباع المخلصين الذين ما يزالون باقين معه: إن وقت المحاكمة وشيك؛ ينبغي أنْ يشكروا الربّ يسوع على أنهم قد اختيروا، أن يشكروه على بهجة المعاناة من أجله.

وهكذا، تناول مزارع كاراغاردي الكوب المعدني الذي يقوم مقام الكأس المقدسة مرة أخرى، الذي كان قد بقي أمام أولريكا من فوسترغوهل؛ ورفعه إلى فمها: «يا يسوع المسيح، الذي نشرب دمه...»

كان المسيح ما يزال هناك، وقد شعروا بحضوره، وكان هذا المكان مقدساً.

٣

في محكمة مقاطعة كونغا في الخريف، ١٨٤٩، تمّ تغريم مالك المزرعة دانجل أندريسون من كاراغاردي مائتي دالير سويدي فضي لقاء تدنيسه قانون القربان المقدس والمرسوم الخاص بعقد الاجتماعات غير القانونية. وتم تغريم أولئك الذين تلقوا قربانه المقدس في منزله مائة دالير فضي لكل منهم. وبما أن معظم المخالفين كانوا بلا مال ولم يستطيعوا الدفع، جرى استبدال الغرامات بأحكام سجن، وقضى كل منهم ثمانية وعشرين يوماً على الخبز والماء.

ستة من المدانين —الجندي السابق بيل، الخادمة سيسا سفينسدوتر، والجيران الأربعة، عادوا إلى رعية الكنيسة بعد قضاء أحكامهم. وقد عبروا للقسّ بروسندر عن ندمهم العميق وتوبتهم عن أخطائهم. وبما أنهم اعترفوا مرة أخرى بالدين الوحيد الصحيح والصائب، تم قبولهم في العشاء الرباني مع بقية الجمع.

فقط أولريكا من فوسترغوهل وابنتها بقيتا في كاراغاردي لاتباع تعاليم سيدهما. وبحكم محكمة المقاطعة، تفرق شمل سرب دانجل الصغير. ولم يأت إليه أتباع آخرون. لقد أُجهض خطر العقيدة الآكيّة في الأبرشية —بعون من الله، وبمساعدة السلطات الدنيّوية.

صندوق أميركا

١

مر عام كامل، أعد خلاله كارل أوسكار وكريستينا التحضيرات لهجرتهم، شاعرَين كما لو كانا جاهزين للانتقال. كان هناك الكثير لعمله والتفكير بشأنه، بحيث لم يتمكنا من الإغراق في الحزن على ابنتهما الراحلة.

وطلب كارل أوسكار أن يُعلن من على منبر الكنيسة أن مزرعته معروضة للبيع. وسرعان ما انتشرت الأخبار في كل الأبرشية عن أن المزارع في كور أاموين ينوي الرحيل عن البلد، ويريد الهجرة إلى أميركا الشمالية، مصطحباً معه زوجته وأطفاله، وأخاه الوحيد. ودار حديث كثير في القرية عن هذه المغامرة المتوقعة. منذ متى جاءته الفكرة المدهشة؟ وقد حمل الفلاحون الأكبر سناً وأصحاب العقل الرصين أسئلتهم وأتوا إلى كارل أوسكار في باحة الكنيسة في أيام الأحد. ولشخص أصغر منهم سناً، يمكنهم التحدث مثل أب لابنه، وتمنوا الآن —وبأفضل النوايا— ثنيه عن مسعاه؛ كيف يمكنه أن يتخلى عن مزرعته، ومنزل والديه الذي يملك حجّته، ويذهب إلى أرض في أميركا الشمالية البعيدة، الأرض التي لم يرها هو ولا أيّ أحد آخر؟ ألم يكن ذلك يشبه محاولة الإمساك بشعاع الضوء في صباح ضبابي؟ بدا لهم المشروع صعباً وقاسياً؛ سوف يدخل لعبة خطرة، يمكن أن يكسب منها القليل، لكنه سيخسر كل شيء؛ هذا ما يجب أن يقولوه له باعتبارهم مزارعين أكبر منه سناً وأكثر خبرة. ولم يكن الأمر أنه أُجبِر على التخلي عن مزرعته. وقد ذهب الشريف إلى العديد من المزارع هذا العام، لكنه لم يأتِ بعد ليأخذ أي شيء كرهن من كورباموين. وكان الكثيرون يعانون من ضغط أكبر في مزارعهم منه، ومع ذلك ظلوا في الوطن.

أجاب كارل أوسكار معتداً أنه يتصرف بناء على رأيه الخاص، وبعد تفكير

طويل. وقد فهم جيداً بما يكفي أن مزارعاً فلح أرضه لما يقارب خمسين عاماً ربما يعتقد أنه أكثر حكمة بعشر مرات منه، هو الذي أدار كورباموين لخمس سنوات فقط. ولكن، هل كسب أحد الحكمة من العيش في نفس المكان والتسكّع في نفس الأخاديد كل حياته؟ وإذا زادت حكمة المرء لأنه بقي كل حياته في نفس البقعة التي ولد فيها، فإنه ينبغي أن يمتلك أكبر مزارعي الأبرشية سناً الآن حكمة أكثر من الملك سليمان نفسه. لكن الحقيقة هي أن معظمهم كانوا حمقى.

وقد اعتُبر كارل أوسكار مختالاً ومتغطرساً عندما رفض نصيحة جيرانه الطيبة. وقد اعتُبرت هجرته توبيخاً، بل وحتى إهانة للأبرشية ككل ولكل فرد فيها شخصيا: لم يكن المجتمع والناس هنا جيدين بما يكفي بالنسبة إليه. وتذكّر الناس القصة القديمة عن أنف نيلسا؛ لقد نتأ أنف كارل أوسكار كثيراً بحيث لم يعد يستطيع أن يستدير في الأبرشية. بل إن السويد كلها لم تكن كبيرة بما يكفي لتسع أنفه —يجب أن يسافر إلى بلد أكبر، بعيد جداً في العالم، من أجل أن يكون مستريحاً. وأطلق أحد الظرفاء قولاً سرعان ما انتشر في القرية بأسرها: عندما يصل كارل أوسكار إلى أميركا الشمالية، فإن وجهه سيكون طويلاً جداً.

ربما ظن نفسه شخصاً عظيم الشأن بحيث يستطيع أن يحتقر المجتمع في وطنه؟ وخمّن آخرون وجود خلل في عقله؛ لقد أخذه هاجس العظَمة. إن مثل هذه الأفكار لا تناسب مزارعاً يمتلك مزرعة مساحتها جزء من ستة عشر.

وقد عرف كارل أوسكار أن الناس يتهكمون عليه ويتحدثون عنه بشكل سيئ من وراء ظهره. لكنه لم يتكلف عناء الغضب؛ فبعد كل شيء، حاول أن يسعد نفسه، وليس الآخرين. إنك إذا أمضيت حياتك وأنت تقلق بما يقوله الآخرون ويظنونه، فإنك لن تنجز الكثير في حياتك. خارج بيته، كان الجميع ضد مشروعه المقترح؛ وحتى في داخل بيته، كانت زوجته فقط هي التي تسانده؛ لكنها كانت الشخص الوحيد الذي يحتاج أن يكون إلى جانبه. كان والداه ضده، ولو أنهما ظلا صامتَين. ينبغي أن يفي بحقوقهما المحفوظة الآن شخص خارجي، ولم يكن هذا يروق لهما.

في مرة واحدة فقط وبّخ نيلس ابنه بهدوء: «إنك تأخذ الكثيرين معك.»

«سوف يكون هناك ستة منا.»

«إنك تأخذ آخرين كثيرين. نسلك سيكونون أكثر عدداً مما تدرك.»

ولم يُجب كارل أوسكار. وشعر بالحزن الناجم عن أخذه العائلة من بلدها إلى أرض غريبة.

«إنك لم تطلب رأي الأولاد ولا الأحفاد،» أكمل والدُه.

«يجب أن أكون الشخص الذي يتحمّل المسؤولية. إنني أفكّر فعلاً بأولادي.»

جلس نيلس في مقعده، وأصابعه تدير مقبض عكّازه البالي؛ وأجاب بخفوت: «أنا أيضاً أفكر بأولادي.»

ولم يكن له سوى ولدين.

وفهم كارل أوسكار والده، الذي كان يسأل نفسه الآن عن أيّ فائدة جناها من استصلاح هذه الأرض هنا في كورباموين، عندما لم تعد هذه الأرض الآن جيدة بما يكفي لابنه نفسه. تلك السنوات الخمس والعشرين من معاركة الحجارة تبدو له الآن نضالاً عبثياً بلا طائل، وهي التي لم تفد أيّاً من ابنيه.

وظنت أمه أن كارل أوسكار يعرض جحوداً آثماً بعدم قبوله بقسمته هنا في الوطن. إنه لم يفعل شيئاً خاطئاً، ولم يكن يدفعه سوط للهروب من البلد. لكنها لم تهدر هي ولا نيلس الكثير من الوقت في محاولة إقناعه —كانا يعرفان كارل أوسكار. وقد تحولا إلى الله القدير بالصلوات علّه يغير رأي ابنهما ويجعله يتخلى عن رحلته الأميركية.

ومرّ الوقت —وانقضى صيف، وخريف، وجاء الشتاء مرة أخرى. واستنتج نيلس ومارتا أخيراً أن لدى الله سبباً سرياً في هجرة ابنهما وكنتهما إلى الولايات المتحدة لأميركا الشمالية.

٢

عاد روبرت إلى البيت لقضاء «أسبوعه الحر» بعد سنة من الخدمة عند والدَي كريستينا في دوفيمالا، حيث عومل جيداً ولم يتلقّ أيّ عقاب. ولم يعتقد أحد أن الشريف سوف يبحث عنه بعد الآن، وبقي في منزل والديه؛ سوف يحتاج كارل أوسكار إلى أخيه خلال هذه السنة الأخيرة في المزرعة.

ومع روبرت، انتقل «الولايات المتحدة» أيضاً إلى كوخ المزارع. من كتابه «الوصفي» عرف كل شيء عن الأرض الجديدة. قبل وقت طويل كان قد حفظ

على الجهة الأخرى من المحيط وجعل نفسه وكأنه في بيته على الشواطئ القصية. وعلى الخارطة التي صنعها في عقله، وضع علامات على البحيرات، والأنهار، والسهول، والجبال في أميركا الشمالية، وكل الطرق، على اليابسة والماء. وقد أصرّ على أن لا يضيع في العالم الجديد بمجرد أن يصل إلى هناك، وعليه الآن أن يساعد أخاه وزوجة أخيه في العثور على طريقهما هناك. وكارل أوسكار أيضاً، شرع بقراءة كتاب أخيه، وفي كل يوم، حصل على معلومات جديدة من روبرت.

في أميركا، ترعى الماشية عشباً بارتفاع بطن الإنسان.

في أميركا توجد الخيول والثيران البرية بالآلاف، وهي تملأ الحقول ويمكن للمرء أن يمسك مائة منها في اليوم.

في أميركا سيكون من المستحيل على داود أن يقتل جالوت؛ ولو أنه بحث للأبد لما تمكن من العثور على حجر ليضعه في مقلاعه.

في أميركا يمكن للمرء أن يقول: «أنت» للرئيس نفسه، ولا يحتاج المرء أبداً إلى خلع قبعته له، إذا لم يرد المرء ذلك.

في أميركا، يمكن لأي رجل قادر وأمين أن ينتقل مباشرة من عربة الروث إلى العرش الرئاسي.

في أميركا توجد طبقة واحدة فقط؛ طبقة الشعب، وهناك نَبالة واحدة فقط —نَبالة العمل الشريف.

في أميركا لا توجد ضرائب ولا اختبارات في التعاليم الشفهية.

في أميركا لا تحتاج إلى دفع راتب راعي الكنيسة إذا لم تحبّ عظاته.

ويبدا كل ذلك أفضل من أن يكون صحيحاً، وخلال أمسيات الشتاء الطويلة، قرأ روبرت لأخيه وزوجة أخيه عن الطرق الغريبة المصنوعة من الحديد والمنتشرة في كل أنحاء الولايات المتحدة:

«في أميركا، يسافر المرء مسافة طويلة بمساعدة البخار وعربات البخار، لكن هذه تتطلب وجود طرق مبنية بطريقة مخصوصة، والتي تدعى الطرق الحديدية، أو السكك الحديدية. ويجب أن تكون مثل هذه الطرق شبه متساوية ومستوية عملياً. وعلى الطريق توضع ألواح متوازية من الخشب وإليها تُشدّ سكك حديدية تُستخدم لتوجيه العربة. وتوجد في داخل عجلات العربة حافة

تلتفّ على كامل الدائرة، وتُلزمها باتّباع السكة على الطريق.

«على مثل هذه الطرق، يسافر المرء بسرعة عظيمة، اثني عشر إلى ثمانية عشر ميلاً في الساعة، كلا، بل أسرع. وتُربط عدة عربات كبيرة معاً وتجرها عربة بخارية، أو تلك العربة التي يوضع فيها محرك البخار. وفي نهاية كل عربة، يوجد جسر صغير يمكّن المسافر من العبور من عربة إلى أخرى خلال الرحلة، في حال رغب التحدث إلى أحد المعارف. وتوجد في كل عربة «غرفة راحة» تجعل من غير الضروري مغادرتها، حتى خلال رحلة طويلة.

«هذه السكك الحديدية، حيث يستطيع المرء أن يتمتع بمساعدة البخار برحلة مريحة ومُلهِمة، أصبح طولها الآن في الولايات المتحدة ٨,٠٠٠ ميل...»

قالت كريستينا: «سيكون من الممتع أن يركب المرء عربة لا تجرها الحيوانات.»

وكانت تستمتع بركوب كل أنواع المركبات، وعلى الرغم من سنّها، فإنها ما تزال تحب أكثر من كل شيء التأرجح على حبل. وقبل بضعة أيام فقط كان كارل أوسكار قد فاجأها في حظيرة الدِّريس، حيث ربطت مرة أخرى حزام الثور في عوارض السقف وجلست راكبة على الأرجوحة.

والآن، أصبح لديها شيء تتساءل عنه: «كيف يمكن أن يوجهوا العربات عندما تنغمر الطريق الحديدة بالثلج في فصل الشتاء؟»

«لا أعرف،» قال روبرت. «ربما يضعون العربات في الإسطبلات خلال الشتاء.»

وقال الكتاب أيضاً إن عربات البخار لا تستخدم في أيام الأحد. إذ يكون السائقون في الكنيسة، بطبيعة الحال؛ وربما يحتاج البخار أيضاً إلى الاستراحة لاستجماع قوته.

«أتساءل عن طرق الحديد،» قال كارل أوسكار. «إنها تظل بلا حراس في البريّة، ليلاً ونهاراً. ألا يقوم أحد بسرقة الحديد؟»

فقال له روبرت بابتسامة واسعة، إن هناك وفرة في الحديد في أميركا بحيث أن أحداً لا يعبأ حتى بمقدار برادة منشار. ويسري الأمر نفسه على الذهب والفضة. لماذا يسرق الناس ويذهبون إلى السجن عندما يكون لديهم أكثر مما يحتاجونه من كلّ شيء؟ في أميركا، من السهل على المرء أن يتعلم كيف

يكسب عَيشه بشرف، بحيث لا شيء يغوي المرء بعدم الأمانة. هناك، يتم إعدام اللص مباشرة، حتى قبل أن يتسنّى له الوقت ليعترف بجريمته. ولذلك، أُعدِم كل اللصوص الآن في ذلك البلد. ويكذب جماعة الطبقة العليا هنا حين يقولون إن أميركا مليئة بالسارقين والقتلة والشرّ، بينما يقطنها في الحقيقة أكثر الناس أمانة واستقامة في العالم كله.

«لا بدّ أن يكون لديهم أوغاد في بعض الأحيان هناك أيضاً.» قال كارل أوسكار.

اعترف روبرت بأن الأمر ربما يكون كذلك، لكنّه أصرّ على أنّهم يُعدمون الناس السيئين هناك أسرع بكثر مما يفعلون هنا في الوطن.

وتمنى كارل أوسكار أن يستقر في ذلك الجزء من البلد حيث تكون التربة هي الأكثر خصوبة. وقد قرأ روبرت أن أفضل المناطق للمزارعين توجد حول النهاية العليا من نهر المسيسيبي العظيم، وروافده. كان هذا الحيّ خصباً، صحياً، وغنياً بالغابات والجبال الجميلة، والأودية وينابيع المياه. والعشب هناك بالغ الوفرة حتى أن بوسع الرجل أن يقطع ويحصد من العلف في يومين ما يكفي لإطعام بقرة كامل فترة الشتاء، وفي ثلاثة أيام ما يكفي لإطعام حصان. وقد كسب أحد المزارعين الذين يفلحون الأرض على شواطئ المسيسيبي في خمس سنوات ملء مكيال حنطة من الذهب.

لم تُرِد كريستينا أن تقطن في مكان تعيش فيه التماسيح. وقد قرأت مؤخراً في صحيفة قصة مرعبة عن عائلة مستوطنين في أميركا، كانوا يقضون الليل في كهف حيث تعشش التماسيح. وقد ابتلع التمساح الزوجة العجوز لتوه: كان رأس المرأة المسكينة ما يزال ظاهراً من فم الوحش الذي اختنق واستلقى هناك ميتاً؛ وكانت الأرض مشبعة بالدم البشري. ولم تستطع كريستينا أن تنسى الأم المسكينة وهي تشاهد التمساح يأكل أولادها بينما تنتظر دورها. لكن المرأة انتقمت بالطبع بخنق الوحش برأسها نفسه.

ولم يكن روبرت قد قرأ أبداً عن تماسيح تأكل الناس في أميركا؛ لا بد أن تكون تلك القطعة في الصحيفة كذبة؛ لا بد أن يكون دوق أو كونت هو الذي نشرها ليثني الناس البسطاء عن الهجرة.

آرفيد، الذي قابله روبرت مرة أخرى، كان خائفاً أيضاً من الوحوش البرية

في أميركا. وكان قد اضطر إلى ترك خدمته في ناياباخِن؛ لم يرغب آرون الاحتفاظ بخادم يُدعى بالثور. وقد ماتت السيدة العجوز، لكن آرفيد ظل واثقاً أنها ستعود إليه في غرفة الإسطبل، متهمة إياه بأنه حاول قتلها —وهو ما كان صحيحاً في الحقيقة— ولذلك رحل غير نادم. لكنه سأل في الكثير من المزارع قبل أن يعثر على عمل؛ كان معروفاً في كل مكان بأنه «الثور من ناياباخِن». وأخيراً استأجره دانجل صاحب كاراغاردي، الذي لم يتمكن من العثور على عامل آخر هذا الشتاء. وقد أصبح جميع الخدم خائفين من المكان الآن، الذي انتقل إليه الشيطان. ورأى الناس الشيطان الشرير متعلقاً بمؤخرة عربة دانجل بينما يقودها على الطرق؛ بل إنهم رأوه أحياناً يحتل المقعد بجوار السائق، ضاحكاً ومسروراً. لقد أصبح الشيطان الآن هو السيد الحقيقي لتلك المزرعة.

كان آرفيد يدّخر كل قرش من أجوره من أجل نقله إلى أميركا. ولشهر كامل، لم يشترِ أي برانفين. وقبل وقت طويل من تلقيه التأكيد الكَنَسيّ، تعلم استنشاق السعوط (ولو أنّه لم يكُن يُفترض في الأولاد أن يستخدموه قبل المشاركة في العشاء الربّاني)؛ سوف يوفر ثلاث داليرات سويدية إذا توقف، وسيساعده ذلك قليلاً في الطريق إلى أميركا. لقد أدرك أن عليه التخلي عن بعض الأشياء في العالم القديم حتى يتمكن من الانتقال إلى العالم الجديد؛ ولذلك رمى صندوق سعوطه في كومة روث.

لكن التخلي عن الصندوق كان صعباً على آرفيد. كان رفيقه الطيّب، وقد حمله في جيبه واستمتع بمحتوياته. كان رفيقاً مخلصاً في العمل والوحدة. وأصبح صندوق السعوط صديقه الوحيد بعد رحيل روبرت. والآن، ألقى به بعيدا —في أعماق كومة روث. وشعر بألمه بقوة كلما استخرج الآخرون صناديقهم واستخدموها دون أن يعرضوا عليه حفنة صغيرة: عندئذ، كان يستدير مبتعداً ليهرب من مشهد المزيج المنعش.

واعترف لروبرت بأنه اشترى بعد ثلاثة أسابيع من المعاناة صندوق سعوط جديداً. ومرة أخرى اشترى نصف غالون من البرانفين كل ليلة سبت. ولأنه أدرك أخيراً وبوضوح أنه لا يحق للمرء أن يعامل جسده الذي منحه له الله وفقاً لإرادته الخاصة؛ ليس له الحق في تعذيبه وابتلائه وحرمانه من المتع؛ فإن المرء لا يجب أن يعامِل جسده مثل كلب، ويحرمه حتى من السلوى التي يجلبها السعوط.

هل يمكن بأيّ حال أن يتبعه آرفيد في الطريق إلى أميركا؟ لم يعتقد روبرت ذلك؛ على ما يبدو. إنه لم يستطع، خلال سنة ونصف السنة، توفير حتى دالير واحد؛ ولن يكون طوال حياته كلها قادراً على توفير مائتي دالير.

أما في كورباموين، فإنّ كُلّ شيء يرَتَّب الآن ويُوضَع في مكانه.

الذي كان ذات مرة صندوق ملابس عائلة نيلسا القديم —المصنوع من خشب البلوط والمدهون باللون الأسود— سُحِب من مكانه في زاوية العلية المليئة بشباك العنكبوت، وحُمل إلى الأسفل ووُضِع في المطبخ من أجل تفقده وإزالة الغبار عنه. لم يعرف أحد كم يبلغ عُمر هذا الصندوق وكَم هو قديم —لقد امتزجت الأيدي التي صنعته بتراب ساحة الكنيسة قبل عدة مئات من السنين. وقد انتقل من الأب إلى الابن عابراً عدة أجيال. وعهد إليه أكثر من عريس شاب بمقتنياته الثمينة بعد وليمة العرس، وأكثر من مرة أحضرت نساء المزرعة منه أغطية الزفاف كلما كانت هناك جثة في البيت يتوجب تكفينها. وتحت غطاء الصندوق، ظلت الأشياء الثمينة تختفي في مكانها السري؛ وقد رفعت هذا الغطاء أيدي العجائز الراعشة، وأصابع الفتيات الشابات الفتيّات. ولطالما قارَبه الناس أكثر ما يكون في أحداث الحياة العظيمة: مناسبات التعميد؛ حفلات الزفاف، والجنازات. وقد تبعت هذه القطعة من الأثاث العائلة عبر القرون، وأخيراً دُفِع بها إلى زاوية مظلمة في علّيّة حيث بقيت طويلاً دون أن يقلق راحتها أحد. والآن، أُخرِجَت إلى ضوء النهار مرة أخرى؛ إنها أوسع وأقوى وعاء تخزين أمكنهم العثور عليه —خمسُ أقدام طولاً وثلاثُ عرضاً، وهو مشدود بعصابات حديدية بعرض ثلاث أصابع.

في عمره الكبير هذا، يجب أن يذهب صندوق ملابس عائلة نيلسا خارجاً إلى العالم ويسافر.

وقد فُحِصت مفاصله، واجتازت ألواح خشب البلوط التي ما تزال سليمة الاختبار. وقد نُظف داخله، وكُشط الصدأ القديم عن المفصلات وأغطية ثقوب المفاتيح. وبعد نسيان طويل بلا نهاية، حظي هذا الشيء الثقيل الأخرق بالتشريف مرة أخرى، على غير توقع. ومن منفاه في ظلام العلية، شُرِّف الآن بالمكان المقدم في المنزل. كان الصندوق نصفَ منسيّ، ومرت سنين دون أن يفتح غطاءه أحد؛ والآن أصبح أكثر قطع أثاث الأسرة تقديراً، والوحيدة التي

ستر افقهم في رحلتهم.

كان على جدران البلوط الأربعة لهذا الصندوق أن تضم وتحفظ خلال آلاف الأميال حاجاتهم الأساسية؛ إلى هذه الألواح سوف يُعهد بمعظم مقتنياتهم. مرة أخرى أثبت القول المأثور «القديم هو الأفضل والذي يعتمد عليه» صحته. حتى أنّه أعطي لصندوق الملابس العتيق الموشك على العبور إلى حقبة جديدة ونهائية كليّة من تاريخه اسمٌ جديد في سِنّه الكبيرة. وباسمه الجديد، فُصِل تماماً عن نظرائه وعن كل المقتنيات الأخرى. أصبح يدعى «صندوق أميركا،» أول شيء يُدعى بهذا الاسم في المنطقة كلها.

٣

ذات ليلة، أيقظت كارل أوسكار ضجة قادمة من الخارج. واستيقظت كريستينا أيضاً وسألت: «ماذا يمكن أن يكون؟»

واستمع. «شيء على الباب.»

والآن سمعا كلاهما الطَّرق.

«مَن يمكن أن يكون في هذه الساعة من الليل؟»

«سأذهب وأرى.»

ارتدى كارل أوسكار بنطالة وأشعل عوداً من القير لينير طريقه إلى مدخل القاعة. وقد استيقظ روبرت أيضاً، وجاء من المطبخ حيث ينام. وسأل بذعر عما إذا كان يحتمل أن يكون القادم هو الشريف...؟ فقد سرت إشاعات بأن آرون من نايباخن كان ما يزال يحث الشريف على الإمساك بعامله الهارب.

«سوف أحذرك قبل أن أفتح،» طمأنه أخوه.

لكن لم يكن هناك شريف شرس ومخيف ليجيب عن سؤاله عندما استعلَم عمّن كان يدقّ الباب؛ كان صوتاً لطيفاً وودوداً ـــ دانجل من كاراغاردي كان يقف على العتبة.

«ليغمر الله بيتك بالسلام، يا كارل أوسكار.»

وشعر روبرت بالارتياح؛ لكنه أحسّ بالفضول.

وكارل أوسكار، الذي فاجأته هذه الزيارة المتأخرة، أدخل قريب زوجته إلى البيت. وفي ضوء عصاه المشتعلة نظر إلى ساعة الجد في الزاوية: كانت تشير

إلى الثانية عشرة والنصف. لا بدّ أن شيئاً خطيراً قد حدث.

أحسّت كريستينا بالسعادة والقلق معاً؛ وأسرعت ناهضة من سريرها وارتدت تنورتها وسترة الليل؛ وأخذت يد خالها وانحنت أمامه. وسحب كارل أوسكار مقعداً لنفسه وجلس عليه. ينبغي أن تكون مأموريته عاجلة، وانتظروه حتى يقولها على الفور، لكنه تصرف كما لو أنه ليس في عجلة من أمره. وكالعادة، كان بطيئاً وهادئاً في حركاته.

تذكرت كريستينا أن إنجا—لينا قد وضعت طفلة قبل فترة قريبة جداً، وكانت مريضة جداً وقتها.

«هل حدث شيء سيئ في البيت؟ ربما لعمتي؟»

«كلا. الزوجة والطفلة كلاهما بخير.»

لقد ولَدت له إنجا—لينا طفلة منذ أصبح زواج الاثنين زواجاً حقيقياً مرة أخرى.

وازداد فضولها. لماذا أزعجهم دانجل في هذه الساعة المتأخرة إذا لم يكن شيء خطير قد وقع؟

«هل حدث...؟»

«لدي رسالة لك، يا كارل أوسكار.»

«رسالة؟»

«نعم.»

«ممَّن؟»

«من الله.»

«من الله؟»

تبادل كارل أوسكار وكريستينا نظرات سريعة.

«أيقظني الربّ الليلة وقال: 'اذهب إلى كارل أوسكار في كورامون، زوج ابنة أختك المحبوبة'.»

نظر كارل أوسكار أقرب إلى دانجل، لكنه لم يجد أي علامة على الهياج أو المشاكل في ملامح وجهه؛ لم تكن عيناه محمرتين مثل وجه المجانين.

«الآن، عليك أن تصغي يا كارل أوسكار. لقد جئت بأمر من الله.»

تسلل روبرت إلى الغرفة وجلس في زاوية قرب الموقد، مستمعاً إلى

الرسالة التي جلبها الفلاح من كاراغاردي.

ومضى دانجل في حديث، وبدا وكأنه انتقى كلماته بعناية من الإنجيل.

«في الليلة الفائتة، قال لي الربّ، دانجل أندريسون، كما قال ذات مرة لإبراهيم: 'اخرج من بلدك، فارق أقاربك، وتوجّه إلى أرض سأدلك عليها.'»

«وحثني الروح القدس على البحث في سفر التكوين، الفصل الثاني عشر، الآية الأولى، وأطيع الكلمات المكتوبة هناك. ونهضت من سريري وأشعلت شمعة وقرأت. ثم سألت: 'كيف سيحدث هذا؟' والليلة أعطاني الروح القدس الجواب: 'اذهب إلى كارل أوسكار في كورباموين. وهو سيرشدك ويساعدك.'»

هل فقد دانجل عقله تماماً؟ تساءل كارل أوسكار وكريستينا. كانت تصرفاته هادئة وعيناه مسالمتين ولطيفتين. وكانت كلماته غريبة، لكنها غير مضطربة، وقد تراكبت معاً بالتدريج واتخذت معنى؛ وسرعان ما استطاعا تخمين مأموريته.

لقد صالح القسيس الكثيرين من الآكيين مع الكنيسة مرة أخرى، لكنه لم يستطع أن يعيد دانجل إلى جادّة الدين الصحيح. وفي جلسة محكمة المقاطعة في الخريف، وُجهت إليه جريمة أخرى، وغُرِّم مرة أخرى على التبشير بهرطقته. ولكن، وبغض النظر عن أحكام المحكمة في جلستي استماع، فقد استمر بلا خوف في إقامة اجتماعات الإنجيل وقيادة القربان المقدس في بيته. ومرة أخرى هذا الربيع، استُدعي للمثول أمام المحكمة بسبب جريمة ثالثة، وكان الناس واثقين من أن دانجل سوف يُنفى هذه المرة.

وصفقت كريستينا بيديها فرحاً. «خالي، هل أنت قادم معنا إلى أميركا؟»

نهض دانجل وسار إلى ابنة أخته، ووضع يديه على كتفيها، كما لو كان يباركها. «إنني أعيش في زمن اضطهاد في أرض آبائي. أنا ممنوع من الاعتراف لربي. لكن الله سوف يفتح لي أرضاً جديدة.»

«تعني أمريكا يا خالي؟»

«نعم، هكذا أمر الله: سوف نرحل إلى هناك معاً. ولن يخاف أحد؛ إنه معنا. إنني أجلب ربّي معي.»

نسيت كريستينا أنها خافت منذ لحظة أن يكون زائرهم المتأخر مجنوناً.

والآن أصبح خالها العزيز فقط، الذي تعرفه جيداً. عندما كانت طفلة صغيرة وكان يزور بيتهم، كان يجلب لها دائماً في جيوبه قوالب السكر؛ وهو ما يزال طيباً جداً معها، وقد ساعدهما مرتين في دفع فوائد الرهن. ومن دون مساعدته، فإنهما ربما لم يكونا يملكان المزرعة اليوم. لا أحد يستطيع إقناعها بأن خالها شخص شرير وخطير يجب أن يُنفى. يجب أن تبقى أفكاره الغريبة في الدين دون تدخل —إنه لا يؤذي بها أحداً غير نفسه.

منحتها معرفتها برغبة دانجل مرافقتهم في الرحلة الطويلة إلى أميركا شعوراً بالأمان، وهي رحلة ما تزال تقلقها بينها وبين نفسها. وشعرت تقريباً وكأن والدها نفسه هو الذي سيذهب معهم.

الآن، يجب أن تعدّ القهوة لخالها، من الكمية القليلة التي تبقت من القهوة التي اشترتها من أجل عيد الميلاد المجيد. حركت النار في الموقد، وغسلت بقايا القهوة القديمة من الركوة، ووضعتها على المنصب فوق النار.

لم يكن كارل أوسكار مسروراً مثلها إزاء احتمال مرافقة دانجل والآكيين؛ فكّر بأن خصوصيتهم الدينية ربما تتسبب في حالات إزعاج ومتاعب. وعندما علمت كريستينا أن دانجل سوف يأخذ معه أولريكا من فوسترغوهل وابنتها —اللتين أصبحتا الآن أتباعه الوحيدين من خارج العائلة— فقدت هي أيضاً شيئاً من حماسها. لم تصدق أن العاهرة العجوز أصبحت إنساناً جديداً، يجب فصل الناس المحترمين عن رفقة أمثال أولريكا. وأملت بأن تثني خالها عن دفع أجرة عبور تلك المخلوقة.

أما دانجل، فقد أنجز مهمته: سوف يقوم كارل أوسكار —وفقاً لوصية الربّ— بمساعدته في العثور على طريق إلى الأرض التي سيفتحها الرب لرسوله المنفيّ.

وسواء كان الله قد أمر بذلك أم لا، فقد كان كارل أوسكار راغباً في مساعدة دانجل في العثور على طريقه. وإلى جانب ذلك، كان مديناً له بمساعدته في دفع القرض، وكان مستعداً لمساعدته في المقابل.

استيقظ هارالد، الرضيع الذي في السنة الأولى من عمره، وشرع في

البكاء. واضطرت كريستينا إلى الجلوس وحمله بين ذراعيها لتهدئته؛ واهتم كارل أوسكار بأمر القهوة بينما يتحدث مع دانجل عن العبور إلى أميركا الشمالية.

إن الربيع هو الفصل المفضل للهجرة: من ناحية لأن عواصف الشتاء تكون قد انتهت ويصبح الطقس في البحر أقل برودة، ومن ناحية أخرى لأنهم سيصلون إلى مكان استيطانهم في وقت مبكر بما يكفي من فصل الصيف للفلاحة وغرس البذار؛ يجب أن يحصلوا على حصاد في الخريف للوفاء باحتياجاتهم في الشتاء. ويجب أن يبدأوا رحلتهم في بواكير نيسان. وكان كارل أوسكار وروبرت قد كتبا فعلاً إلى مؤسسة في كارلسنهامن، وتلقيا وعداً بالعبور على سفينة تدعى تشارلوتا. وطلبت المؤسسة منهما عربوناً بقيمة مائة دالير سويدي لقاء نقل ستة أشخاص، وأرسلا إليها النقود. كانت سفينتهم سفينة تجارية تُبحر بالمهاجرين والبضاعة. ويجب عليهم الذهاب إلى كارلسنهامن في حدود الأسبوع الثاني من نيسان. وسوف يبحرون إلى بلدة نيويورك في أميركا الشمالية، من دون الرسو في أي ميناء على الطريق —الأفضل هو الإبحار مباشرة. وقيل إن تشارلوتا سفينة قوية وجيدة، يقودها قبطان أمين ومستقيم لا يغش مسافريه.

والآن، سوف يكتب روبرت من أجل دانجل ويحصل على عقد لعبوره أيضاً، إذا كان في السفينة متسع للمزيد.

«كم سيكون هناك منكم من كاراغاردي؟»

فكر دانجل لبرهة. «تسعة —بمن فيهم الأولاد وجماعة المنزل.»

«هل ستأخذ عامل مزرعتك على السفينة أيضاً؟»

«آرفيد؟ نعم، لقد وعدته.»

«حسناً. ربما يساعدك ويفيدك في أميركا.»

استمع روبرت وابتسم بينه وبين نفسه؛ لقد تنبأ بمأمورية دانجل، ولم يكن متفاجئاً كثيراً بها كما فعل كارل أوسكار. فبالأمس، قابل آرفيد، الذي أسرّ إليه، بعد وعود بالكتمان، بعرض سيده؛ وذرف دموع الفرح.

مثلما غادر إبراهيم عندما كان في الخامسة والسبعين مع كل أهل بيته

خارجاً من حران إلى أرض كنعان، هكذا يفعل أيضاً مالك المزرعة دانجل أندريسون في سن الخامسة والأربعين عندما يغادر مع كل جماعة بيته من السويد إلى أميركا الشمالية. وقد عرف روبرت قصته الإنجيلية: لم يكن للنبي إبراهيم أولاد لأن زوجته سارة كانت عاقراً مثل سيدة نايباخِن، وقد أخذ معه العديد من الأرواح التي كان يطعمها في منزله، تماماً مثل دانجل. كان إبراهيم يخشى أن يُقتل في الأرض الغريبة بسبب زوجته الجميلة؛ ولذلك عبر بها على أنها أخته. كان جباناً؛ ولن يتصرف دانجل أبداً على هذا النحو. بطبيعة الحال، لم تكن إنجا—لينا امرأة جميلة؛ ومن الصعب افتراض أن أميركياً سيقتل دانجل من أجل أن يتزوج امرأته.

بيعض الطرق، بقي أمر الله بخصوص الهجرة ضبابياً؛ من الصعب أن يكون قد أشار إلى الولايات المتحدة عندما تحدث عن تلك الأرض في الآية الإنجيلية، لأن كولومبوس لم يكن قد اكتشف أميركا بعد أيام إبراهيم. يجب أن يكون دانجل قد أخطأ الفهم، لكنها لن تكون هناك فائدة من تصحيح المعلومات، فكر روبرت. لقد سمع دانجل أن كارل أوسكار سوف يهاجر، وأراد أن يهاجر معه بما أنه سيُنفى على أي حال. والآن، اعتقد أن الفكرة هي أمر من الله. لكنه كان صادقاً بلا شك في اعتقاده الخاطئ.

«سأكتب بشأن العبور غداً.» وعده روبرت.

وعندما تحدثا أكثر، اندهش لقلة ما يعرفه دانجل عن أميركا؛ كان الفلاح من كاراغاردي عارفاً بكلمة «أميركا» فقط. وهو يعرف فقط أنه اسم قارة أخرى. لم يكن قد سمع بالولايات المتحدة، ولم يعرف حتى أين تقع تلك القارة. لم يعرف عن ناسها، وحكومتها، ومناخها، وزراعتها، أو وسائل العيش فيها. إن دانجل في حاجة إلى تنوير، وبينما يجلسون حول المائدة ويشربون قهوتهم، حاول روبرت أن يتقاسم معه معرفته الخاصة بالبلد الذي سيستقرون فيه.

تقع الولايات المتحدة إلى جنوب غرب السويد. وللوصول إليها، يجب أن يبحر المرء عبر البحر الذي يبلغ عرضه حوالي أربعة آلاف ميل. وبرياح طيبة وسفينة سريعة، ربما يعبر المرء في غضون خمسة أسابيع. لكن الريح في المحيط تكون غربية في الغالب لسوء الحظ، وتهب مباشرة بعكس وجهة

السفينة، وبذلك يتطلب العبور ثمانية إلى تسعة أسابيع. وفي بعض الأوقات، ربما يطول هبوب الرياح الغربية بحيث تمر ثلاثة أشهر قبل الوصول إلى أميركا.

استمع دانجل بصبر وابتسامة طيبة للولد في السابعة عشرة؛ وقد جلس الولد مثل أستاذ مدرسة يعلم تلميذاً ناضجاً. وحك الفلاح لحيته، مزيلاً الفتات العالقة فيها، وقال بقناعة: ليس عليهم الخوف من الريح المعاكسة عند العبور؛ إن الله العلي القدير الذي أمره بالمغادرة سوف يتكفل بأن لا يؤخرهم الطقس. لن تهب سوى الريح المفضلة على أشرعتهم؛ وستحتاج سفينتهم إلى شهر فقط للإبحار إلى أميركا الشمالية. سوف يقصر الله بالتأكيد رحلتهم بقدر ما يستطيع.

تذكر روبرت انعقاد محكمة كونغا قرابة نهاية نيسان: سوف يكون دانجل خارج البلاد عندما يصدر عليه حكم الإعدام.

لقد دفع مزارع كارغاردي مبالغ هائلة من النقود كغرامات عقاباً على اجتماعات الإنجيل، ولم يستطع كارل أوسكار سوى القول: «ليس ذلك من شأني يا دانجل، ولكن لماذا لا تتوقف عن عقد الاجتماعات عندما تكون غير قانونية؟»

وعندها، نظر إليه دانجل مندهشاً. «أتوقف عن عقدها؟ أنا؟»

«حسناً... نعم. لن يفعل ذلك أحد آخر.»

«لكنك لا بد أن تعرف أنني أنا نفسي لم أعد حياً؟»

«ماذا تعني؟»

«آه.. ظننت أنك تعرف.»

«كلا. لا أفهم أي شيء مما تقول.»

«إنني لا أعيش في نفسي الآن —المسيح هو الذي يعيش فيّ.»

«لكنك أنت الذي تفسر الإنجيل.»

«كلا، كلا،» وابتسم دانجل بلطف وقال بطريقته الحليمة: «أنا نفسي لا أفعل شيئاً هنا أكثر من كوني جسداً. لأني لا أعيش الآن مثل السابق. لقد أخذ المسيح مكاني؛ وهو يفعل كل شيء من خلالي، وهو مسؤول عني. إنه هو الذي يقوم

بتفسير الإنجيل عبر فمي. إنني لا أحتاج إلى الخوف من أي شيء؛ ما الذي يعنيني بالمحاكم الدنيوية والقضاة؟ إنهم لا يستطيعون إيذائي؛ لا شيء يستطيع أن يؤذيني هنا في الجسد الذي لم أعد أعيش فيه.»

ارتبك كارل أوسكار وكريستينا، متسائلين عما حدث لعقل دانجل. وصبّت له كريستينا المزيد من القهوة؛ ولوهلة ساد الصمت حول المائدة.

استدار دانجل إلى كارل أوسكال. «أين تنوي أن تُمضي الأبدية؟»

كان ذلك سؤالاً غريباً، ولم يكلف كارل أوسكار نفسه عناء إجابته. فكر أن دانجل تحدث بما يكفي من الوضوح عن الأفعال الدنيوية، لكنه عندما تعامل مع الأشياء الروحية تحول إلى شخص غريب الأطوار؛ وليس ثمة فائدة من المجادلة معه.

ومضى الفلاح من كاراغاردي إلى القول: إنهم كلهم يجلسون هنا حول المائدة الليلة، كل أجسادهم الآثمة، ماتت على الصليب مع المسيح. وهو نفسه حمل جسده الميت والمتعفن لعدة سنوات، حتى سقط عنه ذات ليلة قبل سنتين، مثل خرقة قذرة، وانتقل المسيح إلى الداخل وحل محله. يجب أن يفهم أقاربه العزيزون أن الربّ المخلِّص لن ينتقل إلى دواخلهم ما داموا يحملون أجسادهم الآثمة، بقاياهم القديمة المتعفنة. يجب أن يفهموا أن المسيح لن يسكن فيهم قبل أن يولدوا من جديد، قبل أن يضعوا عنهم أجسادهم القديمة الكريهة. مَن الذي سيرغب العيش في بيت يفوح برائحة الجثث؟

لم يجب أحد عن هذه الخطبة المدهشة. ونهض دانجل فجأة عن المائدة، وقال إنه سيغادر الآن.

أراد روبرت أن يعلّمه شيئاً عن «العالم الجديد»؛ فهو يحتاج المعرفة عن الولايات المتحدة، كمهاجر. لكن دانجل قال إنه يشعر بأن الله سوف ينوره بخصوص تلك الأشياء في أميركا التي ستفيده معرفتها، قبل أن يبدأ رحلته.

وفكر كارل أوسكار، بينما يعود إلى سريره، أنه لم يعد الآن وحيداً في مغامرته التي تتعرض لنقد شديد. هناك الآن اثنان من أصحاب المزارع. كان دانجل يتخلى عن مزرعة أكبر بعدة مرات وأفضل كثيراً من كورباموين. وهذه

الفكرة جلبت السلوى.

بطبيعة الحال، ينبغي أن يعترف، بحزن، أنه اعتبر رفيقه غير متوازن بعض الشيء.

٤

هكذا حدث في تلك الأيام أن صندوقاً قديماً آخر، في عليّة أخرى، في مزرعة أخرى، جُرَّ، وفُحصَ، ونُظف من الغبار، ونُقِّي، وأصبح على ما يُرام —صندوق أميركا آخر؛ الثاني.

قبل شهر فقط من مغادرتهم المقررة، جاء يوناس بيتر من هاستيباك إلى كورباموين ذات مساء ليحذر روبرت: التقى جاره بالشريف لونينغيرن، الذي سأله عما إذا كان عامل المزرعة قد عاد إلى البيت. وقد أصر آرون صاحب نايباخِن على أن يُعاد خادمه إليه؛ ربما يحاول الصبي الهروب إلى أميركا عندما يغادر أخوه.

ولم تفاجئ هذه الرسالة كارل أوسكار، الذي عرف أن آرون ينطوي على عداوة كبيرة تجاهه. فلعدة دقائق، أوقع ذات مرة أكبر قدر ممكن من الرعب في قلب آرون؛ والآن سعت كراهيته إلى الانتقام من خلال روبرت: سوف يحاول مزارع نايباخِن أن يمنع هجرة الصبيّ.

قال كارل أوسكار إنه سيكون من الأسلم لروبرت لو يظل بعيداً عن قبضة الشريف خلال الأسابيع المتبقية.

وانهمرت الدموع من عينَي روبرت. كان خائفاً من الظهور على الملأ منذ عاد إلى البيت؛ وإلى جانب الهاربين الآخرين من الخدمة من الأبرشية، تلقى التقريع مؤخراً من على منبر الوعظ. فقد بشر الراعي بعظة عن «الخدم غير المخلصين» الذين هجروا سادتهم ووضعوا أنفسهم ضد تعاليم الرب؛ وقال إن عمال المزارع غير المطيعين هم لطخات عار في جبين المجتمع المسيحي. وشعر روبرت بالخجل الكبير حتى أنه لم يظهر أبداً في العلن، ولم يتحدث إلى أحد سوى آرفيد الموصوم هو الآخر، ولو بطريقة أخرى.

والآن قال إنه سيذهب إلى جدول المطحنة بدلاً من العودة إلى نايباخِن،

وهذ المرة لن تكون سترته وحذاؤه فقط. ربما يكون ذلك هو القدر الذي ينتظره فعلاً: عامل مزرعة غارق في جدول مطحنة.

وتحدث يوناس بيتر بطريقة معزّية: لم يرغب لونيغيرن بإيذاء أي شيطان مسكين؛ ومن المؤكد أنه سيبحث عن روبرت في بيته فقط. لم يكلف الشريف نفسه قطّ عناء القيام بما هو أكثر من الضروري بخصوص الهاربين. على روبرت أن يذهب معه إلى هاستيباك. هناك سيكون آمناً حتى يحين وقت المغادرة. «وأعدك بأن أخفيك إذا أتى الشريف،» أكد الجار لروبرت.

نصح كارل أوسكار أخاه بقبول العرض: «جفف دموعك واذهب مع يوناس بيتر!»

شعر بيتر بالخجل لأنه بكى، وهو الكبير كما هو، لكن قلبه آلمه لدى التفكير بهذه الفكرة: «لنفترض... لنفترض أنني لم أستطع الذهاب.»

وأطاع شقيقه وغادر مع الجار الخدوم.

جلس يوناس بيتر إلى طاولة العشاء في المطبخ في هاستيباك، ودعا روبرت للانضمام إليه. أخرج جرة البرانفين وصب كأسين طويلين متساويين لهما: لقد أصبح الصبي رجلاً الآن. وكان روبرت تواقاً لتناول كأس شراب، وربما اثنين أو ثلاثة، لأن البرانفين بدت وأنها تُسكت صوت الطنين في أذنه اليسرى، الذي ما يزال يُضايقه. لقد فقد سمعه كلية تقريباً في تلك الأذن، ومع ذلك ظل يسمع بها صوتاً لا يسمعه غيره. ربما لن يغادره أبداً، ربما سيطنّ هذا الصدى من لكمة آرون في أذنه طوال الحياة.

جاءت بريتا—ستافا، زوجة المزارع من حظيرة البقر حاملة دلاء حليبها الخشبية. كانت امرأة صعبة، ذات ملامح قاسية رجولية. وكانت هناك ظلال قاتمة لشارب لا تخطئه العين تغطي شفتيها، وخصلة من الشعر أيضاً على حافة ذقنها. المرأة التي لها لحية تثير الرعب بطريقة ما. كانت ليوناس بيتر لحية سوداء كثة، ومع ذلك لم يخف روبرت منه. لكن تلك الشعيرات النحيلة على ذقن الزوجة جعلته غير مرتاح؛ كانت خارجة على المعتاد. كل الأولاد كانوا يخافون من بريتا—ستافا.

وضعت دلاءها ونظرت إلى الصبي بتجهم. لكن النظرة التي نظرت بها بعد ذلك إلى زوجها كانت بالكاد متجهمة: كانت أكثر من ذلك —شريرة، مليئة بالكراهية. ولم يحاول يوناس بيتر أبداً أن يخفي حقيقة أنه يعيش هو وزوجته علاقة سيئة.

لقد شرب الرجل الجالس إلى المائدة بيرتهما. قالت بريتا سيلفا بحدة، وهي تنظر إلى روبرت: «لقد مرّت عربة الشريف تواً.»

«آه، نعم يا غلام، لقد ذهب إلى كورباموين. أترى يا بني؟ كنا محظوظين بعدم ملاقاته!»

فقد روبرت الاهتمام بالطعام، لكنه شرب البرانفين. كان الطنين في أذنه عنيفاً هذه الليلة، يكاد يصيبه بالرعب.

«كل يا غلام، لا تخف،» قال له يوناس بيتر مشجعاً. «لدي مخبأ آمن إذا جاء الشريف هنا وسأل عنك.»

انشغلت بريتا—ستافا بتصفية حليب المساء؛ وعندما سمعت بأن مرور الشريف ربما يتعلق بروبرت، أصبحت فضولية ونظرت إليه بتساؤل. وشعر بأنه غير مرتاح تحت نظراتها، ولم يستطع التوقف عن النظر إلى خصلة الشعر على ذقنها.

صب يوناس بيتر لنفسه المزيد من الشراب؛ وأصبحت عيناه تأخذان شكل نظرة فارغة.

«إن لونيغيرن شريف محترم،» قال. «حادّ في كلامه لكنه في الحقيقة شخص طيب. لقد عرفته منذ كان ولداً —إنه ابن 'العِقب مالك أوراناس.'»

«سمعت عن المزارع،» قال روبرت، غالباً ليقول شيئاً ما. «لماذا سُمّي بالعِقب؟»

«من أين حصل على اللقب؟ سوف أخبرك يا غلامي!»

نظر يوناس بيتر إلى جهة زوجته المنشغلة بأوعية الحليب؛ وقد أصبح الآن منتشياً من كل ذلك البرانفين.

«إنها قصة مدهشة. قصة عن امرأة شحذت سكيناً.»

وعند الكلمة الأخيرة، صدر صوت قعقعة من مصفاة الحليب. لقد قامت زوجة المزارع بحركة سريعة. كان المكان مظلماً تقريباً حيث تقف عند زاوية

الموقد، لكن روبرت لاحظ أن رأسها اهتز بعصبية لدى سماع كلمات زوجها.

ولاحظ أيضاً أن الزوجين لا يتبادلان أيّ حديث.

كان بيتر يوناس يعرف كل الأحداث التي وقعت في مقاطعة كونغا خلال المائة سنة الماضية؛ وهو الآن على وشك أن يخبر روبرت كيف حدث أن والد الشريف لونيغيرن دُعي بالعِقب.

قصة عن زوجة شحذت سكيناً

كان اسم عُمّاد مزارع أوراناس هو إسحق، بدأ يوناس. وكان معروفاً في كل مكان لأنه كان مجنوناً بالنساء، اللواتي كثيراً ما قُدنَه إلى الضلال. ولم يستطع أن يبعد يديه عن أي امرأة ذات شكل يكفي لأن ينام معها رجل. لم يكن يهمه كيف يبدو وجهها، إذا كانت مبقعة ومخددة بالجدري، أرنبية الشفة، ملفوفة الفم، أو بأي علة أخرى؛ كان إسحق يحاول إغواءها. وكان متزوجاً. وفي سرير زواجه نفسه كانت له زوجة ممتلئة حسنة المظهر ليلهو معها. لكن ذلك لم يقلل رغبته في زيارة أسرّة زوجية أخرى؛ ولم تكن النساء المتزوجات ولا العزباوات في مأمن منه. كانت له سطوة غريبة على النساء، ربما من الشيطان، وربما من مكان آخر. وكثيراً ما أوقعته زياراته للنساء المتزوجات في المشاكل مع الأزواج الغاضبين؛ وفي إحدى المرات كُسرت ذراعه وفي أخرى تحطم أنفه. لكنه ظل مثابراً مع ذلك، وكانت له نفس القوة حتى بعد أن تسطّح أنفه.

وكانت زوجته مفرطة الغيرة من النساء الأخريات، وهددته في كثير من المرات بأن تتركه؛ لكنه وعد وأقسم في كل مرة على أن يقصُر طرقه وعصاه على سريره الخاص. وقد حاولت أن تجد شفاء لشبقه الآثم بالخلائط التي كانت تمزجها وتعطيها له —عصائر من الجذور، عصائد من الأعشاب المرة من أجل تبريد دمه. لكنه مهما كان ما يأكله ويشربه، ظلت رغبة الزنا تمتلكه بنفس القوة كما هي دائماً.

ومع ذلك، كان هناك دواء واحد شاف له، وهو دواء مرعب وقاس، وقد استخدمته زوجته في نهاية المطاف.

ذات يوم، أخبرت عاملهم أنها تريد تريد شحذ سكين قطع: تريد أن تقطع

خرقاً قديمة. وقد صدقها، بالطبع، وشحذ السكين بينما كانت هي نفسها تدير حجر الشحذ.

وفي السرير ذلك المساء، سعى إسحق إلى زوجته كالعادة؛ وظل يتودد إليها ويعتني برغبتها بقدر ما أرادت، ولم يهملها أبداً بسبب النساء الأخريات. وبدت الآن راغبة أكثر من أي وقت مضى؛ ولم تكن لديه شكوك، المسكين. لم يعرف أن زوجته شحذت سكيناً وخبأتها تحت المخدّة.

وعندما أصبح الزوج جاهزاً، استخرجت سكينها وقطعت آلته، الجذر والغصن.

وقد أغمي على إسحق ونزف أنهاراً. وكانت زوجته قد أرسلت سلفاً في طلب شخص يستطيع وقف النزيف، ووصل إلى المنزل مباشرة بعد الحادثة. وفعل الآن ما يستطيعه للجريح، كما كانت الزوجة قد أعدت، سلفاً أيضاً، خلائط من جذور عشبة الدمويّة والأعشاب الأخرى التي توقف النزيف من الجروح. ومعاً أغلقا جرح زوجها قبل أن يعود إليه وعيه.

ثم رعت الزوجة إسحق بعد ذلك وخدمته بالكثير من الحب والعناية حتى شفي.

ولم يُعرف أبداً أن الزوجين أصبحا غير ودودين تجاه بعضهما بسبب فعلتها؛ وعاشا معاً حتى آخر أيامهما.

لكن إسحق من أروناس لم يعد أبداً نفس الرجل بعد هذه العملية؛ فقد أصبح ذهنه متراخياً وملولاً، ولم يبد أيّ عناية بما يفعله. وأهمل مزرعته أكثر وأكثر. وبعد بضع سنوات باع أوراناس، التي كانت تتكون من نصف عزبة، وانحدر بنفسه إلى العيش على الحقوق المحفوظة.

وبعد ذلك، أبقى يديه وكل أطرافه الأخرى بعيدة عن النساء. وغير مبال مثل ثور مخصيّ، لم يعد له أيّ اهتمام بهنّ. ومن الآن فصاعداً، أصبح يعيش حياة منسجمة ورعة مع زوجته، التي أصبح مخلصاً لها جداً في أيام شيخوخته.

أما العضو الذي قطعته الزوجة من جسد زوجها، جففته ووضعته جانباً. أرادت أن تحتفظ به كتذكار. وكانت تستخرجه فقط من حين لآخر، عندما يأتي الزوار، أو في احتفال ما أو آخر عندما يتجمع الأقارب والأصدقاء. وبينما

يستمع إسحق في صمت، كانت تروي كيف فعلت في تلك المرة عندما شفت زوجها من الشبق. وكانت أيضاً تستخرج الإنجيل وتشير إلى ذلك المكان حيث يقول إن على الإنسان أن يقطع ذلك العضو الذي يسيء إليه حتى ينقذ روحه من المعاناة الأبدية؛ لقد فعلت لزوجها ما ينبغي، لأن على الجميع الموافقة على أن ذلك العضو الذي خلصته منه كان إساءة كبيرة.

لكنه شاع، مع ذلك، أن إسحق من أوراناس ظل لديه جزء صغير متبقّ، وهو ما قاد إلى كنيته، العِقب، ختَم يوناس.

٥

في الصمت الذي ران بعد نهاية القصة، سمع روبرت دمدمة أذنه بوضوح أكبر. والزوجة أنهت الآن تصفية الحليب، وشرعت في إزالة الأطباق عن المائدة. كان فمها مغلقاً في خط ضيق. ونظرت إلى زوجها عدة مرات بينما كان يحكي القصة، لكنها ظلت صامتة. ولم يسمعهما روبرت يتحدثان إلى بعضهما البعض بعد في هذه الأمسية.

كان يوناس قد أخبره مرات عديدة من قبل قصصاً عن أفعال النساء الشريرة، واستطاع روبرت أن يخمّن لماذا تحدث المزارع هكذا. لكن هذه، بالقدر الذي يعرفه روبرت، هي المرة الأولى التي كانت فيها زوجته تستمع.

كان قدراً قاسياً هو الذي حل بإسحق مالك أوراناس، وفكر روبرت بأن عليه أن يتوخى الحذر عندما ينام مع امرأة —يجب أن يتحسس دائماً أسفل المخدة حتى يكون آمناً.

«الابن الذي أصبح شريفاً كان قد ولد قبل سنوات طويلة من ذلك،» أضاف يوناس بيتر، كما لو أن هذا التفسير كان ضرورياً.

ولدى سماع ذكر الشريف، عاد الخوف إلى روبرت: إن الشريف هناك على الطريق، يبحث عنه. ألن يكون من الحكمة أن يهرب ويختبئ في الغابات؟ واستمرت أذنه بالطنين، ولم يستطع البرانفين إخراس الصوت في هذه الليلة.

وفجأة نهض: استطاع أن يسمع صوت دواليب عربة على الطريق؛ يجب أن يكون هذا هو الشريف في طريق العودة. وسمعت بريتا—ستافا أيضاً صوت العربة وخرجت إلى العتبة.

قال يوناس بيتر: «اجلس يا غلام! لا تخف!»

ولم يجلس روبرت، كان خائفاً. ثمة رعب يائس ملأ صدره؛ وشعر بأن صدره صغير جداً، وممتلئ جداً، ولم يستطع أن يخفف الضغط عليه. لم ينفع الزفير، كان الصدر ممتلئاً، متوتراً ومكتظاً.

وثارت عاصفة في الأذن المصابة: هاك، يا عاملي الصغير، إليك هذه اللكمة! واحدة ستتذكرها!

إذا.... إذا هاجروا وتركوه؟ إذا لم يُسمَح له بالذهاب مع كارل أوسكار؟ عندئذ لن تُفتح له بوابات أميركا أبداً.

سُمع صوت ضجيج العربة أكثر وضوحاً، وجاء من عجلات خفيفة تتدحرج بسرعة؛ كانت عربة خفيفة. لا يمكن أن يكون ذلك أحداً آخر غير الشريف العائد.

كانت الزوجة قد ذهبت إلى الخارج ولم تعد. كانت لها عينان صارمتان ولحية على ذقنها. وقد نظرت إليه بطريقة مريبة. لماذا انسلت خارجة بمجرد أن سمعت صوت العربة؟ لماذا ذهبت إلى الخارج؟

رطّب روبرت شفتيه بطرف لسانه: «يوناس بيتر... لقد خرجت... ألن تقول شيئاً؟»

«بريتا—سيلفا؟»

«نعم.»

كان روبرت مقتنعاً بأن زوجة المزارع سوف تخونه إذا استطاعت بذلك أن تغيظ زوجها.

«ألن تدعوه؟» همس الشاب؛ متقطع الأنفاس.

«فلتجرؤ!»

وارتفع صوت يوناس بيتر. انحنى عبر المائدة باتجاه الصبي الذي وعده بأن يحميه من الشريف. «إذا تجرأت، عندئذ سوف أسنّ السكين الليلة!»

وحدّق روبرت فيه، ناسياً خوفه لدى سماع كلمات الفلاح. ماذا يعني؟ يسنّ السكين؟ أي سكين؟

«تسنُّ السكين...؟»

«نعم، وإلا فكرت بأن أفعل ذلك غداً.»

ما الذي ينوي يوناس بيتر فعله؟ لقد عاش في شقاق عميق مع زوجته لسنوات عديدة —هل ينوي أن يؤذيها الآن؟ هل سيطعنها؟ أي نوع من السكاكين يريد أن يشحذ؟ إنه يثمل —ذلك بائن للعين والأذن.

خفت صوت العربة وابتعد، ودخلت بريتا—سيلفا إلى المنزل.

قالت إنه كان شمّاس الكنيسة، بير بيرسون من أكيربي، هو الذي مرّ، كان في كورباموين ليتحدث مع كارل أوسكار عن إقامة مزاد وشيك لمواشي المزرعة.

وأخيراً، شعر صدر روبرت بالحرية، واستطاع أن يتنفس بسهولة أكبر. صبّ لنفسه كأس شراب آخر.

حتى الآن في هذه الأمسية، لم يسمع الزوجين من هاتيسباك يتحدثان معاً. وقد فتحت بريتا—ستافا شفتيها المطبقتين الآن، وإنما فقط لتأكل عصيدة البطاطا التي أعدتها لنفسها. كانت عينا يوناس بيتر غائمتين بفعل البرانفين، وكرر مرة أخرى وأخرى متمتماً: يمكن للرجل أيضاً أن يشحذ سكيناً.

لم يكن هناك في الحقيقة أيّ معنى لما يقول: إن جماعة الرجال دائماً هم الذين يشحذون الأدوات، السكاكين وما شابه. ولذلك لم يفهم روبرت ما الذي يقصده المزارع الجالس هناك بملاحظاته. لم يستطع أن يعرف ما الذي سيحدث في اليوم التالي بين الزوج والزوجة في هاتيسباك. يجب أن لا يكون هناك شهود على تلك الأحداث —وقد حدث ذلك بعد أن خرج روبرت.

قصة عن رجل شحذ سكيناً

عندما أنهيا إفطارهما في الصباح التالي، نهض المزارع ببطء عن المائدة واستدار إلى زوجته التي تغسل الأطباق قرب النار. أراد أن يقوم ببعض الشحذ؛ وأراد أن تذهب معه بذراع التدوير وحجر الشحذ؛ ولم يكن هناك أحد آخر موجوداً في تلك اللحظة. كان روبرت قد خرج مسبقاً إلى الحقول.

جففت الزوجة يديها بمئزرها وتبعت زوجها إلى الخارج.

وقف حجر الشحذ تحت شجرة غبيراء قرب جملون الحظيرة. كان الجو لطيفاً هناك في ظل الشجرة خلال أيام الصيف الحارة؛ والآن —في الربيع تقريباً— كانت الريح تعصف حول زاوية البيت. ومسحت بريتا—سيلفا نقطة

ما عن طرف أنفها، بينما انحنت على دكّة حجر الشحذ، منتظرة زوجها الذي ذهب إلى البئر.

عاد يوناس بيتر وسكب ماء البئر في حوض حجر الشحذ. وأمسكت زوجته بمقبض التدوير من أجل بدء العمل.

ولكن، أين هي البلطة؟ بحثت بريتا—ستافا حولها؛ ظنت أنهما سيشحذان بلطة. المنجل لا يُستخدم في هذا الوقت من السنة، ولم تعرف عن شيء يحتاج إلى شحذ. وكادت تسأل: هل نسيت البلطة؟ لكنها تذكرت في الوقت المناسب، يجب أن لا تستخدم الكلمات غير الضرورية. سوف تري زوجها أنها يمكن أن تبقى صامتة بقدر —كلا، بل أكثر مما يستطيع هو.

ولم يكن يوناس بيتر سيشحذ بلطته اليوم؛ أخرج سكيناً.

وسحبت زوجته المقبض، ودار حجر الشحذ، وتموج الماء بسلاسة في الحوض مثل الماء في الجدول. كانت الركيزة جافة، غير مشحمة، وصرت وأنّت؛ ورشّ المزارع حفنة ماء من الحوض باتجاهها؛ وصمتت الركيزة بعد أن ارتوت.

حدقت الزوجة في السكين في يد زوجها. كانت سكيناً كبيرة، تستخدم في ذبح الماشية. وقد امتلكها يوناس بيتر لسنوات، والكثير من الخنازير والأغنام والعجول أسلمت حياتها لها. كانت سكيناً جيدة؛ وقد استعارتها هي نفسها في بعض الأحيان عندما احتاجت إلى أداة حادة قاطعة. واعتاد يوناس بيتر القول إنها حادة الشفرة مثل موسى الحلاقة عندما تكون قد شُحذت حديثاً.

لكنه لم يكن هناك ذبح وشيك في المزرعة. لم يكن لديهم حيوان ليقتلوه. لن يكون لديهم ذبح قبل أكتوبر، وهم الآن في مارس فقط. وإذا كان أحد سيستخدم سكين ذبح في أكتوبر، فإنه لا يسنُّها في مارس. وكل هذا مؤكّد وصحيح.

وتخوّفت بريتا—ستافا، ولديها المبرر لتكون كذلك. وقد زحف الخوف عليها وهي تتذكر الكلمات التي كررها زوجها في الليلة الماضية بعد أن روى قصّة العِقب من أوراناس. لماذا يسن سكين الذبح اليوم؟

وقف يوناس بيتر منحنياً على حجر الشحذ، وجهه معتم، وشفتاه منطبقتان بقوة. كان ينظر أمامه بحدّة، والعينان تركزان بعناد على حافة السكين. كان

يسنّ سكينه وبدا وكأنه لم يعد يوجد شيء في العالم بالنسبة له سوى هذا العمل: شحذ هذه السكين.

أدار السكين وشحذهاعلى جانبيّ الشفرة، محرّكاً إياها جيئة وذهاباً على المشحذ، من المقبض إلى الرأس. لكن عينيه لم تغادرا الحافة. واكتسى وجهه بتعبير من التصميم؛ كان ثمة تصميم في وضعه الثابت، في ظهره المنحني، وفي شفتيه المطبقتين بقوة. كل جزء فيه كان يشع العزم. وتصرف مثل رجل ينبغي عليه أن يتخذ قراراً والذي لن يستطيع أيّ شيء أن يغيّر منه أقلّ تفصيل.

وسألت زوجته عند مقبض التدوير نفسها: ما الذي سيفعله بسكين الذبح؟

أدارت المقبض. ولم يكن الحجر ثقيلاً. كان كبيراً وثقيلاً ذات مرة، عندما جاء إلى المزرعة. ولكن بعد كل تلك المناجل والفؤوس والسكاكين الذي شُحذت حوافها عليه، لم يعد الآن أكبر من جبنة عيد الميلاد. ويمكن حتى لطفل أن يُديره. وعندما أفلتت الزوجة تنهيدة، لم يكن ذلك بسبب ثقل الحجر أو العمل الشاق؛ كان ذلك بسب شيء مختلف كلية: استغراق زوجها في هذا العمل.

خلال فترة زواجهما، كانت تسارع دائماً إلى تصحيحه عندما يرتكب خطأً. وإذا افتقرت تصرفاته إلى المنطق، أو كانت خاطئة قَصداً، اعتادت أن تقول له إنها كذلك؛ كان هذا واجب الزوجة. لكنه لم يعد الآن يقبل تصحيحاتها. وقد استمرت بالإشارة إلى تصرفاته الحمقاء وغير المعقولة، كبيرة أو صغيرة، لكنه لم يعد يستمع إليها. وقد سمى ذلك نقداً وتقريعاً، ولم يحب أن يلومه أحد أو يقرّعه. ومع ذلك، أصرّ على مثل تلك السلوكات بحيث كانت مُجبرة على أن تريه الصواب من الخطأ. ثم أصبح غاضباً. عند أقل كلمة منها صار يغضب. وهي بدورها، ظلت تقول له الحقيقة وهي متضايقة وحزينة معاً: إنه كان زوجاً شريراً لا يهتم بما تفكر أو تشعر به.

وبفضل طبيعته الصعبة، أصبحت المشاجرات بينهما تحصل في فترات متقاربة، وتزداد مرارة، وبالدوام فترة أطول. وبعد كل مشاجرة بدت الكلمات بينهما كأنها تجفّ تماماً؛ فيدوران في صمت، دون أن يخرج حرف من شفاههما لأيام طويلة. حتى أن وقت الصمت تمدد، في بعض الأحيان، إلى أسابيع.

لكم ساورها القلق في الفترة الأخيرة بسبب سلوكه غير المعقول! لم يعرف

أحد أي شيطان ربما يدخل في رأس الإنسان ويجعله يفعل ما يفعل.

كان ذلك قبل فترة مضت —بعد مشاجرة كثيفة وطويلة— حين قال: بدل أن أجعلك تعذبيني حتى الموت، بدلاً من تكدير صفوي حتى الموت، سأفعلها بنفسي، سوف أقتل نفسي بسكين! سأفضل أن أطعن نفسي حتى الموت!

ويا لها من نظرة هي التي كانت في عينيه في ذلك اليوم، يوناس بيتر! ومنذئذ ظلت دائمة القلق. أي شيء ربما يغري به الشيطان الكائن البشري ليفعله؟ منذئذ، أخفت كل أدوات التقطيع —كلها ما عدا سكين الذبح هذه، التي لم تعثر عليها. لكن ذلك لم يكن كافياً لتطمينها؛ ربما يعثر على سَير، أو حزام، ويذهب إلى أقرب شجرة أو عارضة سقف؛ ربما يقفز في البئر. سيكون هناك دائماً شيء في متناول الأيدي إذا رغبت أن تنهي حياتك بيديك، هناك دائماً شيء جاهز لمساعدتك، دائماً وفي كل مكان.

حاولت لبعض الوقت أن تكتم الكلمات التي ربما تثير حفيظته. سوف تصححه فقط حول الأعمال اليومية الصغيرة وما شابه، التي لا تستحق الذكر. ومع ذلك، ظل ينزعج ويغضب. ما الذي تستطيع فعله مع مثل هذا الزوج الصعب؟

وما الذي يخطط له الآن، بهذه السكين؟ أرادها حادة جداً، وبدا أنه لن يجعلها حادة بما يكفي أبداً! لم يسبق له أن احتاج إلى شفرة بكل هذه الحدة، ليس حتى عند ذبح الماشية. ما الذي ستستنتجه من كل هذا الشحذ؟

رفع يوناس بيتر ظهرة للحظة، أمسك للسكين بيده وتحسس الحافة بإبهامه الأيمن، مختبراً الحدة. وتوقفت بريتا—ستافا عن التدوير واستراح المشحذ.

لكنه لم يكن قانعاً بعد بحافة سكينه؛ يجب أن تدير الحجر مرة أخرى. ودار الحجر ثانية، ودوَّم الماء في الحوض وتموج. وهو استمر في شحذ السكين، عابساً، مثابراً، صامتاً.

رشح العرق على مؤخرة عنق بريتا—ستافا، وسالت القطرات على عمودها الفقري. ولم يكن ذلك ناجماً عن ثقل المشحذ، وإنما نجم من السؤال الذي سألته لنفسها: يمكن شحذ السكين جيداً في غضون خمس دقائق؛ وهو ماض في الشحذ منذ خمس عشرة دقيقة. ماذا يعني ذلك؟ لم يبدُ ذلك منطقياً. إنه لن يقنع أبداً بحدة الشفرة —وبدا وأنه يريد شفرة موسى اليوم. هل كان يسنّ السكين من

أجل رقبته هو؟ وإذا لم يكن كذلك، فلماذا؟

ومضى المزارع في الشحذ، وهو يختبر مضاء السكين بين الفينة والأخرى بإبهامه، بحذر، وإصرار، ثم يعيد السكين ثانية إلى المشحذ.

والزوجة استمرت في التدوير. ليس هذا التصرف عاقلاً. ما الذي قاله الليلة الماضية؟ —يستطيع الرجل أيضاً أن يشحذ سكيناً. والطريقة التي تنظر بها عيناه في الفترة الأخيرة، تعرض بياضاً تحت البؤبؤين؛ لم تعد له عينا شخص عاقل. من الواضح أنه أصيب بشيء من الجنون.

يمكنها أن تسأل: لماذا تشحذ سكين الذبح؟ ليس هناك ذبح وشيك. لكنها تحدثت بالكاد معه منذ ثلاثة أيام، بقصد أن تريه أنها يمكن أن تمسك لسانها. وربما تتلقى أيضاً معلومات واضحة، ربما يقول لها شيئاً من قبيل: هناك حاجة إلى سكين مسنونة دائماً في المنزل.

ثمة حاجة إلى السلام أيضاً في المنزل؛ لكن هذا ما لن يحصلوا عليه، سوى في الصمت الممل بين مشاجراتهما.

الآن أدارت المشحذ لما يقارب نصف ساعة. ليس هناك رجل عاقل يتصرف هكذا، ويسنّ السكين نفسها ساعات بلا نهاية. إنها لا تستطيع تحمل ذلك أكثر، وقد أصبحت جبهتها مبلولة بالعرق، وجسمها واهنا، وساقاها تهتزان غير قادرتين على حملها.

وعندما جرّب زوجها حافة السكين على إبهامه للمرة العاشرة أو الحادية عشرة، انفجرت: «ألن تقتنع أبداً بأنها حادة؟ هل سنقف هنا اليوم بطوله؟ هل سنستمر هكذا إلى الأبد؟ اجلب أحداً آخر يدير الحجر!»

وتركت المقبض وذهبت وانهارت مثل كيس فارغ قديم على حجر قرب الحظيرة.

لم ينظر يوناس بيتر في اتجاهها؛ كان الأمر كما لو أنه لم يسمعها. تحسس حافة السكين بإبهامه، ببطء، متئداً. ثم جفف السكين على ساق بنطاله، متمتماً لنفسه: «أعتقد أنها ستنفع الآن.»

التقط دلو الماء الفارغ في يد والسكين المسنونة حديثاً في الأخرى وذهب باتجاه البيت.

وتعقبت الزوجة خطواته بعيون حذرة؛ وعندما رأته يدخل المطبخ، نهضت لتتبعه. لم يكن هناك أحد في المنزل الآن، كان الناس في أعمالهم، والولد من

كورباموين معهم؛ كانت هي وزوجها وحيدين. ووحيدة لا تستطيع أن تأخذ السكين منه، لم تكن لديها القوة الكافية. هل ينبغي أن تركض لطلب المساعدة من أحد الجيران؟

ذهبت بريتا—ستافا خلف زوجها إلى المطبخ. ولم يكن هناك. يجب أن يكون قد صعد إلى العليّة. وبينما تنظر حولها، بدا وأنها تذكرت شيئاً؛ فتطاولت على رؤوس أصابعها ونظرت إلى الرف فوق الموقد: هناك كانت السكين المسنونة حديثاً، ملتمعة؛ وقد وضعها زوجها هناك في مكانها المعتاد. وأطلقت تنهيدة ارتياح طويلة وعميقة.

أخذت السكين الكبيرة، وخبأتها تحت مئزرها، وخرجت. مشت إلى سقيفة العربة ووجدت طريقها إلى الزاوية الأكثر ظلمة. وهناك علقت السكين الحادة خلف إحدى عوارض السقف. ودفعتها عميقاً بحيث لا يستطيع أحد أن يرى حتى مقبضها. ولم تستطع العثور على مكان تخبئه أفضل سرية في المزرعة كلها، فكرت، بينما تهبط نازلة مرة أخرى.

في الأثناء، عاد يوناس بيتر من العلية حيث كان قد ذهب بلا سبب معين. ولدى دخول المطبخ، ذهب هو أيضاً إلى الرف فوق الموقد ونظر. وأطرق موافقاً وشع الرضا من عينه: تماماً كما أمل. لقد اختفت السكين؛ ونفع التهديد؛ لقد أصبح آمناً منها الآن. لقد ذهبت شأواً بعيداً حتى اضطر إلى شحذ سكين لنصف ساعة حتى يجعلها تصل إلى ما أرادها أن تصل إليه.

وأصبح الآن مسروراً؛ عرف أنه سيحصل على الراحة والسلام اللذين يريدهما في البيت في الوقت الذي تبقى —خلال الأسابيع الثلاثة الباقية قبل أن يتحرر من زوجته، قبل أن يتركها إلى الأبد. إنه يحتاج إلى السلام والهدوء خلال وقت الاستعداد هذا. ولا شك أن تحصيل هذا يستحق صرف نصف ساعة على حجر الشحذ.

٦

بقي روبرت في هاتيسباك لثلاثة أسابيع، ولم يأت أي شريف للبحث عنه.

وذات مساء، أخذه روبرت إلى جانب وقال له: «سنستمر في الرفقة إلى أميركا، أنت وأنا. أنا مسافر على نفس السفينة مع الآخرين.»

في السر، كان ثمة صندوق أميركا آخر يجري تجهيزه في المنطقة — الثالث.

فلاح ينحني للمرة الأخيرة

١

كان هذا فجر حقبة عظيمة في حيوات صناديق الملابس القديمة في كل مجتمعات الفلاحين. بعد قرون من الإهمال في الزوايا المظلمة في المخازن والعليات، يجري الآن تنظيفها وتلميعها وتحضيرها لرحلتها عبر البحر العظيم. سوف تصبح تكون في طليعة أكبر هجرة في التاريخ. وإليها، سوف يُعهد بالممتلكات التي يعتزّ بها المهاجرون أكثر ما يكون.

ما الذي ينبغي جلبه، وما الذي ينبغي تركه؟ ما الذي يمكن الحصول عليه بيُسر في العالم الجديد، وما الذي لا يمكن الحصول عليه؟ لا أحد يستطيع أن يُشير، لا أحد سافر إلى هناك من قبل ليؤكد. لم تكن تلك انتقالة إلى حيث يمكن تحميل عربة وراء عربة؛ ينبغي لحمل عربة واحدة أن يفي بكل شيء. الأشياء الأقل وزنا والتي لا يمكن الاستغناء عنها فقط هي التي اختيرت.

في قاع صندوق أميركا الخاص بكورباموين وضعت الأشياء الثقيلة —المعدن والحديد، كل أدوات الحطاب والنجار: قدوم، بلطة، إزميل، مِسحج، مطرقة، ملاقط حذّاء الخيل، مثقب، سكين لصق، سكين كشط، مسطرة ومقياس أطوال. وكذلك عدة الصياد: بندقية، قرن مسحوق البارود، والحقيبة الطلقات الجلدية الصغيرة. وفكك كارل لوسكار سلاحه الذي يتم تلقيمه من الفوهة لتسهيل حزمه. وقد قيل إن هناك كثرة في المرح في أميركا بقدر ما هناك قلة في السلاح. وقيل إن البندقية تكلف هناك خمسين داليرا سويدياً. وفكّر روبرت بكل الجداول والمياه المليئة بالأسماك، فحزم عتاد الصيد: الصنانير، وجدلات الصيد، والأسلاك وفخاخ السمك. واستخرج نيلس لابنيه أدوات حجامة قديمة، التي ظنّ أنها ستفيدهما؛ وقد نصح المهاجرين بفصم أنفسهم بشكل متكرر؛ إن العلاج الأكثر موثوقية لكل العلل هو التخلص من جزء من دم المرء.

وحزمت كريستينا لفائف الصوف، وإبر الغزل، ومقصات حلج الخراف، ومضربتها الكتانية، وهي هدية خطوبة من كارل أوسكار، والتي طرزت عليها وروداً حمراء. لكنها تركت الكثير من الأشياء لأنها ستشغل الكثير من حيّز السفينة، أشياء تعرف أنها سوف تحتاجها لاحقاً. لم تستطع أن تأخذ نولها أو قطاعة كتانها؛ لفافة خيطانها أو عجلة غزلها، أو مشط الكتّان. وكانت معتادة على العمل بكل هذه الأدوات؛ وكانت حميمة ومألوفة ليديها؛ وقد عرفت أنها سوف تفتقدها في الأرض الغريبة.

ساعدتها مارتا في حياكة قطعة من القماش الصوفي والكتاني الثقيل، والتي صنع منها خياط القرية ملابس ثقيلة دافئة لهم من أجل الرحلة. وحزمت قطعاً صوفية دافئة صغيرة وكبيرة، وملابس داخلية وخارجية، وملابس عمل وملابس لأيام الأحد. كان القماش الصوفي نادراً في أميركا، كما سمعت في مكان ما، خاصة أنه لن يكون لديهم الوقت هناك لإنجاز كميّة الغزل التي يحتاجونها. يجب أن تأخذ معها مغزولات صوفية وكتانية، وإبراً وخيطاناً من كل الأنواع، حتى يستطيعوا رقع وإصلاح ملابسهم وجواربهم، لأنه سيمر وقت طويل بالتأكيد قبل أن يستطيعوا الحصول مرة أخرى على أشياء جديدة ليضعوها على أجسادهم؛ والقديم يجب أن يدوم. وبين الملابس وضعت كريستينا الكافور واللافيندر لتمنع العثّ والروائح الكريهة؛ لا أحد يعرف كم يجب أن تبقى هذه الأشياء في الصندوق.

غطاؤهما العرائسي يجب أن يأخذوه، وكل أغطية السرير، والشراشف، والوسائد، والحشيّات، كلها حزمت في كيسين بسعة أربعة مكاييل، وخيطت بعد ذلك من الجهتين بخيطان سميكة. وتم حزم كل الأشياء الصغيرة التي ستستخدم خلال رحلة العبور في حقيبة ظهر: آنية الشراب، أدوات الطعام، الأكواب، الأطباق الخشبية، الملاعق، الشوك، والسكاكين. ويجب أن تحضّر كريستينا أيضاً سلة طعام لستة أشخاص. كانت السفينة ستقدم لهم الطعام خلال الرحلة، لكن أحداً لا يعرف إذا كانوا سيستطيعون أكل جراية السفينة، وكانت لديهم

طريق طويلة ليقطعوها قبل أن يصلوا، وبعد الوصول أيضاً. ويجب أن تحتوي السلة على أطعمة مجففة ومملحة ومدخنة، التي يمكن أن تبقى بحالة جيدة ولا تتلف في المحيط. وقد استخدمت سلة واسعة من الصفصاف بغطاء خشبي لتكون صندوق طعامهم، وفيها وضعت كريستينا ثمانية أرغفة من الجاوادار وعشرين من الحنطة، وبرميلاً خشبياً من الزبدة شديدة الملوحة، وربعين من العسل، وواحداً من الجبن، ونصف دزينة من قطع السجق المدخن، وربعاً من لحم الحمل المدخن، وقطعة من الخنزير المملح، وما يقارب عشرين قطعة من سمك الرنجة المملح. وقد ملأ ذلك السلة عن آخرها. ويجب أن يجدوا مكاناً أيضاً لباوند من القهوة، وباوند من السكر، وحقيبة من التفاح المجفف، وبضعة أكياس صغيرة من الملح، والفلفل، وعيدان القرفة، وبذور المُرّار، والكمون.

ويجب أن تبقى هذه الأشياء جافة ومرتبة خلال الرحلة: يجب أن لا ينسوا إناء الصابون السائل، ومرهم الفسفور للقمل. واشترت كريستينا مشطين ممتازين جيدي الأسنان لإبقاء رؤوس الأولاد خالية من الديدان الضارة.

لكن الأهم من ذلك كان الحاجات الدوائية للمهاجرين: الكافور، وزجاجات الدواء الصغيرة التي تحتوي على «قطرات هوفمان لمساعدة القلب»، و«قطرات الأمير»، و«أربعة أنواع من القطرات». وكعلاج لدوار البحر، حضر كارل أوسكار نصف غالون من بيرة بذور عشبة المُرّار؛ وسيعمل شرب قدر من هذا كل صباح في البحر على معدة فارغة على إبقاء الأجساد على ما يرام؛ كما تفيد بيرة عشبة المرّار في شفاء حمى السفن، وتحمي الجسم من الكوليرا وأوبئة السفن المعدية الأخرى.

جاءت بيرتا من آيديمو لتحذير كريستينا من دوار البحر؛ النساء المتزوجات تحديداً يتعرضن لهجومه السيئ أكثر ما يكون، وهو أسوأ بالنسبة لهن من الرجال أو النساء العزباوات، لأسباب غير معروفة. ربما الإفرازات الجسدية في المرأة تتغير عندما تدخل الرباط المقدس، بحيث تصبح بعد ذلك أكثر حساسية للبحر. كان والد بيرتا قد سافر في البحر وعلمها الطريقة التي يعتني بها رجال البحر بأنفسهم ويشفون بها أمراضهم. وكانت بيرتا قد زرعت الكافور في حقيبة جلدية

صغيرة، والتي أعطتها لكريستينا. وهذه يجب تعليقها حول معدتها وهي على ظهر السفينة؛ وسوف تخفف من دوار البحر. ولم يكن هذا مرضاً مزمناً، لكنه مع ذلك واحد من أكثر الأمراض ألماً، والتي أرسلها الله ليعاقب بها البشر. كما يجب على كريستينا أيضاً أن تأكل بضع ملاعق من عصيدة الشوفان كل يوم، وأن تأخذ معها ربع غالون من الخلّ لتمزجه مع ماء الشرب لإنعاشه قبل شربه، لأن الماء غالباً ما يصبح عفناً وساماً في الرحلات الطويلة.

وكانت كريستينا تثق ببيرتا من آيديمو، التي كانت قد شفت في شبابها المبكر ركبتها المصابة بالغنغرينا، واستمعت إلى كل النصائح الطبية: يجب أن تستخدم بيرة الفلفل لعلاج البطن؛ وفي الحقيقة، يجب أن تحترس كثيراً من الإسهال والإمساك. يجب أن تبقي عيناً يقظة على بُرازها، لتتأكد من درجة تماسكه —ليس هناك ما هو أهم بالنسبة لركاب البحر من إبقاء البراز متماسكاً؛ وهذا يعرفه البحارة القدماء. وقد سمعت بيرتا أن الناس بعد الوصول إلى أميركا الشمالية كثيراً ما عانوا من إسهال كثيف؛ وحتى الأمعاء نفسها تسيل وتخرج، إذا لم تتم العناية بمعالجتها. وقد أصبح الناس منهكين جداً حتى أصبحوا يستطيعون الوقوف أو المشي بالكاد؛ ولم يساعدهم شيء غير شراب البرانفين المخلوط بقبضة من الفلفل.

وقيل إن الأرض في أميركا تغص بالأفاعي والحشرات السامة، وربما لا يكون ذلك صحياً للأطفال الذين يركضون حفاة الأقدام. يجب على كريستينا أن تضع الكافور الجاف في جروح لدغات الأفاعي. وفي كل الجروح الجديدة الأخرى، فإن البول الدافئ، بالطبع، هو المرهم الأفضل؛ فهو يطهّر ويشفي، وكان لآلاف السنين هو ماء غسيل أسلافهم للجروح. وإذا أصيب أحد بجرح بدا أنه لن يشفى، وأنه يمكن أن يتحول إلى غنغرينا، فسيكون على كريستينا عندئذ أن تشقّ الجرح مرتين يومياً، بسكين نظيفة حادة —ربما تتذكر هذا بالتحديد! ويجب وضع الأذرع والسيقان المكسورة في جبيرة بأسرع ما يكون، وكلما جعلت الجبيرة أكثر قوة كلما انجبر الكسر أسرع.

وانسل سؤال إلى قلب كريستينا قبل وقت طويل من انتهاء بيرتا من نصائحها عن الجروح، والحوادث، والأمراض، والعلل التي ربما يواجهها المهاجرون في البر والبحر —السؤال القديم القلِق: هل من الضروري بالمطلق أن يقوموا بهذه المغامرة الغريبة الخطيرة؟ هل ينبغي لهم أن يلقوا بأنفسهم في كل هذه المخاطر؟

٢

باع كارل أوسكار مزرعة كورباموين لمزارع من لينريد. وقد اضطر إلى خفض السعر؛ فبعد كل شيء، يكون المهاجِر مُجبراً على البيع، بينما لا يكون المشتري المُفترض مُجبراً بالضرورة على الشراء. وقد رضي كارل أوسكار بمبلغ يقل مائة وخمسين داليراً سويدياً عمّا كان قد دفعه هو. ومن ناحية أخرى، جلبت ماشيته —التي بيعت في مزاد— سعراً جيداً لأن هناك نقصاً كبيراً في معروض الحيوانات بعد عمليات الذبح الإجباري خلال سنة المجاعة. لكن الدلّال، شمّاس الكنيسة بير بيرسون أخذ لنفسه ربع مجموع العائدات لأنه سيدفع المال. وكانت تلك شروطاً قاسية، لكن كارل أوسكار لم يستطع البقاء في الوطن نصف سنة ليجمع من كل مقدمي العروض.

بعد المزاد على ممتلكات بيت المزرعة، بدا المنزل لكارل أوسكار وكريستينا فارغاً تقريباً. وقد أُخِذت كافة الأشياء ما عدا الأسرّة، التي كانوا سيستخدمونها حتى يوم مغادرتهم حتى لا يضطروا للنوم على الأرض.

والآن، يستطيع المزارع المهاجر أن يقدر وضعه. بقي ألف ومائتا دالير سويدي من بيع المزرعة ومن المزاد، بعد خصم الرهن والديون الأخرى. وسوف يكلف عبورهم إلى أميركا ستمائة وخمسة وسبعين داليراً سويدياً لكل العائلة، ثلاثة بالغين وثلاثة أطفال. وسوف يصل كارل أوسكار إلى أميركا ومعه خمسمائة دالير سويدي تقريباً. ثم عليهم أن يدفع رسم الدخول إلى أميركا، وأجرى النقل إلى مكان الاستقرار —طريق غير معروفة بمسافة غير معروفة. وأمل كارل أوسكار الحصول على أرض بلا رسوم فعلاً، لكنه لم يتبق الكثير لشراء أدوات المزرعة وماشيتها. وقد شعر نيلس ومارتا بالخيبة عندما سمعا كم يكلف العبور: تقريباً نصف المبلغ الضروري لشراء مزرعة —وقد رمى

ابنهما نصف مزرعة في البحر!

طلب كارل أوسكار من كريستينا العثور على مكان آمن لتخبئة الخمسمائة دولار التي تبقت لهما؛ ينبغي أن لا يضيع أمنهما الباقي أو يُسرق خلال الرحلة الطويلة. وحاكت كريستينا النقود في كيس من الجلد، يمكن أن يربطه إلى حزام ويحمله على جسده.

كان يُسمح لأي شخص ذي شخصية جيدة بمغادرة البلاد هذه الأيام من دون الحاجة لتقديم التماس إلى الملك. بل ويمكنك أن تغادر من دون شطبك من سجل الأبرشية. كذلك فعل فريدريك من كفارنتوربيت، وآخرون ممن سُجلوا تحت عنوان «نهاية الأبرشية.» ولم يجرؤ روبرت، الهارب من الخدمة، على الاقتراب من القسيس لطلب أوراقه. لكنّ كارل أوسكار لم يرد أن يغادر وكأنه ارتكب خطأً. لقد أراد الانفصال علناً عن الأبرشية. فذهب إلى القسيس بروسندر وطلب منه أوراقه، لأنه ينوي هو وعائلته الهجرة إلى أميركا الشمالية.

نظر القسيس بتساؤل إلى هذه الشخص الأول من رعايا الأبرشية، الذي يجيء بمثل هذه المأمورية.

«سمعتُ عن نواياك. لماذا تريد أن تهاجر، يا كارل أوسكار نيلسون؟»

«لدي ديون وصعوبات ولا أستطيع تحسين وضعي هنا في الوطن.»

«لقد أراد الله أن يرسل علينا سنة مجاعة. لكن المسيحي الورع لا يشكو في زمن المحنة. إنك تعرف تعاليمك يا كارل أوسكار نيلسون، وأنا أتذكر هذا. وبذلك يجب أن تعرف أن التجارب والمحن تُرسل من أجل تشذيب روحك؟»

وقف كارل أوسكار هناك، على بعد ثلاث خطوات من الكرسي عالي الظهر، والمنجد بالجلد حيث جلس مرشده الروحي خلف مكتب. وقد حمل قبعته في يديه لكنه لم يجب؛ كيف يمكن أن يجادل أحد تعاليم الدين مع القسّيس، الذي تعلم كيف يفهم ويفسر؟»

«إنك معروف كمزارع قدير ومجتهد. ألا تستطيع أن تكسب رزقك في وطنك ومجتمعك؟»

«لا يبدو الأمر كذلك، سيدي القسّيس.»

«لكن لديك إعالة مناسبة لأهل بيتك. يجب أن يكون المرء قانعاً بالرزق المناسب.»

وعصر كارل أوسكار قبعته الجلدية المهترئة. كان يمكن أن يذكر آنا، ابنته الصغيرة، التي فقدها بسبب الجوع. لكنه يعرف أن القسّيس سوف يجيب بأن ذلك كان امتحاناً أرسله إليه الله لتطهيره. إنه لا يستطيع أن يجادل راعيه في الشؤون الروحية.

«سوف تضرب مثلاً غير ملائم لبقية رعيتي يا كارل أوسكار نيلسون.»

ونهض القسّيس عن كرسيه ومشى عبر الردهة.

لم يكن قد سمع سوى كل شيء طيّب عن الناس من كورباموين؛ صحيح أنهم يمتون بصلة لدانجل في كاراغاردي، لكنهم لم يتلطخوا بهرطقته. كان كارل أوسكار وزوجته من بين الأكثر أهلية للثقة، وأكثر الناس ورعا في الأبرشية. سوف يقول الناس سيئو النية إن الأحوال في الأبرشية لا بد أن تكون وضيعة وفقيرة جداً عندما لا يستطيع هؤلاء الزوجان الكادحان المجدّان أن يكسبا رزقهما في الوطن، ويُجبران على الهجرة إلى قارة أخرى.

«لقد أسقط المزارع المجنون من كاراغاردي حقه في العيش في هذه المملكة،» أكمل بروسندر. «لكنه ما يزال حراً بفضل زماننا المتنوِّر. غير أني أتمنى الاحتفاظ برجل مستقيم مثلك في أبرشيتي.»

ووضع القسيس يده على كتف كارل أوسكار الفلاحي العريض. «هل فكرت ملياً بالمغامرة التي تلقي بنفسك فيها، مع زوجة وأولاد؟ هل تعرف الحقيقة عن هذه الأرض التي تغويك؟»

ولم يعط بروسندر الوقت للمزارع ليجيب؛ وإنما شرع هو في شرح الأوضاع في العالم الجديد. لقد سكن أميركا الشمالية منذ البداية الثوار وأصحاب المشاكل الذين حاولوا إسقاط النظام القانوني في بلدانهم الخاصة. ومنذ اكتشافها، ظلت أميركا مأهولة بشكل أساسي بالأشخاص الخائنين والمتمردين، العاصين للسلطة في الوطن، أناس انتهكوا القوانين وأرادوا الهرب من العقاب العادل. وقد اجتاحها منذ البداية المنشقون، الخارجون عن الدين، المنفيون من الوطن عندما ينشرون هرطقاتهم. هكذا كانت لمئات السنين، وهكذا هو حالها اليوم. وقد هرب أولئك الذين أضلوا الآخرين ضد السلطات الروحية والمدنية في أوطانها في أوروبا إلى الولايات المتحدة. إلى الولايات المتحدة فرّ القتلة هرباً من الشنق، واللصوص هرباً من السجن، والمشعوذون المحتالون من ضحاياهم،

والنصّابون من ديونهم، والمغرَّرون من النساء الحوامل والمغرِّر بهن، وكل أولئك الذين خافوا من شيء في وطنهم، كل أولئك الذين لم يحبوا العيش في مجتمع منظم وصحي وورع. في أميركا الشمالية ليس لدى هؤلاء ما يخشونَه، فهم هناك آمنون، كل أولئك المتمردون والمجرمون من العالَم القديم.

بين المهاجرين هناك أيضاً، بطبيعة الحال، أناس مستقيمون لم ينتّهكوا قانوناً في بلدانهم. ولكن، ما الذي دفع بهؤلاء إلى المُغامرة؟ لا شيء سوى الرغبة بالكسب الدنيوي، بمتعة الجسد، بأمور تافهة وزائلة. كانت رغبة الشيطان في عقولهم هي التي أضلتهم وأبعدتهم؛ كانوا أكسل من أن يكسبوا رزقهم بالعمل الشريف؛ وأرادوا أن يجنوا الثروة بلا عمل؛ أراد المهاجرون الثروة السريعة حتى يستطيعوا أن يعيشوا بعد ذلك في الشراهة، والسكر، والتبطل، والعهر. وكان الجزء الأعظم منهم أناساً متغطرسين، متهورين ومستهترين، يتحدثون عن أرض آبائهم بسوء، ويبصقون على الأم التي ولدتهم.

صحيح أن الأرض خصبة في أميركا الشمالية، ويستطيع السكان أن يكسبوا عيشهم بسهولة. لكن على المسيحي أن يفكر أيضاً في الوضع الروحي للشعب الأميركي. ما يزال هناك في ذلك البلد قبائل متوحشة من الناس الحُمر، الذين يعيشون تقريباً كالحيوانات؛ وحتى بين الناس البيض هناك الكثيرون ممن لا يعرفون الإله الصحيح والتعاليم الإيفنجاليكانية النقية. يجب على المسيحي المخلص أن لا ينظر إليهم بعجرفة، بل عليه أن يرثي لهم؛ لكن كل الذين يعيشون في المجتمعات السويدية يجب أن يشكروا الله على أنه جعلهم يولَدون في أرض تُعلِّم فيها المسيحية الصحيحة. ربما يكون صحيحاً أن على السويديين أن يعملوا بجد أكثر قليلاً من الأميركيين من أجل رزقهم، كلا، بل يأكلون في بعض الأحيان خبزهم بعرق جباههم. لكن أسلافهم اضطروا على مر العصور إلى أن يأكلوا خبزهم من لحاء الشجر، وأن يتحملوا غائلة الجوع. لكنهم فعلوا مع ذلك أشياء عظيمة، أشياء أعظم بكثير مما يفعله السويديون اليوم. لقد أعطى خبز لحاء الشجر القوة الروحية للرجال. وقد وجدوا القوة أيضاً في قناعتهم، وفي طاعتهم لله والسلطة.

هناك الكثير من الفوضى والاضطراب في الولايات المتحدة. هناك يتجول المرتدون والمبشرون بالعقائد الفاسدة طليقين، ويُسمَح لهم بفعل ما يشاؤون.

والسلطات تتركهم لشأنهم بغباء. هناك لا أقل من سبع وثمانين عقيدة دينية زائفة. والأميركيون يبنون برج بابل جديداً ليصلوا إلى السماء. لكن الله سرعان ما سيدمر ويسحق هذه الأرض المضطربة التي تُسمى الولايات المتحدة. لأن النظام الدائم والصحيح يمكن أن يقام فقط على وحدة الدين، على أساس التعاليم الصحيحة والصائبة فقط —على التعاليم الشفهية المقدسة لاعتراف أوسبيرغ.

إن الرب القدير مُنتقم جبار. وخلال خمسين سنة لن تعود هذه الولايات المتحدة موجودة؛ خلال خمسين سنة ستكون قد أُزيلَت من على وجه الأرض، مثل إمبراطوريات روما وبابل.

«خلال خمسين سنة! تذكر كلماتي! تذكر كلماتي!»

وتوقف القسّيس لوهلة؛ لقد نوى أن يقول بضع كلمات فقط، لكنّه بشر بعظة صغيرة كاملة، لجمهور من شخص واحد من رعايا الأبرشية. لكنه يجب أن يخبر كارل أوسكار نيلسون بأن أميركا هي أرض الأنبياء المزيفين مثل دانجل أندريسون، للمغامرين والمارقين مثل فريدريك ثورن —وليست مكان استقرار لمزارع مستقيم وقادر مثله.

قال ملتمساً: «كارل أوسكار نيلسون! ابق في مجتمع بلدك واكسب رزقك بكرامة، كما كنتَ!»

خلال خطبة القسيس، وقف كارل أوسكار ساكناً يعصر قبعته بيده، باتجاه اليمين؛ والآن، شرع بليّها في الاتجاه الآخر، باتجاه اليسار، بينما تتجول عيناه على جدران غرفة راعي الكنيسة الكبيرة، حيث تعلقت العديد من رسوم أسلاف بروسندر في المنصب. ربما كان عشرة قساوسة وكهنة والخورَة ينظرون إليه من فوق من الجدران الأربعة، بعضهم بملامة ودودة، وآخرون يحثّون بقوة أكبر، لكنهم كلهم يحاولون إثناءه —كلهم يتفقون مع التماس خليفتهم: «ابق في الوطن واكسب رزقك بشرف واستقامة!»

«ألستَ مضلَّلاً؟ ألا ترى الوهم في السراب؟» استمرّ القسّيس.

توقف كارل أوسكار عن ليّ قبعته —ثم عاد ثانية، إلى اليمين هذه المرة. كان ذلك أشبه بامتحان في التعاليم الشفهية، وعندما غادر البيت، لم يكن مستعداً لاختبار حتى يحصل على أوراقه. كان بوسعه أن يجيب على هذه الأسئلة؛

لكن بعض الروع من معلّمه ظل في داخله؛ إنه يعرف أن القسيس لا يحب أن يُعارَض، وسيقوم القسيس بتحريف أيّ شيء يقوله حتى يكون هو، بروسندر، على جانب الصواب.

تغضن جبين القسيس: فلاح يترك مزرعته ليهاجر إلى أميركا الشمالية —علامة جديدة على ذلك الاضمحلال الروحي الذي استشرى بين أهالي البلد، ومزق الروابط المقدسة إرباً. إن أهم أسباب هذا الشر هو عدم إطاعة الوصية الرابعة؛ ونتيجة لهذا العصيان الأساسي، ربما تنفصم حتى الرابطة الأخيرة، الرابطة التي تضم الناس إلى أرض الآباء الحبيبة.

«ربما تكون مغامرتك هي دمارك ودمار أهلك؛ ولذلك أنصح ضدها. ويجب أن تدرك أنني أتحدث لصالحك فقط.»

«أعتقد أنك تقصد خيراً، سيدي القسيس.»

لطالما شعر كارل أوسكار بأن راعيه كان مخلصاً في العناية الأبوية التي يوليها لحاجات رعايا أبرشيته الروحية والدنيوية، لو أنه شعر في بعض الأحيان بأنه يتخذ لنفسه سلطة كبيرة جداً.

ومضى القسّيس إلى القول: لأن المهاجرين مدفوعون بالأنانية وشهوة الجسد —رغبات الإنسان الأساسية، الشهوانية— فإن الهجرة إلى الولايات المتحدة تعاكس وصايا الربّ والكنيسة اللوثرية الإيفانجيليكانية الحقيقية. وقد أُعلِمَ مهاجرو السويد بذلك مُسبقاً وبطريقة مخيفة. مجموعة من الناس من المنطقة الشمالية —من هلسينغلاند وداليكارليا— ضللهم رسول للشيطان، أداة للزيف، فلاح يدعى إريك جانسون، وفي عماهم هاجروا إلى أميركا الشمالية. وفي رحلتهم ضربتهم الكوليرا، سوط الله ذاك. ومات المئات من الناس المساكين قبل أن يصلوا إلى وجهتهم. إن الربّ الإله منتقم جبار، والكوليرا كانت أداة انتقامه. وقد هدأ العقاب الرهيب القلق في الوطن في السنة الماضية، وأطفأ الرغبة في الهجرة.

بعد تجربة هؤلاء الطائفيين، يستطيع المرء أن يدرك رأي الله في الهجرة.

«أجبني بصدق يا كارل أوسكار: أليست الرغبة في العيش المترف هي التي تدفعك للهجرة؟»

كان كارل أوسكار ما يزال يلوي قبعته بكلتا يديه كما كان. وهو لم يفكر بالرحلة إلى أميركا الشمالية لكي يُسلم نفسه لتلك الرذائل التي يتم تعدادها في التعاليم الشفهية: الفجور، والشهوة، والزنا والخطايا الأخرى، التي تقصر عمر المرء. إنه لم يضع العيش المترف في باله، وهو متأكد من هذا.

«كلا. ليس من أجل ذلك. لا تفكر هكذا يا سيدي القسّيس. ليس الأمر لأنني أرغب العيشَ المُترف.»

«إنني أصدق كلمتك،» قال القسيس. «لكنها تسيطر عليك روح عدم الرضا. وإلا لبقيت في أرض آبائك. وهل فكرت في والديك، الذين ستهجرهما؟ ووالدك عاجز!»

«ستنتقل حقوقهما المحفوظة مع الأملاك، كالعادة. سيكون العجوزان على ما يرام.»

«لكنه إذا هاجر كل الشباب وأولئك القادرون على العمل، وتركوا المسنين والعاجزين خلفهم، من الذي سيعتني بالبائسين عندئذ؟»

بقي كارل أوسكار صامتاً، وهو يلوي قبعته بأصابع خرقاء مترددة. لو أنه كان سريع البديهة فقط؛ إذا قال أي شيء، فإن القسّيس سيضعه على الجانب الخاطئ. وبدا له أن عليه إخبار راعيه بأن الوقت قد حان للكف عن نصحه بالعدول. ولو جاء الأسقف نفسه لنجدة القسيس، فإنه، كارل أوسكار، لن يغيّر رأيه؛ كلا، حتى ولو حاول الملك نفسه أن يقنعه. كما أن الوقت تأخر على ذلك أيضاً.

والآن، قال متردداً نوعاً ما: «لقد بعتُ أملاكي مسبقاً. وأنا حر بلا التزامات. ربما يمكن تسهيل مأموريتي...؟»

جلس القسيس بروسندر وأسند رأسه إلى ظهر كرسيه العالي. أطبق شفتيه، واتخذ فمه هيئة صارمة.

هذا الفلاح من كورباموين بدا على السطح كثير اللياقة ولين العريكة؛ لكنّ له طبعاً عنيداً كما يبدو. على الرغم من كل لطف القسيس ونصيحته المتكررة، لم يتمكن من زحزحة كارل أوسكار قيد أنملة. كان قد أجاب بكلمات قليلة من حين لآخر، لكنه اعتصم في الجزء الأكبر بصمت أطرش لكلمات الله ونصائح راعيه. لا يمكن لأي قوة بشرية أن تغير نية الهجرة لدى الرجل. والآن بدا ملحاً ومزعجاً وهو يشير إلى مأموريته. ربما يكون بعد كل شيء حصاناً ذا لون مختلف.

على أي حال، لقد أدى القسيس واجبه كمعلم وراع. وكان متأكداً جداً من أن هذا المزارع سيكون وحيداً في أفكاره عن أميركا. هذه الرغبة في الهجرة بين المزارعين، التي ظهرت هنا وهناك في أنحاء المملكة، ربما ستخفت بنفس السرعة التي اندفعت بها. بعد عشرين سنة من الآن، لن يكون هناك أحد في البلد راغباً في الهجرة.

ران صمت. فقط صوت الريشة على الورق كان يُسمع قادماً من الطاولة. اتخذ كارل أوسكار خطوة إلى الوراء، كما لو يرغب في ترك القسيس يكتب براحته.

واستدار القسيس بروسندر وسلم المزارع المستخلص من سجل الأبرشية.

«ذات مرة منحتك العُمّاد المسيحي. ذات مرة هيأتك للعشاء الرباني. وقد عمدت أولادك. والآن أدعو الله أن يباركك أنت وأهلك في رحلتك إلى الأرض البعيدة. أدعو أن لا تندم أبداً على قرارك الجريء.»

وانحنى كارل أوسكار. «شكراً لك، سيدي القسيس.»

ومد بروسندر يده. «لتكن في رعاية الله وحمايته! هكذا كانت بركة أسلافك عند الافتراق.»

«أشكرك جزيلاً، يا سيدي القسيس.»

وانحنى كارل أوسكار مرة ثانية، هذه المرة ربما أكثر من أي مرة انحنى بها للقسيس من قبل. فبعد كل شيء، هذه هي المرة الأخيرة التي سينحني فيها لراعي أبرشيته.

كتب القسيس بروسندر بضع كلمات في سجل الأبرشية، كلما لم يكن قد كتبها أبداً من قبل عن أي من رعاياه: كتب أن مالك المزرعة كارل أوسكار نيلسون صاحب كورباموين، يوم الثامن والعشرين من مارس، ١٨٥٠، طلب مستخلصاً من السجلات لنفسه وأهل بيته لأجل الهجرة إلى أميركا الشمالية.

والصفحات الفارغة التالية في سجل الأبرشية سوف تمتلئ مع الوقت بالملاحظة المتكررة: «انتقل إلى أميركا الشمالية.» خلال السنوات والعقود سوف تُملأ، صفحة وراء صفحة، بأسماء أتباع كارل أوسكار نيلسون.

مهاجر واحد لا يدفع أجرة

١

في صحيفة «المسح» التي كان بعض القرويين مشتركين فيها، ظهر في وقت مبكر من الربيع موضوع إخباري عن سفينة مهاجرين مفقودة: «نظراً لانقطاع الاتصالات من أي نوع، يجد المرء نفسه الآن مجبراً على الاعتراف بالغرق والضياع الكامل للمركب الشراعي الصغير بيتي كاثارينا، الذي بُني عام ١٨٣٥، بقياس ٨٠ ذراعاً، في رحلة من سودرهامن إلى نيويورك. وكان المركب يحمل شحنة من الحديد الخام من سودرهامن. وكان على سطح المركب ٧٠ مهاجراً ممن غادروا أرض آبائهم بحثاً عن عيش عارض في بلد أجنبي. وقد أبحرت بيتي كاثارينا عبر مضائع أور صند يوم ١٥ أبريل من السنة الماضية. ولكن مالكتها، مؤسسة بي. سي. ريتينغ إيت ساي، لم تسمع منها منذ ذلك التاريخ. وبما أن سنة تقريباً مرت الآن من دون أي معلومات عن مكان السفينة، نشر إخطار عن موت الطاقم —تسعة رجال— في مجتمعاتهم السابقة في الوطن. وكان قائد السفينة هو القبطان أندريس أوتو رونينغ. وجاء المهاجرون من أبرشيات مختلفة في هيلسينغلاند؛ وكان بينهم ٢٥ امرأة وعشرون طفلاً.»

هذه النسخة من الجريدة قُرأت على نطاق واسع في القرية، ولا عجب، في تلك الأيام؛ بل لقد أُعيرَت إلى العائلات غير المشتركة. وقد جلبتها بيرتا من آيديمو إلى كورباموين، وقرأت كريستينا عن السفينة التي كان ينبغي أن يكون زمن إبحارها حوالي خمسة أسابيع، لكنها لم تصل إلى وجهتها بعد خمسين أسبوعاً. إن ركاب بيتي كاثارينا لم يصلوا إلى الأرض الجديدة؛ لقد هاجروا إلى أعماق المحيط.

سرى ألم واخز في قلب كريستيا وهي تُطعم صغارها الثلاثة في تلك الأمسية — «... كان بينهم ٢٥ امرأة وعشرون طفلاً.» وعاد كل قلقها القديم وأطبق عليها. لقد أوكل الله رعاية الأولاد إليها —ألا تكون أماً غير مسؤولة حين تأخذ صغارها الذين بلا حَول في سفينة ضعيفة ليعبروا المحيط الرهيب؟ لم تكن تخشى على حياتها الخاصة؛ ولكن، هل تمتلك الحق في تعريض أولادها للخطر؟ إذا غرقوا مع السفينة، فإنها تكون هي التي أغرقتهم، وسوف يحاسبها الله عنهم يوم الحساب: كيف اعتنيتِ بأطفالك؟ ماذا فعلتِ بهم؟ من أجبرك على الخروج إلى المحيط؟ ألَم تتلقي تحذيراً من الخطر؟

ألم يكن للخبر عن السفينة المفقودة تحذيراً أخيراً من الله، والذي وصل كما كان حاله عشية مغادرتهم؟

قال كارل أوسكار إن معظم الناس على اليابسة يموتون في أسرّتهم، ومع ذلك يذهب الناس إليها كل مساء. الحمقى فقط هم الذين يخافون من تحطم السفن. ولم يكن روبرت خائفاً أيضاً. لم يكن كبيراً كفاية، ولم يمتلك منطق الراشدين بعد. وكما لو أنها متعة له، قرأ الآن قطعة كبيرة لكريستينا من كتابه «تاريخ الطبيعة» عن «أمواج البحر.»

«لأن الماء سائل يمكن تحريكه، كذلك يمكن أيضاً أن تحركه الرياح والعواصف. ويتسبب ذلك بالأمواج التي تكون عظيمة أو صغيرة اعتماداً على كثافة الريح وحجم وعمق البحر. وفي العواصف الشديدة على البحر الكبير، ترتفع الأمواج فوق بعضها البعض إلى ارتفاع ثلاثين أو أربعين قدماً؛ ثم تسقط بعد ذلك بقوة لا تصدق لتسحق كل شيء في طريقها. وعندما تسقط مثل هذه الأمواج على سفينة، فإنها ربما تكسر وتفصل قطعاً كبيرة منها، حتى تجعلها تغرق مباشرة.»

«فكري في ذلك يا كريستينا.» قال روبرت مستثاراً. «أمواج أعلى بثلاث مرات من هذا المنزل.»

«هل تحاول أن تجعلني أشعر أفضل إزاء الرحلة؟»

ولم تستطع سوى أن تبتسم للفتى. لم يكن يهتم بما يمكن أن يحصل طالما أنه سيصبح حراً ويخرج إلى العالم. لكن ليس لديه سوى حياته هو فقط ليعول عليها.

لم ترغب كريستينا بمفاتحة كارل أوسكار بمخاوفها. لقد وافقت ذات مرة على أن كل شيء يجب أن يكون حسب ما يقرر، ولن تتراجع عن كلامها. وقد تولى هو المسؤولية كاملة عن هجرتهم. أرادت أن تعتمد عليه وتثق به. وهو عنيد وشديد الجموح، لكنها أحبت أن يكون لها زوج يستطيع أن يأمر ويقرر عنها في بعض الأوقات؛ أي امرأة هي التي ترضى بزوج طرطور وقليل الحيلة؟ كل الرجال في عائلة نيلسا، الذين وُلدوا بأنف كبير، قيل إنهم مثل كارل أوسكار؛ لا يخافون، بل ربما يكونون أحياناً شموسين، لا يتراجعون، ولا يخضعون أبداً. ومن بين كل الرجال الذين تعرفهم، كان كارل أوسكار هو الشخص الذي يعرف ما يريد، قطعاً وبلا ريب، ولهذا أعجِبت به.

لم تكن كريستينا تشعر بأنها على ما يُرام مؤخراً؛ أصبحت ضعيفة وفقدت شهيتها. في البداية، ظننت أن ذلك ربّما نجم عن قلقها إزاء الرحلة الأميركية. ولكن—بينما كانت تنهض من السرير ذات صباح— اضطرت لتركض إلى ما خلف السقيفة في الخارج لتتقيأ، عرفت كيف تجري الأمور معها. لقد خبرت هذا المرض من قبل، أربع مرات. وكان يتبع دائماً نفس المسار: دورتها الشهرية تتأخر عن موعدها، ثم يأتي الوهن، وفقدان الشهية، والقلق والإحباط الذهني؛ ثم التقيؤ في النهاية، كتأكيد أخير. وقد جاء كل شيء على هذا النحو، ولم يعد ثمة شك، إنها حامل مرة أخرى.

كانت تخاف من حَمل جديد. كانت ما تزال ترضع صغيرها ونوت أن تستمر في إرضاعه —قالت بيرتا من آيديمو إن النساء لا يحملن بينما يرضعن طفلاً. وقد أرضعت بيرتا نفسها كلاً من أبنائها ثلاث سنوات، وحبلت خلال شهر من التوقف عن الإرضاع في كل مرة. ولم يفشل ذلك أبداً. من حين إلى آخر، ربما تكون هناك زوجة في الجوار أرضعت أبناءها حتى يلتحقوا بالمدرسة؛ عندما يضطر الأولاد للأكل من سلال الطعام، يجب أن يتوقفوا عن الرضاعة ويتناولوا طعام الكبار. وحدث نادراً أن تذهب أم مع ابنها إلى المدرسة حتى ترضعه من صدرها بين الدروس؛ وعادة ما كان الأولاد الذين لا يتوقفون عن الرضاعة في سن المدرسة بليدين وبطيئي البديهة؛ وكانوا يتعلقون بحبال مآزر أمهاتهم، جائعين دائماً، ودائماً يسحبون كرسياً لها لتجلس عليه.

لم تساعد نصيحة بيرتا كريستينا، لكن العجوز كانت قد حرصت في الحقيقة

على أن تقول لها: إذا حملت أثناء إرضاع طفلها، فإن ذلك يمكن لن يكون خطأ كارل أوسكار. بعض الرجال يملكون بذوراً كثيرة الخصوبة بحيث لا تنفع معها أيّ موانع.

مرات قليلة خلال العام الفائت كانت هي التي سيطر فيها على كريستينا إغواء شرير. لقد أرادت أن تصلي لله كي لا يجعلها تحمل مرة أخرى. وقد جاءتها هذه الفكرة في المرة الأولى التي وضعت فيها آنا في الكفن بعد أربع سنوات فقط من عيشها على الأرض؛ لم تُرد أن تحمل بأولاد سرعان ما يموتون. لكنها لم تستطع مقاومة الإغواء، ولم تصل بهذه الصلاة الآثمة. لكم كان ذلك سيكون آثماً كما أدركت الآن، عندما كانت حياة جديدة تتخلق في أحشائها.

ينبغي أن تُسلم نفسها لمشيئة العلي القدير. لكنها لم تقل شيئاً لكارل أوسكار حتى الآن.

٢

ثمة فكرة واحدة ظلت تدق في رأس كريستينا بلا توقف خلال الأمسية التي سبقت مغادرتهم: أن لا تنسى أي شيء. وحتى اللحظة الأخيرة، استمرت في العثور على أشياء لا غنى عنها، أشياء يجب أن تُؤخذ معهم، لكنها لم تكن قد فكرت بها قبلاً. لقد نسيت الشموع، وزنادات القدح —سوف يحتاجون بلا شك إلى الضوء أحياناً خلال السفر. وسوف يريد الأولاد أشياء ليلعبوا بها على السفينة —ليوهان أخذت معجونة الوقواق، ويجب أن تأخذ ليل—مارتا لعبتها المهترئة— ولم يكن أي منهما كبير الحجم. والرضيع هيرالد، الذي خطا في الأيام القليل الأخيرة خطواته الأولى المتعثرة على الأرض، والذي عامل الألعاب فقط بطريقة مدمرة، يمكن أن يتدبر أمره بلا شيء. وتضايقت من نفسها عندما صادفت الغلاية النحاسية ثلاثية الأرجل، وهي هدية زفاف من والديها؛ لماذا لم تفكر فيها من قبل؟

الآن، كان الحيز الوحيد الذي استطاعت العثور عليه للغلاية هو بين ملابس السرير في واحد من الأكياس التي لم يتم إغلاقها بالخياطة بعد. وعندما وضعت يدها داخل الكيس لتصنع متسعاً للغلاية، وقعت على حذاء للأولاد، ممزق

ومهترئ. كان حذاء آنا! كان أول حذاء لها، والأخير.

وقفت كريستينا، شديدة التأثر، وهي تحمل الحذاء الصغير في يديها. لا يستطيع أي من الأولاد الآخرين استعماله، فقد بليَ منذ زمن بعيد، ويتماسك بالكاد بواسطة الرباطات؛ وتذكرت أنها كانت قد رمته. ولا بد أن يكون كارل أوسكار هو الذي التقطه ووضعه في الكيس الذي يجب أن يذهب معهم إلى أميركا.

بمجرد أن تعلمت البنت المشي، لحقت بأبيها، وبهذا الحذاء كانت تسير معه دائماً، وبه ذهبت مسافات بعيدة إلى جانبه. وعندما عثرت عليه كريستينا الآن في الكيس، أسر إليها بشيء جديد عن زوجها.

ناضلت دموعها للحظة؛ وبعناية أعادت الحذاء إلى الكيس.

ثم حشرت غلاية القهوة في الكيس، مما جعل مظهره غريباً: لقد وقف هناك فوق الأرض مثل الأحدب.

تم إقفال صندوق أميركا وربطه بحبال سميكة عثروا عليها؛ وكان قد حُمل مسبقاً خارجاً إلى قاعة المدخل ليكون جاهزاً. وعلى مقدمته كتب كارل أوسكار بالطبشور الأحمر اسم المالك ووجهته —هناك ظهرت بحروف حمراء متقدة: *«المالك كارل أوسكار نيلسون، أميركا ش.»* والآن لن يُفقد الصندوق أو يختلط بآخر.

كان الإنجيل، وكتاب الترانيم، والتقويم ما تزال كلها على الطاولة؛ هذه هي الكتب التي يجب أن تُؤخَذ؛ ومكانها هو حقيبة الظهر، إذ سيجري استخدامها في الرحلة.

دخل كارل أوسكار. وكان قد ذهب إلى القرية ليحضر حذاءً جديداً عالي الرقبة صنعه له صانع الأحذية، والذي لم يجهز حتى اللحظة الأخيرة. لم يعرف أحد أي نوع من الأحذية المتقنة تُستخدم في أميركا، وحتى يكون على الجانب الآمن، طلب حذاءً عالياً، يصنع من جلد ثور مدبوغ بلحاء البلوط، الأفضل الذي يمكن امتلاكه. وقد وصلت الرقبة إلى ركبتيه، ويمكن استخدامه في كل أنواع الطقس وكل أنواع الطرق. على الطرق الوعرة في براري أميركا يفضل أن يكون المرء منتعلاً حذاءً جيداً إذا أراد المرور.

لبس الحذاء الجديد وخطا بضع خطوات على الأرض حتى تراه كريستينا

وتعجب به وتمتدحه. كان الحذاء مصبوغاً بالأسود اللامع ومقوى عند العقب بالحديد، مثل حذوتي حصان صغيرتين. وسيستطيع بهذا الحذاء أن ينزل إلى الشاطئ في أميركا دون أن يخجل. ويمكنه أن يري هذا الحذاء للأميركيين بافتخار.

لكن الإسكافي غير المسؤول كان لا ينهي صناعته في الموقت المحدد.

كانت كريستينا تنظف بالفرشاة ملابسه الأفضل المخصصة ليوم الأحد، التي سيرتديها صباح الغد. وقد وضعت الأولاد في أسرّتهم وناموا، بعد أن غسلتهم وألبستهم ملابس نوم نظيفة جديدة. وعرف يوهان وليل—مارتا أنهم سيخرجون ويركبون العربة في صباح الغد، وأنهم سوف يذهبون في رحلة طويلة، لكن الأم شعرت بوخز في قلبها وهي تعلم أنهم لا يعرفون عن أي شيء آخر. لم تكن لديهم فكرة عن الطريق الطويلة التي سيقطعونها مع والديهما؛ وسوف يمر وقت طويل قبل أن يناموا مرة أخرى بالسلام الذي توفره حماية البيت.

الآن، في هذا المساء، ينبغي أن تتحدث إلى كارل أوسكار؛ قبل أن يبدأوا رحلتهم يجب أن يعرف أن هناك حياة أخرى أيضاً قادمة على الطريق.

«يفضل أن أخبرك. أنا كذلك مرة أخرى.»

نظر إليها، متحيراً. وقبل أن يتسنى له الوقت ليسأل، أكدت له أنها لم تنخدع بإشارات زائفة: سوف يكون لهما صغير جديد مرة أخرى، وينبغي أن يثق بذلك.

«هممم.»

نظر كارل أوسكار حوله إلى الجدران العارية الفارغة للبيت الذي سيغادروه غداً إلى الأبد. أخيراً أصبحوا جاهزين، أخيراً انتهت كل التحضيرات الطويلة والمرهقة، وعندما أحضر حذاءه أخيراً في هذه الأمسية، التي كان قلقاً بشأنها، شعر بالرضا عن كل شيء عملياً. ثمّ جاءه هذا الخبر الجديد، الذي لم يكن مستعداً له.

أفلتت منه جملة: «ليس هناك ما هو أكثر غرابة وسوءاً في التوقيت.»

«ماذا تقول؟»

«أعني، أن التوقيت غير مناسب الآن فقط.»

واشتعلت غضباً. وارتفع صوتها: «لا أستطيع أن أحمل حسب ما يُناسبك!»

«كلا، يا عزيزتي، لا تأخذي الأمر بـــ......»

«ما الذي تعنيه بالضبط، إذن؟ أنني أنا السبب فقط؟ أنه خطئي أنا فقط أنني أحمل طفلاً؟»

«أنا لم أقل هذا.»

«قلت أن التوقيت سيئ. هل تنكر ذلك؟ ولكن، أليس هذا خطأك أيضاً؟ ألم تشارك في ذلك، ربما؟ وحتى أكثر مني؟ ألست أنتَ هو الذي وضعني في هذا الموقف؟ ألست أنت أيضاً من يأتي في توقيت سيئ؟»

«كريستينا! ما الذي حلّ بك؟ يستطيع أبي وأمك هناك أن يسمعاك!»

لكن سورة غضب زوجته أقنعته بحملها أكثر من أي شيء آخر؛ في تلك الأوقات تكون دائماً عصبية المزاج ومتوترة وقابلة للاشتعال لدى أقل كلمة يمكن تأويلها كإهانة.

«هل يجب أن تأخذي الأمر بهذه الحساسية؟»

كانت عيناها تتقدان، واكتسى خدّاها بالحمرة. «يبدو الأمر وكأنك تتهمني! كما لو أنني وحدي المسؤولية! أنا مُلامة أقل منك! يجب أن تشعر بذلك وحدك! لو أنك تشعر ليوم واحد، لساعة واحدة، بأنك مريض جداً كما أشعر...»

وألقت بوجهها على طاولة المطبخ، وذراعاها مطويتان أمامها، وانفجرت بالبكاء.

وقف كارل أوسكار هناك بلا حَول. لم يستطع أن يفهم تصرف زوجته على هذا النحو. وكان ينفجر غضباً هو نفسه. لكنه يجب أن يحتفظ برزانته، لأنها لم تكن به وعكة يتعلل بها. كما أن كريستينا لا بد أن تكون مُنهكة بعد كل هذه الاستعدادات للرحلة.

وضع يده على كتفها، وربّت عليها بخرَق: لقد استخدم كلمات غير حكيمة، والتي فسرتها بشكل خاطئ. وقد ندم عليها، لكنه لم يكن يقصد الأذى. إنه لم يحاول أن إنكار مسؤوليته في الحَمل. كيف يمكن أن تفكر بشيء بمثل هذه الحماقة؟ إنه لم يتهمها بشيء. لقد قصد فقط أن من سوء الحظ أن تكون حاملاً عندما يبدآن رحلتهما —التي ستكون بهذه الطريقة أصعب عليها. وربما سيكونون قد وصلوا بالكاد إلى بيتهم الجديد عندما ترقد في سرير المخاض؛ وذلك أيضاً لن يكون جيداً.

«إنك تخشى أن أكون مشكلة،» أضافت.

«أنا لم أقل ذلك مطلقاً. لكنني أخشى أن تكون الأمور أصعب عليك عندما يكون لدينا صغير إضافي.»

كان خلال الأشهر الأولى من حملها يشعر دائماً بأنها متوعكة وغاضبة. هذا الوقت العصيب الذي يصعب إرضاؤها خلاله، سوف يقع الآن خلال العبور الفعلي للمحيط. لكنه كان ليتصرف على نحو أكثر حكمة لو أنه لم يبح بمخاوفه.

أمسك بيدها، التي ظلت مرتخية وبلا أي ردة فعل. لكنه أبقاها في يده واستمر في حديثه.

ينبغي أن تظل الأمور على ما هي عليه؛ لا أحد يستطيع تغييرها. وطالما أنه ليس لدى أيّ منهما ما يتهم به الآخر، فإنها ربما ينسيان شجارهما أيضاً. الآن، عندما يستعدان للسفر بعيداً وبناء بيت جديد، يجب أن يسند أحدهما الآخر ويكونا معاً. وبغير ذلك فإنهما لن ينجحا أبداً. سوف يفسدان الأمور على نفسيهما إذا تشاجرا وعاشا متخاصمين معاً. سوف يؤذيان نفسيهما وأولادهما فقط إذا ذهب كل منهم في جهة؛ سوف يدمرا طبيعتهما الطيبة ومتعتهما بالعمل، الآن عندما يحتاجان أكثر من أي وقت مضى إلى الجرأة وعدم الخوف. ألا يجب أن يتفقا، في هذه الليلة الأخيرة لهما في الوطن، على أن يكونا صديقين وهادئَين في كل الأوقات؟ إنها تريد أن تكون صديقته، مثل السابق، أليس كذلك؟

«بالطبع أريد ذلك، ولكن...»

نشجت بلا دموع وانتابها الفُواق بعد البكاء.

«لماذا إذن ما نُمت تريدين؟»

«كارل أوسكار... إنك تفهم... أنا لا أشعر بأنني على ما يُرام.»

«أعرف ذلك.»

«يجب أن تتحدث بلطف معي.»

«لن أتحدث بغير لطف معك، يا كريستينا.»

«هل تعدني؟»

كانت كريستينا تصبح أكثر هدوءاً؛ وقد أدركت أنها هي أيضاً لم تكن عادلة. لقد فقدت صوابها. لكنه استخدم هذه الكلمات المثيرة للحفيظة: «ليس

هناك ما هو أكثر سوءاً في التوقيت.» وقد أفلتت هذه الكلمات منه ولا بد أنه قصد شيئاً بقولها. هل قصد أنها ستخرب رحلته بحملها؟ لقد بدا الأمر كما لو أنها فعلت كل ما تستطيع لتحمل بطفل مرة أخرى. عندما، على العكس، كان هو الذي يكون مستعداً في الفراش! ربما أساءت فهمه؛ ومع ذلك، كان من الصعب نسيان هذه الكلمات القبيحة.

لكنها تذكرت أيضاً كم كان لطيفاً معها في أغلب الأحيان. مثل تلك المرة الأولى التي حملته بها بطفل: تغيرت بشرتها؛ وتغطى وجهها ببقع بنية بشعة. وقد اعتادت أن تصيبها الصدمة كلما نظرت في المرآة، وبدت مثل امرأة عجوز على الرغم من أنها كانت بالكاد في السنة التاسعة عشرة. وشعرت بأن عليها أن تهرب وتختبئ من الناس، وخاصة من كارل أوسكار. لم تكن قد حلمت أبداً بأن حياة الزوجية سوف تشوهها. وقد اشتكت لأمها، التي ضحكت منها فقط وقالت إن بشرتها البنيّة سوف تختفي قريباً. وكان الشخص الذي هدأ روعها هو كارل أوسكار، الذي قال إن البقع البنية كانت تليق عليها. وكان سعيداً بها! لقد أصابتها البقع لأنها كانت تحمل طفلاً، كانت تحمل طفلاً لأنها كانت معه، وكانت معه لأنها تحبه. كانت البقع البنية البشعة بالنسبة لأوسكار بمثابة إثبات على حبها له. فكيف لا يكون سعيداً بها؟

لن تنسى المرة التي قال لها فيها ذلك. والآن أصبحت تتوقع مرة أخرى البقع البنية التي يمكن أن تدمر بشرتها. وهي تعرف أن لها بغير ذلك وجهاً لطيفاً، بل وربما جميلاً، مدوراً تقريباً، وبخدود صافية. لكن وجهها ظل جميلاً لفترات قصيرة —فقط بين فترات الحمل.

شدت يد كريستينا على يد زوجها بقوة أكبر. «كارل أوسكار... يجب أن نكون أصدقاء... كل الوقت.»

ونهضت بتردد وشغلت نفسها؛ كيف يمكن أن يكون لديها الوقت لتجلس هنا وتذرف الدموع في أمسية كهذه، عندما يكون لديها مئة عمل لتنجزه، أعمال لا يمكن إرجاؤها إلى الغد —ولا واحد منها. الآن يجب أن تسرع كما لو أنها زبدة ينبغي رفعها عن النار؛ يجب وضع الأزرار على سترة يوهان الجديدة؛ ويجب إصلاح وكي ثوب ليل—مارتا الليلي الجديد، وقميص نومها هي، وقميص أوسكار الذي سيرتديه غداً، ثم، ثم —لقد كانت امرأة غبية، تتسبب بالمشاكل

في هذه الليلة الأخيرة.

سرعان ما تكيف كارل أوسكار مع فكرة أن عائلته ستكبر بعد سبعة أو ثمانية أشهر.

قال إن هذا بشارة خير حقاً لهم لأنهم سيغشون القبطان الآن في عبور شخص واحد، ابنهم الرابع سوف يصحبهم دون أن يكلفهم قرشاً واحداً! ما الذي سيكونه ذات يوم هذا المهاجر الذي كان ذكياً سلَفاً بحيث تدبر أمر الحصول على رحلة مجانية إلى أميركا؟

عندئذ، غمرت كريستينا نوبة ضحك بهيج. قبل قليل فقط بكت؛ والآن انهمكت ضاحكة في أعمال التحضير للرحلة إلى الأرض التي سيبني فيها كارل أوسكار بيتهم الثاني.

المهاجرون الأوائل

من أبرشية ليودر، الذين غادروا منازلهم في ٤ نيسان (مايو)، ١٨٥٠:

كارل أوسكار نيلسون، صاحب مزرعة، ٢٧ عاماً.

كريستينا يوهانزدوتر، زوجته، ٢٥ عاماً.

أبناؤهما:

يوهان، ٤ سنوات.

مارتا، ٣ سنوات.

هارالد، سنة واحدة.

روبرت نيلسون، عامل مزرعة، ١٧ عاماً.

دانجل أندريسون، صاحب مزرعة، ٤٦ عاماً.

إنجا—لينا، زوجته، ٤٠ عاماً.

أبناؤهما:

سفين، ١٤ عاماً.

أولوب، ١١ عاماً.

فينا، ٧ سنوات.

إيفا، ٥ سنوات.

آرفيد بيترسون، خادمهما، ٢٥ عاماً.

العزباء أولريكا من فوسترغوهل، الحالة غير معروفة، ٣٧ عاماً.

إيلين، ابنتها، ١٦ عاماً.

يوناس بيتر ألبريكتسون، مالك مزرعة، ٤٨ عاماً.

كارل أوسكار نيلسون: أبحث عن أرض حيث أستطيع أن أساعد بعملي نفسي وعائلتي.

كريستينا: أنا أذهب حيث يذهب زوجي، لكنني أفعل ذلك بتردد وبنصف ندم.

روبرت نيلسون: أنا لا أحب السادة.

دانجل أندريسون: أريد أن أعترف بحرية بالرب ذي الحواري الاثني عشر في الأرض التي سوف يرشدني إليها.

إنجا—لينا: «أينما تذهب، سوف أذهب؛ وحيث تموت، سأموت، وهُناك سيكون مدفني.»

آرفيد: أريد الهروب من لقب «ثور نايباخن.»

أولريكا من فوسترغوهل: السويد —هذه الحفرة في الجحيم.

إيلين: أمي أخبرتني...

يوناس بيتر من هاسترباك: لم أعد أستطيع احتمال التعايش على طريقة الأزواج مع زوجتي بريتا—ستافا؛ من الآن فصاعداً، ليحدث لي ما يحدث.

كل البوابات مشرعة في الطريق إلى أميرك!

١

خرجوا في صباح خميس، وقد اختير اليوم بعناية. الإله الوثني صاحب المطرقة —ثور— كان إلهاً قوياً وضع فيه أسلافهم ثقتهم، وحتى مع الدخول الطويل في عهد المسيحية ظل يومه الأسبوعي يعتبر يوماً ميموناً لبدء مغامرة جديدة. وإلى جانب ذلك، كان هناك قمر جديد، وهي بشارة جيدة للمهاجرين.

ألف سنة تقريباً مرت منذ تجمع ناس هذه المنطقة في جماعات ليبحروا عبر البحر باتجاه الغرب. وفي تلك المرة، بقيت النساء والأولاد في الوطن. لكن الرجال في تلك المرة، مثل هذه المرة، حملوا أدوات حادة في رحلتهم؛ الأجداد سلحوا أنفسهم بالأسلحة، وهذه المرة أصبحت الأسلحة أدوات للسلام، محزومة في قيعان الصناديق —الفؤوس العريضة، المثاقب، المطارق، المساحج. هذه المرة سافر الناس لغاية أخرى.

كان كارل أوسكار قد استأجر خيولاً وعربة مستوية من شمّاس الكنيسة في أكربي، ووصلت العربة وسائقها قبيل الفجر بقليل. وهو، وروبرت، والسائق حملوا العربة؛ وكان صندوق أميركا ثقيلاً جداً حتى اضطر ثلاثتهم إلى استخدام قوتهم مجتمعة حتى يرفعوه إلى العربة.

استغرق وداع الأقارب وقتاً قصيراً. أخذت ليديا يوم إجازة لتودع أخويها. وأخذ كارل أوسكار أخته إلى جانب ورجاها أن تعتني بأبويهما، خاصة فيما بعد عندما يصبحان أكبر سناً ولا يستطيعان تدبر أمورهما بنفسيهما: وسوف يدفع لها مقابل ذلك؛ وأخذت مارتا كلاً من حفيديها بين ذراعيها وقالت: «فليحمكما الله، أيها المخلوقان الصغيران الضعيفان!» وصافح الأبناء والديهما، بشيء من التردد، وربما الخجل، تقريباً مثل الأولاد الصغار غير المطيعين، لكنهما

يشعران بالحرج من طلب الصفح. ولم يقل أي منهما أبداً أنه ينوي العودة. والآن، قال كارل أوسكار، مع محاولة ابتسامه، أنه عندما يكسب ما يكفي من النقود في أميركا، فإنه سيعود ويشتري عزبة كراكيسيو، ولشقيقته ليديا سوف يستعيد كورباموين. وقد عرف الجميع أنه يمزح، لكن أحداً لم يبتسم. وشعر نيلس ومارتا أنهما يريان ابنيهما للمرة الأخيرة في هذا الصباح النيساني القاتم.

كانت كريستينا قد ودعت أبويها قبل بضعة أيام في دوفيمالا. ولم تبك بينما كانت هناك، لكنها لم تستطع في طريق العودة إلى البيت أن تحبس دموعها أكثر من ذلك عندما فكرت بكلمات أمها الوداعية: «تذكري يا ابنتي العزيزة، أتمنى أن أقابلك عند الله.»

كل ما امتلكوه في هذا العالم أصبح الآن فوق العربة. كان الحمل عالياً وعريضاً، مع الكيسين الكبيرين على القمة؛ ومع ذلك فكر كارل أوسكار أن هناك متسعاً للمزيد — إن الحمولة لم تبلغ السماء بعد!

وقف نيلس ومارتا على عتبة البيت.

«قُد بحذر عبر البوابة.» قال نيلس للصبي الذي يقود. وكانت هذه هي الكلمات الأخيرة التي سمعها ابناه المغادران يقولها. وكان التحذير في محله: كانت البوابة ضيقة على مثل هذه العربة العريضة، وقد علق مقبض التوجيه بواحدة من الساريتين، وتمكنت الخيول مع الحمولة من العبور بصعوبة من البوابة.

«كل شيء ضيق، هنا في الوطن!» قال روبرت.

جلس كارل أوسكار بجوار السائق وهو يحمل يوهان على ركبتيه. وجلست كريستينا في الخلف مع الولدين الأصغرين، اللذين كانا مستيقظين تماماً على الرغم من الوقت المبكر، ينظران حولهما بعيونهما الصافية. وجلس روبرت على كيس علف الخيول على قمة الحِمل.

وعندما وصلوا إلى طريق القرية، استدار كارل أوسكار للمرة الأخيرة ونظر باتجاه البيت: كان أبوه وأمه ما يزالان على الشرفة يراقبان الراحلين — والده منحنٍ بصرامة ومتعلق على عكازيه، وأمه قريبة إلى جانب زوجها، طويلة، ومنتصبة الظهر. هنا على العربة جلس الصغار، مغادرين — وهناك

وقف الكبار، متروكين وراءَ.

لم يستطع كارل أوسكار رؤية والديه يأتيان بأقل حركة. وبينما يقفان هناك على الشرفة، ينظران في إثر العربة، بديا له ساكنين وجامدَين مثل الموتى، أشياء ملتصقة بالأرض، مثل زوجة من الحجارة العالية في الحقل، أو كزوج من سيقان الأشجار في الغابة، متجذرين عميقاً في التراب. كان الأمر كما لو أنهما اتخذا وضعاً واحداً مرة واحدة وإلى الأبد، ونويا البقاء فيه إلى مالانهاية. وبينما يراهما في نصف الضباب، في هذا الصباح الباكر، فهكذا سيعودان لذاكرته إلى الأبد: أب وأم، يقفان بسكون معاً على الشرفة، ينظران خلف عربة تسير عبر البوابة وإلى الطريق، وتختفي بعد دقيقة بين أشجار العرعر على المنحنى. في ذلك المكان وفي ذلك الوضع، سوف يبقى والداه دائماً في عقله. وبعد عدة سنوات، سوف يراهما يقفان هناك، متقاربَين معاً، ينظران إلى الطريق، موضوعات جامدة، منحوتتين بشريتين من الصخر.

لم تنكر كريستينا لكارل أوسكار ما حدث بأنها سمعت ملاحظة قالها نيلس عندما أصبحت العربة جاهزة للمسير: «يجب أن أخرج وأواكب جنازة ولديّ.»

٢

كان الربيع متأخراً هذا العام؛ والأرض ما تزال متجمدة. وقد تكوَّن الصقيع خلال الليل، وكان الصباح النيساني شديد البرودة؛ وكانت السماء ما تزال مكفهرة ولم يكن ضوء النهار قد اكتمل بعض. كان الحمل ثقيلاً لكن العجلات تدحرجت بخفة على الطريق المتجمدة.

من مقعده العالي على كيس القش استطاع روبرت أن يرى أعراف الخيول تتموج من تحته مثل الغصون الأغصان المتبرعمة حديثاً في الريح. وقد نهضت أعناقها قوية العضلات وخفقت بفترات منتظمة، وتحركت خاصراتها المغطاة بالوبر بتموجات ناعمة، وقطعت حذوات الخيول الحادة كِسَراً من الحجارة على الطريق. وملأ رئتيه شعور بالتوقع لا يُقاس: لم تكن هذه عربة طاحونة عادية، ولم يكن هذا حمل تبن بطيء، ولا هي عربة تذهب إلى الكنيسة في يوم أحد مُقبض. أخيراً، ها هو يعتلي مركبة المغامرة.

سوف يصل البحر غداً.

مروا عن نايباخِن، وبينما جمعت العربة السرعة هابطة التلة إلى الجانب الآخر من المزرعة. شرع روبرت بالصفير. لم يستطع أن يكبح نفسه أكثر، ولم يفعل شقيقه وزوجته شيئاً إزاء ذلك.

صفر بقطعة موسيقية مرة أخرى بينما يمرون بجوار مقرّ راعي الأبرشية: وتساءل عما إذا كان يمكن اعتباره مدنساً. لم يكن قد طلب أوراقه، واستطاع أن يسمع القسيس ينادي اسمه في الاختبارات السنوية: عامل المزرعة روبرت نيلسون، لم يُسمع عنه منذ ١٨٥٠. ثم يسكت القسيس: المكان غير معروف. وبعد عشر أو عشرين سنة، سيظل مكتوباً مقابل اسمه: المكان غير معروف.

في كل مرة مروا فيها عن بوابة على الطريق، كان روبرت يقفز عن العربة ويفتحها. وقبل أن يصلوا إلى منعطف أكيربي، كان قد فتح خمس بوابات. وقد عدّها بعناية، كان سيصبح بواباً، ويجب أن يعد كل البوابات في الطريق إلى أميركا.

ومروا أيضاً عبر المراعي، حيث كانت البوابات قد أزيلت من أجل فصل الشتاء؛ لكن روبرت عدّ الفتحات مع ذلك باعتبارها بوابات على الطريق إلى أميركا —لو تأخرت هجرتهم شهراً، لكانت هذه البوابات أيضاً قد أُغلقت.

غرقت ليل—مارتا وهارالد في النوم على ذراعي أمهما، وقد هدهدتهما حركات العربة. ولعب يوهان دور السائق، ممسكاً أحد الأعنّة وصارخاً على الخيول. وجلس كارل أوسكار وكريستينا صامتَين وقد علت وجهيهما الجديّة، بينما تتلكأ عيونهما على الأماكن التي تعرفها جيداً: هذا هو الجدول ذو حفرة السباحة، إننا نمر به الآن للمرة الأخيرة؛ في هذا المرج لن نرى أبداً زنابق الوادي في الربيع مرة أخرى. إننا نريد أن نتذكر كيف تبدو هذه الأماكن، إننا تواقون إلى تذكرها —لقد كانت ذات مرة جزءاً من شبابنا...

كان المهاجرون قد اتفقوا على الالتقاء عند منعطف أكيربي، وقد انتظرتهم العربات الأخرى هناك. كان دانجل صاحب كاراغاردي قد استأجر عربة وخيولاً من كاراكيسيو. وهو أيضاً جلب حملاً ثقيلاً —زوجته، أولاده الأربعة، وأولريكا من فوسترغوهل. وقاد يوناس بيتر من هاستربباك عربته الخاصة التي يجرها حصان واحد، وقد صحبه أجيره الذي سيقود العربة عائداً من

كارلسْهامن. وهناك اثنان من جماعة كاراغاردي، اللذان لم يجدا متسعاً على عربة دانجل، ركبا مع يوناس بيتر —عامل المزرعة آرفيد، وابنة أولريكا: إيرين.

كان في العربة من كورباموين، إضافة إلى حملها، أربعة أشخاص راشدين، واعتقد يوناس بيتر مع ذلك أنها يجب أن تصبح أخفّ؛ وهكذا انتقل روبرت إلى عربته ووجد مقعداً بين السائق وإيلين. وخلفهم، إلى جانب عامل يوناس بيتر، جلس آرفيد، الذي رحب الآن بروبرت بابتسامة؛ كان العاملان من نايباخِن يرتحلان معاً إلى العالم الجديد بعد كل شيء. وبشكل ما، لم تكن الأمور تسير كما خططا خلال معاركهما الليلية مع البق في غرفة إسطبل آرون: لم يتسللا مبتعدين سراً فوق حمل من التِّبن، ولم يكونا وحيدَين في رحلتهما.

كان هناك تسعة عشر شخصاً في الاجتماع عند منعطف أكيري هذا الصباح. وسوف يعود ثلاثة سائقون من كارلسْهامن، ويصبح المهاجرون ستة عشر، تسعة راشدين وسبعة أولاد. ومعاً شكلوا عائلة كبيرة بشكل مناسب، كما قال يوناس بيتر بينما يعدّهم. ولكن، من هو الذي سيترأس العائلة؟

كلهم نظروا إلى كارل أوسكار. وقال إنه يستطيع بالكاد أن يقودهم جميعاً، فهو الأصغر بين المزارعين.

«أنت أكبرنا سناً يا يوناس بيتر.»

«لكنك كنت أول من قرر القيام بهذه الرحلة يا كارل أوسكار. وكنت أنا الأخير.»

شرعت العربات المحمَّلة بالمسير مرة أخرى، باتجاه مقاطعة بليكينج. وقاد يوناس بيتر أولاً، لأنه يعرف الطرق، واستمر روبرت في القفز من العربة وفتح البوابات. وقاد المسافرون عرباتهم وقد تركوا بينها مسافة بطول عربة واحدة، وغالباً بخبب بطيء، أو جعلوا الخيل تسير على هواها لأجل ادخار قوتها، لأن الطريق إلى كالشمان تبلغ خمسين ميلاً طويلة. وعلى الطرق المنحدرة، كانوا يوسعون المسافة بين العربات، لمنح الخيول المزيد من المتسع.

بينما تشاهد كريستينا العربات الثلاث، فكرت بكلمات والد زوجها عن المغادرين؛ كان ما قاله صحيحاً، وبدت جماعتهم مثل موكب جنازة. موكب صغير. لكن لم تكن هناك أكثر من ثلاث عربات عندما دفنوا آنّا.

الآن يفضل أن تنسى ما قاله نيلس في لحظة الوداع المريرة —لم يكن يظن أن أحداً سيسمعه. في مكان ما، في زمان ما، ثمة قبر ينتظر كل حيّ؛ في مكان ما ثمة حفرة تنتظر جسد المرء فاغرة فاها. ولذلك، يمكن أن يقال إن الإنسان يسير في كل دقيقة في طريقه إلى ذلك المكان؛ إن كل رحلات البشر هي في الحقيقة موكب تشييع جنازة واحد طويل.

ثمة أحد ما، أو ربما العديدون، من هذه الرفقة ربما يعودون إلى الوطن مرة أخرى —لا أحد يعرف. وافترضت كريستينا أن معظمهم —ولو ليس كارل أوسكار— قد تغذوا في السر على أمل العودة. بالطبع تمنوا العودة أثرياء وموسرين، وليس بائسين فقراء، ومعدمين. ومع ذلك، يُرجَّح كثيراً أن أحداً لن يرتحل على هذه الطريق مرة أخرى أبداً.

كان روبرت يفتح الآن بوابات لم يسبق له أن رآها من قبل. فقد غادروا الطرق التي كان يألفها، وأصبحوا الآن في بلدة غريبة. مروا عن مزرعة وراء أخرى، وسأل يوناس بيتر عن اسم هذا المكان، وذاك. ومروا عن كنيسة ذات برج أعلى كثيراً من تلك التي في بلدتهم. والتقوا بأناس غير معروفين كليّة ممن حيوهم بحدة وعبوس، والذين وقفوا لحظات طويلة ينظرون خلف العربات الثلاث —بأفواه مفتوحة، وبلا أدب. لكنها كانت شيئاً حقيقاً بالنظر إليه: ثلاث عربات مسطحة مليئة بالناس، ومحملة عالياً بالصناديق، والعلب، والأكياس، والسلال والصُرر. ربما يتساءل المرء في الحقيقة أيّ نوع من المسافرين يشكلون!

«لا بد أنهم يظنون أننا غجر،» قال يوناس بيتر. «تبدو هذه الأحمال مثل عربات الغجر.»

لكنهم هُم لا يُشبهون الغجر، فكر روبرت. كل الراشدين تقريباً من الجماعة، الرجال والنساء، كانوا طوالاً ولهم شعر أشقر وبشرات فاتحة. وكان الغجر قصاراً وداكنين. وكل هذه الجماعة كانوا حسني الملابس، مغتسلين ونظيفين؛ وكان الغجر مهلهلين وقذرين. وقد سافروا في طريقهم بهدوء وسلام ووقار؛ بينما عاش الغجر حياة سوء، وكانوا يصرخون، ويسكرون، وسيتصفون بطباع شريرة. وقد أزعج روبرت أن أحداً ربما يخلط بينهم وبين أولئك الرعاع. وأراد أن يصرخ بالناس المحدقين الذين التقوهم: إننا لسنا غجراً! إننا أناس مستقيمون

ومحترمون! إننا مهاجرون! إننا ذاهبون إلى بلد ليس فيه أناس سيئون، حيث لن نلتقي أبداً بأي رعاع! لا تقفوا هناك وتحدقوا فينا —عودوا إلى بيوتكم وجهزوا خيولكم وتعالوا معنا إلى البحر، إلى السفينة التي تنتظرنا!

لكنه فكّر بعد لحظة أنه إذا أخبر الناس الذين قابلوهم عن أعضاء مجموعته الخاصة، فإن الغرباء ربما لن ينضموا إليهم عندئذ. هؤلاء الذين يجلسون على العربات لا يفكر الناس فيهم بطريقة جيدة في الوطن. ماذا عن آرفيد، الجالس هناك خلفه؟ كان محتقراً جداً بحيث لم يرغب في استخدامه أحد غير دانجل. وماذا عن دانجل نفسه؟ كان الجميع في الوطن تقريباً مسرورين وممتنين لأنه غادر الأبرشية. وكان القسيس أكثرهم سعادة؛ والشريف أيضاً كان مسروراً. وأولريكا من فوسترغوهل؟ كل النساء المحترمات شكرن الله لأنها تغادر المقاطعة. ولا ينسى نفسه. لا شك أن الشريف لونيغرن كان شاكراً لأنه غادر القرية للأبد، فقد تسبب له بالكثير من المشاكل؛ وكان الشريف يكره مطاردة «الخدم—الأوغاد.» كلا، فيما عدا والديه، وأخته ليديا، لن يفتقده أحد هناك في الوطن.

وربما لن يفتقد أحد الآخرين في المجموعة أيضاً. في زمن ما من المستقبل، ربما بعد خمسين سنة، ربما يقيمون احتفالاً في الوطن في ذكرى اليوم الذي تخلصوا فيه من الرعاع الذين ظنهم الناس غجراً في طريقهم إلى أميركا.

٣

اختلس روبرت النظرات إلى الفتاة الجالسة إلى جانبه على مقعد الحوذي. لم يكن قد رأى ابنة أولريكا بمثل هذا القرب من قبل أبداً. كانت إيلين ضئيلة وضعيفة، لكن أعضاء البنت الصغيرة فيها شرعت بالامتلاء؛ سوف تكون امرأة قريباً. كان لها شعر طويل ينسدل على كتفيها، وكان له لمعان القمح الذهبي الناضج. وكانت عيناها الكبيرتان شديدتي الزرقة، تلتمعان مثل اللعاب، كان من السارّ النظر إليها. من المؤسف أن أمها كانت «المرأة اللعوب» العاهرة الأولى في الأبرشية.

كان يوناس بيتر واسع الوركين، ولذلك جلسوا مكتظين متلاصقين على مقعد السائق. وكان من حسن الحظ أن إيلين كانت ضئيلة جداً، قال روبرت،

وإلا لأُجبر على المشي إلى جانب العربة. وبعد أن قال ذلك لاحظ أن الفتاة ظلت تتحرك مبتعدة عنه. ولكن، في كل مرة تضرب العجلات بها حجراً على الطريق، كان جسدها يتحرك أقرب ويستطيع أن يشعر بفخذها على فخذه، طرية ورقيقة مثل اللحم المرن لعجل أو حمل. لم يسبق أبداً أن كانت فتاة بهذا القرب من جسد روبرت.

وبقيت إيلين صامتة؛ كانت خجولة ومحتشمة. وربما كانت خائفة من يوناس بيتر، ربما من آرفيد الذي كان يجلس قريبا خلفهم؛ ربما سمعت عن ثور نايباخِن. كانت في السادسة عشرة فقط ولم يكن عقلها قد نضج بعد، لكنها يجب أن تمتلك ما يكفي من المنطق بحيث لا تخاف منه.

حاول روبرت مرة أخرى: «لن يخطئ أحد أبداً فيعتقد أنك غجرية.»

لم تجب الفتاة هذه المرة أيضاً، ووكز يوناسبيتر روبرت في جنبه ليسكته. وبعد فترة توقف السائق، وترجل الرجال ليتبولوا. وبينما يقفون معاً على حافة الطريق، فسر يوناس بيتر وكزته على الأضلاع: لا أحد يعرف بشكل أكيد من هو والد إيلين، ربما حتى الأم نفسها. لكن الشائعات تقول إنه كان غجرياً بالذات.

شعر روبرت بالحرج ولم يعد لديه المزيد ليقوله.

ارتدت إيلين فستاناً غامقاً كان يعود لإنجا—لينا، والذي كان كبيراً جداً عليها. وعلى ركبتيها حملت سلة. وقد تشبثت يداها النحيلتان ذات العروق الزرقاء بمقبضها بقوة، كما لو كانت تخاف أن يحاول أحد اختطافها منها. كانت سلة صغيرة على رحلة بهذا الطول، فكر روبرت، صغيرة جداً على الهجرة إلى العالم الجديد. كانت فقط سلة توت، كبيرة بما يكفي لالتقاط التوت الأزرق أو التوت البري —وليس بما يكفي للخروج إلى العالم بها. لكن الفتاة المسكينة ربما لم تحتج إلى شيء أكبر لأمتعتها؛ ولا بد أن يكون كل شيء تمتلكه في تلك السلة الصغيرة.

تنتمي إيلين إلى الأكيين؛ وقد سمحت أولريكا لدانجل بأن يمنحها التثبيت الديني. وقد وُضعت الأم في السجن وتعيش على الخبز والماء بسبب مشاركتها في طقوس تناول القربان المقدس في كاراغاردي، لكن إيلين كانت قاصراً ولذلك أفلتت من العقاب.

فلنفرض أن والدها كان غجرياً؟ ليس بإمكان الفتاة أن تحدد من يكون ولم تكن هي التي قادته إلى سرير أمها؛ ولم تكن تتحكم بمن كانت أمها، أيضاً. شعر روبرت بالأسى لأجلها، وقرر أن يكون لطيفاً معها. سوف يرتحلان في رفقة وثيقة لبعض الوقت، ربما لعدة أشهر. ولا يستطيعان أن يجلسا معاً ولا يتحدثا معاً، على هذا النحو، كل الطريق إلى أميركا. يجب أن يتحدثا، وهي يجب أن تتحدث أيضاً. ولم تكن له خبرة مع الفتيات، وكان بالكاد قد صافح فتاة بالأيدي قبل ذلك. ما الذي ينبغي أن يقوله ليجعلها تُجيب؟

مروا بجوار منزل عزبة رمادي جميل على قمة تلة صغيرة، وأشار إليه يوناس بيتر بالسوط، قائلاً إنه كان «جالتاكولن.» وقد عاشت لوتا أنديرسدوتر هنا، وأصبحت سيئة السمعة بسبب فعلة فعلتها لزوجها الأول.

ظن روبرت أن المزارع ربما يحكي واحدة من قصصه مرة أخرى، وتبين أن حدسه صحيح.

نعم، استمر يوناس بيتر، قيل إن المزارع صاحب جالتاكولِن لم يستطع أبداً أن يُشبع زوجته في السرير، كانت من ذلك النوع من النساء التي لا يستطيع أي رجل أن يرضيها مهما عمل وكدح. والآن، أرادت أن تستبدل زوجها بالرجل المجنّد في القرية، وهو رجل قوي، جدير في السرير. وقد أغري الجندي بالوعد بأن يصبح مزارع جالتاكولِن. وذات ليلة بينما كان زوجها ينام بهدوء، خرجت لوتا أنديرسدوتر وذهبت إلى صندوق العدة وأحضرت مطرقة ومسماراً كبيراً بطول خمسة إنشات. وبالمطرقة، أدخلت المسمار بطوله كله في جمجمة زوجها النائم. ولم يستيقظ أبداً —إلا إذا كان ذلك في الجنة أو جهنم. وقد خرج بعض الدم من الثقف في رأسه، لكن القاتلة جففته وأزالته وتركت المسمار مغطى جيداً بشعر زوجها.

ثم أعلنت أن زوجها مات بسكتة قلبية؛ فكما يعرف الناس، كان مصاباً ببعض المرض مؤخراً. وقد أقيمت له جنازة مهيبة. وأرادت الأرملة أن تري كم حزنت على زوجها بعمق، وبكت بغزارة ومرارة بجانب القبر. ولم يشتبه أحد بوقوع جريمة.

وبعد أن انتهت سنة العدة بعد موته، تزوجت من الجندي. وهو بدوره مات، بعد عشر سنوات من الحياة الزوجية، لأسباب أكثر طبيعية من الزوج الأول:

قال الناس إنه مات بسبب الإجهاد في السرير؛ وكادت تتخذ زوجاً ثالثاً، لكنه خاف منها؛ وغير رأيه قبل أن يفوت الفَوت. بل يفترض أنه قال إن الأرملة في جالتاكولين كانت رجلاً تقريباً بقدر ما كانت امرأة، وأنه كانت لديها أعضاء الجنسين —ولو أن أحداً لم يستطع التأكد من ذلك.

وبعد زواجين جلست، أرملة، في مزرعتها لبقية حياتها.

ثم بعد ثلاثين سنة من وفاة زوجها الأول، كان حفار القبور يحفر قبراً جديداً في ساحة الكنيسة. وبينما يحفر وقع على جمجمة في مجرفته. وفي العادة لم يكن يلقي بالاً لجمجمة، كبيرة أو صغيرة، أكثر مما ينظر ملتقط البطاطا إلى حبّاته؛ لأن الجماجم البشرية تنمو في ساحة الكنيسة بكثرة مثل الدرّنات في الحقول. لكن هذه الجمجمة كانت مختلفة: كان مسمار طويل صدئ يتعلق مجلجلاً في داخلها. وحمل حفار القبور لقيته إلى القسيس، وأخذه إلى حيث وجد الجمجمة. وبحث القسيس في سجلاته وتأكد ممن كان قد دُفِن في ذلك المكان. ثم ربط الجمجمة في قطعة من القماش الأسود، ووضعها تحت ذراعه، وذهب مباشرة إلى جالتاكولين. وكانت الأرملة في البيت وسلمها الصرة، قائلاً: ها هو زوجك الأول قد أتى ليزورك؛ وهو يريد التحدث عن المسمار في رأسه. ويمكنك أن تأتي إليّ فيما بعد وتتحدثي عن روحك التعيسة.

وعاد القسيس إلى بيته. وفي اليوم التالي ذهبت الأرملة لوتا أندرسوتر إلى مقر الراعي واعترفت بجريمتها، وفي مساء نفس ذلك اليوم شنقت نفسها في سقيفة الحليب في مزرعتها.

«هناك تماماً، في ذلك البيت الرمادي في الأعلى،» ختم يوناس بيتر.

ونظر الجميع باتجاه المزرعة. إن يوناس بيتر يعرف عن كل الجرائم والأفعال الشريرة التي ارتكبتها الزوجات تجاه أزواجهن في مقاطعة كونغا خلال السنوات المائة الأخيرة، لكن روبرت ظن أنه لا ينبغي أن يحكيها بحضور فتاة. إيلين نظرت مباشرة إلى الأمام وتصرفت كما لو أنها لم تسمع شيئاً. ربما ظن يوناس بيتر أن ابنة المرأة اللعوب كانت صلبة.

وقد استطاع روبرت أن يرى عينيها تحت المنديل الذي سحبته إلى الأمام على جبهتها، لكنها نظرت دائماً باتجاه بعيد إذا حاول أن يقابل نظرتها. ولم تبد اجتماعية. وهكذا أدار ظهره إليها وشرع بالحديث إلى آرفيد خلفه. إنه ينوي

شراء كتاب في كارلسُهامن لتعلم اللغة الأميركية، قال؛ وسيكون لديه الوقت بلا شك ليدرس خلال عبور المحيط.

وقد قيل ذلك لفائدة إيلين، ولأول مرة تحولت العيون تحت المنديل إلى الشاب بجوارها.

التقت نظرته بنظرتها. «يمكنك استعارة الكتاب —إذا أردتِ.»

«لا أحتاج إلى ذلك،» أجابت.

«هل تعنين أنك تتحدثين الإنجليزية؟»

«ليس بعد. ليس قبل أن نصل إلى أميركا.»

«أتعتقدين أن بوسعك التحدث بالإنجليزية بطلاقة بمجرد أن نصل؟»

«نعم، طبعاً.»

«حقاً؟»

«لا أحتاج إلى تعلُّم الإنجليزية لأنني سأعرفها عندما نصل،» كررت الفتاة بلهجة تأكيد.

«من قال لكِ ذلك؟»

«العم دانجل.»

ونظرت عيناها الآن إلى عينيه، صافيتين وواثقتين: لقد قال لهم دانجل إن كل الذين ولدوا مرة أخرى في المسيح سيتمكنون من التحدث باللسان الإنجليزي بطلاقة بمجرد أن يخطوا على شاطئ أميركا.

وشعر روبرت بالدهشة؛ رأى أنها تؤمن بهذا الوعد حرفياً.

ومضت إيلينا إلى القول: إن دانجل أخبرهم بأن لا يقلقوا إزاء اللغة الأجنبية، لأن المؤمنين سوف يُملؤون لدى الوصول بالروح القدس كما حدث ذات مرة للحواريين في أسبوع العَنصَرة. هكذا سيستطيعون فهم اللغة المستخدمة في تلك الأرض والتحدث بها بحرية.

«أنتم يجب أن تتعلموا اللغة، بأنفسكم، بطبيعة الحال،» أضافت، «لأنكم لا تعيشون في الروح. لكننا نحن الذين انبعثنا من جديد لا نحتاج إلى تعلمها.»

«هل يمكن أن يكون هذا صحيحاً؟»

«هل تفكر بأن العم دانجل يكذب؟» وبدت متضايقة. «أم أنك تظنني أنا أكذب؟»

«كلا، كلا! لم أفعل حقاً —ولكن...»

لم يرد أن يعارض إيلين الآن وقد بدأت بالتحدث؛ وأراد أن يوافق على كل شيء تقوله. لكنه وقد ووجه بوعد دانجل، لم يستطع أن يخفي شكوكه كليّة.

«لم يسبق أن سمعت أبداً بهذه القصة عن الروح القدس،» اتهم نفسه. «لذلك اندهشتُ قليلاً.»

«هل سبق وأن قرأت 'الأعمال'؟» سألت، متحيرة قليلاً.

«نعم، نعم، طبعاً فعلتُ.»

«يمكنك أن تقرأ عن العَنصرة في الفصل الثاني، إذا كنت لا تصدق دانجل. لكنه لم يكذب علينا قط.»

«أفهم الآن. لن تحتاجي كتاباً لتتعلمي الإنجليزية.»

«الأمر كذلك.»

«حسناً —لا أعرف. لذلك ارتبكت قبل لحظات.»

وآرفيد أيضاً استمع باندهاش. لَم يكُن قد استُقبل بين أتباع دانجل، لكن كانت لدى السيد آمال كبيرة بأن خادمه سوف «يستيقظ» ذات يوم. وما سمعه آرفيد الآن عن الميزة العظيمة للأكيين، مع اللغة الإنجليزية، جعلته يفكر.

كانوا يقودون صاعدين تلة حادة وهبط الرجال لتخفيف الضغط على الخيول. وسأل آرفيد روبرت: ماذا سيظنون بتصريح الفتاة؟ هل ستأتي اللغة الجديدة راكضة من أفواه الآكيين بمجرد أن يحطوا على الأرض؟

«لن أصدق ذلك حتى أسمع بنفسي،» قال روبرت بشكل قاطع.

«الفتاة تبدو واثقة تماماً.»

ربما يكون ما قالته صحيحاً، اعترف روبرت. كان مكتوباً في الإنجيل أن الروح القدس ملأت الحواريين ذات مرة بحيث استطاعوا أن يتكلموا لغة جديدة. لكنه لم يقل شيئاً عن تحدثهم الإنجليزية في تلك العنصرة الأولى —لم تكن هذه اللغة حتى قد ابتُكرت في أيام الحواريين، وهذا القدر هو متأكد منه تماماً. وهكذا، لا أحد يعرف إذا كان بوسع الروح القدس أن تعلم الناس أن يتحدثوا الإنجليزية.

أصبح الهواء أبرد؛ فقد شرعت الريح الشمالية بالهبوب. وبدا ملمسها مثل فرشاة معدنية تمر على وجوههم.. واتخذت عضات الصقيع القديمة على أنف

آرفيد، التي تكونت عندما كان ينقل الأخشاب خلال فصول الشتاء القاسية، لوناً أحمر، متصدعة قليلاً ونازفة. وسال العرق على أجساد الخيول، مكوناً قشوراً بيضاً على رقابها. وهبطت ندف ثلج قاسية متفرقة وحطت على الطريق مثل الأرز المنثور. وجلس المهاجرون صامتين على العربات، ساعة بعد ساعة، ميلاً بعد ميل، وقد سرت الرجفة في أجسادهم.

ومروا على مقاطعة جديدة؛ بليكينج، التي كانت ذات مرة جزءاً من مملكة أخرى —الدنمارك. وكانت العزالة ما تزال موجودة بين السكان الذين يقطنون على طول الحدود، قال يوناس بيتر. وعندما جاء أهل سمولاند يقودون أحمالهم، تعرضوا كثيراً للهجوم على يد رجال بليكينج، الذين كانوا شريري الطباع ويستخدمون السكاكين؛ كانوا نوعاً آخر من الناس. وقيل إن نساءهم كن أكثر حرارة تحت ملابسهن الداخلية من النساء الأبعد إلى الشمال.

والآن، قاد المهاجرون عرباتهم خلال مناطق برية غير مأهولة. مروا عبر غابة من أشجار الصنوبر الطويلة حيث بدا كل شيء مهجوراً وميتاً. ويعرف هذا المكان باسم غابة الأفاعي، كما قال يوناس بيتر، لأن الأرض المغطاة بالحجارة كانت مملوءة بالأفاعي —الأكثر سمية هنا من الأفاعي السامة في الشمال. هنا اعتاد رجال البليكينج أن يستلقوا مختفين عندما يجيء السمالنديون بأحمال عرباتهم، وهنا كان الشعبان يتقاتلان بضراوة. وإذا نظر المرء بانتباه أكثر إلى الحجارة على طول جانب الطريق، فإنه ربما يستطيع رؤية الدم المتبقي من المعارك القديمة؛ كانت الأرض هنا قد تقدّست بطريقة ما.

وكان بيتر يوناس نفسه قد شارك ذات مرة في قتال في غابة الأفاعي؛ وقد أحاط به سرب من رجال البليكينج، وهم يئزون ويهسُّون مثل اليعاسيب في يوم صيف حار، ويطعنون ويضربون أي جزء يستطيعون الوصول إليه من جسده. وعندما عاد إلى البيت بعد تلك الرحلة، كان جسده ممزقاً، ومفتوحاً مثل المنخُل. ولم يستطع طوال أشهر الاحتفاظ بأي سوائل في داخله لأنها كانت تسيل عبر الثقوب التي أحدثها رجال البليكينج في جسمه. ومضت نصف سنة قبل أن يستطيع شرب البرانفين مرة أخرى.

تنقلت عينا روبرت من جانب إلى جانب في الغابة شبه المظلمة تحت الأشجار، باحثاً عن رجال مسلحين بالسكاكين، جاهزين لقطع الطريق على

المسافرين ومهاجمتهم من مكامنهم. لكن يوناس بيتر طمأنه بأن الوضع أكثر سلاماً بكثير على طرق البليكينج هذه الأيام، وربما يشعرون بأمان بشكل خاص من الناس سيئي الطباع لأن لديهم الكثير منهم برفقتهم.

واستمر يوناس بيتر بتقصير الأميال الخمسين الطويلة بأحاديثه. وانشغل روبرت بفتح البوابات؛ وقد عدّ حتى الآن ثلاثين منها. وقد أصبحت البوابات الأخيرة أقرب إلى بعضها البعض —كان المسافرون يقتربون من أماكن مأهولة.

انتهت الغابة ومروا عبر قرية كبيرة. كانوا في إرينغزبودا، على نصف الطريق تقريباً إلى كارلسْهامن. وكان هذا هو مكان استراحتهم الأول. ووقفت العربات أمام مبنى ذي مظهر مثير للإعجاب، ثبتت في جدرانه حلقات حديدية لربط أعنة الخيول؛ هذا هو الخان. وقد هبط المسافرون عن مقاعدهم، ونزعت عن الخيول عدتها.

وقد شعر الأطفال والكبار بأنهم متجمدون على حد سواء، وكانت وجوههم زرقاء من الريح الواخزة. وأنوف الأطفال تسيل، صانعة شموعاً رفيعة، كما كانت تُدعى.

«يجب أن ندخل ونزيل الجليد عن صغارنا،» قالت كريستينا بلهفة.

كان أولادها يرتدون قفازات صوفية دافئة كانت قد غزلتها لهم من أجل الرحلة بشكل خاص، لكن الأولاد من كاراغاردي كانوا عاري الأيدي. وشرعت أصغر أطفال إنجا—لينا، بنت تبلغ بضعة أشهر فقط، في البكاء. وكانت مخبأة في مكان ما في الحزمة الكبيرة من الأغطية الصوفية. ومن خلال فتحة في هذه الأغطية كانت الأم تتحدث براحة مع الطفلة. وقد مر دانجل بالجوار وأطرق وابتسم للصغيرة، فقد جاءت الصغيرة ثمرة للزواج الصحيح المُلهَم من الله، بعد أن أصبحا يعيشان في الروح. لكن الأب نفسه لم يستطع إسكات الطفلة الباكية. ثم انضم الأصغر من كورباموين إليها في البكاء، وحاول كلا الطفلين أن يبزّ الآخر.

دخلت جماعة المهاجرين إلى حانة الخان بالطفلين الباكيين.

كل يوم تقريباً كانت العاملات في الخان يشاهدن فلاحين من سمولاند بعرباتهم المحمّلة يتوقفون في طريقهم إلى كارلسْهامن، لكنهم لم يكونوا

يصحبون معهم الزوجات والأطفال أبداً. والآن، ثمة سؤال تمكن قراءته بسهولة في عيون الخادمات المندهشة: ما الفكرة من جر الأطفال الرضع على الطرق في هذا الطقس الربيعي قارس البرد؟ لكن الجو دافئ هنا في الحانة، وثمة نار هائلة تزمجر في الموقد. وقد شغلت الخادمات أنفسهن بتسخين الحليب للأطفال وبتحضير القهوة للراشدين.

وجد المهاجرون دككاً ومقاعد، وجلسوا، وفتحوا سلال طعامهم. قطعوا شرائح طويلة من خبز الجاوادار، واستخرجوا ما لديهم من قديد لحم الحمل المجفف. وتشارك يوناس بيتر والأخوان من كورباموين ربعاً من البرانفين. وكانت كريستينا قد خبزت فطيرة بطاطا، وقسمتها بين زوجها وأولادها وشقيق زوجها؛ لكنها لم تفتح إناء الزبدة حتى الآن.

اشتعلت النار بحيوية، واستمتع الجميع براحة ودفء الخان بعد الطرق الباردة. وذاب الصقيع عن حواسهم كما زال من أطرافهم. وضاع عبق رائحة الطعام والبرانفين، واستنشاق ومضغ التبغ، والجلود المشحمة والدفء، والمعاطف الصوفية الثقيلة الخشنة الرطبة، وانتشر عبير حليب الأمهات بينما النساء يرضعن صغارهن.

تجمع الناس من كورباموين وأولئك من كاراغاردي حول سلال طعامهم على التوالي، لكن يوناس بيتر جلس وحيداً مع سلته. لقد ترك زوجة وأولاداً خلفه. وقيل إنه غادر بغير تروٍّ: تشاجر مع زوجته ذات مساء، وفي الصباح التالي حزم صندوق أميركا خاصته. لكن أحداً لم يعرف منذ متى كانت الفكرة في رأسه. وكان يقول ما يعرفه عن الآخرين عن طيب خاطر، لكنه لم يقل عن نفسه ولو كلمة واحدة مطلقاً.

جلست كريستينا وفكرت كيف أن بعض الناس في المجموعة كانوا ما يزالون غرباء عن بعضهم تماماً؛ وهي لم تتبادل حتى الآن كلمة واحدة مع أولريكا من فوسترغوهل، ولم تصافحها، وقبل مغادرتهم قالت الحقيقة لخالها دانجل: إنها لا تطيق تلك المرأة. هل يجب أن تتحملها كرفيقة سفر؟ وقد فتح دانجل الإنجيل وقرأ لها عن المسيح والمومس. كان ما قاله له المسيح المخلِّص، قاله هو، دانجل، لأولريكا: لا خطيئة بعد اليوم! وقد أطاعته أولريكا، وقد تخلصت من جسدها الآثم القديم. والآن، أصبحت تعيش في جسد المسيح الذي يعيش

فيها، وكل من يقول كلمات غير لطيفة لأولريكا، فإنه يقولها أيضاً للمسيح. لكن كريستينا لم تستطع منع نفسها —إنها ما تزال لا تطيق تلك المرأة.

كما لم تلاحظ أيضاً أيّ فرق في أولريكا. كانت طيبة مع ابنتها؛ وعندما تتحدثان، فإنها تكون لطيفة وحريصة في كلامها. وغير ذلك، ظلت كريهة الفم كما هي دائماً. ولا يستطيع المرء أن يسيء أبداً فهم طريقتها في النظر إلى الرجال؛ كانت هناك دائماً نظرة وكأنها تقول «تعال ولنذهب إلى السرير» في عينيها. ألم تنظر اليوم إلى كارل أوسكار بتلك الطريقة؟ لطالما استغلت الخال دانجل، الذي أطعمها وكساها هي وابنتها ودفع الآن أجرة عبورهما إلى أميركا. كان الخال دانجل سريع التصديق ويسهل استغلاله. ربما ما تزال أولريكا تحمل معها عهرها في السر، كلما سنحت لها الفرصة. وقد تصرفت على الأقل مثل الخنزيرة في الحرّ.

كانت حسنة الشكل، العاهرة، لا أحد ينكر ذلك. وهي الآن تجلس أمام النار، وتمشط شعر ابنتها وتربطه بشبرة حمراء. كانت العاهرة متعجرفة مثل ملكة، ومعها ابنة الزنا مثل أميرة تتم تهيئتها لتقترن بأمير. ويتساءل المرء أي نوع من الفضائل زرعت تلك المرأة في ابنتها، الفتاة المسكينة التي اضطرت لارتداء ملابس المرأة العجوز المهترئة.

كان سيفن هو أكبر الأولاد من كاراغاردي. وقد مزق سترته سلفاً بمسمار —والآن كانت أمه تصلح الثقب بخيط كتاني وإبرة رتق. كانت كريستينا وإنجا—لينا منسجمتين معاً. لكن زوجة دانجل كانت سهلة القياد، بلا إرادة على الإطلاق؛ وتركت زوجها يقرر ويحكم في كل الأمور. وشعرت كريستينا ببعض الخجل منها عندما تكونان بين النساء.

كانت إنجا—لينا قد أرضعت ابنتها، التي هدأت بعد تحريرها من حزمة الأغطية. لكنها شرعت الآن في البكاء مرة أخرى. وفتحت الأم كنزتها وألقمت صدرها للطفلة مرة أخرى. لكن الصغيرة تقيأت ما كانت قد رضعته.

تحولت أفكار كريستينا إلى رحلة البحر الوشيكة بينما تشاهد قيء الطفلة.

«أتساءل إذا كنا سنصاب بدوار البحر على السفينة،» قالت.

«دوار البحر ليس مرضاً حقيقياً،» قال كارل أوسكار.

«ومع ذلك، سيضطرُ المرء للتقيؤ.»

رمقت أولريكا كريستينا بنظرة ذات مغزى: «أعتقد أنه يشبه كون المرأة على طريق الولادة.»

اصطبغت خدود كريستينا بالأحمر الناري. يبدو أن أولريكا عرفت كيف تسير الامور معها. لقد خرجتا معاً إلى الحمّام الخارجي عندما وصلوا، ولا بد أنها لاحظت. والآن اغتاظت بسبب اللون على وجهها. لماذا يجب أن تمتقع؟ إنها متزوجة، ولم يلمسها رجل غير كارل أوسكار. ولها الحق أن تحمل بطفل ألف مرة إذا أرادت. هل يجب أن تمتقع بسبب تلك المرأة التي حملت بأربعة أولاد زنا وأعطت جسدها لمئات الرجال؟

توقفت الطفلة عن الرضاعة، وبينما كانت إنجا—لينا تعقد أزرار كنزتها على صدرها، قالت: «يقولون إن دوار البحر مؤلم.»

«هل أنت خائفة، يا إنجا—لينا؟» سأل دانجل.

«كلا، كلا، لست خائفة طبعاً!» وقد ناقضها صوتها القَلِق. «ولكن عندما لا يكون المرء قد خرج إلى البحر من قبل...»

ذهب دانجل إلى زوجته ووضع يده على كتفها. «ألا تتذكرين كلماتي؟ هل نسيت ما قلتُه لك؟»

«كلا، لم أفعل، يا عزيزي دانجل.»

«إن الإنسان الذي يكون المسيح في داخله ليس لديه ما يخافه من البحر. ويستطيع احتمال البحر حتى في المرة الأولى.»

«نعم، سيكون لدي الإيمان، يا زوجي العزيز.»

وأكد دانجل مرة أخرى لزوجته أن الشخص المولود من جديد سوف يبحر في كل بحار العالم ولا يُصاب بدوار البحر. إن الذي يعيش بإيمان المسيح يمكن أن يتحمل البحر في أي وقت؛ سواء كان يسافر فوق الأنهار الصغيرة أو المحيطات الواسعة، سوف يبقى سليماً ومعافى كما هو دائماً.

«نعم، عزيزي دانجل، أنا أصدق ذلك. لست خائفة بعد الآن.»

وربّتت إنجا—لينا على يد زوجها بحنان.»

«ألا تظن أنك ربما تصاب بدوار البحر، مثلنا نحن؟» سأل كارل أوسكار، الذي كان يستمع باندهاش.

وابتسم المزارع من كاراغاردي بلطف: «كلا! لأنني أعتقد أن المسيح مات

على الصليب من أجل خطاياي.»

«أنت شكّاك يا كارل أوسكار،» قالت أولريكا من فوسترغوهل، لكن لم يكن هناك تقريع في صوتها.

«سوف يقنعه الله عندما نصبح على السفينة،» قال دانجل.

أرادت أولريكا أن تساعد دانجل في الشرح. «أنت تعرف، يا كارل أوسكار، أن الإنجيل يقول إن المسيح خرج في مركب مع حوارييه وهبت عاصفة مرعبة، لكن أحداً لم يُصب بدوار البحر. ولو احتاج المسيح أو أحد حوارييه إلى التقيؤ، لكان قد قال ذلك. لكن ليست هناك كلمة واحدة عن ذلك في الإنجيل. وإذن، يمكنك أن تفهم يا كارل أوسكار، عندما لا يمكن لشخص يتقمص جسد المسيح في داخل جسده، أن يشعر بالتعفُّن.

وشخر كارل أوسكار، لكنه لم يقل شيئاً. أي فائدة سيجنيها من الجدال مع أولريكا؟

بدا الأمر لكريستينا أشبه بالتجديف عندما تذكر أولريكا اسم المخلِّص على هذا النحو؛ كما لو أن المرء سيفكر به وهو مستلق في سفينة، مصاباً بدوار البحر، ويتقيأ. إنه ابن الله، ولا يمكن أن يمسه المرض. ولكنه حتى لو أصيب بألم في الأسنان، أو جرحت رجله، أو أصيب بأي وجع بشري، فإنه سيُشفي نفسه وهو الذي شفى الكثيرين الآخرين. لقد استخدمت أولريكا مثل هذه الكلمات السوقية في الأشياء الروحية بحيث لا يستطيع إنسان بكامل حواسه أن يصدق تحوُّلها. من يستطيع تخيل المسيح يعيش في جسدها العجوز المستهلك العاهر؟

استدارت كريستينا إلى دانجل. «قالت بيرتا من آيديمو أن المرأة المتزوجة ستصاب بدوار البحر أكثر من غير المتزوجة.»

«ليس إذا كن يعشن في الروح.»

«لكن معظم النساء يعشن فعلاً في الجسد،» قالت أولريكا مقاطعة. «أولاد الحرام تمكن صناعتهم في سرير الزوجية أيضاً.»

كان قد جرحها عدم الاحترام الذي عاملتها كريستينا به، والآن ردت في أول فرصة. لكن كريستينا قررت أن لا تجيب عن الكلمات البذيئة التي ألقتها أولريكا في وجهها.

وشعر روبرت بخيبة الأمل لأن أحداً لم يسأله عن دوار البحر. وقد عرف عنه من الكتب، ويستطيع الآن أن يدخل النقاش بكلمة: «حمى السفينة والكوليرا أكثر خطراً بكثير من دوار البحر.»

وأراد أن يقدم وصفاً لهذه الأمراض، لكن أخاه حدجه بنظرة لا يمكن تفويت معناها؛ فأحجم منذ بداية البداية.

ينبغي أن يستريحوا بضع ساعات. وعندما أكل الجميع وشبعوا، ركع دانجل على الأرض وشكر الله بصوت عال على الطعام. وكانت صلاته صاخبة وعالية الصوت بحيث سُمعت خارجاً في المطبخ. وحدقت الخادمات باندهاش عبر الباب: أحد الفلاحين من سولاند كان يبكي راكعاً على ركبتيه لله —في الحقيقة، يا لهم من رعاع أولئك الذين مروا عليهم اليوم!

وضعت كريستينا الغطاء على سلة طعامها. كانت قانعة ولم تفتح إناء الزبدة. يفترض أن تكون المسافة مئات الأميال إلى أميركا الشمالية، ولم يقطعوا حتى الآن سوى عشرين منها؛ سوف يحتاجون إلى الزبدة.

٤

لاحقاً في المساء، استأنف المهاجرون رحلتهم. كانت الوجهة التالية على الطريق هي موليرايد، حيث ينوون الاستراحة. ومن هناك تذهب الطريق إلى بريدكارا إلى كارلسهامن.

الآن، أصبح الجو ألطف. الثلج ذاب، والهواء رطب، وسرعان ما شرع مطر خفيف بالهطول. استطاعوا أن يروا أن الربيع يأتي أبكر في بيلكينغ منه في الوطن؛ كان العشب عالياً على جانبي الطريق، وقد تفتحت حشائش السعال في القنوات، وكانت البراعم على الأشجار سميكة ومنتفخة؛ ويمكن أن يبدأ عمل الربيع قريباً في هذه الأنحاء.

أخذت خيولهم تصبح أكثر تعباً من الأحمال الثقيلة، وتحركت بخطو بطيء؛ وحتى عند التلال الصغيرة ترجل الرجال ومشوا على أقدامهم؛ وعلى عربة يوناس بيتر، ظلت الفتاة فقط في مقعدها.

لم يستطع روبرت سوى التفكير بإيلين. إنها تعتقد أنها لن تحتاج تعلم الإنجليزية من كتابه. واللغة سوف تتدفق من فمها على الفور كما كانت لغات

البارثيين والفريجيين والعَيلاميين قد خرجت ذات مرة من ألسنة الحواريين، حتى اعتقد الناس أنهم سكروا من نبيذ جديد. لماذا ظن الناس أنهم سُكارى؟ كلما زاد سكر المرء، كلما أصبح نطقه أثقل، متلعثما، مُدغماً، مُهمهِماً. لكنه يجب إعطاء الفتاة معلومات عن البلد التي تهاجر إليه. ما الذي تعرفه عن جمهورية أميركا الشمالية؟ عن حكومتها، وقوانينها، ودينها، وسككها الحديدية؟ لا شك أنها تحتاج إلى معرفة أكبر عن العالَم الجديد.

لن يضُرّ إذا جعل إيلين ترى ما يعرفه عن الولايات المتحدة —لكنها قالت له قبل أن تتسنى له الفرصة ليبدأ حديثه، وبثقة: «أتدري، أنا خائفة من أميركا.»

«خائفة؟ لماذا؟»

«لأنها مجهولة —ربما يكون الناس أفظاظاً مع الغرباء.»

«أوه، كلا! أنا متأكد من أنك لا ينبغي أن تخافي. هناك القليل جداً من النساء في أميركا حتى أنهم يعاملوهن مثل الذهب والجواهر. سوف تنالين العناية يا صغيرتي؛ يمكنك أن تحصلي على أي شيء تريدينه، لا حاجة بك للقلق من أيّ شيء.

يبدو أن إيلين لم تكن تعرف كم هي الأمور مرتبة بشكل حسن للنساء في الولايات المتحدة. يجب أن يفرحها قليلاً بإخبارها عن ذلك.

يعامل الأميركيون كل النساء —سواء كن شابات أم مسنّات، بشعات أم جميلات— كما لو كُنّ ملِكات أو أميرات. وهم يحدبون عليهن ويحرسونهن كما لو كنَّ لآلئ وألماسات ثمينة. ولا تحتاج النساء أبداً للقيام بأعمال ثقيلة أو كريهة كما يفعلن هنا في الوطن؛ ويمكنهن البقاء نظيفات وبيضاوات وبأيد مغسولة طوال النهار؛ والخادمة في أميركا تكون حسنة الثياب مثلها مثل سيدتها، لأن كل النساء لهن الحق بارتداء القبعات، وقد كُتب ذلك الحق في قوانين الجمهورية. وكان من المحظور بشدة السخرية أو الضحك من امرأة بسيطة لأنها ترتدي قبعة مثل المرأة النبيلة. وفوق ذلك، لم تكن هناك نساء بسيطات وسيدات نبيلات —فكلهن متساويات.

في جمهورية أميركا الشمالية جماعة الرجال هم الذين يخدمون النساء، وليس العكس، كما هو الحال هنا. وفي حال تعرض الرجل للهجوم والضرب

من امرأة، فإنه ليس له الحق في الدفاع عن نفسه. لأن القانون هناك ليس كما هو هنا. وفي خارج المنزل، لا يستطيع رجل أن يقترب من امرأة أكثر من ثلاث خطوات، إذا لم تسمح له هي بالاقتراب أكثر، أو ربما تأمره بأن يقترب أكثر. وفي داخل المنزل، تكون المسافة بين الجنسين بمقدار خطوتين، وفقاً للقانون. وأي رجل يرغب بالاقتراب أكثر من خطوتين من امرأة أميركية يجب عليه أن يتزوجها أولاً. إن القانون هناك ليس مثل القانون السويدي.

وإذن، يجب أن لا تخاف إيلين من أميركا. إذا تحدث رجل إلى امرأة في مكان عام، فإنه سيكون لها الحق باستدعاء الشرطة وطلب الحماية. وحتى لو أنه طلب، بكل اللطف والود، أن ينفصل عنها، فإن بإمكانها التسبب في اعتقاله، أو أن تقاضيه بتهمة حنث الوعد إذا كانت في حاجة إلى النقود، أيهما يناسبها أكثر. أما النساء، فلهن حرية الانفصال في الولايات المتحدة، ولهذا لا حاجة بها إلى القلق.

وإذا خان رجل امرأة في الولايات المتحدة، فإنهم يقومون بإخصائه أولاً ثم يشنقونه؛ فلا يستطيع أن يكرر فعلته أبداً. وفي هذه الأيام، لم يعد هناك رجال خائنون أو غير صادقين أو مخادعين هناك. لقد تمت إبادتهم وتدميرهم. إنها ليست في حاجة لأن تخاف من أميركا.

وهكذا، وبينما كانت العربة تتدحرج، كان أحد سكان الولايات المتحدة في المستقبل عالماً بأوضاع المرأة في الأرض الجديدة. وقد شعرت إيلين فعلاً بأنها أكثر ارتياحاً وسعادة وترقُّباً. لقد اعتمدت على كلماته، وشعرت بأنها ستشعر وكأنها في بلدها نفسه.

جلس روبرت وإيلين متقاربين قدر الإمكان على كرسي السائق. وقد اهتزت العربة وتأرجحت، وشدت الفتاة ملابسها أكثر حولها، وتثاءبت وارتجفت من البرد. وبينما كان روبرت مشغولاً في وصف السكك الحديدية في أميركا، سقط رأسها فجأة على كتفه. توقف من المفاجأة بينما يهبط رأسها إلى صدره. ما الذي يعنيه ذلك؟ ما الذي قصدته؟ ما الذي يفترض فيه أن يفعله؟ أبقى جسده متصلباً مثل عمود التوجيه، ومع ذلك ظل رأسها في الوضع نفسه. ثم اكتشف عندئذ أنها قد غَفت، لقد نامت، واستراح جسدها الصبوي الطريّ على جسده.

أغفت في لحظة بينما كان هو نفسه مأخوذاً بوصفه للولايات المتحدة

—لفائدتها هي. خاب أمله فيها. ولكن، ها هي تستلقي هناك، بين ذراعيه بالتحديد؛ ولأول مرة استراح رأس فتاة على صدره. ويمكن لهذا أن يحدث فقط في عربة مغامرة —بعد ثلاثين ميلاً فقط من الطريق! كم من الأميال تبقت؟ الكثير الكثير!.وسوف تستمر هذه المغامرة لوقت طويل!

قليلاً قليلاً، أخذته هدهدة العربة المتحركة هو أيضاً إلى النوم. ولم يطاوع يوناس بيتر قلبه ليوقظه عند البوابة التالية، ولذلك فتحها بنفسه. ونام روبرت، غافلاً عن البوابات إلى أميركا، وغير قادر على إحصاء عددها بعد الآن.

٥

في وقت مبكر من الصباح التالي، شقت العربات الثلاث طريقها إلى داخل كارلسْهامن، واستقبلتها ساعة تدق السابعة، ببطء وبجديّة. كانت البلدة الميناء تعود لتوها إلى الحياة لتبدأ النهار. كان الصيادون العائدون من البحر بصيد الليل مشغولين بإرساء قواربهم على الرصيف حيث تنتظر نساء البلدة أسماك الرنجة الطازجة بسلالهن. وكان عامل محل يكنس بغصن طويل من البتولا الأدراج أمام بيت عليه شاخصة كُتب عليها «صنيسونز للشمعدانات.» وفي الهواء تعلقت روائح السمك، والقار، والقِنَّب، والرِّنجة، والملح، والبحر.

هبط المهاجرون من عرباتهم، ناعسين ومتجمدين من البرد، متصلبين والألم ينخر عظامهم بعد الرحلة الطويلة، وقد طووا أذرعهم على أجسادهم من أجل الدفء. وانكبت النساء على العناية بالأطفال الذين يتذمرون ويئنون من قلة النوم. كانوا كلهم مكتئبين وضجرين بعد الليل الطويل؛ ولم يشعر أحد بأنه مبتهج بالصباح.

هبت ريح حادة باردة واخزة من فوق الميناء، مُرحِّبة بالمهاجرين إلى البحر.

للمرة الأولى في حياتهم نظروا إلى الماء من دون رؤية اليابسة على الجهة الأخرى.

لقد وصلوا إلى البحر الذي ينبغي أن يعبروه —والآن، حيّاهم هذا البحر برياحه؛ وأرسل على المهاجرين هذه الريح الباردة القوية كما لو ليُخيفهم، ويتحداهم: تعالوا إليّ! سوف أعلِّمكُم! ورفع الرجال ياقات معاطفهم، ولفت

النساء الشالات أوثق حول أولادهن وأنفسهن. يا لها من ريح لا ترحم تلك التي يختبرها سكان البلدات الساحلية! لقد اخترقت الجِلد والعظم، بل إنها شقت طريقها إلى نخاع العظم نفسه. ولم تكن الرياح أبداً بهذا العداء في الوطن، لا في الخريف ولا في الربيع، ولا في الصيف ولا في الشتاء. وحتى فروات الفلاحين الصوفية الثقيلة، بدت عاجزة عن توفير أيّ حماية.

لقد التقى سكان اليابسة بالبحر، وكان لديهم بالكاد الوقت ليشاهدوه قبل أن تملأ الريح عيونهم بالدموع.

نظر الرجال في قوارب الصيد بفضول إلى مجموعة المهاجرين الذين وقفوا قرب الميناء بأحمالهم العالية وأبنائهم الباكين. بعض الرجال، الذين تدل ملابسهم على النبالة، مروا على مهل ونظروا إلى الجماعة الصغيرة بتندر: المهاجرون الذين يبدون بريئين مثل الآلهة الملتفين بالفروات الصوفية الرمادية، مع نسائهم البسيطات المتلفعات بالشالات وأبنائهم شاحبي الوجوه سيالي الأنوف؛ اثنان من عمال المزارع في بدلتين جديدتين كبيرتين جداً ومنتفختين بالجيوب من الأمام والخلف —السترة والبنطال حاكهما معاً بلا مبالاة خياط قروي ما. وأحمال كاملة من الصناديق القديمة، والحقائق المنمقة، والسلال المصنوعة يدوياً والعلب والصرر —لا بد أنهم أناس من الغابات غير المأهولة يقومون برحلة طويلة عبر البحر. أيّ نوع من الشهوة أصاب هؤلاء الشياطين البائسين؟

كان كارل أوسكار قد رتّب أمر العبور لهم جميعاً، وبدا الأمر كما لو أنه سيكون راعيهم، أيضاً، طوال الرحلة كلها. لم يفعل أحد منهم أي شيء ذي أهمية من دون سؤاله أولاً.

والآن، ذهب إلى صياد رِنجة وسأل عن السفن في الميناء. لقد دفع أجرة العبور إلى أميركا —أين يمكن أن تكون سفينتهم راسية؟

حدق الصياد بالفلاح وقاس حجم حذائه الجديد المتماسك. نعم، لقد وصلت سفينة أميركا شراعية في الليلة قبل السابقة، كانت سفينة ذات صاريين، التشارلوتا. وهي ترسو في الميناء الخارجي —ربما تكون ذلك الهيكل القديم، هناك.

كان الاسم صحيحاً. ونظر كارل أوسكار إلى الميناء الخارجي في الاتجاه

الذي أشار إليه الصياد.

«هل تلك هي تشارلوتا؟ سفينتنا؟»

كل العيون استدارت باتجاه السفينة المقصودة. وقفوا صامتين، وحدّقوا. كان صمت الخيبة، والتساؤل، والقلق، والحيرة. هل يمكن أن تكون هذه هي سفينتهم حقاً؟

كانت كريستينا هي التي عبرت بخمس كلمات عما يفكر فيه الجميع: «هل سفينتنا بكل هذا الصغر؟»

لم يكن أي منهم قد شاهد سفينة شراعية سوى في الصور. وكانوا يعتقدون أن السفن أكبر كثيراً من هذه. وقد تصوروا السفينة التي ستحملهم عبر المحيط العظيم على أنها أكبر بكثير. أمامهم كان اتساع البحر العريض؛ وفي هذا البحر بدت سفينتهم متناهية الصغر. مقارنة بالمياه التي يجب أن تعبرها، بدت سقيمة ويُرثى لها.

«السفينة أكبر مما تظنون. إنها تبدو صغيرة فقط من هذه المسافة،» قال روبرت.

حاول أن يبتلع شعوره الخاص بالخيبة لدى رؤية تشارلوتا، وأراد أن يشجع بقية الرفاق.

وأشار. «انظروا إلى الصواري!» هل رأى أحدكم أبداً مثل هذه الصواري الطويلة؟»

لم ير أحد أيّ صوارٍ أخرى على السفن لكي يُقارِن. السفينة الراسية بعيدة قليلاً عن الجزيرة الصغيرة، في مدخل الميناء، كان لها صاريان يمتدان باتجاه السماء ويبدوان أعلى من أطول شجرة في الغابة. كان ارتفاع الصاريين بطول السفينة. وفكر روبرت أنه ربما كان قد ساعد هو نفسه في إسقاط الشجرتين اللتين يراهما الآن جذعين نحيلين عاريَين: ربما يكون هو قد قطع شجرتي التّوب، وساعد في نقلهما من موضعهما من السكون في الغابة إلى البحر، وإعادة زراعتهما، كما هو الحال —هاتان الشجرتان الصاريان اللذان قُدِّر لهما أن يقضيا بقية حياتهما تجوبان البحار، حيث يسندهما الماء بدلاً من التراب.

تساءل كارل أوسكار متى يمكن أن يُسمَح لهم بالركوب. وقال الصياد إن تشارلوتا يجب أن تأخذ حمولتها، وبما أن السفينة بالكاد وصلت إلى الميناء،

فإنه لم يتم تحميل شيء بعد. وربما تمر عدة أيام قبل أن يستطيع المسافرون اعتلاء سفينة أميركا.

لم يكن بوسعهم البقاء هنا في الريح مع أولادهم المتجمدين الذين لا يكفون عن التذمر والأنين. يجب أن يعثروا على مكان بينما ينتظرون المغادرة. وقد دلّهم الصياد الطيب على خان ماجا، الواقع في الشارع قرب الميناء. إنه البيت خلف «حانة الأمل»، هناك مباشرة كما يرَون؛ وكانوا توّاقين للحصول إلى سكن.

اتجهت عربات المهاجرين إلى المكان المقصود. وروبرت فقط هو الذي ظل واقفاً في الميناء.

وقف هناك وحده ينظر عبر البحر.

وناداه الآخرون عدة مرات، لكنه لم يُجِب.

الجزء الثاني

الفلاحون في البحر

تشارلوتا من كارلشهامن

السفينة:

السفينة الشراعية ذات الصاريين تشارلوتا. القبطان لورينتز، أبحرت من كارلشهامن يوم ١٤ أبريل، ١٨٥٠، ووجهتها نيويورك. قدرة السفينة هي ١٦٠ عقدة. طولها ١٢٤ قدماً، وعرضها ٢٠ قدماً. لها طاقم يتكون من خمسة عشر رجلاً: ٢ مساعدون، نجار ١، صانع أشرعة ١، طباخ ١، بحارة أقوياء الجسم ٤، بحارة عاديون ٢، و٣ من المساعدين على الدكة. تم تحميلها بالحديد الخام والنثريات.

المسافرون:

من خلال طبيعته نفسه، يعرض الكوكب نوعين من الحياة على الكائنات البشرية: الحياة على اليابسة، والحياة في البحر؛ حياة على ربع سطح الأرض —الأرض الصلبة، والحياة على ثلاثة أرباعه، الماء؛ حياة على الأرض الصلبة، وحياة على البحر الذي لا يقر له قرار أبداً.

كان المهاجرون أهل تراب؛ وقد عاشوا حياتهم كلها على الأرض الصلبة. وفي اليوم الذي اعتلوا فيه سطح السفينة الشراعية ذات الصاريين، تشارلوتا، واجهوا البحر لأول مرة. ولفترة غير محددة، يجب عليهم أن يستقروا على متن سفينة، مستبدلين وجودهم الاعتيادي بآخر غريب عليهم.

خطت أقدامهم للمرة الأولى على دكة سفينة، والتي خطت قبل ذلك على الأرض الصلبة. وبحركات وجلة متعثرة، وخطوات خرقاء غير واثقة، مشوا على الدكة. ووجدوا أنفسهم على أرض خشبية. لكنها لم تكن، مع ذلك، تلك الأرض الآمنة الراسخة ككوخ الفلاح؛ كانت هذه الألواح الخشبية موضوعة

لتكون أخفض عند الحاجز، وأعلى باتجاه وسط الدكة. والماء تحتها يتحرك باستمرار —موجة تهبط، وموجة تنهض. لم يعد بوسعهم بعد الآن التحكم بحركاتهم باستقلال، ينبغي أن يطيعوا البحر.

امتلك المهاجرون ثقل الأرض في أجسامهم، الطين من الحقل تشبث بأقدامهم. ومعدات أقدامهم الثقيلة —الأحذية المصنوعة من الجلد الخشن، أحذيتهم عالية السيقان المثيرة للإعجاب— أصبحت معيقاً لهم فقط على سطح دكة زلقة. وقد وقفوا متباعدي الأقدام وواثقين على الأرض الصلبة؛ هناك كانوا يُملون حركاتهم هُم. أما هنا على السفينة، فيقفون على أقدام غير آمنة وغادرة.

كانوا معتادين على السير بحرية في الحقول، دون أن يُعيقهم شيء. والآن، أصبحوا على سطح سفينة صغيرة مكتظة براكبيها، ومحتجزين داخلها مثل السجناء خلف الحاجز. لأشهر طويلة قادمة، سيكون على أهل الأرض أن يعيشوا في البحر.

لقد جاء المهاجرون من مملكة من الحجارة وأشجار العرعر، وقد قست عضلاتهم وقويت وهم يكسرون الحجارة ويلوون أغصان العرعر ليصنعوا منها الأسيجة. لكن أذرعهم القوية وظهورهم القوية ذات فائدة قليلة في البحر. هنا، كلهم وقفوا يائسين بنفس المقدار، المزارعون الأكثر قدرة وأكثر نساء المزارعين براعة. كانت الأرض الصلبة معروفة لديهم، حميمة، موثوقة، لكنه لا يثقون بالبحر؛ كان مجهولاً وخطيراً، وكان شكهم به مزروعاً في دواخلهم وموروثاً عبر الأجيال.

تجول المسافرون الذين يغادرون على سطح السفينة تشارلوتا من كارلسهامن في هذا اليوم النيساني على سطحها غير واثقين، غير آمنين، ضائعين، ومرتبكين. كانوا يشعرون بأنهم قد استسلموا بلا شروط للمجهول، وأصبحوا بغير رجعة في يد قوة يتركهم حضورها عاجزين؛ لسيد لا يستطيعون حتى أن يستعطفوه —البحر. هذا النقيض الذي لا قرار له أخذهم على ظهره الذي يحيط بالعالم، ليحملهم إلى قارة أخرى جديدة.

كان يوماً هادئ الطقس، يتخلله الضباب والرذاذ، عندما أبحرت تشارلوتا من كارلسهامن. وشرع مطر خفيف بالهطول قادماً من بحر البلطيق. وكانت حركة السفينة مجرد دحرجة ضعيفة، بطيئة.

تجمعت مجموعة صغيرة من المهاجرين عند المؤخرة. ووقف بضعة فلاحين في معاطفهم الصوفية وأحذيتهم المتينة عالية الأعناق هناك على دكة السفينة المتأرجحة وراقبوا جروف كاستيلهولمِن الصخرية —تلك الجزيرة الصغيرة عند مدخل الميناء— وهي تختفي بالتدريج في ضباب نيسان.

كان ما رأوه هو آخر موقع أمامي من الأرض التي رفضوها.

تحدث المسافرون بأصوات خفيضة بينما يلقون نظراتهم الوداعية على موطنهم. بعضهم تحدثوا كما لو لأنفسهم، ووقف آخرون صامتين، وعيونهم تحدق في الأرض اليابسة. وقد وقف المهاجرون المتحدثون والصامتون جنباً إلى جنب؛ كانت ثمة كلمات معلنة وأفكار مختبئة حول هذا، حول نظرتهم الأخيرة للسويد.

«كانت لي مزرعة، أُغلِقت في الخريف الماضي؛ مكان فسيح. وقد أوجعني أن أراها تذهب. لكن المزارع بمجرد أن يقع هنا في الوطن، فإنه لا يمكن أن ينهض ثانية. لم أستطع أبداً أن أخرج من الدَّين، ولا في ألف سنة. فليحتفظ الشريف بالمكان. كانت الضرائب ثقيلة؛ وعندما تُجمَع الضرائب، فذلك هو الوقت الذي نكون فيه في حال حسنة بما يكفي، نحن في أحذيتنا الخشبية وسراويلنا المرقعة: وعندئذ، يأتون لرؤيتنا. وفي الأوقات الأخرى، نكون مجرد فلاحين رعاعاً. لكنني سأفتقد المكان القديم. سوف أفتقد الأقارب والأصدقاء، أيضاً؛ لكنني لن أفتقد البلد أبداً —كلا، أبداً، لن أفتقد البلد أبداً!»

أو —«ليس لدي شيء لأخسره. ماذا يمكن أن يكون؟ لقد عملت مثل الرقيق في العزبة حتى بصقت الدم. هل هذا شيء يخسره المرء؟ لقد سئمت من الكدح. وقد حشوت حناجر الكسالى طويلاً؛ وقد انتهيت. يستطيع السادة أن يكونوا خدم أنفسهم؛ ذلك فقط سيكون عادلاً. ربما ينبغي أن يصبحوا كذلك ذات يوم. غطرسة النبلاء هي أكثر الأشياء مرارة. إنهم يحتقرون العمل الشريف، وهم يحتقروننا في فقرنا. دعهم يقومون بعملهم القذر بأنفسهم؛ سوف يجزيهم ذلك كما ينبغي. لا أحد يستطيع تحمل ذلك على المدى الطويل، أن يقوم بأقذر الأعمال وأثقلها، وأن يُعامَل مثل كلب، ويُنظر إليه من فوق. ينبغي أن يسافر كل الفقراء إلى أميركا؛ ذلك ما يجب أن يفعلوه. وإذن، ساعديني يا كل الشياطين. ذلك سيجزي النبلاء كما يجب! وعندئذ يستطيعون القيام بأعمالهم

القذرة الخاصة! لو أن هذا المحيط لم يكن واسعاً وعريضاً فقط....»

أو —«لم أستطع تحمل القسّيس. أصبحنا أعداءً. لم أستطع البقاء في الوطن. ربما يجب أن تبتعد كل هذه المسافة إذا كان عليك أن ترحل. الآن يمكن أن يجلس القسيس ويشاهد أغنامه وهي تهرب؛ لن يستطيع جزّها بعد الآن؛ سوف يحصل على دخل أقلّ، وشيء جيد، أيضاً. هناك الكثيرون جداً ممن يصدرون الأوامر والوصايا —ينبغي أن يكون لكل امرئ شيطان يعذبه. هناك الكثير من اللوردات والأسياد ليتفقدونا ويحرسونا؛ الكثيرون من جماعة الطبقة العليا لنطعمهم؛ الكثير من الأسياد الذين بلا نفع. في النهاية، يصبح الأمر لا يطاق. لقد خنقني الأسياد بما فيه الكفاية! انتهى ذلك! لقد أصبحت بعيداً عن ذلك البلد أخيراً! لكن ثمةَ وجعاً في مكان ما. لماذا؟ لا أعرف. ربما سأفتقدهم، قليلاً، بقيتهم —ولكن ليس القسّيس مطلقاً! أنا أكره القسّيس....»

أو —«لن أندم أبداً على هذا. لم أستطع التقدُّم. كان الأمر يائساً: مهما كدحت، بقيت واقفاً في نفس المكان. لم يجلب العمل شيئاً —كان عليّ الخروج. لكن الأرض تختفي الآن، وأنا أتذكر. ربما—ربما... على المدى البعيد سأفتقد —لا أعرف ماذا. لقد ولد المرء هناك: الأب والأم ظلوا هناك؛ لم أستطع جلبهم، لكنني سأتذكر. لم يكن الوضع حزيناً دائماً. كانت هناك سعادة أيضاً. كنت شاباً في ذلك البلد، وكنت مع الفتيات في أمسيات الصيف، عندما كانت دافئة وممتعة. وقد رقصت على تقاطعات الطرق وفي قاعات الرقص. كلا، لم يكن الأمر حزيناً دائماً. سوف أتذكّر. ولن أنسى العجوزَين أبداً، اللذين ما يزالان يكدحان. الكثير من الأشياء تتوارد إلى ذاكرتي وأنا أقف هنا، وأنظر خلفي —أشياء لم أفكر بها من قبل. أما الندم؟ فأبداً!»

هكذا فكّر أولئك المهاجرون عند مؤخرة السفينة، بينما تذوب الجزيرة الصخرية في ضباب نيسان.

القبطان:

وراءً أبعد على مؤخرة السفينة، إلى جانب الربان، وقف القبطان لورينتز، بجوار الدفّة، حيث يراقب تسهيل خروج سفينته من الميناء. كانت الريح جنوبية شرقية خفيفة، معطية للسفينة القليل من السرعة، الكافية بالكاد للتوجيه.

«قليلاً إلى اليمين. بثبات. بثبات كما هي.»

كان صوته المدرب بفعل الخدمة الطويلة كقائد سفينة، بعيد المدى وقوياً. كان قبطان تشارلوتا يقارب الستين من عمره، وممتلئ البنية. وكان له وجه قبيح، بأنف سميك أفطس، وعينين جاحظتين، وبشرة حمراء مسفوعة بعوامل الطقس. وكان فمه الواسع الغارق مع فكه الأسفل الناتئ يشبه خطم سمكة الكركي إلى حد مثير للدهشة. وبدا قادراً على القضم بنفس الحدة مثل تلك السمكة الوحشية أيضاً. ومن خطم سمكة الكركي تدلى غليون. وقد أمضى القبطان لورينتز خمسين سنة من عمره في البحر، وترأس في السنوات العشر الأخيرة هذه السفينة الشراعية القديمة التي أصبحت منزله.

وأخيراً، غُلِبت المرساة، وتحررت سفينته من قيدها في قاع البحر. لطالما منح الوقت في الميناء للقبطان لورينتز شعوراً بعدم الراحة والاشمئزاز. في البحر، كان المكان اللائق لرجل راشد؛ ولقبطان تشارلوتا، كان ركوب السفينة وهي راسية مُهيناً تقريباً، أما الخطو إلى اليابس، فعار. كانت المهنة الوحيدة اللائقة بالكائن البشري في هذا العالم هي تسيير سفينة. ولهذه المهنة، للأسف، كانت تنتمي مهمة مقيتة وحيدة، ضرورة واحدة ضرورية لم يستطع أن يتجنبها: عند مسافات معينة، سيكون عليه أن يدير دفّة السفينة إلى الميناء.

لكن هذا الوقت المهين انتهى مرة أخرى الآن. وقد استلقى القبطان لورينتز ثمانية أيام في كارلسهامن، وكان ذلك أسبوعاً من المهمات المزعجة، التي تختبر صبر سيد التشارلوتا. كان ينبغي الحصول على المزيد من الحمولة على ظهر السفينة، وتخزين المواد، وتوظيف بحارة جدد. لكن الإزعاج الأعظم كان أولئك الفلاحين اللعينين. في عمرها الكبير هذا، تحولت تشارلوتا إلى سفينة مهاجرين بدلاً من سفينة تجارية، وأصبحت أهم حمولاتها هذه الأيام هي أولئك الناس الذين يهاجرون إلى أميركا الشمالية: فلاحون، فلاحون من بليكينج، سمولاند. وأولاند. في كل مرة شحن مثل هؤلاء المسافرين عبر المحيط، كانوا يملؤون ويجتاحون سفينة القبطان لورينتز. بل إنهم في هذه المرة طاردوا الفئران وأخرجوها من ثقوبها قبل أن يجدوا متسعاً لهم جميعاً. في هذه المرة، جاءوا يجرون صناديق أكبر، ورزماً أثقل، وأكياساً أضخم، وسلالاً أكثر، وحقائق وممتلكات. ولم يكن حتى الله العظيم يعرف أي خردة

وضعوها فيها. في هذه الرحلة، جلبوا أيضاً نساءً وأولاداً أكثر من أيّ رحلة سابقة على الإطلاق. لم يحدث أبداً أن كان هناك مثل هذا العدد من الأطفال الأشقياء على سطح تشارلوتا من قبل —عائلات كاملة، من الأجداد العجائز ذوي اللحى البيضاء، إلى الأطفال الرُضّع في المهود، نعم، لقد زاد عدد الذين جيء بهم جرأ إلى السفينة هذه المرة! فليأخذ الشيطان القبطان إذا لم تكن سفينته حضانة أطفال في هذه الرحلة!

وكل هؤلاء الناس يجب أن تنقلهم سفينته القديمة إلى الجانب الآخر من الكوكب. أخذت تشارلوتا تصبح كثيرة الصرير وقديمة نوعاً ما، وتعاني من الآلام في بدنها، لكنها ما تزال جديرة بالبحر. وقد أحب القبطان لورينتز ركوبها البحر، وهي تطوّع الماء القاسي، وتتودد للأمواج مثلما تتودد سيدة البلاط إلى ملكة. كان فيها عيب واحد فقط، السفينة القديمة: كانت تعرَق. ربما لم تكن قد جفّت تماماً عندما أطلقوها في البحر —مثل هذه السفينة تظل أبدانها نديّة طالما عاشت؛ وفي حالات قليلة غير معتادة فقط لم تُعمِّر طويلاً.

عاد الربّان لورينتز بأفكاره آسفاً إلى السنوات التي كانت فيها تشارلوتا سفينة تجارية بحتة. كانت لدى القبطان على سفن المهاجرين مهمات ثقيلة جديدة، وقدر أكبر بكثير من المسؤولية. كما لم يحب لورينتز فكرة أخذ مثل هذا العدد الكبير من الناس إلى خارج البلد. ومع كل رحلة، سأل نفسه: لماذا يعبر هؤلاء الفلاحون البحر مع زوجاتهم وأبنائهم؟ ما الذي توقعوا أن يجدوه في أميركا الشمالية؟ في عقل القبطان، كل البلدان متساوية تماماً في الخير والشر. الأرض الجافة هي الأرض الجافة في كل أنحاء العالم، في أميركا الشمالية كما في السويد. كان البحر هو الجزء الوحيد من الكوكب الذي يعيش فيه الناس العاقلون. لم يستطع أن يفهم مطلقاً أولئك الفلاحين الذين تجشّموا عناء رحلة طويلة ومكلفة إلى الجزء الآخر من الأرض، فقط ليعثروا على بقعة تراب أخرى يفلحونها! ربما يستمرون بنفس الطريقة في قلب قطع أراضيهم الصغيرة في السويد كما في أميركا؛ إن فكرة حفر التراب ونبشها هي نفس العمل المهين القريب من معدن السجن في كل مكان. وقد تنقّل هؤلاء المسافرون من حقل إلى آخر، من كومة روث إلى أخرى —فلأي سبب؟

ينبغي لرجل البحر أن يقضي وقته في البحر، والمزارع في المزرعة. ولكن،

وعلى نحو شديد الغرابة، كان المزارعون فعلياً، جماعة المساكن والأرض في السويد، هم الذين يعبرون البحر من أجل تغيير وطنهم. لماذا؟ كانوا يكتظون في أسرّتهم ذات الحشايا فوق المواقد. كان هناك الكثيرون يجتمعون حول إناء بطاطا. لكن ذلك كان خطأهم هم: لقد أنجبوا الكثير جداً من الأطفال. لو كان هؤلاء الفلاحون مشغولين بنفس القدر في حقولهم كما يفعلون في أسرّتهم، لما احتاجوا أبداً إلى الهجرة. يبدو أنهم استعملوا زوجاتهم كل ليلة من السنة —عدا ليلة عيد الميلاد؛ الليلة التي يحجمون فيها خوفاً من هجوم الأشواك والأعشاب الضارة على حقولهم في الصيف التالي، لأن هؤلاء الفلاحيون ما يزالون متطيرين كما كان حالهم من ألف سنة مضت.

أوه، حسناً، بعضهم جاءوا من أصل طيب في السويد، وربما يجدون حظاً أوفر في أميركا الشمالية، حيث قد يعثرون على الأقل على متسع أكبر. هو نفسه لم يدخل في أرض أميركا أبعد من الميناء في مدينة نيويورك. ولا يمكن لأي روح كريمة أن تستمتع بتلك الحفرة القذرة. عندما حطّ في ذلك الميناء، قبل نحو عشر سنوات مضت، رأى الخنازير تنبش في كومة من الروث النتن في شوارع البلدة. كانت بعض الأحياء حظائر خنازير حقيقية. وقد استعرت الكوليرا حينذاك، ومات المئات كل يوم، وانتقل معظم السكان إلى المناطق الداخلية حيث المناطق التي لم تصلها العدوى. وقد بدت مدينة نيويورك ميتة، تعبق بروائح الجثث. والآن، أصبحت نابضة بالحياة مرة أخرى، وصاخبة، وفيها تركب النساء الجميلات ذوات الفساتين الحريرية عربات فخمة في الشوارع. لكنها لم تكن مدينة حيث يشعر رجل البحر بأنه في بيته، ليس حتى لبضعة أيام. في برودواي، هناك بعض الفنادق، لكن أياً منها لا تستطيع أن تعرض على مسافر أنواع الراحة التي كان معتاداً عليها في مدن الموانئ في أوروبا. كانت نيويورك، بعد كل شيء، بلدة مزارعين.

خرجت السفينة تشارلوتا ذات الصاريين أخيراً من الميناء إلى البحر المفتوح. وتشمم القبطان الريح —بدت حتى وكأنها أهدأ من السابق؛ وقد رُفعت كل الأشرعة، لكنها تدلت محايدة وميتة؛ كانت مُحبطة ومتغضنة، منتظرة قدوم الريح.

المساعد الثاني، وهو فنلندي، اقترب من القبطان. كان مسؤولاً عن

المسافرين في المهجع، وأبلغ بسويدية مشوبة بلكنة فنلندية أنهم عثروا جميعاً على أسرتهم المخصصة والتجأوا إليها، كل شيء على ما يُرام. كانت هناك بالطبع تلك الشكاوى المعتادة من أن المكان شديد الاكتظاظ وغير مريح هناك في الأسفل. هكذا كان الأمر دائماً في البداية. وقد استمروا في دفع بعضهم البعض في المهجع، حتى أدركوا أنهم لن يجعلوا السفينة أكبر أو يكسبوا المزيد من الحيّز عن طريق الدفع بأيديهم وأكواعهم. وبمجرد أن فهموا ذلك، كفوا عن صخبهم وهدأوا. وبدا الأمر كما لو أن لديهم أناساً رائقين إلى حد ما في هذه الرحلة؛ سوى فلاح واحد بدا عنيداً، رجل له أكبر أنف سبق وأن رآه في حياته. ولم يستطع هو ورجل متزوج آخر العثور على مكان للنوم في داخل الجزء المخصص للعائلات. ربما يمكن تدبّر أسرّة لهما بجوار أسرّة العائلة. لكن تم وضعهما في الوقت الحالي مع الرجال غير المتزوجين، وهذا جعل الرجل صاحب الأنف الكبير مغضباً ومن الصعب التعامل معه؛ وقد أصر على البقاء مع زوجته وأولاده. وهذا ما جعله، هو الرُبّان، يقول له أن يسحب أنفه الكبير إلى الداخل إذا كان يريد أن يبقى على سطح السفينة بقدمه الهائلة الشبيهة بقدم الفيل. يا إلهي، تلك الأحذية التي يرتديها الفلاحون! إن لدى ذلك الرجل حذاءين كبيرين حتى أنه يستطيع بهما أن يعبر المحيط الأطلسي دون أن يبتل.

مضغ القبطان لورينتز غليونه بينما يستمع إلى ربّانه. لقد زحف الفلاحون على سفينته هذه المرة مثل الجراد في حقول أميركا الشمالية. اللعنة! ربما سمح للكثير جداً منهم بالصعود إلى سفينته. وأمل أن يكون بالوسع تدبر أمرهم، كما تنبأ ربّانه. وفي الأيام المبكرة من الرحلة، بينما كانوا ما يزالون في بحار الجزر والمياه الهادئة، بقي المهاجرون هادئين في العادة بما فيه الكفاية، وشغلوا أنفسهم بطريقتهم الفضولية في تفحص السفينة. لكنهم عندما وصلوا المياه المفتوحة وشرعوا في الإحساس بالبحر، أصبح حتى ألين الرجال عريكة يهتاجون أحياناً. ويمكن للفلاح الذي يكون على اليابسة أكثر الكائنات وداعة، أن يتحول في العاصفة في البحر إلى أكثر الحيوانات شراسة، ويصبح من المستحيل التعامل معه.

شعر قبطان تشارلوتا بالأسف لفئران الأرض المثيرين للشفقة، الذين تم إغواؤهم للخروج من جحورهم ليقضوا أسابيع في البحر. ربما لم يكن هؤلاء

الشياطين البائسون قد ركبوا حتى قارباً صغيراً مستوي القعر، أو رأى جسماً مائياً أكبر من حوض الغسيل؛ والآن، صاروا فجأة بعيدين في رحلة في المحيط. لم تستطع هذه الكائنات البائسة أن تنسجم أبداً مع البحر، وكانوا خائفين على أرواحهم مثل النساء العجائز. ولكن بعد كل شيء، أي شأن له بذلك؟ لم يكن خطأه. وهو لم ينصح هؤلاء المزارعين بمغادرة أكواخهم الوادعة في أبرشياتهم في الوطن، ولم يقنعهم باستبدال سرير المزرعة بحشية متدحرجة في سفينة تحت الشراع. ليس لهم أن يلوموا سوى أنفسهم.

ازداد المطر الهاطل غزارة، وهدأت الريح الجنوبية الغربية. في هذا الوقت من السنة، تتحول الريح فجأة في بحر البلطيق، ولا يستطيع حتى ربّان عجوز أن يتنبأ بالطقس؛ لكن يبدو في هذه اللحظة أن الليلة ستكون هادئة. ويمكن للقبطان لورينتز أيضاً أن يدخل مهجعه ويستريح لبقية فترة المراقبة المسائية.

وفي طريقه إلى قمرته، كاد القبطان يقع فوق أحد المسافرين، الذين كان منحنياً على ركبتيه قرب حاجز السفينة. وأمسك لورينتز بالرجل من كتفيه ورفعه. كان فلاحاً أميل إلى القصر، وغطت وجهه لحية كثة بنية مائلة إلى الحمرة؛ وقد انسدل شعره الطويل المقصوص باستدارة على ياقة معطفه.

«افتح عينيك،» حذر القبطان. «حاذر أن تقع في البحر.»

أبقى الرجل الضئيل يديه مطويتين على صدره، كما لو كان يحمي شيئاً تحتهما.

«أنا لم أسقط، كنت راكعاً أصلي لله.»

«لماذا تتلو صلواتك في الأعلى هنا؟»

«هناك الكثير من الصخب في أسفل السفينة. أريد أن أشكر الله بهدوء.»

«أوه — هكذا إذن، يا رجلي الطيب.» ونظر لورينتز إليه وأضاف: «يفضل أن تنتظر بعض الوقت قبل أن تشكر الله على رحلة آمنة.»

نظر الفلاح إلى الأعلى وقابل تحديقة القبطان بعينين دمثتين وصريحتين. لقد أراد أن يشكر الله سلفاً — فقد أذِن له بركوب سفينة جيدة، تبحر بقيادة قبطان شريف حي الضمير، يعاونه بحارة قادرون منظمون. الآن يستطيع أن يترك الأمر كله لله. إنه يعرف أن الله القدير سيفعل ما يستطيعه ليساعدهم على عبور البحر الخطير.

«مممم.. هممم،» همهم القبطان. «حاذر لكي لا تقع. الدكة مبتلة وزلقة.»

مضى لورينتز في طريقه إلى قمرته، متفكراً في اكتشافه. إذن، لديه بعض المتدينين المتزلفين على السفينة. إنه يعرف ذلك النوع، وهو لا يحبهم. قبل بضع سنوات كان قد أبحر إلى أميركا الشمالية مع خمسين من الكائنات. وقد غادروا من غافلي؛ وبعضهم كانوا مأخوذين بشدة بعلة الدين حتى أنهم قطعوا الرحلة الشاقة حفاة وسيراً على الأقدام من منازلهم إلى البلدة الميناء، سائرين ليلاً ونهاراً، حتى يركبوا السفينة ويهربوا من البلاد. كانت أقدامهم تنزف عندما وصلوا، وقد قارنوا ذلك بالدم في جروح المسيح.

وعلى الفور، ميّز أنهم متعصبون، وكان أولئك المتعصبون، في واقع الأمر، أصعب مسافرين حملهم في سفينته على الإطلاق. إنهم لم يعتبروه سيد السفينة، وإنما اعتقدوا أن الربّ الإله هو المسؤول. وبالإضافة إلى ذلك، وبمجرد أن وصلوا البحر المفتوح، أصروا على أن الله أمرهم بإدارة الدفّة؛ فقد كان البحارة أجراء للشيطان، كما قالوا، وهم يوجهون السفينة إلى حتفها. ولم يكن الكثيرون من الفلاحين، من هيليسنغلاند وداليكارليا، قد رأوا البحر في حياتهم مطلقاً من قبل، وأقل من ذلك بكثير سبق وأن اقتربوا من دفة. وإذا أراد الله أن يديرها المسافرون، فإنه كان سيختار بلا شك واحداً معتاداً على البحر —وحتى القبطان لورينتز كان معتمداً على الله بهذا المدى. لكن عندما تدخل المتعصبون إلى حد إرادة تغيير مسار السفينة، فقد أجبروه على الأقل على قراءة قانون البحر عليهم. وحتى يكون في مأمن، كان عليه إخبارهم أيضاً بأن لديه بنادق على سطح السفينة. كانوا مليئين بالأفكار المجنونة. وكانت رحلة جهنمية تلك التي كانوا على متنها.

لكنه قدّم لبلده الأم خدمة عظيمة في تلك المرة، عندما شحن إلى خارجها خمسين سويدياً مجنوناً وتخلص منهم في أميركا الشمالية. كان هناك الكثير جداً من المجانين هناك قبلهم بحيث أن هذا الحمل الجديد سوف يضيع في الرعاع.

ومع ذلك، بدا له هذا الشخص ذو اللحية البنية المائلة إلى الحمرة، الذي صادفه لتوه يصلي على سطح السفينة، روحاً طيبة. لقد شكر الله على القبطان القدير؛ وطالما ظل هراؤه الديني يتخذ مثل هذه التعبيرات، فإنه يمكن اعتباره

مسالماً وغير ضار.

في قمرته الصغيرة تحت أقصى مؤخرة السفينة، أخرج القبطان لورينتز الآن جرة من جعة البرانفين، التي يحتفظ بها مثبتة بجانب طاولته. وصب الشراب ذا الرغوة في كوب خزفي هائل يتسع لنصف غالون تقريباً. وقد اتخذ مقبض الكوب شكلاً أنثوياً، شكل الجسد العاري لفتاة شابة. وقد تعلقت على حافة الكوب وغمست يديها وذراعيها في الجعة، محنية رأسها لكما لو أنها تشرب. وشكل ظهرها، المتخذ شكل فتاة شابة نحيلة، مقبض الكوب.

كان كوب الشراب هذا هدية من شمّاع سفينة في برشلونة لصديقه الطيب، قبطان تشارلوتا. وفي مرات عديدة، ساعد الصديق لورينتز في العثور على فتيات ذوات أجساد أكثر نعومة من الطين المحروق؛ لكن ذلك كان قبل زمن طويل، وحدث عندما كان هذا الأعزب العجوز أصغر سناً وأكثر حيوية. والآن، أصبحت القيلولة بين ذراعي امرأة —إذا اعتبرها المرء قيلولة— تنتمي إلى حاجات وضعها القبطان لورينتز وراءه بالتدريج. لقد عاش حياة طيبة، في تلك الأيام، التي لم تلعب فيها النساء أي دور. لكنه كان يستعمل الكوب الخزفي الكبير ذا الجسد الأنثوي كل يوم في قمرته. وفي كثير من المرات، كان يروي عطشه برغوة الجعة من هذه الإناء، ويده تحمل المرأة غير حسنة التكوين. وفي فترات منتظمة خلال اليوم، يعانق خصرها بيديه، يدي البحار العجوزين الخشنتين. وفي هذه الأيام، أصبحت فتاته الوحيدة، وبقيت عشيقته الدائمة والمخلصة، سواء كانت التشارلوتا تبحر في البحار الداخلية، أم في المحيطات المفتوحة.

احتضن القبطان جسد الفتاة بقوة ورفع كأس الجعة إلى فمه. وعندما ثمل، مد ساقه تحت طاولة القمرة وتنهد بعمق وبمتعة: عطش جيد وجعة طيبة، شيئان رائعان بامتياز عندما ينالهما المرء في وقت واحد.

كان القبطان مبتهجاً هذا المساء —فقد وصل بالسفينة إلى الماء الصرف. وثمة الكثير من البحر المفتوح يمتد أماماً؛ وسوف يمضي معظم الربيع في البحر. وهو لن يفكر بهَدسون الضيق —المدخل إلى ميناء نيويورك— ولو برهة حتى اليوم الذي يصبح فيه هناك فعلاً. وقد وضع جُرن جعته على قطعة من الورق، وقد بللتها الرغوة. وقد التقطها الآن، ورفعها أقرب إلى عينيه.

وميز فيها وصفة كيميائية، مكتوبة بخط مرتب، وكان قد أعطاها له عطّار من كارلسهامن في الليلة الماضية، في حفلة شراب وداعية في حانة الأمل:

«للكوليرا
«(إلى صديقي القبطان لورينتز، قبطان تشارلوتا)
مؤقتاً ينبغي أن تحيا.
فلا تكن خائفاً، ولا تستسلم للمخاوف.
كُن مرحاً، وكل يوم
ألق بكل عقاقيرك بعيداً.
ينبغي أن لا تكون مكتئباً أبداً
ولا تدع مزاجك يعتكر.
كل قليلاً، واشرب أكثر،
انس النساء، ودعهنّ يشخرن
نَم كل ليلة واعمل كل نهار.
هي ذي القاعدة التي تبقيك جذلاً.»

وقد أراد العطار أن يسعده بهذه الأبيات، التي نسخها من صحيفة ما. لكن لورينتز لم يسعد بها هذه الليلة — وإنما العكس تماماً. وذلك لأنه تعرض مرتين خلال هذه الرحلة الطويلة عبر المحيط لزيارة المرض الذي كانت الأبيات تبحث عن النصيحة بشأنه. والآن، وبينما يجلس في قمرته مع جعته المسائية أمامه، ذكرته تلك الأبيات بكل المتاعب والصعوبات التي واجهها كقبطان لهذه السفينة خلال الرحلات الأسبق مع المهاجرين إلى أميركا الشمالية.

أمامه، على المائدة، كتاب «المرشد الصحي للبحّارة» المطبوع باللغة الدنماركية؛ لأنه لم يكن هناك بعد كُتيّب سويدي للقباطنة الذين يبحرون بلا وجود طبيب. كان هذا المرشد الطبي كتاباً مفيداً جداً. وفي واحدة من أولى الصفحات وضع القبطان خطاً بقلم رصاص أحمر تحت بضع جُمل: «إذا كان هناك عدد كبير من المسافرين في السفينة بحيث يجب أن يُعاملوا كحمولة، فإن هذه بالطبع أقل الحمولات الممكنة صحيّة. وعندئذ، يكون بذل مقدار كبير من

العناية مطلوباً من القبطان....»

العناية —في هذه الكلمة الوحيدة، كانت متضمنة كل المسؤولية الملقاة على كاهل قبطان سفينة مهاجرين مثل تشارلوتا ذات الصاريين.

تنهد القبطان لورينتز ثانية، هذه المرة من شعور الرضا الذي صنعته فيه الجعة الجيدة. ما الذي تنطوي عليه عناية القبطان؟ كان لورينتز متيقناً من أنه يستطيع الإبحار بسفينته إلى وجهتها في أميركا الشمالية. وفي هذه المرة، كما كان الحال دائماً من قبل، سوف يصل بها، دون أن يلحق بها الأذى، إلى الميناء. لكنه كان متيقناً بنفس المقدار من أنه ليس كل المسافرين الذين غادروا اليوم سوف يكونون ما يزالون على متنها عندما يرسون على رصيف الميناء في نيويورك. قبل أن تنتهي الرحلة، سيكون قد قرأ صلوات الجناز على واحد أو أكثر من المهاجرين؛ وسيترتب على واحد أو أكثر أن يُلقى به في ماء البحر.

المكتوب في الكتاب كان صحيحاً: إنه هو سيد السفينة لأقل حمولة يمكن تخيلها صحيّة —الكائنات البشرية.

كان لديه سبب ليندم على أن تشارلوتا لم تعد تبحر كسفينة بضائع فقط. وقد فضل الشحنة الميتة في العنبر على هذه الحمولة الحية، غير السارة؛ لم تكن ثمة حاجة أبداً إلى قراءة صلوات الجنازة على الحمولة العادية. ومن بين كل واجباته كقبطان، كانت وظيفة الكاهن هي الأكثر مقتاً —دفن الموتى. نادراً ما يحتاج قبطان سفينة البضائع إلى أداء هذا الواجب، والتي ربما يجدها قبطان سفينة مهاجرين في رحلة سيئة الحظ مهمة يومية تقريباً. لكم كان عدد الأيام التي كان فيها على الدكة ويلعب دور الكاهن في تلك المرة عندما جاءهم وباء الكوليرا على ظهر السفينة! لكم ألقى في تلك الرحلة ثلاث مجارف من التراب على الأجساد الملفوفة في الأكفان —ولم يعد لديه أي تراب في العنبر، حتى ولا حفنة واحدة. في البداية، انتابته الحيرة إزاء ما يستخدم للجنازات، لكنه أخيراً أخذ الرماد من المطبخ —فقد كان هناك، بعد كل شيء، قليل من الفرق بين الرماد والتراب.

كان ذلك هو الوقت الذي جاءته فيه فكرة أخذ تراب سويدي معه ليستخدمه في الجنازات: مكيال من التراب السويدي. كان ذلك قدراً قليلاً بما يكفي.

وقد فكر قبطان تشارلوتا: سوف آخذ التراب معي لأولئك الفلاحين المهاجرين. إنهم عُشّاق تراب، إنهم مرتبطون بالأرض، وهم يحبون التراب فوق كل شيء في هذا العالم. وعندما يموتون، سوف يريدون أن تُملأ أفواههم بالتراب. فليكن لدي. إن أفواههم تمتلئ بالتراب عندما يتعفنون في مقبرة الكنيسة. لكن الموت في المحيط مختلف —هنا يُلقى بهم في الماء— وإذن، لماذا الضنّ على الشياطين البؤساء بثلاث مجارف من التراب فوق أجسادهم عندما يتوجّب أن يُدفنوا في البحر، بعيدين عن الوطن —فقط ثلاث مجارف من ترابهم هم؟

وبعد الرحلة، لم يستخدم القبطان لورينتز الرماد من المطبخ في عمليات دفنه في البحر. أصبح لديه قدر مكيال من تراب السويد جاهزاً دائماً على سفينته. وكان أحد الشروط على الركاب، التي لم يكن لهم علم بها — مكيال من التراب حتى يُستَخدم عندما تكون ثمة حاجة إليه في البحر.

أربعون خطوة طولاً، وثماني خطوات عرضاً

١

في عنبر السفينة، عُلِّقت قطعة هائلة من القماش لتقسم الحيّز إلى ثلاثة مهاجع: واحد للعائلات والأولاد، وآخر للرجال غير المتزوجين، وثالث للنساء العزباوات. ووُضعت أسرّة العائلات قرب مؤخرة السفينة، مفصولة عن بعضها البعض بألواح كبيرة من الكرتون المقوى التي جُمعت معاً بالمسامير. وبدت تلك الزنازين الصغيرة حظائر ماشية أو إسطبلات خيول. وفي مقدمة عنبر السفينة، أُعِدّت أسّرة من الحشيّات والقش الخفيف، ونام المسافرون غير المتزوجين على سلسلة من المراتب التي ملأت الفسحة بين الدعامات. كانت ثمّة أسرّة فردية، وأخرى مزدوجة، «مضاجع سفينة علوية وسفلية».

ونهض الغبار من المراتب غير المشمّسة التي تعوزها التهوية، ومن الأغطية والحواجز القماشية بينما يُعِدُّ المهاجرون فراشهم للنوم في عنبر السفينة تشارلوتا الذي ضمّ مضاجع لثمانية وسبعين شخصاً. واحتفظ كل مسافر بأمتعته الشخصية أمام سريره. كان السقف خفيضاً والهواء ثقيلاً وخانقاً، وبدت العنابر الثلاثة المفصولة بالقماش أصغر مما هي أصلاً مع كل هذه الحمولة من حقائب الظهر وسلال الطعام والفراش وصُرَر المتعلقات الأخرى. وهنا وهناك، توزعت في المكان طاولات بدائية أو ألواح طعام حيث يستطيع الناس الجلوس والأكل، وتزاحمت هذه أيضاً مع السلال والبراميل التي ينبغي أن تجد لنفسها مستقراً هي الأخرى. وفي المحصلة، تبقى بالكاد مكان يمكن أن يتحرك فيه المسافرون.

لم يكن الضوء ينسلّ إلى العنبر سوى عبر الكوّة الرئيسية. وعندما يحلّ الظلام، كانت تُضاءُ بضعة مصابيح كيروسين ضعيفة داخنة، وتُعلَّق على

جوانب بطن السفينة.

ولم يكن ثمّة متسع لكارل أوسكار في مهجع العائلة، فترتب عليه أن يتقاسم سريراً مزدوجاً مع أخيه روبرت في قسم العُزّاب. وفوق سرير الأخوين نام يوناس بيتر، ووضع آرفيد حشيته بجوارهما. ولم يتوفر لهؤلاء الرجال حيّز يزيد عن مكان قطع الإشعال في موقد الحطب، ولم يحظ أي منهم بأكثر من قدم عرضاً بالكاد.

«لا بد أنهم يريدوننا أن ننام على جنوبنا،» قال كارل أوسكار. «لا مجال للمرء لأن يستلقي على ظهره».

وأغلق يوناس بيتر أنفه بإصبعيه: «هذا المكان يعبق برائحة البول!»

واعتقد روبرت أيضاً أن المكان يعبق برائحة بول قديم. «المكان كريه الرائحة،» قال آرفيد. «دعنا نصعد إلى فوق.»

كان المهجع مظلماً مثل قبو. وشعر كأنه محبوس في داخل كيس.

وبالتدافع بالمرافق، استطاع الولدان شقّ طريقهما بين رفاقهما المسافرين وأسرّتهم وأكياسهم وصررهم، عبر المجاز الضيق على طول جانب السفينة، إلى حيث ناضلا للخروج من فتحة المهجع العلوية. ونظر روبرت عن قرب إلى غطاء الكوّة المخرم بفتحات صغيرة مثل مصفاة الحليب. تلك الثقوب الضيقة إلى حدّ مثير للشفقة كانت المدخل الوحيد للهواء النقي. فلا عجب إذن أن يكون الجو في الأسفل ثقيلاً وخانقاً.

«لماذا لم يصنعوا فتحات أكبر للتهوية في هذه السفينة؟» تساءل آرفيد مستغرباً.

وعلى السطح، تنفّس الصبيان هواءً نقياً منعشاً ببرودة ربيع البلطيق. كان الهدوء يريم على البحر، والسفينة تتهادى متمايلة بطيئة، حتى شعرا بالكاد بأنها تتحرك. وخرّ الماء بخفوت منسرحاً على جوانب السفينة، مثل الماء المنساب من نبع بطيء الجريان.

أراد روبرت أن يتجول في المكان ويتفقد هذه السفينة التي ستكون مسكنه لفترة طويلة. بالأمس عند المغادرة، سادت العجلة والفوضى حتى لم يتمكن من رؤية شيء منها. كان ينبغي لهم العثور أماكن لنومهم، وحمل الصناديق والحقائب والبراميل والسلال إلى العنبر. ووجد نفسه يصطدم بأحد ما أنّى اتجه.

لكنه أصبح اليوم يشعر ببعض الألفة تجاه المكان.

لم يكن يخشى سوى الاقتراب كثيراً من القبطان. كان أحد الكتبة في مصنع سونيسون لمعدات السفن في كارلشامن قد أراه طبعة من صحيفة كارلشامن أليخاندرو؛ وفيها قرأ خبراً عن سفينتهم: «وصل سادة السفينة؟» وظن روبرت في البدء أن ثمة خطأ إملائياً في الطباعة؛ لكن الصحيفة قالت فعلاً «سادة السفينة» ولم تقل «وصلت السفينة.» إنهم سادة السفينة هم الذين وصلوا إلى الميناء، وليس السفينة نفسها. وإذن، كان الرجل الضئيل الذي رآه أمس وهو يسير في مؤخرة رجال الطاقم أهم من السفينة جميعاً. لن يكون من الحكمة التواجد في طريقه.

استطلع الولدان محيطهما بفضول. تفحص آرفيد الحبال السميكة مثل ذراع الرجل، والملتفة هنا وهناك على دكّة السفينة مثل أفاعٍ عملاقة. كان قد رأى نفس هذا النوع من الحبال في متجر معدات السفن في كارلشامن. وعندما سأل عما إذا كانت هذه الحبال تستخدم لكبح الثيران الجامحة، ضحك الموظف وقال إنها تستخدم لكبح ما هو أكثر جموحاً وأصعب كبحاً من ثيران العالم كله. وعندها، لكز روبرت آرفيد في خاصرته وأوضح له أن الحبال تستخدم في السفن لربط شيء ما.

كان روبرت قد حاول أن يتعلم بقدر ما استطاع عن السفن وحياة البحر، وأخذ يشرح لرفيقه في السفر: إن سفينتهم تدعى: ذات الصاريين؛ ويمكن تمييز ذات الصاريين بسهولة عن السفن الأخرى، لأن لها شراعاً على مهماز فوق الصاري الخلفي.

«شراع على مهماز؟ ما هذا بحق الله؟» سأل آرفيد.

ولم تسعف روبرت معرفته في الإجابة عن هذا السؤال بعد، لكنه اعتقد أنه لا بد أن يكون شراعاً يعلق على مهماز أو رمح «مهما يكن ذلك.» أما الصاري الخلفي، على أي حال، فهو ذلك الأبعد عند مؤخرة السفينة.

«تحدث أحدهم اليوم عن شراع الفناء، ماذا يمكن أن يكون هذا؟» سأل آرفيد.

ظن روبرت أنه يستطيع الإجابة عن هذا بدقة: شراع الفِناء، بلا شك، هو الذي يُصنع تماماً في ساحة بناء السفن.

نظر الولدان إلى سقف الأشرعة فوقهما؛ وأحصيا أحد عشر شراعاً شدها تيار الهواء: ثلاثة على الصاري المقوّس؛ أربعة على الصاري الأمامي؛ وثلاثة على الصاري الخلفي —أو الرئيسي، وشراع مربع صغير على الدفّة. وقد ارتفعت الصواري عدة قصبات وبدت أعلى من برج كنيسة. وكان الصاري الرئيسي يرتفع بضع أقدام عن الصاري الأمامي، ولذلك أطلق عليه هذا الوصف.

لاحظ آرفيد أن الصواري مصنوعة من أشجار الصنوبر، وفكر مرة أخرى، كما فعل لدى رؤية السفينة أول مرة، بأنه ربما يكون قد ساعد هو نفسه في قطع الأشجار التي أصبحت صواريها.

«أهي شجرة واحدة؟» سأل آرفيد. «إنها بنفس السماكة من أسفلها إلى أعلاها».

واعتقد روبرت أن عدّة شجرات قد ضُمّت معاً لصناعة الصاري؛ لا يمكن لصنوبرة واحدة أن تكون بهذا الطول.

هكذا تأمل عاملاً المزرعة أحجيات حياة البحر، مُحدِّقَين طويلاً في قمم الصواري حتى أصاب رقبتيهما الألم. هذه الصنوبرات جاءت من أعماق الغابات، وسافرت بعيداً عبر المحيط، بينما ما تزال جاراتها منغرسة في الغابات، وربما لا تخرج أبداً إلى البحر. لقد تعامل القدر بلا عدالة، حتى بين أشجار غابة.

فوق، من أعالي الصواري، تدلت شباك غريبة مصنوعة من الحبال الغليظة. لا بد أنها تستخدم لصيد الأسماك الكبيرة، هذه الشباك التي لديهم. كان البعض من البحارة يتسلقون تلك الشباك، هاتفين لبعضهم البعض. وأصاب الدوار صبيّي المزرعة وهما يشاهدانهم معلقين هناك في الأعلى. لم يكن ثمة شيء يتمسك به رجال السفينة، بالقدر الذي رآه الصبيان، وخشيا أن تزلّ قدم أحد الرجال في أيّ لحظة، بحيث يضطر آرفيد وروبرت لرؤية أجساد هؤلاء الشجعان كالشياطين ساقطة على الدكة، ومنسحقة إلى كتل دامية.

مضى الصبيان في تفقدهما للسفينة تشارلوتا ذات الصاريين، واندهشا من ضيق الحيّز الذي تبقى ليتحرك فيه المسافرون. قاسا طول السفينة وعرضها بخطواتهما. ومع أنهما قصّرا طول الخطى، فإنهما وجدا أن طول السفينة لا

يتجاوز أربعين خطوة، وعرضها ثماني خطوات. بعض بيوت المزارع لها أرضية باتساع سطح السفينة. إنّ سفينتهم صغيرة فعلاً -وليس فقط بسبب البُعد. أربعون خطوة طولاً وثماني خطوات عرضاً ليعيش فيها ما يقارب المائة شخص، ويناموا ويأكلوا ويمارسوا كل الأنشطة اليومية الضرورية. لو أن الجميع خرجوا إلى سطح السفينة دفعة واحدة، لأصبح بالغ الاكتظاظ بحيث سيكادون يدفعون بعضهم البعض من الدكّة إلى البحر. إلى البحر -وماذا لو يحدث شيء ما لسفينتهم الصغيرة، هناك في عرض المحيط العظيم: ماذا سيفعلون؟ ثمة بعض الطوافات الشبيهة بزوارق التجديف هنا على الدكّة، لكنّها يستحيل أن تكفي لحمل المسافرين ولا بأيّ طريقة. حسناً، ربما لا يعتبر البحارة مثل هذه المعدات ضرورية.

أما بالقدر الذي يتعلق بالضرورات الآنية، فكان روبرت قد سأل اليوم بحاراً عن بيت الخلاء، وقال له إنه ذلك البناء الدائري في الأمام، خلف قوس مقدمة السفينة. ولم يفهم روبرت معنى قوس المقدمة، لكنه وصل إلى بيت الخلاء عموماً، ولم يجده مستديراً، بل مربعاً، ولم يدرك لماذا سمّوه البيت الدائري. صحيح أن فتحة الحمّام دائرية، بالطبع، لكن كل الفتحات من هذا النوع كذلك. إنها أحجيات البحر، ومَن ذا الذي يستطيع أن يحل ألغاز البحر؟

نظر الصبيان اللذان ربط بينهما حلم أميركا إلى رافعة المرساة، وتحسّسا ثقل السلسلة. يا لها من معدات! لكن من الطبيعي أن تكون السلاسل ثقيلة حتى توثِق السفينة إلى قاع البحر.

«انظر إلى ذلك الرجل في طرف المقدمة،» قال آرفيد، وأشار إلى منطقة القوس. ولم يكن «الرجل» سوى تمثال منحوت من الخشب. واقترب الولدان منه ليكتشفا أنه رأس وعنق طائر ضخم، نسر يمتد فوق قوس المقدمة. وكان منقار الطائر الطويل مفتوحاً، متجهاً إلى الماء مثل طرف الرمح، وكأنه يدل مدير الدفة بمنقاره على الوجهة حتى يعبر البحر. وبدا النسر غُرابيّاً شرساً، بينما تستطلع عيونه الخشبية السوداء الساكنة مياه بحر البلطيق.

وعند الصاري الأمامي، جلس رجل عجوز محني الظهر طويل اللحية مستنداً إلى الصاري الأمامي، منشغلاً بمعالجة قطع من الحبال وما شابه. ورد على روبرت بابتسامة ودودة عندما سأله عما يفعل.

«ألا ترى يا غلام؟ إنني أجدل الحبال.»

والتقط روبرت كلمة جديدة –»أجدل». كان الرجل العجوز الملتحي هو صانع الأشرعة في السفينة، وكان في أيام شبابه رئيس البحارة. وسأله روبرت عن تمثال المقدمة في تشارلوتا، فأجابه العجوز بأنه لا يخدم أي غرض سوى الزينة.

من على الحاجز الحديدي، تأمل الصبيان المياه وهي تنداح بهدوء على بعد بضع أقدام تحتهما. وظنّ روبرت أن عمق الماء قد يصل إلى ميلين، لكن آرفيد هز كتفيه متشككاً. إنه يعتقد أن القعر ليس أبعد من مئة قصبة –في أحسن الأحوال.

كان البحر يمتد على مسافة قريبة من دكّة السفينة حدّ الخطر، ونظر آرفيد مأخوذاً بالرعب. «لو أن البحر ينهض نصف باردة فقط، فإنه سيغرقنا.» قال متوجساً.

وجال الاحتمال في ذهن روبرت لبرهة هاربة، لكنه قال إنّه ليس ثمة خطر: إذا نهض البحر، فإنه سيرفع السفينة معه إلى أعلى فحسب. وهز آرفيد رأسه عاجزاً عن الفهم.

واقترب مسافر آخر من الصبيَّين. كان يرتدي قبعة عريضة ومعطفاً مُخشخِشاً بلون بنيّ فاتح، وسروالاً ضيقاً ملتصقاً بساقيه مثل الجلد، وقد تدلى من جيبه الخلفي منديل أبيض يحتك بفخذيه مثل ذيل حصان. كان حذاؤه مصنوعاً من أفضل الجلود كما بدا بوضوح. وقد انتبه روبرت إلى هذا الرجل في السابق بسبب ملابسه الغريبة، وبدا له عندئذ رجلاً نبيلَ الأصل بين كل هؤلاء الفلاحين.

نظر الغريب من فوق الحاجز إلى هيكل تشارلوتا المهترئ وألواحها الخشبية التي شرعت في التلف والتشقق. وابتسم بازدراء، وبصق على الهيكل القديم.

«يلعنها الله! اللعنة على حوض الاستحمام العجوز المهترئ هذا!!»

وبصق مرة أخرى من باب التأكيد.

«هذه سفينة عفنة غارقة! هل تفهمان، أيها الفلاحان؟»

أجاب روبرت بشيء من الامتعاض بأنه شعر بالشيء نفسه عندما ركب

السفينة. إنها رطبة وغير صحية.

«إن ماءها الآسن في البراميل يبث رائحة كريهة مثل شيطان.» قال الرجل في المعطف الأنيق. «لقد أبحرت في سفن عديدة، ولا بد من القول إن هذا الهيكل العتيق مُنتن».

«هل أنت بحار يا سيدي؟» سأله روبرت باحترام جديد.

«يمكنني قول هذا. كنت كذلك لعشر سنوات.»

كان آرفيد منحنياً على حاجز السفينة، والآن وقع على اكتشاف. أشار بيده وقال: «انظرا! ثمّة ثقب! إن سفينتنا ترشح.» وأشار إلى فتحة عند طرف المياه، يتدفق الماء منها ويعود إليها بشكل مستمر. وضحك الرجل في المعطف الأنيق.

«هذه بالوعة التصريف يا بني. لكن السفينة ترشح على أي حال.»

التقط روبرت كلمة «بالوعة». بالطبع، إنها الفتحة التي يصرف المسافرون منها فضلاتهم، وقيئهم. كان ينبغي لآرفيد أن يدرك ذلك أيضاً. ولاحظ الآن أن الفتحة مبطنة بالحديد، لمنع الفضلات من الالتصاق بالخشب ونث الرائحة العطنة، بلا شك. وأقنعه وجود الحديد بأن الفتحة صُنعت لغاية، ولم تكن ناجمة عن تلف في الهيكل.

«نعم،» استأنف الغريب، «ها أنذا أبحر إلى جمهورية أميركا الشمالية ثانية، في حال ظل هذا الحوض القديم عائماً كل تلك المسافة.»

«هل زرت أميركا من قبل يا سيدي؟» سأل روبرت.

«مرات عديدة يا صديقي، مرات كثيرة. لقد عشت في أميركا لسنوات.»

ونظر روبرت إلى رفيقه المسافر باهتمام جديد. لأول مرة في حياته يجد نفسه وجهاً لوجه مع شخص كان قد ذهب إلى العالم الجديد. ورأى وجهاً أحمر متورداً، متورماً كما لو أن صاحبه مصاب بالنكاف؛ له أنف أفطس، وعينان محتقنتان ثقيلتا الجفون. كان من الصعب اكتشاف ملامح تجلب السلوى في هذه الطلعة، لكنّ صاحبها زار أميركا، وتحدّث عن ذلك بلا تفاخر، كما لو يذكر أنه زار بيت الخلاء.

«ماذا كنت تفعل في أميركا، يا سيدي؟»

«أشياء مختلفة.»

ومسحت عينا الغريب الماء كما لو أن ذكرياته في أميركا تعوم هناك، على قمم الموج.

«في هذه السنة الأخيرة، ساعدت كاهناً مورمونياً في أعمال مختلفة.»

وبصق صاحب المعطف الغريب والسروال الملتصق بساقيه مثل جلد الأفعى مرةً ثانية، في البحر مباشرة هذه المرة. ولم تعد ثمة حاجة لأن يحثه روبرت على الحديث، فقد استأنف الآن بمحض إرادته.

إن المورمون هم «قديسو اليوم الآخر» في أميركا، وقد أتيحت فرصة العمل مساعداً لواحد من أعظم أنبيائهم وأكثرهم قداسة ـــ أو هكذا أعتقد عندما قبل بالعمل. لكنه تبيّن له لاحقاً، كما يمكن أن يعترف الآن، أن القسيس الذي عمل معه لم يكن مورمونياً على الإطلاق! إن الأشياء لا تكون دوماً كما تبدو في ظاهرها، لكنه سيروي القصة كما حدثت معه بالضبط.

كان الكاهن المورموني (بدا من الأسهل الإشارة إليه هكذا) يرتحل بالقطار من مدينة إلى أخرى، وهو رافقه ليساعده في شؤون مختلفة. ولم تكن تلك مهمة عسيرة ولا متعبة. فعندما يعقد الكاهن المزعوم اجتماعاً في إحدى البلدات، كان هو، المساعد، يختلط بالحشد كواحد من المستمعين. وعندما تنتهي موعظة كاهن، كانت مهمته أن يتقدم ويطلب الإذن بقول بضع كلمات: أنه في هذا المساء، في هذه الغرفة، غمرته روح الوحي، وأتيح له أن يرى بأم عينيه رسول الربّ العائد؛ أنه أدرك فجأة، هناك عميقاً في قلبه، أنه ينتمي هو نفسه إلى قبيلة إسرائيل التائهة؛ أن ذاكرته البعيدة الموصولة بأحداث الزمن العتيق عادت إليه وامتدت حتى عادت إلى أيام أبينا إبراهيم؛ وهو يريد الآن أن ينضم إلى أبناء صهيون المقدسين.

وكان يتلقى القبول فوراً، ويفتح الكاهن المزيف له ذراعيه ويضمه إلى قلبه، ويصفه بحضور الجمع كله بأنه شقيقه الضائع منذ وقت طويل. وبعد ذلك، يقترب العديد من جماعة المستمعين، بعد أن كانوا متشككين ولم يحسموا موقفهم بعد، وينضمون إلى الكاهن، ويشهدون بالشيء نفسه ويعلنون أنهم ينتمون هم أيضاً إلى قبائل بني إسرائيل، وأنهم شاهدوا النبي هذا المساء. وسرعان ما

يُقبلون جميعاً في الكنيسة، ثم يبدأ جمع التبرعات.

كان هذا هو عمله، مساءً تلو المساء: أن يمثل دور ابن صهيون وشقيق رسول الرب، ويتقاضى مقابل خدماته دولاراً في اليوم، عدّاً ونقداً، مع وجبتين مجانيتين ورحلات مجانيّة في القطار، وملابس جميلة أعارها له رئيسه.

وفي كل مساء تقريباً، كانت امرأة ما بين الحشد تتذكر أنها ابنة صهيون، فيعتني الكاهن عناية بالغة بالأخت الكريمة، ويتزوجها فوراً لأن الرب أمره بذلك، كما يقول. إن الخلاص الوحيد الأوحد لروحها هو أن يتخذها زوجة. ولم يكن ثمة سبيل آخر إلى أمجاد الربّ سوى ذاك، أن يدخل بها عريساً رجلٌ يؤدي كل واجباته الدينية.

وفي بعض الأحيان، كانت الذاكرة تعود إلى أكثر من امرأة من جماعة صهيون، ويُمنحن الإذن بالعودة إلى الكنيسة. وفي تلك الأحوال، لم يكن الرئيس يستطيع الزواج بهن جميعاً، ولا يسمح له وقته ولا قوته بأداء هذه المهمة؛ وأحياناً، كانت صحته تعتل قليلاً —خصوصاً في ليالي السبت— حيث يأمل أن يستريح قليلاً. وفي تلك الأيام، لم يكن يتزوج أكثر من واحدة أو اثنتين إلا نادراً. وكان يحتاج أحياناً إلى بعض الهدوء، خصوصاً عندما تخور قواه. وعندئذ، كان يأمر محدثكم، أجيره، بتقديم المساعدة: فيتزوج المساعد، بناءً على أوامر الكاهن، واحدة أو اثنتين من بنات إسرائيل التائهات. لم يكن له أن يقف عثرةً في الطريق إلى مجد الرب حين ترغب ارتياده أخواته الطيبات من بنات صهيون. ولا ننسى أنه ملتزم، بطبيعة عمله نفسها، بالمساعدة في كل الشؤون.

كان الرئيس يختار عرائسه هو من بين الأخوات الأصغر سناً. كنّ نساءً رقيقات عاجزات، في أمسّ الحاجة إلى عارف يأخذ بأيديهن ويدلهن على طريق الرب، وذلك يحتاج يداً خبيرة بطبيعة الحال. أما واجب المساعد، فهو الزواج من النساء الناضجات الأكبر سناً، من اللواتي لم يعرفن في معظمهن رجلاً في حياتهن. غير أن العروس كلما كبرت سناً، كلما بدت أكثر حياءً —ولذلك، كان هؤلاء يرتدين عدة سراويل داخلية في مراسم إتمام الزواج في بعض الأحيان. وعندئذ، تكون المهمة الأولى للعريس أشبه ما تكون بتقليب صفحات إنجيل العائلة القديم، بأناة وقداسة —الإنجيل القديم كبير الصفحات.

وهكذا، يكون هناك بعد كل شيء، شيء من المزاج الدينيّ في ليلة الزفاف.

لكن هذه الوظيفة لم تستمر إلا نصف عام. فقد تعرض صاحب العمل لحادث في غاية الفظاعة ذات مساء خريفي مظلم. كان كلاهما قد ركبا القطار البخاري ونزلا في بلدة صغيرة منزوية في عمق الغرب، في مكان لا يعرف سكانه إلا القليل عن الله ووصاياه العشر. كان سكان البلدة وثنيين همجيين، يهاجمون الغرباء، وأحياناً قبل أن ينطقوا كلمة سيئة واحدة، أو حتى قبل أن يتسنى لهم الوقت لإطلاق طلقة واحدة على السكان. وهكذا، تعرض الكاهن المزيف ومساعده للهجوم بدون سابق إنذار بمجرد نزولهم من عربة القطار، ووجدا نفسيهما وجهاً لوجه مع سفاحين بائسين. كان هؤلاء غاضبين من فكرة العقيدة المورمونية أساساً، كما يبدو، لأنه حدث في الماضي أن نساء من البلدة أصبحن بنات صهيون، وبقيت بالكاد نساء ليصبحن زوجات وطاهيات بين المستوطنين في المقاطعة. والآن، بطبيعة الحال، وبوصفه مساعداً أجيراً، فإن لهذا الرجل قليل صلة بهذا الأمر. كان عبداً مأموراً، يفعل ما يُطلب منه فحسب. وجاء الحظّ في جانبه أيضاً؛ فاستطاع الفرار مبتعداً عن رئيسه بينما يحيط به الرعاع. وكما حدث، كان قد تسلم لتوه أجره الأسبوعي في ذلك اليوم، ولذلك لم يكن ثمة داع لمزيد من الحديث مع الكاهن. وقد غادر القرية بأسرع ما أسعفته به ساقاه، ووصل قرية أخرى حيث السكان أكثر إنسانية وتحضراً.

وفي هذه الأثناء، وضع الغوغاء الغاضبون أيديهم على رئيسه. وفي اليوم التالي، قرأ المساعد في إحدى الصحف، ببالغ الحزن والأسى، أنّه عُثر على الرجل المسكين ميتاً، مشنوقاً على شجرة. كان تعس الحظّ حقاً ليواجه مثل هؤلاء الناس الهمجيين. كان صاحب عمل عادلاً أيضاً، ويستحق أن يكون له مزيد من الأصدقاء -أو واحد يساعده في محنته على الأقل.

وقيل في الصحيفة أيضاً أن الكثيرين يتوقون إلى معرفة مكان مساعد الكاهن المفترض. ولم يستطع أن يفهم هذا، بما أنه لم تكن له أساساً أيّ علاقة بالعقيدة المورمونية، لا الحقيقية ولا المصطنعة: كان لوثرياً عمل فقط خادماً للكاهن، الذي استخدمه ببساطة لمساعدته في أشياء متنوعة. ولو أن ذلك

القسيس لم يكن كاهناً على أي حال، وليس مورمونياً —حسناً. لم يكن الأمر كله معقولاً بأيّ منطق كان.

ختم المسافر صاحب الملابس الغريبة حكايته. وبصق من جديد من فوق الحاجز، وسحب المنديل الكبير من جيبه الخلفي، ومسح عينيه. وحدق فيه روبرت وآرفيد بصمت، معتقدَين أنه يذرف الدمع على رئيسه. لكن تبيّن أنه يمسح رذاذ الماء عن وجهه. أحنى رأسه تحية للصبيّين وغادرهما، ماضياً بمشيته المتأنقة، وقد تدلّى منديله بين ساقيه مثل ذيل كلب متلصص.

لم يستطع آرفيد أن يفهم حرفة الغريب الغامضة في أميركا الشمالية.

«هل كان مساعد راعي أبرشية، برأيك؟»

«شيء من هذا القبيل، كما أعتقد.» قال روبرت.

«هل يُسمح لهم بشنق القساوسة على الأشجار في أميركا؟»

«ربما —عند الضرورة القصوى. وبغير ذلك، لا أعتقد أنه مسموح.»

مضى المزارعان المتجهان إلى أميركا في تفقد السفينة من أقصاها إلى أقصاها —أربعين خطوة طولاً وثماني خطوات عرضاً. كانا يفضلان البقاء على السطح ليلاً ونهاراً، ولم يكونا يتطلعان للعودة إلى الحشد المتزاحم في الأسفل، إلى ذلك الحيّز المظلم تحت الدكّة، إلى العنبر الرطب الذي يعبق بالروائح الكريهة والمليء بغبار المراتب والمخدات وحشيّات القش، التي تنبعث منها رائحة البول والقيء.

عندما كان روبرت على اليابسة، تخيل السفينة المبحرة دائماً شيئاً طاهراً مشرقاً. وتخيل الأشرعة أجنحة ملائكة بيضاء. لكن للسفينة تشارلوتا من كارلشامن أشرعة ترفّ قاتمة، ثقيلة ومتسخة بفعل الريح والطقس، رمادية بلون أكياس البطاطا في حقل خريفيّ موحل. لم تكن للسفينة تشارلوتا أجنحة ملائكة. ولم تكن يختاً بأشرعة بيضاء، يطير بخفة فوق البحر. إنّها سفينة شحن عرجاء ثقيلة الحركة، منغمسة بعمق في الماء. حجراتها السفلى محمّلة بحديد السكب، وهي تشقّ طريقها في البحر ببطء. لم تكن هذه هي السفينة الحلم بالنسبة لروبرت. لم تكن تلك التي داعبت خياله أياماً وليالِيَ في غمرة أشواقه

المليئة بالتوقع. ومع ذلك، غمره السرور وهو يتجول على الدكّة وينظر فوقاً إلى الحبال والأشرعة، حيث تتهادى أسراب النوارس بأجنحتها البيضاء النظيفة حول الأشرعة الرمادية.

كان يشارك في مغامرة عظيمة. لو أنه فقط لا يضطر إلى النزول إلى تحت....

٢

نودي على المسافرين ليصعدوا إلى سطح السفينة، وتجمعوا حول الكوّة الرئيسية المفتوحة، حيث أعلن المساعد الثاني بنبرته الفنلندية السويدية الغنائية:

«جرايات الأسبوع الأول!»

كان اثنان من البحارة يدحرجان البراميل من حجرة الخزين. وأزيحت الأغطية عن أوعية الأرزاق، ورائحة الطعام الممزوجة بهواء البحر جعلت المهاجرين يشعرون بالجوع.

كان الاتفاق أن يحصل المسافرون على طعامهم وماءهم أثناء الرحلة على حساب السفينة. وكان الفضول إزاء الجرايات عظيماً، وقد تجمع كل المسافرين، رجالاً ونساءً وأطفالاً وكباراً، لمشاهدة توزيع الطعام. لكن مساعد القبطان أخبرهم بأنه ليس من الضروري أن يصعد كل المسافرين إلى الدكّة ويتحلقوا حوله، يكفي أن يحضر شخص من كل عائلة لتسلّم الطعام؛ رب الأسرة فقط.

وأضاف أيضاً أن حصص الطعام غير المطبوخ المحددة ستوزع على الجميع مرة واحدة فقط كل أسبوع، وعليهم أن يتدبروا أمرهم بها طوال المدة المحددة. وحذر المساعد من أن يأتي البعض إليه بعد أيام قليلة ليقولوا إنهم جائعون ويطالبوا بحصص أكبر. أرادهم أن يفهموا، مرة وللأبد، أن هذه حصة الأسبوع كله. وبإمكانهم أن يتناوبوا على طبخ طعامهم في المطبخ على الدكّة إذا لم تكن لديهم أدوات طبخهم الخاصة. وعلى المسافرين أن ينظموا تقاسم الوقت فيما بينهم، وأن يستخدموا المطبخ بالدور ويحترموا حقوق الآخرين. وعليهم أن يلقوا بقايا الطعام والعظام وماء الغسيل في البحر، باتجاه الريح

وليس بعكسها: إن إلقاء أي شيء بعكس اتجاه الريح ممنوع بصرامة.

ويمكن للمسافرين الحصول على الماء العذب من مخزون السفينة مرة في اليوم، بمقدار نصف غالون للشخص الواحد، يُستخدم للشرب والغسيل. عليهم أن يقتصدوا في استخدام الماء. وعليهم أن يحافظوا على المنامة نظيفة، وأن يغسلوا كل صباح ما على أرضيتها من القيء والقاذورات الأخرى. لن تُصرف حصة الماء إلا عندما تكون العنابر نظيفة، ذلك سيذكرهم بهذا الواجب. وبإمكان المرضى الحصول على الدواء من القطرات والحبوب والبراهم والبلسم وما شابه من صندوق الأدوية في السفينة. ولو احتاجوا إلى شراء شيء، فإن البضائع موجودة في صندوق معلق يشرف عليه القبطان. ومن بين البضائع التي تباع بأسعار معقولة؛ هناك الصابون، والأمشاط، والفراشي، والأناجيل، وكتب التراتيل، والسعوط، وتبغ المضغ، والسكاكين والألعاب وورق اللعب.

وحث المساعد الركاب على توخي الحيطة والحذر عند التعامل مع النار. كان ممنوعاً التدخين في الحجرات تحت الدكّة، أو حمل واستخدام وسائل الإنارة غير المحمية. وفي العموم، يجب على الجميع إطاعة هذه التعليمات والأوامر الصادرة عن قيادة السفينة. وعلى الجميع أن يدركوا أهمية وضرورة الالتزام بالنظام على متن السفينة أثناء الرحلة الطويلة —حفاظاً عليهم وضماناً لسلامتهم. إنّ قانون البحر هو النافذ هنا، وسوف يعاقب القبطان كل من يخالفه.

استمع المهاجرون بصمت وخوف إلى تعليمات مساعد القبطان الثاني، وتساءل البعض عن ماهية العقاب الذي يفرضه قانون البحر —هل هناك قانون مختلف تماماً للبحر؟

إلى جانب الصاري الأمامي، وقفت إنجا—لينا ودانجل أندريسون. أمسكت الزوجة بيد زوجها ونظرت مستطلعة إلى السطح متسائلة: «دانجل— أين يمكن أن يكون هذا الذي تحدث عنه –عكس اتجاه الريح؟»

«لا أعلم، يا زوجتي الحبيبة.»

«أقصد، ذلك المكان الذي يمنع إلقاء أي شيء فيه؟ يجب أن يعرف المرء أين هو. لا أريد أن أفعل شيئاً ممنوعاً.»

وأوضح الأمر للفلاحَين صانع الأشرعة العجوز الذي كان واقفاً قربهما:

«قصد المساعد أنه لا يجوز إلقاء شيء في البحر بعكس اتجاه الرياح، لأنه سيطير عائداً مباشرة إلى الدكّة من جديد.»

«يا إلهي!» صاحت إنجا—لينا متعجبّة.» هذا القدر من المنطق يجب أن يعرفه الجميع بلا أوامر. ظننت أن عكس اتجاه الريح هذا مكان على السفينة.»

استخرج المساعد الثاني مكياله الخشبي، وقام بوزن الحصص، وقسمها على المهاجرين المنتظرين المتحلقين من حوله.

طوى دانجل أندريسون يديه. «إن الله يطعمنا للمرة الأولى على السفينة.»

كان ثمة العديد من أنواع الجرايات التي يقدمها للربّ الآن من خلال المساعد: خبز السفينة وبسكويت السفينة؛ لحم الخنزير المملح، زبدة، حبوب الأرز؛ فاصولياء؛ سمك الرنجة المملح؛ الطحين؛ السكر؛ عصير الفاكهة، الخردل والملح والفلفل. وقد تجمهر المهاجرون حول المساعد وأحضروا الجرار والقدور والأوعية من كل حجم ونوع لتخزين حصصهم. وبعضهم لم تكن لديه أوعية، فحمل حصته من الرنجة أو الفاصولياء أو لحم الخنزير المملح في المناشف أو المآزر. وبعضهم أخذ حصته بيديه.

وكرر المساعد: «تذكروا، الآن —اقتصدوا أيها الطيبون!»

كانت مهمته تتطلب الصبر والمهارة. وقد أجبرته الحصص الأصغر على إجراء حسابات ليس لها آخر. كان الخبز ولحم الخنزير فقط يوزعان بكميات كافية بحيث يستطيع وزنها في باوندات كاملة؛ أما بقية المخصصات، فكان عليه احتسابها بالأوقيات بمكياله: ست أواقيات من الزبدة؛ وست من السكر، وثلاث عشرة أوقية من الطحين، وأربع من الملح، وأربع من القهوة، ونصف أوقية من الخردل، وعُشر أوقية من الفلفل. وكان الخل يوزَن أيضاً: أوقيتان لكل مسافر. واعتبر المساعد وقوفه هناك ليزن ويحصي ويقسم أمراً مهيناً. كان المساعد الثاني في السفينة تشارلوتا عابرة المحيط يقول في نفسه وهو يجادل المسافرين ويزن ويحسب ويعد الأواقي، إن هذه المهمة تصلح لموظف

في متجر وليس لملاح من طبقة ربابنة أعالي البحار.

استغرقت العملية عدة ساعات قبل إتمام التوزيع، وألقى المساعد الثاني بالمكيال والموازين من يده وتنهد بارتياح: انتهت المهمة هذا الأسبوع، وحصل الجميع على حصصهم. ولكن، كما هو الحال مع هؤلاء الفلاحين دائماً، فإنها لم تكن لديهم أوعية كافية، حتى أن امرأتين أخذتا حصتيهما من الطحين في الشالات، ومن الشعير والفاصولياء في المعاطف المقلوبة. ومع ذلك، لم يكن هؤلاء المسافرون متشددين أو صعبي المراس.

ولم يمض طويل وقت حتى شرعت رائحة قلي لحم الخنزير وسلق الفاصولياء في المطبخ تعبق في أرجاء السفينة. لكن وقتاً طويلاً سيمر قبل أن يأتي الدور على الجميع لاستخدام موقد المطبخ. وفي انتظار الوجبة، كان المسافرون يأخذون الرنجة وما شابه، ويأكلونها في الخارج.

وقف روبرت وآرفيد في مؤخرة السفينة يمضغان البسكويت القاسي مثل الحجارة، حتى أن آرفيد كسر إحدى أسنانه الأمامية عند القضمة الأولى. ثم أصبح أكثر حذراً بعد ذلك، فأخذ يفتت البسكويت بيديه ويأكل القطع الصغيرة. في السابق، كان قد أكل خبزاً عمره شهر في نايباخن، لكن لم تنكسر له سن. وخطر له أنه سيصل إلى أميركا بلا أسنان إذا ما استمر الأمر على هذا المنوال.

اقترب الغسق، وأعتم الماء من حولهم، وغابت الأشرعة ومعدات الإبحار في الضباب، كما لو أنّ الغيوم هبطت وحطّت على السفينة. وبدا عالم المسافرين كأنه ينكمش. لم تكن ثمة سفن أخرى في مرمى البصر، وبدت سفينتهم الشراعية وحيدة، تائهة في ذلك البحر الذي يزداد ظلاماً، ولا أثر لليابسة.

ارتعش روبرت. إنها أعماق رهيبة هذه التي تحت قعر السفينة -وها هو يقف فوق كومة من الأخشاب القديمة شبه المهترئة. إنه يقف وسط دلو خشبي قديم تالف يُفترض أن يحمله ويعبر به هذه الأعماق، وانتابه شعور بالعجز لا نهاية له. وزحف إلى نفس الشاب القادم من اليابسة الآمنة خوف أخذ يعذبه ويَخزه مثل سرب من النمل: إن حياة ركاب البحر لا استقرار فيها ولا أمان.

إنها ليست مثل الحياة على اليابسة.

ربما يكون من الأفضل له بعد كل شيء أن يزحف نازلاً إلى الأسفل، وأن يخفي نفسه هذه الليلة في أحشاء السفينة المعتمة.

٣

وقفت كريستينا إلى جانب المكان حيث ينبغي أن تنام هي وأطفالها، هذه الدكّة، أو شبه الزريبة التي يقال لها سرير، المصنوعة من ألواح مختلفة متنافرة ثبتت معاً بالمسامير. كانت قد وضعت حشيّتها على أرضية القمرة وفرشت عليها الغطاء، غطاء زفافها العرائسي. وعند رأسية السرير، وضعت سلة كبيرة من خشب الصفصاف، التي أصبحت صندوق طعامهم —لم يجد له مكاناً آخر. وهنا، في هذا المهجع، كان الأطفال يتعثرون ويتصارعون. لم يكن لهم مكان سوى هنا، غرفتهم الوحيدة. وهناك وضعوا كل شيء.

قضت كريستينا الليلة الأولى في مهجع العائلة. كانت الحجيرة أصغر من أن تتسع لها مع أطفالها —حتى بدون كارل أوسكار. وفي كل مرة تغفو، تلكزها ركبة أو قدم طفل في بطنها أو وجهها وتوقظها من جديد. وقد اضطجعت هناك مثل دجاجة راقدة لا تكاد تجد مساحة تحت أجنحتها لتحتضن فيها بيوضها. وفي الأثناء، كان يبقيها مستيقظة أيضاً ضجيج المسافرين الآخرين، والأصوات الأخرى العديدة في السفينة. وفي الغالب، كانت تسهو قليلاً ثم يوقظها شيء لتظل ساهرة طوال الليل. وعندما تنهض في الصباح، تكون أكثر تعباً مما كانت عليه في الليلة السابقة.

تجاوز عدد الذين يعيشون في عنبر العائلات الثلاثين من الرجال والنساء والأطفال، المحتشدين في مهجع لا تزيد مساحته على غرفة كريستينا في كورباموين. وكلما نهضت وغادرت سريرها، كانت تصطدم بأحد ما. وشعرت كريستينا بالخجل من كل أولئك الأغراب المحيطين بها. ولم تكن تفعل شيئاً إلا ويكون على مرأى ومسمع من هؤلاء الناس جميعاً. كيف لها أن ترضع هارالد الصغير؟ لم تكن تشعر بالراحة وهي تفتح قميصها وتكشف عن ثديها في وجود الغرباء؛ لم تكن تحب أن ترضع صغيرها بينما أزواج النساء الأخريات

يشاهدون. بل إن الحياء طالما غلبها في هذه الحالات، حتى أمام كارل أوسكار، مع أنه زوجها. كان من المُفزع أن تغير ملابسها بين هؤلاء القوم الغرباء.

كانت ليل—مارتا قد أصيبت بالبرد بسبب هواء المدينة الميناء، وهي تستلقي الآن في السرير صريعة الحمّى والعرق الكثيف، وينذر لون وجهها المحمر بالخطر. وتمنّت كريستينا أن تجلب لها كأساً من الحليب، لكنه لم يكن ثمة حليب في السفينة. ولذلك، خلطت العسل بالماء ودفأته لتسقي صغيرتها. وما العمل مع يوهان؟ إنّ صحته جيدة بما يكفي، لكنه يبلل سريره كل ليلة تقريباً. ينبغي أن تكون لفالت المثانة هذا فرشته الخاصة. ثم هناك الكمية الهائلة من الملابس التي ملأها الصغار بالقذارة —كيف تستطيع أن تغسلها وتجففها هنا في السفينة بحقّ الله؟

الآن، أصبحت سجينة في زنزانة ضيقة، بين كل هؤلاء الأغراب، مع ثلاثة أطفال أحدهم مريض.

لم يكن ثمة مكان يلعب فيه الأطفال ويرفهون عن أنفسهم، فتعلقوا دائماً بأذيال أمهم. وظل يوهان يشد تنورتها بلا توقف.

«أمي. أريد الخروج.»

«لا تستطيع الخروج من هنا يا صغيري.»

«لكنني أريد الخروج والعودة إلى البيت.»

«نحن في البحر الآن.»

«لا أريد أن أكون في البحر، سأذهب إلى البيت، أريد حليباً وكعكاً.»

«لكننا لا نستطيع النزول من السفينة —قلت لك.»

«لا أحب هذا المكان يا أمي.»

«اهدأ الآن، كن ولداً عاقلاً.»

وحمدت الله لأنها وجدت معها بعض السكر. فتحت الحقيبة المركونة عند قدم السرير، وأخرجت منها كيس السكر وأعطته قطعة. وقد جعله ذلك يسكت بعض الوقت —كانت هذه وسيلتها الوحيدة لإسكاته. وخطر لها أن تعطي قطعة لليل—مارتا أيضاً، لكن الفتاة كانت نائمة تحت وطأة الحمى. ومسّت كريستينا جبين الطفلة مساً رقيقاً؛ كانت الصغيرة مشتعلةً من السخونة.

جاء كارل أوسكار من السطح حاملاً إبريق ماء. لقد حصلوا على أرزاقهم

الأسبوعية الآن، لكنهم لم يحصلوا على البطاطا، وهو يشتاق إلى البطاطا التي تعوّد تناولها يومياً. وقد أعطوه بدلاً منها ملفوفاً فجاً، لكنه لم يحبه. وظننت كريستينا أن السبب في عدم وجود البطاطا هو صعوبة حفظها في السفينة، حيث ستنمو منها الأدران وتتلف، غير أنها لم تكن متأكدة من هذا التفسير. وقال كارل أوسكار إنهم سيعوّضون عن حرمانهم من البطاطا عندما يأكلون الكثير منها مما سيزرعونه في أرض لميركا الشمالية الخصبة.

ثم، حل دورهم في استخدام مطبخ السفينة. لكن كارل أوسكار قال إنه ليس ثمة متسع في المطبخ المزدحم مثل مقصورة كنيسة في صباح عيد الميلاد؛ كانت النساء يقفن ويجلسن فوق بعضهن البعض. ولم تفرح كريستينا بذلك. هل يترتب عليها أن تشق طريقها بالمرافق بين نساء غريبات حتى تحضّر طعامها أيضاً؟

كلما هبط كارل أوسكار من سطح السفينة حيث الهواء العليل، كان يعبس وهو يشم الهواء الآسن في عنبر النوم. «هنا، يحتاج المرء إلى سدادة أنف. هذا الهواء كريه.»

وقد أوشكت كريستينا على الانهيار في المرة الأولى التي دخلت فيها المهاجع. إن كل رائحة سيئة تصيبها بالغثيان قد اجتمعت هنا وتدفقت إلى أنفها مثل سيل: لحم الخنزير النتن، ومحلول الملح القديم الذي يخلل فيه سمك الرنجة، ورائحة الجوارب القذرة والأقدام المتعرقة والقيء الجاف. ولمحت في إحدى الزوايا بعض الدلاء الخشبية وتوقعت طبيعة استخدامها. وقد شعرت بالغثيان، وأرادت أن تستدير فقط وتعود إلى السطح —أرادت أن تغادر السفينة من فورها.

لكنها عوّدت نفسها شيئاً فشيئاً على الروائح الكريهة، وظلت تحاول حبس أنفاسها حتى لا تستنشق الهواء الفاسد.

وأوضح كارل أوسكار أن الهواء سبب فساد الهواء هو سوء التهوية، حيث يتنفس الناس هنا في الأسفل زفير بعضهم البعض. لكنه طالما ظل الطقس لطيفاً، فإن بإمكانهم الصعود إلى السطح لتنفس بعض الهواء النقي خلال ساعات النهار.

لم يكن كارل أوسكار راضياً عن السفينة، وشعر بأنه تعرض للخداع في

عقد الرحلة. وبالأمس، عندما حرموه من النوم إلى جانب زوجته ووضعوه في قسم العزاب، تحدث بصراحة مع مساعد القبطان. إنه لا يطلب أن ينام مثل الملوك على الحرير، وأن يتدثر بأغطية محشوة بالريش في مقصورة موشحة بالذهب؛ لكنه أيضاً لم يتخيل العيش في هذا المكان المزدحم مثل أغنام بائسة في زريبة. يوجد عشرون شخصاً زائدين في هذا المكان على الأقل، ولم يهتم صاحب السفينة بشيء سوى أخذ أموالهم. وقد دفع كل بالغ من المسافرين مائة وخمسين داليراً أجرة للرحلة —أو ما يعادل ثلاثة وأربعين دولاراً ونصف الدولار، كما قيل له — وهي عملة البلد الجديد الذي يقصدونه. ومع ذلك، يترتب عليهم أن يناموا هنا ويعانوا في هذه الحفرة غير الصحية، حتى يتكرش صاحب السفينة بأموالهم. هذا ما قاله كارل أوسكار للمساعد، وأمّن على قوله الجريئون من المسافرين. وهدد المساعد باستدعاء القبطان، فخافت كريستينا وتوسلت إليه حتى يسكت —لكن هذا هو طبع أوسكار؛ لم يكن يصمت ويبقي فمه مغلقاً إذا أحس بظلم أو خديعة.

وبالإضافة إلى ذلك، كانوا قد اضطروا للمكوث والانتظار في كارلشامن أسبوعاً كاملاً. وقد كلفته إقامتهم في تلك المدينة الميناء الكثير، وهي مصاريف لم تكن ضرورية، وما كان ليدفعها لو أنهم أخطروهم مسبقاً بالموعد الدقيق لإبحار السفينة.

وأقرّ أحد البحارة الذي بدا محترماً وغير متغطرس مثل غيره بأن على السفينة حملاً زائدا من الناس. لكنه استدرك فقال إن الأعداد ستتناقص بعد الإبحار.

إذا كان القصد من ذلك التلميح هو الطمأنة، فمن المؤكد أنها طمأنة قاسية. أما إذا قصد منه النكتة، فإنها لم تعجب كارل أوسكار، بل إنها بدت أسوأ من الخيار الأول.

والآن، أصبح يعرف هذا المقدار: إن حياتهم على السفينة لن تكون مريحة ولا صحية.

كان هناك بالفعل بعض المرضى من رفاق السفر. في إحدى الحجرات

العائلية، في الجانب الآخر، ترقد فتاة صغيرة كانت مريضة منذ انطلاق الرحلة. وقد أصابها المرض بسبب خراج في الحلق عندما كانوا في كارلشامن. وكان والداها يغليان العصيدة في مطبخ السفينة، ويضعانها في ضمادة حول عنقها المصاب، وإنما بدون جدوى. وقد ظلت الفتاة مستلقية هناك، تتنفس بصعوبة وتصدر عن تنفسه جلجلة غير سارة. وقد اقترح كارل أوسكار على الأب فتح الخراج في الحنجرة. كان قد عانى هو شخصياً من مشكلة مماثلة في حنجرته أيام صباه، ولم تنفع معها العصيدة —لم ينفع سوى السكين.

كان يشغل الحجرة المجاورة لكريستينا فلاح عجوز وزوجته من أولاند. كان اسم الزوج هو مانس جاكوب، والمرأة فينا—كايسا. وأخبرا كارل أوسكار بأنهما يهاجران إلى ابنهما الذي يعيش في الولايات المتحدة منذ العديد من السنوات. وقد لاحظ كارل أوسكار العجوز من أولاند عند انطلاق الرحلة: لقد أحضر معه حجر شحذ ضخما، واعترض الربان، متسائلاً إذا كان من الضروري جر ذلك الشيء. أليس من الأفضل لو ألقوه في البحر؟ سوف يتمكن من العيش وتدبر الأمور في أميركا بدون حجر شحذ. لكن مانس جاكوب كان ينظر بتقدير كبير إلى حجره: سوف يأخذه معه في السفينة، أو أنه سيعود أدراجه ويطلب إعادة ماله إليه. وكان شديد الإصرار حتى أن مساعد القبطان استسلم في النهاية، وأصبح حجر الشحذ الآن في العنبر. لقد سمع مانس ياكوب من ابنه أن حجارة الشحذ باهظة الثمن في أميركا. وكانت رخيصة في أولاند، وأراد مانس أن يحمل هذا الحجر كهدية لابنه.

تذكر كارل أوسكار أنه تخلى عملياً عن حجر شحذ جديد مستوٍ عندما باع متعلقاته في المزاد، لأنه اعتبره ثقيلاً جداً على هذه الرحلة. ربما سيكون من الصعب العثور على حجر بهذه الجودة —وسوف يحتاج بالتأكيد واحداً ليشحذ المناجل التي ينبغي أن تقطع الحشائش السميكة الكثيفة الطويلة في أميركا؛ إن المنجل الحاد يقوم بنصف عمل الحصاد.

وهناك أدوات أخرى كان ينبغي أن يأخذوها معهم.

«أترين؟ ثمة أولئك الذين يجرون معهم عجلات الغزل والنسيج وما شابه.»

«نعم،» اعترفت كريستينا، «أنا نادمة لأني تركت دولاب غزلي.»

وعندما رأت ما أخذه الآخرون معهم، ندمت على أنها تركت وراءها الكثير من الأدوات المنزلية الضرورية.

لكن ينبغي أن يتصالحا مع فكرة ما ينبغي أن يأخذاه من الأشياء، وما سيفتقدانه في أميركا. وكانت كريستينا منزعجة أكثر بكثير من حقيقة أنهم مضطرون للسفر برفقة شخص ما كان ينبغي أن يُؤخذ معهم.

وأشارت إلى الحاجز الكتاني الملاصق لقدم سريرها. هناك في الداخل ينام أحد لم يكن ينبغي أن يكون معهم في الرحلة.

همست: «إنها تنام هناك —العاهرة!»

كانت المرأة المثيرة للاشمئزاز بهذا القرب؛ لقد وضعت أولريكا من فوسترغوهل سريرها تماماً إلى جانب سرير كريستينا —قطعة رقيقة من قماش الأشرعة فصلت بين مرقديهما. وقد استطاعت كريستينا سماع كل حركة تأتي بها المرأة المرحة، وكل كلمة تقولها -كانت كلمات من النوع الذي تفضل إغلاق أذنيها عن سماعها.

أشارت كريستينا، ونظر كارل أوسكار. كان ثمة ثقب صغير في القماش الفاصل، والذي استطاع من خلاله أن يلمح أولريكا؛ كانت منشغلة بخلع ملابسها، ولاحظ شيئاً أبيض؛ نهديها العاريين الممتلئين. وأشاح بوجهه بسرعة، محرجاً ومستثاراً قليلاً، وأصبح أكثر توتراً بينما يرى نظرة كريستينا الحازمة: هل اعتقدت أن له عادة التلصص على النساء العاريات؟ إنها هي نفسها التي أشارت إلى مكان أولريكا. لكن كان على أولريكا أن تعلق ساتراً على ذلك الثقب قبل أن تتعرى. ومع ذلك، ينبغي للمرء فيما يبدو أن يصبح معتاداً على حوادث لم يكن قد خبرها من قبل، بين كل هؤلاء الناس على متن السفينة المكتظة.

«لماذا يسمونها المرأة المرحة؟» سألت كريستينا.

«أعتقد لأنها لا تكون حزينة أبداً.»

«إذا كانت هناك امرأة ينبغي أن تكون حزينة، فإنها هي. ينبغي أن تبكي دموعاً من الدم، هذه المرأة.»

«لا تعيريها أيّ اهتمام.» قال كارل أوسكار.

«اهتمام! كلا بالتأكيد! لدي أشياء أخرى أقوم بها.»

تساءلت كريستينا عما إذا كان يمكنه العثور على دلو من الماء. ينبغي أن تغسل غسيلهم القذر. إنها تريد أن تبقي نفسها وأولادها نظيفين كما لو أنهم على اليابسة، سواء في ملابسهم الداخلية أو الخارجية.

لكن كارل أوسكار قال إنه ليس بالوسع الحصول على مزيد من الماء اليوم —ليس قبل صباح الغد، بعد تنظيف المهجع.

«من المؤسف أنك لا تستطيع أن تطلب من المساعد حصة إضافية؛ إنه غاضب منك.»

ولم يجب كارل أوسكار، وشعر بأنه متردد وضائع قليلاً هنا في السفينة. كان وهو على اليابسة يعرف دائماً ما عليه فعله، وإذا ما احتاج إلى شيء، فإنه عادة ما تدبّر أمر الحصول عليه. لكنه هنا في السفينة لا يعلم من أين يحصل على أي شيء. لم يكن يُسمح له بالوصول إلى الأماكن التي يريد الذهاب إليها، أو القيام بالأشياء التي يرغب بالقيام بها. وكان كلما اشتكى، واجهه قادة السفينة بالتهديد ولغة الاحتقار. كان يشعر بأن هؤلاء البحارة يحتقرون الفلاحين، وكأنهم مخلوقات أدنى من البشر، ويعاملونهم كأنهم قطعان من الماشية. هنا يتجول مثل حيوان مربوط بوتد، يتحرك فقط وفق ما تسمح له سلسلته بالحركة، ويدور في دوائر مرات ومرات، لكنه لا يتحرك إنشاً إلى الأمام. كان البحر هو عقاله، ذلك البحر خارج سياج السفينة الحديدي هو الذي يبقيه رهين الأسر. لم يكن البحر يصلح لامرئ يحتاج فضاءً واسعاً للتحرك.

كان مصاباً بالخيبة أكثر ما يكون بسبب شكوى كريستينا من أن السفينة شديدة الاكتظاظ، وأن مكان إقامتهم بالغ الظلمة والرطوبة وغير صحي. لقد كان هو من أقنعها بالهجرة، وهو المسؤول عن وجودهم هنا. كان يعرف من ملامح وجهها ماذا يدور في خلدها —وقد خشي أن ينظر إليها وجهاً لوجه منذ ركبا السفينة، لكنه كان يعرف ما تعنيه تعابيرها. ومع ذلك، لم تكن كريستينا واحدة تشكو وتوجه اللوم إليه، حتى عندما يكون لديها سبب؛ كان هذا أحد الأسباب التي جعلته يريدها زوجة.

وأراد أن يروّح عنها ويبهجها قليلاً: «لدينا طقس جميل في البحر! بإمكاننا أن نفرح بذلك!»

ولم يكد ينهي جملته حتى مالت السفينة بحدة بسبب تغيير الاتجاه. وكانت الحركة مفاجئة جداً حتى أن كريستينا فقدت توازنها وسقطت على جنبها —لحسن الحظ على السرير.»

«إن سفينتنا تقفز قفزاً إلى الأمام.»

ورد عليها كارل أوسكار بابتسامة عريضة: «يجب أن تشعري بأنك في بيتك هنا في البحر —لطالما أحببت التأرجح!»

كانت السفينة قد أطاحت بكريستينا من كورباموين وألقت بها أرضاً. ولم تبتسم. نظرت الزوجة الشابة حولها في ذلك العنبر المظلم القذر المنتن في تشارلوتا، الذي يفيض بالناس: هنا سيكون مسكنهم خلال الرحلة الطويلة إلى أميركا الشمالية؛ هنا يترتب عليها أن تعيش أسابيعَ، وربما شهوراً، مع أطفالها. هنا عليهم أن يأكلوا ويشربواويناموا، هنا يجب أن يعيشوا ويتنفسوا ويستيقظوا. هنا يجب أن يبقوا في زنازين أسرّتهم، مثل الحيوانات السجينة في زريبة خلال الشتاء المظلم الطويل.

وبينما تنظر إلى مسكنها في البحر، عادت إليها الفكرة – الفكرة التي خطرت لها في اللحظة الأولى التي وضعت فيها قدمها في المهجع: لن أخرج حية من هنا أبداً. إن هذا المكان يبدو تماماً مثل قبر.

حمولة من الأحلام

١

في بعض الأحيان، خلال الليل، كان المهاجرون يستلقون على أسرّتهم وهم مستيقظون، يسمعون كل حركة من حولهم وأصوات البحر.

كارل أوسكار:

ها نحن ذا في وسط الرحلة، والقليل فقط يحدث في الحقيقة بالطريقة التي تصورت أنه سيكون عليها. لكنني لن أندم أبداً على ما فعلت، سواء سارت الأمور إلى الأفضل أو الأسوأ. إن أعظم حماقة يمكن أن يرتكبها المرء هي أن يندم على شيء وقع، شيءٍ لا يمكن تغييره. ربما أكون قد جلبت علينا الشقاء —ربما سيكون علينا أن نعاني كثيراً، وكل ذلك مسؤوليتي وعلى كاهلي. أنا الذي أصررت على الهجرة —وإذا ذهبت الأمور إلى سوء، فلن ألوم سوى نفسي.

لو أننا فقط نعبر هذا المحيط ونرسو على خير محتفظين بالعافية.

كل ما أملكه وضعته في هذه المغامرة. وإذا صادفت سوء طالع، فسيضيع كل شيء. في الوطن سخر الناس مني وظنوا أنني أعتنق فكرة مجنونة. ذلك يثير حنقي، لكنني لن أسمح له بأن يسيطر عليّ. لا ينبغي أن يُعجَب الناس بما أفعل بالضرورة -أليس كذلك؟ الكلاب الجبانة وحدها هي التي تحب الإطراء وتنتظر من يحك لها ظهرها. أما أنا فسأحك ظهري بظفري، ولن أعود بزوجتي وأطفالي لنصبح عبئاً على أفراد أبرشيتنا، سواء كانت نهاية مغامرتنا سعيدة أم غير ذلك. لن أمنح أحداً تلك السعادة. كلا.. لن يعاني أحد في الوطن بسببنا، مهما حصل. ثمّة الكثيرون هناك ممن يتمنون لي الشر. ولذلك، يجب

أن أكون حذراً في كل خطوة أخطوها. هؤلاء قومي يحسدون ويحقدون إذا حقق غيرهم نجاحاً، ويتمنون الأذى لبعضهم البعض، وسيفرحون لو ساءت معي الأمور وجرت الرياح بما لا تشتهي السفن.

لا أعتقد أن الأمور ستبدأ معنا بسهولة في أميركا. من الصعب أن يبدأ المرء من جديد. لكن صحتي جيدة، وإذا ظلّت الأمور كذلك معي، فسيمكنني العمل بما يكفي لكسب طعامنا. لن تثنيني الصعاب، والمحن ستشحذ عندي الرغبة في العمل بجهد أكبر، مدفوعاً بالغضب الصِّرف. سأعمل، حسناً، حالما أمتلك أرضي. لن يخدعني أحد، ولن أضع ثقتي في أول غريب معسول اللسان أقابله.

بينما أضطجع هنا وحزام نقودي ملتف حول وسطي، أحب أن أتلمسه بين وقت لآخر. يعطيني إحساساً بالأمان أن أتلمسه وقتما أشاء. إنه يضمّ كل ما تبقى لي من متعلقات هذه الدنيا وقد تحولت إلى قطع من النقود الفضية. هذا هو كل ما أمتلكه حتى أضع أساسات حياتي الجديدة؛ وأنا أحمل هذا النطاق حول وسطي ليلاً ونهاراً —لن يستطيع أحد أن يسرقه بدون أن يقتلني أولاً. بطبيعة الحال، معظم القوم هنا في السفينة فلاحون بسطاء مثلي، وربما شرفاء ومحترمون مثلي، لكنني لم أثق يوماً بالغرباء. وأتصوّر أن المزارعين الآخرين يستلقون هنا وقد التفت أحزمة نقودهم حول خصورهم أيضاً. ولكن، من يستطيع أن يعرف على وجه اليقين أنه لا يوجد لص على ظهر السفينة؟ إنه لن يطوف في المكان وهو يقول: أنا هو الشخص الذي يسرق! وفي وسط الزحام هنا في الأسفل، نظل قريبين جداً من بعضنا البعض حتى يستطيع واحدنا رؤية ما تحت قميص رفيقه. وبالطريقة التي نستلقي بها مكوّمين معاً، لا يستطيع المرء أن يخفي حتى إبرة عن رفيقه الآخر.

لم أعتمد يوماً على أيّ أحد، سوى نفسي —وعليها بالطبع. حمداً لله على أن لديّ هذه المرأة الرائعة النشيطة المدبرة والحريصة على أطفالنا. لا يستطيع المزارع المُبتلى بامرأة مبذرة كسولة وسخة أن يتقدم. وهي، أتت معي وفعلت كما أردت. لكني أخشى أن تندم على ذلك، ولو أنها لن تقول شيئاً. ربما تفضل لو رأت الأمر كله منقوضاً؛ وحتى أنا أفكر كذلك في بعض الأحيان. وإذا شرعت في النظر وراءً، وترغب في العودة، ماذا يمكن أن أفعل عندئذ.

كلا. لقد وافقت على القدوم نهائياً، مرّة وللأبد. وهي امرأة تلتزم بكلمتها، وسوف تحتفظ بعهدها.

من سوء الطالع أنها حملت بطفل في هذا الوقت ــ يبدو الأمر وكأنه مخطط له ــ في نفس اللحظة التي غادرنا فيها. وهي الآن حساسة، وأخشى أن يفاقم البحر هذه المشاعر. لكنني سأعتني بها وأساعدها على رعاية الصغار ما استطعت. من حسن الطالع أنها هي أيضاً بصحة جيدة.

لا يمكننا أن نتوقع الكثير من الفرح على هذه السفينة. ليس بأيّ شكل. ربما ينقضي وقت طويل قبل تسير أمورنا سيراً حسناً من جديد ــ بالنسبة لها ولي. بل إنني لا أعرف متى أستطيع الانتقال إلى سريرها. مستلقياً هنا على هذا النحو، منفصلاً عنها في النهار. ها أنذا أنام مع الرجال العُزّاب ـ مثل ثور مخصيّ. ها أنذا أستلقي في «حظيرة الثيران.» لا أستطيع أن أحصل على ما أحتاجه، وما أتوق إليه. لا يمكن لهذا الوضع أن يستمر طويلاً. لماذا ينبغي للمرء أن يعاني، فقط لأنه مسافر في سفينة؟ يقولون إن المرء يصبح شبقاً وهو في البحر، لكن المرء يصبح كذلك في البر أيضاً، بطبيعة الحال. ربما يكون الوضع أسوأ هنا لأنني أشاهد العديد من النساء. منهن أولئك الصغيرات وجميلات القوام أيضاً. أوه، حسناً، إنني لا آبه بأية امرأة أخرى ما دامت هي لي، ولم تكن لي من قبل امرأة غيرها أبداً. لكن أولريكا من فيسترغوهل تتبختر في الأنحاء وتعرض ما لديها ـ على الرجال. لا يمكن لهذه المرأة أن تعتقد أنني ــ أوه، لا، حتى لو كنت أعزب. ليس بعد الآن. لقد استعملها عدد لا يحصى من الرجال. لكنها فاتنة: هذا لا أنكره. إن قوامها جميل، وأعتقد أن هناك رجال هنا لن يترددوا، ولا شك أنها لن تمانع هي نفسها. لكنه يقال إن «حالها صَلُح» ويظن دانجل أنها لن ترتكب الخطايا من جديد.

الحياة في البحر كئيبة ورتيبة. ينبغي أن أبهجها، زوجتي. يجب أن أقول لها ما نحن مقدمون على فعله بمجرد أن نستقر هناك ــ بعد بضع سنوات من الآن. عندما تعطينا الأرض في أميركا محصولاً وافراً. عندما أبني بيتاً كبيراً. عندما يكبر الأولاد ويستطيعون مساعدتنا. عندما يستطيع يوهان أن يذهب معي إلى الحقول، وتستطيع ليل ــ مارتا أن تساعد أمها في البيت. عندما تصبح لنا مزرعة بلا رهن، ولا تقلقنا الفائدة على الرهن في الصباح والمساء. عندما

نستقل في بيتنا. حين نبدأ حياة جديدة ونعيش بنظافة وراحة في بيت لا تفوح منه الروائح الملعونة مثلما تفعل هذه الحفرة النتنة. نعم، سأقول لها كل شيء كما تخيلته.

لو أنني أستطيع أن أكون بقربها؛ ولو مرة واحدة، على الأقل. يجب أن يكون هناك تغيير قريباً.

أحياناً تراود المرء مثل هذه الأفكار الحمقاء. لا أحد يعلم ما يمكن أن نمرّ به. يعتقد العجائز أنّ كل شيء مقدر سلفاً حتى قبل أن يولد المرء. وعندئذ، لا يهم ما يفعله المرء —أي فائدة يمكن تكون إذن في الكدح والنضال؟ لكنني لا أتفق مع العجائز. أعتقد أن على الإنسان وضع كامل قوته في كل شيء، وأن يستخدم عقله حيث يستطيع. دائماً كنت أفعل في الوطن —وسوف أفعل الشيء نفسه هناك، وليس في نيتي أن أندم يوماً على ما فعلت.

لكن رفاهنا، وربما حياتنا نفسها، تعتمد على هذه الهجرة. فقط لو أننا نعبر هذا البحر بأمان....

كريستينا:

ما كان يجب أن استسلم أبداً؛ كان يجب أن أقنعه بالعدول عن الأمر؛ يخالطني الشعور بأن الأمور لا يمكن أبداً أن تسير على ما يرام. ثمة شيء ظل يحذرني كل الوقت: سوف تنتهي هذه المغامرة إلى سوء.

ومع ذلك —لو أن ثمّة جسراً يمتد عائداً إلى الوطن، بحيث أستطيع أن آخذ أطفالي وأعود أدراجي فوقه إلى هناك، فإنني لن أفعل. وحتى لو عرفت يقيناً أن مآل الأمور سيكون سيئاً علينا، ما كنت لأعود أبداً. قلت له: أريد أن أتبعك! وهذا الإقرار لا يمكن نقضه. إنه زوجي ووالد أطفالي؛ فأي شيء آخر أستطيع فعله سوى أن أتبعه؟

أتساءل إذا ما كان يعاود التفكير في الأمر، ربما يندم عليه الآن ونحن هنا في البحر. إنه أكثر قلقاً مني بكثير. وكان يبدو قلقاً قبل وقت طويل عندما كنا في كارلشامن، ننتظر. أتساءل إذا كان خطر بباله ما نواجهه الآن. لا بد أن الفكرة خطرت له، لكنه آثر المضي قدماً. لكم هو عنيد! ولكن، إلى أيّ مدى فكر في الأمر كله مقدماً.

ينبغي أن نتماسك ونبقى معاً، حتى مع ذلك. لقد وعدت بالبقاء معه طالما بقيت على قيد الحياة.

كم من المؤسف أننا لا نستطيع النوم معاً هنا على متن السفينة، فنكون أكثر راحة. يجب أن أتوخى أقصى الحذر دائماً عندما لا أكون حاملاً. عندها، لا أجرؤ على الاستسلام -كما أرغب. لا أريد أن أحمل بمولود كل سنة ما دمت أستطيع ذلك. يجب أن نفوّت سنة بين الحين والآخر. أما الآن، فليس ثمة خطر -لا يمكن أن أحمل وأنا حاملٌ أصلاً. وهذا سبب يجعله مخيباً ومزعجاً للغاية، ترتيب النوم هذا.

أستطيع أن أرى كم يريدني كل الوقت. إن لديه طبيعة قوية وليس الأمر بيده. كنت ألومه أحياناً عندما كنت أضعف أنا نفسي بنفس المقدار؛ ليس من السهل أن تعترف بضعفك أنت. وعندما يريدني، يكون من شبه المستحيل أن أقاوم —يمكنه دائماً أن ينالني. لأنني عميقاً في داخلي، أريد تماماً ما يريد —ولو أنني لم أعترف له بذلك فعلياً أبداً. يُخجلني أن أظهر ضعفي أمامه؛ قالت لَمّي إن على المرأة أن لا تجعل زوجها يعرف كم هي ضعيفة. ينبغي أن تكون سيدة رغباتها -ينبغي أن لا تكون مثل جماعة الرجال. ولذلك لا أعترف أبداً بالحقيقة. يجب أن يعتقد أنني راغبة فقط من أجل خاطره، من أجل إرضائه. ربما لا يكون ذلك موقف صدق من جانبي، لكنه صائب.

ربما أحياناً —وعن غير قصد— أكون قد أظهرت له كم أستمتع بذلك. ربما مرة أو اثنتين، عندما تكون الأمور في ذروتها، كنت أفلت بعض الأصوات. لكنني كنت أمتلئ دائماً تقريباً بالقلق والفكر: الآن —في هذه اللحظة —الآن يحدث —الآن أصبح حاملاً من جديد. وعندئذ، لا يعود الأمر أبداً كما كان.

أحياناً يربّت عليّ، وأعتقد أن ذلك أصبح يتكرر أكثر منذ غادرنا الوطن. تلك الأمسية الأخيرة في البيت —كم كنت حمقاء. لكم أندم عليها! يخجلني أن أتذكر كيف تصرفت. لكنني لم أسئ التصرف بعدها —ولا هو استخدم معي كلمة قبيحة مذ ذاك.

أتمنى لو انّه يستطيع أن يأتي الليلة، الآن، حيث لا شيء يدفعنا للقلق. الآن، أستطيع أن استسلم له كليّة؛ عندئذ سيكون كل شيء أفضل بكثير. ليس ذلك صائباً، ويجعلني أشعر بالخجل، لكنّ رغبتي تكون أكثر قوة عندما أكون

حاملاً من الأحوال الأخرى. لا يجدر بالمرأة الحامل أن تشعر هكذا، أتساءل إذا كانت هذه مشاعر البشر الخاطئين فقط، وليس البهائم. لا بد وأنها الخطيئة الأصلية في داخلي.

لكنك عندما تكونين امرأة متزوجة، فإنّ الله يرخّص بذلك. وعندما يكون زوجك قريباً منك جداً، فإنك—

لا يمكن فعل ذلك، بالطبع. الناس ينامون قريبين جداً في كل مكان حولنا، مصيخين السمع في الليل. سوف يكون ذلك صعباً هنا على السفينة، بل وربما مستحيلاً. لا تستطيع العيون أن ترى في العتمة، لكن كل الآذان يمكن أن تسمع. بعض الناس يبدون وأنهم يظلون مستيقظين طوال الليل. وإذا ما حاول المرء، فإنّ عليه أن ينسى الخجل كلّه. هناك من يفعلها فعلاً —هذان الزوجان الشابان في الزاوية ليلة الأمس. كان بالوسع سماعهما، ينبغي أن أقول. بل إنهما لم يحاولا أن يبقيا هادئَين. أردت أن أضع أصابعي في أذنيّ، لكنني لم أفعل.

يصبح الأمر أسوأ بكثير عندما يضطر المرء إلى الاستلقاء هناك وسماع كل الأصوات على السفينة. ويُثار. وأنا أحلم كثيراً. في الليلة الماضية حلمت بأنه كان هنا، معي. سوف أنام وأحلم بذلك مرة أخرى. لقد فقدت كلّ خجلي هنا فيما يبدو.

سوف تكون هذه رحلة طويلة طويلة. ونحن لا نعرف إلى أين نمضي. أخشى أننا ربما نغرق في البحر. وأنا خائفة من البلد الجديد. وهؤلاء الصغار يزحفون من حولي. هؤلاء المخلوقات الثلاثة لا يفقهون شيئاً. وكلما شعرت بالخوف، آخذ ثلاثتهم بين ذراعيّ. لكنني أفتقده، حتى عندئذ.

كارل أوسكار —من المؤسف أننا لم نفعل —أننا لم نفعل —كنت أريد —كان ينبغي أن أدعك — كان ينبغي أن أكون ضد هذه المغامرة—

روبرت:

أتساءل إذا كانت لدى القبطان أي قطرة للأذن في خزانة الأدوية.

أذني اليسرى تؤلمني من جديد هذه الليلة. في بعض الأحيان، أشعر بأنني أصمّ بها تقريباً. أشعر كما لو أن هناك أثقالاً في داخلها. سمعي يزداد سوءاً. أصبحت رديء السمع لأنني لم أستمع إلى سيّدي ولم أطعه. لكن الألم سيذهب

عندما أصل إلى أميركا الشمالية. ثمة هواء آخر هناك، صحيّ للآذان العليلة. أولئك الذين يعانون من صعوبة السمع في العالم القديم، سوف يستعيدون سمعهم في العالم الجديد.

هذا الضجيج في أذني أصبح أقوى في أجواء البحر. ربما الريح هي التي تسببه. يبدو وكأن بحراً ينصب في داخل أذني —يغلي، ويهسّ، ويهدر. ثمة بحر يثور، ويضغط، ويحاول الخروج. وهذا يسبب لي الألم، الألم الشديد. وأفيق من الألم فأجد أذني تنضح بالرطوبة —ووسادتي أيضاً: ربّما هربت بضع قطرات من البحر.

خائف من البحر —هناك في الخارج— لكني أحاول أن لا أظهر خوفي. ويعتريني الخوف خصوصاً في الأمسيات، عندما أستلقي هنا في سريري. خارج الجدار —على الجانب الآخر من جدار السفينة، أستطيع سماع البحر بأذني السليمة. وليس البحر بعيداً، وإنما يمتد هناك، وراء جدار السفينة الذي لا تعدو سماكته خمس أو ست بوصات، أكثر أو أقل. ليس ثمّة مسافة بيني وبين الأبديّة. ربما تغرق السفينة الليلة —وتكون لدى البحر خمس أو ست بوصات ليقطعها في رحلته. يمكن أن يقتحم البحر داخلاً ويبلغني، ويملأ أذنيّ، وأنفي، وفمي —ويخترق حلقي ويملأ معدتي. يمكنه أن يملأني ويسحبني إلى القاع. بالكاد سيكون لي الوقت لأصرخ —سوف أغوص مثل حجر. وأنا لا أعرف السباحة —وبالكاد تجد هنا شخصاً يعرف كيف يسبح. لكم أخشى البحر في ساعات الليل المتأخرة!

ذات مرة، أردت أن أغرق قطة في الجدول؛ وضعتها في كيس، ولم أدرك أنه كان يجب أن أضع حجراً فيه أيضاً قبل أن أرميه في الماء. ولم يغرق الكيس، وظلت القطة حية في داخله وتسبح بالكيس. وعامت مثل حيوان مائي مروّع كثيف الشعر. وقد ناضل الكيس وتحرك، لكنه لم يغرق. رميت الحجارة عليه لأجعله يغوص، ولا بدّ أنني رميت عشرة قبل أن يغوص أخيراً. كان ذلك بشعاً وكنت خائفاً، وأتذكر أنني بكيت. كان عمري في حدود العشر سنوات، وكانت تلك حدود فهمي. لكنني ندمت على ما فعلت عدة مرات. ولم أقم بإغراق قطة منذ ذلك الحين.

لماذا أفكر في تلك القطة دائماً، كل مساء عندما أخلد للنوم؟ ذلك يرعبني.

أما أخي فليس خائفاً ولا قلِقاً. لم أره يوماً خائفاً من أي شيء، لا في البر ولا في البحر.

أتساءل إذا كانت إيلين تشعر بالخوف عندما تستلقي هكذا، وتستمع إلى البحر في الخارج. غالباً ما كنت معها وحدنا في كارلسهامن، أما هنا في السفينة، فقد تسنت لي بالكاد فرصة للحديث معها. بالأمس عندما جلسنا معاً على سطح السفينة، نادتها أمها: تعالي هنا يا فتاة، أسرعي. وبدت غاضبة. لا يمكن أن تكون غاضبة مني.

قلت لإيلين ذات مرة، إنني أشعر بالأسى لأمها. وعندئذ بدا أنها تألمت —لا أستطيع أن أفهم لماذا. ارثِ أنتَ لنفسك، أنت الذي تعيش في الجسد، قالت. ما الذي كانت تعنيه؟ لم أقل كلمة تسيء إلى والدتها، قلت فقط إنني أرثي لها. لكن إيلين غضبت، وتملكّني الشعور بالحرج. لا بد أنني قلت شيئاً سخيفاً، ولو أنني لا أعرف ما هو بالضبط.

أتساءل إذا كانت إيلين تنام مع أمها خلف قماشة الشراع. إذا كانت تنام وحدها، فربما أزحف إليها. كلا، لن أجرؤ أبداً على ذلك. المرء يفكر بمثل هذه الأشياء فقط —ولن أجرؤ أبداً. لكن التمني ليس ممنوعاً، لا أحد يستطيع أن يمنعك من التمني. أستطيع تمنّي أن أزحف إلى السرير مع أميرة. لا يستطيع قسّيس أو مفوّض شرطة أن يفعل شيئاً إزاء ذلك. في التعاليم المسيحية، ممنوعٌ حتى أن تتمنى الأشياء، أن تشتهي مُلك غيرك —أن تشتهي امرأة ليست زوجتك، فكأنما اقترفت خطيئة الزنا معها في قلبك.

لكن المرء يجب أن يرغب المرأة قبل أن يحصل عليها، قبل أن يستطيع أن يتزوجها.

لا أرغب أن ألمس إيلين بتلك الطريقة المحرمة. لا أرغب ارتكاب خطيئة الزنا معها. ولو أنني زحفت إلى فراشها، هنا في السفينة، فسوف أستلقي بهدوء وأحتضنها فقط، أحتضنها بين ذراعيّ —كما فعلتُ عندما جلسنا وغفونا معاً في عربة يوناس بيتر. يا لروعة ذلك المشوار! لو أنني بجانبها الآن، لاستطعت أن أطمئنها وأطرد عنها الخوف عندما تهب العواصف، وتصبح سفينتنا عُرضة للغرق.

اليوم أخبرتني أنها خائفة من الهنود المتوحشين في أميركا. كنت ذكرت لها من قبل أن الهنود قد يكونون في بعض الأحيان غدارين قليلاً وشريرين وغير جديرين بالثقة —إنهم معروفون بأنهم هاجموا البيض الذين حاولوا قتلهم. لكنهم بغير ذلك رقيقو الحاشية ومحبون للسلام.

لكَم تؤلمني أذني الليلة، كما لو انَّها ستنفجر. قريباً، ستمرُّ سنتان منذ لكمني آرون صاحب نابياخِن على أذني، لكنني ما أزال أشعر بذلك. وجع الليلة جاء من تلك اللكمة. لا بد أنها لكمة «كبيرة» حقاً –لقد فقدت سمعي فعلاً في تلك الأذن. ليس هذا جيداً. لا يستطيع المرء سماع ما يقوله الناس إذا لم يكن يسمع. لكنني أعلم أن أذني ستتعافى حالما نصل إلى أميركا.

مع كل موجة أسمعها تتكسر على هيكل السفينة، أصبح أقرب إلى الولايات المتحدة. إنني لأشارك في مغامرة. وسوف أعرف كم هو البحر كبير. ثمة القليل من أولاد حيِّنا ممن يستطيعون أن يبحروا في البحر ويروا كم هو كبير. عندما أصل وأضع قدمي على الشاطئ، سأكون حراً كل الوقت. على شاطئ أميركا، لن يكون ثمة مزارعون مسنّون في الانتظار، ويسمونني «المساعد الصغير». لن أكون بعد الآن خادماً لأيٍّ كان. سأكون سيد نفسي.

الألم في أذني في هذه الليلة لا يطاق. لو أننا نستطيع أن نسافر أسرع قليلاً، لو أن السفينة تستطيع أن تبحر أسرع، عندها سنصل قريباً إلى الأرض التي ستُذهب ألمي.

آرفيد:

لكَم هو شيء بالغ الروعة، بحق جهنم، أنني استطعت المجيء. ينبغي أن أشكر الفلاح الورِع على ذلك. لا أعتقد أن في الدنيا زوجين ألطف وأكثر طيبة من دانجل وزوجته.

إنني الآن مسافرٌ. وقد مضغت هذه المفردة واجتررتها مرة تلو المرة. يظن روبرت أنني أستطيع القراءة والكتابة، ويحاول أن يجعلني أتهجؤها. يقول إن في الكلمة صوت سين مهموسة. ما هي السين المهموسة بحق الشيطان؟ لقد حضرتُ المدرسة بعض الوقت، لكنني لم أسمع بالسين المهموسة، ولا بأي صوت آخر، على ما أذكرْ. وأنا لا أبوح بالسر لروبرت بالطبع –هو يعتقد أنني

أستطيع التهجئة والقراءة. إنه نفس الصوت في عبارة «كومة الوسخ،» كما قال. لكنني لم أفهم ذلك. لا بدّ أنك تعني الخراء، قلت. أعتقد أن هذا ما يسمون به كومة الوسخ في المدرسة.

روبرت هذا رجل حسن التعليم وقد قرأ الكثير. أتمنى لو أن لي عينيه لأقرأ بهما، وعقله لأفكر به. إنه شيطان نشيط الفكر، حتى أنه ينتهي من التفكير قبل أن أبدأ.

على أيّ حال، أصبح ثور نيباخِن الآن مسافراً، وهو يتمشى في السفينة ويعيش حياة كسل. هنا، أيام الأحد وبقية أيام الأسبوع كلها متشابهة. وأنا لا أكسب رزقي بعرقي هنا، لكنني أحصل عليه على كل حال — ثلاث وجبات في اليوم. لا أكاد أصدق. لم يحصل أبداً منذ ولدتني أمي أن كانت حياتي بمثل هذا اليسر وهذا الرخاء. منذ كنت طفلاً وأنا أكدح كل يوم — وأيام الأحد أيضاً. وحتى عندما كنت أنال أسبوع إجازتي وأعود إلى البيت، كنت أضطر إلى المساعدة في الأعمال المنزلية. إذا جلست لأستريح، تقول أمي: «اذهب وأحضر بعض الخشب! أحضر دلو ماء!» لو يقول أبي: «تعال دوّر حجر الرحى! ساعدني في صنع هذه المكنسة!» كلا، لم أحصل بحق جهنم على أسبوع إجازة أبداً. كلا، على الإطلاق. أما هنا على متن السفينة، فلا أحد يقول: «ماذا تفعل، أيها الكلب الكسول؟ قم فساعدني!» لم أفعل شيئاً لعيناً منذ غادرنا الوطن. وهم يطعمونني هنا نفس الشيء، وأتناول ثلاث وجبات في كل يوم — يا له من شعور رائع!

ولم أصَب بدوار البحر أيضاً. حدث مرتين أن شعرتُ وكأنني سأتقيأ قليلاً، لكن الشعور ذهب. أعتقد أن لدي الكثير من الطعام في معدتي. لم أفوت وجبة واحدة حتى الآن، وسآكل كل ما أستطيع الحصول عليه.

يا إلهي المسيح، نعم، ما أروعها من حياة! ما مِن فلاح لعين يُنهِضُني في منتصف الليل لأطعم الخيول. ما مِن شيطان لعين يجعل حياتي جحيماً لأنني أعمل قليلاً. لا أحد يقول شيئاً لأنني آخذ الأمور ببساطة. أنا مسافر، بسين مهموسة، كما في «وسخ.»

وما يزال مركبنا متماسكاً معاً —لم تتسرب قطرة ماء واحدة من السقف أو الجدران. وتلك الفتحة في جانب السفينة —إنها مصنوعة لهدف، وهي مفيدة

عندما يجري فيها الماء. لكن المركب يتمايل أحياناً، وأشعر أنه ربما ينقلب. ويبدو مائلاً، عالياً في جانب، وغائصاً في الجانب الآخر. لكنه يعود إلى وضعه لحسن الحظّ. لكنه لو حصل وأن انقلب، وغرق في البحر، فإن المرء لن ينهض مرة أخرى.

عندما أفكر أن القارب يمكن أن يغرق فعلاً، أشعر بغصة في صدري. أعطتني أمي كتاب الصلوات وهي تعلم أنني لا أستطيع القراءة. «يجب أن تأخذ كلمة الله معك إلى أميركا في جميع الأحوال،» قالت. «يمكنك أن تتلو عن ظهر قلب تلك الصلوات التي علمتك أياها وأنت طفل صغير». آه، نعم. أنا أحفظ الصلوات عن ظهر قلب. في الكتاب صلاة لكل صباح وكل ليلة، طوال الأسبوع. وأنا أحاول أن أقرأ بأفضل ما تسعفني به الذاكرة —أنا خارج في البحر والسفينة متداعية وتترنح في بعض الأوقات، وأنا لا أعرف السباحة. لا أعرف لا سباحة القطط، ولا سباحة الكلاب، وقد تنفعني كلمات الله: «... ساعدني لأنام هنيئاً هذه الليلة... ساعدني الليلة كي لا تنام روحي في الخطيئة، ولا تبتليني في جسدي... إذا عشت في البر أو في البحر... استقبلني أخيراً في ميناء السلامة، أيها الأب العزيز...»

ربما أخلط في صلوات المساء، لكن الله لن يهتم إذا قلتُ بضع كلمات من صلاة الثلاثاء في صلاة مساء الاثنين. لكن قدراً أكبر من الأمان والراحة يغمران صدري عندما أتلو صلواتي وأضع نفسي بين يدي الله. لكَم أنا محظوظ بأن أكون بين يدي الربّ في هذا البحر الجامح غير المسيحيّ.

لا بدّ أننا أمضينا وقتاً طويلاً ونحن نسافر على هذا المركب. اليوم سألت أحد البحارة عن المسافة المتبقية للرحلة. قال إن المسافة من هنا إلى أميركا الشمالية هي تقريباً نفس المسافة من أميركا الشمالية إلى هنا، ربما بفارق مائة وخمسين ميلاً. فكرت كثيراً في ذلك، وبدت لي المسافة بعيدة جداً. وعندئذ ضحك، ذلك الشيطان، وضحك الذين كانوا حوله أيضاً. غضبت جداً حتى هممت بأن ألكمه في بطنه حتى يخرج الخراء منه. قلت له إن المسافة بالنسبة لي سيان. إذا عجز بحار سافر في هذا الطريق من قبل عن إعطاء المعلومات، فلا يجدر به أن يسخر من الناس الشرفاء. قلت له: «لا ينبغي أن تظن يا روث الغنم، أننا نحن الذين أتينا من بلاد المزارع أغبى منك أنت جوّاب البحار. إننا

نعرف عندما يحاول شخص أن يجعل منا أضحوكة.»

مهما كانت المسافة بعيدة، أعتقد أننا سنصل، لأن القارب يبحر كل يوم، في أيام الأحد وأيام الأسبوع الأخرى على حد سواء، ويقول دانجل إن أنفاس الربّ تهبُّ على الأشرعة. عندما أصل إلى أميركا سوف أطلب من كل أولئك الفلاحين، قطع الخراء الناشف في الوطن أن يقبّلوا مؤخرتي. لا أحد أبداً له حظ مثلي في رحلتي إلى أميركا —أسبوع إجازة في نيسان، أسبوع راحة في أيار، وأسابيع إجازة كل الربيع اللعين! وثلاث وجبات في كل يوم من أيام الله!

اللعنة عليّ كم أنا محظوظ بأن أكون هنا!

دانجل أندريسون:

لقد أنعم علينا الربُّ القدير بطقس جميل حتى الآن في البحر. إنه يساعدنا بكل قدرته.

وتبحر سفينتنا بالذين اختارهم الرب إلى أرض اختارها هو. وهي سفينة صغيرة وهشة، من صنع أيدي البشر الخاطئين، لكنها سفينة الرب. ذات ليلة، رأيت اثنين من ملائكة الربّ يقفان عند الدفة، ويساعدان الربّان في توجيهها السفينة إلى المسار الصحيح.

راودني الشك في البداية، وقلقت من هذه المغامرة الكبرى: أن أترك أرضي وعشيرتي وأرتحل برفقة زوجتي وأطفالي فوق البحر —عندما لم أعد أعيش أيام شبابي. لكنني طردت الخوف من قلبي، وأجبت نداء الله: كلمته هي المصباح الذي يقود خطاي، وينير لي دربي.

لكنني ألحظ الشك والخوف يهجمان على جماعتي الصغيرة: إنجا—لينا زوجتي، وأطفالنا الأربعة الأعزاء، وأولريكا من فوسترغوهل، وابنتها الرقيقة. الشيطان الشرير يوسوس في آذانهم بكلمات مغوية ليمتحن إيمانهم. زوجتي الحبيبة تخاف من لغة أميركا الشمالية. تخشى أنها ستضطر لأن تتجول مثل الأخرس الأصمّ بين أهل تلك الأرض الغريبة. لكني أؤكد لك، يا إنجا—لينا، كما فعلت كثيراً من قبل، أننا حالما نصل إلى اليابسة، فإن الروح القدس ستملؤنا حتى يمكننا أن نتكلم باللسان الغريب على الفور، كما لو كنّا ولدنا أطفالاً لقرى أميركا. لدينا وعد الله وكلام إنجيله عن معجزة أسبوع العنصرة الأولى. وقد

قرأتها عدة مرات لك يا إنجا—لينا: «وظَهَرَت لَهُم ألسِنَةٌ مُنقَسِمَةٌ كأنّها مِن نار، واستَقَرّ على كُلِّ واحِدٍ مِنهُم لسان. وامتَلأوا كُلُّهُم مِنَ الرّوحِ القُدُس، وبَدأوا يَتَكَلّمونَ بألسِنَةٍ أُخرى، كما كانَ الرّوحُ يؤتيهِم أن يَنطِقوا.»

عليك أن تتذكري ما قلته لك مراراً، يا زوجتي العزيزة: الجليليّون أيضاً كانوا رجالاً ونساء بسطاء وأميّين؛ ومع ذلك استطاعوا أن يتحدثوا الإغريقية والعربية على الفور، ولغات الماديّين والعيلاميين، المصريين والبارثيين والليبيين. وقد نهضوا وتكلموا هذه اللغات ومجّدوا روعة أعمال الربّ. وفق وعد الله، فإن المعجزة نفسها ستحصل لكل أولئك الذين ولدوا ثانية في المسيح. حالما نرسو على شاطئ أميركا الشمالية، سوف تشرق كلمات الروح القدس علينا، وستقفز ألسنتنا كما لو أننا سكارى، وستكون اللغة الأميركية مألوفة لشفاهنا وكأننا أبناء تلك الأرض. ربما يعاني الخاطئون غير التائبين الصعوبات مع اللغة الغريبة. لكننا سنكون قادرين على النهوض حالاً ونمجّد أرضنا الجديدة ولغتنا الجديدة. ومهما توغلنا في أسفارنا بين الأجناس الأخرى –سود، وحمر، ومختلطين– ستكون للروح القدرة على ألسنتنا لتنطق بلغاتهم.

نعم، لا حاجة لأحد في قطيعي أن يشك بأن النبوءة ستتحقق عن الروح التي تملأ كل أجسادنا —نحن الذين اختارنا الرب: «... فيَتَنَبّأُ بَنوكُم وبَناتُكُم، ويَرى شُبّانُكُم رُؤًى، ويَحلُمُ شُيوخُكُم أحلامًا...» وسيقول الساخرون: «إنّهم قد امتلأوا سُلافَةً!»

لقد أخذنا الرب بعيداً عن القوى الروحية الشريرة في الوطن. الكنيسة —تلك المومس الشريرة— اختطفتنا، وأرادت أن تبتلعنا في فمها الكريه المنتن. لكننا نبحر الآن على سفينة الرب، ولا يستطيع الكهنة في مُسوحهم السوداء أن يصلوا إلينا ببراثنهم هنا في البحر. لقد ذهب الشر، وقلبي جذِل، ولساني مسرور.

سوف تنفتح كل أرض أميركا الشمالية لي وسوف تُعطى لي ولنسلي. هناك سوف نبني كنيستنا الجديدة، لتكون مثل كنيسة المسيحيين الأوائل. سوف نجتمع معاً ونقسم الخبز ونشرب النبيذ، كما كان يفعل الحواريّون. سيكون كل شيء مُشتركاً، كما هو مكتوب: «وَٱلأَمْلاَكُ وَٱلْمُقْتَنَيَاتُ كَانُوا يَبِيعُونَهَا وَيَقْسِمُونَهَا بَيْنَ ٱلْجَمِيعِ، كَمَا يَكُونُ لِكُلِّ وَاحِدٍ ٱحْتِيَاج.» ولن يضايقنا مفوّض شرطة –سوف

نعيش في سلام.

في أرض أميركا الشمالية سوف أبني مذبح شُكر لك يا إلهي! سوف أغني وأعزف وألهج بحمدك بلساني وأوتاري، كما فعل داود ذات مرة. أنا رجل بسيط، وليست لديّ قيثارة مذهبة، لكنني أعرف أنك ستستمع إلي وأنا أعزف ربابتي القديمة.

أنت تنعم علينا بالطقس الجيد، يا رب، وتحمينا نحن الكبار وكل من اصطفيت واخترت من شرور دوار البحر –إكراماً لإيماننا بك. أما الكافرون والضالون، فعاقبتهم بهذا الوباء.

في الليلة الماضية، رأيت أحد ملائكتك على الصاري الرئيسي، واثنين على الدفة. وقد أومأ لي ملاك الصاري قبل أن يختفي –أن لا أخاف. فأنتَ تحملنا في هذا الليل فوق الأعماق المظلمة! الرب هو قبطاننا، فكيف يصيبنا عوز!

هُبّي، يا رياحَ الرب.. املئي أشرعة سفينة الرب —«ويَحلُمُ شُيوخُكُم أحلامًا...»

إنجا—لينا:

غداً سأرتق له جواربه. إنه يُبلي الكثير من الجوارب، ولطالما فعل —كل عُمر زواجنا. لا أعرف السبب. إنه لا يدوس الأرض بتثاقُل. ربّما لأن قدميه تعرقان. نعم، كان ذلك دائماً يزعجه —وهو لا يكلف نفسه عناء غسل قدميه. ينبغي أن أذكره دائماً بأن يفعل. كان لديه ثلاثة أزواج من الجوارب التي أصلحتها له قبل مغادرة الوطن —إلى جانب الزوج الذي يرتديه. لكن كل جواربه بها خروق، ولم يتسن لي الوقت لأصلحها. لاحظت اليوم ثقباً في الزوج الذي يرتديه تحت حذائه طويل العنق أيضاً. يجب تأديب الأطفال ورتق الخروق عندما يكونون صغاراً؛ لا ينبغي أن يتعدى الثقف أبداً عرض الإصبع الصغير.

يجب أن أهتمّ بأن تكون له جوارب على قدميه في أميركا الشمالية —يقال إن هناك ندرة في الأشياء الصوفيّة هناك.

يقولون إن المسيح المخلِّص كان يتجول دائماً حافي القدمين وهو يبشر هنا على الأرض، لكنني أفترض أن الأرض دافئة في الأرض المقدسة. يقولون إن

التين والكرمة والفواكه الحلوة تنمو هناك. أستطيع أن أفهم أن المسيح وحوارييه لم يحتاجوا إلى جوارب. لكن زوجي العزيز يصاب دائماً بألم في حلقه عندما تبرد قدماه، ويصاب بالإمساك. وهو يقول إن المرء لا تتوفر له الفرص كل يوم: «أفرغ أمعاءك، وحافظ على قدميك دافئتين!» ذلك قول حكيم.

اليوم، عندما كنت أجلس على سطح السفينة ومعي إبرة رتقي وخيطان صوفي، وأحاول أن أصلح سترتي السوداء، جاء إليّ وقال: «تعالي معي إلى الأسفل —يجب أن نصلي معاً». قلت: «أمهلني فقط حتى أخيط البطانة، لم يبق إلا بضع غرز.» ونظر إليّ طويلاً ولم ينطق بكلمة، وأصبحت عيناه حزينتين حتى ظننت أنني فعلت سوءاً. لقد فضلت الواجبات الدنيوية على خدمة الرب، كنتُ أفكر في الرتق والتصليح. استطعت أن أشعر بحزنه، ولم أرد أن يكلمني وهو بذلك المزاج، ولذلك هبطت معه إلى الأسفل في الحال.

أنا مخلوقة ضعيفة عندما يتعلق الأمر بالإيمان. أنا أفهم القليل فقط. وعندما أفكر وأتأمل المسائل الروحانية، فإنني يجب أن أتوقف بسرعة، لأنني أتوه وأتورط، وأخلط الروحاني بالدنيوي.

أخشى أن يضربنا الفقر إذا استمر ذلك. إنه يتخلى عما نملك، ليطعم ويكسو ويرعى الكثير جداً من الناس. أخشى أنه سيهب كل ما نملك في النهاية، وأن نُترَك هناك، نحن وأطفالنا الأربعة، في عوز وفاقة، بلا طعام ولا كساء. عندما أفكر بذلك –هناك يهاجمني الشك. لكنني أعرف أن الشك هو أسوأ الخطايا.

ذات يوم جعلته سعيداً جداً: كان ذلك عندما أخبرني بأنه سيهاجر إلى أرض جديدة جعله الله يراها —بعد أن أصدرت المحكمة حكمها عليه بالنفي. لم يقل شيئاً عن زوجته وأطفاله، لكنه عندما نظر إليّ، كانت عيناه تشعان بالطيبة مثل عيني المسيح في صورة المذبح. سألني بعينيه، وأنا أجبته. أجبته وقلت ما قالته راعوث المؤابية في الكتاب المقدس: «حَيْثُمَا ذَهَبْتِ أَذْهَبُ وَحَيْثُمَا بِتِّ أَبِيتُ. حَيْثُمَا مُتِّ أَمُوتُ وَهُنَاكَ أَنْدَفِنُ.» وعندها أشرق وجهه وقال: «يا زوجتي الحبيبة، سوف نقف معاً في حضرة المسيح يوم الدينونة!» فبكيت، وبكى الأطفال لأنهم ظنوا أن أباهم لم يكن لطيفاً معي وجعلني أحزن. لكن العكس هو الذي حصل، أوضحت لهم أن أباهم وعد بأن يصحب أمهم يوم البعث،

وأن تكون إلى يمينه يوم يقودها إلى لقاء الله. قلت لهم إنهم لا ينبغي أن يظنّوا السوء بوالدهم أبداً.

وأحاول أن أصدق أنه كيفما يتصرف ومهما يفعل، فإنه إنما ينفذ أوامر الرب.

تنتابني الكآبة أحياناً، وتهجم علي المشاغل الدنيوية، ولا أستطيع منع نفسي من ذلك. عندما أحسب وأحسب، أكتشف أنه تبقى لنا بالكاد شيء لنبدأ به الحياة في أميركا. لو أني استطعت فقط أن أعتمد على مساعدة الله القدير، إذن لزايلني القلق. لكنني أقلق، ولا أستطيع سوى أن أقلق. ثمة الكثير من الأشياء التي ينبغي لن أعتني بها –أنا ولا أحد سواي. وإذا لم أتولاها بنفسي، فلا أحد آخر سيفعل.

اليوم سألته كيف سنحصل على منزل في أميركا. «قبل أن أدقّ مسماراً في حائط،» قال، «سوف أبني مذبحاً للرب. قبل أن أضع لوح خشب لأرضية بيتنا، ينبغي أن يكون للربّ مذبحه.» ثم نظر إليّ كما لو أنه يعنفني على دنيويتي المفرطة؛ وقد تركته لفترة. أنا لا أتحدث إليه عندما يكون في ذلك المزاج.

لكَم أنا مخلوقة بائسة، كثيرة النسيان —أعلم ذلك. إنني أنسى أن زوجي الحبيب هو حواريّ الرب الجديد على الأرض.

والآن، أبلى آخر زوج من جواربه —رأيت ذلك عندما خلع حذاءه هذا المساء. يجب أن أصحو قبله في الصباح وأرتقهما. ينبغي أن لا تتسع الثقوب. أوه، أوه، أوه، إنه يبلي الكثير من الجوارب!

في الأيام القديمة، عندما كان الحواريّون يسيرون حفاة؛ كان ثمة القليل ليقلق الأمر بشأنه ويهتم به.

أولريكا من فوسترغوهل:

أحسست مباشرة أنها سفينة شيطان. استطعت أن أشمّ رائحة الشرير العطنة تزكم أنفي. الشيطان هنا على المتن. وحول سريري إناث ليست فيهن روح القدس. من حولي يزحف نسل الشيطان. وبين جماعة الرجال، تفوح رائحة تيوس الماعز المنتنة! أنا أعرف هذه الرائحة. لكن أحداً لن يمسّ طرفي، لأنني في حماية الرب. ولا تستطيع سخرية الخاطئين أن تلحق ضرراً بجسد المسيح.

لكنني سأدعو ربي ليزيل رائحة التيوس من أنفي — لا أستطيع احتمالها.

إن المسيح فيّ وأنا فيه. وقد أكلت لحمه وشربت دمه. ولذلك عوقبت بتناول الخبز والماء فقط في السجن. هناك جاء قسيس وأراد أن يعظني، لكنني بصقت على مسوحه السوداء —إنني أعرف أولئك الذين يأتون في الأردية السود. أكلت خبزي وشربت مائي، وأردت أن أُترَك بسلام. ولم يعد القسيس أيضاً. وفي آخر يوم لي في السجن، جاءني السجان بوعاء من عصيدة الشعير، لكنني بلت فيه وهو ينظر، وأضطر إلى أن يأخذه. قلت إنني قد حُكِم عليّ بأكل الخبز وشرب الماء فقط. ولم أرغب في تلقي المعروف من أبناء الدنيا؛ أنا لا أقبل العصيدة من أفعى من نسل الشيطان، قلت. ليس في هؤلاء نعمة يعطونها لنا، هذا يقوله حواريّنا.

الآن غادرت السويد، حفرة جهنم تلك، حيث يوضع في السجن ليعيش على الخبز والماء من يتلقى جسد المسيح ودمه فحسب.

في جسدي القديم، جسدي الخاطئ، فعلت الكثير من الدعارة أيام خطيئتي. لكن ذلك ما علمني أن أفعله وأنا طفلة، أبي بالتبني، الفلاح من ألاروم. لم أنس شيئاً على الإطلاق. إنني أتذكر كل شيء، منذ كنت في الرابعة، عندما باعوني في مزاد. بعد أن مات أبي وأمي، كان لا بد من بيع الطفلة الشقية إلى من يكسيها ويطعمها. وظفر بي زوجان من فلاحي ألاروم —عرضا أن يأخذاني بأقل أجر— ثمانية دالبرات في السنة. ثم ندم الفلاح بعد ذلك على قبول رعايتي مقابل هذا المبلغ الزهيد: كنت آكل كثيراً وأرتدي ملابس تكلف أكثر من ثمانية دالبرات سنوياً. ولذلك، جعلني أبي الراعي أدفع ثمن غلطته. وعندما أصبحت في الرابعة عشرة من عمري، قال لي إنني يجب أن أعيل نفسي. قال إن جسدي نضج بحيث أستطيع ذلك. وماذا تملك فتاة في الرابعة عشرة، بيعت في مزاد، لتدفع به؟ قال إن عليّ أن أفتح ساقي وأستلقي هادئة. ولم أكن أريد ذلك، فبكيت وتوسلت إليه أن يدعني أذهب، لكنني كنت مجرد طفلة ضئيلة وكان هو رجلاً كبيراً قوياً. كان يعرف كيف يجعلني أدفع الثمن. المرة الأولى —لا يمكنني نسيانها. أمسك بي ذات صباح في زريبة العجول في الحظيرة بينما كنت هناك أحلب. كانت زوجة المزرعة في فراش النفاس، وكان المزارع نفسه ينام في «زريبة الثيران» منذ وقت طويل —وعندئذ، احتسب الأجرة: كنت أدين له بثمن

الطعام والكساء، ولذلك ينبغي أن أفتح ساقَي وأستلقي بهدوء. كان الأمر وكأنّني ذُبحتُ بسكين جزار، وقد بكيت وتوسلت إليه أن يتركني. لكنّه قال إن ذلك خارج الحساب. وبعد ذلك، وقف مزارع ألاروم على أرضية الإسطبل وزرّر سرواله، كما لو أنه كان يتبول فقط، وغمغم قائلاً: «قضي الأمر، حسناً، الآن انتهى الأمر.» ثم التقط دلو طعام الخنازير ومضى إلى أعماله.

بهذه الطريقة كان يطلب الدفعات في كثير من المرات، وأنا أصبحت معتادة على ذلك. لكنني هربت من بيت رعايتي بمجرد أن استطعت، وسرعان ما التقيت برجال وعثرت على الرفقة. وتلقيت الطعام لآكله، والأشياء الأخرى التي أحتاجها، وعندما كان علي أن أدفع، كنت أعطي الشيء الوحيد الذي لدي —ولم يتعد فهمي ذلك. كنت قد تدربت على يد المزارع في ألاروم. وبما أنه أصر على الدفع كثيراً من المرات، فقد تبقى لدي القليل لأدخره. وفي النهاية، أصبحت أولريكا من فوسترغوهل: مارست الدعارة، كما يسمونها. وقد طُردتُ من مائدة الرب، وأولئك الذين دربوني واستغلوني، أصدروا الحكم عليّ واعتقدوا أن من الصواب إخضاعي لحرمان الكنيسة.

لكن المزارع الغني من ألاروم، والدي بالتبني، كان صديقاً كبيراً للقسيس، وكان يرافقه إلى الحفلات. وعندما جلبه الشيطان أخيراً إلى مستقره الأخير، ألقى القسيس مرثاة جليلة في جنازته، وامتدح فعاله الخيرة في الأرض. ويمكنكم التأكد من أنه لم يذكر شيئاً عن تلك المرة في زريبة العجول عندما اغتصب فتاة يتيمة في الرابعة عشرة من عمرها كان قد اشتراها في مزاد. ربما اعتُبِرت تلك الفعلة من ضمن أعماله الأخرى التي أداها حتى يدخل الجنة. لكن هناك واحدٌ يعلم أين مآله! وعندما أنزل تابوته إلى القبر، وغادر الناس باحة الكنيسة، كان هناك شخص ذهب إلى المقبرة وبصق على كفنه. كان شعوراً جيداً.. جيداً بحق الشيطان!

وهكذا، مضيت في عهري، ومع الوقت حملت بأربعة أبناء زنا، ثلاثة منهم ماتوا صغاراً —كان الرب رحيماً بهم. أما صغيرتي ليلين فلم تعد ابنة سفاح. لقد قبلت في الذين ولدوا من جديد، وصادق على قبولها حواريّ الربّ.

لم تكن تلك قرية الفلاحين تلك لتكره مجذوماً أكثر مما كرهتني. كانت النساء يجرفن القاذورات ويلقينها عليّ؛ لم تستطع النساء أبداً أن يتسامحن

معي. ولا يمكن أن يغفرن لي وقد عاشرت رجالاً أكثر منهن، أكثر من أي امرأة في الأبرشية. اذهب إلى أولريكا من فوسترغوهل، كانوا يقولون، وسوف تطحن لك بذورك! وكان ذلك صحيحاً —كان بوسع الجميع أن يطحنوا حبوبهم في مطحنتي. كان صحيحاً أيضاً أنه كان على العديد من نساء الأبرشية أن يشاركنني أزواجهن. ولكن، لماذا كان عليّ أن أطرد من يأتيني؟ كانوا في حاجة لأن يأتوا إليّ، وكان ذاك جيداً لهم. كان نساء الرجال المتزوجين يجففن ويضربهن العراء، عندما يتقدمن في السن. بعضهن كن يكتنزن ويصبحن مثل الأكياس المليئة بالحبوب، حتى لا يستطيع رجل الوصول إليهن؛ وبعضهن كنّ يضمُرن حتى تصبح عظامهن ناتئة وحادة مثل مطارق الخشب، فيجرح الرجال أنفسهم إذا لامسوهنّ؛ وكلهن يصبحن متسعات وبلا قيعان مثل منجم الجفت. وهكذا، يستطيع المرء أن يفهم بسهولة لماذا لا يرتوي الرجال في فراش الزوجية.

وقد سمعت رجالاً يشتكون من عيوب زوجاتهم. هذا أحد أسباب كراهية النساء لي. لكنني كنت أشفق على هؤلاء وأسمح لهم بالدخول —كما يفتح المرء بوابة للماشية الجائعة العطشى، ويجعلها تدخل حقل برسيم. وقد وهبني الله جسداً مقدوداً لم يشك منه ذكر. كان العديد من الرجال الذين يُجبَرون على مضغ العشب الجاف القديم في المنزل ينالون عشباً طرياً ندياً معي. وكنت أستمتع بذلك أنا نفسي، في العديد من المرات. اعذرني يا عزيزي المسيح، لكنني فعلت! يا مخلّصي الصغير العزيز، اغفر لي المُتع التي نلتها بينما كنت أعيش في الجسد الفاني. لأن المرء يخطئ أكثر ما يكون عندما ينال أقصى المتعة من الخطيئة.

لكن خطايا أولريكا من فيسترغوهل إذا كانت باحمرار الدم في الماضي، فقد أصبحت الآن بيضاء بياض الثلج. إنني أعيش الآن في جسد المسيح، وهو يعيش في جسدي. وما يزال جسدي هذا أبيض ناعماً مثل هبة ثلج في ليلة عيد الميلاد. وأنا لا أخشى أن أعرضه لكل من يرغب أن يأتي ويتأمله —إنه صنعة الرب ومعجزته.

الليلة، بينما أستلقي في سريري، أشم رائحة تيوس الماعز أسوأ من أي وقت. إن جسدي القديم يلكزني، ويرد أن يزحف عائداً إلى داخلي من جديد.

هنالك الكثير جداً من الرجال حولي – وأنا لا أطيق وجود الرجال على مثل هذا القرب؛ عندئذ يلح جسدي القديم في طلب بالرجوع. ثمة رجال يتجولون هنا ويشتعلون حتى تكاد سراويلهم تنفجر. إنهم لا يستطيعون طحن بذورهم هنا على السفينة، فيدورون ويعتصرون أنفسهم ويتألمون. أستطيع تمييزهم، وأعرف كيف يتصرفون عندما تخزهم تلك الرغبة. من يعرف أفضل من أولريكا من فوسترغوهل؟

أنا لا أطيق كريستينا من كورباميون، تلك المرأة المتعجرفة. إنها تدور وهي تحدق بي كما لو أنني عاهرة عجوز، بينما تعيش هي في الحقيقة في الجسد. إنها لا تحترم جسد المسيح — تلك الساقطة! إنها تعتقد أنها طاهرة لأنها تزوجت على يد القسيس. لكن حواريّ الرب يقول إن الزنا يحدث داخل الزواج كما يحدث خارجه. إن زوجها شاب ضخم وقوي البنية، ولا شك أنه يستطيع استخدام عضوه. لكنه لا يستطيع الآنِ أن يلبي رغباته لأنه مضطر لأن ينام في عنبر العزاب. ما يزال بوسعي أن أسعِد أي رجل، إذا شئت. ولو أني أعيش في جسدي القديم، لكنت حاولت مساعدته.

وما بي أرب في شقيقه، ذلك الأحمق الصغير الذي يتسكع ويتلصص على ابنتي بمجرد أن أدير ظهري. إذا كان يعتقد أنه يستطيع نتف ريش تلك الدجاجة الصغيرة، فسيكون عليه أن يعاود التفكير. ماذا يمتلك مثل هذا الجرو ليعرضه؟ إنه يحمل كل ما يملكه في صرّة الخادم التي معه. وأياً كان ذلك الشيء الصغير الذي في سرواله، فإن من الأفضل له أن يتركه لينمو. ومع ذلك، يتطفل ويتجسس ويحاول اصطياد ابنتي إيلين. إنه يريد أن يتذوق رحيقها، يتذوقها ثم يتركها، مثله مثل كل الرجال. أوه، كلا — إنني أعرفكم أيها الذئاب! أوه، كلا — أنت أيها المخادع الصغير! تحوم هنا مثل ذئب يطارد حمل الرب الوديع. لكنك لن تظفر بها! سوف لن تدخل أبداً من ذلك الباب، يا عامل المزرعة البائس. إنها محفوظة لشخص أكثر أهمية منك.

طفلتي هي فرحتي الوحيدة في هذه الدنيا. وقد سُمح لإيلين بأن تبقى معي عندما عاد الآخرون إلى مثواهم عند الله، ولذلك أعرف أن من المقدر لها أن تنال حياة حلوة على الأرض. وأميركا الشمالية تعج بالرجال الأغنياء المحتاجين إلى زوجات. وتتلقى الفتيات القادرات الماهرات الجميلات عروض

الزواج حتى قبل أن تطأ أقدامهن شواطئ أميركا. هناك، ستتزوج ابنتي رجلاً صاحب مكانة مرموقة، وجاه، ورفيق المعشر. سيكون نصيبها أن تأكل البيض في وعاء من الفضة، وأن تنام كل ليلة في منامة من الحرير. ولن تنسى أمها العجوز حينئذ، التي اضطرت ذات يوم إلى الدعارة في الوطن حتى تطعمها.

نعم، لكنني لا أستطيع هذه الليلة إخراج رائحة تيوس الماعز من أنفي. هؤلاء الذكور المتزاحمين من الشيب والشباب. وجسدي القديم يقسو بقوة على الجسد الذي اختار أن يسكنه الرب. أيها المسيح العزيز، امنحني القوة لأقاومه! لأنني لا أعرف أحياناً ما قد أفعله. لكنك لا بد تعلم بهذا— أنت الذي تعيش في جسدي. يجب أن تشد من أزري أمام ما بي من الغواية بقوة. إنني أكون مخلوقة بائسة تعسة في بعض الأحيان. لا بد أنك لاحظت ذلك. وليس من السهل دوماً أن يولد المرء من جديد — نعم يا مسيحي الصغير الغالي، إنك في غاية الطيبة واللطف معي.

لكن هذه سفينة شيطان —لقد أدركت هذا على الفور.

إيلين:

على المرء أن يفكر في شيء ما إذا لم يستطع النوم.

ما كان عليه أن يقول ما قاله عن أمي. لم أسامحه على ذلك بعد. لم يعلم كم آلمني. ينبغي عليه أن يرثي لنفسه. إنه لا يعلم شيئاً عن هذا العالم. لكن عليه أن يتعلم. ما كان ينبغي أن يقول أي شيء. إنني أعلم أني ابنة السفاح التي أنجبتها أولريكا من فوسترغوهل. كان ثمة من ذكرني بذلك كل يوم منذ كنت صغيرة جداً. إنني أعرف كل شيء منذ كنت صغيرة.

الرجال فقط هم الذين كانوا يزورون أمي، ولم تزرها امرأة قط. وعندما يأتي الزوار، كانوا يرسلونني إلى خارج البيت وتوصد أمي الباب. وفي الشتاء، كنت اضطر للمكوث في سقيفة الحطب وأنتظر أن يُسمح لي بالدخول من جديد. كانت أمي تدثرني دائماً بفراء دافئ حتى لا أصاب بالبرد هناك — كانت أماً صالحة دائماً. لم يكن لدينا إلا القليل لنأكله معظم الوقت، وأحياناً لم نكن نجد ما نأكله. وعندما كان الطعام ينفد ويأتي رجل للزيارة، أصبح سعيدة جداً، لأنني أعرف أنه لن يمر طويل وقت قبل أن يتوفر لنا الطعام مرة أخرى. وقد أحببت

العديد من هؤلاء الرجال. لم يسيء إليَّ أي منهم. بعضهم أساء إلى أمي، حتى أن أحدهم ضربها مرة بسوط من ذيل الثور. وقد قذفته بالمكواة الحديدية في رأسه، ثم ساعدت أمي في دفعه إلى الخارج. وقد أغمي عليه وبقي ملقى هناك لوقت طويل.

كنت أتساءل أحياناً لماذا لا تزورنا أي امرأة — إلا إحدى العجائز مرة كل وقت. لكن أمي أخبرتني عندما كبرت لماذا لا يأتينا إلا الزوار الرجال— أخبرتني بغايتهم. ولم أفكر أبداً بأن أمي ترتكب أي خطأ.

ذات مرة صحوت في منتصف الليل عندما كان لدى أمي زائر. كانت لدي قطة صغيرة أعطاها لي أحد الرجال، فاعتقدت أن القطة هي التي تصيح وتصدر تلك الأصوات. لكنها لم تكن تفعل. أعتقد أن تلك كانت المرة الوحيدة التي راودتني فيها أفكار سيئة عن أمي. وقد أفضيت إليها بذلك وسامحتني. ثم بكت، وكانت تلك هي المرة الأولى التي أراها تبكي فيها. قالت لي: سوف أخبرك بما فعله الناس بي. وأخبرتني بكل شيء. ومنذ ذلك الحين، لم أفكر بها أبداً بطريقة سيئة.

ذلك الولد المسكين الذي يتصرف كالأطفال – إنه يظنني لا أعلم شيئاً. إنه يتحدث معي كما لو أنني طفلة صغيرة تحتاج إلى الحليب والقماطات.

تعتقد أمي أن والدي كان متسكعاً قضى إحدى الليالي في كوخنا، ولم يعد. كان روحاً مرحة، كما تقول، ويعرف العزف على الكمان. أحب أن يكون ذلك الرجل والدي، طالما أن على أحدهم أن يكون أبي. وتقول أمي إنه قد يكون أيضاً شمّاس الكنيسة، بير بيرسون من أكربي. وهي لا تريده أن يكون أبي — ولا أنا أيضاً. إنه رجل شرير، وقد وصف أمي بالعاهرة — رغم أنها وإياي قد ولدنا من جديد في المسيح وغسلنا خطايانا بدمه.

في الليلة الفائتة، حلمتُ بأن أمي حفرت بإصابعها حفرة صغيرة في غيضة الزهور في الحديقة خارج الكوخ. ثم غرست فيها نبتة. ثم رصت التراب حول النبتة لتجعلها تنتصب مستقيمة. ثم هدهدت الأرض حول الجذور كما كانت تربت عليّ. وشرعت النبتة تنمو، ولم أكد ألحظ حتى أصبحت أطول مني. وقد وقفت هناك وحدقت في الزهرة وهي تنمو وتصبح أطول وأطول. ونمت كل المسافة إلى السماء. وفي النهاية وصلت الجنة، وعندئذ تفتّح تاجها. كانت

الزهرة بيضاء ولاحظت أنها من الزنبق الصيني. وعندما أينعت بالكامل، فُتحت نافذة في الجنة وأطل منها الله. كان عجوزاً له رأس كبيرة ولحية بيضاء طويلة متهدلة، وجبهة متجعدة توحي بالجدية. وبدا مستغرقاً في التفكير. ثم قطف الله الوردة وأخذها، وأغلق النافذة من جديد.

وبدأ ساق النبتة يذوي ويتحول إلى السواد، مثل سيقان نبتات البطاطا في الخريف بعد بضع ليالٍ من الصقيع — حين تصبح سوداء ناحلة، وتلتصق بالأصابع عندما يلتقط أحد الثمار. وقد ذبلت الساق ووجدتها ملقاة في حوض الأزهار حيث كانت أمي قد زرعت الزهرة قبل وقت قصير. وعندما وقفت ونظرت إلى الحفرة التي كانت أمي قد أحدثتها، وجدت ساق النبتة الأسود ملقى هناك وقد تعفن وانبعثت رائحته والتفّ على نفسه مثل دودة رفيعة مخيفة. وقد غلبني الخوف الشديد، لأن الحفرة في الأرض أخذت تصبح أعمق وأعمق وأكثر رعباً. بدت وكأنها قبر في فناء كنيسة. وبدأت أبكي بصوت مرتفع، لأنني أدركت فجأة أين كنت: في فناء الكنيسة عندما مات أخي الصغير. وسمعت صوتاً يقول: «إنها ترقد هنا. جسدها في القبر.»

وعندما أفقت، فهمت أنني كنت الميتة، ولأنني كنت أنا التي ترقد هناك في فناء الكنيسة.

استيقظت أمي عندما بكيت، وكنت خائفة جداً حتى أنني رويت لها حلمي. وقد فسرته لي: أنا كنت الزهرة التي زرعتها. أما الساق التي اسودت وذوت وتعفنت وأكلتها الديدان، فكانت الجسد الخاطئ. وأما القبر الذي سُجّيَ فيه جثماني فهو بيتنا في الأبرشية في السويد، حفرة جهنم، كما قالت أمي. لكن تاج الزهرة التي قطفها الله وأنقذها، كان روحي.

وعندما طمأنتني أمي، ذهب الخوف عني.

والآن، نسافر أنا وهي إلى الأرض الموعودة. وهناك سنعيش إلى الأبد. وبالطريقة التي فسرت بها أمي للرؤيا، فإنني سوف أنمو الآن وأزهر وأتفتح مثل وردة في تلك الأرض.

أمي قالت لي ذلك.... ·

يوناس بيتر:

أحياناً لا أعرف مباشرة لماذا أنا مستلق هنا في هذه السفينة. لا بد أنني مسافر إلى مكان ما، أفكر؛ إنني أسعى وراء شيء، كما أعتقد.

على أي حال —لقد حررت نفسي منها. لم تعتقد أبداً أنني يمكن أن أفعلها، لكن أصبح ثمة الكثير من الأميال بيننا الآن. وستكون هناك المزيد منها – الكثير جداً منها حتى لا أستطيع أن أقطعها مرة أخرى أبداً.

استيقظت ذات صباح واتخذت قراري. كنا قد تشاجرنا في الليلة السابقة. بدأ الأمر بجاروف الحبوب. أردت أن أحضر بعض الشوفان من البرميل في العلية لأطعم الفرس، لكنني لم أجد الجاروف. سألتها إذا كانت رأته، فأجابت: هل يجب علي أن أتعقب جاروفك؟ هل أنا خادمتك؟ لم يكن هذا ما قلته، أجبت؛ لكنني كنت في حاجة إلى الجاروف لأحضر بعض الشوفان للمهرة. قالت: لتلك المخلوقة الشرهة! إن مهرتك تقف هناك وبطنها مثل البرميل، وتأكل كل شوفاننا. قلت: مهرتي؟ نعم، قالت، أنت أكثر من يستخدمها وتتجول بها في الطرقات لأغراضك الخاصة. وبدأت أغضب. قلت أريد الجاروف! هل قمتِ باستخدامه؟ هل حملتِ به الشوفان للأبقار؟ كلا، قالت، إن بقراتي البائسات لا يأكلن الشوفان أبداً. بقراتك؟ قلت، إنهن بقراتي بقدر ما هن بقراتك. أنسيت أنني اشتريت بقرتين بمهري عندما انتقلت إلى هذه المزرعة؟ قالت. كلا، قلت، وأصبحت غاضباً حقاً في تلك اللحظة —ذالك ما لم أنسه أبداً، وكيف أنسى شيئاً تذكرينني به كل يوم طوال عشرين عاماً؟

بدأ الأمر بالجاروف. واستمر الشجار طوال الليل. وفي الصباح كنت قد عزمت أمري.

إننا متزوجان منذ عشرين عاماً، وخلال تلك السنوات كنا نخوض شجارين صغيرين تقريباً كل أسبوع، وشجاراً كبيراً كل شهر. ولا بد أنها تجاوزت معاً عدة آلاف من الشجارات بمرور هذه السنين. لكن شجار الجاروف كان الأخير. لم أستطع التحمل أكثر من ذلك. وتجهزت للسفر. ومن أجل الحصول على السلام والهدوء أثناء الاستعداد للرحيل، شحذت السكين وطلبت إليها أن تدير ذراع حجر الشحذ. كانت تلك هي الطريقة الوحيدة.

وقد وجدت الجاروف في اليوم التالي. كان قد انزلق داخل البرميل حتى لم أستطع رؤيته. وكنت ممتناً للجاروف لأنه خبأ نفسه — لقد ساعدتني بذلك على الشروع في رحلتي إلى أميركا الشمالية. وضغطت بيدي على المقبض وكأنني أصافح الجاروف: شكراً لمساعدتك!

لقد خضت من الشجارات ما يبلغ عاماً كاملاً من حياتي في المجموع. والآن، أصبحت مسناً ولا أستطيع التخلي عن مزيد من السنوات في الشجارات. ينبغي أن أتوخى الحذر فيما تبقى لي من حياة. أتمنى أن أعيش بسلام مع الجميع. وقد عشت بسلام مع الجميع إلا هي. لماذا عليّ العيش مع الإنسان الوحيد الذي لا أستطيع التفاهم معه؟ لماذا عليّ أن أسكن تحت نفس السقف مع شخص شغله الشاغل أن ينتقدني ويثير أعصابي؟ لماذا عليّ أن أعيش في بيت لا أحظى فيه أبداً بالسلام؟

ما كان ينبغي أن نتزوج مطلقاً. لكن أهلنا اعتقدوا أننا متناسبان —كنا في مستوى متماثل من حيث الممتلكات. والله يأمرنا في الوصية الرابعة بأن نطيع والدينا ونحترمهما حتى تستقيم الحياة وتمتد أعمارنا على الأرض. وقد أطعت والديّ وأطاعت هي والديها وتزوجنا. كان مظهرها الخارجي جيداً بما يكفي، وكانت فتية وبصحة جيدة، أما عدا ذلك، فلم أعرف شيئاً عنها. ليس ما كان عليه داخلها، ولا كيف هو مزاجها. ذلك ما عرفته يوماً بعد يوم.

في السنوات الأولى، حظيت ببعض المتعة معها في السرير، لكنها أصبحت أقل وأقل، ولم أستطع معرفة السبب. أصبحت لامبالياً وفقدت رغبتي فيها —لم يكن ذلك بيدي. وبعد أن فات الأوان أدركت أنني لم أكن أحبها وأنني لن أحبها في المستقبل. ولم تكن هي كذلك تهتم بي أو بما أفكر. كانت متزوجة بالمزرعة أكثر مما هي بي. لكنها بينما خفتت رغبتي بلعبة السرير، زادت رغبتها هي، وأخذت تسخر مني وتتساءل إذا كنت قد أصبحت عاجزاً، أنا الذي كنت شاباً. وعندئذ كان عليّ أن أريها. كنت أفضل أن لا ألمسها، وأصبح الأمر مجرد عادة؛ أستطيع أن أمارسها أو أتركها، بلا متعة. لكنني لم أجرؤ أبداً على قول ذلك لها. كان ذلك هو الأمر الوحيد الذي لم أستطع أن أقوله لها. كنت جباناً، أعلم ذلك، لكنني أظن أنها خمّنت أفكاري: كنت أشارك في هذا لأنني لم أستطع أن أرفض. نعم، أعتقد أنها عرفت أنني قد فقدت رغبتي فيها، ولذلك بدأت

تكرهني. وهي تصرفت بطريقة جعلتني أبداً بكراهيتها أيضاً. ربما كرهت أكثر ما يكون ذلك الشيء الذي لا يمكن تغييره: حقيقة أنني كنت متزوجاً منها ومرتبطاً بها.

لا ينبغي أن يكون الأمر بين الأزواج أبداً مثلما كان بيننا.

جاءت المشاجرات بيننا بتكرار أكثر ودامت لوقت أطول. لم يكن ثمة سلام في البيت. وعندما كبر الأولاد، انحازوا إلى جانبها. وقد انقلبوا ضدّي، لأنها كانت تتحدث إليهم وتقول: هكذا هو أبوكم! هكذا كان دائماً معي، أنا أمكم! ثم تقول للأولاد كل ما كنت قد قلته وفعلته عندما أكون غاضباً ومنزعجاً. وفي مثل هذه الأوقات، يفعل المرء غالباً أشياء يندم عليها لاحقاً، ولا ينبغي أن يُدان على ما يفعل أو يقول في تلك اللحظات.

هكذا ألّبت عليّ الأولاد، واضطرت إلى الشجار معهم أيضاً. لقد فقدوا احترامهم لي، وأطاعوا أمهم وصدقوها، لكنهم لم يطيعوا أباهم أبداً أو يؤمنوا به.

في هذه السنوات الأخيرة، نادراً ما كنا معاً في الفراش. كنت أرضيها فقط في أوقات متباعدة، عندما لا يكون ثمة مناص من ذلك. لم أجرؤ على الرفض. كنت أجبن من أن أقول: لا. وقد تصرفت كجبان في كثير من المناسبات في حياتي وكنت أوافق على النوم معها مقابل السلام — فعندما أرضيها في السرير، كانت تخف حدة لسانها عليّ بضعة أيام وتصبح عشرتها أسهل في البيت. وخطر لي أحياناً أن أقول لها: هذه آخر مرة! لكني كنت أخشاها، وأخاف أن تنتقم مني بطريقة أو بأخرى إذا رفضت. عندها كانت ستزيد عيشي نكداً. أحياناً، كنت أشرب بضعة كؤوس قبل الاقتراب منها. نعم، كان البرانفين يساعدني كثيراً، وبدونه لم أكن لأستطيع ملامستها. لكنني كنت بعد ذلك أصاب بالغثيان وأكره نفسي؛ كنت أشعر بأنني أتعس مخلوق على وجه الأرض وأسوأ من حيوان. فالحيوانات لا تشرب البلانفين حتى توقظ رغبتها في الجنس، وإنما تتزاوج بدافع الرغبة في ذلك. كنت أضاجع امرأة أكرهها وتكرهني، والحيوانات لا تفعل ذلك.

كنا زوجين اجتمعا برباط الزواج المسيحي المقدس، وتزوجنا كما أمر الله. لكن ما حصل بيننا لا ينبغي أن يحصل لأي زوجين.

ذات مرة، ونحن في خضم مشادة كبيرة، قلت لها إنني سأذهب وأجزّ عنقي. قالت إنني لست رجلاً بما يكفي لأفعلها. سخرت مني ولم تصدقني رغم أنني كنت أعني ما أقول في تلك المرة. وبحثت عن سكين الذبح لأقتل نفسي. وقفت هنا وتحسست طرف السكين لأرى إذا كانت مسنونة بما يكفي. شعرت بوخزتها على إبهامي، ووضعتها على عنقي، ولكنني توقفت. عندما شعرت بحد السكين البارد على جلدي، لم أستطع أن أنفذ ما عزمت عليه. كانت السكين باردة حتى ارتعش جسمي جميعاً من البرد. هجرت القوة يدي ولم أستطع. كنت قد ذبحت الحيوانات ورأيت الدم يتدفق من أعناقها. كنت أعرف أين أضع السكين وأعرف أين هو الشريان الرئيسي. لكني لم أستطع أن أجعل يدي تغرس السكين وتقطع لحمي وتجعل دمي يتدفق.

كنت أتمنى لو أستطيع أن أفعلها، لكن يدي لم تطاوعني — وغلبني الجبن والخوف. ثم اكتشفت شيئاً — لقد كذبت، لأنها صدقتني فعلاً، واعتقدت أنني سأقتل نفسي. لاحظت أنها أخفت أدوات القطع عنّي. كانت خائفة، بعد كل شيء. ولوقت طويل، أصبح يمكن احتمالها وصارت لطيفة معي، ولم تحدث شجارات بيننا.

هكذا اكتشفت وسيلة للحصول على السلام، واستخدمتها بضع مرات — كنت أشحذ سكيني وأطلب منها أن تدير لي حجر الشحذ بيديها.

لكن الأمور لا يجب أن تكون هكذا بين رفيقين مشتركين في رباط عقده الله —لا ينبغي أن يحتاج المرء إلى شحذ السكاكين ليحصل على السلام.

لكنها ربما أدركت خدعة السكين في نهاية المطاف، لأنه عندما جاء اليوم الذي أخبرتها فيه عن نيتي الهجرة إلى أميركا الشمالية لم تصدقني. إنك أجبن كثيراً من أن تفعلها، قالت. إنك تخاف من الخروج لركوب البحر، إنك لا تجرؤ، أيها الجبان البائس! إنك لم تجرؤ يوماً على فعل شيء. إنك لا تجرؤ على الإبحار في البحر.

لكنها كانت مخطئة في تلك المرة.

عندما أدركت أخيراً أنني لم أكن الجبان الذي ظننته —عندما شاهدت صندوق أميركا خاصتي على ظهر العربة عندئذ شرعت في البكاء. كانت تبكي كثيراً من الغضب، لكنها بكت هذه المرة بطريقة أخرى: كانت وكأنما تئن،

ببطء ونعومة، كما تفعل بعض الحيوانات عندما يصيبها ألم عظيم. ربما ينبغي للمرء أن يشفق عليها؛ إنها كما خلقها الله، وهي لا تستطيع تغيير ذلك. نعم، ينبغي للمرء أن يُشفق عليها؛ لكنني أعرف أن تعذيبها لي كان يمنحها المتعة، وذلك لم أستطع أن أسامحها عليه بعد.

الآن، استلقي هنا في السفينة، وأنا حرٌّ منها. أستلقي هنا وأتأمل ما فوّته في هذه الحياة. ومن المرير أن أفكر في ذلك. ثمة رجال طيبون مع زوجاتهم ونساء يحسن معاملة أزواجهن. كيف يكون الأمر حين تكون للمرء زوجة لطيفة ورزينة وتريد فقط أن تفعل الأفضل، والتي تستطيع أن تفهم أن المرء قد يقصد خيراً عندما يتصرف خطأً، امرأة ربما تنتقد وتوبخ، لكنها تؤل كل شيء بحسن طوية –وليس بسوء كما فعلت زوجتي؟ حسناً، كيف سيكون ذلك؟ كم أتقلب هنا في شقائي عندما أدرك ما فاتني في هذا العالم.

أشعر بالخجل من نفسي. لكنني وقد أصبحت مسناً كما هو حالي، ما يزال ثمة شيء تبقى في داخلي يشبه الأمل، أملاً صغيراً جداً. ثمة شيء يهمس لي: ربما ينتظرك الحظ السعيد في مكان ما من العالم. ربما ينبغي أن لا تموت قبل أن تتذوق بعض ما ضاع منك بطريقة مريرة. لقد عشت مثل كلب في مزرعتك، مثل كلب بلا صاحب، مخلوقاً بائساً لا ينتمي إلى البيت —هكذا عِشتَ يا يوناس بيتر. كنت تحوم متسللاً، باحثاً، صامتاً وجائعاً في بيتك. هذا صحيح – من يمكن أن يكون أكثر جوعاً منك لذلك الذي يمكن أن تعطيه امرأة لرجل؟

نعم أنا خجل، قليلاً — ولكن، ألا يمكن لكائن بشري تعس أن ينال هذا القليل على الأقل – بعض الأمل الصغير القليل؟

نادراً ما يستطيع المرء النوم هنا في السفينة؛ وأنا أستلقي هنا وأقلق كثيراً. إنني في رحلة إلى قارة أخرى. إنني ذاهب إلى مكان ما، لا أعرف أين هو، لكن ثمة شيئاً واحداً أعرفه: إنني أبحث عن السلام.

أحداث على متن السفينة

١

ليلاً ونهاراً تبحر تشارلوتا، السفينة الشراعية ذات الصاريين، وسط ضباب الربيع النيسانيّ وأمطاره الخفيفة.

وعلى الصاريين، تتعلق الأشرعة متهدّلة، ضعيفة وبلا حياة — فالريح ما تزال خفيفة. ويغطس هيكل السفينة الثقيل في الماء عميقاً مثل وحش كبير، كأنه جمل يُخوِّضُ في صحراء الماء، ويحرث طريقه ويشقُّها بين أمواج العُباب الهادئة الزرقاء الضاربة إلى الخُضرة. وعلى قوس المقدمة، يتفحص تمثال النسر البحر بلا انتهاء بعينيه الثاقبتين. وأحياناً، يندفع الزبد نحو عنقه ويغسل فمه المفتوح، ويتقطر الماء من منقاره الجاهز دائماً لتذوق ماء البحر المالح، وينساب من عينيه اللتين يغسلهما البحر بلا توقف. ويشرئب عنق الطير بفخار: تستطلع عين النسر عُرض المحيط كما لو أنه يبحث عن الطريق التي عبرها أولئك الذين مروا من هنا من قبل. هنا أبحرت السفن آلاف السنين، لكن العابرين من هذا الطريق لا يطبعون عليه أبداً آثار أقدامهم.

كانت المرة الأخيرة التي رأى المهاجرون فيها اليابسة عندما شاهدوا الطرف الأقصى من الدنمارك، الذي بدا من مسافة بالغة البعد. لكنهم شاهدوا في بعض الأحيان سفناً أكبر وأصغر من سفينتهم، ورأوا أشرعة أسرع وأخرى أكثر بطئاً. وفي كل الأحوال، سرعان ما أصبحت تشارلوتا وحدها في البحر مرة أخرى.

لعدة أيام، كان الطقس غائماً جداً، حتى أن القبطان لورينتز لم يستطيع تحديد موقعهم مستدلاً بالشمس. كان يقيس المسافات ويخمن مساره بالتقدير الحدسي. كانت السرعة بطيئة، وتحركت السفينة بسرعة الحلزونة عبر كاتيغات.

اقترب الفلاح الضئيل ذو اللحية البنية الشعثاء من الربان قرب الدفة،

وابتسم بطريقته الهادئة: إن الله ينعم عليهم بطقس جميل هادئ في رحلتهم.
وأجاب، لورينتز بأن الله لو أراد لهم الخير، لكان قد أنعم عليهم بريح أقوى.

لو يعلم هذا الفلاح الملعون فقط كم سيمكث في السفينة إذا استمر هذا الطقس طوال رحلة العبور! عندئذ كان سيلقي بنفسه جاثياً على ركبتيه بلا شك، ويصلي متوسلاً الريح.

لكن هؤلاء الفلاحين البائسين ليست لديهم أي فكرة عن أي شيء في البحر. إنهم يتصرفون كما لو أن آذانهم وعيونهم مليئة بالتراب. إنهم لم يتنقلوا سوى في عربات الروث، ولم يسبق وأن حملتهم الأمواج. كان لديهم سبب وحيد ليكونوا قانعين بالطقس الهادئ -حتى الآن، أفلتوا عملياً من دوار البحر. كما أن هؤلاء الجرذان لم يكونوا في عجلة من أمرهم، فيما يبدو، لبلوغ أميركا الشمالية. كانوا مجرد مسافرين ينتقلون من قطعة أرض إلى أخرى، ومن حقل إلى آخر. سوف يصلون وجهتهم سريعاً بما يكفي، ويشرعون بقلب التراب على الجانب الآخر.

يوماً في إثر يوم، ولأيام لا تنتهي، كتب مساعد الربان في سجل تشارلوتا: الرياح جنوبية شرقية خفيفة، طقس غائم. مطر وضباب في بعض الأحيان.

٢

في النهارات، كان المهاجرون يمكثون على سطح السفينة. كان البرد قارساً وكانوا يرتدون كل ما بحوزتهم من ملابس — معاطف وشالات وأغطية وفروات. كان الوضع على السطح أكثر راحة لأولئك الذي يخشون البحر ويخافون وحشة الليالي داخل العنبر. هنا الهواء عليل، وهو هناك في الأسفل منتن ثقيل. وفي حجراتهم يتسرب إليهم في الليل دوار البحر، وكأن هذا المرض يختبئ في مكان ما هناك، ثم يزحف على المسافرين تحت جنح الليل. وقد يحدث أن تكون دلاء قضاء الحاجة قليلة بالنسبة لعدد مستخدميها، أو قد لا يعثر أحدهم على دلو في الظلام، حيث الإضاءة محظورة بعد العاشرة ليلاً. وهكذا، عندما يزحف ضوء النهار إلى داخل العنبر، تتكشف المصائب التي خبأها الليل الطويل. كان المسافرون يشكون من عدم كفاية نصف غالون من الماء العذب لكل فرد في اليوم. كان يُفترض أن تكفي هذه الكمية الضئيلة لإعداد

الطعام والشرب والاستحمام وتنظيف أطفالهم الرضع. ولذلك، اعتادوا على متح الماء من الآبار المليئة، لكن مساعد القبطان الثاني حاول أن يوضح لهم أن هذه الكمية محددة مسبقاً بصرامة، ولا مجال لزيادة حصص الماء العذب نظراً لكمية المتوفر منها بالإجمال. أوضح أن الرحلة طويلة قد تستغرق ثلاثة أشهر إذا أسعفهم الطقس. وقد يأتي يوم يجبرون فيه على التكيف مع حصة أقل. وهكذا، فإن عليهم أن يتعلموا كيف يوفروا، حتى قطرة الماء.

وحاولت النسوة غسل الملابس الصوفية بماء البحر، لكن الصابون كان بلا رغوة. وذات صباح هطلت أمطار غزيرة، فشدّ البحارة شراعاً على السطح لجمع ماء المطر، وبه اغتسلوا وغسلوا وملابسهم. وقد وقف بعض المسافرين يشاهدون، والبعض الآخر حذوا حذو البحارة. وقال دانجل أندريسون إن الرب قد تذكرهم وأنعم عليهم بحمام طيب بماء أنزله من سمائه.

وناقش المسافرون فيما بينهم فكرة إرسال شخص ما إلى القبطان لطلب حصة أكبر من الماء، ولكن من؟ ولم يتطوع أحد. كانوا يخشون القبطان. وكلما ورد قول بأن على أحدهم التوجه إليه، كان الرد دوماً: القبطان نائم الآن، أو القبطان في قيلولته، ولا يمكن إزعاجه. وبدا أن ربان المركبة ينام في قمرته على مدار الساعة، مع أن الكل يعلمون أنه يأخذ قيلولته بعد الظهر.

وفي وقت مبكر من الرحلة، بل في يومها الأول، كان كارل أوسكار قد ذكر أمام المساعد الأول للقبطان حقيقة الازدحام على السفينة، ومنذ ذلك الوقت، اعتبره الركاب رجلاً شجاعاً لا يعرف الخوف. وقد حثه العديد منهم على مراجعة القبطان بشأن الماء، لكن كارل أوسكار رفض رفضاً صريحاً، وقال إنه لا يقبل أن يستخدمه الآخرون مثل درع.

لم يكن كارل أوسكار ولا كريستينا ممن يقيمون الصداقات بسرعة، ومن بين كل الناس في عنبرهما، كانا أكثر وداً مع مانس جاكوب وفينار كايسا، وهما زوجان فلاحان عجوزان من أولاند. كان هذان طيبان ومتعاونان مع البقية. الشيء الوحيد فيهما الذي كان يزعج كريستينا هو أنهما بديا قذرين نوعاً ما ـــ ربما لأنها نفسها كانت من النوع الذي يجهد ليبقى البيت نظيفاً. لم تشاهد مانس جاكوب يغتسل أبداً، بل كان يترك بعض الماء من نصف الغالون حصته، وكانت تطلب منهُ السماح لها باستهلاكه، رغم أنها كانت تعتقد أنه

هو الأحوج إليها، من بين كل الناس. وكان قد لوّث ملابسه وكل شيء حوله بالسعوط الممضوغ واللعاب الذي يسيل من طرفي فمه مثل جدولين كريهين. وكانت أذُنا فينار كايسا مملوءتين بما يشبه الكعكة السوداء من الأوساخ، وكانت الأخاديد على رقبتها تشبه الأربطة السوداء. لا بد أنها كانت تخشى أن تغسلها. لقد كان مانس جاكوب وزوجته يحملان من قاذورات السويد إلى أميركا ما لم يحمله أي مسافرين آخرين على متن تشارلوتا.

وكانت كل الأغراض الأخرى المحمولة في حقيبة الظهر المصنوعة يدوياً قذرة أيضاً ومهترئة. وكانت الحقيبة مصنوعة من قماش أشرعة رمادي قديم، مربوط على الجوانب بألواح خشبية سمك الواحد منها يبلغ إنشاً. وكانت أعواد خشبية رفيعة تباعد بين الأطراف. كان المزارعون من منطقة سمولاند يخيطون حقائبهم، أما مزارعو أولاند فكان من الواضح أنهم يصلون أجزاءها بالمسامير. لكن الجميع كانوا زملاء في رحلة طويلة واحدة، ومع مرور الوقت سيحصلون على خبرات متساوية في السفر.

ظل مانس جاكوب قلقاً على حجر الجلخ الذي جلبه ليوصله لابنه. وكان يخشى عليه من التلف داخل المنامة أو أن يكسر في هذه الرحلة الطويلة. كيف كان له أن يوصل الحجر إلى ابنه عندما ترسو السفينة.؟ ربما سيكلفه شحنه داخل أميركا كثيراً. كانت المجلخة ثقيلة جداً على هذا الفلاح من أولاند وهو يضجع في سريره ويعاني من دوار البحر. لم يكن يبدو أنه مهتم جداً بوصوله شخصياً إلى أميركا لو استطاع تأمين وصول حجر الجلخ هناك سليماً بلا أذى. كانت حجارة الجلخ في أميركا مكلفة وغير فعالة، فقد كتب له ابنه بأنه لم يكن قادراً على شحذ فأسه جيداً على حجارة الجلخ الأميركية.

منذ أن انطلقت السفينة في رحلتها كان السؤال الذي يشغل بال كارل أوسكار أكثر من غيره هو أين يمكن أن يذهبوا بعد أن ترسو بهم السفينة في مدينة نيويورك. لم يكن أحد من رفاق رحلته يعلم جواباً، ولا أحد من أفراد أبرشية ليودر. عليه أن يخطط لنفسه وأسرته وأن يفكر مقدماً وأن يصل هناك قبل السفينة، إن جاز التعبير. وها هو قد سمع المزارع من أولاند يتحدث عن ابنه الذي اتخذ منزلاً في مكان يدعى مينيسوتا.

سأل مانس ابن يعقوب: «أهناك أرض زراعية جيدة في ذلك المكان؟»

أجابه: «من الدرجة الأولى، حسب ما قاله ولدي. وطبقة التربة العلوية أعمق مما هي عليه في الوطن. لقد اتخذ ابني مئة هكتار.»

وقالت فينار كايسا: «ابننا على قدر المسؤولية، هو كذلك». قالتها وهي تلقي نظرة متسائلة على وجه كارل أوسكار، ولسان حالها يسأل: أهو قادر على استصلاح الأرض؟

وبينما كان الجدولان ينسابان كخيطين بهدوء على ذقن الفلاح العجوز، استدرك أن ابنه كان قد كتب له أن هناك سهولاً شاسعة خصبة تكفي كل فلاحي أولاند لو شاءوا الهجرة. وما كان عليهم إلا قلب التربة. كذلك كان المكان صحياً. صحيح أن الهواء في الصيف رطب قليلاً، ولكنه في المواسم الأخرى ليس بالبارد ولا بالحار — تماماً كما هو الحال في الوطن. إنه مكان مرغوب بالنسبة للناس البسطاء، أما في أماكن أخرى في أميركا فإن هناك مهاجرين ماتوا مثل الذباب لأنهم لم يحتملوا المناخ السيئ — نعم، كان المناخ سيئاً في بعض النواحي — حسبما كتب له ولده. وكان نفسه يخشى ذلك قليلاً، فهو كان مريضاً بعض الشيء في شيخوخته، ويعاني من ألم شديد في قلبه — وهو السبب الذي يدفعه لاستخدام الكثير من السعوط، الذي من المفترض أن يخفف ألمه. كان القلب في جوفه يشاء التوقف أحياناً، ولكنه كان ينتعش من جديد بعد مضغة أو اثنتين من السعوط. وقد يتوقف لفترات طويلة لو نفد السعوط من عنده، وهو ليس بالأمر الطيب. وبسبب كبر سنه، كان متردداً بشأن الهجرة، ولم يكن قد سافر في حياته أو انتقل، بل أمضاها في المزرعة التي ولد فيها في وطنه. ولكن ابنه دفع تكاليف الرحلة وأراد هو أن يرى الحقول الواسعة التي كان يمتلكها في أميركا الشمالية.

وتساءل كارل أوسكار إن كان ذاك المكان، مينيسوتا، ليس بالمكان المناسب لتستقر فيه عائلته. وقد سأل روبرت عن نوعية التربة هناك ولكن أخاه لم يجد في قاموسه الكلمة الصحيحة لوصفها. لم يكن هناك ولاية بهذا الاسم في الاتحاد، هذا أمر مسلم به، ولكنه كان يعتقد أن هذا الاسم قد أطلق على البراري الشاسعة في الطرف الأعلى من نهر الميسيسبي، أعظم أنهار العالم وأصلحها. لقد كان يحتوي من المياه أكثر من أي نهر آخر، وشواطئه خصبة وصحية، تغطيها الغابات والمروج، والسمك فيه وافر وفيه كل ما يحتاجه الهنود وكل

الناس هناك لبقائهم. وعلى شواطئ الميسيسبي الجميلة حصل أن جمع أحد المستوطنين مكيالاً من الذهب في خمس سنين.

قال كارل أوسكار:» أنا غير مهتم بمكاييل الذهب، إنما سألت فقط عن التربة».

لكن كان لهذه المعلومات وقع جميل، وحفظ كارل أوسكار الاسم، مينيسوتا، في عقله. وكان من السهل تذكر تلك الكلمة أكثر من غيرها، لأن كلمة ميني تعني بالسويدية، الذاكرة.

٣

كانت كريستينا في المطبخ وقد انتهت للتو من إعداد العشاء لعائلتها. كانت النساء يقفن في طابور طويل قرب الباب منتظرات أدوارهن لاستخدام الموقد. ففي اللحظة التي كانت القدر ترفع فيها عن النار، كانت توضع أخرى. وكانت كريستينا تتطلع إلى اليوم الذي تعود فيه إلى إعداد الأكل في مطبخها الخاص، وتترك الوعاء على النار قدر ما يحلو لها. لم يكن أحد يستطيع أن يطبخ كما يجب في مطبخ السفينة الدائم الاهتزاز، فضلا عن العدد الكبير من مستخدميه. وفي الأحوال التي لم تنضج فيها البازلاء بما يكفي، كان يوجد هناك دوماً امرأة خلفها مباشرة تتساءل بنفاد صبر متى سترفع القدر عن النار. لم يكن بيدها أن بازلاء السفينة تزداد صلابة كلما طال غليها، وفي أحيان كان الماء يتناثر من القدر ويطفئ النار. لم تكن تدرك كم كانت الحياة رائعة عندما كانت تحضر الطعام على موقد لا تتراقص القدور فوقه.

بعد تناول الوجبة تناولت كريستينا عدة الحياكة وذهبت إلى السطح كما هي عادتها في الطقس الهادئ. كان هارالد الصغير نائماً في السرير في الزربية وجوناه وليل—مارتا يلعبان هنا مع أطفال آخرين، فيما كارل أوسكار يراقبهم ليتأكد أنهم لن يتسلقوا الحاجز الجانبي. كانت ليل—مارتا —بحمد الله— قد برئت من البرد الذي أصابها والطفلان الآخران سليمان قويان.

لقد كانت نعمة بالنسبة لكريستينا أنها جلبت معها صنانير الحياكة وكرات من الصوف — حيث وفرت لنفسها وسيلة لقتل الوقت على السفينة عندما لا يوجد شيء تفعله، فهي لا تكون سعيدة إن كانت يداها فارغتين بلا عمل تؤديه.

وبينما كانت تجلس هناك تحيك الصوف وجدت بقعة صغيرة على الجورب، شيئاً أصفر ضارباً إلى الرمادي على الصوف الأبيض. رفعته بين السبابة والإبهام ووضعته على كف يدها ونظرت إليه. جلست هناك وحملقت في هذا الشيء—لا مجال للخطأ— كانت البقعة تتحرك في راحة يدها.

لم يكن هناك أي شك: لقد كانت تسبح في يدها قملة كبيرة سمينة متكبرة من قمل الجسم.

وبينما هي تتابع بنظرها تلك الدابة الصغيرة التي تتحرك بنشاط في أرجاء كفها، بلغ بها الغضب مبلغه. قمل! كبير وسمين، ومن قمل الجسم! والآن تذكرت حكة غريبة أصابتها في الأيام القليلة الماضية.

بإبهام اليد الأخرى هرست المخلوق الزاحف بسرعة، ثم اندفعت نحو المنامة، إلى سريرها، حيث خلعت كل ملابسها.

كانت الملابس جميعها تعج بالقمل، سترة الصدر والمعطف، وكذلك اكتشفته في كل شق ومخبأ في الملابس الصوفية— لقد كانت تلك البقع الصفراء الرمادية الصغيرة تزحف في أرجاء الملابس الصوفية الدافئة الناعمة. وكانت الطيات والشقوق مليئة ببيض القمل، وفي فتحات الأكمام في سترة الصدر كانت هناك أعشاش حقيقية. وبينما كانت تقف عارية هناك رأت في الضوء الخافت أن بدنها مغطى ببقع حمراء صغيرة—الكتفان والمعدة والصدر— تنتشر فيها عضات القمل. كانت قد شعرت بالحكة وبعض الوخز، ولكن في الضوء الخافت لم تكن تلاحظ عندما تغير ملابسها في الصباح والمساء تلك البقع المقرفة على جسدها.

ألقت بنفسها على فراشها وانفجرت بالبكاء.

تساءل كارل أوسكار لماذا تركت زوجته السطح فجأة، فنزل ليجدها مضطجعة وهي عارية. هل كانت مريضة؟

أشاحت بوجهها وقالت وهي تنوح: «أنا مليئة بالقمل! قمل الجسم! يا ربي، إلهي الذي في السماء!».

تسمر في مكانه كالأبله وحملق فيها.

«لا تنظر إليّ!•إنه فظيع، يا له من عار».

«لكن كريستينا عزيزتي— لم نصب أبداً بالهوام».

«لا—لقد كنت أحافظ على نظافتنا—الأطفال والجميع وأنت تعلم ذلك، ثم جئت هنا، إلى البحر، ليعم القمل بدني».

« لكن يا عزيزتي لا تبكي !»

لم يرها تبكي منذ الليلة التي سبقت رحيلهم من منزلهم — وبعدها ظلت في مزاج جيد ومعتدل حتى الآن.

كانت بين نوبات نحيبها تصيح أنها لم تصب في حياتها بالقمل على جسمها، إلا مرة واحدة عندما كانت صغيرة جداً وتذهب للمدرسة عندما التقطت قملة رأس من أحد الأطفال— ولكن أمها نظفتها مباشرة بمشط ذي أسنان رفيعة. أما أطفالها فكانوا دائماً نظيفين وكانت تفتخر بذلك، رغم أن قمل الرأس لم يكن يحسب من بين الحشرات الطفيلية في الحقيقة.

« إنه عار أبدي».

في بيت أهلها الذي نشأت فيه زرع والداها في عقلها أنه من المعيب أن يصاب الناس بالهوام، فهو لا يصيب إلا شرار الناس — المتشردين والعاهرات. لقد كانت الحشرات الطفيلية على الجسم بالنسبة إليهم إشارة خارجية تدل على طبيعة روح المرء وطبعه: فالقمل يقيم أعشاشه على أجسام الكسالى من غير الشرفاء. ولا يستطيع أن يتخذ بيوته على أجساد الناس النشيطين والشرفاء المحترمين، وبالتالي فإن غياب الحشرات دلالة على الشرف والرفعة. كانت كريستين تشعر بالخزي والإهانة.

حاول كارل أوسكار أن يخفف عنها، وطلب منها ألا تقسو على نفسها، فهي لم تجلب الهوام إلى جسمها بل انتقلت إليها من جسم شخص ما على متن السفينة. لم تكن الحشرات خزياً لها بل خزي لرفيق من رفاق السفر. لا بد وأن أحدهم في قسم العائلات قد جلب الهوام معه، وهذه المخلوقات الكريهة تتكاثر وتضاعف أعدادها بسرعة، فالقملة التي عمرها ليلة يصبح لها أحفاد.

نظر كارل أوسكار إلى السرير المجاور لهم، حيث ينام الزوجان العجوزان من أولاند، مانس جاكوب وفينار كايسا — ربما كان الجيران الأقرب لكريستينا هما المذنبان. وكان متأكداً أنه سمع ذات يوم أن القمل منتشر بين سكان أولاند أكثر مما هو منتشر بين سكان البر.

وبينما كان يهم بالإسرار لكريستينا بهواجسه، وصلت إنجا—لينا وأولريكا

من فوسترغوهل من المطبخ تحملان وجبة الغداء في سلتيهما وقدور الفخار، لاحظت إنجا—لينا أن عينا كريستينا محتقنة بالدم واقتربت منها من باب الدعم لتسأل عن أمورها.

ولكن عيون كريستينا وقعت على أولريكا — هناك، كانت تلك المرأة تنام وابنتها، لم تكن المسافة بين فراش أولريكا وفراشها تزيد على قدم. وكانت الفتحة بين الساتر والجدار تبلغ إنشاً — وكانت تلك أسهل الطرق على الهوام أن تصل إليها؛ هناك يمكن للحشرات أن تسير بلا عوائق وأن تحمل بعضها البعض على ظهورها.

وبدون تردد، صاحت كريستينا في أولريكا: «إنه أنت ولا أحد غيرك من تسبب لنا في تفشي القمل أيتها العاهرة العجوز».

صاح كارل أوسكار محذراً: «كريستينا»، ولكن كان الأوان قد فات. استمرت زوجته في هجومها: « إنه أنت، أيتها المومس! لطالما كانت لديك أعشاش قمل في فوسترغوهل! وكل الرجال الذين سعوا إليك نشروا الحشرات بين أعضاء الأبرشية. والآن نقلت القمل للسفينة، وسوف تغزين به أميركا أيضاً».

كانت عينا كريستينا تقدح شرراً، ولكن الاتهام الذي ألقت به على أولريكا لم يكن إلا غيضاً من فيض مشاعرها. لقد تحملت كثيراً من تلك المرأة الكلمات اللاذعة — والآن انتفضت بكل حقدها المكبوت — حقد المرأة الشريفة على العاهرة.

جفلت أولريكا وأغمضت عينيها نصف إغماضة حتى عادتا فتحتين بيضاويتين ضيقتين. وكل من يعرفها أدرك أنه لم يكن من السهل التعامل معها حينئذ.

ولكنها لم تجب كريستينا مباشرة، بل تحولت أولاً إلى كارل أوسكار قائلة: «إذن هذا هو الموضوع — جلبت زوجتك القمل من بيتها؟ أظن أن القمل لم يرغب في مفارقة امرأة بهذا الجمال!».

رد عليها بغضب: «اسكتي الآن يا أولريكا»

فأجابته:» من الأفضل أن تلوم زوجتك»، قالتها وعيناها تزداد ضيقاً، والتوت قسمات وجهها وعبست، وهو طبعها عندما تستشيط غضباً.

قالت: «لا بد أن تسحب اتهامها! الآن! سأذهب وأحضر دانييل».
وركضت نحو السطح.
«لقد افتعلت مشكلة الآن»، كانت عبارة كارل أوسكار لزوجته والقلق باد عليه.
كانت كريستينا قد توقفت عن البكاء، وغمرتها فجأة حالة من اللاخوف، وقالت وكأنها اتخذت قراراً: «لقد دعوتها بالعاهرة والمومس. هذه هي أوصافها الحقيقية. ولن أسحب أياً من كلامي».
«ولكن علينا هنا أن ننسى ما فات، ويجب أن نكون أصدقاء طالما نحن في رحلتنا إلى أميركا».
«لم أطلب أن أكون برفقة تلك المرأة».
عادت أولريكا وإلى جانبها دانجل أندريسون.
«الآن نصفي حساباتنا يا كريستينا من كورباموين».
ومع استمرارها في الحديث ارتفعت نبرة صوتها حد الصراخ: «تتهمني كريستينا بأنني نشرت القمل في السفينة! إنها تتهمني بأنني مصابة بالهوام. لقد هزأت بجسد المسيح وحمله النقي البريء!».
كان معظم المسافرين على سطح السفينة، أما من كانوا في المهاجع فقد اقتربوا ليستطلعوا الضجيج الذي شب. نظر كارل أوسكار إلى دانييل، بنظرات رجاء أن يتدخل.
قال دانجل متوسلاً: «اتركا للصلح مجالاً أيتها المرأتان».
صاحت أولريكا: «إنها تتهمني أنا بينما هي تعج بالقمل! أريدها أن تجثو على ركبتيها وتطلب السماح مني».
صرخت كريستينا بكل مشاعر الاحتقار. «أتريدين مني أن أثني ركبتي لأجلك؟».
«عليك أن تطلبي المغفرة من جسد المسيح».
«أفضل أن أركع للشيطان نفسه على أن أفعل ذلك!»
«هل تسمع يا دانجل؟ إنها تكفر!»
رد دانجل بلهجة توسل محاولاً إقناعهما: «اهدآ أيتها السيدتان اللطيفتان. نحن نسير معاً على نفس الطريق والأسفار المقدسة تقول: «لا تتخاصموا في الطريق».

نظر الفلاح من كاراغارديه إلى المرأتين الغاضبتين نظرة تعاطف، وتنقلت عيناه من ابنة أخته إلى أخته في المسيح، وكان في عينيه توسل ورجاء أكبر مما حملته كلماته.

صاحت أولريكا بغضب: «يجب أن تسحب كلامها».

والتفتت إلى دانجل ومضت في حديثها، قائلة إنها بريئة وهي متأكدة من ذلك بيقين يعادل إيمانها بوجود الله في عليائه، فهي لم تر قملة على بدنها أبداً كما تذكر. في أيامها الخوالي عندما كنت تعيش داخل جسدها الخاطئ، كان من الممكن بين حين وآخر أن ترى شيئاً زاحفاً قد ضل طريقه إلى سروالها الداخلي، فالقمل يفضل الملابس الداخلية الصوفية ليتخذها بيتاً. ولكن منذ أن ولدت من جديد عبر إيمانها بالمسيح ظلت نظيفة وخالية من القمل. ودانييل نفسه هو الأدرى بذلك من غيره، وهو الأولى أن يعلم أن الهوام لا تعلق بجسد المسيح. وهو الأولى بالعلم أنه لا المسيح ولا أي من أتباعه أصيبوا بالقمل وهم يسعون على هذه الأرض — باستثناء يهوذا الخائن؛ فهي لا تستطيع الدفاع عنه، فهو كان بلا شك مرتعاً للهوام، ولكن الحشرات الطفيلية لا تعيش إلا على الأجساد الهرمة الخاطئة العفنة — وليس على حمل الله النقي البريء.

وبدأت أولريكا تفك أزرار قميصها: «سوف أتعرى بالكامل! ولن يجد أحد قملة واحدة على جسدي».

تدفق الدم إلى وجه كريستينا: «أليس عندك حشمة، أنت عار على النساء».

«لقد اتهمتني — ويستطيع من يشاء أن يتأكد بنفسه».

تكشف ثدياها بالكامل وهي تخلع ملابسها. أشاح كارل أوسكار بوجهه غاضباً بعض الشيء لأن مشهد الثديين البيضاويين أزعجه.

كانت أولريكا لتتعرى بالكامل وتكشف جسدها كله لولا أن دانجل أمسكها من ذراعها وأقنعها ألا تفعل. وكلمها في تلك اللحظة عن السلوك المسيحي الصحيح أمام أهل الدنيا، وحذرها من الكبر والعزة وما فيهما من إغراء خطير بإصرارها على التعري وإظهار جسدها، وهو آية من صنع الله، ولا يجوز استخدامه لغاية إثارة الشهوات الخاطئة لدى الرجال.

قالت أولريكا بإصرار: «ولكن يجب أن أبرئ ساحتي، ويجب أن تتفقد

إنجا—لينا ملابسي وتكون شاهداً غير منحاز، تعالي وانظري يا إنجا—لينا».

انسحبت المرأتان خلف الساتر الذي يفصل قسم النساء العازبات، وهناك، على الجانب الآخر من الحاجز المصنوع من قماش الأشرعة، أكملت أولريكا خلع ثيابها».

بعد هنيهة عادتا وكان يمكن قراءة نتيجة التفتيش على وجه أولريكا الذي كان يتهلل ارتياحا.

«تكلمي يا إنجا— لينا! هل وجدت عليّ قملاً؟»

«لا».

«هل وجدت ولو قملة واحدة؟»

«لا».

«ها أنتم قد سمعتم جميعاً! أنا بريئة وعلى كريستينا أن تجثو على ركبها أمامي وأن تطلب الصفح مني».

صاحت كريستينا بقرف: «ليس وأنا حية أسعى، وخير لي من ذلك أن أرمي بنفسي في البحر».

«تستطيعين أنت وزوجك أن تعريا بعضكما وأن تلتقطا القمل عن بعضكما البعض! ولكن الآن هل تسمعين؟ أنا نظيفة من الهوام وعليك أن تطلبي الصفح مني! لقد كفرت بحمل الله النقي البريء».

«أعلي أن أطلب الصفح منك أيتها الخاطئة العجوز العنيدة؟»

ردت أولريكا والشرر يتطاير من عينيها: «اركعي، وإلا سأقتلع عينيك».

تجهزت للانقضاض على كريستينا لولا أن دانجل وكارل أوسكار أمسكاها من ذراعيها ومنعاها.

لم تطلب كريستينا منها الغفران، ولكن وقفت بالقرب منهما امرأة أخرى كانت مستعدة لتجثو: كانت إنجا— لينا تشعر بالخزي والحزن وعلى وشك البكاء، وتحولت أنظار الجميع إليها. كانت تمسك بين السبابة والإبهام شيئاً رفعته إلى مستوى نظر زوجها. كان شيئاً يتحرك، لونه أصفر ضارب إلى الرمادي— قملة كبيرة سمينة— من قمل البدن.

«دانجل— عزيزي— انظر— أنا أيضاً — لدي —»

كانت أولريكا بريئة ولكن إنجا—لينا وجدت قملة في سروالها الداخلي. ووقفت في تلك اللحظة تتلمس يد زوجها وكأنها ترجو منه السماح.

تفحص دانجل أندريسون القملة التي رفعتها زوجته ليراها. وقال بصوت هادئ: هذا الحيوان أيضاً هو من صنع الرب. ولذلك لا يجدر بالبشر أن يكرهوا هذا المخلوق ويزدروه، بل يجب أن يتقبلوه بإذعان. لا بد أنّه أُرسل ليذكرهم بضرورة أن يغتسلوا ويحافظوا على نظافتهم في السفينة. لقد أرسل الله تلك الحشرة ابتلاءً لهم — كي يصلح حال الجميع.

بدأ كارل أوسكار يحس بدبيب عبر عموده الفقري. ذهب إلى منامته في مهجع العزاب وبدأ يخلع ملابسه، وسرعان ما وجد ما كان يبحث عنه.

وتبين شيئاً فشيئاً أن كل المسافرين في عنبر النوم مصابون بالقمل، كلهم إلا واحداً. كانت أولريكا من فوسترغوهل، المومس العجوز، هي الناجية الوحيدة.

٤

بدأت كريستينا فوراً عملية إبادة الحشرات الزاحفة. وشاهدت نساء يتحلقن ويلتقطن القمل عن ملابسهن ويقتلنه هرساً بأظفار الإبهام على لوح خشبي. ولكن ذلك كان يستغرق وقتاً ولم يكن مضمون النتيجة. وقد تبين الآن نفع الصابون المبروش الذي أحضرته معها، فقامت في مطبخ السفينة بغلي كل الملابس الداخلية في غسول صابون مغلي لا فرصة فيه لأي قملة بالنجاة. ثم أخذت مرهم الزئبق ودهنته على أبدانهم جميعاً، هي وزوجها وأطفالها. وباستخدام المشط دقيق الأسنان مشطت شعر أولادها مشطاً مبالغاً فيه حتى سال الدم من فروات رؤوسهم بسبب الأسنان النحاسية.

وقد أزعجها جداً أن أولريكا من فوسترغوهل استطاعت أن تمشي على

ظهر السفينة مرحة مزهوة بفضلها على غيرها من ركاب السفينة. ولكنها لم تصدق أن أولريكا نجت من عدوى الهوام لأن المسيح يعيش فيها، فالعم دانييل، بلا شك، أشد تقوى وتمسكاً بروح المسيحية من أولريكا — ومع ذلك لم يوفره القمل.

كانت قد أخطأت في اتهام أولريكا، وندمت على ذلك، ولكنها ما كانت لتجبر نفسها على طلب السماح من تلك المرأة، لأن فيه اعترافاً بأنها أقل شأناً من «المرحة»، العاهرة سيئة الذكر. من عليه طلب الغفران هو أولريكا — يجب أن تطلب الصفح من كل النساء في الوطن اللواتي أهانتهن عندما باعت جسدها لأزواجهن.

واعترفت كريستينا في قرارة نفسها نوعاً ما أن ما دفعها لاتهام أولريكا أنها شاهدت تلك المرأة تتبختر أمام كارل أوسكار، ومن السهل على المرء أن يتخيل ماذا كانت ستتصرف لو انفردت به في زاوية مظلمة. بالطبع لن يسمح كارل أوسكار لنفسه بالانزلاق في الغواية، لكن أولريكا كانت تملك قوة غريبة تأسر بها الرجال. كارل أوسكار رجل قوي البنية وقد قضى لياليه هنا على السفينة وحيداً. لا مجال لليقين هنا، ولا شيء مؤكد أمام تلك النظرة في عيني أولريكا عندما التفتت إلى الرجال، كارل أوسكار والآخرين، تلك العينان المقرفتان اللتان تشتعل فيهما الشهوة —عينان تشع منهما الدعوة للزنا.

وطلبت كريستينا الراحة في حقيقة أنهما ما أن يهبطان في أميركا سوف يتخلصان من أولريكا من فيسترغوهل.

وتبين أن عدد «الركاب بالمجان» على السفينة الشراعية «تشارلوتا» ذات الصاريين كان غير محدود—ومعظم هذه الحشرات توالدت أثناء الرحلة على الأغلب. كان هناك طلب هائل على مرهم الزئبق من صندوق الأدوية الخاص بالقبطان للقضاء عليها — لدرجة أن المساعد الثاني أعلن أن مخزون السفينة من هذه المادة كان شحيحاً حد الخطر، حيث تم توزيع العديد من البرطمانات.

لم يحصل أبداً أن تحدد من المذنب الذي جلب هذه الهوام المقرفة إلى

السفينة، لكن القبطان لورنتز قال لمساعده الثاني انه محتار بشأن السويد القديمة عندما كان الجميع، حتى القمل، يهاجر إلى أميركا الشمالية.

٥

تجول روبرت في كافة أنحاء السفينة وكان ملاحظاً دقيقاً. كان يستمع للأوامر التي يصدرها ضباط السفينة ويشاهد البحارة وهم ينفذوها، وتعلم معنى «فرد الشراع» و«رفع الشراع» وتعلم أن يميز بين ذراع المرفاع وحبال الدعم والبكرة وحلقة الحبال ومربط الحبال والأغطية والمعلاق والرافعة والإبحار نحو الريح والإبحار بحيث تضرب الريح جانب المركب. وقد تصادق مع صانع الأشرعة العجوز الذي زوده بكل المعرفة التي يحتاجها. وقد قيل له إن أشرعة ذات اللون الترابي لم تغسل أبداً—إلا عندما كان الله يشاء يغسلها بما ينزل من مطر ويجففها بما يرسل من شمس وريح. وعلم أيضاً أن أقوى الأشرعة في العالم هي التي كانت تصنع في يونسيريد في السويد، وكانت معروفة بين بحارة العالم باسم «أشرعة يونسيريد». وذكر له أيضاً أن تشارلوتا كانت تحمل شحنتها من الحديد الخام في القاع بحيث تغوص أعمق في البحر، ونصحوه أيضاً بأكل البازلاء والملفوف المخلل ما استطاع — وذلك كي لا يصاب بمرض الإسقربوط، وهو من أخطر الأمراض التي تصيب المهاجرين — بل إنه يقتل بعضهم خلال الرحلات عبر المحيط. ولكن عليه أن يكون حذراً ويأكل اللحم بكميات قليلة — رغم أن لحم الخنزير المملح هو الأقل خطراً ربما.

وحافظ روبرت أيضاً على علاقة وثيقة بالرجل صاحب المعطف المزركش والبنطال الضيق — وهو من كان يسميه أهل السفينة «الأميركي». وكان روبرت لا يتوقف عن طرح الأسئلة عليه حول الولايات المتحدة. كان يجد لديه جواباً عن بعض استفساراته، فيما كان الرجل يتجاهل الأسئلة الأخرى. وقال لروبرت بأن الرئيس الأميركي منعه من قول كل ما يعرف، فقد عرف من الأسرار فيما يخص الحكومة ما يحرمه من العودة للجمهورية لو أنه أفشاها. هذا التصريح أصاب روبرت بالحيرة.

كل ما يعرفه حتى الآن هو أن اسم الأميركي هو فريدريك ماتسون، وقد ذكّره هذا برجل آخر كان يحمل الاسم نفسه —فريدريك من كفارنتوربت الذي قام برحلة مشهورة من أميركا إلى غوتنبرغ واختفى من يومها. وظن روبرت أن الغريب في السفينة قد يكون روبرت ثرون — حيث أشيع أنه قد سافر بالبحر بعد ذلك. وقد أفضى روبرت بشكوكه هذه إلى يوناس بيتر الذي كان يعرف ثرون في صغره. نظر يوناس بيتر ملياً إلى رفيق السفر وهو غافل، وقال أخيراً إن هذا الرجل قد يكون فريدريك ثرون، المزارع الفار. كان نفس الطول تقريباً ووجهه يشبه وجهه. ولكنه لم يكن قد رأى الوغد منذ ٢٠ عاماً، ويمكن للمرء أن يتغير من الصبا إلى الرجولة. لم يستطع أن يحسم أمره. والآن بما أن الأميركي قال إن أبرشيته تقع في بلكنج، فقد يثبت أنه جاء من سمولاند، حيث إن فريدريك ثرون يكذب طوال الوقت، إلا في لحظات النسيان المؤقت، ولكنه في تلك اللحظات كان يحمر وجهه ويشعر بالخجل أنه قال الحقيقة، كما قال يوناس بيتر.

وتذكر روبرت أنه قرأ في مكان ما حول رئيس للولايات المتحدة — جورج واشنطن — أنه كان يقول الحقيقة دوماً، حتى أنه اعترف بقطع شجرة تفاح، وهم الآن يحتفلون بذلك اليوم في البلاد.

وقرر أنه يسعى ليكشف حقيقة فريدريك ماتسون، الأميركي. بعد أسبوع واحد في البحر، اقتنع روبرت بأنه ينتمي للبر، فكل عمل من أعمال البحارة تقريباً فيه درجة من الخطر. صحيح أن العمل في مزارع اليابسة صعب، لكنه لم يكن خطيراً بالمطلق. كيف يمكن لضباط السفينة أن يأمروا الملاحين بتسلق أعلى الصواري؟ صحيح أن البحارة يقومون بمناوبات الحراسة وينالون قسطاً من الحرية بين نوبة الحراسة والأخرى، ولكنهم لا يحظون براحة البال أبداً، ولا يمكنهم أن يرتاحوا تماماً، ليلاً أو نهاراً. إن الشخص الذي يخدم كبحار على متن سفينة لا يعود أكثر حرية من عامل مزرعة. فالمزارع واجبه رعاية الخيول ليلاً ونهاراً وأيام الأحد وباقي أيام الأسبوع بدون راحة. والبحارة على ذات الشاكلة يقبعون هناك في منامتهم في مقدمة السفينة، مزدحمين مثل سمك الرنجة المملح، حتى إن منامته وآرفيد في الإسطبل في نيباكن أفضل منها، حتى بوجود وفرة من بق الفراش.

يجبر عامل المزرعة على تناول سمك الرنجة المملح طوال الوقت، لكن البحار يجبر على أكل لحم الخنزير الزنخ في كل وجبة، وعلى العيش هنا عاماً بعد عام، محبوسا داخل السياج المحيط بسطح السفينة ولا يستطيعون أن يخطوا خطوة خارج تلك المساحة —أربعون خطوة طولاً، وثماني خطوات عرضاً.

المزارع يتمتع بحرية أكثر من البحار في البحر.

كانت هناك لحظات عندما كانت تملأ رأس روبرت نيلسون من كورفاموين أفكار أخرى عدا خطورة العيش والحياة المقيدة على ثلاثة أرباع سطح الكرة الأرضية: البحر. « ... لكن من يتعلم أن يفهم لماذا يشغل الماء هذا الحيز الكبير سيرى في ذلك دليلاً على قدرة الله ولطفه». كان يمضي ساعات أحياناً وهو ينظر إلى قمم الصواري. هناك في تلك الأعالي التي تسبب الدوار فوق السطح، تتطاول جذوع الصنوبر، تلك الأشجار المنقولة من الغابات البعيدة، وتلك الجذوع التي جاءت من شجر ينتمي لعائلة من الأشجار دائمة الخضرة. لقد خسرت تلك الصنوبرات أغصانها وتيجانها وأبدلت تلك بلباس من شراع، فترتدي حلتها الجديدة وتشمخ بفخار أكبر مما كانت عليه في الغابة. حرروها من أسيجتها الخشبية وأطلقوها في محيطات العالم لتبحر مدى الحياة. ولكن مقابل كل شجرة تنوب تقطع لعمل صاري، تظل مئات الأشجار ممسكة بجذورها، ومحكوماً عليها أن تظل هناك في الوطن، وقدرها الحياة هناك بما فيها من رتابة وكآبة.

هناك تقف، منذ خمسين أو ستين عاماً أو أكثر — ثم تقطع لتستخدم في عوارض البناء أو كخشب بناء منزل أو زريبة أو حظيرة. ثم تقبع هناك في عارها مئة عام أو أكثر لينمو عليها الطحلب كشعر غزير وتكسوها خضرة العفن، مع بقع بنية اللون خلفها روث البقر. تقبع هناك فارغة تملؤها أعشاش الصراصير. وببطء شديد، تتعفن هذه الأشجار في جدار الإسطبل القبيح، وعندما ينتهي عهد البناء في النهاية ويهدم، سيلقى بهذه الجذوع مع بقية الفضلات على كومة الأخشاب لتنتهي حياتها في النار وتسلم روحها تحت قدر فلاح يغلي البطاطس ليطعم الخنازير.

هذا هو قدر أشجار الصنوبر في الوطن.

لكن الأشجار المختارة لتصبح صواري للسفن ترفرف من حولها أشرعة المراكب وهي تقطع المحيطات، وهي تساعد الناس على الهجرة من قارة إلى قارة بحثاً عن أوطان جديدة. رؤوس الأشجار المجيدة تحمل الشراعات المجنحة، فهي عظام أجنحة السفن الشراعية. قد تنكسر وهي ما تزال شابة بسبب عاصفة أو حطام سفينة أو قد تغرق مع سفنها وهي عجائز، ولكن حياتها أبداً لا تنتهي في الدخان والرماد تحت قدر مليئة بالبطاطس وهي تعد طعاماً للخنازير. وعندما تغرق السفينة تتبعها الصواري إلى قعر البحر وتلقي بنفسها فخورة في أوسع وأعمق قبر في الدنيا.

هذا هو مصير شجر الصنوبر المستخدم في السفن.

مئة منها تظل صامدة وتقلع واحدة فقط لتبحر في اليم الذي يغطي ثلاثة أرباع الأرض.

ومقابل كل مزارع يهاجر عبر البحار إلى العالم الجديد، هناك مئات يمكثون في الوطن، حيث يقعدون في الإسطبلات المظلمة في العالم القديم، ويحملقون عبر النوافذ الصغيرة المنقطة بالذباب خلال أمسيات الأحد الكئيبة، متجذرين في مجتمعاتهم في الوطن حتى يموتوا ميتة ذليلة على سرير في ركن بكوخ جللته الطحالب أو كفقير في بيت رجل محسن.

هؤلاء هم الفلاحون الباقون في الوطن.

«...غَطَّتِ الأَمْوَاجُ السَّفِينَةَ...»

في بحر الشمال، واجه المهاجرون أول طقس قاسٍ.

بدأت الرياح بالهبوب في المساء —في منتصف الليل، قدر القبطان أن الريح ستكون عند تسع درجات، وفقاً لمقياس بيوفورت. والآن، طويت أشرعة تشارلوتا العلوية إلى الأسفل، وفي السجل كتب المساعد الأول: «عاصفة.»

١

روبرت:

استيقَظ. شيء ثقيل تدحرج عليه —جسد أخيه.

كان قد ذهب إلى النوم كالعادة في سريره إلى جانب كارل أوسكار. وقد حظي ببعض الوقت ليحلم. كان حلمه عن كلمة، «البحر الميت.»

كان قد وقف على سطح السفينة في الغسق عندما قال أحد البحارة، إنهم كانوا تقريباً في البحر الميت. وبدا الأمر مخيفاً —كما لو كانوا يبحرون فوق بحر حيث قُدِّر لهم الموت. وكان صانع الأشرعة قد أخبره ما يعنيه ذلك: أمواج من بقايا عاصفة سابقة —توابع أمواج، كما يمكن القول. كانت هذه هي أشباح البحر، عُباب مرعب أتى من مكان ما، حيث غرقت سفينة وذهبت إلى القاع منذ وقت قصير. وقد جاءت برسالة من أناس غارقين —يحكي فيها الأموات عن غرق سفينتهم.

أحد ما قال: البحر الميت هو النذير بالعاصفة؛ وقد تحول اتجاه الريح إلى الشمال الغربي.

حول السفينة نهضت هضاب عالية، يعلو قممها البياض، منتفخة مثل الرغيف في الفرن. وفجأة، اندفعت موجة فوق سطح السفينة حيث كان روبرت

يقف، مبللة ساقي بنطاله إلى ما فوق الركبتين. وأصابه الخوف، وأراد أن يهرب، عندما سمع أحد البحارة —فتى صغيراً بعمره تقريباً— يضحك منه ومن سرواله المبتل. وعندها، تظاهر روبرت بأنه غير مهتم، وبقي واقفاً في مكانه هناك.

حتى الآن، كان قد عرف البحر دفَقات لطيفة تتداح على جسم السفينة في الليل. لكن البحر اللطيف الودود يتغيّر الآن: ثمة وحش بآلاف الحدَبات المضطربة العالية يلتف حول السفينة. وسمع صوت مساعد القبطان: أغلِقوا الكوة الرئيسية!

كان على وشك اعتصار الماء من ساقي سرواله عندما أصبح سطح السفينة كله فجأة منحدراً حاداً زلِقاً. وقد مالت تشارلوتا العملاقة إلى جانب. قبض على سياج السطح بكلتا يديه حتى لا ينزلق، وهناك تعلّق، مُنتظراً بقلق أن تعود تشارلوتا إلى الاستواء —وهو ما فعلته، فقط لتعود فتميل على الجانب الآخر: قاع التلة أصبح قمتها.

أراد روبرت أن يظل على السطح، ولم يرد أن يبدو جباناً. لكن شعوراً بالدوار سيطر عليه، وخالطه إحساس كما لو أن معدته كانت تتدحرج طليقة في داخل جسده. ما هذا؟ ما الذي أصابه؟ ألم يقرأ في كتابه «تاريخ الطبيعة» عن هذا الطارئ الذي تغلّب عليه؟: «هذه الحركة للسفينة المتأرجحة في البحر، تسبب للناس غير المجربين الذين يسافرون عليها....»؟ والآن، لاحظ أن اثنين فقط من الركاب بقيا على السطح؛ إنه لم يكن الأكثر جُبناً. ثم هبط إلى الأسفل واستلقى على دكّته.

سُمع صوت صيحة عظيمة ولغط صادرين من الجهة الأخرى من قماش الشراع، حيث تقيم النساء. كانت إحداهن مصابة بحروق شديدة من ماء ساخن صامت اندلق عليها بينما تعد وجبتها المسائية في مطبخ السفينة. وقد انسكب على قدمها إناء ماء يغلي عندما بدأت السفينة بالتأرجح. وصرخت المرأة بصوت عال: «سوف أشكو للقبطان! يجب أن يعرف القبطان عن هذا!» لكنّ صوتاً خشناً سُمع من قسم الرجال: «دجاجات ملعونات، هؤلاء النساء! هل يجب على القبطان أن يُمسك أوانيهنّ؟ لماذا بحق الجحيم لا يكُنّ أكثر احتراساً؟»

كثيراً ما كانت الفتاة الشابة المصابة بخُرّاج في حنجرتها تئن بهدوء — لكن

روبرت لم يسمع أنينها في هذه الليلة.

ثمّ، ذهب لينام، لكن الكلمة كانت قد اخترقت ذهنه مثل مثقب، شاقّة طريقها إلى الداخل: بحر ميت— البحر الميت— بحر ميت!

كان الوقت ليلاً، والظلام سادرٌ ودامس. استلقى على الجانب الداخلي من السرير، وقد تدحرج فوقه جسد أخيه الثقيل حتى لم يستطع الحراك. كان كارل أوسكار نائماً. واستطاع روبرت أن يسمع الرجال يتقلبون في أسرّتهم —يشخرون، يئنون، يصفرون بأسنانهم، ينفُخون، يتقيأون، يظرطون، يتحدثون في نَومهم، يصلون، يُقسِمون ويلعنون.

انقلب كارل أوسكار عائداً إلى مكانه، وبدت حشيّتهما كأنها ستغرق. تمسك روبرت بكتف أخيه بقوة —كان سريرهما يغوص. لم يكن يوقفه شيء —والآن يصبح مستلقياً فوق أخيه وكانا يغرقان معاً، باتجاه قاع البحر!

تشبث بكتفي أخيه واستطاع أن يهمس: «كارل أوسكار—»

ثمّ توقف سريرهما عن الغوص —كان يرتفع. ومرة أخرى انقلب جسد أخيه فوقه. الآن، جاء دوره ليغرق، وأخوه فوقه. ولم يكن ثمة قاع يوقفهما —كانا يغوصان ويغوصان. ولا بدّ أنهما أصبحا الآن غارقين عميقاً تحت الماء —لا بدّ أنهما ينحدران إلى تَحت!

سمع نفسه يصرخ: «إننا نغرق.»

وبدا كارل أوسكار وكأنه يستيقظ —وغمغم، نصف نائم: «إنها العاصفة فقط، ابقَ هادئاً.»

وقد عصف البحر. وسُمعت دمدمته غير منقطعة على للجانب الآخر من هيكل السفينة، مثل صوت الرعد الذي يتلو البرق. كتلة الماء في الخارج، التي كانت حتى هذه الليلة تحمل سفينتهم على ظهرها بهدوء وصبر مثل كائن مُثقل منصاع، أصبحت الآن بهيمة وحشية، يندفع من بين فكيها الزبد، تجيش وتهتز بكل أطرافها المحدودبة، كما لو لتلقي عنها حِملها. وكانت قد فحّت في وجه روبرت مُسبقاً —وقد تعلق سرواله المبتل بجانب السرير: لقد لعقه وحش البحر بلسانه المبلل.

وها هو يستلقي الآن هناك ويغرق: لقد ابتلعه البحر. لقد لعق ساقيه في المساء، لكنه ابتلعه الليلة.

أراد أن يتقيأ. بدا أنّه ليس ثمة هواء حوله، ولم يستطع أن يتنفس.

«كارل أوسكار! هل غرقنا؟ هل غرقت السفينة تحت الماء؟»

لم يكن الماء قد وصل إليهما بعد. ولكن، وبمجرد أن ينكسر هيكل السفينة، عندما تتشق وتفترق الألواح، عندما تنفتح الثقوب في الحاجز —عندئذ سوف يندفع البحر ويطويهم في عبابه.

«كارل أوسكار! ألا تستطيع أن تشعر بأننا نغرق؟»

«إنه فقط دوار البحر.»

استمر الشقيقان بالتدحرج فوق بعضهما البعض. وسريرهما بالارتفاع والانخفاض. وفسر الشقيق الأكبر: في العاصفة تهتز السفينة مثل المَهد.

«لكن الجوّ خانق في الداخل هنا الليلة،» قال كارل أوسكار لاهثاً، وانقلب على جنبه الآخر.

كان بوسع المرء أن يسمعه يعاني هو الآخر. لم يكن قد أصابه دوار البحر بعد، وفي كل صباح وبانتظام، كان يشرب شرابه المصنوع من بذور المُرّار على معدة فارغة؛ وكان متيقناً من أن هذا هو ما أبقى جسده يعمل بشكل حسن.

الآن، أغلق البحارة الكُوّة، بينما كانت الأمواج تجتاح سطح السفينة وتكنسه بلا هوادة. وبفعلهم ذلك، أغلق البحارة أيضاً كل الثقوب الصغيرة التي كانت تسمح بدخول الهواء إلى المخبأ. ولذلك أصبح الجو كثيفاً خانقاً هنا في الداخل الليلة، فكر روبرت. كان الهواء الذي يستنشقه مُستخدماً من قبل. لقد استخدمه رفاقه المسافرون، رجالاً ونساء، امتصوه إلى صدورهم عبر حناجرهم، وحبسه الرجال المسنون في أفواههم القذرة. لم يعد هواءً بعد الآن، لم يكن ثمة هواء. استنشق روبرت —هذا هو النفس الأخير، لم يعد ثمة المزيد من الهواء — إنه لا يكفي للجميع، لم يعد ثمة هواء لنفَس آخر، هذا هو نفسي الأخير في الحياة. ربما نفَس آخر — إذا استهلكت قدراً قليلاً فقط. هذا هو نفسي الأخير — في المرة التالية لن أستطيع...

جفّ الماء في حلقه، ووهَن من شدة الرعب: كان يُحتضَر.

ناضل من أجل الهواء في اهتزازات قصيرة، ضعيفة: «كارل أوسكار —إنني أختنق حتى الموت —»

«لديك من الهواء بقدر ما لي أنا — ابقَ هادئاً.»
وارتعش فوقَه ضوء؛ كان يوناس بيتر قد أشعل شمعة شحم.
وسُمع صوت غاضب يهتف عبر العتمة: «لا تتسبب بحريق، أيها الوغد.»
«لا أستطيع أن أرى أين أتقيأ،» قال يوناس بيتر لاهثاً، «القيء يسقط بجانب الدلو.»
لكنه نفخ على الشعلة وأطفأتها قبل أن يفرغ من التقيؤ.
واستمر روبرت بالتنفس؛ وبدا الهواء كأنه ينفد مع كل نفس ينهله، لكن كان هناك دائماً قدر يكفي لنفَس آخر. وكان الناس حوله ينفخون، يُقسمون، يتقيأون، يُصلّون، يئنّون، وينتحبون.
أبحرت تشارلوتا العملاقة قدُماً بهم جميعاً، شاقّة دروب الليل، فوق بحر تلعق ألسنته الرطبة المُهسهِسة السفينة من جوانبها كافة. كان الليلُ حالكاً وبلا نجوم، تدثره الغيوم المتدافعة الخفيضة. وكان مصباحان يشتغلان على سطح السفينة: الأخضر على المَيمنة، والأحمر على المَيسرة. مصباحان هزيلان صغيران على بحر أسود مغضب، ضوءان في عالَم صغير يتحرك فوق غياهب ماء هائل هائج.
ومع ذلك، وفي هذا العالَم الصغير، عاش ما يقارب مئة شخص، مكتظين ومزدحمين.
استمع روبرت إلى أصوات الأمواج المتكسرة: كانت تزمجر، تنفرش، وتتدفق بينما تجتاح السطح من فوقه. كميات عظيمة من الماء جاءت مندفعة، متصادمة باضطراب واضح، وساقطة. وعندما انكسرت موجة على السطح، كان الصوت يتضاعف إلى زمجرة رعد صامّة مثل قبضة هائلة تنهال على أذنيه. كان الماء العاصف المتلاطم يجري في جداول صغيرة على ألواح خشب السطح، متدفقاً مثل نابض مشدود عائداً إلى بيته. كانت موجهة تعلو، وتكسر نفسها على هيكل السفينة، ثم تسقط عائدة إلى البحر، ثم تعقبها أخرى —ارتطام مدوٍّ، والماء يلقي بنفسه على السطح، ثم تعقبه الندمدمة، تنهيدة عملاقة، خرير ماء جارٍ. وهو استلقى هناك واستمع إلى موجة تتبع الأخرى، وفي كل مرة استطاع أن يسمع كيف تحرر السفينة نفسها من لسان البحر الذي يجلدها مثل

السوط، وتفلت من فم الوحش الفاغر. كانت السفينة تشارلوتا، السفينة الشراعية ذات الصاريين، ما تزال تعوم.

بكى طفل رضيع باطراد في الجهة الأخرى من المهجع. وبدا صوته أشبه بمواء قطة معذّبة. قطة — لم يكن صوت طفل هو الذي سمعه يبكي، كان صوت قطّة. القطة الذي كان قد أغرقها ذات مرة في جدول المطحنة، القطة في الكيس الذي لم يقبل أن يغرق. كانت القطة هنا وتختنق ببطء، وتموء بألم. ولن يغرق الكيس قبل أن يرمي الكثير من الحجارة عليه. وقد ماءت وماءت بلا توقف، ماءت لسنوات كثيرة، منذ جرى إغراقُها. والآن، ها هي ذي تموء هنا، خلف الستارة، بينما يستلقي هو هنا ويختنق بدوره، مُغلقاً عليه في كيس، غارقاً —.

إنّ عقابه لا مفر منه: يجب أن يموت بنفس الطريقة التي ماتت بها القطة.

تشبث العرق بجسده كلّه، مثل قماشة باردة مبتلة على الجلد. ضم يديه، لم يكن قد قال صلواته المسائية في الليلة الفائتة. وعندما انتهى، أمسك بكتفَي أخيه مرة أخرى. «كارل أوسكار —أرجوك. أنا خائف.»

«ابقَ هادئاً! سوف تنتهي العاصفة.»

«لكنني خائف. سوف أموت.»

«لا أحد يستطيع أن يفعل شيئاً لك — إنك تعي هذا القدر.»

كلا. لا أحد يستطيع أن يفعل شيئاً. كل هؤلاء الأشخاص المائة داخل هيكل السفينة كانوا مجبرين على الاستلقاء والانتظار، ولم يكن بوسعهم فعل أي شيء آخر. ربما تغرق السفينة بهم جميعاً، ولن يتبقى أيّ أثر على وجه الماء، لا أحد في العالم كله سيعرف كيف ماتوا، ولن يستطيع أحد أن يعثر على قبرهم. في غضون بضع دقائق، سوف يختفون جميعاً من العالم، ويبقون تائهين في الطريق إلى الأبدية؛ وسريعاً ما سيكون الأمر كما لو أنّهم لم يُوجدوا أبداً. ولا تستطيع روحٌ أن تفعل شيئاً إزاء ذلك. ليس ثمة من يستطيع أن يمدّ إصبعاً ليساعدهم. هنا سوف يموتون، في داخل الكيس عندما يندفع البحر، ويملأ أفواههم بالماء، يملأ عيونهم، وآذانهم وحناجرهم، خانقاً إياهم مثلما اختنقت القطة في كيس جدول المطحنة.

لم يكن ثمة سوى الله يمكن أن يتوجه المرء إليه.

«كارل أوسكار —»

«ماذا تريد؟»

«لقد أغرَقتُ قطة في الجدول عندما كنت صغيراً. وقد عانت كثيراً قبل أن تموت. هل تظن أن الله — سيسامحني؟»

«أيّ هراء هذا؟»

«أستطيع أن أسمع القطة تموء. هنا في الداخل.»

«لقد فقدتَ رُشدك.»

لكن روبرت صلى طالباً من الله العفو على ما فعله بالقطة في جدول المطحنة. وبعدها، شعر بأنّه خوفه قد انحسر.

تتابعت أنفاسه في لهثات قصيرة. لكنه شعر فجأة بأنفه وفمه وقد انسدّا. كان سائل سميك لزج يغطي وجهه؛ كان شيء من الدكة التي فوقه ينقّط عليه. وفي العتمة، لم يستطع أن يرى ما هو —لكن الرائحة قالت له كل شيء.

غمرته رائحة القيء النتنة. نهض، وخرج من سريره وهو يتعثر فوق جسد شقيقه. إلى الخارج... إلى الخارج! كان سيموت في هذه اللحظة ذاتها، إذا لم يخرج على الفور. تحسّس طريقه في الظلام، بين الأسرّة المتقاربة لرفاقه المسافرين. وكانت الأرض من تحته تمور —الأرض ترتفع، وهو يزحف متسلقاً التلّ. وصل إلى ممر السفينة الضيق كما لو كان يتحرك على ركائز. وكان ينزلق في القيء الذي يتراشق على وجهه، وبصق وجفف نفسه بيديه، وانتحب. خارجاً. خارجاً إلى العراء! هنا سوف يموت. اقتحمته النتانة القذرة، ودخلت أعمق في حنجرته، وملأته وخنقته. أعلى — أعلى إلى السطح!

وصل السلّم المفضي إلى الكوّة، وحاول أن يزحف صاعداً بيديه وقدميه. لكن الكوة كانت مغلقة بإحكام، وسحب ودفع، ولم يستطع أن يحرّكها، ولم يستطع أن يذهب أبعد من هذا. كان الكيس مغلقاً محيكاً جيداً معاً، ولم يستطع الخروج، ينبغي أن يختنق حتى الموت في الأسفل هنا. لم يستطع أن يسمع البحارة على السطح وهم يصرخون ببعضهم البعض: يا لها من عاصفة من الجحيم! وهو مختبئ هناك وآمِن. يا له من وغد!

إننا في بحر ميت — بحر ميت — بحر ميت.

بقي روبرت متشبثاً بالسُلّم، يتقيأ. تعلق هناك حتى شعر بذراعين قويتين

تلتفان حول جسده، ذراعين سحبتاه وأعادتاه إلى سريره.

«إنه دوار البحر فحسب,» قال كارل أوسكار.

لكن روبرت شعر خلال أهوال هذه الليلة العاصفة الأولى، ولأول مرة في حياته، أنه كان يشارك في الموت.

٢

كريستينا:

كانت الأرجوحة هنا في الحظيرة جاهزة. كلا طرفي حزام الثور كانا مربوطين عالياً بعوارض السقف. كانت الأرجوحة عالية، حتى أنها أحسّت بالدوار عندما نظرت إلى الأعلى. وقد اعتادتا أن تجلسا كلتاهما —بنتان معاً— تمسك كل منهما بالأخرى. وكان الأمر أكثر أمناً بهذه الطريقة، غير أنهما تصرخان كلما ارتفعت الأرجوحة عالياً. إنك تقفز إذا خِفت. والآن، ستعتلي الأرجوحة وحدها، وكان ذلك خطراً.

لطالما كنتِ دائماً تحبين ركوب أرجوحة، قال كارل أوسكار.

لكنها سقطت ذات مرة عن الأرجوحة وكسرت ركبتها، وتغلغلت فيها الغنغرينا وأرسلوها إلى بيرتا في آيديمو. وجاء كارل أوسكار إلى المطبخ؛ كان رجلاً طويلاً بأنف كبير. وهي بقيت في مقعدها كل الوقت الذي قضاه هناك، لأنها كانت تعرج عندما تمشي — ولسبب ما لم ترده أن يراها وهي تعرج. لكننا الآن سنتزوج، قال، وعندها حاكت غطاء سريرها العرائسي الأزرق.

لو أنها لم تسقط عن الأرجوحة، لما أرسلوها إلى بيرتا في أيديمو، حيث التقت بكارل أوسكار، ولا كانت معه الآن على السفينة في طريقهما إلى أميركا الشمالية. لقد تقررت كل أحداث حياتها في ذلك اليوم الذي صنعت فيه أرجوحة من أحزمة الثور في الحظيرة.

لا يجب أن يلوث أي شيء غطاءنا العرائسي هنا؛ ينبغي أن يبقى غطاؤنا العرائسي نظيفاً — يجب أن نستخدمه في أميركا، عندما نبني عشنا الجديد.

كانت تعتلي أرجوحتها — أخيراً أصبح بوسعها أن تركبها بقدر ما تشاء، ولا يقول أحد كلمة عن ذلك. لكنها يجب أن تتشبث بيديها الاثنتين، وقد ارتفعت أعلى وأعلى، وتأرجحت إلى السقف، وكانت الأرض بعيدة جداً تحتها حتى أنها

شعرت بالدوار — وتأرجحت مرة أخرى، هابطة إلى الأرض. إذا سقطت، فإنها ستقتل نفسها بالتأكيد. ولذلك، تتشبث بعناد بالحبال، وهما تجرحان يديها، وذلك يؤلم.

من الخطر التأرجح بهذه السرعة — كان الصوت يهمهم في أذنيها، يجب أن تبطئ السرعة. لكنّ ذلك كان مستحيلاً. ماذا يجب عليها أن تفعل؟ لم تستطع أن تتحكم بقدميها؛ ربما تسقط بسهولة. كان من الآمن بكثير الجلوس في الأرجوحة، عندها يستطيعان أن يتشبثا ببعضهما البعض. لماذا لم يأت كارل أوسكار؟ أرادت أن تتشبث بكارل أوسكار.

هنا تجلس فوق الغيوم — وهناك، عميقاً أسفل منها، كانت أرضية الحظيرة.

صرخت؛ ينبغي أن توقف الأرجوحة.

أيقظتها صرختها. كانت ليل—مارتا تنام على ذراعها وتئن في نومها، مثل جرو صغير. وبدت يداها الصغيرتان وخداها دافئة وناعمة. الصغار دائماً دافئون، وهم يدفئون أيدي أمهاتهم. كان أولادها معافين، فليتقدس الربّ. وكانوا كلهم في طريقهم إلى أميركا، حيث سيستقرون ليبنوا بيتاً جديداً.

يجب أن تكون حذرة حتى لا يسقط أيّ شيء على غطاء عرسها. لكنه لم يعد لديها شيء لتتقيأه —آخر مرة كان القيء أخضر، مثل اجترار البقرة، إفراز مرارة بحت. والآن انتهى، عند وقت ما يجب أن ينتهي — مع أنه طالما ظل لديها شيء تتقيؤه، كانت تشعر أفضل. الآن لن تشعر بالتحسن.

ثمة أولاد يبكون، لكنهم ليسوا أولادها. ربما تكون إيفا، ابنة إنجا—لينا الصغيرة. المسكينة إنجا—لينا، ابنتها الصغيرة مريضة جداً. ولم يبلغ عمرها الستة أشهر فقط بعد. المسكينة إنجا—لينا لديها الكثير لتعتني به، وليست هناك مساعدة من دانجل. وهي تقتل نفسها من أجله.

الآن، تركب كريستينا الأرجوحة مرة أخرى. تطير عالياً في الهواء، تهوي، وتتأرجح جيئة وذهاباً. يلقى بها في الفضاء، وراءً وأماماً، تتشبث بكلتا يديها، برعب. إنها تريد أن تقفز من السفينة. إنها تريد أن تقف على الأرض مرة أخرى.

كم كانت بعيدة عن الأرض؟ نظرت إلى الأسفل. كانت الأرض قد اختفت!

اجتاحها الرعب، وتمسكت يداها بألواح السرير القاسية، بيأس — بينما السفينة تتعثر وهي تغرق، تغرق. ولم تعد هناك أي أرض تستقبل قدميها — كانت تهوي، ولم يوقفها شيء.

لأنّه لم يكن هناك قاع.

أوه — ينبغي أن تترجل، يجب أن تستريح، يجب أن تستلقي وتستريح على شيء، شيء يمكن أن تقفز عليه، شيء ناعم ودافئ — ذراعين يمكن أن تعانقاها. ينبغي أن تصل إلى الأرض.

لكم كانت عطشى! حنجرتها تحترق، وفي فمها تمضغ الرماد والجَمر. لكنها لم تكن تستطيع أن تمدّ يدها إلى جرّة الماء التي تقف بجوار السرير. لم تكن لديها القوة لتحرك يديها، لتحريك قدمها أو يدها. إنها لن تستطيع أن تتحرك ثانية إلى الأبد.

«دوار البحر أصعب على النساء المتزوجات... وعندما تذهب امرأة حامل إلى البحر، بلا تجربة مع البحر والإبحار...»

لكن ذلك لا يهمّ، لم يعد أيّ شيء يهمّ مرة أخرى، لا شيء يمكن أن يحصل لها بعد. ومهما حدث، فإنها لن تحاول أبداً أن ترفع رأسها، أو حتى يدها. كانت لديها أمنية واحدة فقط: أن تستلقي هنا، حتى ينتهي كل شيء في نهاية المطاف.

كانت الزوجات اللواتي لهن أولاد يعانين بشكل مضاعف بسبب الأولاد. سوف يسافر بلا أجرة، الطفل الصغير، كان كارل أوسكار قد قال؛ سوف يخدع الربّان. لكنها دفعت الأجرة من معاناتها. أبناؤهما حولها، وواحد في أحشائها — ذلك الذي لم يولد بعد — ترى، من أي نوع سيكون؟

لكنّ ذلك لا يهمّ. الآن تريد فقط أن تصل القاع. يجب أن تكف عن التأرجح، وهي تريد أن تجلس على أرض صلبة، تريد أن تستريح على شيء ناعم. لكن لم يكن ثمة قاع.

سوى قاع البحر.

كان البحر عميقاً، والماء ناعماً، كان قاع البحر ناعماً. آه، لَكم ستستريح هناك!

يستطيع الشخص الذي يخاف عندما ترتفع الأرجوحة عالياً أن يقفز عنها. والفتيات الأخريات قفزن. لكنها أحبت دائماً أن تحلق عالياً. ولم تعتد أبداً أن تخاف.

ركبت كريستينا من كورباموين على أرجوحة. أُلقيَ بها إلى الغيوم، وسافرت في فضاء بلا نهاية أو بداية، وغرقت في أعماق بلا قاع.

وعن هذه الأرجوحة، لم تستطع القفز.

٣

إنجا—لينا:

حدث ذلك عندما كانت تقف في مطبخ السفينة وتقلي لحم الخنزير. قطعت قطعة من الجانب، ووضعت الشرائح في إناء القلي. ثم جاء الشيطان إليها وهمس: ينبغي أن لا تعتمدي على ذلك، لا تظني للحظة أنه صحيح. ينبغي أن لا تعتقدي أنك أكثر من أي أحد آخر... وفجأة أصابها الدوار والوهن. اندفعت إلى الزاوية حيث كانت الدلاء، وتقيأت.

ربّما تكون رائحة لحم الخنزير، التي تنز هناك في المقلاة. كان الدهن أصفر وله رائحة نتنة عندما وضعته فوق النار.

أُجبِرت على الذهاب إلى الأسفل وإراحة رأسها. وحولها في كل مكان كان الناس مرضى. والرجال والنساء يتقيأون مثل القطط. لكنهم كانوا أولاد العالَم، — أما المؤمنون فقد تمّ حفظهم من المرض. ومع ذلك، أصابها نفس المرض مثل غير المؤمنين. صلت لله كي يساعدها في ضعفها الجسدي، ثم وضعت قدراً إضافياً صغيراً من الكافور في الجراب الذي تضعه على معدتها —علاجاً للمرض— وتناولت ملعقة من الدوار— «أربعة أنواع من القطرات.»

على العشاء، لم تستطع أن تتناول لقمة واحدة. نما لحم الخنزير النتن وأصبح أكبر في فمها. لم يكن طعم لحم الخنزير في السفينة طيباً أبداً، وهو اليوم لا يُؤكل. لكنها لم تجرؤ على أن تقول لزوجها كيف تشعر بالأمور، يجب أن لا يلاحظ أوجاعها الجسدية، يجب أن تبقي على مرضها سرّاً.

سألها دانجل لماذا وضعت طعامها جانباً. وأجابت بأنها أكلت بعضه في المساء عندما جهزت لقمة للأولاد.

اعتقدت أنّ الأمر سرعان ما سيمرّ. يجب أن تكون في حال حسن من أجل زوجها وأولادها. وابنتها الصغرى مريضة جداً — ولا أحد يعرف كيف ستجري معها الأمور.

جاءت إليها أولريكا من فوسترغوهل ونظرت بتساؤل، «وجهكِ تعلوه الخضرة! هل تتألمين يا إنجا—لينا؟»

اعتصمت الزوجة من كاراغاردي بصمتها. كيف يمكنها أن تقول الحقيقة؟

أحسّت أولريكا بأنها على ما يرام تماماً؛ فقد استمتعت بالبحر كما تستمتع باليابسة. والآن، أصبحت عملياً هي المرأة الوحيدة التي تشعر بأنّ أحوالها جيدة في المكان. هناك تستلقي كريستينا من كوباميون وتعاني بمرارة. هناك تستلقي وتنخُر في سريرها مثل خنزيرة تخنُص. كل الذين يعيشون في الجسد أصبحوا مرضى، لا رأفة لدى الرب بالخاطئين. لكنها هي، أولريكا، كانت حرة. إن الذي يعيش مع الإيمان الحقيقي يستطيع أن يحتمل البحر والطقس. الذي يعيش والمسيح في جسده لا يشعر أبداً بأنه مريض.

ولكن، كيف هو الحال مع إنجا—لينا؟ ألَم تكن من بين الذين اختارهم الله؟

«هل أصابكِ دوار البحر؟»

«أخشى أنه كذلك،» همست إنجا—لينا.

«هل يمكن أن يكون هذا صحيحاً؟»

«نعم — وماذا سيقول دانجل إذا لم أستطع النهوض؟ ماذا عليّ أن أفعل؟»

كانت أولريكا بخير وبصحة وسعادة كاملتين. وبذلك يمكنها أن تعين غير السعيد. والآن طلبت من إنجا—لينا أن تحتفظ بمعنوياتها عالية. ربما كانت هناك بقايا من الجسد القديم متروكة فيها، ويجب عليها أن تتخلص من هذه البقايا. كانت أجزاء مذنبة على أي حال، ومن الجيد التخلص منها؛ سيكون من المفيد لها أن تتقيأ قليلاً. سوف تشعر بأنها أطهر وأكثر خفة وسعادة بعد ذلك. وعندما لا تتبقى أيّ قطعة صغيرة من الجسد القديم فيها، عندئذ سوف يشعر المسيح بالراحة أكثر وبأنه في بيته في داخلها.

غادرت أولريكا إنجاـلينا لتشاهد الدمار الذي يلحقه دوار البحر بأبناء الأرض. وبقيت إنجاـلينا في سريرها وبكت — بكت من الحزن وقد أصبحت غير قادرة على احتمال دوار البحر، بحيث تُرضي زوجها.

وسرعان ما استطاع دانجل أن يرى بعينيه ما حدث لها. فبينما كان يقترب من سريرها بعد بضع دقائق، تغلب عليها المرض، واضطرت إلى الاستعانة بالدلو بسرعة.

«زوجتي الغالية،» صاح بذعر.

«نعم.. يا دانجل العزيز-!

«أكان هذا هو السبب في أنك لم تتناولي طعامك؟»

«نعم، هذا هو السبب، عزيزي دانجل.»

«وقد ذهبتِ إلى النوم؟ هل إيمانكِ ضعيف؟»

«زوجي العزيز الرائع، سامحني.»

«هل استمعت إلى العدو؟ هل أصابك الشك...؟»

لكن التقريع في صوت دانجل أندريسون كان توبيخاً خفيفاً لطيفاً فحسب.

استلقت إنجاـلينا في سريرها وتمسكت بيد زوجها، باكية بيأس. وباحت من بين النشيج: نعم. ذلك صحيح، لقد خالطها الشك.

أطرق دانجل برأسه كما لو أنّه تلقى ضربة قوية: في كل لحظة يغيب عنها الاحتراس، يكون الشيطان قريباً، يحاول إغواء وخداع خاطئ مسكين، ويجعله يشك بأن الله يمكن أن يساعده في أوقات المحن والاضطراب.

لقد اعترفت زوجته الآن بالحقيقة كلها: في عقلها البسيط، تساءلت أحياناً إذا كان صحيحاً حقاً أن أولئك الذي يتبعون تعاليم آكي سفينسون يمكنهم أن يفلتوا من دوار البحر في الرحلة إلى أميركا. فكرت بأن ذلك يبدو غريباً شيئاً ما، ولم تؤمن بأن التساؤل خطيئة. واليوم، عندما وقفت في مطبخ السفينة، ورأت الأمواج الهائلة، وسمعت العاصفة تستمر بحيث تتقافز السفينة مثل إناء الفخار على سطح الغمر، شعرت بالخوف. شعرت بأنها مريضة في معدتها. كانت تقف عند الموقد، تقلب شرائح لحم الخنزير، عندما هاجمها الشك في أسوأ حالاته بعنف. ومرة أخرى تساءلت عما إذا كان يمكن أن يكون ذلك صحيحاً —ذلك الأمر عن دوار البحر. لم تعرف ما تصدق بعد، لم تستطع أن تتكل على

عدم الإصابة بالمرض، لأنها أحسّت في داخل جسدها بأنها على وشك التقيؤ. ذلك هو السبب في أنها شرعت في الشك.

الآن أدرك دانجل أن الشيطان هو الذي جاء إليها عندما كانت تقلي لحم الخنزير. لكنها لم تميّزه للوهلة الأولى.

«إنه دائماً صعب على التمييز.» قال دانجل، «ولكن، ألا تعتمدين على ربك يا إنجا—لينا؟ ألا تعتقدين أن لديه القدرة على حفظك من دوار البحر، إذا أراد؟»

نعم، كانت تؤمن بذلك بالمطلق. لقد تساءلت قليلاً فحسب، بعقلها البسيط، قليلاً جداً فحسب. لم تفكر بأن ذلك يمكن أن يُحدث أيّ فرق —إذا تساءلت وتعجبت، قليلاً فقط...

«لكن يجب أن تعرفي أنه لا ينبغي للإنسان أن يتساءل أو يستغرب! لماذا لم تغلقي أذنيك عن سماع النفس الأمّارة.»

أصبح صوت دانجل أكثر حِدَّة؛ لكنّ حزنه ظل أعمق مع ذلك، وقدم لزوجته اعترافاً ورعاً: ينبغي أن لا تتخلى أبداً أبداً عن الإيمان، ينبغي أن تتشبث به دائماً. القليل من الغفلة، وربما تسقط وتضيع؛ وهي كانت قليلة الحذر بينما تحضر الوجبة في العاصفة. لكنه يستطيع أن يفهم ذلك.

احتاجت إنجا—لينا إلى التقيؤ مرة أخرى، وأمسك زوجها لها الدلو.

وعندما انتهت قالت، كما لتعطي لنفسها العُذر: «ربما بدأ المرض لأن أمعائي قاسية جداً. إنني لم أُخرج منذ عدة أيام.»

«إليس هذا دفاع الخاطئ يا إنجا—لينا؟»

«كلا، يا عزيزي دانجل، أعرف أنني كنت سأتحسن لو أنني أفرغت أمعائي.»

«لو أراد الله، لكانَ لَكِ فرَج،» أجاب الزوج.

«نعم، ذلك ما أؤمن به، بالطبع.»

«لكنك لا تتكلين على الرب إلهك!»

وقد أرادت ذلك. لكنها تمنت، كثيراً، لو حصلت على ربع غالون من اللبن لتشربه هنا على السفينة. لطالما ساعدها اللبن عندما تقسو أمعاؤها على

اليابسة. ودائماً، مكنها شرب ربع غالون من اللبن في اليوم على إبقاء أمعائها في حال حسن.

«لا تقلقي بشأن الأمور الدنيوية ولا تفكري بها الآن، يا زوجتي العزيزة،» نصح دانجل، وربّت بهدوء على يد زوجته المصابة بدوار البحر. «يجب عليك الآن أن تصالحي نفسك مع يسوع. افعلي كما تفعل أولريكا. إنها تشعر بأنها جيدة وعلى ما يرام. إنها تؤمن بأن الرب يساعد المخلصين له في البحر. إنها تتشبث بإيمانها.»

وشعرت إنجا—لينا بندم عميق، ورجت زوجها أن يسامحها على استغرابها وتساؤلها وشكّها: لم تكن تعرف أفضل من ذلك. لكنها عندما تتعافى ثانية، وتتخلص من دوار البحر، فإنها لن تشك مطلقاً مرة أخرى. كانت تعرف جيداً أن المسيح أخمد العاصفة، ومشى على البحيرة، وحول الماء إلى نبيذ عندما عاش هنا على الأرض. كانت تعرف أنه يستطيع أن ينقذها من أي ألَم كما يشاء.

ركع دانجل بجوار سرير زوجته المصابة بمرض البحر، وصلى لله عله يمنحها بعض القوة لتلتزم بالإيمان بمخلّصها.

وفي الأثناء، امتلأ رأس إنجا—لينا بالقلق: يجب أن تتحسن، يجب أن تتمكن من الوقوف على قدميها ثانية. وإلا، فمن هو الذي سيحضّر الطعام لزوجها، الذي لا يستطيع أن يغلي ولا أن يقلي؟ من سيعتني بملابسه، ويبقيها نظيفة؟ إنه رجل بالغ القذارة، يوسّخ نفسه كثيراً، ولم يكن يبالي لو أنه خرج أخيراً بهلاهيل. إذا استمرت بالاستلقاء هنا —مَن الذي سيطعم أطفالها؟ وتلك الطفلة المريضة بشيء في صدرها: من الذي سيعتني بها؟ لقد جفّ الحليب في صدر إنجا—لينا هنا في البحر، واضطرت إيفا الصغيرة إلى التوقف عن الرضاعة منها؛ يجب أن يساعدها أحد الآن في مضغ طعامها. مَن الذي سيمضغ الطعام للطفلة التي بلا أسنان، إذا ظلت أمها نائمة هنا في الفراش؟ ومَن الذي سيعني باستحمام الأولاد الآخرين وتمشيط رؤوسهم ولباسهم في الصباحات؟ إن زوجها لا يستطيع العناية بالصغار، كان كثير الخرق معهم. ومن سيراقب الأطفال عندما يلعبون على سطح السفينة؟ ربما يقتربون كثيراً من حاجز السفينة ويسقطون في غياهب البحر. لم يكن ثمة من يعتني بالصغار المساكين. كانت

عائلتها تحتاج إلى صحتها وقوتها؛ وإذا ظلت مريضة يوماً وراء يوم، فسيصبح زوجها المسكين وأبناؤهما المساكين يائسين وضائعين.

وبينما كان دانجل يصلي من أجل إيمان أقوى لزوجته، صلت هي نفسها طالبة القوة بحيث تستطيع القيام بأعمالها اليومية وتساعد أحباءها —صلت من أجل القوة لتنهض في الصباح التالي.

٤

دانجل أندريسون:

بحثت قدماه عن موضع ثابت فوق السفينة الصغيرة الضعيفة — كانت بعض الألواح الخشبية تتراقص مثل نشارة الخشب بفعل العاصفة فوق هذه الأمواج العالية المخيفة. لكن كل لوح خطا باتجاهه بدا كأنه يهرب من قدمه ويغرق بعيداً. ساد الظلام فوق الماء العظيم، وحكم الظلام الأعماق أيضاً. واستطاع أن يسمع صرخات وشكوى زملاء الرحلة، عندما تطبق مخالب الألم على بطونهم وأمعائهم وتفرغها من كل ما تناولوه من أجل إعالة أجسادهم. وكانوا كلهم خائفين من الغرق على هذه السفينة، في هذه العاصفة في البحر. شق خوف الخاطئين من الموت طريقه إلى أذنيه، كرب الذي لم يتحول من فكرة الانبعاث ويوم الحساب، عندما يجلس الملك على عرش مجده ويفصلهم واحدهم عن الآخر، كما يفصل الراعي الأغنام عن الخراف، قائلاً لأولئك الذين لا يعرفهم: اذهبوا عنّي، أيها الملعونون، إلى النار الأبدية المهيأة للشيطان وملائكته الأشرار! بحث آنجل عن ملائكة الرب، لكنه لم يجد لهم أي أثر. لم تكن ثمة أيّ أجنحة مريّشة تلمع في العتمة: وخشي أن لا يكون هناك أي ملاك عند دفة القيادة يرشد يد الربّان.

كاد الرعب يأخذه، ذلك الضعف الذي احتل زوجته قبل وقت قصير. وعرف أن خطر الشك كان يتربص به أيضاً. أين أنت يا إلهي؟ هل أنت قريب؟ لكنّ الخوف اقترب أكثر. لماذا يحتاج إلى السؤال؟ لماذا يجب أن يستنطق؟ لم تكن به حاجة للسؤال؛ ينبغي أن يعرف، هو، المؤمن. لم يكن مسموحاً للإنسان أن يسأل ويشكّ. ينبغي أن لا يسمَح لنفسه بأن تصبح نهباً للشكل والسؤال؛ تنبغي مقاومة هذه. إن الله هنا فوق السفينة بالتأكيد. ويمكن لدانجل أن يبحث

عنه، أن يذهب إليه ويلقي بنفسه في حضنه.

والآن، هرب دانجل في هذه اللحظة الأخيرة إلى ربه —فتح إنجيله؛ والعلي القدير قاد يده إلى المزمور الثالث والتسعين: «رفعت الأنهار يا رب، رفعت الأنهار صوتها. ترفع الأنهار عجيجها؛ من أصوات مياه كثيرة، من غمار أمواج البحر، الرب في العلى أقدر؛ شهاداتك ثابتة جدا. ببيتك تليق القداسة يارب إلى طول الأيام.»

من كلمات الإنجيل، عادت الثقة إلى قلبه: «الرب في العُلى أقدر...»

أي أذى تستطيع أن تلحقه بي، أيها العباب العالي المخيف هناك؟ الله أعظم منك. وأنتِ أيتها الريح الصاخبة المزمجرة التي تهبين علينا الليلة —أنا لا أخافك! الله أقوى منك! وأيّ شر تستطيع أن تجلبه، أنت أيها البحر العظيم العريض القاتم الذي يحيط بسفينتنا؟ إن الله أكثر قدرة منك وأعظم!

لقد كشف الله عن حضوره لدانجل أندريسون في كلمات المزمور: إنهم لم يكونوا وحدهم في السفينة تشارلوتا في هذه العاصفة الرهيبة. لقد أبحر الله معهم. وكان الله قريباً من دانجل هنا فوق المحيط تماماً كما كان هناك في كاراغاردي في الوطن. وهم يستطيعون أن يسيروا بأمان في هذه السفينة الصغيرة المتأرجحة مثلما فعلوا في البيوت الصلبة الخشبية الواقفة فوق الصخور الأرض والحجارة الموثقة إلى الأرض.

وبينما ملأت هذه المعرفة صدره، أسرع ليخبر الناس الخائفين الذين يعانون في الأسرّة حوله بأن الله كان هنا بينهم على السفينة — لقد أحضروا الله معهم، وكان يبحر معهم إلى أميركا الشمالية. والعاصفة التي أطلقها لم تكن سوى عاصفة امتحان — لقد أراد أن يمتحن إيمانهم واعتقادهم به.

وحتى يعزّي زملاءه المسافرين ويساعدهم، قرأ لهم من إنجيل القديس متّى: «وَلَمَّا دَخَلَ السَّفِينَةَ تَبِعَهُ تَلاَمِيذُهُ. وَإِذَا اضْطِرَابٌ عَظِيمٌ قَدْ حَدَثَ فِي الْبَحْرِ حَتَّى غَطَّتِ الأَمْوَاجُ السَّفِينَةَ، وَكَانَ هُوَ نَائِماً. فَتَقَدَّمَ تَلاَمِيذُهُ وَأَيْقَظُوهُ قَائِلِينَ: يَا سَيِّدُ، نَجِّنَا فَإِنَّنَا نَهْلِكُ! فَقَالَ لَهُمْ: مَا بَالُكُمْ خَائِفِينَ يَا قَلِيلِي الإِيمَانِ؟ ثُمَّ قَامَ وَانْتَهَرَ الرِّيَاحَ وَالْبَحْرَ، فَصَارَ هُدُوءٌ عَظِيمٌ. فَتَعَجَّبَ النَّاسُ قَائِلِينَ: أَيُّ إِنْسَانٍ هذَا! فَإِنَّ الرِّيَاحَ وَالْبَحْرَ جَمِيعاً تُطِيعُهُ».

ارتفع صوت قارئ الإنجيل حتى سُمع فوق زمجرة الأمواج التي تتكسر

على السفينة. لكن كلمة الإنجيل لم تستطع اختراق عدم اكتراث المرضى: كانوا متورطين بعمق في آلامهم الخاصة وقلقهم. وكانوا قد سمعوا بقصة العاصفة في البحر ذات مرة، عاصفة في زمن المسيح، هبت وهمدت قبل عدة مئات من السنين. فما علاقة تلك العاصفة بهم؟ إنهم مسافرون في بحر آخر، في زمن آخر، على سفينة أخرى. وثمة عاصفة أخرى ثارت، لكن المسيح ليس راكباً على سفينتهم ليهدئ هذه العاصفة. وقد جعلهم يستلقون هنا في معاناتهم، وهو يوبخهم: أنتم يا قليلي الإيمان. لكنه لم يعد يعيش على الأرض، ولم يأت الآن لنجدتهم —فكيف يمكن أن يتهمهم بقلة الإيمان؟ وقد حماهم مرضهم نفسه من الخوف: لم يكن لدى المريضين جداً لا إيمان كبير ولا قليل، ولم يكونوا خائفين ولا شجعاناً: كانوا يستلقون هناك في قيئهم، غير قادرين على الإيمان ولا الشك. كانوا وراء الأشياء بشكل ما — ملتفين بلامبالاتهم، عاطلين تماماً من الإدراك.

دانجل أندريسون، الذي نفي بسبب عقيدته من بيته، يستطيع الآن يحمل تفسيراته الإنجيلية أنى شاء— في البيوت أو العراء، على اليابسة أو في البحر. الآن لا يستطيع رئيس شرطة أن يغلق فمه، ولا قس يتهمه بأنّه أصبح ملكاً للشيطان. وهكذا، شرح الآية الإنجيلية لزملائه المسافرين: ابقوا هادئين وساكنين، قال المسيح للبحر. والأمواج خضعت وأصبح البحر هادئاً، كما يقبع الكلب المطيع على الأرض بأمر من سيده. كل تلك الأمواج الرهيبة في البحر، كل المياه المزمجرة والرياح الهادرة، كلها تمكن مقارنتها بكائنات الله، التي يُسمح لها بأن تنبح وتعوي وتزمجر وترفع صوتها، لكنها تلتزم الصمت فوراً لدى أمر سيدها. فكيف يخاف مؤمن بالمخلّص عندئذ من عاصفة؟ حتى في هذه السفينة الصغيرة الضعيفة المتأرجحة، يمكنه أن يستريح بسلام وارتياح بين يدي خالقه. إن العالم كله يستريح في تلك اليد، مثل الطائر في عشه.

على سرير بجوار دانجل، استلقى ميناس ياكوب وزوجته فينا—كايسا، الزوجان المزارعان المسنان من أولاند، وكانا يعانيان كثيراً من دوار البحر. وقد استلقيا على حشية قديمة مهترئة، يخز قشها جسديهما مثل الرماح. كان الزوج هو الأكثر مرضاً، ويرتعش كما لو به حمى ولم يكن يجيب عندما يتحدث إليه أحد، وإنما يئن فحسب. وفي هذيانه تحدث عن حجر الشحذ الذي كان يأخذه

معه إلى ولده في أميركا. وقد ظن أن الحجر انكسر ولم يعد صالحاً. وأصبح حجر الشحذ يقلقه حتى الآن، في أحلامه الهذيانية جراء دوار البحر. وكان وجه الرجل منقوعاً بالعرق ومخططاً بسواقٍ سوداء من السعوط الهارب في فمه، والذي تحاول فينا—كايسا تجفيفه مرة تلو الأخرى بقطعة من القماش. وكان ذهنها ما يزال صافياً، ولذلك سهرت على زوجها، على الرغم من أنها كانت واهنة وتعاني كثيراً من دوار البحر.

استمعت فينا—كايسا إلى تفسيرات دانجل عن المسيح على السفينة في العاصفة، وتمنت الآن أن تتحدث إليه. ما كانا ليحاولا هذه الرحلة، هي وزوجها، وهما العجوزان كثيرا الأوجاع كما هو حالهما. وعندما سار الناس بسلام فوق اليابسة لأكثر من ستين عاماً، فإنه ينبغي أن يظلوا هناك بقية أيامهم. وهي نفسها أرادت أن تبقى في مزرعتها، لكن شيئاً ما حصل للرجل العجوز — لقد أراد الذهاب؛ وكتب إليهما ابنهما الذي يعيش في أميركا الشمالية بغرض الإقناع. والآن لا أحد يستطيع أن يخمن إذا تبقى ما يكفي من حياتهما ليوصلهما إلى أميركا. كانت حالة مانس جاكوبس سيئة، ولم تكن حالتها هي أفضل بكثير. كانت جسدها كسيحاً متداعياً منهكاً، وأحست بأنها سرعان ما تنام هناك ميتة وأنفها مشرع في الهواء، بينما تفوح منها رائحة الجِيَف. ماذا كان معنى خروجها إلى البحر، وهي المرأة العجوز على هذا النحو، حتى تستلقي هنا الآن وتعاني؟ هل هذه هي إرادة الله؟

إذا كانت ستقابل وجه الله في اللحظة التالية، لما كانت خائفة: سوف تنظر إليه في العين، فقد اعترفت له بذنوبها وخطاياها منذ وقت طويل.

استمعت بعض الوقت لتنفس زوجها المضطرب. وخرجت منه كلمات قليلة:

«إنني أتساءل إذا كان —حجر الشحذ— سيظل متماسكاً معاً، كل الطريق.»

في وجه المرأة العجوز غير المغسول، تجمعت الأوساخ مثل بذور الذرة في الغضون —وسال من عينيها المعتكرتين سائل أصفر. رفعت رأسها عن وسادتها، واستدارت إلى دانجل الذي كان يجلس بجوار السرير وقد وضع إنجيله على ركبتيه.

تساءلت عن ذلك البحر في فلسطين، ذلك الذي قرأ عنه، البحر الجليليّ الذي

أبحر فوقه المخلِّص —لا يمكن أن يقارب في كِبَره هذا البحر، أيمكن ذلك؟ هل من الممكن أن تكون أمواج بحر طبرية في مثل علوّ هذه؟ ربما كان من السهل على المسيح أن يجترح معجزة فوق ذلك البحر، ولن تكون تهدئة العاصفة في مثل ذلك البحر الصغير شيئاً. رغبت معرفة كيف يفكر دانجل: ربما تكون الأمواج في بحر الشمال هذا قوية جداً، تزيد قوتها عن المسيح، بحيث ربما لا يستطيع معالجتها. وبغير ذلك لم تستطع أن تفهم لماذا لم يوقف العاصفة —الكثيرون صلوا له، لكن العاصفة ظلت تثور طوال ساعات...

«فليرحمك الله،» صاح دانجل بفَرَق، «هل أنت مستعدة للموت؟ إذا كنت لا تعتقدين أن الله قادر على كل شيء —»

«إنني أتساءل فقط لماذا لا يُساعدنا —بينما نستلقي هنا ونعاني على هذا النحو.»

«لقد أطلق العاصفة من أجل غير المؤمنين، بسبب أولئك الذين يشكّون.»

ونَدّت عن ماني جاكول أنّة ألم: «فينا—كايسا.»

«نعم، يا رجلي الصغير.»

«بعض الماء—»

التقطت فينا—كايسا جرة الماء ورفعتها إلى فم زوجها. عدّلت وضع الوسادة تحت رأسه المشعث، وجففت بمنديلها العرق والسعوط عن وجهه —لم يكن في متناولها سوى غطاء رأسها. واختلط العرق والسعوط في كتلة غروية دبقة، وأصبح منديلها مبللاً ومتسخاً، لكنها استخدمته لتجفف وجهها هي أيضاً، بينما تستدير نحو مفسر الإنجيل: «أولئك الذين يشكّون؟»

كان دانجل أندريسون يجلس إلى جوار سرير العجوزين، إنجيله مفتوح على ركبتيه، وأراد أن ينصح المرأة العجوز المريضة التي تستلقي هنا وتعاني بسبب عدم إيمانها. لكنه قبل أن يستطيع أن ينطبق بكلمة واحدة من بين شفتيه، سقط الإنجيل عن ركبتيه على أرضية المهجع —وقد أفلت الكتاب المقدس حتى يمسك ألواح السرير بكلتا يديه. واجتاح إحساس غامر بالدوار أنحاء جسده كله، من قمة رأسه إلى أطراف قدميه. فجأة رُفع دانجل إلى السماء، وارتفع المهجع كله معه.

ما الذي يحدث لي، يا إلهي؟ إن السفينة تفقد استقرارها على الماء، وهي

تطير إلى السماء وقد أصبحت كل أشرعتها مثل الأجنحة! يا إلهي العزيز —هل دنت ساعتي؟ هل حانت فعلاً؟ هل سأرحل إليك، مثل إيليا، حياً تماماً بينما أجلس هنا على طرف هذا السرير وأفسر كلماتك لهذه المرأة العجوز؟ يا إلهي العزيز، هل تكون هذه السفينة هي العربة المجنحة التي تقدمها لي من أجل معراجي؟ نعم، إنك ترفعني إلى العلى، وأنا أشعر بهذا —إنني مُبارك— لكنني أسقطت كلمتك —إنجيلك. سامحني، يا إلهي، إنني أفرّ إليك —آتي إليك!

لكن السفينة سرعان ما هبطت ثانية، ومعها دانجل، بجسده وروحه. وقاده طيرانه السماوي عائداً الأرض، ولم يلحق بإيليّا. وفي طريق الهبوط إلى الأسفل، حصده فجأة ألمٌ ممضّ؛ في البداية بدا الأمر وكأن أحداً يخنق أمعاءه، ثم كما لو أنها تنتفخ داخله، كما لو أنه ليس لها متّسع كاف في مكانها المخصص داخل جسده. كانت كلها تصرخ حتى تخرج، حتى تشق طريقها إلى خارجه. وقد نحتت لنفسها حيّزاً جديداً، وكانت تناضل بعناد لتجد طريقها إلى الخارج.

وسرعان ما تغلّبت عليه: سقط ووجهه إلى الأسفل، على الأرض، وهو يقيء بشدة.

كانت السفينة تبحر ثانية فوق الماء — والرحلة الأرضية استؤنفَت.

في الصباح التالي، استلقى دانجل أندريسون على سريره متلوياً من قبضة دوار البحر التي لا تلين. وعندما غادرته آلامه لوهلة، وأصبحت أفكاره صافية، هاجمته الشكوك والوهن. وعندئذ، تمتم مرة تلو مرة، بنفس الصلاة. صلى بشفاه مرتعشة، وطلب من الله الصفح عن كبرى الآثام، عن كبرى الخطايا. وبينما كانت بقايا قيء الليل ما تزال عالقة في لحيته —مثل ورود حمراء متعددة الألوان والبراعم— صلى صلاته من أجل الرحمة: يا إلهي، إنك لم تدفعني إلى الأسفل مرة أخرى من سمائك —أي إلهي، من الذي يستطيع أن يحتمل بهاء حضورك؟

٥

السفينة الشراعية تشارلوتا تبحر في قلب العاصفة العظيمة التي أطلقها الربّ على بحر الشمال، في طريق المهاجرين، في هذا النيسان من سنة ١٨٥٠. وفي بطن السفينة؛ في معدتها الضيقة، تقبع حمولتها الحية، كائنات

بشرية محتشدة باكتظاظ يخنقها المرض الذي سببته حركات السفينة المتأرجحة في البحر —مطلقين كل الأصوات التي تشهد المرض. إن للسفينة معدة واحدة فقط. لكن في داخلها العديد من الأمعاء —معافاة ومريضة، عجوز وشابة، لأطفال وشيوخ؛ أمعاء للمتحولين إلى الملّة وغير المتحولين، للخاطئين والتائبين، للخيّرين والشريرين. وفيها جميعاً، يحفر الألم عميقاً بمخالبه الكثيرة — في كل تلك الأجساد البائسة يقطن الغثيان والمقت.

السفينة الشراعية تشارلوتا تبحر في العاصفة، والوهن هو الضيف والمسافر، والبؤس هو المقيم في أحشائها.

مكيال تراب من السّويد

١

كان كارل أوسكار واحداً من المسافرين في مهجع السفينة، والذي استطاع تحمّل البحر أفضل ما يكون. وقد شعر بأنه حسن الحال هنا في المحيط كما كان حاله في أرض المزرعة. وحتى الآن، لم يفته تناول حتى وجبة واحدة. كانت السفينة هي التي تزودهم بالطعام، وقد أحب أن يحصل منه على حصته؛ الكثير من الفلاحين المستلقين جرّاء دوار البحر شعروا بالغيظ لأنهم لم يستطيعوا أن يبتلعوا لقمة، على الرغم من أنهم دفعوا ثمن الطعام، ولم يكُن المال يُردّ.

خلال العاصفة، بقي معظم المسافرين في أسرّتهم، ليلاً ونهاراً، بلا تناول أيّ شيء سوى نصف الغالون من الماء الذي كان جِرايتهم. ومن بين كل البالغين في أبرشية ليودر، كان كارل أوسكار وأولريكا من فوسترغوهل هما القادران فقط على البقاء واقفين ويتجولان. وبينما بقيت كريستينا في السرير، اعتنى الأب وحده بالصغار. وكانوا كلهم معافين وبكامل الحيوية ولم يُعانوا من البحر. وقد عني كارل أوسكار بتحضير الطعام له ولأطفاله في مطبخ السفينة في الأعلى، بأفضل ما يستطيع، فوق نار تتأرجح مثل المهد مع تمايل السفينة واندفاعاتها. وكان عليه أن يقف ويمسك بمقابض القدور والمقالي حتى تظل على الجانب الآمن؛ وقد تركها مرة بغير مراقبة، واضطر إلى أن يهبط على ركبتيه ويجمع الطعام من على أرضية المطبخ.

كان قد تخلى منذ وقت طويل عن محاولة جعل كريستينا تأكل؛ وقد طلبت منه حتى أن لا يتحدث عن الطعام، لأنّ ذلك كان يزيد فقط من إحساسها بعدم الارتياح. وكان محظوراً عليه أن يذكر الزبدة ولحم الخنزير بالذات: كلاهما كان عفناً مثل الآخر، وإذا سمعت إشارة إلى أيّ من الاثنين، كانت التشنجات تنتابها على الفور.

كانت العاصفة ما تزال تستعر في صباح اليوم الثالث، عندما وقف كارل أوسكار عند سرير كريستينا وسألها الأسئلة المعتادة.

حاولت أن تحرك رأسها بالقدر الكافي لترى عينيه. كيف تشعر؟

هل كان عليه أن يسأل؟ إنها لم تمتلك القوة الكافية لتجيب عن السؤال.

قرّب الكوب المعدني من فمها، وفيه ماء ادخره من حصته الخاصة. لقد أصبح ماء السفينة قديماً، وكان عكراً، كما لو أنه أُخِذ من مستنقع أو من وحل الجِفت —دبقاً، ومليئاً بالرواسب والحثالة. وكان ينفث رائحة نتنة، وله طعم أحواض غسل الملابس القديمة؛ لقد أصبح لكل الأشياء التي تُوكل على سطح السفينة الآن طعم قديم — للخزائن، والصناديق، والبراميل. لكنه يمكن إنعاش الماء نوعاً ما بإضافة بضع قطرات من الخلّ، الذي كان المهاجرون معتادين على إضافته إليه قبل استخدامه.

شربت كريستينا، وسال بعض الماء على ذقنها ورقبتها. فجففها كارل أوسكار بمنديله.

«سوف تنتهي العاصفة سريعاً.»

لكن كريستينا لم تكن تهتم بأمر العاصفة — يمكنها أن تهب كما تشاء، أن تهمد أو تغضب. إن لديها أمنية واحدة فحسب: أن تستلقي هنا هادئة، هادئة.

وعندما غادرتها لامبالاتها لحظة، كان همها الأول هو أطفالها. كان هارالد يزحف في الحظيرة التي يصنعها سريرها ولم يستطع الخروج من سياجها — ليس عليها أن تقلق بشأنه. لكنها عندما لم تر يوهان ولي مارتا، تساءلت أين كانا. كانا يقفان أحياناً عند حافة سريرها ويصليان ويضرعان إليها، يسحبان ذراعيها وملابسها، بإصرار وعناد: «أمي، انهضي! لماذا لا تنهضين يا أمي؟ لا يمكنك أن تظلي في السرير أكثر من ذلك!»

والآن سألت زوجها، كما كانت قد سألته عشرين مرة في اليوم: «هل أنت قادر على إيجاد طعام للصغار؟»

«إنهم يحصلون على ما يكفي للعيش.»

«أنا سعيدة لأنهم بخير — وسعيدة لأنك بخير.»

وانهارت فجأة: «كارل أوسكار — الدلو!»

وخرج الماء الذي شربته تواً، مخلوطاً بالمادة اللعابية الخضراء.

«هل تريدين ملعقة من دواء قطرات الأمير؟»
«كلا، لا أريد شيئاً — لا أريد شيئاً.»

لا يمكن لدواء هوفمان، ولا لدواء الأمير، ولا لدواء أربعة أنواع من القطرات أن يجلب لها الراحة. لقد جرّبت كل الأنواع التي يمكن الحصول عليها من خزانة الأدوية. ولماذا عليها أن تتناول الأدوية، فقط لتتعذب بتقيؤها ثانية؟

انحنى كارل أوسكار على كريستينا بقلق: كان وجهها أبيض مائلاً إلى الخضرة، ممتقعاً وشاحباً في ضوء النهار الشحيح هنا. لم تستطع أن تحتفظ بالماء في جوفها، وكانت نوبات التقيؤ ليلاً ونهاراً هذه تنهك قواها. وأضاف حملها ضيقاً إلى ضيقها. وأصبح قلقاً على زوجته بشكل جدّي — إنها لا تستطيع احتمال هذا لوقت أطول بكثير.

كانت الرحلة عبر البحر إلى أميركا الشمالية أكثر إيذاءً ومحفوفة بالمخاطر أكثر مما اعتقد هو نفسه. لكن أحداً لم يكن يعرف مسبقاً كيف يمكن أن يكون العبور. لكنها كان واثقاً من شيء واحد فقط، مع ذلك: بما أن الناس غالباً ما يمرضون في البحر، فإن من المفترض أن يعيشوا معافين على الأرض. وفقط لأن الله خلق الماء بين القارات، فإنهم يضطرون إلى ركوب البحر في بعض الأحيان. وسوف يكون من الجيد أن يضع المرء قدميه على الأرض الصلبة مرة أخرى.

«أليس هناك شيء ترغبينه يا كريستينا؟»
«نَعم يا كارل أوسكار —أريد —أرغب—»

وانهارت مرة أخرى، وصمتت. ولم يعرف أبداً ما أرادته أن يفعل. كانت الحقيقة أنها تشعر بالدوار كلما كادت الأرجوحة أن تلامس السقف، وأرادت أن تطلب من كارل أوسكار أن يساعدها في الهبوط عن الأرجوحة.

٢

جاء مساعد القبطان على غير توقُّع هابطاً إلى حجيرة الأسرّة في المهجع. وحدق المهاجرون طريحو الفراش إليه؛ بل استطاع بعضهم أن يستجمع ما يكفي من الطاقة لدى زيارته للنهوض من كربهم وسؤال أنفسهم: أيّة مأمورية يمكن أن تكون لمساعد القبطان هنا في الأسفل؟ لا بدّ أن هناك خطباً ما.

كان المساعد يحمل قطعة قماش في يديه. لماذا يُستعمل القماش؟ تساءل المهاجرون، ومع ذلك، كانوا غير عابئين إلى حد كبير في تساؤلهم. لقد فهموا الكثير، أنّ هناك شيئاً على غير ما يُرام في أنحائهم؛ لكن لم تكن لديهم القوة لتخمين ما يمكن أن يكون. لقد حدث شيء، مع ذلك، وسوف يعرفونه قريباً. إنّه لا يمكن أن يبقى سرّاً.

وقعت الوفاة الأولى في السفينة.

كانت جُثة ستُكفَن بالقماش. لقد ماتت الفتاة الشابة المصابة بخراج في الحلق. وذهبت كل العصيدة الدافئة التي حضرها والداها ووضعاها عليه عبثاً. وكل المراهم من صندوق الأدوية. كان القبطان قد حضر إلى الأسفل لمعاينة حنجرة الطفلة، وقال إنه يتعين بقر الخُراج. لكنه لم يجرؤ، لا هو ولا أي أحد آخر على استخدام السكين. وفي النهاية انفجر الخراج، وبعد بضع دقائق لفظت البنت نفسها الأخير.

قيل إن الفتاة الميتة كانت في السابعة عشرة من عمرها، لكنها كانت بطيئة النموّ، بحيث تبدو بالكاد أكبر من بنت في الثانية عشرة. وتبين الآن أن المساعد أحضر قطعة القماش أكبر من اللازم بكثير؛ كان القماش يكفي ليلتف مرتين حول جسدها قبل حملها وإخراجها عبر الكوّة الرئيسية.

كان شخص ميت يستلقي بين الأحياء هنا في الأسفل. لكنها ذهبت الآن، وعاد كل شيء إلى طبيعته في المهجع.

في ذلك اليوم، استنفدت الريح الشمالية طاقتها وشرعت بالهمود. وغادرت الأمواج وأصبح سطح البحر أكثر استواءً؛ وعند المساء أصبح الطقس هادئاً تقريباً. وبدا السكون الذي حل بعد الاضطراب العظيم على السفينة الصغيرة غريباً على المسافرين في البداية.

لم يذكر كارل أوسكار الموت في حجرته لكريستينا؛ وقد مرت عليها حادثة الموت دون أن تلحظها. والآن قال: «سوف تتحسنين قريباً عندما يهدأ الطقس.»

«أتساءل.»

ولكن، في نفس اللحظة، رفعت رأسها عن الوسادة، وانفتحت عيناها على اتساعهما. أصغت، واستطاعت أن تسمع شيئاً ما يجري هناك فوق سطح

السفينة؛ كانت الكوّة الرئيسية مفتوحة واستطاعت سماع غناء يأتي من الأعلى.

«هل أنا أهذي يا كارل أوسكار، أم—»

هل تحلم أم أنها مستيقظة؟ ألم يعودوا على متن السفينة؟ هل هبطوا على اليابسة؟ لماذا هي في الكنيسة، أو في فناء الكنيسة؟ كان الناس يغنّون! إذا كانت ما تزال حيّة، فإنها تستطيع أن تسمعهم يرددون ترنيمة.

«نعم — إنهم يغنّون ترنيمة هناك في الأعلى.»

كانت كريستينا تستمع إلى ترنيمة جنازة. كانت هناك جنازة تُقام على سطح السفينة.

والآن، أخبرها كارل أوسكار: الفتاة ذات الخُرّاج في الحنجرة ماتت هذا الصباح. لكن ذلك لم يكن من دوار البحر؛ كانت الفتاة مريضة منذ أبحروا من كارلسْهامن، وظلت مستلقية في سريرها منذ صعدت إلى متن السفينة.

استلقت كريستينا صامتة واستمعت إلى الترنيمة القادمة من السطح. كانت الترنيمة تُسمع بخفوت هنا في الأسفل. وأخيراً قالت: «أتساءل—»

«ماذا؟»

«الموتى. هل يقومون بإغراق الموتى في البحر؟»

«نعم، لا يمكنهم إبقاء الجثث ملقاة في السفينة.»

«أظن أنهم لا يستطيعون.»

«إنهم ينزلونهم. يجب أن يفعلوا.»

«أظن ذلك. ثم يغرق الميت إلى قاع البحر.»

كانت كريستينا تستلقي وتحدق في عوارض خشب السفينة فوقها، لكنها لم تكن ترى شيئاً.

«على قاع البحر، يستطيع المرء أن يستريح بهدوء. ألا تظن ذلك يا كارل أوسكار؟»

«لا تفكري بهذا! يجب أن تفكري فقط بالتعافي.»

بلل كارل أوسكار قطعة قماش وحاول إزالة بعض البقع عن غطاء السرير. كانت كريستينا دائماً نظيفة ومرتّبة، ولا بد أنها كانت غاضبة كثيراً عندما لم تمانع في تلويث غطائها العرائسي بالقيء. لكنها كانت بالكاد معنيّة بأيّ شيء في الأيام الأخيرة.

على الأسرّة حولهما يستلقي المرضى، ويستمعون إلى الغناء الهابط إليهم عبر الكوّة المفتوحة. وبدا الأمر الآن أكثر وضوحاً، واستطاعوا أن يميّزوا الكلمات —كانت الترنيمة تمضي ببطء وتجهّم:

«أنت أيها العالم الشرير، وداعاً!

إلى السماء تسافر روحي،

لتصل وجهتها، وميناءها الأخير...»

كانت هناك كلمة واحدة لاحظها كارل أوسكار بالتحديد، وبدا أن زوجته لاحظتها أيضاً. وأدارت وجهها إليه: «يجب أن أخبرك شيئاً: إنني لن أصل الميناء أبداً.»

«كريستينا!»

«كلا، يا كارل أوسكار. لن أضع قدمي أبداً على التراب الأميركي.»

«لا تنطقي بمثل هذا الهراء! ليس دوار البحر مُميتاً.»

«لقد عرفت ذلك كل الوقت.»

«أفكار مجنونة!»

«منذ اللحظة الأولى التي خطوت فيها إلى هذه السفينة، شعرت بذلك: إنني لن أخرج من هنا حية.»

«أنت تتخيلين ذلك وحسب!»

«كلا، إن هواجسي لا تكذب أبداً.»

«انسي ذلك! أخرجيه من عقلك! كريستينا، عزيزتي —»

أمسك بيدها وربّت عليها بحنان. واستقرت يدها في يده، ذابلة ومُحايدة.

يجب أن تعرف أن المصابين بدوار البحر يكونون دائماً مكتئبين ومُحبَطين ويخشون أن لا ينجوا؛ لكنهم بمجرد أن يقتربوا من اليابسة، يتعافون ويصبحون مليئين ثانية بالحياة.

«هل تتذكر، كارل أوسكار؟ كنت خائفة قبل أن —»

نعم، لقد تذكر. وقد أسف لقول إنه تذكر: كانت خائفة ومليئة بالشكوك — وهو أقنعها بالقدوم. تذكر أنه هو المسؤول.

لم يعد الغناء يُسمع من الدكّة. وترنيمة الجنازة رُتلت حتى نهايتها. لقد انتهت الجنازة هناك في الأعلى، وأدى قبطان تشارلوتا واجبه مرة أخرى كرجل دين. وأصبح هناك جسد بشري واحد أقلّ على متن السفينة. وأصبح

مكيال التراب الذي جلبته السفينة من تراب وطنها ناقصاً ثلاث مجارف.

«أوه، نعم يا كريستينا.» كسر كارل أوسكار الصمت. «سوف نصل اليابسة، أنت وأنا — سوف نصل الميناء في أميركا.»

لم تُجب. ظلت مستلقية هناك كما من قبل، وحدقت في الأعلى بنظرات ثابتة؛ كان كل نسيج في جسدها ساكناً.

وفكر كارل أوسكار، ربما كان شديد المبالغة في الإقناع؛ ربما لم يكن ينبغي أن يحاول إقناعها بكل ذلك الإصرار — ربما تحمل الكثير جداً من المسؤولية.

٣

بعد بضعة أيام، في الصباح، وقعت الوفاة الثانية في قسم العائلات: مانس جاكوب، الفلاح العجوز من أولاند، عثر عليه ميتاً في سريره.

وقد اكتشفته زوجته، التي لم تصدق أنه ميت. وعندما استيقظت في الصباح هزت زوجها من الكتف، كما اعتادت أن تفعل دائماً. ثم هزته بقوة أكبر عندما لم يستجب — لكن العجوز لم يفتح عينيه. وأخيراً، قامت فينا—كايسا باستدعاء دانجل أندريسون، الذي هب لنجدتها. وقال لها إنّ زوجها كان يستلقي ميتاً هناك، لكن فينا—كايسا رفضت تصديق ذلك. وقالت إنه استلقى على هذا النحو عدة مرات قبل أن يستيقظ؛ وكان ذلك بسبب قلبه، الذي كان يتوقف أحياناً ولا يعود إلى العمل سريعاً كما ينبغي. وبالإضافة إلى ذلك، فإن مانس يعقوب كان طوال حياته ثقيل النوم —وهي تعرف ذلك، لأنها متزوجة منه منذ أكثر من أربعين عاماً. والآن، كانت على قناعة تامة بأنه سوف يستيقظ، إذا قاموا بهزّه جميعاً معاً بقدر كاف.

لكن كل الذين نظَروا إلى مانس يعقوب اتفقوا مع دانجل: إنّ أحداً لا يستطيع أن يهزّ الحياة في ذلك الجسد مرة أخرى. ولم يكن بالوسع إيقاظ مانس يعقوب حتى يوم الدينونة.

لم يستطع أحد أن يخمّن السبب في وفاته، لكن زملاءه المسافرين حزروا أن السبب لا بدّ أن يكون قلبه الذي فقد بعض الانتظام في دقاته، وتوقف قبل وقت طويل بحيث لم يعد من الممكن أن يدقّ مرة أخرى. واعتقد كارل أوسكار أنه ربما يكون قد اختنق حتى للموت بقيئه؛ فقد وجدوه مستلقياً على معدته ووجهه

إلى الأسفل، ولا بد أنه كان من الصعب عليه التخلص من اللعاب اللزج في هذه الوضعية. وربما لم يتلقّ العناية التي يحتاجها خلال الليل، حتى ولو أنّ زوجته كانت تنام قريبة منه. ولم يكن أحد قد سمعه يطلب المساعدة، لكن الإنسان المحتضر ربما يكون ضعيفاً.

وهبط مساعد القبطان إلى الأسفل مرة أخرى. وعندما أصبح الفنلندي يظهر في المهجع في أوقات غير متوقعة، فقد أصبح المسافرون يعرفون طبيعة مهمته الآن. لقد ذهب شيء خطأ مرة أخرى. ولم تكن قطعة القماش التي أحضرها الآن كبيرة جداً؛ ينبغي أن تغطي جسم رجل راشد هذه المرة.

شرع المساعد بتحريك الرجل الميت من سريره، لكن زوجة مانس يعقوب حاولت منعه: «انتظر برهة! ربما ما يزال رجلي مستيقظاً!»

رفع المساعد جفون مانس جاكوب، ونظر بعناية في عينيه. «إنّ زوجك ميّت بأكبر قدر يستطيعه. أنا أعرف تماماً كيف يبدو الموتى.»

«انتظر قليلاً! من فضلك! ساعة واحدة فقط.»

«هل تريدين أن يبقى ممدداً هنا حتى يتعفن؟»

«برهة قصيرة فقط!»

لكنه لم يلتفت إلى توسلات المرأة العجوز؛ وسحب الجسد الميت من السرير. وعندئذ، شرعت المرأة بإطلاق صرخات عالية، وهي تتمسك في نفس الوقت بإحدى ساقي زوجها الميت، محاولة إبقاء الجسد بجوارها في السرير. ولم يستطع المساعد إفلات قبضتها إلا بكثير من المشقة.

تولى دانجل وإنجا—لينا العناية بأرملة مانس يعقوب بينما ساعد كارل أوسكار الفنلندي في تكفين الجثة. بعد الموت، أصبح الفلاح العجوز يبدو أكثر اسوداداً وقذارة مما كان عليه وهو حيّ، وبدت مجاري السعوط فوق خديه ورقبته أعرض من أي وقت مضى. ولم يكن ذلك المنظر جذاباً على وجه شخص حيّ —لكنه كان مع ذلك أكثر إثارة للاشمئزاز على وجه ميت. وقد اقترح كارل أوسكار أن يغسلوا وجه الجثة قبل وضع الجسد في الكفن.

«سوف يغتسل في البحر.» قال الفنلندي.

«لكن ذلك لن يحصل حتى تنتهي الجنازة،» قال كارل أوسكار.

كان قد سمع من المسنين أنه لا ينبغي للمرء تلاوة خدمة الجنازة على جثة غير مغسولة. وكان دانجل يتحدث عن مسؤوليات الناس عندما يستيقظون في

يوم القيامة؛ واتفق مع كارل أوسكار: كمسيحيين، فإنهم يدينون للميت بهذه الخدمة الأخيرة. لقد كان جسده القذر العجوز، بعد كل شيء، هو القشرة التي ضمت روحاً بشرية، خلقها الله. وهكذا، ولأنه لم تكن هنالك أيّ نساء يقدمن لهما المساعدة، قام الرجلان بمساعدة بعضهما البعض، فبللا بعض الخرق القديمة في ماء البحر، وغسلا بها وجه مانس جاكوب. ولم يكن ذلك تنظيفاً كاملاً، لكنهما استطاعا على الأقل إزالة الجداول السوداء عن وجهه قبل وضع الجثة في أكفانها.

ثم وضع مساعد القبطان ثقلاً في القماش، كما جرت العادة. واعتقد كارل أوسكار أنه كان عليهم استخدام حجر شحذ مانس جاكوب، الذي كان موضوعاً في المخزن. حجر الشحذ الرائع هذا، الذي كان يتحدث عنه باستمرار، الذي كان قلقاً جداً عليه، الذي يجب أن يوصله إلى أميركا — ما الذي سيحدث له الآن؟ مَن في أميركا سوف يعتني بحجر الشحذ هذا الذي ليس له صاحب؟ ربما كان مانس يعقوب ليحب أن يأخذ الحجر معه إلى قاع البحر؛ فهناك سوف لن يحتاج إلى أن يقلق على مصيره، هناك يمكن أن يستلقي إلى جانبه، في حراسته حتى يوم الحساب.

تسببت الوفاة الجديدة في المهجع ببعض التغييرات في مكان إقامة بعض المسافرين. فينا—كايسا، التي استيقظت ذات صباح لتجد نفسها أرملة، يجب أن تنتقل الآن إلى الجانب الآخر من قماشة الشراع المعلقة، لتقيم بين النساء غير المتزوجات. وسُمح لرجلين متزوجين، كارل أوسكار ومزارع آخر، اللذين كانا ينامان حتى الآن مع الرجال غير المتزوجين، بالانتقال للعيش مع عائلتيهما وإشغال السريرين اللذين أخلاهما الزوجان العجوزان.

ومن حمل التراب المجلوب من السويد، أُخذ ملء ثلاثة مجارف أخرى. وأصبح سرير موت أحدهم مكان النوم لآخر. نام أوسكار من الآن فصاعداً على السرير الذي أخلاه مانس جاكوب، الذي استراح الآن على قاع البحر، مغسول الوجه، وأنظف مما كان عليه طوال أيام عديدة. وتذكر المزارع الشاب ما كان قد سمعه في اليوم الأول على متن السفينة الشراعية تشارلوتا: «سيكون ثمة المزيد من المتسع في المهجع كلما ابتعدت بنا المسافة.»

في الوطن، وبعيداً عنه

١

«... قال للعاصفة: اهدئي!
وللموجة: اهبطي!
والموجة، استقرّت
والعاصفة المدمدمة، خمدت.
والشمس المجيدة العزيزة،
أطلت مِن عَلٍ على الماء الصافي.
ها نحن ذا نرفع أشرعتنا!
نمجّد الربّ إلهنا،
وهو يسمع في صلواتنا وخز الضمير!»

(ترنيمة الصباح التي رتلها المسافرون على سطح تشارلوتا، والتي اختارها الراعي دانجل أندريسون من أبرشية ليودر، ورُتلت عندما انحسرت العاصفة الكبيرة)

تحسن الطقس، وأصبح الهواء أكثر دفئاً. ونعم الركاب بأيام صافية ظلت فيه الشمس ساطعة طويلاً على الدكّة. ولعدة أيام، تمتعت السفينة ذات الشراعين، تشارلوتا من كارلسْهامن، برياح قوية متساوية، أعطتها سرعة جيدة.

عندما استراح البحر، اختفى التقلب والاضطراب من أمعاء المسافرين. وعندما هدأ الطقس، دخل الهدوء أيضاً إلى دواخل الناس، وشرع المصابون بدوار البحر في التحسن شيئاً فشيئاً؛ وعادوا إلى سطح السفينة واحداً بعد الآخر. وفي المطبخ، الذين كان مهجوراً عملياً خلال العاصفة، احتشدت النساء

مرة أخرى بأوعية طبخهن، وظهرت روائح البازيلاء المسلوقة ولحم الخنزير المتعفن مرة أخرى على السطح لتفرقها الريح على سطح البحر.

أصبح اتجاه سفينة المهاجرين الآن هو الجنوب الغربي: كانت تشارلوتا تبحر في القناة الإنجليزية.

بشكل ما، رأى سكان اليابسة، وعلى نحو مثير للعجب، هذا الماء بالشكل الذي لم يكن كما ظنّوا أنه سيكون. كانت القناة الإنجليزية قد تبدت لهم أشبه بحفرة عريضة، حُفرت من أجل إفراغ الأرض المنخفضة من السّباخ والمستنقعات. كانوا قد أملوا أن يبحروا عبر قناة ضيقة؛ كانوا ينطوون على أمنية الإبحار في ماء صغير، حيث تحيط بهم الأرض الصلدة من الجانبين، بحيث يشعرون أكثر أمناً مما هو الحال في البحر المفتوح. والآن اكتشفوا أن القناة الإنجليزية لم تكن حفرة. ولم يكن ماؤها بلون الطحالب البنيّة، وكانت أمواجه تأتي وتنحسر كما تفعل في البحر. واكتشفوا أن هذه القناة كانت بحراً أيضاً.

سرعان ما عرفوا أن هذا الماء كان مفترق طرق مهماً في البحر، تستخدمه الكثير من السفن. في كل يوم رأوا سفناً أخرى —كانوا يلتقونها، ويصحبونها برفقتهم، ويمرون بها، ويتجاوزونها؛ رأوا سفناً مشابهة لسفينتهم أو أكبر، على ظهورها أناس من أراض أجنبية؛ سفناً ترفع أعلاماً بكل الألوان.

ثم اكتشفوا ذات صباح أرضاً على الجانب الأيمن — شاطئاً أبيض متلألئاً نهض أمامهم، مثل ضفة عالية عميقة. كان ذلك ساحل إنجلترا، كما قال لهم البحارة. كانت هناك تلال ومنحدرات من الصخور الطباشيرية، تلمع بيضاء في الشمس. ووراء الشاطئ — أبعد في الداخل، ارتفعت أبراج وأبراج كنائس؛ كانت تلك قلاعاً، وحصوناً، وكنائس. ووقف المهاجرون هناك وهم ينظرون من الضفة إلى الأرض الغريبة؛ لقد رأوا إنجلترا، الأرض التي أبحروا بجوارها، التراب الذي لم يقيض لهم أبداً أن يدوسوه. كان هذا أول بلد أجنبي رأوه بمثل هذا القرب. عندما مروا عن الدنمارك، كانت الأرض بعيدة جداً — وبدا المنظر لهم غريباً. لكن أغرب شيء على الإطلاق كان هذا الجدار الأبيض، هذا الشاطئ الجميل ناهد الصدر، الذي ارتفع أمامهم. وبدا المشهد مثل موقد هائل مغسول بالبياض، مثل حائط فُرن عملاق لم تستطع أمواج البحر المتعاقبة أن تهدمه. فكروا بأن هذه لا بدّ أن تكون مملكة قوية، بمثل هذه التحصينات.

كان الجدار الأبيض هو ذكراهم المقيمة عن إنجلترا.

تزاحمت السفن في القناة، صوارٍ من أراض عديدة تجمعت هنا؛ هنا كان مكان التقاء الصنوبرات جوابة البحار. هنا ارتفعت صوارٍ أعلى وأكثر سماكة من الصاريين القادمين من الأرض السويدية، اللذين أعيد غرسهما في جسد تشارلوتا؛ لكن هذه الصواري الأجنبية ربما جاءت من أشجار أخرى غير عائلة دائمات الخضرة.

بعد يوم واحد، اختفت منحدرات إنجلترا البيضاء عن أنظارهم وغرقت ببطء في ماء البحر المتلاطم. وبهذا، قال المهاجرون «وداعاً» أخرى: كان هذا القطاع الساحلي آخر ما يرونه من «العالم القديم.» وسوف تمر الكثير من الأيام قبل أن يروا اليابسة ثانية. الآن، فتح البحر الكبير حضنه لهم على اتساعه. الآن، لم يبق ثمّة سوى المحيط.

وفي المرة التالية التي سيرون فيها شاطئاً من بعيد، فإنه سوف يرتفع من مقدمة السفينة، وسوف يكون «العالم الجديد.»

٢

قابلت سفينة المهاجرين عواصف جديدة وأجواءً سيئة، لكن مسافرين أصبحوا يعتادونها كشيء ينتمي بشكل حتمي إلى وجودهم الجديد.

في أيامهم الأولى على متن السفينة، تحدثوا برغبة عن السويد، وقيلت كلمات مريرة غاضبة في الغالب، بينما يقارنون أقدار بعضهم البعض في الوطن. ولكن، بينما كانت الأيام تتوالى بعد مغادرتهم، أصبحوا يتحدثون أقل بكثير عن الأرض التي تركوها خلفهم. لقد غادروها، مرة وللأبد، وبدا ذلك كافياً. لقد أصبح وطنهم خلفهم وأصبح بعيداً جداً — أصبح مكاناً غريباً فعلياً. وبدا من الخطأ أن يتكلموا بشكل سيئ عن شيء أصبح بعيداً عنهم، ولا يستطيع أن يسمعهم. الآن لم يعودوا يرغبون في إهانة وطنهم. كان لهم أقاربهم هناك — في الحقيقة، بدا لهم البلد كله قريباً. لقد تركوا أقاربهم — وكان ذلك كافياً؛ ربما لا يرون ثانية أبداً ما تركوا؛ لقد أغلقوا حسابهم مع المملكة التي كانت قد أنجبتهم — ولم يعد ثمة متسع للتقريع.

لكنهم قابلوا ذات يوم سفينة ترفع علماً عرفوه: من السارية حلق علم

وطنهم. وحدّق المسافرون بدهشة، وراقبوا. كان الوقت الذي قضوه في البحر يُحسب بالأسابيع فحسب، حتى الآن، لكنهم اختبروا عاصفة مُسبقاً وعانوا من دوار البحر واحتملوا كل متاعب المسافرين بحراً، وبدا لهم الأمر وكأنهم أبحروا شهوراً. كانوا يشعرون بأنهم أصبحوا بعيدين بما لا يُقاس بعيداً في العالم: لقد أبحروا فوق مساحات هائلة لا يُسبر لها غور من البحر، وبدت بيوتهم وأنها أصبحت تقع في أرض هائلة البعد خلفهم. والآن، فجأة، كانت تلك الأرض قريبة منهم — وقد قابلوها هنا فوق صدر المحيط. هناك، على بعد بضع مئات من الياردات عنهم، لا بد أن يكون ثمة أناس يأتون من نفس نوع القرى الصغيرة التي أتوا هُم منها، أناس يتحدثون نفس اللغة التي يتحدثون. بل وربما يكون هناك أحد ما على تلك السفينة يعرفونه.

تعقبت عيون مسافري تشارلوتا السفينة، بينما العلم المألوف يلوح لهم عن قرب. وكان مسارها يعاكس تماماً وجهتهم؛ كانت تبحر في مسارهم نفسه وراءً. كان أولئك الناس يبحرون إلى الوطن؛ بينما كانت سفينتهم تبحر بعيداً عنه.

الوطن — لقد فاجأوا أنفسهم بأنهم ما يزالون يفكرون بالسويد على أنها وطنهم. ومع ذلك، لم يكن لأحد منهم منزل تبقى في الأرض التي أداروا لها ظهورهم. لقد هجروا كلهم بيوتهم القديمة — ليبحثوا عن بيوت جديدة. ومع ذلك — كانت السويد هي الوطن. كان ذلك أمراً لا يمكن تفسيره، والذي عكفوا على تأمله.

كانت السفينة تشارلوتا ذات الصاريين محملة بالباحثين عن بيوت جديدة. وكان ركابها أناساً غادروا بيوتهم القديمة، لكن ليست لهم بيوت جديدة بعد. كان المسافرون قطيعاً من المشردين، المتجولين في البحر. وهذه السفينة — التي تبلغ أربعين خطوة طولاً وثمانية عرضاً— هي ملتجأهم على الأرض.

كانوا صعاليك المحيط — كان المحيط طريقهم، وهذه السفينة الصغيرة مكان إقامتهم. وفي المساءات قبل أن يزحفوا إلى أسرّتهم، كانوا ينظرون هناك إلى البحر الذي يمتد من حول مأواهم. كان البحر يُعتم في الليل، وفي العتمة ترتفع قمم الأمواج المدمدمة المولعة بالقتال، التي تصبح منحدرات ومرتفعات، وتغدو أعماق أودية وقمم جبال حول سفينتهم. ثم كانوا يحسون بالأعماق الهائلة

أسفل منهم وهي تتفتح، وكانت تزحف على أجسادهم ارتعاشة المقرور الخائف؛ هذه السفينة الواهنة فقط، العائمة مثل ريشة فوق المياه، كانت هي منزلهم وحاميهم. الآن ينبغي أن يذهبوا إلى النوم في هذا المنزل القلِق الذي تتقاذفه الأمواج — في أسفل هذه السفينة ينبغي أن يغمضوا عيونهم. كيف يجرؤون؟ كيف يجرؤون على النوم هنا في الأسفل، على أن يعهدوا بأرواحهم وممتلكاتهم إلى هذه الألواح الخشبية الهشة التي تحيط بهم؟

لم يعد المسافرون يحسون بأن ثمة ما يربطهم باليابسة، لقد أُلقي بهم هناك خارجاً، في البحر، وسُحبوا بعيداً عن كل ما يمكن أن تستقر عليه الأقدام؛ لقد أصبحوا ضائعين في العالَم.

كان البيت بالنسبة لهؤلاء الناس الأرضيين يعني مكاناً مُسالماً مستقراً على الأرض، حيزاً غير متحرك، بيتاً بجدران قوية وأبواب موصدة، بمغاليق وأقفال آمنة مُحكمة — كوخاً مسالما على الأرضي حيث يستطيعون أن يذهبوا في المساءات إلى أسرّتهم بأمن ودعة.

مثل هذا البيت تركوه وراءهم. والآن التقوا بسفينة كانت تبحر باتجاه وطنهم. وقفوا ينظرون طويلاً وراء هذه السفينة الذاهبة إلى الوطن. وقد انكمشت وغدت أصغر. وسرعان ما أصبحت مجرد نقطة رمادية على صفحة الأفق. لقد اختفت سفينة سويدية عائدة إلى الوطن في الاتجاه الذي أتوا منه.

لقد التقى المهاجرون بسفينة تبحر إلى الوطن. وبعد ذلك، أصبحوا يدركون ويشعرون بشكل أكثر قوة من أي وقت مضى بأنهم يبحرون عنه، بعيداً.

قصص على مؤخرة سطح السفينة

١

جلس روبرت وإيلين على الجهة التي تواجه الريح من سطح السفينة، متقاربَين، وقد استند ظهراهما إلى لفة حبال. كانا يقرآن من كتاب نصوص بالإنجليزية، كان روبرت قد اشتراه من كارلسْهامن.

كان عَصراً رائقاً على متن تشارلوتا التي تبحر برويّة وبلا جهد مدفوعة بريح موسمية معتدلة. وقد جلس المهاجرون في جماعات صغيرة على السطح يحاولون تزجية الوقت؛ وأشعت شمس مايو فوق المحيط الأطلسي، ويتضوع عبق واخز من لحم الخنزير النتن خارجاً من المطبخ، كما هو الحال عادة في هذا الوقت من اليوم. وجلس اثنان من المهاجرين وحدهما يقرآن. عن وضع اللسان والشفاه في استخدام اللغة الإنجليزية.

كان كتاب روبرت التعليمي الرقيق بالكاد أكبر من كتاب «التعليم الشفهي للصغار.» وكان مصمماً للقارئ المتوسط بين الفلاحين: دليل المهاجرين الذين يرغبون تحصيل المعرفة الضرورية باللغة الإنجليزية من أجل تدبر الأمور. كان ذلك بالضبط ما يريده روبرت. لم يكن يريد أن يصبح عالِمَ لغويات — ليس مباشرة على الأقل. وقال له بائع الكتب في كارلسْهامن إن الكتاب كُتب للأشخاص البسطاء. وقد تم التأكيد على البساطة والفهم السهل، أكثر من المنهج العلمي. لكن هذا «الدليل» كان بالنسبة لروبرت صعباً جداً على الفهم: بعد عدة أسابيع في البحر، كان قد قرأ ثلاثاً فقط من الصفحات البسيطة السهلة.

اليوم بدأ بقراءة الصفحة الرابعة. اليوم يقرأ هو وإيلين معاً للمرة الأولى. ولحسن الحظ، لم تكن إيلين في حاجة إلى تعلم الإنجليزية، لأن الروح القدس سوف تزورها هي وكل الأكيين بمجرد أن يحطوا في أميركا؛ وسوف يتمكنون من التحدث باللغة الجديدة بلا عناء في اللحظة التي يطأون فيها الشاطئ. لكنها

شعرت بالفضول بينما تسمع روبرت وهو يستخدم كلمات من اللغة الغريبة. وحتى الآن، لم تكن ترغب أن تبدو أقل تعليماً منه؛ يجب أن تشارك. وهو أيضاً كان مع رأي أنه لن يؤذيها تعلم القليل مقدماً عن اللفظ الصعب. وعندما تهبط على الشاطئ، ستكون قد أنجزت بعض العمل من أجل الروح القدس، ولا يمكن أن تكون هذه خطيئة.

كانت الإنجليزية لغة معقدة ومراوغة بالنسبة للأشخاص غير المتعلمين. وكان أصعب شيء على الإطلاق هو الكلمات التي تُكتب بطريقتين مُختلفتين كليّة: أولاً كانت تُطبع كما تُطبع الكلمات عادة، ثم تظهر الكلمات نفسها بين أقواس، مكتوبة بطريقة مختلفة تماماً: "Yes, I am a stranger here. (aj am a strehndjer hihr.)". لم يستطع روبرت فهم هذا الترتيب؛ أية فائدة هناك في كتابة حروف الكلمة نفسها بطريقتين؟ إن ذلك يكلف المزيد من الوقت والمتاعب غير الضرورية. كان من الغريب أن الأميركيين، الذين يعتبرون بالغي الذكاء، لم يستطيعوا الاتفاق على طريقة واحدة لكتابة إملاء لغتهم. إن لذلك صلة بالكاد بالصفوف المختلفة، بما أن كل الناس كانوا جيدين بنفس المقدار في أميركا ولم يكن هناك أحد فوق أحد.

بدأ الشاب والفتاة بـ«تمارين المحادثة.» جلسا ووجهاهما متقاربان جداً، وهو ما يجب أن يفعلاه بينما يقرآن من نفس الكتاب. وقرآ بصوت عال عن وضع اللسان والشفاه في الاستخدام الصحيح للإنجليزية: «عندما يتحدث الإنجليز والأميركان، فإن ألسنتهم عادة ما تنسحب إلى الوراء في أفواههم، وبمقدار أبعد بكثير مما يحدث عندما نتحدث نحن السويديين بلغتنا. ويتم تحريك الشفاه بقدر أقل من السويديين. وهي لا تكون مستديرة، ولا مزمومة بقدر ما نفعل نحن، ولا هي تنفرج بنفس المقدار كذلك. ومن المهم جداً أن لا يحدث أي بروز في الشفاه، خاصة عند لفظ صوت 'إتش' الصعب.»

«هل تفهمين؟» سأل.

«نعم، أفهم، كل كلمة منه،» كذبت.

«إذا لم تفهمي فسأريكِ.»

وعندئذ، زمّ شفتيه: هذا ما لا يجب أن تفعله عندما تتحدث الإنجليزية.

«إنني لا أصنع مثل هذا الفم البشع عندما أتكلم السويدية!» قالت.

«قولي حرف 'إتش'!» استأنف روبرت: «قولي 'تشيرتش'!»
«تشيرتش،» كررت الفتاة ببطء وجديّة.
لكنه ظن أنها زمّت شفتيها كثيراً.
«اسحبي شفتيكِ! قوليها مرة أخرى.»
كررت الكلمة «تشيرتش» عدة مرات بينما كان وجهه قريباً جداً من وجهها بحيث يمكن أن يرى حركات شفتيها. فكّر أنها أرادت زمّ شفتيها بإفراط. وهي قالت الكلمة عدة مرات، لكنه لم يكن مقتنعاً تماماً. وفي النهاية، نجحت: هكذا ينبغي نطق الكلمة بالضبط! وأعطاها كلمات أخرى تحتوي على الحرف «إتش»، واستمر في تعليماته بمساعدة أصابعه، وهو يعتقد أن تلك طريقة جيدة لتعليم الإنجليزية.
بينما كان منشغلاً بدروسه، اكتشف فجأة أن لإيلين فماً صغيراً وحسّاساً، وأن شفتيها ناعمتين ورطبتين بفعل رذاذ المحيط.
ثم عليه أن يعلم الفتاة أن تبقي فمها متراجعاً جداً إلى الوراء بينما تستخدم اللغة الإنجليزية. ربما لا تتذكر الروح القدس إخبارها بكل التفاصيل. خاصة عندما تنطق حروف «د»، «ي»، «ل» و«ن» يجب أن تبقي لسانها وراءً بقدر ما تستطيع؛ كانت هذه هي الأحرف الأكثر أهمية، التي تستخدم ربما كل يوم في أميركا.
وحتى يدير تعليماته بطريقة أكثر كفاءة، أراد الآن أن يرى كيف يكون شكل لسانها. وطلب إليها أن تخرجه.
أطاعت الفتاة، وتفحص الشاب بعناية لسانها الممدود، الذي كان بلون أحمر فاتح مثل التوت البري المبكر، وكان ضيقاً ومدبباً مثل لسان قطة. واعتقد أن بوسعها أن تتحدث الإنجليزية به إذا تلقت التدريب الضروري. جعلها تجلس هناك ولسانها ممدود باتجاهه طويلاً حتى تعبت أخيراً وسحبته. ألم ينته من فحوصاته؟ قال لها إن تعلم الإنجليزية يتطلب صبراً عظيماً؛ ينبغي أن لا تتعب من مد لسانها خارجاً هذه البرهة القصيرة؛ ربما يترتب عليها أن تتحمل صعوبات أكبر قبل أن تتعلم اللغة الجديدة.
كانت إيلين قد سحبت مُسبقاً لسانها الصغير إلى داخل فمها مرة أخرى قبل أن تناديها أولريكا من فوسترغوهل: يجب أن تساعد إيلين أمها في تحضير

وجبة المساء. والفتاة أطاعت وتركت روبرت في الحال. وهو جلس وحيداً، متضايقاً ومتألماً؛ ما إن جلس مع إيلين حتى وجدت لها أمها شيئاً ملحاً تفعله. كان يمكن لأولريكا أن تعد الطعام بسهولة وحدها وتعطي لابنتها الفرصة لتتعلم الإنجليزية، الآن ولديها مثل هذا المعلم الجيد.

مرّ فريدريك ماتسون، الذي يدعى «الأميركي» بالجوار يتمشى في سترته المميزة. وأظهر له روبرت الكتاب المدرسي وطلب منه أن يقرأ قطعة بصوت عال بالإنجليزية. لكن الأميركي لوح له متجاهلاً: ليس اليوم! ربما في وقت آخر. كان قد قرأ في الكتب الإنجليزية طوال سنين بينما كان في أميركا؛ وقد ملّ اللغة الإنجليزية. وهو الآن يقوم بنزهته المسائية ليسلي نفسه. سوف يقرأ من الكتاب في يوم آخر.

كان روبرت قد سأله عن أميركا الشمالية عدة مرات —حكومتها، أحوال تربتها، والمناخ. لكن الأميركي أجاب فقط بأنه غير مسموح له بالبوح بأي شيء؛ لقد وعد رئيس الولايات المتحدة بأن لا يقول عنها كلمة واحدة. وكان الرئيس قد أصبح واحداً من أصدقائه المقربين عندما كان هناك. كانا يعاقران الخمر معاً، ويشربان ويلعبان الورق في ليال كثيرة، كانا من أفضل الأصدقاء. وكان الرئيس قد أخبره بثقة من الأسرار العامة الكبيرة — بعد تعهد فريدريك بالكتمان، بطبيعة الحال. لأنه، فريدريك ماتسون، كان رجلاً أميناً يلتزم بكلمته.

لكن هناك بعض الأشياء في حكايات الأميركي، جعلت روبرت متشككاً.

والآن، ذهب روبرت وجلس بين بعض الشباب الذين يتشمسون على الدكة، وانضم روبرت إليهم. وتحدث الأميركي عن وظائفه المختلفة في الولايات المتحدة. وبالنسبة لمهاجر واحد هناك، كان ذلك عظيم الإفادة.

صالب الجنتلمان كثير الأسفار ساقَيه، واستخرج غليونه وعمّره؛ ثم نظر إلى مقدمة المركب، باتجاه الغرب، كما لو أراد أن يستحضر ذكرياته عن أميركا من ذلك الاتجاه، وشرع في الحديث.

في السنة الثانية التي قضاها في أميركا، تولى منصباً في سفينة تبحر في نهر المسيسيبي العظيم بحمولة من العاهرات. وكان هذا النهر عريضاً بعرض السويد كلها، وتسير فيه سفينة العاهرات متعقبة الشواطئ؛ وهو كان مسؤولاً

عن الحمولة — النساء على متنها. وقد حملت السفينة أكثر من مائة منهن، وكان مطلوباً من المشرف قدر كبير من الانضباط والنظام. ليلاً ونهاراً ظلّ يذرع السفينة وهو يضع مسدسين في حزامه. كان واجبه أن يمنع ويضع حداً لكل الشجارات التي تنشأ على المتن — بين النساء أنفسهن، كما وبين النساء وزبائنهن من الرجال. وإذا لم يستطع منع الاشتباك في الشجارات بأي طريقة أخرى، ترتّب عليه أن يطلق النار على الساقين. كان يبدأ من الكاحلين، وإذا لم ينفع ذلك، يطلق النار أعلى وأعلى. لكنه لم يكن مسموحاً له بإطلاق النار على النساء أعلى من أسفل الفخذ: ينبغي عدم إلحاق الأذى بأعضائهن. أما الرجال، فيستطيع أن يطلق النار عليهم كل المسافة حتى الرأس من أجل إخضاعهم. كان مركزاً مسؤولاً جداً هو الذي شغله في تلك السفينة النهرية.

وقد أبحرت السفينة من بلدة إلى بلدة، حيث يمكثون بضعة أيام في كل مكان ويأتي الرجال إلى السفينة ويتم العمل. وكانت تلك أكثر الأيام هدوءاً، لأن النساء لم يكنّ عدوانيات وهن يكدحن في حرفتهنّ.

وقد نال عن عمله أجراً مجزياً؛ وشملت أجرته الطعام، والملابس، وامرأتين في اليوم — إذا رغب استعمالهما. بعض الفتيات كُنّ صغيرات وجميلات. لكنّ أخريات مارسن مهنتهن طويلاً حتى أنه يفقد كل رغبة في النساء عندما ينظر إليهن. وهو لم يشعر أبداً بأنه في بيته حقاً أثناء عمله على سفينة العاهرات في المسيسيبي. لأنه إذا ترتب عليك الإشراف على حفظ النظام بين مائة عاهرة، فإنه يتبقى لديك القليل من الوقت للراحة والتفكير الجدّي. كانت هناك قلاقل وضجيج طوال الأيام والليالي. وفي تلك الأوقات، لم يتمتع بصحة جيدة أيضاً، بسبب أكثر الإسهالات إزعاجاً والتي أصابه بها الطقس الحار. وهو كان صاحب تفكير جادّ، وفي حاجة إلى الراحة والوقت ليستجمع أفكاره. وكانت الراحة الوحيدة التي يتلقاها طوال الأسبوع هي في صباحات أيام الأحد، بين العاشرة والثانية عشرة، عندما يقيم كاهن السفينة القداس ويعظ المستَخدَمين؛ وحتى لا يقلق إيمانهم، لم يكون مسموحاً لأحد بأن يطلق مسدساً في ذلك الوقت إلا عند الضرورة القصوى.

بغير ذلك، كان عليه أن يستخدم مسدسيه باستمرار تقريباً. لم يكن يستطيع فعل شيء آخر عندما تشرع العاهرات بالعض والخدش بالأظافر والركل. بل

إنهن كن يملن حتى إلى مهاجمته — كانت لذلك العمل نقاط غير مرغوب فيها.

وعندما أبحروا إلى أعالي النهر وأسفله بضع مرات، قرر أن يغادر هذه البقعة ويذهب إلى الشاطئ. وقد منحه القبطان رسالة توصية ممتازة — وكانت هذه الرسالة لتظل في صندوقه البحري، لو أنها لم تضع خلال رحلته حول العالم. وكان القبطان قد كتب عنه أنه جدير بالثقة، ولديه حسّ بالتنظيم، وطريقة جيدة للتعامل مع العاهرات، سواء خلال ساعات عملهن أو بينها. لقد حصل في الحقيقة على أفضل أنواع التوصيات لو أنه أراد الاستمرار في ذلك الخط من العمل. لكن مثل تلك الحرفة لم تكن لترضي شخصاً من نوعيته على المدى البعيد.

وصلت القصة إلى نهايتها. وقد تغامز الشباب الأصغر سنا من بين أولئك الذين جلسوا على الدكة حول الأميركي. لم يكن أي منهم قد اقترب من امرأة منذ مغادرتهم الوطن. وفي القمرات المتقاربة في المهجع، كان حتى الرجال المتزوجون يقضون وطرهم بالكاد. ربما يلهون مع زوجاتهم، في بعض الليالي، بهدوء شديد بحيث لا يسمعهم أحد. لكن كل أولئك الذين بلا زوجات، بلا أحد يزحفون إلى جواره، يجب أن يتوقوا ويتعذبوا. وهذا الوصف لسفينة كاملة مليئة بالنساء الراغبات، حرك أخيلة الشباب وأيقظ غرائزهم الدفينة.

الآن، كان عدد آخر من المسافرين الرجال قد انضموا إلى الحشد حول الأميركي؛ وتشكلت حلقة من المستمعين، وجلسوا كلهم هناك، حول الرجل في المعطف المميز، بصمت موحٍ. وأمكن تأويل الصمت فقط على أنه رغبة في أن يستمر القاصّ برواية حكاياته. وهو، نظر باستفهام إلى مستمعيه، كما لو أنه يريد أن يعرف بماذا يفكرون إزاء تجاربه في أميركا. ثم استأنف.

كانت لدى الأميركيين الكثير من المؤسسات التي لا تصدَّق تقريباً. في الولايات المتحدة، كانت هناك أماكن مترفة حيث تستطيع النساء البحث عن المتعة مع رجال. كان هناك واحد من مثل هذه الأماكن في مدينة شيكاغو العظيمة — بيت عهر للرجال حيث يخدم رجال النساء، حيث يتم العهر رأساً على عقب، كما يمكن القول. كان نفس العمل على سفينة المسيسيبي — وإنما فقط بشكل عكسي.

ذات ربيع، في شهر أبريل، وصل هو وصديق له إلى شيكاغو للبحث عن عمل. والتقيا في حانة بمدير بيت العهر الرجالي هذا، الذي كان خارجاً يبحث عن رجال. وبما أن الأميركي وصديقه كانا كلاهما مُعسِرين، فقد وافقا على القبول بالوظيفة بعد التفكير في الأمر؛ وكان الأجر مرتفعاً وكانا —بطبيعة الحال— قليلَي الفضول إزاء واجباتهما: لم يكونا قد سمعا من قبل بمكان حيث يُدفع للمرء مقابل الشيء الذي عادة ما يَدفع المرء مقابله لأنه يريده. كانا قد عملا حطّابين طيلة الشتاء، وأصبحا في حاجة إلى بعض التغيير. وفي أكواخ الحطابين، عاشا عدة أشهر بين رجال فقط، وقد فقد بعض زملائهم العاملين عقولهم تماماً لأنهم كانوا محرومين من النساء —لأن ذلك —في نهاية المطاف— يؤثر على العقل؛ وعندما لا يتم غرس البذرة أبداً، فإنها تشق طريقها إلى الرأس، حيث ربما تتسبب بنمو بشع في الجمجمة؛ وسيترتب أن يفتح طبيب هذه الزوائد لإنقاذ الإنسان من الجنون. وهكذا، أصبحا راغبين في مضاجعة أي امرأة تُتاح لهما، بعد ذلك الشتاء.

ولكن، وللكثير من الخيبة، فإنهما لم يكونا يعرفان أي نوع من النساء كان عليهما أن يعتنيا بهنّ، لأن كل اللواتي أتين إلى بيت العهر الرجالي هذا كنّ يضعن أقنعة على وجوههن. وكن في الغالب نساء ذوات رغبات غريبة، لم يستطعن العثور على رجال بالطريقة الاعتيادية. هناك جاءت زوجات أكابر جميلات، كان أزواجهن في رحلات طويلة، واللواتي ربما لم ينلن المتعة في السرير منذ سنوات؛ وأخريات ربما يكن مصابات بعيب ما، يجعلهن غير جذابات للرجال وتركهن بلا فرصة. لكن معظمهم كن نساء ترملن بينما ما تزال دماء شبابهن دافئة؛ وقد عوّدن أنفسهن على الرجال بقوة بحيث لم يستطعن التكيف مع الوحدة. وفي ذلك المنزل، كان الرجال جاهزين دائماً لهن، وما سعت إليه النساء هناك كنّ يجدنه دائماً؛ لا أحد استطاع أن ينكر ذلك.

في البداية، بدا غريباً أن ينام المرء مع امرأة مقنّعة. وبدا الأمر دائماً كما لو أنها المرأة نفسها، وكأن المرء متزوج ومتمسك بزوجته نفسها. بالطبع، كان هناك قدر كبير من الفرق في الأجزاء الأخرى من الجسد، لكنه سرعان ما نسي ذلك. لم يكن ينظر إلى الفروقات؛ فقد كانت هناك أشياء أخرى يفعلها. في البداية، بدا الأمر شبيهاً بحقل برسيم طازج، لكن ذلك لم يدُم طويلاً. سرعان ما

أصبح الأمر عملاً روتينياً كان مُستأجراً لتأديته؛ وسريعاً، لم يعد يهتم بالكيفية التي تتخذها أشكال النساء. في بعض الأحيان، كان يحدث أن تكشف امرأة جزئية عن وجهها، لكن الجميلات فقط كنّ يفعلن ذلك. ربما اعتقدن أن الوجه الجميل سوف يجعل الأمر أسهل عليه، ويساعده في عمله، كما كان واقع الحال. وكان ذلك النوع من التفسير صحيحاً، كما يعتقد.

وقد فهم ذلك القدر، بعد العناية بعدة مئات من النساء: ولم يكن كلهن أميرات جميلات. لكنه لم يستطع أن يختار، كلهن تجب العناية بهن بنفس الجودة. وقد أصدر صاحب بيت الدعارة ذاك تعليمات صارمة بشأن ذلك، ولم يُسمح لأي شخص بالتهرب. البعض لم يكن يكتفين أبداً؛ كن يغضبن ويشتكين بعد ذلك من أنهن لم يتلقين قيمة نقودهن، وبقدر ليس بالقليل. حسنا، النساء العبوسات والمزعجات وجدن فعلاً في هذا العالم؛ ولا يستطيع المرء أن يرضي الجميع.

لكن نال هو وصديقه ما يكفي من عملهما في بيت الدعارة الرجالي؛ تعبا منه وأصابهما الضجر، كلاهما. كانا يتناولان طعاماً غنياً ومغذياً في المكان، البيض وشرائح الحمل الغضة ولحم الخنزير السمين والحساء في كل وجبة — كان ذلك فقط ما يتطلبه الجسم في مثل ذلك العمل. لكن لم يكن حتى الطعام المغذي كافياً على المدى البعيد؛ ولم يكونا يميزان وجهيهما عندما ينظران إليهما في المرآة. قواهما خارت؛ وهاجم الوهن أولاً ركبهما، التي أصبحت مثل القش — وكانت سيقانهما تنحني تحتهما كلما أرادا المشي. كانا يذويان كليّة. وكان زملاؤهما ممن عملوا قبلهم ولوقت أطول في المنزل مجرد هياكل عظمية. كانوا يسيرون متعثرين حول الغرف، وعظامهم ترنّ. لم يستطع أي رجل البقاء في المكان أكثر من ثلاثة أشهر. أما أولئك الذين مكثوا وقتاً أطول، فلم يتعافوا أبداً، كانوا يفقدون قوة شبابهم كل الوقت، وقد دُمروا إلى الأبد.

لكنه انسحب هو وصديقه في الوقت المناسب — بعد ستة أسابيع من العمل، عادا إلى الغابة. وفي التحليل الأخير، أحب المكوث أكثر بين الرجال في سقيفة التحطيب أكثر من العيش بين النساء في بيت الرفاهية. لكن كان ثمة اكتفاء معين في ذلك العمل مع النساء: لقد فعل أشياء طيبة، أرضى نفسه بطريقة غير أنانية. ومع ذلك، فإنه لم يكن هو ولا صديقه راغبين في تبديد صحتهما وقواهما تماماً، ولا حتى من أجل قضية خيّرة؛ تضحية على مذبح العفة، كما كان الأمر.

لأن على الإنسان مسؤوليات تجاه نفسه أيضاً، كما خلص فريدريك إلى القول.

ران صمت مطبق في حشد الرجال بعد أن أنهى قصته. وجلست هذه الدائرة من المستمعين وهم يحدقون فيه. لم يستطع أحد منهم العثور على كلمات مناسبة ينطق بها، بعد قصة بيت الدعارة الرجالي في شيكاغو.

وفجأة، أفلت أحد الشبان ضحكة هادرة. نظر الآخرون إليه، فأحجم الفتى عن الضحك، محمراً من الإحراج. والأميركي أيضاً، نظر إليه باستهجان، باحتقار عميق، كما لو يقول له: ألا تستحي؟ وقابل الرجل الذي ضحك نظرة الأميركي، ولم ينطق بكلمة، لكنه بدا أنه شعر بخجل عميق. وقد أراده راوي الحكاية أن يشعر بالخجل.

ونهض فريدريك أيضاً، أومأ، وابتعد متبختراً.

٢

في نفس ذلك اليوم، اكتشف روبرت سر الأميركي. فقد حدث أنه ذكره لصانع الأشرعة. وقال الرجل العجوز إنه كان قد وُلد هو وفريدريك ماتسون في نفس الأبرشية —أساروم— في بليكينج. وقد عرف فريدريك منذ الوقت الذي ألقي فيه عنه لفافاته. كان الرجل دائماً وغداً وكذاباً ومفترساً نهماً للنساء. وقد تدبر أمره بشكل سيئ في الوطن: ففي مرة واحدة وفي الوقت نفسه، كانت هناك ثلاث نساء حاملات منه، وكان يدين بالمال لله والجميع، وقد نال الضرب من أكثر من شخص. ذلك كان السبب في أنه كان يتسلل هارباً إلى أميركا على ظهر تشارلوتا. لكنه لم يسبق له أبداً أن ركب البحر قبل أن يضع قدمه على هذه السفينة. كان بحاراً على اليابسة فحسب. إنه لم يذهب أبداً إلى أميركا، بل إنه لم يسبق له أن خرج أبداً من أبرشيته في الوطن، أساروم، حتى الآن.

سرعان ما اكتشف روبرت أنه كان عملياً آخر شخص على السفينة يعرف الحقيقة عن فريدريك ماسون: كان المسافرون يدعونه الأميركي فقط لأنه لم يكن قد ذهب أبداً إلى أميركا.

لعدة أيام، شعر روبرت بخيبة الأمل في صديقه صاحب المعطف المميز، الذي لم يشأ أن يكشف له الأسرار عن الولايات المتحدة الأميركية. ومنذ الآن

وصاعداً، لم يستطع أن يصدق ما يقوله له فريدريك؛ ينبغي للمرء أن يعترف بأنه لم يتمسك بالحقيقة.

لكن روبرت كان يعرف ذلك عن نفسه، أيضاً: عندما أراد أن يروي شيئاً قرأه أو عاشه، لم تكن الحقيقة وحدها تكفي دائماً. ربما يصل إلى مكان في القصة، غير قادر على المضي أبعد منه، ويكون عليه عندئذ أن يختلق شيئاً حتى يتمكن من الاستمرار. وفيما بعد، ربما يعود إلى الحقيقة ثانية. والشيء الغريب في الكذبة هو أنها تكون دائماً هناك، داخل عقل المرء، جاهزة ليستخدمها عندما تحين الحاجة إليها. كان من السهل والمريح مزج كذبة في الحديث. ثم، بعد ذلك، عندما يكون قد أنهى حكايته، تكون الحقيقة والكذب قد انضفرت حتى يصبح من المستحيل التفريق بينهما — كله يصبح حقيقة.

ربما كان هذا هو واقع الحال مع الأميركي عندما وصف كل الأعمال المختلفة التي زاولها في أميركا. أما كونه لم يكن قد وطئ أرضها أبداً، فلا يهم كثيراً بعد كل شيء. لقد صدّق أنه كان هناك. ولذلك، وفي الواقع، لم يكن يكذب.

لو أراد الله أن يستخدم الناس الحقيقة فقط، فإنه لم يكن في حاجة ليضع اللاحقيقة في العالَم. ربما يكون قد خلق الكذب، لأنه يعرف أن الناس لا يستطيعون العيش بدونه.

كان يُدعى: داء السفينة

١

بينما توالت الأسابيع، عوّد معظم المسافرين أنفسهم على أرجحة السفينة.

كريستينا تعافت من دوار البحر؛ أصبحت تنهض وتتجول وتستطيع أن تأكل بانتظام تقريباً. لكنها لم تشعر بأنها معافاة بالقدر الذي اعتادت أن تكون عليه على اليابسة. بقي وهن معيّن مقيماً في أطرافها، وثقل —إذا جاز التعبير— يضغط على جسمها كله —كانت تتحرك بخمول وبلا رغبة. شيء ما ظل يضغط على صدرها أيضاً، بحيث تتردد أنفاسها لاهثة قصيرة. وقد اشتكى مسافرون آخرون —رجال ونساء— من نفس الشعور؛ ربما يكون هذا اعتلالاً ما تسببه الإقامة الطويلة على متن السفينة.

كما شرعت كريستينا أيضاً بالقلق على أطفالها: لقد أصبحوا شاحبين وبدت عيونهم صفراء. لم يعودوا يتمتعون بالحيوية في لعبهم، وقد فقدوا شهيتهم؛ رفضوا تناول طعام السفينة لأنه كان مالحاً جداً —كانوا يشتكون ويريدون الحليب الطازج. وكريستينا، أيضاً، افتقدت أكثر من أي شيء آخر الحليب الحلو الذي اعتادوا على شربه كل يوم. لكنها فهمت —إنهم لا يستطيع جلب بقرات حلوب معهم في البحر. لو أنها تحصل على ربع غالون من الحليب في اليوم لكل من أبنائها! إنهم لم يذوقوا قطرة واحدة من الحليب لشهر كامل. وكان كيس السكر الصغير قد أفرغ منذ وقت طويل، وذهبت كعكاتها، وأكل العسل، وقطع التفاح المجففة انتهت. وعندما كان الأولاد يسقطون ويجرحون أنفسهم ويأتون إليها، باكين، أو عندما أرادوا أن «ينزلوا» من السفينة، فقد كانت نعمة أن تكون هناك قطعة من السكر أو كعكة تُسكتهم بها. والآن، لم يعد لديها شيء تعطيه لهم عندما يأتون ويتوسلون.

اهتم فطام هارالد نفسُه بنفسه لأن حليبها جف بعد وقت قصير من الإبحار. وقد أملت أن يبقى في صدرها، بما أنه ليس لديها حليب آخر للطفل. وبخلاف ذلك، كان وضعه جيداً في أشهره الستة عشر؛ كفّ تماماً عن الزحف في الجوار، وشرع في المشي منتصباً بين الأسرّة في أماكن إقامتهم المكتظة. لكن سفينة تتدحرج على الأمواج، والتي نادراً ما تستقر، شكلت بالكاد مكاناً يتعلم فيه الطفل المشي. وقد اضطر هارالد الصغير إلى الجلوس على مؤخرته مرات أكثر بكثير مما فعل أخوه وأخواته في الوطن، على أرضية منزلهم الثابتة.

كان يوهان وليل—مارتا يثرثران عن «النزول» من السفينة والذهاب إلى البيت. إنهما لم ينسيا ما اعتادا أن يأكلاه ويشرباه على اليابسة —أرادا العودة وتناول الكعك وشرب الحليب.

وعدتهما كريستينا بحليب حلو وبعكك القمح، بقدر ما يشاءان، بمجرد أن يصلوا إلى أميركا. لكنها سرعان ما ندمت على هذا الوعد؛ الآن، أصبحت تتعرض لمضايقة الأطفال المستمرة: متى سيصلون إلى أميركا؟ الليلة؟ أم صباح الغد؟ سوف يصلون سريعاً. كم يكون «سريعاً» هذا؟ لم يعد بعيداً، إذا تصرفا جيداً وبقيا هادئين، قالت الأم. إذا بقيا هادئَين طوال اليوم ولم يقولا كلمة واحدة، هل سيصلون أميركا غداً؟

كانت ليل—مارتا تقنع في بعض الأحيان، وتبقى صامتة، لكن يوهان لم يكن يفعل أبداً.

«هل سنعيش دائماً على السفينة، يا أمي؟»

«كلا، ليس بعد أن نصل إلى هناك.»

«هل أننا لن نعيش في بيت بعد الآن؟»

«سوف نعيش في بيت في أميركا.»

«هل هذا صحيح يا أمي؟»

«إنه صحيح.»

«أريد أن أعيش في منزل سريعاً.»

«سوف تفعل، إذا بقيت هادئاً.»

«في بيت مثل الذي كنا ننام فيه في الوطن؟»

«في بيت مثله.»

«أين هو ذلك المنزل يا أمي؟»

«سوف نرى، عندما نصل.»

«هل من المؤكد أننا سنعيش هناك؟»

«مؤكد. سوف يبني بابا بيتا. الآن ابق هادئاً يا ولد، وإلا سيكون عليك أن تبقى دائماً على هذه السفينة.»

في بعض الأحيان، فكرت كريستينا بأن إسكات الأولاد بالوعود لم يكن صحيحاً. ما الذي تعرفه عن بيتهم الجديد في أميركا الشمالية؟ نفس ما يعرفه الأطفال بالضبط! كان ما تعرفه على وجه اليقين هو أنهم ربما لا يملكون أصغر رقعة من الأرض هناك، ربما لا يملكون أصغر زاوية تكون لهم هُم، ربما ليس أصغر وأفقر كوخ على الأرض، الذي يستطيعون أن يسموه البيت. لم يكن حتى أكثر السقائف تواضعاً ينتظرهم هناك، ليس أكثر الأكواخ بؤساً والذي يستطيعون الانتقال إليه. عندما بدأت هي وكارل أوسكار في تحضير أغراض المنزل في المرة الأخيرة، استطاعا البدء في بيت راسخ جيداً، حيث كان الأثاث والعائلة في انتظارهم. وفي المرة التالية يترتب عليهما فيها إنشاء منزل، فسيكون عليهما أن يفعلا ذلك في بلد غريب، ويجب عليهما أن يبدآ من الأرض، بلا شيء. لم تجرؤ على التفكير في «الاستقرار» الذي ينتظرهم: ليس لديهم مسمار واحد لحيطانهم، ولا لوح خشب للأرضية، ولا لسقفهم. عندما يحطّون في أميركا، لن يكون ثمة شيء جاهزاً من أجلهم —لا مائدة منصوبة، ولا سرير مصنوعا. لن يكون لديهم مقعد يجلسون عليه، ولا شيء يريحون عليه رؤوسهم. كان هذا هو الشيء الوحيد الذي تعرفه. وكما كانت تفهم الأمر، فإن عليهم أن يرتحلوا بعيداً في البريّة بحثاً عن موطنهم الجديد. هناك، افترضت، سيكون عليهم أن يجلسوا على حجر ويأكلوا على آخر (إذا كان لديهم أي طعام)، وعليهم أن يناموا على طحالب العشب وأن يتدثروا بأغصان الشوح.

لم ترغب التحدث مع كارل أوسكار عن تحضيرهم الثاني لأثاث البيت؛ سوف يتضايق من ذلك فحسب. إنه لم يعدها بشيء. بأي شيء يمكن أن يعد؟

لكنها تستطيع أن تفكر من تلقاء نفسها، يمكنها أن تتصور كيف سيكون.

عليهما أن يبدآ من بداية البداية — كما بدأ الناس في الوطن قبل ألف عام؛ يجب أن يعيشا مع الأرض بنفس الطريقة التي فعل فيها الكادح الأول وزوجته.

٢

كان هناك تسعة عشر طفلاً على متن السفينة تشارلوتا عندما غادرت كارلسهامن. لكن حزمتين صغيرتين من الأكفان أُنزلتا إلى المحيط من على سطحها: واحدة لولد في السنة الأولى من عمره، والذي مات بالسعال الديكي؛ وبنت في الخامسة أصيبت بحمى السفينة. أما الأطفال السبعة عشر الباقون الآن على السفينة، فقَد اعتُبروا بصحة جيدة.

كانت ليفا الصغيرة، ابنة دانجل وإنجا—لينا المولودة أخيراً مريضة جداً، حتى اعتقد الجميع أنها ستموت. لكنه الله جعل الوالدين يحتفظان بطفلتهما، وقد كسبت الآن القوة وأصبحت في حالة جيدة تماماً. واعتقد دانجل أن معجزة حصلت، لأن ابنتهما عانت من مرض أكثر حدة بكثير من الطفلين اللذين ماتا.

لكن الطفلة لم تكد تتعافى حتى مرضت أمها. عندما غادر دوار البحر إنجا—لينا، أصبح يصيبها كثيراً صداع ودوار هائلَان. وبينما كانت تطبخ أو تقوم بالأعمال الروتينية، كانت تصاب بنوبات من الإغماء؛ ثم يتوجب عليها أن تذهب وتستلقي لبعض الوقت. وفي وقت مبكر من الرحلة، عانت من الإمساك —والآن تغيرت الأمور وأصبح عليها أن تركض إلى بيت الراحة في مقدمة السفينة في كل ساعات النهار والليل. واستمر ذلك أسبوعاً وراء أسبوع، ولا يمكن لن يصاب أحد بالإسهال كل هذا الوقت الطويل بدون أن يصبح ضعيفاً ومنهكاً جداً. والآن، أصبح هناك دم في برازها أيضاً، وقد أقلقها ذلك كثيراً.

لم تكن إنجا—لينا تحب الشكوى، لكنها وضعت ثقتها الآن في كريستينا: ربما لم تكن بخير تماماً. وقد صلت لله خصوصاً ليساعدها بشأن البراز المدمى، الذي أفزعها، لكنها لم تتلق حتى الآن أي استجابة لصلواتها. ربما التقطت

طوال الرحلة، شعرت كريستينا بالرثاء لحال زوجة خالها دانجل: إن إنجاـــلينا لم تعط لنفسها أيّ راحة أبداً، وإنما سهرت دائماً على راحة زوجها وأولادها، متأكدة من أنهم يتناولون طعامهم بانتظام وأن تكون ملابسهم على ما يرام. دائماً شغلت نفسها بشيء ما. كانت إنجاـــلينا مثل سفينة مبحرة في البحر، تتحرك في كل لحظة. ينبغي أن لا يستمر ذلك، فقد أصبحت نحيلة، ومنهكة حتى العظم. في بعض الأحيان تستطيع بالكاد أن تمشي، متهادية وكأن كل خطوة هي خطوتها الأخيرة.

قالت كريستينا إنّ عليها أن تذهب للنوم؛ يجب أن يقوم دانجل بالعمل نيابة عنها.

بدت إنجاـــلينا محتارة. «دانجل لا يجب أن يعلم! يجب أن لا يعلم أنني مريضة.»

«لِمَ لا؟»

«تكفيه متاعبه، المسكين.»

«لكنه بخير.»

«كلاا!» وخفضت إنجاـــلينا صوتها: «إن لديه معاناته الخاصة. يجب أن يقيم السلام مع الله.»

«أوه. لكنه يمكن أن يكون مفيداً في نفس الوقت،» قالت كريستينا. «إنه لا يحتاج إلى الصلاة في كل دقيقة.»

«إنه لن يعاني من الأشياء الدنيوية. والآن يجب أن يجب أن يصلح الأمور بينه وبين الربّ.»

وتكلمت إنجاـــلينا بما يشبه الهمس: يجب أن لا تقول كريستينا الأمر لأحد، لكن زوجها اعترف لها بأنه ارتكب خطيئة عظيمة، أعظم الكبائر جميعاً: لقد سقط في إغراء الغرور الروحي حين اعتقد نفسه خالياً من الخطايا، وأن المسيح سامحه مرة وللأبد، وبأنه لا يمكن أن يخطئ مرة أخرى لأنه آمن بالمخلِّص. لقد اعتبر نفسه معصوماً، وشعر بأنه فوق القانون. لكن، ذات يوم، عرّاه الله وكشفه، حتى أنّه عرّى روحه ذاتها وجعله يراها كيف هي؛ لقد جُرّ وهُبط به ليصاب بدوار البحر بين الخاطئين وغير المُتقين. ومنذئذ، تغيّر كثيراً.

قال دانجل إنه تلقى لكمة قوية على الأذن من الربّ بسبب غروره واعتقاده بأحقية الذات؛ والآن، أصبح يسير وهو يعاني من الدوار بسبب تلك اللكمة. كان يوبخ الآخرين لأنه كانوا شكّاكين؛ والآن، صار يطلب الغفران منهم جميعاً. وطلب من إنجا ـــ لينا الغفران مع أنه لم يفعل معها سوى كل خير.

كان زوجها العزيز يعتبر نفسه سابقاً أفضل من الخاطئين الآخرين، والآن صار يرى نفسه أقل. وقد أخبر إنجا ـــ لينا بأن الشخص الصالح الوحيد بين كل من في السفينة هو إولريكا من فوسترغوهل. لقد تحررت من الآفات، ونجت من دوار البحر. كانت مُختارة. هي التي أذنبت مئات المرة بالفجور ـــ ومع ذلك كانت هي التي اختارها الربّ.

ومن أجل خاطر هذه الإنسانة الوحيدة الورعة، من أجل خاطر أولريكا، قال دانجل، أيد الله سفينتهم في العاصفة المروّعة وأنقذهم جميعاً من الغرق؛ وعليهم جميعاً أن يشكروا المرأة المرحة على إنقاذ أرواحهم.

«ذلك كذب،» صاحت كريستينا مستثارة. «إنني لن أصدقه أبداً! تلك المرأة ليست أكثر قداسة قيد شعرة من بقيتنا!»

«لا تقولي ما قلته لك،» رجتها إنجا ـــ لينا. «لا تقولي شيئاً لدانجل. ولا تخبريه بأنّي مريضة. أرجوك، عِديني!»

رأت كريستينا أن عليها قطع ذلك الوعد. ولكن، كَم أحبّت أن تقول الحقيقة لخالها. ألا تدرك أن زوجتك تقتل نفسها هنا في البحر؟ إنّ الله لا يمكن أن يكون قد أراد أن تهب صحتها حتى تستطيع أنت الهروب من المشاغل الدنيوية. ألا يريد الله، على العكس تماماً، من الزوج الشريك أن يكون لطيفاً مع زوجته، ويساعدها عندما تكون مريضة؟ وإذا كنت تمتلك حواسك وبصر عينيك، فإنك يجب أن تفهم أن زوجتك مريضة جداً!»

لكن الشيء الغريب كان أنها لم تكن لتستطيع أن تتحدث بلهجة التقريع إلى خالها دانجل. في حضور هذا الرجل ذي العينين الطيبتين، لا يستطيع المرء استخدام الكلمات القاسية. كان في نظرته شيء يهدئ عقل المرء ويستدعي التوقير. وعندما يطوي ركبتيه ويصلي، كان النور يصعد إلى وجهه ـــ حتى لو كان راكعاً في القيء على الأرض. كان يتصرف أحياناً بحماقة، لكن الجميع يترددون في السخرية منه. ولم تستطع كريستينا أن تفهم لماذا كان من الصعب

جداً أن يقرعه المرء. ربما كان أقرب إلى الله من الفانين الآخرين — ربما كان هذا هو الذي كانت على بيّنة منه.

لكن الحقيقة ظلت، مع ذلك، هي أنّ زوجته تقتل نفسها، من دون أن يلاحظ ذلك. كانت إنجا—لينا مثل حيوان منزلي داجن يتبع سيده. وحسب التعاليم المسيحية، يجب أن تكون المرأة خاضعة لزوجها — ولكن هل قصد الله أنها يجب أن تكون ملتزمة ومجبرة بشكل مطلق على اتباعه عندما يجرّها إلى البحر؟

لم تكن كريستينا واثقة من هذا.

٣

ظل كارل أوسكار سليماً وبصحة حسنة بجسده، بينما هو في البحر، لكن الإقامة الطويلة في قمرتهم الضيقة كانت محبطة لعقله. وعندما يبدأ الحياة جديداً على قارة جديدة، فإنه سيحتاج إلى روح وثّابة، والآن لم يعد كما كان وهو على اليابسة. كان يدور وهو مليء بالقلق على المستقبل، وهذا ما لم يفعله أبداً من قبل. ثمّ، كان هناك شيء ناقص جسدياً: إنّه لم يستطع أن يرضي نفسه مع زوجته ولو مرّة واحدة أثناء كامل رحلتهما. وكان ذلك عائداً إلى سوء الحظ. فبينما كانت كريستينا ما تزال بصحة جيدة، كان عليه أن ينام مع الرجال غير المتزوجين؛ وعندما انتقل فيما بعد إلى الجهة الأخرى من ستارة الشراع، كانت مريضة. وبما أنها ما تزال ضعيفة، فإنه لم يستطع أن يسعى إليها.

منذ تزوج، كان الرضا مع زوجته عادة. وعندما لم يعد يستطيع ممارسة هذه العادة، أصبح الأرق والتوتر يزحفان على جسده، ويصبح مزاجه غير سويّ ونومه غير مريح. كان ثمة شيء ناقص، وكانت أفكاره منجذبة إليه — إلى ذلك الشيء المفقود. عندما كان يستطيع إرضاء نفسه مع كريستينا، فإنه نادراً ما فكّر في نساء أخريات — إنهنّ لم يكنّ يعنينه. والآن، خلال كبح شهوته، أصبحنَ يثرنه كثيراً حتى أنه شعر بالضيق والخجل: إنه يفتقد ما لا يستطيع أن يحصل عليه. كان من الطبيعي فقط أن يستمتع رجل يتمتع بالصحة مع امرأة؛ والوضع هنا على السفينة كان غير طبيعي.

كما لم يكن لدى كارلَ أوسكار ما يكفي ليفعله في البحر. كان له وقت

ليقلق ويفكر ويتساءل. كان يدور ويفكر بما يترتب عليه أن يكون من دونه. في المرات التي كان هو وزوجته قد أرضيا نفسيهما معاً عادت بسهولة إلى عقله. ولم يحدث ذلك له بقصد، وقد حاول أن ينفض من ذهنه مثل هذه الأفكار: إن لديه أموراً أخرى ليفكر بها، الآن، في وسط الحركة الأعظم في حياته. لكنه كان يعود إلى هناك مرة أخرى، يفكر في متعهما في السرير، ومرة أخرى يشعر بالخجل: ما الذي يجري له؟ يجب أن يتمكن من المضي بدون ذلك لفترة. يجب أن يكون هذا حدث كثيراً للعديد من الرجال. فلماذا هو مؤلم جداً بالنسبة له؟ هل كان شبقه أكثر من الرجال الآخرين؟ ها هو يناضلها الآن، كان ذلك هو مرض السفينة المخصوص بالنسبة له. وهو عرف ذلك بالتأكيد —على المدى البعيد، لا يستطيع البقاء على الحياة من دون امرأة.

ذات ليلة، حلم كارل أوسكار بأنه ذهب إلى النساء غير المتزوجات — إلى أولريكا من فوسترغوهل، واستعملها.

واستيقظ وشعر بالعار من حلمه؛ لقد حملته أفكاره إلى حد مضاجعة المرأة المرحة، العاهرة سيئة السمعة، حيث كان أكثر من مئة رجل قد وصلوا من قبل! كان نائماً خلال ذلك، بالطبع، لكنّ ذلك فاجأه وصدمه مع ذلك. ومع أنها كانت فعلة ارتكبها في نومه، فقد كانت مع ذلك فعلة مشينة.

تساءل عمّا إذا كان سيذهب أبداً إلى أولريكا بينما يكون مستيقظاً. إذا كان عليه أن يحرم نفسه ويعيش بغير ذلك فترة تكفي، فإنه ربما يفعل. لم يكن متأكداً تماماً. كان قد نظر إليها أحياناً، وشعر بأن فيها شيئاً يغويه. كان جسدها محفوظاً بشكل جيد على نحو غير معتاد، وعادة ما كان الرجال يُستثارون في حضورها. لكن ما يكفي من التعقل ينبغي أن يبقى بالتأكيد في عقله ليبقيه بعيداً عن مثل هذه المرأة. وبدأ يتفق مع كريستينا: بمجرد أن يحطّا في أميركا، فإنهما يجب أن يفصلا نفسيهما عن المرأة المرحة. إن كريستينا لا يمكن أن تصبح أبداً صديقة للعاهرة العجوز. وإذا ما بقيا بصحبتها، فإنّ خطباً ما لا بدّ أن يحل، إن عاجلاً أو آجلاً.

لم تكن هنالك أي طريقة لمعرفة مدى قرب الوقت الذي يمكن أن يعيش فيه هو وزوجته معاً، كزوجين قويين سعيدَين. وقد اشتكت كريستينا من أمراض جديدة: كانت أطرافها ومفاصلها تؤلمها، وكانت لديها آلام في أسفل ظهرها.

كان غريباً جداً أن تكون لديها هي التي ما تزال شابّة آلام في الأطراف والمفاصل، مثل امرأة عجوز. وفي بعض الأحيان، كانت تهاجمها البرديّة والقشعريرة، وقالت إنّ ذلك يشبه سيولاً من الماء البارد كالثلج، التي تجتاح جسدها كله. وهذا المرض لا يمكن أن يكون ناجماً عن البحر، لأنه كان يظل معها في الطقس العاصف وعندما يكون الجوّ هادئاً تماماً. كانت دائماً تشعر بالبرد — حتى وهي تجلس على السطح في الشمس، وهناك تلفها القشعريرة. وتشعر بأن كل الدمّ الذي يسير في عروقها قد برد ولم يعد يدفئها. ثم كان هنالك ضغط يعظم في صدرها، ويضيّق على تنفسّها، ومعه الوهن والإجهاد اللذان لم يفارقاها أبداً.

طوال حياتها لم تمرض كريستينا مرّة وتنم في السرير، سوى في سرير طفولتها؛ لكنها الآن أصبحت مريضة.

كان مرضها مصحوباً بـ«الكسل العظيم،» كما كان المسنون يسمونه — وهو أحد أسوأ النقائص. لم تكن ترغب في أن تتحرك، ولم ترد أن تستخدم ذراعيها أو ساقيها، لتمشي أو تقوم؛ لم ترد أن تمارس واجباتها وأعمالها العائلية. كان تحضير الطعام يشكل لها جهداً هائلاً، وكان جهداً كبيراً أن تغيّر ملابسها أو ملابس أطفالها، وفي كل صباح كان عليها أن تجبر نفسها على النهوض والاغتسال وارتداء الملابس. وكانت تترك المزيد والمزيد من الأعمال المنزلية لكارل أوسكار. وبدأت تشعر بأنها بائسة وبلا فائدة في هذه الرحلة. كسولة جداً كما لم تكن أبداً من قبل، وكان ما تفعله خلال اليوم قليلاً جدياً. لا بد أنه البحر هو الذي امتصل القوة من أجساد وعقول أهل اليابسة.

أفرغت كريستينا زجاجتي الدواء اللتين حصل عليهما زوجها لها من صندوق أدوية القبطان. لكنها شعرت بأنها أضعف فقط بعد ذلك.

«إنك تجلب معك امرأة محطمة إلى أميركا يا كارل أوسكار،» قالت. «أخشى أنني سأكون عبئاً عليك فقط.»

«ستكونين بخير ما إن تصبحي على اليابسة،» أجابها. «إنها فقط أطعمة السفينة النتنة هي التي لا تستطيعين تحملها.»

كانوا يتلقون فقط أطعمة قديمة مملحة، ملوثة بروائح البراميل والصناديق الخشبية، وتخالطها مذاقاتُ قيعان البراميل والأواني القديمة الكريهة. لم يتلقوا

ولا حتى نقطة حليفة، ولا شريحة خبز طازجة، ولم يتذوقوا أبداً طعم زبدة ممخضة حديثاً، ولا قضمة من لحم غير مملح؛ وإنما مجرد طعام ظل مخزوناً لوقت طويل. بل إنهم لم يستطيعوا أن يسلقوا أبداً وعاء من البطاطا — البطاطا، التي كانت تبقي الجسم في حال حسن أكثر من أي طعام آخر، وتعطيه طاقته اليومية الضرورية. كلا، ما كان كارل أوسكار ليتفاجأ إذا مرض كل شخص في السفينة في النهاية بسبب حصص الطعام التي ينالونها. وهو أيضاً، شعر بخدر وارتخاء في أطرافه. كما اشتكى معظم الذين يتحدث معهم أيضاً من نفس الآلام التي تشعر بها كريستينا. سوى أن حالتها كانت أسوأ قليلاً من الآخرين. لكن أحداً لم يبدُ وأنه يتحسن. ولم يكونوا ليتحسنوا حتى يحطوا ويعيشوا ويأكلوا كما اعتاد الناس أن يعيشوا ويأكلوا. كانت الحياة في البحر مدمرة وغير ملائمة للكائن البشري؛ وفي الحقيقة، كان هذا هو ما تعلّمه.

وأضاف كارل أوسكار في نفسه: إنه لن يكرر أبداً هذه الرحلة في البحر. وسوف يعيش على اليابسة بقية حياته.

كانت كريستينا مقتنعة بأن مرضاً زاحفاً، مراوغاً وخطيراً قد تمكن منها — ولو أنها أبقت هذه المعرفة سراً عن زوجها. في هذه المرة، كانت الحياة نفسها في داخلها تحت الهجوم — والقلق الذي خبرته في اليوم الأول على متن تشارلوتا اجتاحها ثانية: هذا ليس دوار بحر، هذا المرض يهاجم الحياة نفسها. في هذه المرة، لا يمكنك أن تتعافي؛ لكنك تلقيتِ تحذيراً، لقد تلقيت تحذيراً من الله في تلك الأيام الأخيرة في الوطن: لا تخرجي إلى البحر! ابقي في الوطن! إنك لا تنتمين إلى البحر! لكنك لم تمتثلي، وغادرتِ. وأنت تعرفين. هذا هو السبب في أنه كان لديك ذلك الهاجس الذي ساورك في اللحظة التي دخلتِ بها قمرتكم في السفينة. إنها مثل القبر في الأسفل هنا، مثل قبر عفِن فظيع. ثمة شيء في داخلك أخبرك إن هذا سيكون قبرك. ذات يوم سوف يهبطون إلى هنا بقطعة قماش من أجلك؛ إنك لن تفلتي أبداً أبداً من هنا حية — سوف يحملونك ويخرجوك من هنا ملفوفة بالأكفان...

ربما تكون كريستينا قد سمعت اسم المرض التي عانت منه هي والآخرون هنا في الأسفل: الإسقربوط. ولم يكن ذلك اسماً قبيحاً مثيراً للاشمئزاز، وبدا مثل اسم شيء متعفن نتن، متهالك، قذر — شخص ميّت سلفاً.

كان ذلك الشيء اللعين يُسمّى أيضاً مرضَ السفينة.

حكايةٌ رُويت عند الكوّة الرئيسية

١

كان المسافرون على متن تشارلوتا أناساً نشِطين، أنفقوا حيواتُهم في العمل؛ وفي أيام الآحاد وأيام الأسبوع اعتادوا أن يكونوا مشغولين. كان لدى الفلاحين وزوجاتهم دائماً شيء ليفعلوه بأراضيهم. وعلى السفينة التي تحملهم الآن، واجهوا شيئاً جديداً: الفراغ.

كانوا ينظفون قمراتهم في عنبر السفينة يومياً، ويحضّرون الطعام ثلاث مرات في اليوم في مطبخ السفينة، ويصلحون ملابسهم، فرشاتهم، وسائدهم، وأي شيء ينكسر، واعتنت النساء بأطفالهن. لكن هذه الأعمال المنزلية لم تكن كافية لتملأ وقتهم في البحر. حوالي ثلاثة أرباع اليوم، كان معظمهم يظل بلا نشاط — متروكين مع أنفسهم بلا أي شيء يفعلونه. ولم يعرف هؤلاء الناس الكادحون أبداً ماذا يفعلون بوقت فراغهم.

بدت الأيام طويلة ممطوطة. ومضت حياتهم على متن السفينة تشارلوتا روتينية. ولم يكن قد خطر لهم أن الزمن نفسه — الحياة، التي قُدِّر لهم أن يحيوها— سوف يتحول إلى شيء غير سار ينبغي التخلص منه؛ شيء ينبغي أن يستعجلوه عندما يمرّ ببطء شديد. كانوا يُدفعون إلى دواخل أنفسهم، ولم يكونوا راضين عن تبطُّلهم؛ يمكنهم أن يكونوا وحيدين، ولكن ليس متبطلين. وبدأوا في البحث واحدهم عن الآخر.

عندما كان الطقس في البحر جميلاً، كانوا يتجمعون حول الكوة الرئيسية. وهناك يشكلون حزمة سميكة من الأجساد، واقفة، جالسة، مستلقية أو نصف مستلقة، محتلة كل بوصة من حيّز الدكّة. وربما تجلس الزوجات على رُكب أزواجهن، ويعشعش الأطفال في أحضان أمهاتهم أو آبائهم. ثم يحضرون ما قد

يكون قد تبقى في سلال طعامهم من الوطن، ويتقاسمون الطعام الشهيّ: واحد لديه رغيف خبز كامل متبقٍّ، وآخر ادخر قطعة مدخنة مجففة من لحم الحملان، وثالث تبقت لديه بعض الزبدة في إنائه الزجاجي، ورابع يعرض بفخر قطعة جبن كاملة غير منقوصة. كان الخبز واللحم والجبن تدور على الحاضرين، ويستخرج كل واحد سكينه ويقطع لنفسه شريحة من كل جزء من هذا الثالوث، ويفرد الزبدة على الخبز ويأكل. وربّما يحدث أحياناً أن يستل أحد غالوناً من البرانفين الذي صُنع في مخمرة إحدى المزارع في الوطن، من محصول السنة الفائتة لحقل شعير.

كانت تلك لحظات سعيدة بالنسبة للمسافرين على تشارلوتا. فيها يستعيدون شيئاً من موطنهم القديم في تلك الاجتماعات.

وهكذا، عندما يكون البحر رائقاً والسفينة تتمايل باعتدال، يجلس المهاجرون مجتمعين حول الكوة الرئيسية ويساعدون بعضهم بينما يعبر الوقت بطيئاً وعنيداً في مروره. كانت التراتيم تعزف على آلة بدائية وحيدة الوتر، وأنغام الرقص تُعزف على كمان؛ ويغني شخص ما أغنية —معروفة جداً في الوطن— ويحكي آخر قصة حقيقية غريبة.

كان المحيط عريضاً، وصادفت تشارلوتا ريحاً مُعاكِسة، ولذلك، حُكيَت الكثير من القصص بينما يجلس المهاجرون متحلقين على الدكّة. ومع ذلك، حكى يوناس بيتر ألبريكتسون حادثة غريبة غير عادية كانت قد وقعت في موطنه في الأبرشية في السويد.

٢

حدث ذلك قبل نحو مائة سنة، قال يوناس بيتر.

أصيب القسّيس دريسيل، الذي ظل راعي أبرشية ليودر لسنوات طويلة، بسكتة دماغية في غرفة المقدسات ذات صباح أحد قبل القداس، ومات قبل أن يتسنى لهم الوقت لحمله إلى خارج الكنيسة. كان في السبعين من عمره تقريباً، وقد أصيب بسكتتين أخريين قبل هذه الجلطة الأخيرة. وكان دريسيل قسيساً عادلاً وصاحب ضمير، طيباً مع الفقراء والذين يعانون. وقد عاش حياته كلها واعظاً، لكنّ القاصي والداني كانوا يعرفون أنه يستخدم فضله مع النساء بطريقة

محظورة في وصية الله السادسة. وذات مرة في أيامه الخوالي، وبّخه الأسقف الذي سمع شائعات قالت إن قسيسه الشاب زار امرأة متزوجة في السرير. وفيما بعد، عندما جاء الأسقف إلى ليودر ورأى كم كانت المرأة جميلة، منح قسيسه الغفران على خطيئة الزنا التي ارتكبها.

لكن قسيس ليودر غادر الآن هذه الأرض، في يوم أحد، خلال ممارسته واجباته. ومرّ الأسبوع كله —ولم يكن الرجل الميت قد دُفن بعد! وقد أثار ذلك العجب الشديد في الأبرشية، خاصة وأنّ الوفاة وقعت في أيام الصيف القائظة التي تصل فيها الديدان بسرعة إلى اللحم، وسرعان ما تبعث الجثة رائحة شريرة. وكانت ثمانية أيام فترة طويلة حتى تبقاها الجثة فوق الأرض في ذلك الوقت من السنة.

ومرت ثمانية أيام أخرى، ولم يكن القسيس دريسيل قد دُفِن بعد! وفي كل الأبرشية شرع الناس بالهمس والتساؤل عمّ عساها تكون المشكلة. لماذا لم يتم دفن قسيسهم الميت في وقت معتاد ومعقول؟ لا بدّ أن بعض التعقيدات ظهرت، وتم الإبقاء عليها سرّاً. ولكن، ما الذي يمكن أن يمنع خادماً للرب من الذهاب إلى داخل الأرض والتمتع بدفن مسيحي؟

كان بوسع القسيس ستينبيك من لانغاسيو، الذي احتل منصب القسيس، أن يجيب عن السؤال —لكن أحداً لم يشأ أن يسأله. ومن ناحية أخرى، سأل الكثيرون ماغدا، خادمة دريسيل، التي خدمت سيدها بإخلاص طوال العديد من السنوات، منذ شبابها، والتي كانت أقرب إليه من أي شخص آخر. لكنه كلما جرى الإلحاح إلى جنازة سيدها، كان فمها ينغلق بإحكام بحيث يحتاج فتحه إلى أزميل. وشعر الجميع بأنها لا بد تعرف سر تأخير الجنازة.

والآن، كان هناك شخص آخر يعرف السبب، وهو النجار في قرية الكنيسة الذي صنع الكفن للقسيس الميت. وكان قد وعد راعي الأبرشية ستينبيك بأن لا يقول شيئاً، لكنه تقاسم السر مع زوجته في لحظة ثقة، والتي وعدت هي الأخرى بحفظ السر. لكنها أسرت بدورها لزوجتين من الجيران، وبنفس الوعد، وبهذه الطريقة انتشر السر في الأبرشية كلها خلال بضعة أيام.

وطوال أسابيع وأشهر، لم يتحدث الناس عن أيّ شيء آخر في أبرشية ليودر أكثر مما حدث لجثة القسيس دريسيل — تلك العلامة التي يتعذر تفسيرها،

والتي ظهرت على جسده بعد الموت.

ماغدا، الخادمة المسنة والمخلصة، هي التي اكتشفت الموضوع في سقيفة التجفيف في بيت الكاهن، التي استخدمت لحفظ جثة القسيس. كانت قد خرجت لتغسل جثمان سيدها، وامتلأت بالذعر لدى اكتشافها. وكانت قد غسلت جثث العديد من الرجال من قبل، لكنها لم تر مثل هذا المشهد أبداً. كان سيدها يتمدد هناك ميتاً وبارداً، لكن جسمه كان جاهزاً لعمل رجل مع امرأة! وحتى عند الرجال في أفضل سنواتها، كانت قوة ذلك العضو تختفي مع وصول الموت؛ وكان دريسيل رجلاً مسناً. ولدى رؤية الإشارة، دب الوهن في جسد المرأة العجوز. وأصبحت على وشك الإغماء، وغير قادرة على الاستمرار في غسل الجثة، فغادرت سقيفة التجفيف.

وعادت في اليوم التالي، لكن شيئاً لم يتغير في الجثة. ومع ذلك، أنهت الغُسل في هذه المرة، دون أن تذكر لأحد ما رأته. وكانت قد خدمت القسيس بإخلاص بينما كان حياً، وأرادت أن تظل مخلصة له بنفس المقدار بعد مماته. ينبغي أن لا يُقال أي شيء يمكن أن يلطّخ سمعته.

ثم عادت ماغدا إلى بيت الجثة في اليوم الثالث، لكن العلامة المدهشة بقيت في سيدها. وفي نفس ذلك اليوم، جاء النجار بالكفن، والآن لم يعد بالوسع إبقاء اكتشافها سراً أكثر من هذا. ورأى النجار نفس الشيء الذي رأته، وكان منزعجاً بقدر ما انزعجت. ووافق مع الخادمة العجوز على أن لا يتم دفن راعي أبرشيتهم في هذه الحالة المروّعة. وطلبت الخادمة نصيحته: ماذا يجب أن نفعل؟ ولم يستطع النجار نفسه فعل شيء؛ لم يكن ذلك عمل رجل يحترف مهنته. وضد القوى الشريرة التي كانت تعمل هنا، لم يكن بالوسع فعل شيء بأدوات النجار —لم يكن بالوسع استعمال المطرقة ولا المسحجة. ولأنه أدرك مباشرة أن الشيطان نفسه هو الذي اتخذ مسكنه في عضو جثة الميت —في نفس العضو الذي تُرتكب به مُعظم خطايا الرجال. وعن طريق الاستيلاء على آلة الخطيئة هذه، يكون الشيطان قد حاز على بقايا القسّ دريسيل. يجب أن يأتي إلى هنا رجل روحاني ما ممن يستمدون القوة من الله، وينقذ الرجل الميت. ونصح النجار ماغدا ورؤية الراعي الجديد.

وذهبت الخادمة إلى القسيس ستينبيك وحاولت مترددة أن تفسر له وضع

سيدها. وتبعها القسيس إلى بيت الجثة. كانت الجسد الآن قد تمزق، لكن الخادمة المخلصة كشفت عنه بالقدر الذي يكفي ليرى القسيس بعينيه. وقد امتقع مما رأى. وطلب من ماغدا أن تغطي الجثة، وقال: لا يمكن دفن زميلي بهذا الوضع الشائن. ولم يقل أيّ شيء آخر. ولم يُسمِّ بالاسم تلك القوة التي سيطرت على دريسيل، لكن ماغدا فهمت أنّ النجار كان على حقّ.

كان يجب أن تقام جنازة القسيس دريسيل يوم الجمعة —واليوم هو الثلاثاء.

كان القسيس ستينبيك رجل دين يتمتع بقوى لمصارعة الشيطان. وكان قد حرر ذات مرة مزارعاً من لانغاسيو، وفي مرة أخرى حرر زوجة الكابتن في غريمسغول العجوز، التي كان الشيطان قد مسها لعدة سنوات. والآن، عاد إلى بيت الكاهن ووضع رداءه الكهنوتي. ومسلحاً بالكتاب المقدس والكثير من كتب الكنيسة، عاد إلى بيت الجثة وقفل الباب خلفه. كان دائماً وحيداً مع الشيطان عندما يصارعه.

وبقي الراعي الطيب في سقيفة التجفيف عدة ساعات. وفي اليوم التالي عاد مرة أخرى: لكن أيّ تغيير لم يحدث في جسد القسّيس الميت. وأغلق الراعي ستينبيك على نفسه في السقيفة ساعة في كل من اليومين التاليين، وواصل جهوده. لكن علامة حضور الشيطان ظلت هناك. لقد فشل ستينبيك في طرد الروح الشريرة هذه المرة. ولذلك، ينبغي تأجيل الجنازة — إذ لا يمكن إقامة جنازة بينما يتشبث الشيطان بالبقايا الهالكة لأخيه في الرعويّة.

كان ذلك شهر أيام قائظة شديدة الحر، وقد ظل القسيس الميت الآن فوق الأرض لأسبوع كامل. وعلى نحو كله غرابة، لم تنبعث أيّ روائح من الجثة. وبدا الأمر وكأن القوة التي اتخذت لها مسكناً في عضو الميّت حفظت جسده من التحلل.

لم يتمكن الراعي ستينبيك من هزيمة العدو القديم، وأصبح في حاجة إلى مساعدة، فأسرج حصانه ولسرع به إلى زملائه في أبرشيتي لينيريد وإلميبودا. وكان القساوسة في هاتين الأبرشيتين معروفين بقواهما الروحيّة الفائقة. ووصف لهم ستينبيك الفاجعة التي أصابت صديقهما القديم دريسيل بعد وفاته. فهلّا يعودان معه ويساعدانه في إجبار الشيطان على إفلات فريسته؟

كان القسيسان من لينيريد وإلميبودا يعرفان عن نقاط ضعف زميلهما أمام النساء، هذه الكائنات التي كثيراً ما تكون مصدر دمار لرجل طيّب. وقد فهما أن الشيطان امتلك روح القسّيس الآن بسبب خطاياه مع النساء في شبابه، ووعدا بأن يساعدا الراعي ستينبيك.

وفي اليوم التالي، التقى القساوسة الثلاثة متسربلين بالأزياء والإشارات الكهنوتية في منزل كاهن ليودر عند نعش زميلهما المُبتلى. وقد غنّوا، ورتلوا الترانيم، ورسموا علامة الصليب، وأقاموا القُدّاس الذي يُستخدم لطرد الشيطان. ثلاث قساوسة أحياء صلّوا من أجل أخٍ ميت، واستمروا في قداسهم طوال نصف فترة الليل.

وبقي رجال الدين الجيران في ليودر حتى اليوم التالي، عندما خرجوا من بيت الجثّة ليعرضوا نتائج طقوس طرد الشيطان التي أدواها بالأمس. لكنّ شيئاً لم يتغيّر. كان الشيطان ما يزال مُقيماً في عضو الرجل الميت. كان ما يزال يُطبق على فريسته. والآن، أصبحت فترة إقامة القسيس دريسيل ميتاً فوق الأرض أحد عشر يوماً.

تشاور القساوسة الثلاثة معاً بتركيز شديد. ما الذي ينبغي فعله؟ لم تكن القوى الروحية كافية هنا. ولم يستطيعوا دفن أخيهم وزميلهم — من إيداعه الأرض فيما العدوّ ما يزال مقيماً في جسده. كما لا يمكن أن تبقى الجثة من غير دفن لمزيد من الأيام. وقد تسرّب سبب تأخير الدفن بطريقة ما، وأصبح كل النّاس يتحدثون عنه. لم يكُن ذاك حدثاً جذاباً ومناسباً في مجتمع مسيحي.

تحدث رجال الدين عن السفر إلى الأسقف في فاكسيو ليطلبوا نصيحته. وكان الأسقف خادماً لله من ذوي الخبرة، وعلى دراية كاملة بمكائد الشيطان.

وعندئذ، اقتربت ماغدا العجوز من الراعي ستينبيك وطلبت الإذن بالتحدث إليه على انفراد. كان لديها اعتراف تريد أن تدلي به، سرّ رهيب لتبوح به. وقالت ما يلي. عندما جاءت للعمل عند القسّيس دريسيل أول الأمر، كانت في السابعة عشرة. وقد جاءت إلى الخدمة عنده عذراء. ولكن، وبعد أسابيع قليلة من الخدمة فحسب، قام بإغوائها لإقامة علاقة جسدية معه. وقد عاشت معه طويلاً في الخطيئة، لكنها شرعت بالقلق من الأمر أخيراً، وأحسّت بالخوف على خلاصها، وأصبحت تزداد نفوراً باطراد من السيد الذي كان قد أغواها

وقادها إلى الضلال. وبدأت تكره الرجل المغوي. وبسبب هذه الكراهية أقدمت على فعلة قاسية. صلت لله ودعته أن ينتقم لها، وطلبت إليه أنْ ينال سيدها عقابه — بأن يُسلَّم بعد موته إلى الشيطان.

وسرعان ما قضى دريسيل وطره منها وأشبع شهوته، وتحول إلى امرأة أخرى. لكنّ ماغدا ظلت تعمل في خدمته. ولم يعد لديها المزيد مما تشتكي منه. كان دريسيل طيباً معها. وبقيت تعمل في خدمته سنة بعد أخرى، ثم أصبحت مع الزمن خادمته القديمة المخلصة. والآن، وعندما لم تعد تعيش في الخطيئة معه، عاد إليها سلام عقلها.

حتى أنها سامحت سيدها بعد بضع سنوات على سرقته عذريتها وقيادتها إلى ارتكاب خطيئة الزنا. ولم يتوقف الأمر على ذهاب الكراهية من عقلها فقط، وإنما أصبحت هي نفسها مكرّسة بالكامل لخدمة الرجل الذي كان قد أضلّها. وقد خدمته جيداً، واعتنت به بكل الطرق. وأصبحت تعتمد عليه وهو يعتمد عليها. لقد تجاوزا كلاهما السنّ التي يسعى فيها الرجال والنساء إلى بعضهم البعض بدافع الشهوة الجسدية، لكنها أصبحا يشكلان بطرق أخرى لبعضهما العون والسلوى. وتعلمت ماغدا أن تعرف الرجل الذي أغواها ذات مرة كرجل طيب، كريم، عطوف ومُعين للمُعوزين. وعانت ماغدا بعمق لأنها كانت قد أرادت ذات مرة في شبابها أن تُدين هذا الرجل بالمعاناة والأبدية والتسليم للشيطان. كانت تلك خطيئة لعينة.

وعندئذ، ذات صباح أحد، لمس الربّ جبهة خادمه: أصيب دريسيل بسكتة دماغية في غرفة المؤونة، ومات. ثم جاءت اللحظة التي اكتشفت فيها ماغدا اكتشافها الرهيب: لقد اتخذ الشيطان له مسكناً في جسد سيدها. ورأت بعينها كيف أن الربّ استجاب لصلاتها ودعواتها التي كانت توجهت بها إليه في شبابها.

وقد مرّت عدة ليال منذ استُجيب لدعواتها. ومع ذلك، فإنها لم تتمتّع ولو بلحظة نوم ولا في ليلة واحدة. كانت تتمدد مستيقظة مكروبة لأن السيد الذي أحبته أصبح بسبب تحريضها مُلكاً للشيطان.

هذا كان اعتراف ماغدا العجوز. والآن، أرادت أن تبذل محاولتها الخاصة لتحرير القسيس دريسيل. ونوت أن تبقى ليلة كاملة في بيت الجثث، وحيدة مع

الرجل الميت والشيطان الذي تملّكه. أمّا كيف ستخلّص سيدها، فلم تكن تعرف. لكنها رغبت الاعتراف بما فعلته عند نعشه.

ونصح الراعي ستينبيك الخادمة بصبر نافد: اذهبي وافعلي كما تقولين!

وذهبت ماغدا إلى بيت الجثة في ذلك المساء نفسه، ورأى الناس ضوءاً يتّقد هناك طوال الليل. أما الشيء الذي فعلته للشخص الذي أغواها في شبابها، فلم يعرفه أحد. لكنهم خمنوا، وربّما بشكل صحيح: لقد توسلت لله كي يسامح دريسيل على الشرّ الذي فعله في حقها ذات مرة؛ وأكدت له أنها لم تعد تكره سيدها، وإنما أصبحت تحبه وتمجد ذكراه —لقد سحبت دعوات كراهيتها واستبدلتها بصلاة حب— وصلّت من أجل خلاص روحه.

وعندما جاء الراعي ستينبيك إلى بيت الجثة في الصباح التالي، وجد جثة زميله الميت مثل باقي أجساد الميتين. لقد أطلق الشيطان القسيس دريسيل أخيراً. وما لم يستطع أن يفعله القساوسة الثلاثة المتعلمون والمجرِّبون وخدام الربّ، استطاعت هذه المرأة البسيطة غير المتعلمة أن تفعله. والذي لم يتمكن ثلاثة من رعاة الأبرشيات أن يؤثروا فيه، استطاعت الخادمة الفقيرة وحدها أن تهزمه؛ لقد هزَم حُبها المخلص القوى الشريرة في بيت الجثة.

وبعد يومين من ذلك، نال الراعي دريسيل أخيراً دفناً مسيحياً لائقاً. وقد تبعه كل الناس في الأبرشية إلى مرقده الأخير، وكانت فرحة كبيرة حين تم طرد الشيطان أخيراً من عضوه. ولأنه كان راعياً طيباً؛ كما قيل، فإن نساء الأبرشية بشكل خاص هن اللواتي أصبحن يتجمهرن الآن حول قبره بأعداد كبيرة.

هذه الحادثة المدهشة، التي وقعت قبل مائة سنة، أصبح يحكيها المهاجرون الآن، عندما تجمعوا ذات يوم في طقس رائق حول الكوّة الرئيسية للسفينة الشراعية تشارلوتا، بينما تمخر البحر برواة قصصها ومستمعيها باتجاه أميركا الشمالية.

الفلاحون في البحر

١

المهاجرون —التائهون في هذا العالم— جلبوا معهم كتاباً صغيراً: «تقويم السنة بعد ميلاد المسيح المخلص الــ١٨٥» والذي كانوا يعودون إليه يومياً. وفي الفراغ بين التاريخ وبين علامة برج الثور، الجوزاء والسرطان، كانوا يعلّمون كل يوم بمصلّب صغير. لقد أرادوا أن يعرفوا على الأقل أين هُم من تقويم العام، حتى ولو أنهم غير قادرين على معرفة مكانهم في البحر. كل الأيام كانت متشابهة على متن السفينة، سواء أيام الأسبوع أم نهايته. وكان البحارة يقومون بعملهم في أيام الأحد مثل بقية أيام الأسبوع على حد سواء. والمهاجرون، كانوا سيضيعون في الوقت، كما لو أنهم في الفضاء، من دون «التقويم.» ولذلك، منحت المصلبات على الأيام التي تنقضي لحياتهم ثباتاً ومعنى. في الوطن، على اليابسة، كانوا يضعون هذه العلامات على التقويم فقط عندما يأخذون بقرة أو ثوراً، حتى يعرفوا متّى يمكن أن يتوقّعوا ولادة العِجل.

وكان التقويم يتنبأ بالطقس أيضاً: يوم صاف، غائم، غيوم متفرقة، ماطر، أيام جميلة وصافية. أحياناً، كان الطقس يغيم أو يمطر في أيام التقويم الجميلة الصافية. وفي مرات كثيرة، أشرقت الشمس من الصباح إلى المساء في الأيام المطيرة. وحدث أحياناً أيضاً أن تطابق الطقس و»التقويم.»

كانت الريح غربية في أغلب الأحيان؛ تهبّ بعكس اتجاههم. والريح التي أعاقتهم وأخرت رسوّهم،٠هذه الريح جاءت من الأرض التي كانوا يحاولون

الوصول إليها. ولم يعرفوا كيف ينبغي أن يفسروا ذلك.

٢

الآن، مرّت على وجود المهاجرين في البحر خمسة أسابيع. وقد دخل العام في شهر مايو، شهر الزهور.

لكنّ أهل الأرض يعيشون الآن في البحر الذي لم يعرِض أيّ إشارات على تعاقب الفصول: من أعماقه لم تنبُغ نباتات يُمكن أن تحكي عن الربيع أو الخريف؛ عن البذار أو الحصاد. لم تكن للبحر نضرة الاخضرار، ولم يكن يبرعِم. وعندما تهجم على المهاجرين ريح الشمال الباردة، ويتحول الماء إلى لون السماء الرمادي نفسه، عندئذ كان البحر يصبح مثل الحقول القديمة المكسوّة بالقشّ المتعفّن. وعندها، يخمّن المسافرون أنّ الوقت شتاء. وعندما تظهر الشمس، ويمتد البحر هناك ملتمِعاً، أزرقَ وهادئاً مثل البرك الجبلّية في الوطن، كانوا يخمنّون أن الوقت صيف. لكن الماء لم يفصح لأهل اليابسة عن فصول السنة —ليس بالقدر الذي يجعلهم متيقّنين.

خلال شهر الزهور، مع ذلك، أتت أيام تدفق فيها هواء بلسمي معتدل على الدكّة. وعندها، كانوا يعرفون أن الربيع قدّ حلّ على اليابسة، وينهلونَ بشغف هذا الهواء الجديد —ربما، لو لم تكن الريح غربية، لكانت قد هبّت من حقولهم ومروجهم في الوطن. هؤلاء الفلاحون في البحر، المبحرون من الحقول المحروثة في قارّة إلى بريّة بكر في أخرى، كانوا ينهلون الهواء بأنوفهم وهم يتساءلون: كيف تمضي أعمال الربيع في الوطن؟ هل زرع الناس الشوفان؟ هل جرى تحضير حقول البطاطا حتى الآن؟ هل نُظّفت حظائر الخراف؟ هل أُفرِغت الحقول من بقايا الروث بعد المطر الأول؟ هل ما تزال قطعان الماشية في حظائرها، تخور توقاً للخروج، أم أنها أُطلِقت في المراعي؟

لقد جاء المهاجرون من اليابسة. وكانوا يسافرون إلى اليابسة. ولهم، كان البحر مجرد معبر، محض ماء يجب أن يعبروه حتى يصلوا إلى اليابسة في الجهة الأخرى —ولم يستطيعوا أن يفهموا جماعة البحر على متن السفينة الذين يسافرون إلى لامكان؛ الذين يعيشون بشكل دائم في هذه السفينة؛ الذين يرتحلون

ذهاباً وإياباً فقط عبر هذا البحر. كان المهاجرون يسافرون وفي بالهم هدف محدد، فيما يسافر رجال البحر، فحسب.

بالنسبة للفلاحين، كان البحر هو نفسه في كل مكان: لم يكن ثمّة فرق بين الماء في هذا المحيط وبين الماء في بحر البلطيق الداخليّ. ولم يكن اتساع البحر الذي تبصره عيونهم أعظم في مكان من آخر. وكان الذي يرونه اليوم هو نفس الذي رأوه بالأمس. فهل بارحوا مكانَهم فعلاً؟

إن عجلات العربة لا تدور أبداً فوق نفس الحجر أكثر من مرّة واحدة في الرحلة الواحدة. أما هنا، فبدا الأمر وكأنّ الموجة نفسها هي التي تحمل السفينة على كاهلها يوماً بعد يوم. وعندما سافروا على اليابسة، كان المهاجرون يمرّون بمشاهد مختلفة — مروج وغابات، تلال ووديان، جداول وبحيرات. أما في البحر، فهم محاطون دائماً بنفس الماء. كانوا يجلسون ويحدّقون في حقل ماء صحراوي، حيث لا يعترض النظر شيء: كل شيء كان متشابهاً، كل شيء هو نفسه. كان البحر عظيماً وبلا نهاية مثل الأبدية، لكنّه كان صغيراً أيضاً مع ذلك — يتكون من مشهد واحد فقط. كان منطقة واحدة فقط. كان المشهد نفسه دائماً. كان: البحر.

وقد أثار المشهد الرتيب الأشواق في دواخلهم: أرادوا أن يروا قطعة أرض خضراء سريعاً، حتى ولو شجرة، أو أجمة فقط — سوف ترضيهم غيضة من العرعر، تلك العشبة الغابيّة؛ أيّ شيء أخضر كان سيسرّ قلوبهم.

الآن، عندما تستنشق أنوفهم هواءً رخياً خلال «الأيام الجميلة الصافية،» فإنهم يميّزون الربيع. لكن عيونهم تبحث عبثاً عن إشارات على الفصول. كانوا يجلسون على دكة سفينة خشبية مهترئة، وقد فشل مايو في أن يجلب لهم حفنات من الأزهار. وحولهم، وأمامهم، ارتفعت قمم الأمواج الزرقاء المخضرّة — بينما ينبغي أن تكون تلال الوطن الآن مغطاة بطيور الوقواق، وأزهار شقائق النعمان، وقدم الأرنب، وآذان الكلب، والنحل الطنّان. لكن الضوع من زهور الربيع تلك لم تحمله لهم الريح.

كان عليهم أن يفوّتوا هذا الربيع، لأنّهم يبحثون عن بيوت جديدة. كانوا يسافرون إلى البعيد. وكان ما يزال من الصعب عليهم تصور أن ذلك «البعيد» ربما سيعني «الوطن» في وقت ما من المستقبل. ومع ذلك، شعروا بأن الأمور

ينبغي أن تكون هكذا.

كان الركاب على متن تشارلوتا يحدقون في صحراء مائية مُجدبة، بينما الوقت يتمدد هائلاً ومملاً، شبيهاً بما اختبره أبناء إسرائيل وهم يسعون إلى الأرض الموعودة. كان المهاجرون قافلة مُبحرة، وكانت سفينتهم هي الجمل الراحل الذي يحملهم عبر هذه الصحراء القاحلة العنيدة المعروفة باسم: المحيط الأطلسي.

٣

في بعض «الأيام الجميلة الصافية» في التقويم، كان الضباب يلفّ السفينة فيزيد عالَم المسافرين اختزالاً.

كان الضباب يلفّ تشارلوتا مثل شال صوفي رمادي سميك، حتّى يضيق مدى رؤية المسافرين إلى بضع ياردات. وعندئذ، لا يتمكنون من رؤية شيء خارج عالم السفينة؛ لم يكن يوجد عالَم آخر. كانت الأرض الحيّة كلها تتألف فقط من هذه الدكّة القديمة المتهالكة. وكان العالم الخارجي يصبح مجرد شيء رمادي، نافذ، خام، سريع الزوال، ولا يمكن اختراقه —كان ضباباً. وكان جدار دبِقٌ بغيض ناعمٌ ينبني قريباً منهم. ولم يستطيعوا رؤية الصواري والأشرعة من فوقهم. كان الجدار ينتقل مُقترباً فوق الدكّة، ويزحف إلى داخل السفينة. وكان يزيد من توترهم بقدر ما يضيّقُ فضاءهم. كان الضباب ناعماً زَغبيّاً وخفيضاً، لكنّه كان مع ذلك يريم ثقيلاً على عقولهم ويجعلهم مكتئبين وعصبيي المزاج. وكان العالم يبدو باطراد أكثر رماديّة وكآبة.

أصبح المهاجرون سريعي الغضب. يتشاجرون على التوافه. وبينما يتحدث الرجال مع بعضهم، اختفت كل البهجة والدعابات الودودة. وفي المطبخ، تشاجرت النساء خلال تحضير الوجبات، واستخدمن الأطباق وأواني الطبخ أسلحة. كان الناس يتحمّلون بالكاد أنفسهم، فضلاً عن تحمُّل بعضهم البعض.

أحاط بهم الجدار الرماديّ الناعم من كل جانب، واحتضن البحر كله. وقد أبحروا عبر جدار يبلغ سمكه مئات الأميال، وبدا كما لو أنهم يبحرون بشكل عشوائي. هل تحركت سفينتهم أبداً؟ ألا يمكن أن تكون السفينة تشارلوتا واقفة في مكانها هادئة مثل جزيرة على كتف الماء، موثقة إلى قاع البحر بسلاسل

غير مرئية؟ لم يستطيعوا أن يروا أنها تصل إلى أيّ مكان، كانت تبحر، ولكن إلى لامَكان. إن سفينتهم تقبع هنا في الضباب، مقمّطة في إزاء صوفي كان يخفي ويلفّ الأرض كلها جميعاً.

وخلال أيام الضباب تلك، شرع القلق بالانتشار من واحد إلى آخر بين المهاجرين: ألم يبحروا في ضلال؟

وبدأوا يَعدّون: ستة أسابيع، سبعة أسابيع — وسرعان ما دخلت رحلتهم في الأسبوع الثامن. وقد عبرت السنة إلى شهر يونيو. ما هي المسافة التي ما تزال متبقيّة حتى أميركا؟ كثيراً ما سألوا البحّارة، وبنفس المقدار تلقوا إجابات غير قاطعة: نصف الطريق تقريباً، حوالي نصف الطريق، نصف الطريق على وجه التقريب، أكثر قليلاً من نصف الطريق. وقد ضجروا الآن من أنصاف الطريق هذه، وأرادوا أن يعبروها. لم يقل لهم أحد إن العبور إلى أميركا الشمالية سيتطلب ثمانية أسابيع في الحدّ الأقصى، وبأنّه كان ينبغي أن يصلوا قريباً. لكن أسبوعاً ما فتئ يضاف إلى أسبوع، والقلق ينتشر ويمتدّ. لم يستطع أحد أن يخبرهم ما هي المسافة التي أبحروها، أو أن يقول لهم ما هو موقعهم بالتحديد. ربما ضلوا الطريق؟ ربما يكونون قد عبروا فعلاً سواحل أميركا؟ ربما لن يصلوا إلى هناك أبداً؟

هل يستطيعون الاعتماد على القبطان الذي رسم المسار؟ أيمكن أن يكونوا متأكدين من أنه سيجد طريقه فوق هذا الماء بلا علامات، حيث لم يكن أحد قد ترك إشارة من أولئك الذين أبحروا من قبل؟ ربما يوجه الدفة في اتجاه ما، لكن الريح وتيارات البحر تقود السفينة في اتجاه آخر. ربما يبحر مسترشداً بالشمس في النهار، وبالنجوم في الليل، ولكن ماذا سيفعل عندما لا تكون هناك شمس ولا نجوم؟ أو عندما يكون الجو سديمياً وضبابياً، كما هو الآن؟ كانوا يخشون من أنّ قائد السفينة نفسه ربما لا يعرف في هذا الوقت أين هُم.

كان صبر المسافرين يكاد ينفد من طول الإبحار، وكانت هناك الكثير من الأشياء التي رغبوا في سؤال القبطان عنها. لكن الرجل الضئيل الصّموت الذي كانوا يرونه على السطح فقط من آن لآخر، ويمضي معظم وقته في قمرته، لم يشجع أحداً على الاقتراب منه. وكان هناك حديث عن إجابة قدمها لمسافر جريء وفضولي كان قد سأله السؤال الذي يدور في ذهن الجميع: متى سنصل

إلى أميركا؟ وقد أجاب القبطان: في أي يوم سوف نرسو في ميناء نيويورك؟ ذلك ما يمكن قول إنه يتوق ليقوله لهم. غير أنه ينبغي أن يحصل أولاً على بعض المعلومات الصغيرة — بعض المعلومات الصغيرة عن الطقس. إنه يريد أن يعرف أي نوع من الطقس سيصادفونه في الأسابيع القادمة، يوماً بيوم. هل سيكون الطقس غائماً أم صافياً، هادئاً أم عاصفاً، هل ستكون هنالك رياح طيبة أم ضعيفة، مطر أم ضباب؟ وأيضاً، هل يكونون لطيفين بما يكفي ليخبروه من أي اتجاه ستهب الريح في المستقبل القريب، يوماً بعد يوم؟ هل ستهب من الشرق إلى الغرب، من الشمال إلى الجنوب؟ عندما يستطيعون أن يمدّوه ببعض المعلومات عن هذه الأشياء، فإنه يستطيع عندها أن يخبرهم فوراً في أي تاريخ سترسو تشارلوتا على رصيف ميناء نيويورك.

كان محققاً منزعجاً وخائب الأمل ذاك الذي عاد من مقابلة قبطان تشارلوتا. وبعد ذلك، لم يرغب أحد في الاقتراب منه مرة ثانية بالسؤال. وفكر القبطان لورينتز بأنه ربما عليه أن يشرح قليلاً عن الريح الغربية المعاكسة المستمرة. ولكن، لماذا يحاول أن يعلّم هؤلاء الفلاحين الجاهلين عن الرياح السائدة التي كانت تهب على شمال الأطلسي عند خطوط العرض تلك؟ ربما يحاول أيضاً أن يشرح لهم عمل البوصلة. بطبيعة الحال، عانى المهاجرون، وتاقوا إلى اليابسة، لكنهم سرعان ما سيعودون إلى الدوران في مزابلهم مرة أخرى، وسريعاً سوف يعودون إلى دفن أنفسهم في حفرهم في الأرض. فلماذا عجَلتهم هذه؟ كان يمكنه أن يزيد سرعته إلى حد ما، لكنه كان يخاف مفاقمة البِلى أكثر. كان يمكن لأشرعة ساريتي تشارلوتا إذا نُشرت على اتساعها أن تصنع مساحة كبيرة، والتي تستطيع عند هبوب ريح مواتية أن تصنع سرعة كبيرة. لكن السفينة كانت كثيرة التلف مع ذلك، ولذلك كانت الريح المعتدلة هي التي يحبها قبطانها أكثر ما يكون.

ولكن، لو أن كل أيام الريح المعاكسة كانت أيام ريح مفضلة، لكانت تشارلوتا قد أنزلت مسافريها مُسبقاً في أميركا.

لقد أطالت الريح المعاكسة رحلة المهاجرين حتى أنهم شكوا وتساءلوا عما إذا كانوا قد تعرضوا للتضليل فيما يتعلق بالمسافة: لا بد أن الطريق إلى أميركا

أبعد بكثير مما قيلَ لهم. إنهم لم يقيسوا المسافة بالأميال، وإنما بالأيام الطويلة التي قضوها في البحر. وبدا الأمر بالنسبة إليهم كما لو أنهم اجتازوا آلاف الأميال منذ الأسبوع الثاني من أبريل عندما غادروا مكان إقلاعهم. وقد أصبح وطنهم الآن بعيداً مسافة لا حصر لها — وقصية، أيضاً، كانت الأرض التي يبحثون فيها عن بيوتهم الجديدة.

كانت الريح والتيارات تعمل ضدهم. والضباب. والمحيط وضع بلا انقطاع أمواجاً مُعيقة جديدة في طريق السفينة، كما لو أنه أراد أن يرغمهم على العودة. وقد تعمقت مشاعر المرارة في أرواحهم تجاه البحر الذي أخّر وصولهم. وفكر الكثيرون: لو أنني أستطيع أن أضع قدمي مرة أخرى على الأرض الثابتة، فإنني لن أعهد بنفسي ثانية إلى البحر أبداً.

٤

لكن الشمس ظلت ثابتة في مكانها، وذات صباح، أشرقت ثانية. والرياح الغربية —الرياح المعاكسة— هبت مرة أخرى واجتاحت البحر مثل مكنسة عملاقة، ممزقة الشال الصوفي السميك من الضباب، الذي ذاب واختفى، تاركاً خلفه بحراً أزرق مكنوساً ونظيفاً.

ارتخى عناق الضباب، في الحقيقة، لكنهم وجدوا أنفسهم الآن في براثن الريح المُعاكسة. الريح الغربية —رياح أميركا— استمرت في تأخيرهم وإطالة أمد رحلتهم. كانت مثل تحية من العالم الجديد: لا تستعجلوا! سيكون لكم الكثير من الوقت! سوف تصلون سريعاً بما يكفي! كان من المؤكد أن رياح البحر لن تسرع وصولهم في العالم الجديد.

مرّ على إبحارهم الآن شهران. وقد مرّوا فقط بسفينة وحيدة —تلك التي ترفع العلم السويدي— منذ اختفى الشاطئ الإنجليزي ووصلوا إلى البحر المفتوح. وخلال كل ذلك الوقت، لم يروا أيّ حياة بشرية وراء حاجز سفينتهم نفسها. وبدا لهم كما لو أنهم وحدهم يجتازون هذا المحيط. كل الناس الآخرين يعيشون على اليابسة —وهم كانوا متشردي البحر، الكائنات البشرية الوحيدة في المحيط، التي نسيَها العالَم. وقد استشرت في أرواحهم أفكار محملة بالمعنى: ربما ثمة من يفتقدهم في الأرض التي غادروها، لكنَ أحداً لا ينتظرهم في

الأرض التي يقصدونها.

ثم، ذات يوم، على دكة السفينة، تبين أنّ تشارلوتا حصلت على مسافر جديد. هتف أحدٌ ما بصوت عال: انظروا، طائر! ثم هتف الجميع ببعضهم البعض: طائر!

وفي لحظة قصية، انتشرت الأخبار عبر السفينة: هناك طائر على السفينة! واحتشد المهاجرون حول هذا الرفيق المسافر الجديد، وحدقوا فيه فاغري الأفواه.

كان طائراً نحيلاً، أكبر بالكاد من قُبّرة صغيرة. وكان رأسه وذيله باللونين الأزرق والأسود، وجناحاه وظهره خضراء، وحنجرته وصدره بيضاوان. وقد مد الطائر منقاراً طويلاً حاداً في الهواء، ويتعثر على ساقين رفيعتين مثل خَيطين. وعندما ركض على سطح السفينة، تحركت قدماه بسرعة كبيرة حتى بدا وكأنه يستخدم رِجلاً واحدة فقط. وعندما طار، رفرف جناحاه مثل لفّافة الغزل.

لم يتعرف أحد بين المسافرين على السفينة أو البحارة هذا الطائر، ولم يعرف أحد اسمَ نَوعه. ظنّ البعض أنه الطائر المُخَوّض، بسبب منقاره المدبب وضربات جناحيه السريعة. وخمن آخرون أنه سلالة ما من السنونو، لأن رقبته وصدره كانا مثل السنونو. ثم اعتقد آخرون ثانية أنه كان مجرد فرخ صغير: وعندما يكبر، ربما يتبين أنه نورَس مائي، أو حتى نسراً بحرياً. لكنه لم يكن هناك من بينهم مَن يعرف الكثير عن الطيور.

ومع ذلك، بدا ظهوره المفاجئ للمهاجرين وكأنه معجزة إنجيلية. كان يستطيعون بالكاد تذكُّر متى كانت آخر مرة شاهدوا فيها طائراً. وفي وقت مبكر من الرحلة، كان سرب من النوارس قد طار حول صواري السفينة، وحط يومياً على أشرعتها، أما هناك في المحيط، فحتى أولئك الرفاق الطائرين اختفوا. لا طيور ترفرف الآن فوق السفينة، ومع النوارس، بدت كل الكائنات الحية وأنها هجرت سفينة المهاجرين. لكن هذا الطائر الصغير جاء الآن واعتبر نفسه في المنزل على متن السفينة. لقد جاء إليهم رسولاً من اليابسة —وكانت تلك معجزة.

كيف استطاع هذا الكائن الطائر الصغير أن يجد طريقه إلى سفينتهم

الصغيرة المتوحدة؟ إن الطيور تعيش على اليابسة — في الأشجار أو على الأرض، في حزم القصب على طول الشواطئ، أو في الصخور على الجبال. لا يستطيع طائر أن يبني عشه على أمواج المحيط. وكانوا بعيدين مئات الأميال عن أقرب يابسة. فكيف استطاعت هذه الأجنحة الرقيقة أن تحمل الطائر كل هذه المسافة البعيدة، عبر العتمة والعاصفة، عبر المطر والأنواء؟ من أين أتى الطائر؟ وماذا كانت مهمته؟

شعر المهاجرون مباشرة أن شيئاً فوق طبيعي لا بدّ أن يتعلق بوصول الطائر؛ إنه لم يكن طائراً واحداً بين كثيرين. كانت الوحدة الطويلة في البحر أرضاً خصبة للأفكار عن الأشياء غير الطبيعية ومثل تلك الأشياء الغريبة التي يتحدث عنها المرء بصوت خفيض حول الموقد في الأمسيات.

التمعت عينا الطائر سوداوين وعميقتين مثل الأحجيات التي لا يستطيع أن يحلها أحد. لم يصدر عنه أيّ صوت، ولم يغرّد أبداً. كان أخرس تماماً. وكان منقاره الصامت أحجية أخرى بدوره. لقد سمعوا عن طيور مقطوعة الألسن، طيور لا تستطيع الغناء؛ فهل كان هذا واحداً منها؟

أصبح المسافر الجديد على السفينة هو الذي يحظى بأقصى العناية من بينهم جميعاً. كلهم أرادوا أن يُطعموه. وقد فتّت له المهاجرون بسخاء خبزهم وكعك السفينة. وقُدِّم للطير الكثير جداً من الطعام الذي كان يكفي لحشو ألف معدة مثل معدته. وكان له مزية أكل ما يكفيه من أيدي الكائنات البشرية، وسرعان ما أصبح انتقائياً صعب الإرضاء، ولم يكلف نفسه عناء التقاط الفتات من على السطح. وكان يتجول غير خائف حول المُطعِمين وبينهم. وعندما تندفع موجة فوق الدكة، كان يهرب على ساقيه الرفيعتين مثل خَيطين —وكان سريعاً جداً بحيث لم تبلل قدميه حتى قطرة ماء واحدة. وبين فينة وأخرى، كان يقوم بجولة طيران خارج الحاجز، كما لو أراد أن يستكشف البحر قليلاً، لكنه يعود دائماً إلى السطح. كانت السفينة تشارلوتا هي بيته.

دخل طائر صغير عالم الناس على سفينة المهاجرين، محولاً أفكارهم وأحلامهم، بل وحيواتهم نفسها. جاء برسالة من أرض مبَرعِمة، من الزهور،

من الأشجار في الغابة والبذور في الحقول. كان جناحاه خضراوين مثل الأوراق المتفتحة حديثاً على غصن، ورقبته بيضاء مثل نباتات القطن في الأهوار المليئة بالمستنقعات. لقد جاءت ألوان ريشه من الأرض ومما ينمو عليها. جاء من ذلك الجزء من الكوكب الذي قدر له الله أن يكون موطن البشر والحيوانات، ولذلك كان ينتمي إليهم. في وحدتهم وخذلانهم في البحر، زار المهاجرين كائن من طينتهم.

أيام كثيرة مرت منذ وقفوا آخر مرة على بُقعة ثابتة صلبة. والآن ذكَّرهم الطائر بأن الأرض الثابتة ما تزال موجودة.

بعض المهاجرين كانوا قد قرأوا القصص الخيالية، وكانوا مقتنعين بأن هذا كان طائراً مسحوراً. كيف أمكَن له أن يصل إلى هنا، بعيداً جداً في البحر، حيث لم يعش أي كائن آخر، إذا لم يكن ذلك من خلال السحر. ربّما كانت أميرة هي التي تسير الآن بينهم على ساقي طائر. ربما كان ملكاً أو أميراً أطعموه كعك سفينتهم القاسي. لم يعرف أحد على وجه التأكيد. ربما سيذهب السحر ذات يوم، بحيث يستطيعون أن يزيلوا عنه ريشه ويضعوا عليه عباءة ذهبية وتاجاً ذهبياً لامعاً. مثل هذه الأشياء سُمِع عنها، وقد حدثت كثيراً تقريباً. وحتى لو لم يكن الطائر شخصية ملوكية، فإنه سيكون صاحب أهمية بالغة على أقل تقدير، ربما دوقاً أو كونتيسة. لأن الناس ذوي المقامات العُليا فقط هم الذين يُسحَرون إلى طيور؛ أما الناس العاديون، البُسطاء، فيصبحون ذئاباً وأفاعي وحيوانات من هذا القبيل. هكذا عومِل الطائر الصغير برهبة خُرافية بين بعض المسافرين، الذين شعروا ببعض الخوف في حضوره. ربّما يصنع لهم خيراً، لكنه يستطيع أيضاً أن يجلب عليهم الضُرّ. ومع ذلك، تمنّوا أن يكونوا أصدقاء للرسول القادم من اليابسة، لأنهم لم يستطيعوا، هناك عميقاً في نفوسهم، سوى الشعور بأن وصوله كان بمثابة بركة لهم.

والبحارة أيضاً، قالوا إنّ الريح تهب معهم منذ اليوم الذي ظهر فيه الطائر أول مرة على الدكّة — ولم يكن هناك أحدٌ أكثر عناية برفاهه من البحارة، ولم يُعن أحد أكثر منهم بأن لا يصيب الأذى هذا الكائن الضئيل.

في النهارات، كان الطائر يقضي وقته على الدكّة؛ وفي الليل كان يجد العناية خلف الشراع قرب السارية الرئيسية. وقد جهز له صانع الأشرعة عشاً ناعماً من قطع مَخيطة معاً من القماش الصوفي السميك. وقد شارك كلٌ بحصته لجعل الطائر يشعر على السفينة وكأنه في بيته. وكانت كل حركة من حركاته تتعقبها عيون شخص ما —عندما يبعث الرذاذ، وعندما يطير على طول الحاجز. بالنسبة للفلاحين في البحر، كان يذكرهم بموطنهم المشترك. وعندما ينظرون إليه، كانوا يبتهجون ويتذكرون أنهم لن يظلوا مسجونين في هذه السفينة إلى الأبد. ثمة حياة أخرى موجودة هناك. جذوع الأشجار موجودة، حيث تبني الطيور أعشاشها، وهناك حقول مغطاة بالأزهار، وهناك غابات حيث تطير دجاجات الأرض في أمسيات الربيع.

لم يسبق أبداً أن جلب كائن صغير مثل هذا القدر من البهجة لمثل هذا العدد الكبير من البشر الناضجين كما فعل هذا الطائر في سفينة المهاجرين تشارلوتا خلال بضعة أيام من رحلتها إلى أميركا الشمالية. وقد أمل الجميع وتمنوا أن يبقى الرسول القادم من الأرض معهم لبقية رحلة العبور. لكنه لو كان —كما فكر كثيرون— ملكاً أو أميراً مسحوراً، فإنّ أيّ شيء لن يُوقفه. كانوا يفهمون ذلك جيداً.

وذات صباح، كان الطائر قد ذهب فعلاً. وكانت هناك الكثير من الإثارة على السطح — جرى تفتيش السفينة كلها، لكنّ لم يظهر أيّ أثر للكائن الضائع، لا ريشة، ولا نقطة ماء، ولا شيء. لقد غادر الزائر المُحيِّر بنفس الغموض الذي وصل به. لو أنه مات، لعثروا على جثته؛ كلا، لقد عرفوا أنه هجرهم.

هل سيصل أبداً إلى اليابسة؟ لم يقلق المهاجرون إزاء ذلك. وقد شعروا بأن الطقس والريح والمسافة ليست لها سلطة على هذا الطائر. كانوا مقتنعين الآن بأنه لم يكن طائراً حقيقياً.

لقد طار بعيداً، ولم يعد أبداً. ولعدة أيام خيم الحزن على السفينة. لقد فقد الناس على السفينة قريباً عزيزاً، وقد بكوه كواحد منهم. وفكروا وتساءلوا وسألوا: لماذا لم يرغب البقاء معهم؟ لماذا لم يبق فترة كافية ليرى تحقق المعجزة؟ لقد كان رسول الأرض؛ فما الذي أراد أن يقوله لهم؟ هذا ما لن يعرفوه أبداً.

البحارة القدماء الذين سافروا ثلاثين أو أربعين سنة كانوا جادين وقالوا إن ذهاب الطائر الصغير كان نذير شؤم. وبدا أنهم ربما يكونون على حقّ: ففي اليوم الذي تلا مغادرته هبت عاصفة أخرى.

ومع ذهاب الطائر لم يعد على متن السفينة شيء يذكر الفلاحين في البحر بالأرض الخضراء.

٥

هكذا أبحرت السفينة تشارلوتا من كارلسْهامن ماضية في طريقها — سفينة شحن محملة بالمنوعات، سفينة مهاجرين محملة بالبشر. أبحرت فوق المحيط الأطلسي الذي لا تحده حدود وسط كل أنواع الرياح والطقس، خلال العواصف والضباب، والمطر والشمس. لكن الريح هبت في معظم الأحيان ضدها، قابضة على يد السفينة وأشرعتها، معيقة تقدمها. وبالنسبة للمسافرين قليلي الصبر المرتبطين بالأرض، بدا الأمر كما لو أن الموجة نفسه حملتهم، مرة وأخرى، نفس الموجة الأزلية تتلاطم بهم في البحر.

فكر المهاجرون في المسافة اللانهائية التي لا بد أن يكونوا قطعوها منذ غادروا مكان إقلاعهم. وعادت أفكارهم إلى الماء الهائل الذي أبحروا فوقه في مسافة شهرين، وكانوا أكثر من مرتعبين من هذا البحر الذي بلا نهاية الذي يعبرونه. في الوطن، لم يكونوا يعون أبداً ضخامة البحر.

كان هناك اعتقاد يضرب عميقاً في عقولهم: مهما يكن ما يخبئه لهم الشاطئ في القارة الجديدة، ومهما ينتظرهم في الأرض الجديدة التي يسعون إليها — فإن رحلة عودة إلى وطنهم هي أمر وراء الإدراك. كانت الخطوة التي يقدمون عليها الآن باتجاه نهاية الزمن؛ لا يستطيعون أبداً أن يبحروا هذه المسافة الأزلية عائدين مرة أخرى، لن يعبروا أبداً هذا الماء الذي لا نهاية له.

كانت رحلتهم من النوع الذي يقوم به الناس مرة واحدة، فحسب.

ليلة طويلة

١

في إحدى الليالي، جاء يوهان وأيقظ كارل أوسكار. وقف الصبي عند سريره وشد الغطاء.

«أبي...! استيقظ...!»

«ما الأمر؟ ماذا تريد؟»

«أمي تنزف...!»

«ماذا تفعل أمك؟»

«إنها تنزف — وقد أتيت لأخبرك.»

لم يكن كارل أوسكار بعيداً عن موضع نوم زوجته، فأصبح إلى جانبها في لحظة. على الأرض بجوار السرير، وقفت زجاجة حُشرت في عنقها قطعة من شمع الشّحم. أشعل أوسكار الشمعة، واستطاع أن يرى في الضوء الكابي عنق كريستينا وحنجرتها مشوبين بالدم، وقد تلطخ قميص نومها الأبيض بالدم أيضاً. وفي فتحتي أنفها، رأى قطعتين من القطن منقوعتين بالدم، تبدوان مثل حبتين من الكرز الناضج فاقع الحُمرة.

«يا إلهي، كريستينا! ما الذي حدث؟»

«أرسلتُ يوهان...»

«لماذا لم تنادِني من قبل...؟»

«ظننتُ أنه سيتوقف...»

بدت شفتاها ممتقعتين بلون الرماد، وخرج صوتها ضعيفاً. كانت على وشك الإغفاء عندما بدأ النزيف. في البداية ظنت أنها أصيبت بالبرد، ومسحَت أنفها؛ وعندئذ رأت منديلها منقوعاً بالدم. ظلت مستلقية على هذا النحو فترة طويلة

لم تعرف كم امتدت، وظل الدم يتدفق. استلقت على ظهرها ساكنة بلا وسادة، لكنه لم يتوقف. وضعت قطناً في فتحتي أنفها، لكن الدم تخلَّلهما على الفور. ولم تعرف ماذا أيضاً يمكن أن يُساعد.

«أنا متعبة جداً... لا يمكن أن أبقى على هذا النحو.»

كانت جداول الدم الملتمعة المُنسابة على عنقها النحيل تبدو كما لو أنها عالقة في داخل الحنجرة. وفي المقلاة قرب سريرها، سبَحت لفافات القطن مثل أحشاء انتُزعت حديثاً، وبدا الأمر وكأن مذبحة حدثت في السرير. وشعر كارل أوسكار الذي كان يعاني دائماً من مشهد الدم بالوهن يدبُّ في ساقيه.

بدت عينا كريستينا واسعتين وزجاجيتين. وقد اعتراها الوهن كثيراً في الأيام القليلة الأخيرة، حتى أنها بقيت في السرير كل الوقت، تتناول بالكاد لقمة طعام صغيرة. ولذلك، أضعفَ الإعياء مقاومتها عندما فاجأها النزيف، واستقلت هناك ممددة مثل الجسد الميت، وقد اكتست بشرتها البيضاء الرمادية بلون الموت. وأدرك كارل أوسكار ما الذي يحدث هنا: كانت الحياة تتسرب هاربة من جسد زوجته.

نقص عدد المسافرين ثلاثة خلال الأسبوع الماضي، كلّهم أشخاصٌ بالغون، وكلُّهم ماتوا بمرض السفينة هذا. وفي الحقيقة، كان المكان يصبح أكثر اتساعاً. وكانت إنجا—لينا أيضاً مريضة جداً، لكنها لم ترد الاعتراف بذلك، غير راغبة في إقلاق دانجل. وقيل أمس إنها شرعت بالتعافي. والليلة، لم يكن أي صوت يُسمع من العنبر الذي يؤوي جماعة كاراغاردي —كانوا ينامون في سلام.

«هل تتألمين؟» سأل كارل أوسكار زوجته.

«كلا، لا ألم. أنا متعبة فقط ... متعبة جداً...»

«ذلك بسبب الدم الذي فقدتِه. ينبغي أن نوقف النزيف.»

أدارت كريستينا رأسها ببطء حتى تُشاهد يوهان الذي جلس عند أسفل سريرها، فازدادت غزارة السواقي السائلة من فتحتي أنفها بعد هذه الحركة الصغيرة.

«استلقي بهدوء ...أرجوكِ. بسكون...»

خرجت همسة ضعيفة مثل نسمة هواء لطيفة من فمها:

«إذا لم يبطئ النّزيف، فأعتقد أنني سأموت...»

«يجبُ أن يُبطئ...»

«ولكن، إن لم تكن هناك مساعدة...؟»

«يجب أن تكون هناك مساعدة...»

استمع يوهان بانتباه إلى والديه وحدّق فيهما بعينين مفتوحتين على وسعهما. لم يكُن كبيراً بما يكفي ليفهم كل شيء، لكنه كان له حدس طفل، فشرع في البكاء: «لا أريد أن تنزف أمي أكثر من هذا... لا أريدها أن تنزف...»

«ابقَ هادئاً يا صبي!» قال الأب. «استلق ونَم.»

نام ليل—مارتا وهارالد بسكون على جانب السرير عند جسم السفينة. وفي الخارج أعوَلَ البحر، وتكسرت الأمواج وهي تصطدم بهيكل السفينة. ثمة عاصفة أخرى هبّت خلال النهار، والليلة هبت أشدّ من السابق. في عنبر ما، بكى طفل في نومه، وشخرت امرأة بصخب، وبين نوبات الشخير، كان بالوسع سماع ضربات الماء المُتعاظِم وهو يتكسر على جانب السفينة.

تأرجحت السفينة بتثاقل. واستلقت كريستينا هناك متأرجحة أيضاً فوق سريرها، وكلهم كانوا يتأرجحون —المرضى والأصحاء.

صرخ أحدهم غاضباً لأن مصباحاً أضيء: «ألا يستطيع المرء أن ينام في سلام أبداً؟» لكن كارل أوسكار كان غافلاً عن الأصوات، ولم يسمع، لا صوت البحر في الخارج، ولا أصوات الناس من حوله؛ وإنما وقف هناك منحنياً على جسد زوجته النازفة: لا يمكن أن يستمر تدفق الدم هذا أكثر من ذلك. إذا لم يتوقف، فإنها ستموت؛ إذا لم يتم إيقافه بسرعة، فإنه سيصبح أرمل قبل أن ينقضي الليل.

وقف إلى جانب رفيقة عمله، رفيقة سريره، أم أولاده، وكانت الحياة تنحسر هاربة منها — منها هي التي كانت الكائن الذي لا يمكن الاستغناء عنه أبداً في العالم كله. هل كان الله على وشك أن يأخذها منه — كما أخذ آنّا من قبل؟ ينبغي أن يفعل شيئاً. على المرء دائماً أن يفعل ما بوسعه؛ أن يُعمِلَ حواسّه وأفضل قدراته، ولا يعتقدَ أبداً أن الأمور أصبحت ميؤوساً منها. لم يسبق له أبداً أن استسلم، ولا يستطيع أن يستسلم الآن وقد أصبحت حياة كريستينا نفسها على المحكّ.

في الوطن، في الكنيسة، كان لديهم الكثير من مُوقِفات النزيف؛ لكنه لا

يعرف عن وجود أيٍّ من ذلك هنا على السفينة. ومع ذلك، ربما يكون ثمة كائن بشريّ ما هنا يمكنه أن يقدم المساعدة.

«سوف أستدعي القبطان.»

«لا نجرؤ—» قالت كريستينا بصوت بالكاد يُسمَع. «نحنُ في منتصف الليل.»

«يجب أن يساعدنا القبطان. لا يمكن أن يرفض!»

كان قبطانهم مسؤولاً عن خزانة الأدوية في السفينة، ويفترض فيه أن يُمارس دور الطبيب. لكنّه كان صارماً فظاً يخشاه الرُكاب؛ والبحارة أيضاً يعاملونه برهبة، ولم يسبق له أن أظهر مشاعر التعاطف مع المرضى أو الميتين في السفينة مُطلقاً. وكان المرضى يحصلون على الدواء من خزانته حتى يتعافوا أو يموتوا. وعندما يموتون، يقيم الشعائر الدينية في جنازاتهم ثم يطعم أجسادهم للبحر. وقد اعتقد المهاجرون أنه كان شخصاً قاسياً، بلا مشاعر، لكن كارل أوسكار قرر أن يسعى إلى طلب مساعدته. لا يمكن أن يضنّ بالمساعدة عندما يكون أحد ركابه في قبضة الموت.

«لا تذهب، يا كارل أوسكار،» توسلت كريستينا. «لا فائدة من ذلك.»

نعم، أدرك أن كريستينا فكرت بأن قدرها المحتوم هو أن تموت هنا على ظهر السفينة، وأنها لن تصل أبداً إلى أميركا، لكنه لم يوافق. ظلّت فكرته دائماً هي أنه ليس ثمّة شيء بالغ الرّسوخ بحيث لا يمكن تغييره. إذا حاول المرء، فربما يكون بوسعه أن يغير الأشياء. ينبغي على المرء أن يحاول.

«سأعود سريعاً.»

ذهب كارل أوسكار مندفعاً. وبعد بعض المشقة استطاع أن يفتح الكوة، ووصل إلى السطح متلمساً طريقه في الظلام. كان الطقس قاسياً في تلك الليلة، والأمواج الثقيلة ترتفع وتتكسر على السطح. وسرعان ما أصبح مبتلاً حتى خاصرته، لكنه لم يكد يلحظ ذلك. ينبغي أن يصل إلى النصف الأخير من دكّة السفينة. وقد انزلق وتعثر مرات، ولم يلحظ ذلك. ينبغي أن يصل إلى السطح الثاني. كان ينزلق ويسقط على ألواح خشب الدكّة الزلِقة، وينهض ويسقط ثانية. الليلةَ تبدو السفينة كلها في خطر، لكنه لا يأبه: ربما تغرق السفينة، ويمكن أن يحدثَ أي شيء، لكن دم كريستينا يجب أن يتوقف عن النزيف.

تمسك بالحبال والأشياء من حوله حتى وجد طريقه إلى الفتحة في السطح الثاني حيث يقود سلم هابط عبرها إلى قمرة القبطان.

دقّ بقوة على الباب. وفقط عند الدقة الثالثة سمع صوتاً قوياً حاداً: «ماذا تريد بحق الجحيم؟»

«زوجتي تنزف حتى الموت. وأردت أن أطلب منك فعل شيء إزاء ذلك. سيدي القبطان.»

اعتقد القبطان لورينتز بداية أن أحد البحارة يدعوه لأسباب طارئة تتعلق بالعمل —لم يكن لأحد في السفينة أن يجرؤ على إقلاقه لأي سبب آخر —لكنه أطلق مع ذلك نخرَةً غاضبة. وعندما اكتشف الآن أن منتهك حرمة قمرته في منتصف الليل واحدٌ من الركاب، كانت دهشته عظيمة حتى أنه حدّق فقط في المتطفل بنظرة ساخطة.

«إنها تنزف. ولا نستطيع وقف النزيف —أخشى أنها تفقد الرُّوح!»

تثاءَب القبطان، فاتحاً فمه البشع. كان في حاجة إلى النوم أكثر من أي شخص آخر على السفينة. الطقس الملعون —بسبب هذا الطقس اضطر للبقاء مستيقظاً أكثر من أي شخص آخر على السفينة في هذه الأيام الأخيرة. يمكن للفلاحين الملعونين أن ينالوا قيلولة في أي وقت يشاؤون، فهم ليسوا مسؤولين عن شيء على السفينة. ينبغي أن يقول للمزارع كبير الأنف أن يذهب إلى الجحيم. فكر بأن يفعل ذلك —لكنه لم يفعله.

وقف الرجل هناك وكرّر أن زوجته تُحتضر. وعلى هذا، لم يستطع القبطان أن يجيب بأنه كان نائماً هو نفسه. يستطيع المرء تعويض النوم المفقود، لكنه ما إن يفقد حياته، فلن يكون من السهل استعادتها.

ميّز لورينتز كارل أوسكار من أنفه الكبير: كان الفنلندي قد تحدث عنه، ويفترض فيه أن يكون أحد الفلاحين الأكثر ذكاءً. ألم تضطر رفيقته إلى أن تَطلُب منه القدوم؟

ومع ذلك، فإنه ربما يحتاج المساعدة فعلاً إذا كانت زوجته تقف على أعتاب الموت. لا يمكن أن تكون مُسِنَّة، فالرجل نفسه أقرب إلى الفتوة.

«هل كانت زوجتك تنزف منذ وقت طويل؟»

وصف كارل أوسكار ما حدث، وأصغى القبطان إليه.

«هَمممم.. من الإسقربوط بلا شك، أعرفه.»

«كما ترى، إنها حامل بطفل أيضاً.»

«ترجل القبطان عن دكّته، وارتدى حذاءه ومعطفه، وتعقّب كارل أوسكار حركاته بنظرة لامتنان.

«سوف نرى إذا كان بوسعنا أن نوقف النزيف.»

بحث لورينتز عن كتابه «دليل البّحارة الطبي»، وعثر عليه بين الأوراق على طاولته وفتحه:

«يمكن أن يكون النزيف من الفم أو الأنف في بعض الحالات قوياً جداً، وأن يستمر لوقت طويل حتى يصبح خطيراً.»

«العلاج: إذا أصبح النزيف قوياً بما يكفي لإضعاف الشخص المريض، قد يحاول المرء وقف تدفق النزيف عن طريق إخراج المريض إلى الهواء النقيّ البارد، ثم يصنع كمّادات من ماء البحر ويضعها على جبهته، وأنفه وخلف رقبته. وإذا لم يساعد ذلك، فحول الأعضاء الجنسية أيضاً. وفي الحالات الحادة، يمكن للمرء أيضاً أن يلفّ منشفة حول كل من الأطراف الأربعة، فوق الأكواع والرُكَب، حتى يوقف تدفق الدم في هذه الأجزاء».

«وإذا كانت هناك شبهة الإسقربوط...»

مضى وقت طويل منذ آخر مرّة أوقف فيها قبطان السفينة «شارلوتا» نزيف دم — ولذلك ترتّب عليه أن ينعش ذاكرَته. أخرج من خزانته بعض المناشف النظيفة من الكتّان الخام وألقاها على ذراعه، ثم أشعل مصباحاً يدوياً صغيراً وتبع المزارع الشاب صاعداً السلم.

أثناء عبوره دكّةَ السفينة، كاد كارل أوسكار يسقط مرتين على الأقل فيما كانت «شارلوتا» تشق طريقها عبر الأمواج؛ وفي كلتا المرتين، أمسك القبطان كتفه وثبته. «يا له من بحر متلاطم مثل الجحيم هذه الليلة.»

تتبّع القبطان بجسده حركة السفينة كما لو أنّ أقدامه مسمّرة بألواح خشب السّطح بمساميرَ طولها سبعة إنشات.

كانت كريستينا تستلقي مغمضة العينين عندما اقتربا من سريرها.

«ها هو القبطان قد أتى—»

فتحت عينيها ببطء.

ألقى القبطان لورينتز نظرة على وجهها، ثم على المقلاة المليئة بالدم، وفكر في نفسه: لقد بلغ هذا حداً بعيداً؛ ينبغي لأي شخص فقد مثل هذه الكمية من الدم أن يفقد حياته. لقد عانت هذه المرأة من الإسقربوط لوقت طويل، كما بدا له.

والآن، أصبحت النهاية قريبة. شعر بالأسى للمرأة النازفة؛ إنها شابة ما تزال، ولا شك أنها كانت جميلة المظهر في أيام صحتها. سوف يحتاج زوجها إليها حتى يستطيع تدبر أموره في أميركا الشمالية. وهي خسارة أيضاً للأطفال الصغار أيضاً، المستلقين منكمشين معاً في عنبر العائلة؛ ولا شك أن نصيب اليتيم في الحياة أضعف. وكان يفترض أن تُنجب هذه المرأة الطفل الآخر في بطنها — أرانب طبيعيون، هؤلاء الفلاحون، ينجبون الذرية على هذا النحو. كل هذه الهجرة إلى أميركا الشمالية جاءت بسبب الاكتظاظ، نتيجة تفريخهم وتضاعفهم المستمر في أكواخهم وعنابرهم.

لكم كانت الأمور ستكون أفضل لهذين الزوجين الفتيَّين لو لم يحاولا عبور المحيط. عندها، ربما كانت المرأة الشابة ستنجو، ولما قُدِّرَ لهذا الزوج الشاب أن يصبح أرمل، والأطفالُ الثلاثة يتامى بلا أمّ.

نقَّل القبطان أنظاره بين الزوج والزوجة: الشيطان المسكين!

بالنسبة لكارل أوسكار، بدا وجه القبطان قاسياً كما لو أنه قُدّ من قطعة خشب. فكَّر: هذا الرجل لا يمكن أن ينطوي على أي تعاطف مع الكائنات الأخرى.

«سوف نحاول وقف نزيف الدم.»

ترتَّب على لورينتز، بعد كل شيء، أن يفعل ما يستطيع. أرسل كارل أوسكار ليحضر دلواً من مياه البحر الطازجة، ونقَعَ مناشفَه، ووضعها كمّادات باردةً حول رأس المرأة المريضة. وبقيت لديه بضع مناشف أخرى لم يبللها، ربطها حول أطراف كريستينا التي أنَّت بصوت خافت. كان يعرف أن ذلك يؤلم، لكن المناشف يجب أن تكون مشدودة إذا ما أريد لِما يمكن أن يكون قد تبقى من الدم في تلك الأطرف أن يبقى فيها.

عندما يكون مريض قد نزف بكل هذه الكثافة، يجب وضع كمّادة باردة حول أعضائه الجنسية أيضاً. لكن لورينتز حذَف ذلك الجُزء: لدى نساء الفلاحين خجلٌ متجذرٌ إزاء ذلك الجزء من الجسد، وربما تفزع كريستينا وتحاول الدفاع

عن نفسها إذا قام بتعرية بطنها بذلك المقدار. عندما لمس جسدها، انفتحت عيناها على وسعهما وكانتا مليئتان بالخوف، كما لو كان يحاول أن يقتلها. كان واثقاً أن رجلاً آخر غير زوجها لم يسبق وأن وضع يديه عليها أو اقترب من مرأة المزرعة الشابة هذه.

ما كان عليه أن يفعله هنا، فعلَهُ سريعاً — ليس بوسع أيّ طبيب في العالم أن يفعل أكثر من ذلك. وقبل أن يغادر، أعطى لكارل أوسكار تعليماته: يجب أن تبقى كريستينا ثابتة تماماً في هذا الوضع، مُستلقيةً على ظهرها، ويجب استبدال الكمادات الباردة حول رأسها كل ساعة أو حول ذلك من أجل إبقائها باردة.

بدا ذلك فظاً ونهائياً. كانَ أمراً من آمرِ السَّفينة. ودَّ كارل أوسكار لو يعرف كيف يتدبر أمر إيقاء جسد زوجته ساكناً في السرير فوق البحر الذي لا يهدأ.

عاد القبطان لورينتز إلى قُمرته. والآن، لن يكون ثمة المزيد من النوم له هذه الليلة. في حال استمرت هذه العاصفة بالاشتداد، فسوف يهوون هابطين إلى القاع ليستقروا عند الشُعَب المرجانية. لا يستطيع ربّان أن يتمتع باستراحته عندما يكون في حاجة إليها، وإنما فقط عندما يُتاحُ له أن يحصل عليها. لكن عليه أولاً أن يجلس لحظة، ويعتصر فتاته المنقوشة على كوب الجعَة؛ هذا هو شغفه الأكثر إمتاعاً عندما يستريح. كانت عضلاتها صلبة، صلبة مثل صخرة، ولم تكن تدفئ يدي رجل، لكنها كانت دائماً هناك، هُناك دائماً حتى يتكئ عليها. أما الفتيات ذوات اللحم الطري، المتقلبات، فينتمين إلى سنواته الأبكر؛ أما الفتاة المنقوشة على كوب الجعة، فامرأة صالحة لشيخوخة البحار.

مع ذلك، لبثت صورة الفلاح الشاب وزوجته الفتية المحتضرة هنيهة في بال قبطان تشارلوتا. تساءل عما إذا كانت الخسارة ستكسر الرجل. لكن معظم هؤلاء الفلاحين الجشعين، المتعطشين للتراب، بالكاد يُعنون بالكائن البشري في زوجاتهم؛ وعندما يندبوهن، فإنما يندبون خسارَ ما يقدِّمنَه من عمل. سوف يجد المزارع ذو الأنف الكبير السلوى سريعاً مع كائنة بشرية أخرى تتحمل معه العبء في أميركا. لقد بدا رجلاً قادراً، ويستطيع الرجال القادرون الاستمرار بلا نساء أكثر من الآخرين. كان الرجال ذوي الطبائع القوية هم الذين صنعوا معظم الأشياء المهمّة في هذا العالم. ومن المؤسف أن هذا الرفيق فلاح — ولو كان قد ولد قرب الساحل، بدلاً من الداخل، لأصبح من دون شك بحاراً كثير القُدرة.

الآن، باتوا يشارفون على إنهاء رحلتهم —الرحلة السابعة لتشارلوتا كسفينة مهاجرين. كانت رحلة سارة ذات عواصف محدودة المدى. والمعنويات على سطح السفينة كانت معتدلة أيضاً: سبع وفيات من بين ثمانية وسبعين مسافراً؛ كانت هناك وفيات أكثر بين عدد أقل في رحلات عبور أخرى. ويبدو أن وفاة ثامنة على وشك الحدوث؛ وسيترتب عليه للمرة الثامنة في هذه الرحلة أن يؤدي واجبات الكاهن.

وكان ذلك صحيحاً في الحقيقة — إن البشر هم الحمولة الأقل صحة، والتي يمكن أن تحملها سفينة أبداً: «... سوف يكون قدر كبير من العناية مطلوباً حينئذ من القبطان...» ومن سيعرف ذلك أكثر من القبطان على متن السفينة الشراعية ذات الصاريَين، «تشارلوتا»؟

لكم هم محظوظون أولئك القباطنة الذين ينقلون أنواعاً أخرى من الحمولة عبر البحار! ربما يتمتّعون أحياناً بسِنَةٍ من النوم، حتى في ليلة عاصفة.

٢

بدّل كارل أوسكار الكمّادة الباردة مرة؛ لكن نزيف أنف كريستينا ظلّ مستمراً كما كان من قبل.

استسلم يوهان أخيراً لسلطان النوم، واستلقى على عُرض السرير، فوقَ ساقَي أمه. وكانت ليلا—مارتا تحلم وتتحدث في نومها عن كعكة يريد أن يأخذها منها أحد ما. ومن الأسرَّة المجاورة، تَناهت أصوات أنّات ونفخات. وأصبح شخير المرأة التي ظلّت تشخر طوال ساعات أعلى صوتاً الآن. وفي الخارج، على جانب السفينة، ضرب المحيط الأطلسي كما هو دأبه في كلّ العواصف منذ بدء الخليقة. واستلقت كريستينا هناك مهتزّة على سريرها، كما اهتزت طوال الكثير من الليالي والأيام. ومضت السفينة لا تلوي على شيء، بينما يتشبث كارل أوسكار بحواف السرير بين فينة وأخرى حتى لا يسقط عن الكرسي الذي يقتعدُه.

بين الحين والآخر، أشعل شمعته الصغيرة ونظر إلى زوجته. كانت تستلقي وعيناها مغمضتان معظم الوقت، لكنهما تنفتحان بين فينة وأخرى. وعندها، يحاول أن يلفت انتباهها، لكنها ظلت بعيدة وغائبة عن عينيه، ولم يستطع أن

يعثر عليها هناك. جلس إلى جوارها، لكنها لم تكن معه. شخرت امرأة أخرى، وشخر بعض الناس نائمين، بينما يستلقي آخرون على عتبات الموت. ومن عنبر جماعة كاراغاردي، تناهى صوت غمغمة رتيبة من حين لآخر. كانت صلاة؛ كان دانجل يصلي. لا بد أنه مستيقظ الآن إذن. كانت إنجا—لينا مريضة جداً، لكنها أنكرت مرضها وأصرت على أنها كانت بخير —من يستطيع أن يسبر أغوار هؤلاء الآكيين؟

مرت ساعة أخرى. وعندما غير كارل أوسكار الكمّادة الباردة مرة أخرى، ظنّ أن بوسعه ملاحظة تدفق الدم وقد توقف قليلاً.

تغيّرت نوبة المراقبة على دكّة السفينة، هي الساعة الرابعة إذن، ونوبة الحراسة انتهت. كان نوبة الصباح المبكر تمضي. لكن كارل أوسكار أكمل سهرته، كان يراقب كريستينا، ويقف حارساً كل نوبات المراقبة في هذه الليلة.

سُمع قصف رعد قوي من الأعلى — صوت أخشاب تتقصف، كما لو أن موجة كسرت شيئاً على الدكة. استيقظت كريستينا وفتحت عينيها. ونظر كارل أوسكار فيهما، ووجد زوجته: وجدها هناك مستيقظة وصافية الذهن. ومن فمها تسلل نفس ضعيف —انحنى عليها ليسمع ما تقول:

«كارل أوسكار...»

«نعم...؟»

«أردت فقط أن أطلُب ...كن لطيفاً مع الأولاد...»

«طبعاً سأكون...»

«سوف تعتني بالصغار... هل ستفعل...؟»

«كوني على ثقة من ذلك...»

«جميلٌ سماع ذلك... سيكون عليك أن تكون الأب والأم، كليهما...»

«لا تفكري بذلك الآن يا كريستينا...»

«كلا، لا ينبغي أن نذكر هذا ثانية...»

«هل هناك أي شيء ترغبينه...؟»

«كلا، لا شيء.»

من جيب سترته، أخرج كارل أوسكار بعض قطع السكر، ملفوفة بقطعة من الورق القديم —كانت من الوطن، وقد احتفظ بها منذ وقت طويل.

«هل أضع في فمك قطعة من السكر؟»

«كلا.»

استقرت قطع السكر في جيبه طوال أسابيع، ولم يعد لونها أبيض؛ نفخ الغبار عنها لينظفها. «لقد ادخرت هذه لك.»

«إنك لطيف يا كارل أوسكار ...لكنني..لا..أستطيع أن أمضغ...»

«أليس هناك شيء يمكن أن أعطيه لك؟»

«كلا...»

قبض بشدة على يد كريستينا المرتخية على الغطاء؛ وبدت أكثر برودة حتّى من ماء البحر الذي كان قد برّد يدها.

والآن، غمره ذلك الشيء الذي طالما حاول أن يتجنبه، ذلك الذي لم يرغب أبداً الشعور به أو الاعتراف به: لقد أقنعها بأن تتبعه، لقد أخذ زوجته وأبناءه معه في هذه الرحلة عبر البحر؛ كان هو الذي فرض عليهم الهجرة —على أحد ما أن يتحمل المسؤولية؛ وسوف أتحملها! كان ذلك ما قاله —والآن جاء يوم الحساب؛ الآن ينبغي أن يحمل المسؤولية على كاهله. لو أنه كان يعلم بما ستكون عليه الأمور —لو أنه كان يعرف— لو أنه كان يعرف الثمن! أما الآن، فقد غمره ذلك الشعور، واندفع نحوه بقوة هائلة.. الندم.

لقد ندم كارل أوسكار على ما فعله.

«كريستينا!»

«نعم..م..»

«أريد أن أطلب ...أن أطلب صفحك...»

«ما الذي يجب أن أصفح عنه...؟»

«أنني أردت الذهاب...»

«لقد أردت ذلك أيضاً...»

«لكنني فرضت إرادتي كل الوقت؟؟.»

«لم تكن تقصد أي سوء بذلك...»

«إنك تعرفين ما أعني، كريستينا.»
«لقد أردت تحسين الأمور من أجلنا — من أجلنا جميعاً.»
«نعم، يمكن أن يقصد المرء خيراً — ويفسد الأمور مع ذلك— يفسدها علينا جميعاً—»
«لا تندم على ذل... يا كارل أوسكار، لا تستطيع أن تغير شيئاً...»
«أنا المَلوم أكثر ما يكون.»
«لقد ناضلت فقط من أجلنا. لا ينبغي أن تكون حزيناً.»
«سوف تسامحينني يا كريستينا..؟»
«ليس هناك ما أسامحك عليه... تذكر أنني قلت ذلك.»
«من الجيد سماع ذلك...»
«أحبك يا كارل أوسكار، ودائماً فعلت. إننا الأفضل من الأصدقاء.»
«نعم. الأفضل من الأصدقاء... ذلك نحن!»
هكذا تحدث كارل أوسكار وكريستينا كل مع الآخر، كما يفعل الذين ربما لا تتسنى لهم فرصة أخرى ليتحدثوا مع بعضهم في هذا العالم.
عادت كريستينا إلى أرجوحتها مرة أخرى. أغلقت عينيها الواهنتين. «أرغب في النوم قليلاً بعد.»
«نامي. إنك في حاجة إلى ذلك.»
«فقط لبرهة.»
«بالطبع سوف تنامين...فقط يجب أن لا... لا... لا...»
تجمد لسانه في حلقه، ولم يستطع نطق مزيد من الكلمات، كان غير قادر على إتمام عبارته: فقط يجب أن لا تموتي وتتركيني!
«أرغب أن أستريح الآن، بهدوء،» جاءت العبارة من زوجته. «أنا متعبة جداً...»
«أنزلني الآن!» قالت. «دعني أنزل الآن من الأرجوحة، يا كارل أوسكار، لا أريد المزيد من اللعب...»
عندئذ، أدرك أنها كانت تهذي.

٣

احترقت الشمعة. جلس في العتمة وهو يستمع إلى أنفاس كريستينا. طبعاً

سوف تنامين! يمكنك أن تنامي بقدر ما تشائين —بقية الليلة — كل يوم غد — عدة أيام. يوماً بعد اليوم يمكنك أن تنامي— فقط، يجب أن تستيقظي مرة أخرى، يجب أن تعديني بأن تستيقظي — يجب أن لا تموتي.

كُن الأب والأم كليهما، قالت. هل سأصل إلى هناك وحيداً — وحيداً مع الثلاثة الصغار؟ وماذا عن الرابع؟ الرابع تأخذه معها — يتبعها. والثلاثة الآخرون يتبعونني — الثلاثة الآخرون— الذين لم تعد لهم أمٌ بعد — كلا! ما يزال لديهم أب وأم — أستطيع أن أسمعها تتنفس. إنها نائمة فحسب. لكنها إن لم تكن كذلك— إذا كان ينبغي أن يحدث الأمر هكذا، فلن يمكنني أن ألوم إلا نفسي. لقد تسببت أنا نفسي بكل هذا. قلت: على أحد ما أن يتحمل المسؤولية، وأنا أتحمل المسؤولية. كانت تعارض الأمر طيلة الوقت، كانت ضده منذ بداية البداية. لكنني أقنعتها. وقد جاءت معي، وأعتقد أنها ندمت على ذلك كل الوقت. لكنها لم تقل شيئاً. كنت الطرف الذي أصرّ، وأنا الذي قررت، وليس أي شخص آخر. والآن، كان بوسعها أن تلومني، لكنها تقول بدلاً من ذلك: ليس هناك شيء أسامحك عليه؛ إننا الأفضل بين الأصدقاء. أنا أتسبب بفقدان حياتها— وهي تقول—أنا أحبك—»

هذا هو جزاؤك عن كل هذا العناد والإصرار. الآن تشعر بما هو عليه الأمر حقيقة! لقد أردت أن تفرض رأيك — والآن، انظر ما حدث! لو أنك استمعت إليها، لو أنك استمعت إلى زوجتك، إلى والديك والآخرين — أولئك الذين رغبوا بوقف لذلك — إذن لما كان عليك أن تجلس هنا الليلة، متحسساً مكانك بشمعة محترقة، متسائلاً عما إذا كانت حية أم ميتة. هل أنظر إلى زوجتي كريستينا؟ أم إلى جثة؟ إذن لما كنت أجلس هنا، متأرجحاً إلى الأمام والوراء، في السفينة المتأرجحة— في هذه العاصفة في هذه الليلة. إذن لما كنت وضعت قدمي أبداً على سفينة الشيطان هذه، لما كنت أبداً فوق هذا المحيط الملعون —ملعون هو الزمن والخلود! لو أن ذلك الفنلندي الملعون يأتي بقماشه — يأتي صاعداً إلى هذا السرير — إلى هنا تماماً — ويأخذها— ويقول، كما يفعل عادة: ينبغي لنا— نعم، الآن ينبغي لنا — لو أنه يأتي — لو أنه يأتي — وأنا يجب أن ألوم نفسي. عنيد وحَرون — أصحاب الأنوف الكبيرة دائماً عنيدون. إنه أنفك الكبير، يا كارل أوسكار.

لم تقصد من ذلك شراً — لم ترد أن تؤذينا — لا يجب أن تكون كسير القلب — لا تكن حزيناً! لكن ذلك الفنلندي إذا أتى— في الفجر المبكر، إنه عادة ما يأتي في الصباحات —وحاول أن يلمسها — أن يكتشف — لا ينبغي أن يأتي الصباح —ليس بعد — ليس قبل وقت طويل بعد. من الأفضل أن يطول الليل، أفضل من أن يأتي ذلك الصباح — الصباح، والفنلندي، يحمل قطعة قماش في يده. لديك نفسك لتلومها...

هكذا وقف كارل أوسكار نيلسون مناوباً إلى جانب زوجته المريضة — أطول ليلة مراقبة في حياته.

مع ضوء النهار والصباح المكتمل، سَمِعَ صوتَ طفل— نهض ابنه الصغير يوهان زاحفاً إلى ركبته وأمسك بسرواله وقال:

«أبي...أمي لم تعد تنزف.»

٤

انقضى الليل، ومع الصباح جاء الطقس الهادئ. والمحيط خفض صوته العاصف المزمجر— ولم تعد المزيد من الأمواج تُسمع وهي تضرب جوانب السفينة، ولم يعد الاهتزاز يُذكر. وفي واقع الأمر، كان الاهتزاز قد ذهب تماماً عندما شرع المهاجرون بالزحف خارجين من أسرَّتهم، واستيقظوا على يوم جديد طلّع على زواياهم القديمة في العنابر.

كان يوهان قد زحف نازلاً عن سرير أمه.

«كفّت أمي عن النزيف.»

استلقت كريستينا بهدوء على ظهرها كما من قبل، وومضت عيناها مفتوحتين وكبيرتين في ضوء النهار الشاحب الذي دخل عابراً فتحة العنبر. وتحركت شفتاها ببطء:

«كارل أوسكار... هل أنت هنا...؟»

«نعم...»

«أظن... أعتقد أنني نمت...»

«نعم... كنتِ نائمة منذ وقت طويل...»

«لم أعد أشعر بأنني متعبة كثيرا بعد...»

«هذا حَسن...»

«أعتقد...أعتقد...»

لكن ذلك كان كل شيء. كانت أضعف كثيراً من أن تقول أي شيء آخر. لاحظ كارل أوسكار أن الدم لم يعد يسيل من فتحتي أنفها؛ لقد وقف تدفق الدم — ربما قبل ساعات طويلة. لم يكن بوسعه أن يرى ذلك في الظلام، وكان خائفاً من إشعال ضوء، حتى لا يوقظها. لكن الدم كان قد توقف. كان هناك على الأقل مُوقِف نزيف واحد على سطح السفينة — القبطان نفسه. على المرء دائماً أن يفعل ما يستطيع أن يفعل، والأمور ربما تتغير إذا بذل المرء المحاولة.

فيما اجتاحت تيارات من الفرح كارل أوسكار، اقترب رجل منه ولمس كتفه، بود وخرَق. دانجل أندريسون. كان لونه ممتقعاً وعيناه محمرّتين جراء البقاء مستيقظاً كلّ الليل — وبدتا لامعتين بشكل غريب وقصيتين عندما نظر إلى كارل أوسكار ثم إلى كريستينا. وبدا صوته أيضاً غريباً وقَصياً، كما لو كان يتحدث من عالم آخر: «لقد ماتت.»

«كلا! إنها حيّة!» قال كارل أوسكار. «أعتقد أنها ستنجو الآن!»

«لقد ماتت الآن فقط،» قال دانجل.

«ولكن، ألا تستطيع أن ترى بنفسك—»

«يجب أن تصدقني، يا كارل أوسكار، لقد ماتت قبل دقيقة فقط. لم تقل لي أبداً كم كانت مريضة.»

«ألا ترى أنها حيّة؟»

«إنها ميتة — يمكنك أن ترى بنفسك، إذا كنت تشك بي.»

«هل أنا نائم؟ ما الذي تتحدث عنه؟»

«نظر كارل أوسكار بتركيز إلى دانجل.

إلى جانبه، وقف رجل غارق عميقاً في الحزن. لم يكن دانجل يتحدث عن كريستينا، وإنما كان يتحدث عن زوجته: ماتت إنجا—لينا دون أن تعترف لزوجها بأنها كانت مريضة.

لقد أصبح رجل آخر، غير كارل أوسكار، أرملَ هذا الصباح.

ملء ثلاثة مجارف أخرى من تراب السويد

١

جلس القبطان لورينتز في قمرته وانكب على قطعة ورق كُتبت عليها بضعة أسطر: «الزوجة إنجا—لينا أندرسدوتر من كاراغاردي، أبرشية ليودر، مقاطعة كونغا، مولودة في ٤ تشرين الأول (أكتوبر)، ١٨٠٩؛ ارتبطت بالزواج بمالك المنزل دانجل أندريسون يوم ٢٣ حزيران (يوليو) ١٨٣٣...»

الاسم، الجنس والعمر— كان ذلك هو كل ما طلبه، كل ما يحتاجه ليعرف كيف يدير الجنازة. كانت هذه هي الجنازة الثامنة. لكن هناك شيئاً في المعلومات لم يكن متطابقاً. بل إنّ أي شيء لم يكن مُتطابقاً عندما فكر في الأمر. لقد رأى جسد المرأة النازفة، وربط ذراعيها وساقيها. كانت امرأة شابة، بالكاد في الثلاثين، لكنه بدا الآن وأن الميتة في الأربعين. قيل له إنها تركت وراءها أربعة أبناء، كلهم على سطح السفينة مع والديهم. ومع ذلك، تذكر بالتأكيد أنه شاهد ثلاثة أولاد صغار فقط في سرير المرأة الميتة.

يبدو أن وفاة أخرى هي التي حدثت غير تلك التي كان قد تنبأ بها.

ينبغي عليه مرة أخرى في رحلته أن يقف على الدكة ويختار من كتاب الصلاة صلوات مناسبة، وترانيمَ تستحق التأمل، «كما وبعض العبارات من الكتاب المقدس،» على النحو الموصوف في كتاب «كيف تدفن جثة على متن سفينة».

«يجب أن نتذكر جميعاً أن علينا أن نموت، وبهذا نكسب الفهم...».

هذه الصلاة القوية يمكن أن يكون لها معنيان: إما أننا نكسب الفهم ونستخدم حياتنا جيداً قبل أن نموت —أو، المعنى الذي كان في ذهن الكاتب من دون

شك، أننا نكسب الفهم لكي نجهز أنفسنا للموت. لكن الشخص الذي يستخدم ذكاءه جيداً لن يقلق نفسه في الحياة بالتحضير المستمر للموت. لا يمكن أن يكون هناك معنى في هدر أيام المرء القليلة المنهوبة على هذا النحو. ينبغي أن يعيش الإنسان براحة وبهجة طالما دامت الحياة — فقريباً جداً يأتي الموت دون أن يجلب بهجة لأحد.

وفكرة موته هو —المحتمل في السنوات القليلة القادمة— شغلت ذهن قبطان شارلوتا لبعض اللحظات الشاردة. عندما كان ما يزال صغيراً، كثيراً ما كان يوم موته في باله؛ لكنه كلما أصبح أكبر سناً، كلما قل تكرار تفكيره به. ثمة بعض الحكمة التي كسبها بمرور السنين. في الستين من عمره، كان ما يزال يقطع البحار بصحة جيدة جداً. وكان معظم رفاق شبابه تقريباً قد اختطفهم البحر، وأصبحت أجسادهم جزءاً من الماء الذي كان قد يرتفع حول سفائنهم. بعضهم أبحر خمس سنوات، وآخرون عشراً، وآخرون أبحروا ثلاثين سنة. أما هو نفسه فقد سمح له بأن يبحر ستاً وأربعين حتى الآن. لماذا؟ لا شيء يمكن أن يكون أكثر حماقة من الوقوف طويلاً عند هذا السؤال. ربما يستطيع بنفس الطريقة أن يسأل لماذا كانت الريح جنوبية اليوم وشمالية يوم أمس، وليس العكس. بمجرد أن يعرف المرء أنه ليس ثمة سؤال على السؤال، فإن المرء يتوقف عن السؤال. ليس سوى المغفل يمكن أن يستنطق ما لا يمكن تفسيره.

ربما يكون من الصعب على المرء أن يموت، لكن ذلك كان مألوفاً. كل الناس يجب أن يموتوا، وقد فعل الناس ذلك عبر الزمان، ويجب عليه هو أيضاً أن يواجه هذه الحقيقة عندما يأتي وقته. وبما أنه لا يستطيع الهروب منه، فإن بوسعه أيضاً أن يتظاهر بأنه يمكن أن يعيش للأبد. للخلود كله سوف يجوب البحار، وسوف يُبلي سفينته، لكن السيد يبقى. بالتفكير بأن الموت غير موجود، يمكن له أن يستثمر حياته أفضل ما يكون.

كيف قضت الزوجة إنجا—لينا أندرسدوتر حياتها — السنوات الأربعين التي أعطيت لها؟ يمكن لشخص يتقمص دور رجل دين ليدير جنازة على سفينة مهاجرين مكتظة بالكاد أن يعرف أي شيء عن أولئك الذين يقرأ عليهم صلواته. كان مسافروه قد أزيلوا من ملفات أبرشيتهم لدى مغادرتهم إلى الوطن، ولم يتم تسجيلهم في أي مكان آخرَ بعد. كانوا مسجلين في لامكان — كان المهاجرون

على سفينته مشردين، ولم يكن لهم قطعة أرض يُدفنون فيها في ساحة كنيسة. البحر فقط كان يفتح أعماقه لهم. كان في البحر متسع لهم جميعاً.

أولئك الفلاحون كانوا دائماً يخشون الموت في البحر، بسبب مكان الاستراحة النهائي — أرادوا أن يوضعوا في مقبرة مكرّسة، ولم يكن المحيط أرضاً مكرّسة. لكنهم كانوا عالقين عميقاً في الخرافة: هذا الماء حيث وجد الكثير جداً من البحارة الطيبون قبورهم ينبغي أن تكون مكان استراحة جيد بما يكفي لفئران اليابسة البائسين.

ربما تكون الزوجة إنجا—لينا أندرسدوتر قد ماتت، أيضاً، خوفاً من المدفَن غير المكرّس في المحيط. وقد عاشت سنواتها الأربعين فوق أرض صلبة، منحنية على الأرض في أثلام حقول البطاطا والشعير، أو مندسة في الحظائر وأكوام السماد، متسكعة بين الزريبة والحظيرة. لكنها ربما تجد راحتها الأخيرة في البحر، في ساحة الكنيسة الأكثر اتساعاً على وجه البسيطة، حيث لا شيء يعلِّم القبور. ولن يتم تسجيلها في أيّ مكان — كانت مهاجرة أخفقت في الوصول إلى وجهتها، جوالة في هذا العالم.

لكن هذه المرأة الفلاحة كانت قد تركت علامتها وراءها على الأرض: لقد ولدت أربعة مواطنين جدداً لجمهورية أميركا الشمالية.

بأصابعه المتصلبة، المهترئة والرمادية من ملح البحر، التقط القبطان لورينتز قلمه ليضيف بضعة أسطر إلى الورقة: «توفيت في ١٧ تموز (يونيو) ١٨٥٠، على سطح السفينة الشراعية تشارلوتا من كارلسْهامن، في رحلة إلى نيويورك، وثَّقه وصادق عليه، كريستيان لورينتز، القبطان.»

٢

كان صباحاً تموزياً هادئاً وجميلاً في المحيط الأطلسي. وأبحرت سفينة المهاجرين مع نسمات جنوبية خفيفة. وعكست الشمس صورتها على صفحة الماء، وانعكست شعاعاتها مثل ألسنة اللهب المشتعلة. في هذا الصباح في البحر، شعر المهاجرون بأول تباشير الصيف.

تجمعت جماعة من المسافرين على سطح السفينة تشارلوتا. ووقف الناس في شبه دائرة حول النعش الفقير: بضعة ألواح مصفوفة فوق أطار خشبي متحرك، وفوقها سُجّيت حزمة مستطيلة ملفوفة بالأكفان. وقد ارتدى المهاجرون

أفضل ملابس الأحد التي لديهم — الرجال بسترات صوفية رمادية أو سوداء؛ وارتدت النساء المسنات مناديل الحرير. وقد اختلط البحارة الذين لم يكن لديهم عمل بالمسافرين.

وقف الرجال حاسري الرؤوس، وأحنَت النساء رؤوسهن المغطاة. وعكست كل الوجوه جديّة اللحظة. كانوا جماعة جامدة متصلبة من الناس، متجمعين حول حزمة فوق النعش البائس. وكان جسد بشريّ ملفوفاً في الكفن الأبيض؛ وقد انحنى النعش باتجاه الماء، والقدمان تلامسان الحاجز.

نُكِّس علم السفينة تشارلوتا إلى منتصف السارية. وخرج القبطان من قمرته وأصدر أمراً سريعاً. وضُمّ الشراع الرئيسي، خافضاً السرعة البطيئة للسفينة إلى لا شيء تقريباً، وبقدر يكفي بالكاد للتوجيه. لقد تم تأخير رحلة السفينة تشارلوتا من أجل خاطر جثة بشرية على سطح السفينة في هذا الصباح الصيفي الجميل.

كان القبطان قد استبدل معطفه المطري بمعطف خفيف ذي حزام؛ وعلى رأسه العاري، ظهر شعره الأشيب الآن مسرّحاً بعناية. واتجه إلى رأس الكفن، ثم نظر للحظة إلى الصواري كما لو أراد أن يعرف كيف كانت سفينته تحمل أشرعتها. وتحت إبطه، كان يحمل كتاب صلاة. وعندما فتحه، طوى المهاجرون أيديهم واتخذت وجوههم —إذا أمكن— ملامح أكثر جدية.

قلَّب القبطان لورينتز بضع أوراق في كتاب الصلاة، ثم أعادها مرة أخرى، وأتى بحركة خرقاء نافدة الصبر من كتفيه عندما لم يستطع مباشرة تحديد المكان: يجب أن يتذكر فتح الصفحة على «كيف تدفن جثة.» وماذا كان رقم الترنيمة التي سيرتلونها.

وبينما يبحث عن الصلاة، صادف أنه لاحظ رجلاً يقف إلى جانبه: فلاح صغير الحجم له لحية بنية كثة. وقد تذكر هذا الرجل جيداً. في اليوم الأول عثر عليه وهو يصلي على الدكة. والآن كان الرجل الضئيل يحمل طفلاً رضيعاً بين ذراعيه؛ وإلى جانبه وقف ثلاثة أولاد آخرون. معاً كانوا أربعة أطفال وأب.

وأزاح لورينتز نظراته سريعاً عن هذه المجموعة ونظر حوله على الدكّة. ثمة شيء كان في حاجة إليه —هناك، عند قدميه، وقف مكيال خشبي نصف مملوء بالتراب. وفيه غُرست مجرفة صغيرة، تشبه المذراة.

وجد الصفحة في كتاب الصلاة وشرع في القراءة. كان صوته صافياً ورنّاناً، مدرباً خلال سنوات كثيرة في البحر على الارتفاع فوق زمجرة الأمواج والعواصف.

«أيها الرب إلهنا، أنت الذي تميت الناس من أجل الخطيئة، وتعيدهم ثانية إلى التراب، علمنا أن نتذكر أننا يجب أن نموت، فنكسب الحكمة...»

والآن، أبقى كل الموجودين أيديهم مطوية، وأحنوا رأسهم بخشوع واستمعوا إلى كلمات كتاب الصلاة. وضرب ماء البحر جوانب السفينة بنعومة. وحركت نسمة من الهواء بضع خصلات من شعر القبطان حاسر الرأس. ومع آخر الكُلمات، سُمِع صوت شخص يجهش بالبكاء، لكن الصوت سرعان ما غرق في صوت القبطان القويّ.

عادت النوارس، وغمرت هذا الصباح بأسراب كبيرة عبَرت الصواري. وظهرت الحياة مرّة أخرى أمام الأنظار في البحر.

وشرع راعي الجنازة بترتيل ترنيمة. بدأها بتردد، واضطر إلى غناء المقطع الأول وحده. لكن الناس انضموا إليه بالتدريج — وبطيئاً مثل مسير السفينة مضى الغناء:

«أيها العالَم الشرير، وداعاً!
إلى السَماء ترحلُ روحي،
لتصلَ مستقرّها الأخير...»

وعندما انسابت المقاطع الأخيرة من الترنيمة على صفحة البحر، انحنى القبطان، والتقط المجرفة الصغيرة من مكيال الرمل عند قدميه. ثلاث مرات ملأها بالتراب الذي حملته سفينته من الوطن، وثلاث مرات أفرغها على الجسد الميت أمامه. وسقط التراب على النعش بجلجلة مكتومة. لكن كلمات القبطان سقطت ثقيلة ورهيبة على رؤوس الناس المنحنية: «من التراب خلقتِ، وإلى تراب تعودين. وسوف يوقظك يسوع المسيح يوم الحساب! دعونا نصلي.»

ثقيلة كانت الحقيقة، لكن الصلاة كانت سلوى. صرخ شخص ما عند سماع كلمات «يوم الحساب.» ولم تكن صرخة أمل، وإنما بدت أكثر شبهاً بصرخة طائر غريبة يائسة. ربما كان طائر بحري يهتف، وقد أدار بعض الناس أنظارهم نحو الصواري — ربما يكون نورس هو الذي يقلق هدوء الجنازة. لكن الصرخة لم تأتِ من نورس جائع — لقد صدرت عن طفل.

على الحزمة الملفوفة بالأكفان، كان التراب القليل ما يزال هناك، ثلاث تلال شوهاء يخالط قليل من العفن كلاً منها، ثلاث بقع رمادية مسودّة قبيحة على القماش الأبيض النظيف. ولكن، وقبل أن ينهي القبطان قراءة الطقوس، شرعت القطع الأخف من التراب بالانفصال عن التلال وانسابت بهزال على المنزلق. ولأن النعش كان مائلاً باتجاه حاجِز السفينة، وباتجاه البحر من ورائه، سال بعض التراب ببطء عابراً الحاجز، إلى البحر.

سافر هذا تراب معهم كل الطريق. جاء من الأرض حيث كانت أقدام المرأة الميتة قد داست التراب خلال سني عمرها الأربعين، حيث ناضلت بسلال البطاطا وحزم القمح، حيث حملت أواني الحليب ودلاء الماء، حيث أغلقت بالقفل —بدفع حرصها على طعام أحبّتها— مخزن اللحوم كل مساء، حيث عاشت فصول الصيف والشتاء، وكل فصول الخريف والربيع — كلها ما عدا هذا الربيع الوحيد، عندما تبعت قرينها خارجة إلى البحر. كان ذلك بعض التراب من السويد، القليل من ملء المجارف الثلاث التي تصاحب الكلمات عن الخلق، والعدم، والانبعاث، هو الذي ينسرب الآن إلى البحر كما لو أنّه يتشوّق للوصول إليه قبل الجسد البشري الذي أودع لتوه قبَره المائي.

لكن أحداً لم يلاحظ التحركات فوق الكفن. وبينما كانت حبات التراب تنفصل وتتدحرج ذاهبة في طريقها، كانت المجموعة ترتل الآن الترنيمة الثانية والأخيرة من الطقس:

«دعوا جسدي يرقد الآن
في قبر متواضع، بلا اسم؛
حيث سيُسمَحُ لي أخيراً،
بأن أهجر تلك الغرفة الضيقة،
والمسيح يعلم أين يرقدون
أولئك الذين أوتوا برَكة حفظه...»

أشرقت الشمس على بحر مُسالِم هدأ هذا الصباح، ويستريح الآن ساكناً أمام الأغنية عن روح بشرية صبورة مستسلمة تسعى إلى مرقدها عند الله حتى نهاية الزمن. ومع ذلك، كان المزيد من التراب ينزلق على الكفن باتجاه الماء.

كان القبطان لورينتز جاهزاً ليعطي طاقمه الإشارة: أنزلوا النعش.

وفي تلك اللحظة، تحرك شخص خلفه — الرجل الضئيل ذو اللحية البنية

الذي يحمل الرضيع على يديه تقدم إلى القبطان. نظر إلى قائد السفينة بتضرع. وتنحى لورينتز جانباً، تاركاً مكانه عند رأس النعش للزوج الناجي.

أراد دانجل أندريسون أن يقول شيئاً. ولم يكن صوته قوياً، فهو لم يسبق له أن أصدر الأوامر، وليس له صوت الآمِر. وقليلة كانت الكلمات التي كان سيقولها لقرينته في النعش: «الربّ قال لكِ ما قاله لموسى: 'إنك لن تصل إلى تلك الأرض.' أنت يا زوجتي العزيزة، لَم يُسمَح لكِ بأن تري الأرض الجديدة —ومع ذلك وصلتِ الميناء قبلَنا.

«عندما أردتُ أن أرحلَ إلى هناك، تحدثتِ إليّ آنذاك، وقلتِ: 'لا تقل لي أنّ علي الانفصال عنك؛ حيثُ تذهب، سوف أذهب. حيثُ تموت، هناك سوف أموت وأُدفَن.'»

أولئك القريبون جداً من دانجل أندريسون فقط هم الذين سمعوا صوته، وقد قال كلماته بصوت خفيض.

خطا إلى الوراء مبتعداً عن الكفن، بخطوة طويلة مترددة. ثم أعطى القبطان إشارته — تقدم بحّاران، وانزلقت الحزمة المستطيلة في البحر. وعندما كانت تختفي خلف الحاجز تقريباً، سُمع صوت رشاش ماء غامض يصعد من جانب السفينة. وبدا كما لو أن بعض كائنات البحر خرجت إلى السطح، أو ربما انكسرت موجة صغيرة على جسد السفينة.

رُفِع علم السفينة ونُكِّسَ — ثلاث مرات تكرر ذلك.

وفي الأثناء شرع المهاجرون يتفرّقون. وسرعان ما بقي النعش الفارغ القاسي متروكاً وحده. لكن اثنين من البحارة جاءا وفكّكاه إلى قطع، وحملوا الألواح ونقلوا الإطار، بينما نُشر الشراع الرئيسي على اتساعه الكامل، وأبحرت السفينة تشارلوتا — ناقصة راكباً.

كان صباحاً مشرقاً في المحيط الأطلسي. وأطلّت الشمس أعلى والتمعت شعاعاتها على الماء الصافي حيث كانت السفينة قد ألقت قبل لحظة جزءاً من حمولتها. كان الأمر تقريباً كما لو أن ناراً كانت تشتعل تحت سطح البحر، وكأن لهيباً كان يحترق هناك.

الإبحار باتجاه منتصف الصيف

١

وقف روبرت وإيلين منحنيَين على حاجز السفينة، يراقبان الدلافين وهي تمرح إلى جانب السفينة. وبدت الأسماك السمينة المستديرة مثل خنازير رضيعة، وتقلبت في الماء مثلما تدور عجلة الطاحونة في جدولها. كانت هذه أكبر أسماك رآها الشاب والفتاة أبداً. لكن روبرت لم تكن لديه معدات صيد في المتناول. كانت قصباته وخيطانه وصنانيره قد حُفظت كلها في صندوق أميركا، بعيداً في غرفة المخزن تحت المهجع الرئيسي لدى المغادرة في كارلسْهامن —ولم يرها روبرت منذئذ.

كانت الريح الغربية الأزلية تهب؛ ولأنهم كانوا يصادفون ريحاً معاكسة، تحركت الدلافين أسرع من السفينة. وكانت تسبح وتقفز وتلعب حول قوس السفينة كا لو أنها تسخر من السفينة المنهكة البطيئة: ها نحن ذا! فأين أنتِ؟ من أيّ مكان بعيد أتيتِ؟ وأي نوع من براميل لحم الخنازير العتيقة أنتِ، وأنت تخوِّضين هكذا؟

أشارت إيلين إلى الماء حيث تلعب الدلافين: هناك كان الماء أخضر، وكانت قد رأت بقعاً مشابهة قبل ذلك خلال رحلتهم — كيف يحدث أن يكون البحر أخضر في بعض الأماكن؟ هل سرّبت سفينة ما صباغاً أخضر هناك؟ وفكر روبرت قليلاً قبل أن يجيب: ربما قصد الله ساعة الخَلق أن يكون البحر أخضر، ربما صنع في البداية بضع بحيرات كعيّنات بذلك اللون، ثم غيّر رأيه بعد ذلك وخلق الماء أزرق. ثم بعد ذلك، ربما يكون قد رمى البحيرات الخضراء في البحر هنا وهناك، كما لو لجعل بعض الفائدة لها.

كان هناك دائماً شيءٌ لمراقبته في البحر. لم يوافق روبرت مع المسافرين

الآخرين، ولم يكن يعتقد أن البحر كان مشهداً خَرِباً مقفراً، بحيث تصبح مشاهدته مُحبطة يوماً بعد يوم. في العاصفة، يكون البحر مشهداً جبلياً، فيه يتحرك كل مرتفَع ويتقلب. وفي الشمس والطقس الهادئ، يمتد البحر هناك منسرحاً مثل قماشة زرقاء وذهبية من الحرير أو الساتان، والذي يودّ أن يتحسسه بيديه. وفي الليل، في ضوء القمر، كان البحر يتكون من طرق واسعة مضيئة، لتسير عليها ملائكة السماء. كانت التلة أو الهضبة على اليابسة تبقى في البقعة نفسها، وتبدو نفس الشيء بالضبط في كل مرة يمر بها المرء. لكن البحر لم يكن هو نفسه أبداً.

خلال بضع ليال في وقت مبكر من الرحلة، فكر روبرت أنه سيموت في البحر. وبينما احتدمت العاصفة الأولى، استلقى في سريره، وقد تغطت جبهته بالعرق البارد الدبق، بسبب الخوف من الموت. ولم يحبّ أبداً تلك التجربة. حتى تكون ممتعة، فإن المغامرة لا ينبغي أن تنطوي على الخوف على الحياة. لكنه اعتاد البحر، والآن أصبح يشعر بالخجل عندما يفكر بخوفه خلال العاصفة الأولى. الآن يستطيع أن يذهب إلى السرير في الأمسيات بلا خوف من الغرق خلال الليل.

وبينما كانوا يقتربون من نهاية الرحلة المطولة الممطوطة، شعر بأنه أصبح يحب البحر. قريباً سيترتب عليه أن يغادره. وقد قيل إنهم ربما يتوقعون أن يروا اليابسة في أي يوم الآن. وفي كل يوم، تجمع المسافرون في مقدمة السفينة وبحثوا عن أميركا، كما لو يظنون أن الأرض أشبه بقطعة صغيرة ربما يمرون عنها ويفوتونها إذا لم يكونوا متيقظين. وأولئك منهم الذين يمتلكون تقاويم، وضعوا علامات على الأيام المنقضية بخطين متصالبين، قالوا إن الصيف سينتصف خلال بضعة أيام. ربما يصلون إلى شواطئ أميركا في عطلات منتصف الصيف.

«هل نقرأ في كتاب اللغة؟» سألت إيلين.

«إذا أردتِ، دعينا نفعل.»

أصبحت الآن توّاقة مثله لتعلم الكلمات الإنجليزية. وقد أصبح يشتبه الآن بأنها لم تعد تعتمد على الروح القدس لمنحها قوة استخدام اللغة الجديدة مباشرة بمجرّد الوصول. وقد ذكرها عدة مرات بأن هبوط الروح القدُس على الحواريّين

في أسبوع العنصرة الأول حدث قبل وقت طويل من اكتشاف أميركا، وقبل وقت طويل من اختراع اللغة الإنجليزية. ولذلك، لا أحد يعرف على وجه اليقين بأنه يمكن تعليمها بنفس الطريقة مثل لغات الإغريق، والعَيلاميين، والسوريين، والأقباط، التي تعلمها الحواريون في يوم واحد ـــ وهذا يوم أقدس من أن يعود.

في الكتاب المدرسي، وصل روبرت وإيلين الآن إلى فصل «البحث عن عمل.» وكان فصلاً مهماً؛ ففي اليوم الأول الذي يصلان فيه إلى أميركا، يجب أن يتعلما كلاهما كيف يكسبان رزقهما، ويجب على كل من يريد أن يكسب رزقه أن يعرف كيف يعثر على عمل.

قرر روبرت أخيراً أن عليهما لفظ الكلمات الإنجليزية كما هي مهجأة في الجمل الأول ويهملا الإملاء داخل الأقواس، والتي كانت تعقد اللغة وتربكها بالنسبة لهما.

هل يمكن أن تخبرني أين أحصل على عمل؟ — ماذا تستطيع أن تعمل؟

هنا يجب على الباحث عن عمل أن يجيب بأنه نجار، خياط، إسكافي، صانع لجامات، دبّاغ، غزّال، نساج، بناء، نادل، أو أي مهنة يسعى إلى ممارستها. لكنّ روبرت قفز عن كل هذا، إنه لم يكن يهتم بما يُسمى به صانع اللجامات بالإنجليزية لأنّه لم يكن يستطيع صناعة اللجامات على أي حال. بل لقد علق هو نفسه في جملة واحدة: أنا معتاد على عمل المزارع.

كان عامل مزرعة. وكان العمل الوحيد الذي مارسه هو عمل المزارع. وكانت الأعمال الوحيدة التي زاولها هي أعمال المزارع. وقد ناضل طويلاً هذه الجملة، لكنه أصبح يعرفها الآن، وكرر الكلمات ببطء وحاول أن يلفظها بعناية كما هي مكتوبة.

أنا معتاد على عمل المزارع. وأمل فعلاً أن يدهش الأميركيين في اليوم الأول بقدرته على إخبارهم بما يستطيع أن يعمل، وتمنى أن يقولها بشكل صحيح بلغتهم نفسها. أراد أن يكسب لنفسه الاحترام منذ اليوم الأول.

في الوطن في ليودر، عملت إيلين فقط مربية أطفال، لكنها تجاوزت الآن السنة السادسة عشرة من عمرها وأملت أن تعثر على وظيفة أكثر مناسبة

لامرأة بالغة. قرأت الفصل في الكتاب المدرسي تحت عنوان «أداء الأعمال المنزلية العادية.» وكان الفصل يعالج كل ساعة من ساعات عمل الخادمة في أميركا، وحثها روبرت بحماس على دراسة الفصل جيداً قبل أن يصلوا: بذلك سوف تحصل على الاحترام.

أنا الخادمة الجديدة. يجب أن تنهضي في السادسة صباحاً. أشعلي النار وضعي عليها الماء ليغلي. أحضري المكنسة واكنسي غرفة الطعام. نظفي الطاولة. اغسلي يديك قبل عمل الطعام.

عندما وصلت إيلين إلى هذا الجزء، نظرت إلى يديها اللتين كانتا بيضاوين ونظيفتين، تفوح منهما رائحة الصابون. كان الوقت مبكراً في الصباح وقد غسلتهما توّاً.

«في أميركا لا بد أنهم يظنون بأن كل الخادمات قذرات الأيدي،» قالت.

«إن الأميركيين يكرهون كل أنواع القذارة،» قال روبرت. «كل شيء أنظف في العالَم الجديد من العالَم القديم. لذلك سوف تكونين ملائمة تماماً هناك.»

«هل تعتقد حقاً أن على الخادمة أن تستيقظ قبل السادسة صباحا؟»

عن هذا، لم يجرؤ روبرت على قول أيّ شيء محدد. هناك احتمال لأن تتهمه بأنه قال لها شيئاً غير صحيح. ولذلك أجاب بحذر: «ربما لا يُسمح لها بأن تنام حتى وقت متأخر في كل الأماكن. لكني سمعت أن المزارعين يستطيعون النوم حتى الخامسة.»

عندما كانت إيلين تعمل مربية أطفال، كانت سيدتها توقظها دائماً في الرابعة صباحاً أو في الرابعة والنصف. وقد رغبت أن تنام وقتاً أطول في الصباح، والآن خاب أملها قليلاً من إجابة روبرت. كان قد قال ذات مرة إن النساء في أميركا يحظين بالعناية، وإذا كان هذا صحيحاً، فإنه سيكون من الصواب أن يُسمح لهن بالنوم وقتاً أطول من الرجال.

تأرجحت الدكة ببطء تحت أقدام الشاب والفتاة، وأحاط بهما عالَم البحر المتبدِّل، ونفس الأمواج الأزلية حملتهما ومضت بهما نحو عالَم جديد حيث ينبغي أن يجدا طريقهما. وجلسا متقاربَين معاً، وبلسانيَن عصيّين عديميّ الخبرة، حاولا أن يتعلما لغة جديدة — بجدية وإصرار ناضلا الجمل الإنجليزية، قارئَين

الكلمات بصوت عالٍ كما هي مكتوبة.

أنا معتاد على عمل الزراعة. أنا الخادمة الجديدة.

بهاتين الجملتين، يجب أن يجعل المهاجران الشابان الأميركيين يعلمون أيّ نوع من الناس كانا، ويجب أن يلفظاهما بشكل صحيح، ويكسبا الاحترام. كان ذلك مهماً جداً لمستقبلهما.

٢

كانت السفينة الشراعية تشارلوتا تبحر باتجاه منتصف الصيف.

كان النسر في مقدمتها ما يزال ينظر باستمرار باتجاه الغرب، عيناه مغسولتان وصافيتان بالرذاذ. والصاريان الطويلان — شجرتا التّنوب المقطوعتان من الغابات في وطن السفينة— انحنيا بعظمة مثل سفينة مذهّبة على أودية المَوج، ونهضا بفخار مرة أخرى بينما يحملان الأشرعة كل مسافة البحر، عائدين دائماً إلى كامل قامتهما ثانية، بفخار، بتحدّ. وقد انحنيا قليلاً أمام هجمة الريح، تحت وطأة العواصف، لكنهما عادا دائماً ونهضا ثانية. كانا شجرتي صنوبر ضئيلتين ونحيلتين، تبدوان شديدتَي الدقة في جزأيهما العلويين بحيث يمكن كسرهما بالأصابع — لكن أشرعة السفينة تحمّلت بهذين عواصف كل الفصول في البحر. كان الصاريان شجرتي صنوبر من أرض صغيرة بعيدة، وجاءا من نفس المروج والأرض البور المليئة بالحجارة، مثل الناس على هذه السفينة — كانا على صلة بهؤلاء المرتحلين، كانا صلبين ولا يُقهران مثل الناس الذين يساعدان في حملهم عبر البحر.

قريباً، سيكونان قد قهرا المحيط مرة أخرى. أصبحت تشارلوتا الآن تلتقي بسفن أخرى يومياً، سفن شراعية وأخرى معدنية بخارية، كانت تتجاوز السفن، وكانت تسبقها سفن، لكنها أصبحت تبحر برفقةَ السّفن. كانت أسراب طيور البحر تزداد اصطداماً بأشرعتها. وفي الماء — الذي ما يزال حتى الآن غير ملوث لم تتغير زرقته الصافية— شرعت بالظهور بقع الوحل والمخلفات، وأبحرت مختلف الأشياء المهملة حولها على السطح. وكل الأمارات أشارت إلى أن الأرض أصبحت قريبة. وقريباً، لن تعود السفينة تبحر في البحر، وإنما ستدخل فمَ خليج عريض.

كانت الشمس عالية في السماء، تغسل الدكة بالدفء. وحُمل المسافرون المرضى إلى الأعلى من المهجع وتمددوا كل اليوم تحت شعاعات الشمس الشافية. وبينما يتعافون ببطء، شعروا بأنهم يستمتعون بشمس أكثر دفئاً من تلك التي كانت تشرق عليهم في الوطن. كان طقساً صيفياً عالياً، طقس منتصف الصيف.

تحسنت كريستينا بالتدريج بعد نزيفها في ليلة العاصفة. لكنها ما تزال أضعف من أن تقف على قدميها. وقد حملها كارل أوسكار إلى خارج القمرات المعتمة وسيئة التهوية إلى الأعلى على الدكة كل يوم عندما تشرق الشمس، وفي يوم كان إحساسها بقواها العائدة يزداد. وقد أتعبها أنها ما تزال تستلقي هناك بلا فائدة؛ إنها لا تستطيع أن تساعدهم الآن عندما يكون لديهم الكثير ليفعلوه: كانوا يهيئون أنفسهم للرسوّ.

بدأ المسافرون عمليّات التنظيف الكبير وانشغلوا بتحضير أنفسهم للوصول. كان هناك غسل وجلي وكشط في العنبر، وتم غسل الملابس وعصرها ونشرها لتجف. ملابس من كل الأنواع، ملابس الأحد، والملابس الداخلية وملابس النوم، كلها يجب تنظيفها وإصلاحها، وترقيعها ومعالجتها بالفرشاة. ولم تكن هذه أعمال جماعة الرجال، لكن على كارل أوسكار أن ينجزها الآن، وقد وجدها مهمة مملة. لقد تضررت الكثير من الأشياء في الرحلة الطويلة —تمزقت، اهترأت، تعفنت، وانتقعت بالقيء. وأصبحت الوسائد والحشيّات والأغطية ممزقة —وهذه لم يستطع أن يفعل سوى إلقائها في البحر. كل شيء تقريباً كانت رائحته عفنة وخبيثة — مثلها مثل المهاجع التي قضوا فيها أكثر من شهرين. وقد جمع، ورتّب، وتخلص من كومة كبيرة.

«يجب أن يكون هناك شخص يصلح الملابس والأحذية في السفينة. كان ليصبح صاحب عمل مزدهر.»

والآن، يتوجب عليه، مثل المسافرين الآخرين، أن يلقي بخرقه إلى البحر. وفكر أن جبلاً من المخلفات التالفة التي يتخلص منها المهاجرون سوف يتكون شيئاً فشيئاً قرب شطآن أميركا، لو أن قادماً جديداً رمى في البحر مثل هذا المقدار.

ظنت كريستينا أنه رمى أكثر مما يجب. بعض الأشياء في كومته كان يمكن

تنظيفها وإصلاحها، وكان يمكن أن تُستخدم أكثر. لكن كارل أوسكار شعر بالراحة في التخلص من الخرق العفنة، التي تذكّره بقلقه خلال العواصف ومحنة دوار البحر — أراد أن يحرّر نفسه من هؤلاء الشهود على متاعب العبور. سوف يعذّبه منظرها فحسب على اليابسة عندما يبدأون حياتهم الجديدة.

«لا أريد الشعور بالخجل بين الأميركيين.» قال. «إذا رأوا هذه الخرق، سيتساءلون أيّ نوع من الناس نحن.»

لم يعترف كارل أوسكار بأيّ دَين للوطن، حيث كوفئ كل كدحه بالقليل جداً، لكنه لم يرد أن يجلب العار على السويد في عيون الأميركيين: أراد أن يريهم أنها أرض لديها فلاحون نظيفون ومرتّبون، وبأن أولئك الذين جاءوا من هناك هم أناس محترمون ومنظّمون، حتى ولو أنهم لم يُحضروا معهم أكثر من فقرهم في الحقائب. أراد أن يكون أنيقاً بملابسه، وأن يبدو عاقلاً وخبيراً فيما هو يمر عبر بوابات العالَم الجديد.

تخلص من القديم بالخرق التي رماها من السفينة — والآن ينبغي أن يبدأ الجديد.

من أغطيتهم، احتفظ كارل أوسكار فقط بقطعة واحدة فقط: الغطاء العرائسي الأزرق الذي كانت قد حاكته كريستينا بنفسها. كان هو مبقعاً أيضاً، وفغرت فيه العديد من الثقوب أفواهها. وسالت الدموع من عيني كريستينا الآن عندما رأته الآن في ضوء النهار، ورأت كم أصبحت حالته سيئة. لكنها ربما تتمكن من غسله، وتزيل البقع المُقرفة، وتصلح الثقوب — بمجرد أن يصلوا وتعود إليها قوتها وصحتها. كان غطاؤها العرائسي أعزّ عليها من أي شيء آخر جلبوه معهم من الوطن. كان جزءاً من تأسيس بيتهم في السويد، وقد صنعت فراشها العرائسي معه، وناما هي وأوسكار تحته ست سنوات — خلال كل الفترة التي أمضياها زوجاً وزوجة. وهي تأمل الآن بأنهما ربما يستريحان تحته معاً مرة أخرى، ويستخدمانه لسنوات كثيرة. من المؤكد أنهما لن يكونا سعيدَين وناجحَين إلا إذا كان الغطاء العرائسي جزءاً من استقرارهم الجديد في أميركا.

خلال تجهيزهما للوصول، بيّن أوسكار أنه مفيد وبارع في أعمال النساء المنزلية، بحيث لم تملك كريستينا سوى الإعجاب به. وبدا أنه يستطيع أن يعمل كل شيء يريده تقريباً — إذا أراد أن يفعله. وقد عاد إليه الآن تنظيمه القديم،

وهو يصبح أكثر مرحاً كل يوم. قال إن منتصف الصيف أصبح وشيكاً، ولذلك ينبغي أن يستعيد طباعه في عطلته.

كلما اقتربوا أكثر من اليابسة، كلما عاد أوسكار إلى طبيعته.

٣

ذات يوم عند انبجاس النهار، أيقظ آرفيد روبرت بعد أن هز كتفه. «إنهم يرون أميركا!»

وارتدى روبرت الذي ما يزال نصف نائم بنطاله بسرعة، وخرج نصف نائم من الكوة الرئيسية إلى سطح السفينة وهو ما يزال يربط الأزرار. كان الكثير من المسافرين قد تجمعوا هنا في الأعلى، معظمهم من الرجال، لكن بعض النساء اللواتي نهضن باكراً كُنّ هناك أيضاً. وقد وقفوا جميعاً هناك بصمت في توقع جليل: لقد رأوا أميركا الشمالية.

حتى الآن، لم يكن هناك الكثير مما يمكن أن تراه العين. أبحروا عبر فم النهر العريض، في خليج كبير في البحر. ولم يكُن ضوء النهار قد اكتمل بعد، وتعلّق ضباب فوق الأرض: كانت أميركا ما تزال نائمة هذا الصباح، ولم تطو بعد غلالة الليل. وقد ارتفعت الأرض فوق مؤخرة السفينة ومقدمتها وجانبيها، لكنها بدت في الضباب الصباح متفرقة، مرئية في أماكن ومختفية عن الأنظار في أخرى. وحتى الآن، لم يستطع أحد بعد أن يميّز إذا كانت هذه الأرض عاقراً أم خصبة، غنية أم فقيرة، جميلة أم قبيحة. لكنهم وصلوا إلى شواطئ أميركا هذه، وقد أرضتهم هذه الحقيقة.

كانت سرعتهم في الخليج جيدة — الآن، خلال المرحلة الأولى من هذه الرحلة الطويلة، كانت الريح تهب معهم، وكانت أشرعتهم مليئة مثل تنورة امرأة في الريح. وقد ملأت الممر سفن لا حصر لها، سفن مُبحرة، مراكب شراعية، مراكب بخارية، سفن من شتى الأحجام والأنواع. كانت السفينة الشراعية تشارلوتا قد أبحرت طويلاً وحيدة في المحيط، والآن كانت بصحبة رفقة كبيرة.

قليلاً قليلاً ألقت الأرض عنها إزارها الصباحيّ. وببطء نهضت الشواطئ العارية. وسرعان ما نبغ قطاع مسكون من الأرض في طريق سفينتهم، مثل شبه جزيرة هائلة. هنا كشف الضباب المتلاشي بالتدريج عن مجموعة من الأسطح المتفاوتة، وأمكنت الآن رؤية صفوف طويلة من البيوت، وعالياً فوق السطوح امتدت الأبراج والقمم المستدقّة، تماماً مثل أبراج الكنائس في الوطن. أمامهم تقع بلدة، أعظم من أي بلدة سبق لهم أن شاهدوها أبداً. وعندما اكتمل ضوء النهار، استطاعوا أن يروا ميناءهم: نيويورك.

وقف روبرت وآرفيد على مقدمة السفينة، بالسكون الذي يستطيع أن يقف به الناس على دكّة متحركة. وإلى جانبهم وقف مُساعد القبطان الثاني، الفنلندي، الذي شارك في كل واحدة من رحلات تشارلوتا إلى أميركا الشمالية. قال لهما إن الأرض التي رأياها كانت مجرد جزيرة كبيرة. كانت تسمى أصلاً «مانا—هاتا» التي هي كلمة هندية — اسم إله محبوب بين الهنود، كما سمع. وقد عاش الإله على جزيرة مانا—هاتا الجميلة هذه لآلاف السنين، حتى غمرها ذات مرة النهر، وأجبره على الرحيل. الآن، أصبح الناس في الغالب هم الذين يقطنون هنا، لكن الفنلندي لم يكن قد ذهب أبداً إلى أي كنيسة بينما يكون في الميناء، ولذلك لم يكن متأكداً أي إله —إذا كان ثمة واحد— هو الذي يسكن مانا—هاتا في هذه الأيام.

اتجهت تشارلوتا إلى الشاطئ الذي بدا لهم مبنياً من الحصون والأرصفة. ولكن، فوق هذه جميعاً، ارتفعت أيضاً بناية هائلة مستديرة صفراء رمادية، ذات برج مستدير عظيم. وتساءل روبرت عمّا يكون.

«يدعى هذا قلعة غاردن، إنه قلعة.»

ولم يعرف روبرت ما هي القلعة، ولم يكن قد سمع بهذه الكلمة من قبل، لكنه لم يرغب السؤال. وبدلاً من ذلك، سأل آرفيد المساعد.

«القلعة هي نفس الشيء مثل السجن.» قال المساعد.

ونظر إليه روبرت بعينين مفتوحتَين على وسعهما. ذلك البيت الأصفر الرمادي ذو البرج الهائل المستدير هو سجن؟ هناك إذن أناس مسجونون في

البيت الذي يدعى قلعة غاردن. لم يكن قد تخيل أبداً أن يكون أول منزل يرونه في أميركا سيكون سجناً، بيتاً حيث يُحتجز الناس عندما يفقدون حريتهم. وقال إنه توقع بالكاد أن يعثر على أي سجون في الولايات المتحدة لأميركا الشمالية، حيث تتم إبادة كل الشرور والمجرمين.

ثم فسّر لهم المساعد أن قلعة غاردن لم تعد تستَخدم كسجن. ولم يكن هناك سجناء بعد —وإنما أصبحت بدلاً من ذلك مكاناً جيداً، حانة. وهو يعرف — لأنه كان هناك هو نفسه. الثمن جيد، والبيرة من النخب الأول. ويستطيع المرء أن يأكل هناك حتى يشبع، ويحصل على شراب جيد أيضاً. وفي أيام الأحد، تصبح الحانة مكتظة، ويجلس الناس على رُكب بعضهم البعض بينما يأكلون ويشربون. كانت قلعة غاردن في الحقيقة حانة جيدة ملعونة، مكاناً حيث يكون المرء حراً بقدر ما يريد، ويستخدم سكينه في شجار وكل أنواع التسلية الأخرى.

وإذن، كان الأمر حقاً كما كان روبرت قد فكر بأنه سيكون: إن السجون في أميركا ليست سجوناً فيها مساجين في الحقيقة، كما كان الحال في السويد، وإنما هي حانات جميلة، فيها ضيوف يستطيعون إمتاع وتسلية أنفسهم بأقصى قدر يستطيعونه. لا شك في ذلك، كانت أميركا أرضاً لها حكومة عطوفة.

٤

وقت قليل فقط مرّ قبل أن يتجمع كل ركاب تشارلوتا على الدكّة. وأولئك الذين لم يستطيعوا الزحف إلى الأعلى بأنفسهم حملَهم الآخرون: أصبحت أميركا مرئية، وأراد الجميع أن يروا. رأوا بيوتاً، وكنائس، وجسوراً، وأرصفة ميناء، وشوارع وطرقات، وأناساً وعربات. لكن عيون المهاجرين افتقدت شيئاً —وقد بحثوا بلا طائل عن شيء لم تعرضه شواطئ أميركا بعد. كانت عيونهم تفتش عنه خلال كل الممر إلى الخليج — وأخيراً عثروا عليه، على اللسان الناتئ من الأرض فوق مقدمة السفينة: خلف البيت الكبير ذي البرج المستدير، كان الضباب الصباحي ينقشع، كاشفاً عن غيضة من الأشجار — أشجار ذات أوراق كبيرة وكثيفة، وعشب على الأرض حول الأشجار. كان الشاطئ الذي

غادروه في كارلسْهامن شاطئاً قاتماً — وهنا، استقبلهم شاطئ مضيء. وقد نبتت الأشجار والأجمات هناك، والأوراق والأغصان الخضراء، والأعشاب والحشائش: أخيراً، استطاعوا رؤية الأرض الخضراء.

الرحلة الطويلة، بكل عواصفها، ومتاعبها، ومعاناتها وأمراضها — الحبس الطويل في السفينة طوال أيام بلا نهايات— كل ذلك نخر عميقاً حيوات المهاجرين وأرواحهم. وعمل الإسقربوط وحمى السفينة على إنهاك مقاومتهم. ومن الحياة الرتيبة على السفينة، أصبحوا محبطين وفاقدي الهمة، وتوقف الكثيرون عن الاهتمام بما قد تجلبه عليهم الحياة والأقدار. لكن هذه الرؤية الجديدة تكشفت الآن أمامهم، قليل من الأرض الحية في جوارهم — وعرفوا لأنهم قطعوا البحر بسلام، وأصبحوا هنا حيث تتمدد الأرض أمام أعينهم مرة أخرى.

وقفوا محتشدين معاً على الدكّة مثل قطيع من الماشية — مقيدين معاً في أكشاك الزرائب طوال فترة الشتاء الطويل، يمدون أعناقهم أخيراً ويستديرون باتجاه الباب عندما انبعثت رائحة الربيع والعشب الطازج والمروج: قريباً سيُسمح لهم بالخروج، قريباً سوف ينتهي حبسُهم. وفي هذه اللحظة، سيطر على المهاجرين طاقة وطموح جديدان. أحسّوا بأنهم مبتهجون، جسورون، مولودون جديدون، كما لو أن روحاً طازجة نُفخت في صدورهم.

الآن، يشعر مرضى الإسقربوط بأنهم سيتعافون. والمنهكون بأنهم يعودون إلى الحياة ثانية، وبأن قوة جديدة تدبّ في أجسادهم. ثمة قوة طازجة تدب في المتعبين، ومبادرة تعود إلى المحبطين، وجرأة إلى الخائفين. وها هي روح اللامبالاة تغادر عقولهم، بينما ينفضّ الضباب عن الأرض في هذا الصباح.

كان هيجان الحنين إلى الأرض هو الذي قبض على المسافرين في تشارلوتا. وقد أوهنت الحياة في البحر أجسادهم وأرواحهم. وكان هيجان الأرض يجلب لهم قوة جديدة. لقد رأوا الأرض الخضراء أخيراً مرة أخرى. كباحثين عن أرض جديدة جاءوا مبحرين من الأرض — والآن عادوا إلى الأرض، وأحسّوا بالحياة وهي تعود.

٥

رست السفينة السويدية الصغيرة على رصيف الميناء. وأُنزِل الدرج المتحرك، وشرع المسافرون بالنزول من السفينة. واستقبلهم يوم صيفيّ حار في الأرض الجديدة.

تجمعت العائلة من كورباموين في مجموعة، منتظرين دورهم. على إحدى ذراعيه، حمل كارل أوسكار ابنه الأصغر، وأحاط بالأخرى خصر زوجته. أرادت كريستينا أن تسير نازلة الدرج على ساقيها. وكان الكثيرون من المسافرين قد صعدوا إلى الدكّة للمرة الأولى منذ فترة طويلة اليوم، وبعضهم كانوا ضعفاء جداً بحيث ينبغي حملهم إلى الشاطئ. لكن كريستينا قالت لكارل أوسكار إنها لم ترد أن يقال إنها لم تستطع السير إلى أرض أميركا على ساقيها. لن تكون تلك بشارة حسنة إذا تم حملها إلى الشاطئ. لكن أطرافها كانت ضعيفة، مع ذلك، وقد اتكأت بثقل على زوجها. واعتنى روبرت بيوهان وليل—مارتا، ووقف هناك ممسكاً بطفل في كل يد. لم يكن الأولاد مستيقظين تماماً بعد، وكانوا منزعجين وكثيري الشكوى، وخائفين من كل هذا الضجيج والتزاحم على الهبوط. وأراد هارالد الصغير أن ينزل من ذراعي والده. لقد أراد هو أيضاً أن يمشي على قدميه الخاصتين.

كان الأولاد شاحبين وهزيلين، وقد تدلى الجلد مترهلاً على أطرافهم، لكنهم سيتحسنون قريباً بتناول الطعام الطازج على الأرض. كان طفل رابع ما يزال يغفو في اللاوعي في حماية الأم. وسوف تكون هذه الحياة التي لم تولد بعد هي الأولى بين مسافري تشارلوتا التي ستحصل على المواطنة في جمهورية أميركا الشمالية.

من بين الأشخاص الستة عشر الذين هاجروا من أبرشية ليودر وتجمعوا في تقاطع أكيربي ذات صباح كئيب بارد في أول أبريل، وصل خمسة عشر إلى عتبات قارة جديدة. كان أحدهم مفقوداً. ومن بين الثمانية وسبعين شخصاً الذي غادروا من كارلسهامن، وصل سبعون. لقد تخلت تشارلوتا عن ثمانية من مسافريها للمحيط.

لكن كارل أوسكار وصل بعائلته كلها من حوله، وهو نفسه وقف هناك،

سالماً معافىً ومليئاً بالرضا العميق لأنهم سافروا جميعاً بأمان فوق البحر.

ولم يقلق بشأن الرحلة على اليابسة، حيث يقف كل شيء ثابتاً تحت قدميه. ومن أجل الهبوط، كان قد لمّع حذاءه العالي الجميل، الذي كان قد جربه للمرة الأولى في الأمسية الأخيرة لهم في منزلهم القديم. وبالشحم المستخلص من جلد خنزير كبير، دهن الجلد حتى أصبح أسود لامعاً. كان حذاؤه من أجود الجلود، مصنوعاً من جلد ثور مدبوغ بالبلوط. كان ينتعل حذاءً جيداً — فهم يعرفون كيف يصنعون أحذية جيدة في الوطن. وبهذا الحذاء كان مجهزاً جيداً. وإذا كانت الطرق في أميركا رديئة، فإنه سوف يعبرها بهذه الأحذية في قدميه.

وبغير ذلك، كان هو وكل زملائه المسافرين سيئي التجهيز. وعندما حطت سفينتهم أخيراً بعد هذا السفر الطويل، أصبح المهاجرون متهالكين ومهترئين بالوجوه والملابس. ويجب أن يذهبوا الآن إلى الشاطئ في نفس الخرق التي أبلوها خلال الرحلة الطويلة، ولم تكن هذه تشبه الملابس التي يرتديها المرء في المهرجانات. وقد بدا الرجال والنساء على حدّ سواء مثل دجاجات منتوفة الريش. وعندما جمعوا ممتلكاتهم معاً —العلب، والحزم، والسلال، والصناديق التي طُرحت معاً في كومة على الدكّة— بدت السفينة عندئذ مثل عربة غجر كبيرة محملة بحمل شاهق. وعندما قادوا عرباتهم إلى بلدة كارلسهامن الساحلية، شبه يوناس بيتر المهاجرين من ليودر بقافلة غجر. وفي مكان نزولهم من السفينة، أصبحت هذه المقارنة أكثر مناسبة مما كانت حينذاك.

ولكن، ومهما بدوْا مهلهلين وواهنين، مهما أصبحوا بائسين وفقيرين — فقد قبلتهم أميركا الشمالية.

لقد حان وقت عبور السلم إلى اليابسة. وكان رصيف الميناء عالياً وسفينتهم الصغيرة منخفضة جداً —وأصبح السلم مرتقىً مُنحدراً. لكن كريستينا استخدمت كل قوتها، ومشت إلى الأرض بنفسها. كما أنزِل هارالد الصغير عن الذراعين أخيراً، ومشى على السلم إلى جانب والده. حتى أصغر فرد في العائلة من كورباموين مشى على قدميه الخاصتين إلى أميركا.

ولكن، ولدى الخطوات الأولى على الأرض الصلبة، وقف كارل أوسكار في مكانه ثابتاً: لقد دار رأسه — وأحس بالدوار. وتمايلت الأرض تحته تماماً كما فعلت الدكّة. وقد جعله الدوار يتعثر قليلاً. ولم يكن قد شعر بهذه الطريقة

في البحر ولو مرة واحدة. والآن، عندما وقف على الأرض الثابتة أخذه الدوار وأصبحت ساقاه تتأرجحان. ولم يستطع فهم ذلك. ربما نسي كيف يمشي على الأرض الصلبة، ربما ينبغي أن يبدأ جديداً، كما ينبغي أن يفعل بحياته كلها. ولكن، في هذه الأرض الجديدة المجهولة، التي دخلها الآن، يجب عليه أن يقف بثبات على ساقيه. هذا هو القدر الذي كان يعرفه.

كانت أمسية في منتصف الصيف، في العام ١٨٥٠، عندما ألقت السفينة ذات الصاريين تشارلوتا من كارلسْهامن مراسيها في ميناء نيويورك، بعد عشرة أسابيع من الإبحار من الميناء في وطنها. وغير واثقة، غير آمنة، وغير مستقرة كانت خطوات المهاجرين الأولى على التراب الأميركي.

المهاجرون، مونتيري، كاليفورنيا، آب (أغسطس)، ١٩٤٩


Twitter: @ketab_n

الكتاب الذي اختاره الشعب السويدي ليكون كتاب القرن العشرين.
كتاب فيلهلم موبيرغ «المهاجرون» هو قصة ملحمية تحكي قصة هجرة السويديين إلى أميركا الشمالية.

«دافئ ومنسوج بعناية... مكتوب بروعة، ومؤثر بعمق.»

نيويورك ريفيو أوف بوكس

«من الواضح أن (المهاجرون) هي عمل موبيرغ الرئيسي..
إنه يكتب بوضوح وقوة.»

نيويورك هيرالد تربيون بوك ريفيو

كانت أمسية في منتصف الصيف، في العام ١٨٥٠، عندما ألقت السفينة ذات الصاريين تشارلوتا من كارلسهامن مراسيها في ميناء نيويورك، بعد عشرة أسابيع من الإبحار من الميناء في وطنها. وغير واثقة، غير آمنة، وغير مستقرة كانت خطوات المهاجرين الأولى على التراب الأميركي.

في«المهاجرون» يصوّر موبيرغ تلك الانتقالة المفصلية في حياة المهاجرين، ويتعقب بحساسية هائلة تناوب مشاعر الأمل والحنين، والظروف التي ترغم الإنسان على اختيار المنفى.

ISBN 978-91-87333-04-0



دار المنى